رواية

#955

فيليب روث



التآمُر على أميركا

مكتبة



ترجمة: أسامة منزلجي

التآمُر على أميركا



Author: **Philip Roth** | اسم المؤلف: فيليب روث

Title: **The Plot Against America** | عنوان الكتاب: التآمر على أميركا

Translated by: **Osama Menzlchi** | ترجمة: أسامة منزلجي

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2021** | الطبعة الأولى: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون – شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272



فيليب روث

التآمُر على أميركا

ترجمة : أسامة منزلجي



إهداء المؤلِّف

إلى س.ف.ر

فيليب روث

وُلِـدَ فيليب روث في نيوارك، نيو جرسي، في عام **1933**. تلقّى تعليمه في جامعة بكْنِلْ وجامعة شيكاغو. منذ عام **1972** وهو يُقيم في كونكتيكت.

في عام **1997** فاز فيليب روث بجائزة بوليتزر عن رواية «*حكاية رعوية أميركية*». وفي عام **1998** تلقّى الوسام الوطني للفنون في البيت الأبيض، وفي عام **2000** حصل على أعلى جائزة من الأكاديمية الأميركية للفنون والآداب، وسام القصة الذهبي، الذي كان قد حصل عليه قبله جون دوس باسوس، ووليم فوكنر، وشاؤول بيلو، وغيرهم. وقد نال مرتين جائزة الكتاب الوطني، جائزة بن/ فوكنر، وجائزة نقاد الكتاب الوطني. وفي عام **2005** حاز على روايـة «*التآمر على أميركا*» جائزة جمعية المؤرّخين الأميركيين على «الرواية التاريخية الرائعة حول موضوع أميركي لموسم **2003-2004**». رواياته الأخيرة: «*إنسان عادي*»، «*السخط*»، «*الانهزام*»، أما آخر رواية صدرت له فهي «*النقِمة*» عام 2010. توفي عام 2018.



-1-

حزيران 1940 – تشرين الأول 1940

صوِّتوا لليندبرغ[1]، أو صوِّتوا للحرب

إنَّ الخوف يُهيمن على هذه الذكريات، خوف دائم. طبعاً لا تخلو طفولةٌ من فترات رعب، لكنني أتساءل إنْ كنتُ سأصبح أقلّ خوفاً لو أنَّ ليندبرغ لم يكن رئيساً أو لم أكن أنا يهودياً.

عندما وقعَت الصدمة الأولى في حزيران من عام **1940** – ترشيح تشارلز أ. ليندبرغ، بطل الطيران الأميركي، من قِبَل المؤتمر الجمهوري الذي عُقِدَ في فيلادلفيا، لرئاسة الجمهورية – كان والدي في التاسعة والثلاثين، يعمل ممثّلاً لشركة تأمين وحاصلاً على الشهادة الابتدائية، ويكسب أقلّ من خمسين دولاراً بقليل في الأسبوع، وهو مبلغ كافٍ لتسديد الفواتير الأساسية في موعدها ويزيد قليلاً. وأمي – التي كانت تود أنْ تلتحق بمعهد المعلمين ولكنها لم تتمكن من ذلك بسبب التكاليف، ولزمت المنزل وعملتْ سكرتيرة مكتب بعد إنهاء المرحلة الثانوية، وأبعَدَت عنا الشعور بأنّنا فقراء خلال أشد مراحل فترة الكساد الاقتصادي سوءاً بوضع ميزانية لِما كان والدي يكسبه ويُحضره إليها في كل يوم جمعة بكفاءة عالية لا تقل عن كفاءتها كمدبّرة منزل – كانت في السادسة

1- تشارلز أوغستوس ليندبرغ (1902–1974): الطيار الأميركي الذي قام للمرة الأولى بقطع المحيط الأطلسي بالطائرة من دون توقف، في عام 1927. – المترجم

والثلاثين. أخي، ساندي، في الصف السابع وصاحب موهبة خارقة في الرسم، كان في الثانية عشرة، وأنا، في الصف الثالث ومتقدم بمقدار فصل - وجامع طوابع مُبتدئ ألهَمَه كما كان حال ملايين الأطفال رائدُ جمع الطوابع في البلد كله الرئيس روزفلت - كنتُ في السابعة.

كنا نعيش في شقّة في الطابق الثاني من مبنى عائلي صغير مؤلَّف من طابقَين ونصف الطابق في شارع تصطفُّ على طوله الأشجار ومؤلَّف من منازل خشبيّةِ الواجهات وأسطح مائلة من القرميد، وتعلو سطح كلٍ منها قُبّة وأمامه فناء صغير جداً مُحاط بسياج من الشجيرات المنخفضة. كان القِطاع اليهودي قد بُنيَ على أرض مزرعة عند الطرف الجنوبي الغربي غير المتطور من نيوارك بُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، سُميَ عددٌ من الشوارع، بفخامة، بأسماء قادة ظافرين في سلاح البحرية في الحرب الأسبانية-الأميركية وسُميَتْ دار السينما المحلية، على اسم نسيب بعيد لفرانكلين ديلانو روزفلت - ورئيس البلاد السادس والعشرين - سينما روزفلت. وشارعنا، جادّة سميتْ، الذي يتبوّأ قمة تل مُجاور، مُرتَفَع لا يختلف في علوّه عن أي تل في مدينة مرفأ نادراً ما يزيد ارتفاعه على مئة قدم عن سطح المستنقع المالح الناتج عن حركة المدّ والجزر في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة والخليج العميق الذي يقع إلى الشرق من المطار الذي ينعطف حول حاويات النفط في شبه جزيرة بايون ويمتزج هناك مع خليج نيويورك ليتدفَّق ماراً بتمثال الحرية، ثم يغوص في الأطلسي. وعند النظر عبر نافذة غرفة نومنا الخلفية غرباً يمكننا أحياناً أنْ نرى داخل اليابسة وحتى خط الأشجار القاتم لواتشونغ، وهو سلسلة منخفضة من الجبال تحدّها عقارات مترامية، وضواحٍ غنية، قليلة السكان، تمثّل الحدود القصوى للعالم المعروف - وتقع على مسافة ثمانية أميال من منزلنا. وعلى مسافة قريبة إلى الجنوب كانت تقع بلدة هيلسايد الخاصة بطبقة العمال، وسكانها في الغالب من غير اليهود. وحدود بلدة هيلسايد هي بداية ولاية يونيون، وهي نسخة طبق الأصل من نيو جرسي.

في عام **1940** كنا عائلة سعيدة. كان والداي دائميّ الخروج من المنزل، ومضيافَين، اختارا أصدقاءهما من بين زملاء أبي في العمل ومن النساء اللائي كنَّ مع أمي يُساعدنَ في تنظيم اتحاد الآباء والمعلّمين في مدرسة جادة تشانسلر المبنيّة حديثاً، وكنتُ مع أخي ندرس فيها. كلهم كانوا من اليهود. ورجال الحي أيضاً كانوا إما لهم تجارتهم الخاصة - مُلاّكاً لمحال بيع الحلويات، أو البقالية، أو بيع مجوهرات، أو بيع ملابس، أو بيع مفروشات، أو محطة وقود، أو بيع المعلبات، أو مُلاّكاً لمحال صغيرة للصناعات من خط نيوارك-إرفنغتُن، أو عمّال سمكرة، وعمال كهرباء، ودهّانين، وصانعي مراجل يعملون لمصلحتهم الخاصة - أو باعة متجولين مثل والدي، يخرجون في كل يوم إلى شوارع المدينة وإلى منازل الناس، يبيعون بضائعهم على أساس العمولة. والأطباء والمحامون اليهود والتجّار الناجحون الذين يملكون مخازن كبيرة في قلب البلد كانوا يعيشون في منازل العائلات الواحدة في شوارع تتفرَّع ناحية المنحدر الشرقي لتل جادّة تشانسلر، بالقرب من متنزّه اليهود العام الكثيف الأشجار والعشب، وهو مشهد طبيعي مساحته ثلاثمئة أكر تفصل بركةُ التجديف فيه، ومضمارُ لعبة الغولف، ومضمار سباق الخيل منطقةَ اليهود عن المصانع ومحطات انطلاق سفن الشحن على طول الطريق رقم 27 وجسر سكة حديد بنسلفانيا إلى الشرق من ذلك والمطار المُزدهر إلى الشرق منه وطرف حافة أميركا إلى الشرق منه - مستودعات ومراسي مرفأ نيوارك، حيث يُفرغون البضائع من كل أرجاء العالم. وعند الطرف الشرقي للحي، الطرف الخالي من أي متنزّه عام حيث كنا نعيش، هناك كان يُقيم أستاذ مدرسة غير دائم أو صيدلي وفيما عدا ذلك كان هناك بضعة محترفين من بين جيراننا المُباشرين وطبعاً لم يكن هناك أيٌّ من عائلات المقاولين أو أصحاب المصانع المزدهرين. كان الرجال يعملون خمسين، أو ستين أو حتى سبعين ساعة أو أكثر في الأسبوع؛ وكانت النسوة يعملن طوال الوقت، من دون مساعدةِ أدواتِ توفير الجهد،

يغسلن الملابس، ويكوين القمصان، ويرتقنَ الجوارب، ويقلبن الياقات، ويُثبّتن الأزرار، ويزلن العث عن الملابس الصوفية، ويُلمّعن قطع الأثاث، ويكنسن الأرضيات ويغسلنها، ويُنظّفن النوافذ، والبالوعات، وأحواض الاغتسال، والمراحيض، والمدافئ، وينفضنَ الأبسطة، ويرعين المرضى، ويشترين الطعام، ويطبخن الوجبات، ويُطعمنَ الأقارب، ويُرتّبن دواليب الملابس والأدراج، ويُشرفنَ على عمليات الدهان والإصلاح في المنزل، ويُعددنَ لإقامة الطقوس الدينية، ويُسددنَ الفواتير ويُدرن سجلات العائلة وفي الوقت نفسه يسهرن على صحة أطفالهن، وملابسهم، ونظافتهم، وتدريسهم، وتغذيتهم، وحُسن سلوكهم، وأعياد ميلادهم، وانضباطهم، ومعنوياتهم. قليل من النساء كنَّ يكدحن مع أزواجهن في المحال التجارية التي تملكها العائلة في شوارع المحال التجارية المجاورة، يُساعدهنّ بعد انتهاء دوام المدرسة وفي أيام السبت أولادهنَّ الأكبر سناً، فيوصلون الطلبات ويعتنون بالمخزون ويقومون بالتنظيف.

كان العمل هو ما يُميِّز ويُعرِّف جيراننا بالنسبة إليّ أكثر من الدِين بكثير. لا أحد في الحي كان يُرسِل لحية أو يرتدي أزياء عتيقة من العالم القديم أو يعتمر قلنسوة ضيّقة سواء خارج أو داخل المنازل التي كنتُ أتردَّد عليها روتينياً مع أصدقاء طفولتي. ولم يعُد الراشدون يتقيّدون جدياً بالسلوكيات الظاهرية، الملحوظة، هذا إذا افترضنا أنهم كانوا يتقيّدون بها أصلاً، وبغضّ النظر عن أصحاب الدكاكين الأكبر سناً كالخيّاط وبائع اللَّحم الحلال - والشيوخ المرضى والعجزة الذين يعيشون في فاقة مع أولادهم البالغين - لم يكن أحد في الجوار يتكلَّم مع لكْنة. وبحلول عام 1940 كان الآباء اليهود وأولادهم في الزاوية الجنوبية الشرقية من أكبر مدينة في نيو جرسي يتحادثون باللّكْنة الإنكليزية الأميركية التي بدتْ أقرب إلى اللغة المحكية في بلدتيّ ألتونا أو بنغامتن منها إلى اللهجات المحلية المحكية كما هو معلوم على الطرف المقابل من نهر هدسن من قِبَل نظرائنا من اليهود في الأقسام الإدارية الخمسة. وكانت الكتابة

اليهوديّة تُرى على واجهة محل اللحّام وتُرى منحوتة على عتبات نوافذ الكنائس اليهوديّة الصغيرة المُجاورة، ولكن لم يكن أحد يرى في أي مكان آخر (ولا حتى في المقبرة) أبجديّة كتاب الصلوات ولا الأحرف المألوفة للّغة المحكيّة التي يستخدمها طوال الوقت كلّ شخص حتماً لكل غرض يمكن تصوّره، في كل المجالات. وعند كشك بيع الصُحُف الكائن أمام متجر السكاكر عند المنعطف، كان عدد الذين يشترون صحيفة «*مضمار السباق*» يفوق عشرة أضعاف الذين يشترون الصحيفة اليوميّة المكتوبة باللغة اليديّة «*التقدُّم*».

لم تكن دولة إسرائيل قد أُنشِئتْ بعد، ولم يكن ستة ملايين من اليهود الأوروبيين قد اختفوا عن الوجود، وكانت الصِلة المحليّة الوثيقة لفلسطين النائية بالأمر (وكانت تخضع للانتداب البريطانيّ منذ أنْ قضى الحلفاء المنتصرون عام 1918 على آخر الولايات النائية للإمبراطوريّة العثمانيّة المندحرة) لغزاً بالنسبة إليّ. فعندما يظهر شخصٌ غريب يُنمّي لحية ولم يُرَ أبداً من دون قُبّعة مرّة كل بضعة أشهر بعد هبوط الظلام ويطلب بلغة إنكليزيّة ركيكة المُساهمة في تأسيس أرض وطن يهودي في فلسطين، لم أكنْ أفهم تماماً، أنا الطفل غير الجاهل، ماذا يفعل على عتبة منزلنا. كان والداي ينفحانني أو ينفحا ساندي قطعتين نقديَّتين لكي نُسقِطهما في صندوق إعانته، ولطالما كنتُ أعتقد أنَّ الهِبة الممنوحة هي بدافع الرأفة تجنّباً لجرح مشاعر الرجل العجوز الفقير الذي بدا، من عام إلى عام، أنّه لا يستطيع أنْ يفهم أنَّ لدينا أرضَ وطنٍ منذ ثلاثة أجيال. في المدرسة كنتُ أُقدِّمُ واجب الولاء لعلم وطننا الأم في صباح كل يوم. كنتُ أُنشِدُ عن منجزاته الرائعة مع أقراني في غرفة الدرس في برامج التجمُّع. كنتُ أهتم باشتياق بالعُطل الوطنيّة، ومن دون أنْ أولي أدنى اهتمام بصِلتي بالألعاب الناريّة بمناسبة الرابع من تموز أو بديك عيد الشُكر أو بمباريات يوم الذكرى. كانت أميركا هي وطننا الأم.

ثم رشَّحَ الجمهوريون ليندبرغ وتغيَّر كل شيء.

بقيَ ليندبرغ عظيماً بحجم بطل على امتداد ما يُقارب العقد من الزمن في حيّنا كما في كل مكانٍ آخر. كان إكماله طيرانه وحيداً من دون توقّف طوال ثلاثٍ وثلاثين ساعة ونصف الساعة من لونغ أيلند إلى باريس في الطائرة الصغيرة المُخصَّصة لراكبٍ واحد «*روح سينت لويس*» قد تزامن حتى مع يومٍ في الربيع من عام 1927 عندما اكتشفَتْ أمي أنّها حامل بأخي الأكبر. ونتيجة ذلك، احتلّ الطيّار الشاب الذي بثّت شجاعته الإثارة في أميركا وفي العالم أجمع والذي تنبّأ إنجازه بمُستقبلٍ من التقدُّم في مجال الطيران لا يمكن تصوّره جاء ليحتل مكانة خاصة بين سلسلة من مآثر العائلة التي أفرزتْ أول قصّة بطوليّة متماسكة أنجزها طفل. لقد اجتمع لغز الحَمْل وبطولة ليندبرغ من أجل إضفاء تميُّز يصل حتى الألوهيّة على أمي أنا، التي بالنسبة إليها لم يُرافق تجسُّد ابنها الأول أقلّ من بشارة كونيّة. ولاحقاً سوف يُسجل ساندي هذه اللحظة برسمٍ يُمثّلُ تجاوُر هذين الحَدَثَين الرائعَين. وفي الرسم – الذي أكمله في سن التاسعة ويمتُّ بصِلة غير مقصودة لفن المُلصقات السوفييتي – تخيّلها ساندي على مسافة أميال من منزلنا، وسط حشد مرِح عند منعطف شارعيّ برود وماركت، على هيئة امرأة شابة في الثالثة والعشرين ذات شعر فاحم وابتسامة مُفعمة بالبهجة، والمُدهِش أنّها تقفُ وحدها وتضع مئزر المطبخ المُرصَّع بأشكال الورود عند تقاطُع أشد شارعي المدينة ازدحاماً، إحدى يديها ممدودة على طولها عبر مُقدّمة مئزرها، حيث اتساع وركيها ما زال جديرَاً بشكل خادِع بفتاة صغيرة، بينما وحدها بين الحشد تشيرُ بالأخرى إلى السماء نحو طائرة روح سينت لويس، التي تعبُر كما هو ظاهر فوق قلب مدينة نيوارك بالضبط في اللحظة التي أدركتْ أنّه، في إنجازٍ لا يقلّ بطوليّة عن إنجاز إنسان مثل ليندبرغ، حبلَتْ بسانفورد روث.

كان ساندي في الرابعة وأنا، فيليب، لم أكنْ قد وُلِدتُ بعد عندما اختُطِفَ طفل تشارلز وآن مورو ليندبرغ الأول، وكان صبيّاً أصبحَ تاريخ مولده قبل ذلك بعشرين شهراً مناسبةً للابتهاج الوطنيّ، اختُطِفَ من منزل

عائلته الجديد المنعزل في منطقة هوبْويل الريفيّة، في نيو جرزي. وبعد ذلك بعشرة أسابيع عُثِرَ على جثّة الطفل المتحلّلة بالمُصادفة في الغابة على مسافة بضعة أميال. كان الطفل إمّا اغتيل أو قُتِل بالمُصادفة بعد انتزاعه من مهده ونُقِلَ، تحت جنح الظلام، ولا يزال بملابس النوم، من نافذة غرفة الحضانة في الطابق الثاني ونزولاً من سُلَّم مؤقّتٍ إلى الأرض بينما المُربّية والأم منشغلتان بأعمال المساء المعتادة في جزء آخر من المنزل. ومع انتهاء مُحاكمة الاختطاف والاغتيال في فليمنغتن، نيو جرزي، في شهر شباط من عام 1935 بإدانة برونو هاوبتمان – السجين الألماني السابق ذي الخمسة والثلاثين عاماً ويُقيم في حي البرونكس مع زوجته الألمانيّة – كانت شجاعة أول طيّار يقطع المحيط الأطلسي وحده قد امتزجت بشفقةٍ حوّلته إلى عملاق شهيد إذا ما قورنَ بلينكولن.

بعد انتهاء المُحاكمة، غادر آل ليندبرغ أميركا، آملين عبر الاغتراب المؤقّت في حماية طفل آل ليندبرغ الجديد من الأذى واستعادة بعضٍ من الخصوصيّة التي اشتاقا إليها. وانتقلت العائلة إلى قرية صغيرة في إنكلترا، ومن هناك، وبوصفِهِ مواطناً مُستقلاً ماديّاً، بدأ ليندبرغ يقوم برحلات إلى ألمانيا النازيّة التي سوف تُحوّله إلى نذلٍ بالنسبة إلى مُعظم اليهود الأميركيين. وعلى امتداد خمس زيارات، استطاع خلالها أنْ يتعرَّف أولاً على ضخامة آلة الحرب الألمانيّة، ونزل في ضيافة الضابط الطيّار غورينغ، وكان قد قُلِّدَ أوسمةً في احتفالٍ رسميّ باسم الفوهرر، وقد عبَّر بكل صراحة عن تقديره العالي لهتلر، واصفاً ألمانيا بأنها «الأمّة الأشدّ إثارة للإعجاب» في العالم وبأنّ زعيمها «رجل عظيم». وهذا الاهتمام كلّه والإعجاب أبداهما بعد أنْ أنكرتْ قوانين هتلر العنصريّة عام 1935 على اليهود الألمان حقوقهم المدنيّة، والاجتماعيّة، وحقوق المُلكيّة، وألغتْ مواطنيتهم، وحرّمت الزواج المُختَلَط بالآريّن.

في الوقت الذي بدأتُ بالالتحاق بالمدرسة في عام 1938، كان اسم ليندبرغ يستفزّ السخط نفسه في منزلنا الذي تُثيره برامج يوم الأحد

الإذاعيّة التي يبثّها الأب كوفلين، الكاهن من ديترويت الذي يُحرّر صحيفة أسبوعيّة يمينيّة اسمها «العدالة الاجتماعيّة» وأثار خُبثه المُعادي للساميّة حنق جمهور واسع خلال مرور البلاد بأوقات صعبة. وفي شهر تشرين من عام 1938 - وهو العام الأشد حُلكة، وشؤماً بالنسبة إلى يهود أوروبا خلال ثمانية عشر قرناً - حرَّض النازيون في كل أرجاء ألمانيا على ارتكاب أبشع مذبحة جماعيّة في التاريخ الحديث، الـ*Kristallnacht* (السماء الصافية): حيثُ أُحرِقَت الكنائس اليهوديّة، ودُمِّرت منازل اليهود وأعمالهم، وخلال ليلة أنذرتْ بمستقبلٍ مُريع، أُجبِرَ آلاف اليهود على مغادرة ديارهم ونُقلوا إلى معسكرات اعتقال. وعندما خطر لليندبرغ أنّه جواباً على هذه العمليّة الوحشيّة غير المسبوقة، التي ارتكبتها الدولة على أرضها الأم، قد يُفكِّر في إعادة الصليب الذهبيّ المُزيَّن بأربعة صلبان معقوفة الذي منحه له الضابط الطيّار غورينغ بالنيابة عن الفوهرر، رفَضَ الفكرة لأنّه رأى أنَّ التخلّي علناً عن صليب الخدمة من فئة النسر الألمانيّ سوف يُعتبَر «إهانة غير ضروريّة» للقيادة النازيّة.

كان ليندبرغ هو أول أميركيّ حيّ ومشهور تعلَّمتُ أنْ أكرهه - تماماً كما أنَّ الرئيس روزفلت كان أول أميركيّ حيّ ومشهور تعلَّمتُ أنْ أحبّه - وهكذا هاجمَ ترشيحُ الجمهوريين له لخوض معركة الرئاسة أمام روزفلت في عام 1940، كما لم يحدث من قبل، ذلك الكمّ الضخم من الأمن الشخصيّ الذي تقبّلتُهُ بداهة بوصفي طفلاً أميركيّاً لأبوين أميركيّين أتلقّى تعليمي في مدرسةٍ أميركيّة في مدينة أميركيّة في أميركا في سلامٍ مع العالم.

التهديد الوحيد المُشابه كان قد صدر قبل ذلك بأكثر من عام عندما مُنِحَ والدي علاوة، على أساس المبيعات التي ترتفع باستمرار خلال أسوأ فترات الكساد الاقتصاديّ، بوصفِهِ وكيلاً مع مكتب نيوارك للشركة المتروبوليتانيّة للتأمين على الحياة وأصبحَ مديراً مُساعِداً مسؤولاً عن وكلاء في مكتب الشركة الذي يقع على بُعد ستة أميال إلى الغرب من

منزلنا في يونيون، وهي مدينةٌ الشيءُ الوحيد المُميَّز الذي عرفته فيها كان دار عرض مكشوفة للسيارات تُعرَض فيها أفلام سينمائيّة حتى عندما تُمطِر السماء، وحيث توقّعتِ الشركة من والدي وعائلته أنْ يعيشوا إذا قبِلَ الوظيفة. وكان في استطاعة والدي كمدير مُساعد أنْ يكسب خمسة وثلاثين دولاراً في الأسبوع وعلى امتداد السنوات التالية كان المبلغ يصل حتى مئة دولار في الأسبوع، وكان بمنزلة ثروة في عام 1939 بالنسبة إلى أناس يحملون آمالنا. وبما أنَّ تجارة بيع المنازل لعائلة واحدة كانت رائجة في يونيون بسعر منخفض لا يتجاوز بضعة آلاف بسبب حالة الكساد، استطاع أنْ يُحقّق طموحاً كان يُغذّيه وهو يكبر مُعدَماً في شقّة مُستأجرة في نيوارك: أنْ يُصبح مالك منزل أميركيّ. كان شِعار «فخر الامتلاك» هو المُفضَّل لدى والده، لأنّه يُجسّد المثل الأعلى كما يمثّل الخبز بالنسبة إلى رجل في مثل ظروفه، رجل مُضطر ألّا يخوض التنافُس الاجتماعيّ أو الاستهلاك المُفرِط بل عليه أنْ يصمد بوصفه مُعيلاً كما يليق برجل.

العائق الوحيد كان أنّه لأنَّ يونيون، على غرار هيلْسايد، كانت بلدة طبقة عاملة غير يهوديّة، فإنَّ والدي كان سيُصبح اليهوديّ الوحيد في مكتبٍ يضم خمسة وثلاثين شخصاً، وأمي المرأة اليهوديّة الوحيدة في شارعنا، وساندي وأنا الطفلين الوحيدين اليهوديين في المدرسة.

في يوم السبت الذي تلا حصول والدي على ترقية - ترقية سوف تُلبّي، قبل أي شيء، توقَ عائلةٍ وسط الكساد إلى هامشٍ صغير جداً من الأمان الماليّ - انطلقنا نحن الأربعة بعد تناول وجبة الغداء للتجوُّل في أنحاء بلدة يونيون. ولكن حالما وصلنا إلى هناك وأخذنا نتنقّل بالسيارة بين الشوارع السكنيّة مُحدِّقين إلى المنازل ذات الطابقَين - التي ليست متطابقة في الشكل، ولكن مع ذلك لها شرفة خارجيّة مُستترة ومرجاً مجزوزاً وبعض الشجيرات وممراً من الرماد للسيارات يؤدي إلى المرأب المُخصَّص لسيارة واحدة، فإنَّها منازل متواضعة جداً لكنّها مع ذلك أكثر اتّساعاً من شقّتنا المؤلَّفة من غرفتين للنوم وتُشبه إلى حدٍ بعيد

المنازل البيضاء الصغيرة التي نشاهدها في الأفلام السينمائيّة في أرجاء المدن الصغيرة والمُخصّصة للنخبة في أميركا - وحالما وصلنا إلى هناك استؤصلِ ابتهاجنا البريء بشأن ارتقاء العائلة إلى طبقة مُلّاك المنازل، كما كان مُتوقَّعاً، على يد قلقنا بشأن فرصة الحصول على إعانة مسيحيّة. وقد أجابت أمي الحيويّة في المعتاد على سؤال والدي «ما رأيك، يا بيس؟» بحماس بأنّه حتى طفل يفهم كيف يختلق. ومع صِغَر سنّي، خمَّنتُ السبب: لأنها كانت تعتقد أنَّه «سوف يكون منزلنا» حيث يُقيمُ اليهود «أي بلدة إليزابيث من جديد».

كانت بلدة إليزابيث، في نيو جرزي، حيث نشأتْ أمي في شقّةٍ تقع فوق محل بقالة والدها، ميناءً صناعيّاً تبلغ مساحتها رُبع مساحة نيوارك، وتهيمنُ عليها الطبقة العاملة الأيرلنديّة ورجال السياسة ووحدة الحياة الأبرشيّة المتماسكة التي تدور حول كنائس البلدة العديدة، وعلى الرغم من أنني لم أسمعها يوماً تشتكي من أنّها تعرَّضَتْ بصورة واضحة إلى سوء المُعاملة وهي طفلة في بلدة إليزابيث، فإنّها لم تكتشف إلّا بعد أنْ تزوَّجت وانتقلَتْ إلى الحيّ اليهوديّ الجديد في نيوارك السرّ الذي قادها إلى أنْ تُصبح أول (أمّ مثاليّة) في هيئة الآباء والأمهات، ثم نائبة رئيس الهيئة مسؤولة عن تأسيس نادي أمّ روضة الأطفال، وأخيراً أصبحت رئيسة الهيئة، التي عَرَضَتْ، بعد حضور مؤتمر في ترينتون حول مرض شلل الأطفال، إقامة حفلٍ راقصٍ خيريّ سنويّ في الثلاثين من شهر كانون ثاني (يناير) - وهو تاريخ مولد الرئيس روزفلت - ولقيَ قبولاً من معظم مدارس نيوارك. وفي ربيع عام 1939 كانت في عامها الثاني الناجح كزعيمةٍ تحملُ أفكاراً تقدّميّة - وكانت أصلاً تدعم أستاذاً شاباً في الدراسات الاجتماعيّة مُتحمِّساً لإدخال «الثقافة البصريّة» إلى غرف درس تشانسلر - والآن لا يسعها إلّا أنْ تتخيَّل نفسها مُجرَّدة من كل ما أنجزت بتحوّلها إلى زوجة وأمٍّ في جادّة سَميتْ. ولو أُتيح لنا حُسن الحظ لشراء والانتقال إلى منزلٍ يقع في أيِ من شوارع بلدة يونيون التي كنا نراها في أبهى أوقاتها، لَمَا تراجعَ مركزُها

فقط إلى ما كان عليه وهي تُربّي ابنة بقّال يهوديّ مُهاجر في بلدة إليزابيث الكاثوليكيّة الأيرلنديّة، بل، وهو الأسوأ، لاضطُرِرنا ساندي وأنا إلى أنْ نعيش من جديد شبابها المُقيَّد كمنبوذة في الحي.

وعلى الرغم من مزاج أمي، بذل أبي أقصى ما في وسعه ليرفع من معنوياتنا، بتعليقه على مدى نظافة وترتيب كل شيء، مُذكّراً ساندي وأنا بأنّنا إذا أقمنا نحن الاثنين في أحد تلك المنازل فلن نُضطر إلى تقاسُم غرفة نوم واحدة وخزانة ملابس واحدة، وشارحاً فوائد حرماننا من تسديد قيمة رهن بدل أنْ ندفع الإيجار، وهو درسٌ في الاقتصاد الابتدائيّ سرعان ما انتهى عندما وجد أنّه من الضروري أنْ يوقِف السيارة عند إشارة المرور الحمراء بجوار محل مشروباتٍ يحتل منعطف تقاطُع شارعين. كانت هناك طاولتا نزهة موضوعتان في ظل شجرة وافرة الخُضرة، وكان هناك في ظهيرة يوم العطلة المُشمس نُدُلٌ بمعاطف بيضاء مُزركشة يتنقّلون بسرعة في المكان، يوازنون صواني مُترعة بالقناني والأباريق والأطباق، ورجالٌ من كل الأعمار يجتمعون عند كل طاولة، يُدخّنون السجائر والغلايين والسيجار ويعبّون بنهم من كؤوسٍ طويلة وأباريق من الخزف. وكانت هناك موسيقى، أيضاً – تصدر عن آلة أكورديون يعزفُ عليها رجل قصير وبدين ببنطلون قصير وجوارب طويلة ويعتمر قبعة مُزيَّنة بريشة طويلة.

قال والدي «أولاد حرام! أوغاد فاشيون!»، ثم تغيَّرت الإضاءة وتابعنا التقدُّم بالسيارة في صمت لكي ننظر إلى مبنى المكتب الذي كان يوشك أنْ ينال فرصته في أنْ يكسب أكثر من خمسين دولاراً في الأسبوع.

عندما أوينا إلى السرير، شرح لي أخي لماذا فقد والدي السيطرة على نفسه وأخذ يسبّ بصوتٍ مرتفع أمام أولاده: كانت الفسحة الأليفة من المرح في الهواء الطلق الذي يشيع في وسط البلدة تُسمّى حديقة البيرة، وكانت حديقة البيرة تتَّصفُ بشيءٍ له صِلة بالجمعيّة الألمانيّة-الأميركيّة، وكانت الجمعيّة الألمانيّة-الأميركيّة تناصر هتلر، وكان لهتلر، كما قيل لي، صِلة مُباشرة بإبادة اليهود.

في صحّة مُعاداة الساميّة. هذا ما تخيّلتهم جميعاً يشربون بمرح في حديقة البيرة في ذلك اليوم - على غرار النازيين جميعاً في كل مكان، يجرعون إبريقاً بعد إبريق من مُعاداة الساميّة وكأنّهم يشربون العلاج العالميّ.

كان والدي يُضطر إلى أنْ يتغيَّب يوماً عن العمل لكي يذهب إلى المكتب الرئيس في نيويورك - إلى المبنى الشامخ الذي تُتوِّج قمّةَ برجه منارةٌ وصمّمته الشركة بكل فخر مع عبارة «النور الذي لا ينطفئ» - وليُخبر مراقب الوكالات بأنه لا يستطيع أنْ يقبل الترقية التي تاق إليها.

حالما بدأ يسرد ونحن على مائدة الطعام ما حدث هناك في الطابق الأعلى في رقم 1 في جادة ماديسون، حتى أعلنتْ أمي قائلة «إنّ الذنب ذنبي».

قال والدي «إنّه ليس ذنب أحد. لقد سبقَ أنْ شرحتُ قبل أنْ أُغادر ما كنتُ أنوي أنْ أقول له، وذهبتُ وأخبرته به، وهذا كل شيء. يا أولاد، لن ننتقل إلى يونيون. سوف نبقى هنا».

سألتْ أمي «ماذا فعل؟».

«أصغى إلى كل ما قلت».

سألتْ «ثم؟».

«ثم نهضَ وصافحني».

«ألم يقُل أيّ شيء؟».

«قال: حظاً موفّقاً، يا روث».

«لقد غضبَ منك».

«إنَّ هاتشر رجل مُهذَّب من الجيل القديم. مسيحي ضخم الجثّة. أشبه بنجوم السينما. يبلغ الستين من العمر ولياقته البدنيّة تامة. هؤلاء القوم، يا بيس، يُديرون الأعمال - إنهم لا يُبدّدون وقتهم في الغضب من شخصٍ مثلي».

سألتْ «والآن ما هو الوضع؟» وكأنّها تقول مهما حدث نتيجة اجتماعه

بهاتشر فهو لن يكون جيّداً ويمكن أنْ يُنذر بكارثة. وحسبتُ أنني فهمتُ السبب. ركِّزْ وسوف تفهم - هذه هي الحِكمة التي تعلّمناها من أبوينا. وعلى مائدة الطعام، كان والدي يُكرّر على مسمع ولديه الصغيرين مراراً وتكراراً «إذا سألك أحدٌ: هل تستطيع أنْ تقوم بهذا العمل؟ هل تستطيع أنْ تؤديه؟ فقُل له طبعاً». وإلى أنْ يتبيَّن له أنك لا تستطيع ذلك، سوف تكون قد تعلّمت، وسوف تحصل على العمل. ومَنْ يدري، قد يتَّضح أنّه فرصة العمر». ومع ذلك في نيويورك لم يفعل شيئاً كهذا.

سألتُه «ماذا قال الرئيس؟»، وكنا نحن الأربعة نُشير إلى الرئيس بوصفه مدير مكتب والدنا في نيوارك، سام بيترفروند. وفي تلك الأيام من الحصص غير المُعلَنَة من أجل إبقاء نِسَب اليهود في أدنى مستوياتها في الجامعات والمدارس المِهنيّة ومن التمييز الذي لا يلقى مقاومة ويُنكِر على اليهود ترقيات هامّة في الشركات الكبرى ومن القيود الصارمة ضد عضوية اليهود في آلاف المنظمات الاجتماعيّة والمؤسسات العامة، كان بيترفروند أحد أوائل الحفنة القليلة من اليهود التي حصلتْ على موقع هامشيّ في الحياة المتروبوليتانيّة. قالتْ أمي «إنّه أحد الذين أعدّوك لهذا. فكيف يشعر هو؟».

«أتعلمين ماذا قال لي عندما رجعت؟ أتعلمين ماذا أخبرني عن مكتب يونيون؟ إنّه مملوء بالسكارى. إنّه **شهير** بالسكارى. وفي السابق لم يرغب في التأثير على قراري. لم يرغب في أنْ يقف عائقاً في طريقي إنْ كان هذا ما أريد. المكتب شهير بالعملاء الذين يعملون ساعتين في الصباح ويقضون ما تبقّى من الوقت في الحانة أو في ما هو أسوأ منها. وكان من المُفترض بي أنْ أذهب إلى هناك، أنا اليهوديّ الجديد، الرئيس الفخم اللامع الجديد الذي يتوقُ غير اليهود كلّهم إلى العمل معه، كان من المُفترَض بي أنْ أذهب إلى هناك وأنتقيهم من غرفة المشروبات. كان من المفترَض بي أنْ أذهبَ إلى هناك وأُذكِّرهم بالتزامهم تجاه زوجاتهم وأولادهم. آه، كم كانوا سيُحبّونني، يا أولاد، لأنني أُقدّم ذلك المعروف

لهم. تستطيعان أنْ تتخيّلا بما كانوا سينعتونني من خلف ظهري. كلا، أنا أفضلُ حالاً حيثُ أنا. كلنا أفضل حالاً».

«ولكن هل تستطيع الشركة أنْ تطردك إذا خذلتهم؟».

«يا عزيزتي، لقد فعلتُ ما فعلت. وانتهينا».

لكنّها لم تُصدِّق ما أخبرها به عمّا قاله الرئيس؛ ورأتْ أنّه اختلقَ ما قاله الرئيس لكي يدفعها إلى الكفّ عن لوم نفسها لرفضها الانتقال مع أولادها إلى البلدة الخاصة بغير اليهود، التي كانت ملاذاً للجمعيّة الألمانيّة-الأميركيّة وبفعلها هذا حَرَمَتْه من فرصة حياته هو.

عاد آل ليندبرغ ليستأنفوا حياتهم العائليّة في أميركا في شهر نيسان (أبريل) من عام 1939. وبعد بضعة أشهر، في أيلول (سبتمبر)، بعد أنْ استولى هتلر على النمسا واجتاح تشيكوسلوفاكيا، غزا بولونيا وهزمها، فردّتْ فرنسا وبريطانيا العُظمى بإعلان الحرب على ألمانيا. وكان ليندبرغ حينئذٍ يعمل برتبة كولونيل في القِوى الجويّة، وبدأ يُسافر في أرجاء البلد لمصلحة حكومة الولايات المتحدة، من أجل كسب التأييد لتطوير سلاح الجو الأميركي ومن أجل توسيع وتحديث سلاح الطيران في القوات المُسلّحة. وعندما أسرع هتلر باحتلال الدنمارك، والنرويج، وهولندا، وبلجيكا، كلها ما عدا فرنسا المهزومة، وبدأتْ ثاني أعظم حرب أوروبيّة في القرن، وجعل كولونيل القِوى الجويّة من نفسه معبود الانعزاليين - وعدو فرانكلين ديلانو روزفلت - بأنْ أضاف إلى مهمّته منعَ أميركا من جرّها إلى التورُّط في الحرب أو تقديم أيّة مساعدة لبريطانيا أو لفرنسا. وكان هناك في الأصل عداوة شديدة بينه وبين روزفلت، أما الآن وهو يُعلن على الملأ في اجتماعات شعبيّة ضخمة وعلى موجات أثير الإذاعة وفي المجلات الشعبيّة أنَّ رئيس الجمهوريّة يُضلل البلاد بوعودٍ بالسلام في حين أنّه يقوم سرّاً بالتحريض والتخطيط للدخول في الصراع المُسلَّح، وبدأ البعض في الحزب الجمهوريّ يؤيدون ليندبرغ بوصفه الساحر القادر

على هزيمة «المُحرِّض على الحرب القابع في البيت الأبيض» واستبعاده من ولاية ثالثة.

كان كلما زاد روزفلت من ممارسة الضغط على الكونغرس من أجل إلغاء حظر تصدير الأسلحة وتخفيف القيود على حياديّة البلاد من أجل منع تعرُّض البريطانيين للهزيمة، أصبحَ ليندبرغ أشد صراحة، إلى أنْ ألقى أخيراً الخطاب الإذاعيّ الشهير أمام قاعة ممتلئة بالداعمين المُهلّلين في مدينة ديه موان التي اعتُبِرَتْ من بين «أهمِّ التجمّعات الضاغطة من أجل دخول البلاد الحرب» وهي مجموعة تشكِّلُ أقلّ من ثلاثة بالمئة من عدد السكان ويُشار إليها بالتناوب بـ «الشعب اليهوديّ» و«السلالة اليهوديّة».

قال ليندبرغ «لا يمكن لأي شخص شريف وذي بصيرة أنْ ينظر إلى سياستهم الداعمة للحرب اليوم من دون أنْ يرى الأخطار الكامنة في مثل تلك السياسة لنا ولهم»، ثم أردفَ، بصراحة مذهلة:

«إنَّ قليلاً من اليهود البعيدي النظر يُدركون هذا ويُعارضون التدخُّل. لكنَّ الغالبية العُظمى ما زالت لا تُعارِض... إننا لا نلومهم على تطلّعهم إلى ما يعتقدون أنّها مصلحتهم، ولكن علينا أيضاً أنْ نتطلّع إلى مصالحنا. نحن لا نستطيع أنْ نسمح للانفعالات الطبيعيّة وتحاملات الشعوب الأخرى أنْ تقود بلدنا إلى الدمار».

في اليوم التالي لقيَتِ الاتّهامات التي كانت قد أثارت هديرَ الاستحسان من جمهور ليندبرغ في ولاية أيوا، استنكاراً عنيفاً من الصحفيين الليبراليين، وسكرتير روزفلت للدعاية، ومن الوكالات والمنظمات اليهوديّة، وحتى من داخل الحزب الديمقراطيّ على لسان ديوي محامي منطقة نيويورك وأيضاً المحامي العام لوول ستريت ويندل ويلكي، وكلاهما مُرشّحان مُحتملان لمنصب الرئاسة. وكان النقد الصادر عن أعضاء مجلس الوزراء الديمقراطيّ كسكرتير وزارة الداخليّة هارولد إيكس حادّاً جداً بحيث إنَّ ليندبرغ تخلّى عن منصبه الاحتياطي ككولونيل في الجيش

بدل أنْ يعمل تحت إمرة فرانكلين ديلانو روزفلت. لكنَّ «*لجنة أميركا أولاً*»[2]، وهي المُنظمة ذات القاعدة الأوسع وتقود المعركة ضد التدخّل، استمرتْ في دعمه، وبقي هو الجامع الأكثر شعبيّة للمناصرين لحجّتها من أجل الحياديّة. وبالنسبة إلى العديد من أنصار «*لجنة أميركا أولاً*» لم يكن هناك جدال (حتى مع توفُّر الحقائق) حول حجّة ليندبرغ في الاعتقاد بأنَّ «خطر (اليهود) الأعظم على هذا البلد يكمنُ في ملكيّتهم الواسعة وتأثيرهم على أفلامنا السينمائيّة، وصحافتنا، وإذاعتنا، وعلى حكومتنا». وعندما كتب ليندبرغ بكل فخر عن «إرثنا من الدم الأوروبيّ»، وعندما حذَّرَ من «الاختلاط بالأعراق الأجنبيّة» و«تسرُّب الدماء الخسيسة» (وكل التعبيرات التي ظهرتْ على شكل مواد مفكّرة من تلك السنين)، كان يُسجِّل قناعات شخصيّة تقاسمَها مع قسم كبير من عموم أعضاء «*لجنة أميركا أولاً*» بالإضافة إلى أفراد الدائرة الانتخابيّة المتطرّفة الأكثر انتشاراً مما يمكن ليهوديّ كأبي، بكراهيّته الشديدة لمُعاداة الساميّة - أو كأمّي، بارتيابها العميق في المسيحيين - أنْ يتخيّل وجوده في أرجاء أميركا كلها.

المؤتمر الجمهوريّ في عام 1940. في تلك الليلة أويتُ أنا وأخي إلى النوم - في يوم الخميس، 27 من شهر حزيران (يونيو) - بينما كان جهاز الراديو في غرفة الجلوس، وكان والدنا، ووالدتنا، وابن عمّنا الأكبر سناً ألفن يستمعون معاً إلى البثّ الحيّ من فيلادلفيا. وبعد إجراء ستة اقتراعات، لم يكن الجمهوريون قد توصلوا إلى انتقاء مرشح،، ولم يكن اسم ليندبرغ قد ورد ذِكره على لسان أي نائب، وبسبب اجتماع سرّي للمهندسين في مصنع في الغرب الأوسط حيثُ كان يُقدم نصائحه بشأن تصميم طائرة مُقاتلة جديدة، لم يكن حاضراً أو لم يُتوقَّع حضوره. وعندما أوينا أنا وساندي إلى النوم كان المؤتمرون لا يزالون منقسمين بين ديوي، وويلكي، واثنين من الشيوخ الجمهوريين ذوي السلطة، هما فاندربيرغ من

2- اللجنة المناهضة للتورُّط الأميركي في الحرب العالمية الثانية. - المترجم

ميتشغان وتافت من أوهايو، ولم يبدُ أنَّ الاتّفاق سيتم في الغرفة الخلفيّة في أي وقتٍ قريب بين كبار أعضاء الحزب كرئيس الجمهوريّة السابق هوفر، الذي كان قد طُرِدَ من منصبه بعد انتصار فرانكلين ديلانو روزفلت الساحق عام 1932، أو على يد الحاكم ألف لاندون، الذي أوقع به روزفلت هزيمة أقسى بعد ذلك بأربع سنوات بأغلبيّة ساحقة غير مسبوقة في التاريخ.

ولأنها كانت أول أمسية شديدة الحرارة والرطوبة من الصيف، كانت النوافذ مفتوحة في كل الغرف ولم يسعنا أنا وساندي إلّا أنْ نُتابع مجريات الانتخاب المُذاعة على الهواء من سريرينا عبر المذياع المفتوح في الطابق السفليّ وأيضاً - بما أنَّ الزقاق كان ضيّقاً جداً ويكاد لا يتّسع إلّا لمرور سيارة واحدة ويفصل بين منزل وآخر - من أجهزة الراديو عند الجيران على كلا جانبيّ الزقاق. ولما كان هذا قد حدث قبل أنْ يغطي هدير مكيّفات الهواء عند النوافذ على ضجيج الحيّ في ليالي القيظ، فإنَّ البثّ الإذاعيّ غطّى المنطقة الممتدة من كير إلى تشانسلر - وهي مساحة تخلو منازلها التي تؤوي ثلاثين ونيِّفاً من العائلات أو المبنى الجديد السكنيّ القائم عند منعطف جادَّة تشانسلر من أيّ جمهوريّ. وفي شوارع كشارعنا كان اليهود يُصوتون للديمقراطيين دائماً وطوال فترة بقاء فرانكلين ديلانو روزفلت على قمة القائمة.

لكننا كنا طفلَين واستغرقنا في النوم على الرغم من كل شيء وربما ما كنا استيقظنا حتى الصباح لولا أنَّ ليندبرغ - فور وصول الجمهوريين إلى طريق مسدودة بعد التصويت الثاني عشر - دخل بصورة غير متوقّعة إلى مقرّ الاجتماع عند الساعة الثالثة وثماني عشرة دقيقة صباحاً. وصل البطل الوسيم، النحيل، الطويل القامة، الرجل الرشيق، الرياضيّ البُنية الذي لم يبلغ بعد سن الأربعين، بملابس الطيّار، بعد أنْ حطَّ بطائرته في مطار فيلادلفيا قبل ذلك ببضع دقائق، وبمجرّد ظهوره، دفعتْ موجة من الإثارة المُخلِّصة المجتمعين المتوانين إلى النهوض والوقوف على أقدامهم والهتاف «ليندي! ليندي! ليندي!» على مدى ثلاثين دقيقة مجيدة، ومن

دون مُقاطعة من الرئيس. وخلف هذا الأداء الناجح للمشهد الدرامي العفويّ ذي السِمة الدينيّة الزائفة كانت تكمنُ مكائد السيناتور جيرالد بي. ناي من داكوتا الشماليّة، الانعزاليّ اليمينيّ الذي قام بسرعة بإضافة اسم تشارلز أ. ليندبرغ من ليتل ولز، ولاية مينيسوتا، إلى قائمة الترشيح، وعلى الأثر قام اثنان من أشدّ أعضاء المجلس رجعيّة - عضو الكونغرس توركيلسون من مونتانا وعضو الكونغرس مونت من داكوتا الجنوبيّة - بدعم الترشيح، وعند الساعة الرابعة صباحاً بالضبط، من يوم الجمعة، الثامن والعشرين من شهر حزيران (يونيو)، اختار الحزب الجمهوريّ مع تهليل الابتهاج، مرشّحهم المتعصِّب الذي شجبَ اليهود على أمواج الأثير أمام جمهورٍ وطنيّ بوصفهم «شعوباً أخرى» يستخدمون «نفوذهم (الهائل)... من أجل قيادة بلدنا إلى الدمار»، بدل أنْ يعترف بصدق بأنّنا أقليّة صغيرة من المواطنين يفوقنا المسيحيون في البلد بأعداد هائلة، وفي العموم يمنعنا التحامل الدينيّ من بلوغ السلطة العامة، ونحنُ حتماً لسنا أقلّ ولاءً لمبادئ الديمقراطيّة الأميركيّة من ذلك المُعجَب بأدولف هتلر.

الكلمة التي أيقظتنا كانت «كلا!»، كانت كلمة «كلا!» قد انطلقتْ عالية بصوت رجل مرتفع من كل منزل في المبنى. مستحيل. كلا. لا يمكن قبوله رئيساً للولايات المتحدة.

في غضون ثوانٍ، انضممنا أنا وأخي من جديد إلى المُستمعين إلى المذياع مع باقي أفراد العائلة، ولم يُزعج أيٌّ منهم نفسه بالطلب منا أنْ نعود إلى سريرينا. ولما كان الجو حارّاً، ارتدتْ أمي المُحتشمة رداءً فوق قميص النوم الرقيق - هي أيضاً كانت نائمة وأيقظها الضجيج - وجلستِ الآن على الأريكة بجوار والدي، وأصابعها على فمها وكأنّها تحاول أنْ تمنع نفسها من الشعور بالغثيان. وفي تلك الأثناء كان ابن عمي ألفن، الذي لم يعُد قادراً على البقاء جالساً على مقعده يذرع أرض الغرفة التي لا تتجاوز مساحتها ثمانية عشر متراً طولاً واثني عشر عرضاً جيئة وذهاباً

وفي مشيته زخمٌ جديد بمنتقم سيخرجُ سعياً في المدينة إلى التخلُّص من أعدائه.

كان الغضب في تلك الليلة هو الأتون المُستعِر، الفرن الذي يستولي عليك ويلويكَ كقطعةٍ من الفولاذ. ولم يخمد - لا في أثناء وقوف ليندبرغ في صمت على منبر فيلادلفيا وسماعه التهليل له من جديد بوصفه المُنقِذ للبلد، ولا عندما ألقى خطاب قبول ترشيح حزبه له ومعه قبول تكليفه بإبقاء أميركا بعيداً عن الحرب الأوروبيّة. وانتظرنا كلنا ونحن في حالةٍ من الرعب سماعه يُكرِّر أمام المجتمعين التشويه الخبيث لسُمعة اليهود، لكنَّ هذا لم يُشكِّل أي فرق في تغيير المزاج الذي دفع أفراد كل عائلة في الحيّ إلى الخروج إلى الشارع في ساعةٍ اقتربت من الخامسة صباحاً. كانت عائلات بأكملها لم أعرفها في السابق إلّا وهي بكامل ملابسها النهاريّة ترتدي بيجامات وقمصان نومٍ تحت أردية الاستحمام وتتجول في المكان بالخفّ عند الفجر وكأنَّ هزّة أرضيّة دفعتها إلى مغادرة منازلها. لكنَّ أشدَّ ما صعق طفلاً مثلي هو الغضب، غضب رجال عرفتهم فضوليين مرحين أو يكسبون قوتهم صامتين، صاغرين يقضون يومهم كلّه في تنظيف أنابيب التصريف أو صيانة الأفران أو بيع التفّاح بالرطل ومن ثم في المساء يقرؤون الصحيفة ويستمعون إلى المذياع ويستغرقون في النوم على الكرسي في غرفة الجلوس، أناس بسطاء تصادفَ أنْ كانوا يهوداً يحتشدون الآن في الشارع ويصبّون اللعنات من دون الاهتمام بآداب اللياقة، وسرعان ما اندفعوا عائدين إلى كفاحهم البائس الذي يعتقدون أنَّ عوائلهم تخلّصت منه بالهجرة المباركة التي قام بها الجيل السابق.

كان يمكن أنْ أتخيَّل أنَّ عدم ذِكر ليندبرغ لليهود في خطاب قبوله هو بشير واعد، ومؤشر إلى أنّه تطهَّرَ بصيحة احتجاج جعلته يتخلّى عن مهمته في الجيش أو أنّه نسيَ أمرنا أو أنه عرِفَ جيداً في السرّ أننا مُكرّسون إلى الأبد لأميركا - أنّه على الرغم من أنَّ أيرلندا ما زالت تهمُّ الأيرلنديين وبولونيا تهمّ البولونيين وإيطاليا تهمّ الإيطاليين، فإننا لا نحافظ على أيّ

تحالُف، عاطفيّ أو غيره، مع بلدان العالم القديم تلك التي لم ترحّب بنا أبداً وليست لدينا النيّة في العودة إليها. ولو كان في استطاعتي أنْ أتعمَّق في معنى تلك اللحظة بكثير من الكلمات، فربما هذا ما كنتُ قد فكّرتُ فيه. لكنَّ الرجال الذين خرجوا إلى الشارع فكّروا بطريقة مختلفة. كان عدم ذِكر ليندبرغ لليهود بالنسبة إليهم خُدعة ولا أكثر، كان بمنزلة إطلاق حملة من الخِداع المقصود منها إخراسنا ومباغتتنا معاً. هتف الجيران «هتلر موجود في أميركا! والفاشيّة في أميركا! وجنود الصاعقة النازيون في أميركا!». وبعد أنْ بقوا من دون نوم طوال الليل، لم يكن هناك من شيء لم يفكّر فيه عجائزنا المُشوّشون ولا شيء لم يجهروا به بأصواتٍ مرتفعة، وعلى مسمعٍ منا، قبل أنْ يبدؤوا بالانسحاب عائدين إلى منازلهم (حيث كانت أجهزةُ الراديو كلها ما تزال تهدر)، عاد الرجال ليحلِقوا ذقونهم ويرتدوا ملابسهم ويزدردوا فنجاناً من القهوة قبل أنْ يتوجهوا إلى مقرات أعمالهم وعادت النسوة لكي يُلبسنَ أطفالهن ملابسهم ويُطعمنهم استعداداً لبدء يومهم.

لقد رفعَ روزفلت من معنويات الجميع بردّه العنيف لدى عِلْمِه أنَّ خصمه هو ليندبرغ وليس سيناتوراً ذا مقام رفيع مثل تافت أو نائباً عاماً عِدائيّاً كديوي أو مُحام مشهور أنيق ووسيم كويلكي. وعندما أيقظوه عند الساعة الرابعة صباحاً ليبلِّغوه النبأ، قيل إنّه تكهّنَ وهو في سريره في البيت الأبيض قائلاً «حالما ينتهي هذا المهرجان، سوف يندم الشابّ ليس لأنه خاضَ مجال السياسة فقط بل لأنه تعلَّمَ الطيران أيضاً». ثم عاد من جديد إلى الاستغراق في نومه العميق - أو هذا ما قالته القصة التي جلبتْ لنا الكثير من العزاء في اليوم التالي. وفي الشارع، عندما كان ما يفكّرُ فيه كل شخص هو التهديد الذي سيتعرَّض له أمنُنا بهذه المواجهة غير العادلة بكل جلاء، نسيَ الناس روزفلت وما يمثّله من حصن في وجه الغمّ. والدهشة من ترشيح ليندبرغ بحد ذاتها حرّكتْ إحساساً قديماً بكوننا غير محْميين

له صِلة بكيشينيف[3] وبمذابح عام 1903 أكثر من صِلته بنيو جرزي بعد ذلك بستة وثلاثين عاماً، ونتيجة لذلك، نسوا تعيين روزفلت لفيلكس فرانكفورتر في المحكمة العليا واختياره لهنري مورغنثاو سكرتيراً لوزارة الماليّة، ونسوا المُستشار الرئاسي المُقرَّب، والخبير الماليّ برنارد باروخ، ونسوا السيدة روزفلت وإيكس وسكرتير الشؤون الزراعيّة والاس، والثلاثة معاً كان معروفاً أنهم، مع رئيس الجمهوريّة، أصدقاء لليهود. كان هناك روزفلت، ودستور الولايات المتحدة، وميثاق حقوق الإنسان، وحرية الصحافة في أميركا. وحتى صحيفة ***نيوارك إيفننغ نيوز*** الجمهوريّة نشرت مقالة افتتاحيّة تُذكِّرُ فيها القرّاء بخطابه في مدينة ديه موان وتتحدّى صراحةً الحِكمة من ترشيح ليندبرغ، ومجلة ***PM***، مجلة نيويورك الجديدة الشائعة التابعة للجناح اليمينيّ التي ثمنها نكلة وكان والدي قد بدأ يجلبها إلى المنزل بعد انتهاء العمل مع صحيفة ***نيوارك نيوز*** - والتي شِعارها «إنَّ ***PM*** هي ضد الذين يضطهدون الآخرين» - وجّهتْ هجومها على الجمهوريين في مقالةٍ مُطوَّلة وأيضاً في التقارير والأعمدة الإخباريّة وحرفيّاً على كل صفحة من صفحاتها الاثنتين والثلاثين، بما فيها أعمدة مُضادة لليندبرغ في الصفحة الرياضيّة بقلم توم ميني وجو كمنسكي. وعلى الصفحة الأولى وَضعتِ الصحيفة صورة كبيرة تمثّل ميدالية ليندبرغ النازيّة، وفي مجلّتها اليوميّة المُصوّرة، حيثُ ادّعتْ أنّها تُقدِّم صوراً فوتوغرافيّة تمنعها الصحف الأخرى - نَشَرَتْ صوراً مُثيرة للجدل تمثّل رعاعاً يعدمون شخصاً من دون مُحاكمة وجماعات موثقة بالسلاسل، ومُفسدي إضرابات يحملون هراوات، وتعرض الظروف غير الإنسانيّة في إصلاحيات في أميركا - وكانت هناك صفحات وصفحات تبيِّن المُرشَّح الجمهوريّ وهو يقوم بسياحة في ألمانيا النازيّة في عام 1938، وفوق ذلك كله كانت هناك صورة له تملأ صفحة كاملة، والميداليّة

3- مذبحة كيشينيف: أعمال شغب ضد اليهود قامت في كيشينيف، التي كانت حينئذٍ عاصمة حاكميّة بيسارابيا في الإمبراطوريّة الروسيّة في عام 1903. - المترجم

المُشينة تطوّق عنقه، ويُصافحُ يد هرمن غورينغ، الزعيم النازي الذي لا يتقدَّم عليه إلّا هتلر.

في ليلة يوم الأحد انتظرنا في طابور البرامج الكوميديّة برنامج والتر وينتشل[4] الذي يُبثّ عند الساعة التاسعة. وعندما بدأ وقال ما تمنّينا منه أنْ يقول وبامتعاضٍ كما أردنا منه أنْ يفعل، وتصاعد تصفيق الاستحسان على طول الزقاق، وكأنَّ الصحفيّ المشهور لا تفصلنا عنه جدران استوديو الإذاعة على الجانب القصيّ من الحاجز العظيم الذي هو نهر هدسن بل كان هنا بيننا ويُقاتل بشراسة، وربطة عنقه مرتخية، وياقة قميصه محلولة، وقبعة اللباد الرماديّة مائلة نحو خلفيّة رأسه، ينهال باللّوم على ليندبرغ من مذياع يعلو مُشمَّعاً يُغطّي طاولة المطبخ عند جيراننا المُجاورين لنا.

كانت آخر ليلة في شهر حزيران (يونيو). وبعد مرور نهار دافئ، أصبح الجو بارداً بما يكفي للجلوس بارتياح في العراء من دون التعرُّق، ولكن عندما انتهى برنامج والتر وينتشل في التاسعة والربع، باشر الوالدان بالانتقال إلى الخارج لكي نستمتع نحن الأربعة بالأمسية الجميلة معاً. وكنا نوشك أنْ نخرج لنتمشّى قليلاً في الجوار ثم نعود - وبعد ذلك نأوي أنا وأخي إلى النوم - لكنَّ الوقت كان قد اقتربَ من منتصف الليل ولمْ نأوِ إلى النوم وعندئذٍ سوف يُصبح من المستحيل على الأولاد أنْ يُقاوموا النوم بحماس الوالدَين. ولأنَّ مَيْلَ وينتشل غير الهيّاب إلى القتال كان قد حثَّ جيراننا كلهم على الخروج أيضاً إلى العراء، فإنَّ ما بدأ كأمسية صغيرة مرحة من التسكع انتهى كحفلٍ جماعيّ مُرتَجَل. أحضر الرجال كراسي الشاطئ من المرائب ونشروها في آخر الزقاق، وحملت النساء أباريق الليمونادة من المنازل، وأصغر الأولاد ركضوا بجموح من رواق

4- والترِ وينتشل (1897-1972): كاتب صحفي أميركيّ وناقد يُحرر عمود الفضائح ومُعلِّق في الإذاعة. في الأصل كان ممثلاً كوميدياً في عشرينيات القرن الماضي. - المترجم

منزل إلى آخر، والعجائز جلسوا يضحكون ويتحدثون وحدهم، وكل ذلك لأنَّ أشهر يهودي في أميركا بعد ألبرت أينشتاين أعلنَ الحربَ على ليندبرغ.

لقد كان وينتشل، قبل أي شخص، هو الذي يبدأ عموده الصحفيّ المشهور بثلاث نقاط تفصل – وبصورة ما تُصادق بشكل ساحر – كل نبأ ساخن ليس له أساس متين من الصحّة، ووينتشل هو الذي خرج بصورة أو بأخرى بفكرة رمي الجماهير الساذجة بسيلٍ من الثرثرة التي تُثير الشك – تدمّر السمعة، وتعرِّض المشاهير للشُبهة، وتُثير الفضائح، وتصنع عالم الاستعراض وتُدمّره. وعموده الصحفيّ وحده كان يُباع إلى مئات الصحف على امتداد البلاد وربع الساعة الذي كان يبثّه في ليل يوم الأحد كان البرنامج الإخباري الأكثر شيوعاً في البلد، والنيران السريعة التي يُطلقها وينتشل ونقد وينتشل المُشاكس يُضفي على كل سبق صحفي جواً ساحراً من الفضيحة. كنا نُعجَب به لكونه لا منتمياً لا يهاب شيئاً ومنتمياً حاذقاً، صديق ج. إدغار هوفر، مدير الـ **FBI**، بالإضافة إلى كونه جار عضو العصابة المجرم فرانك كوستيللو وموضع ثقة دائرة روزفلت الخاصة، بل وأحياناً يكون ضيفاً مدعواً إلى البيت الأبيض للترفيه عن رئيس الجمهورية أثناء تناول مشروب – هو مقاتل الشوارع العارف بالأمور والعالِم بشؤون المدينة الذي يخشاه أعداؤه ويقفُ إلى جانبنا. ووالتر وينتشل المولود في مانهاتن (المعروف باسم فاينشل) كان قد تحوّلَ من راقص في المسرح الهزلي إلى كاتب عمود صحفي غرّ في برودواي يكسب مبالغ كبيرة عبر تجسيد أهواء أشد الصحف اليوميّة التافهة شبه الأميّة، على الرغم من أنّه منذ صعود نجم هتلر، وقبل أنْ يحظى أي شخص آخر بعمل في الصحافة يتّصِفُ بالبصيرة أو بالغضب بقبول تلك الأهواء بوقتٍ طويل، أصبح الفاشيون والمُعادون للساميّة يمثّلون عدوّه الأول. كان قد صنَّفَ الجمعية الألمانية- الأميركيّة بأنّها «نازيّة حقيرة» وطارد زعيمها، فريتز كون، على الهواء مباشرة وفي الصحف وكأنّه عميل أجنبي سرّي، والآن – بعد نكتة

روزفلت، وافتتاحيّة صحيفة *نيوارك نيوز*، والشجب الشامل لمجلّة ***PM*** - لم يتبقَّ أمام والتر وينتشل إلّا أنْ يفضح ليندبرغ «بفلسفته الموالية للنازيّة» أمام الملايين الثلاثين الذين يُصغون إليه في ليلة كل يوم أحد وأنْ يُطلِق على ترشيحه لمنصب الرئاسة لقب التهديد الأعظم الذي تعرّضتْ له الديمقراطيّة الأميركيّة بالنسبة لكل العائلات اليهوديّة في الحيّ على طول جادة سميتْ لكي تُشبه مرة أخرى الأميركيين الذين يستمتعون بالحيوية وبالمعنويات العالية للمواطَنَة الآمنة، والحرّة، والمحميّة بدل أنْ يخرجوا إلى العراء بقمصان النوم كنزلاء مصحّ عقلي هاربين.

كان معروفاً عن أخي في الحيّ كلّه أنّه قادر على رسم «أي شيء» - دراجة، شجرة، كلب، كرسيّ، شخصيّة كرتونيّة مثل ليل أبنر - على الرغم من أنَّ اهتمامه مؤخراً أصبح برسم الوجوه الحقيقيّة. وكان الأولاد دائماً يتجمّعون حوله ليراقبوه أينما توقف بعد انتهاء الدوام المدرسي حاملاً لفافة كبيرة من الأوراق وقلمه الرصاص الميكانيكي ويبدأ بوضع رسوم تخطيطيّة للناس من حوله. ودائماً يهتف المتفرجون له «ارسمه، ارسمها، ارسمني»، وكان ساندي يأخذ بالنصيحة، وإنْ كان ذلك فقط لكي يمنعهم من الصراخ في أُذنه. كانت يده تعمل طوال الوقت، كان يرفع نظره، ويُخفضه، يرفعه، ويُخفضه - ثم انظرْ، إذا بصورة حيّة لفلان الفلاني تتجسَّد على الورق. ما هي الخدعة، يسألونه، كيف تفعل هذا، كأنّ في الأمر نسخاً - كأنَّ سِحرا حقيقيّاً - يلعبُ دوراً في الإنجاز. ويُجيب ساندي عن كل ذلك الإزعاج بهزّ كتفيه أو بالابتسام: كانت الخدعة في ذلك هي في كونه فتى هادئاً، جادّاً وغير متفاخر. يبدو أنّه لم يكن للانتباه المفتون أينما ذهب بإنجاز الشبه الذي يطلبه الناس أيُ تأثير على العنصر الموضوعيّ في جوهر قوته، على التواضُع المتأصِّل الذي كان صلابته وحاول تجنّبه لاحقاً على مسؤوليته.

في المنزل، لم يعُد ينسخ رسماً من مجلة *كولييه* أو صوراً فوتوغرافيّة

من مجلة *لوك* لكنّه كان يتعلّم من دليلٍ فنّي حول الشكل الإنسانيّ. وكان قد فاز بالكتاب من مسابقةٍ لوضع مُلصَق لعيد الشجرة من أجل أطفال المدارس، الذي تصادفَ مع برنامج تشجير المدينة الذي أعدّته إدارة المتنزهات والملكيّة العامة. بل لقد أُعِدَّت مراسم صافح فيها يد السيد بانوارت، مدير مكتب أشجار الظلّ. وكان تصميمه لمُلصَقِهِ الفائز يقومُ على أساس رسم طابع بريدي أحمر اللون ثمنه سنتان من مجموعتي صدرَ احتفاءً بالذكرى الستين لتأسيس منظمة الحِفاظ على الأشجار. بدا لي الطابع البريدي جميلاً جداً لأنه كانت تظهر على كِلا جانبيّ حدوده البيضاء اللولبيّة، الضيقة، شجرة نحيلة تتشابك أغصانها عند القمة وتتقابل لتشكّل مظلّة - وإلى أنْ أصبح الطابع ملكي وبتُّ قادراً على تفحّص علاماته المميّزة بعدستي المُكبِّرة، غاص معنى كلمة «مظلّة» في الاسم المألوف لكلمة عطلة. (والعدسة الصغيرة المُكبِّرة - بالإضافة إلى ألبوم من ألفن وخمسمئة طابع، وملاقط لإزالة الطوابع، ومعاير للثقب، ومُثبتات الطوابع، وطبق من المطاط الأسود يُسمّى مكشاف العلامة الخفيّة - كانت هديّة من والديّ بمناسبة عيد مولدي السابع عشر. ومقابل عشرة سنتات إضافيّة اشتريا لي أيضاً كتاباً صغيراً من تسعين صفحة ونيّف، عنوانه «*كُتيِّب جامع الطوابع*»، حيث تحت بند «كيف تباشر جمع الطوابع» قرأتُ هذه الجملة وأنا مفتون «إنَّ الملفّات القديمة أو المراسلات الخاصّة غالباً ما تضمّ طوابع تمثل قضايا متوقفة على قدرٍ عظيم من القيمة، فإذا كان لديك أصدقاء يعيشون في منازل قديمة وكانوا قد كدّسوا مواد من هذا النوع في العلّية، حاوِلْ أنْ تحصل على مغلفات رسائلهم الممهورة بالطوابع وعلى أوراق الملف». نحن لم تكن لدينا علّيّة، ولا لدى أيّ من أصدقائنا الذين يُقيمون في شُقق ومنازل علّيّات، ولكن كانت هناك علّيّات مباشرة تحت أسقف منازل العائلات الواحدة في يونيون - من مقعدي الخلفي في السيارة كان في وسعي أنْ أرى نوافذ لعلّيّات صغيرة على كلا طرفيّ كل منزل ونحن نتجول بالسيارة في أرجاء

المدينة في يوم السبت الرهيب ذاك في العام السابق، وهكذا كل ما فكّرتُ فيه عندما وصلنا إلى البيت بعد الظهيرة هو مغلّفات الرسائل القديمة التي تحمل طوابع وفكَّرتُ في الطوابع المزخرفة على ورق تغليف الصحف المدفوع ثمنها مُسبقاً والمُخبّأة في تلك العلّيّات وكيف أنّه لا سبيل إلى «الحصول» عليها لأنني يهوديّ)

كانت جاذبيّة طابع ذكرى عيد الشجرة يدعمها إلى حدٍ كبير كونها تمثّل نشاطاً إنسانياً كنقيضٍ لصورة شخص مشهور أو صورة موقع هام - وزيادة على ذلك، نشاط يؤدّيه الأطفال: في وسط الطابع، فتى وفتاة يبدوان في سن العاشرة أو الحادية عشرة يزرعان شجرة غضّة، والفتى يحفر برفش بينما الفتاة تدعم جذع الشجرة بإحدى يديها، لكي تُثبّتها في مكانها في الحفرة. وفي مُلصَق ساندي الفتى والفتاة يغيّران موقعهما ويقفُ كلٌ منهما على كلا جانبيّ الشجرة، الفتى يظهر أيمن وليس أعسر، ويرتدي بنطلوناً طويلاً بدل البنطلون القصير. ويتراجع ليقف إلى جانب الشجيرة ويحمل مرشّة ماء على أُهبة الاستعداد - كما حملتُ واحدة عندما وقفتُ موديلاً لساندي، مرتدياً أفضل بنطلون قصير خاص بالمدرسة لديّ مع جوربٍ طويل. وإضافة هذا الفتى كانت فكرة أمي، للمساعدة على تمييز عمل ساندي الفنيّ عن ذاك الذي يظهر على طابع عيد الشجرة - ولحمايته من تُهمة «النسخ» - ولكن أيضاً لتزويد المُلصَق بمحتوى اجتماعيّ يتضمَّن موضوعاً لم يكن شائعاً في عام 1940، لا في فن المُلصَقات ولا في أي مجال آخر، ولأسبابٍ تتعلّق بالذائقة لم يكن مقبولاً لدى القُضاة.

الطفل الثالث الذي يزرع الشجرة كان زنجياً، وما شجَّعَ أمي على اقتراح ضمّه - بعيداً عن الرغبة في أنْ تزرع في نفوس أطفالها فضيلة التسامُح الحضاريّة - هو طابعٌ آخر كان في حوزتي، إصدارٌ جديد بعشرة سنتات في «المجموعة التثقيفيّة» يتألَّف من خمسة طوابع اشتريتُها من مكتب البريد بسِعرٍ إجماليّ يبلغ واحداً وعشرين سنتاً سدَّدتُها على مدى شهر آذار (مارس) من مصروفي الأسبوعيّ البالغ نكلة. وفوق الصورة

المركزيّة، كان كل طابع يحملُ صورة مصباح تدل به دائرة مكتب البريد الأميركي على «مصباح المعرفة» لكنني كنتُ أعتبره مصباح علاء الدين بسبب ذلك الفتى الذي في «*ألف ليلة وليلة*» صاحب المصباح والخاتم المسحورين والجنّيين اللذين حقّقا له كل رغباته. وما كان يمكن أنْ أطلبه من الجنّي هو كل الطوابع الأميركيّة المُشتهاة أكثر من غيرها: أولاً، الطابع الجويّ ذو الأربعة والعشرين سنتاً من عام 1918 الشهير، طابع يُقال إنّ ثمنه يُقدَّر بـ 3,400 دولار، الذي تتوسّطه صورة الطائرة، جنّي الجيش الطائر، بالمقلوب؛ وبعد ذلك، الطوابع الثلاثة الشهيرة من إصدار معرض بان-أميركان لعام 1901 مع صور طُبِعَت أيضاً بشكلٍ خاطئ في المركز وتتجاوز قيمة كلٍ منها ألف دولار.

على الطابع الأخضر ذي قيمة السنت الواحد في المجموعة التثقيفيّة، وفوق صورة مصباح المعرفة مباشرة، كانت صورة هوراس مان[5]؛ وعلى الطابع الأحمر ذي السنتين، صورة مارك هوبكنز[6]؛ وعلى الطابع القرمزيّ ذي السنتات الثلاثة، صورة تشارلز و. إليوت[7]؛ وعلى الطابع الأزرق ذي السنتات الأربعة، صورة فرانسيس إ. ويلارد[8]؛ وعلى الطابع البُنّي ذي السنتات العشرة كانت صورة بوكر ت. واشنطن[9]، أول زنجيّ يظهر على طابع أميركيّ. وأتذكّر أنني بعد أنْ ثبّتُ طابع بوكر ت. واشنطن في ألبومي وعرضتُ على أمي كيف أنّه أكملَ مجموعة الخمسة، سألتها «أتعتقدين أنّه يمكن أنْ توضع صورة شخص يهودي ذات يوم على طابع؟» فأجابتْ،

5- هوراس مان (1796-1859): مُصلح ومُثقِّف أميركي. - المترجم
6- مارك هوبكنز (1813-1878): مُستثمر أميركي، موّل إقامة خط حديديّ. - المترجم
7- تشارلز. وإليوت (1834-1926): أكاديمي أميركيّ، ساهم في تطوير جامعة هارفرد. - المترجم
8- فرانسيس إ. ويلارد (1839-1898): مربّية ومُصلحة أميركيّة. - المترجم
9- بوكر ت. واشنطن (1856-1915): مرب ومؤلِّف وخطيب وناصح لرؤساء الجمهورية، أميركي أسود. كان زعيماً بارزاً للمجتمع الأميركي-الإفريقي. - المترجم

«ربما – ذات يوم، نعم. هذا ما آمل، على أيّة حال». في الحقيقة، لقد مرّ ستة وعشرون عاماً آخر، ولم يحدث هذا إلّا عندما جاء آينشتاين.

وفَّرَ ساندي مصروفه البالغ خمسة وعشرين سنتاً – وأيضاً القليل الذي كان يكسبه من جرف الثلوج وجمع أوراق الأشجار الميتة وغسل سيارة العائلة – إلى أنْ تجمَّعَ لديه ما يكفي لركوب الدراجة التي تحمل أدوات الرسم إلى مخزن القرطاسيّة في جادّة كلينتون وأخذ يشتري، على امتداد أشهر طويلة، قلم فحم، ثم كميات من ورق السنفرة لكي يبري القلم، ثم ورقاً فحمياً، ثم البدعة المعدنيّة الأنبوبيّة الصغيرة التي ينفخ فيها لكي يولِّد بخارَ التثبيت الذي يمنع الفحم من أنْ يتلطَّخ. وكانت لديه مشابك كبيرة للأوراق، وألواح من الخشب المضغوط، وأقلام التيكونديروغا الصفراء، وممّاح، وأوراق للرسم التخطيطيّ، وأوراق للرسم – أدوات كان يُخزّنها في علبة كرتون خاصة بالبقاليّة في أسفل خزانة غرفة النوم ولم يكن يُسمح لأمي، عندما تنظف المنزل، أنْ تعبث بها. ولم تعمل وسوسته النشطة (الموروثة من أمنا) ودأبه المُذهل (الموروث من والدنا) إلّا على تضخيم رهبتي من أخٍ أكبر يتّفق الجميع على أنّه مُقدَّر له أنْ يُنجِز أموراً جليلة، في وقتٍ لم يبدُ على مُعظم مَنْ كانوا في مثل عمره أنّه مُقدَّر لهم حتى أنْ يتناولوا الطعام على المائدة مع كائن بشريّ آخر. حينئذٍ كنتُ الولد الطيب، المُطيع في المنزل وفي المدرسة – كان العناد خامداً بدرجة كبيرة وكذلك الدافع إلى الخروج ومواعدة أحد حتى وقت متأخّر – بما أنّي كنتُ صغيراً جداً على معرفة احتمال أنْ ينتابني غضب خاص بي. ومعه أكون في أقلّ حالاتي عناداً.

في عيد مولده الثاني عشر حصل ساندي على حقيبة أوراق سوداء، مُسطحة وكبيرة مصنوعة من الكرتون المقوّى تُطوى من خلال درزة طويلة ومؤمَّنة من الحافة العليا بشريطيّن مُثبتين ربطهما على شكل قوس لكي يُثبِّت الأوراق. كان مقياس الحقيبة طولاً حوالي قَدَمين وعرضاً قدماً ونصف القدم، وهي أكبر حجماً من أنْ توضَع في درج دولاب

غرفة نومنا أو من أنْ تُحشَر وهي قائمة على الجدار في خزانة غرفة النوم المزدحمة التي نتقاسمها معاً. كان مسموحاً له أنْ يحتفظ بها - مع أوراق الرسم التخطيطي - بشكل مُسطَّح تحت سريره، ويحفظ داخلها رسومه التي أعتبرها أفضل ما أنجز، بدءاً بتحفته المُركّبة في عام 1936، الصورة الشخصيّة الطموح لأمّنا وهي تُشير عالياً نحو طائرة «*روح سينت لويس*» المتوجّهة إلى باريس. وكان لدى ساندي العديد من الصور الشخصيّة للطيّار البطل، مرسومة بقلم الرصاص وقلم الفحم، مدسوسة داخل حقيبة الأوراق. كانت تشكّل جزءاً من سلسلةٍ جمعها لأبرز الشخصيات الأميركيّة تركِّزُ في المقام الأول على تلك الشخصيات البارزة الحيّة وتحظى بأشدّ تبجيل من الوالدين، كرئيس الجمهوريّة روزفلت والسيدة حرمه، ومحافظ نيويورك فيوريللو لا غوارديا، ورئيس اتّحاد عمّال المناجم جون ل. لويس والروائيّة بيرل بك، التي كانت قد فازتْ بجائزة نوبل للآداب في عام 1938 وكان قد نسخ صورتها عن غلاف أحد كتبها الرائجة. وهناك عدد من الصور في الحقيبة لأفراد من العائلة، نصف ذلك العدد على الأقلّ هو لجدّتنا الكبرى الوحيدة الباقية على قيد الحياة، والدة جدّتنا لأمّنا، والتي كانت تقفُ موديلاً لساندي، في أيام الأحد عندما يُحضرها العم مونتي لزيارتنا. وتحت هيمنة كلمة «هشّة»، كان يرسم كل تجعيد يعثر عليه في وجهها وكل التواء في أصابعها المُصابة بالالتهاب بينما الجدَّة الضئيلة، القويّة، جالسة في المطبخ وتتّخذ «وِقفة».

بعد بثّ حديث وينتشل في الإذاعة ببضعة أيام، كنا وحدنا معاً في المنزل فأخرجَ ساندي حقيبة الأوراق من تحت سريره وحملها إلى غرفة الطعام. وهناك فتحها على الطاولة (المُخصّصة لتسلية الرئيس والاحتفال بالمناسبات العائليّة الخاصة) وأخرج بعناية صور ليندبرغ من الورقة الشفّافة التي تحمي كل رسم وصفّها بنسقٍ واحد على سطح الطاولة. في الصورة الأولى، كان ليندبرغ يعتمر قلنسوة الطيران الجلديّة يتدلّى منها شريطٌ سائب فوق كل أُذُن؛ وفي الثانية، كانت القلنسوة مخفيّة جزئيّاً

تحت نظارات واقية كبيرة وثقيلة مرفوعة عالياً فوق عينيه نحو جبينه؛ وفي الثالثة، يبدو مكشوف الرأس، لا يُميِّزه شيء كطيار إلّا تحديق عنيد إلى الأفق البعيد. وإذا قدّرنا قيمة هذا الرجل، كما رسمه ساندي، فهو ليس صعب المراس. هو بطل ذكوريّ. مُغامر شجاع. شخص يتمتّع بقوة خارقة وباستقامة فطرية ممزوجتين برقّة قويّة. كان كل شيء إلّا وغداً مُخيفاً أو يُشكل تهديداً للإنسانيّة.

أخبرني ساندي «سوف يُصبح رئيساً للجمهوريّة. ألفن يقول إنَّ ليندبرغ سوف يفوز».

أثار فيَّ الكثير من الاضطراب والخوف حتى أنني تظاهرتُ بأنّه كان يمزح وضحكتُ.

قال «سوف يذهب ألفن إلى كندا وينضم إلى الجيش الكنديّ. سوف يُحارب هتلر مع البريطانيين».

قلتُ «ولكن لا أحد يستطيع أنْ يهزم روزفلت».

«ليندبرغ سوف يهزمه. سوف تُصبح أميركا فاشيّة».

ثم بقينا واقفين هناك معاً تحت تأثير الخوف من الصور الثلاث. لم يحدث أبداً أنْ كان الرقم سبعة يبدو نقصاً جدّياً.

قال «إياك أنْ تُخبر أحداً بأنَّ هذه الصور في حوزتي».

قلت «لكنَّ الماما والبابا شاهداها أصلاً. شاهداها كلّها. الجميع شاهدها».

«لقد أخبرتهم بأنني مزّقتها».

لم يكن هناك أحد يفوق أخي صراحة. لم يكن هادئاً لأنّه مُتكتِّم ومُخادِع بل لأنه لم يكن يُزعج نفسه أبداً بإساءة التصرُّف وهكذا لم يكن لديه ما يُخفي. ولكن الآن حوَّلَ شيءٌ ما خارجيّ معنى تلك الرسوم، حوّلها إلى ما ليس هي، وهكذا أخبر والدينا بأنّه تخلّصَ منها، وجعل من نفسه ما ليس هو.

قلت «لنفرض أنّهم اكتشفوا الأمر».

سألني «وكيف سيكتشفونه؟».

«لا أعلم».

قال «صحيح. أنت لا تعلم. فقط أبقِ فمك الصغير مُغلقاً ولا أحد سيكتشف أيّ شيء».

نفّذتُ ما أمرني به لأسباب عديدة، وأحدها أنّني كنت أمتلك ثالث أقدم طابع بريدي من الولايات المتحدة - لم أقو على تمزيقه ورميه - كان جويّاً بعشرة سنتات صدر عام 1927 بمناسبة عبور ليندبرغ المحيط الأطلسي. كان طابعاً أزرق اللون، طوله ضعف عرضه، وتصميمه المركزيّ، الذي يمثّل صورة لطائرة «*روح سينت لويس*» وهي تطير متّجهة شرقاً عبر المحيط، زوّدَ ساندي بالنموذج المناسب لأنَّ الطائرة التي في الرسم تتوافق مع تصوّره. وبمُحاذاة الحدّ الأبيض إلى يسار الطابع توجد خطوط سواحل أيرلندا، وبريطانيا العُظمى، وفرنسا، وكلمة «باريس» مكتوبة على طرف قوس مُنقَّط يُحدِّد مسار الطيران بين المدينتين. وفي قمّة الطابع، مباشرةً تحت الأحرف البيضاء التي تبرز كبيرة ***بريد الولايات المتحدة*** كُتِبَت الكلمات ***ليندبرغ - البريد الجوّي*** بأحرف أصغر قليلاً لكنها حتماً كبيرة بما يكفي ليقرأها صبيّ في السابعة من العمر بجلاء تامّ. وكانت قيمة الطابع معروفة سلفاً وهي عشرون سنتاً كما حدّدها فهرس سكوت القياسي للطوابع البريديّة، وما أدركته على الفور هو أنَّ قيمته سوف تستمر بالارتفاع (وبسرعة كبيرة بحيث يُصبح أثمن ما أملك) إذا صدقَ ألفن ووقع الأسوأ.

على الرصيف خلال أشهر العطلة الطويلة كنا نلعب لعبة جديدة اسمها «أنا أُعلنُ الحرب»، مُستخدمين كرة رخيصة من المطّاط وقطعة من الطباشير. بقطعة الطباشير نرسم دائرة قطرها خمسة أقدام أو ستة، ونُقسّمها إلى عديد من القِطاعات على شكل فطيرة بعدد اللاعبين، ونكتب بالطباشير على كلٍ منها اسم أحد البلدان الأجنبيّة التي ورد ذِكرها

في نشرات الأخبار على امتداد العام. بعد ذلك، ينتقي كل لاعب بلده «الخاص» ويقفُ متباعد الساقين على حافة الدائرة، إحدى القَدَمين داخلها والأخرى خارجها، بحيث عندما يحين الوقت يستطيع أنْ يهرب بسرعة. وفي تلك الأثناء، يُعلنُ لاعبٌ مُعيَّن ببطء، رافعاً الكرة عالياً بيده، بنبرة صوت مُنذِرة، «أنا-أُعلنُ-الحرب». وتسود برهة صمت ملؤها الترقُّب، ومن ثم يقوم الفتى الذي أعلن الحرب بضرب الكرة على الأرض، وفي اللحظة نفسها يصرخ «ألمانيا!» أو «اليابان!» أو «هولندا!» أو «إيطاليا!» أو «بلجيكا!» أو «إنكلترا!» أو «الصين!» - بل إنّه أحياناً يهتف «أميركا!» - وينطلقُ الجميع هاربين ما عدا الذي يُباغته الهجوم ويتلقّى الضربة. ويُصبح عمله أنْ يُمسك بالكرة عندما تقفز بأسرع ما يمكنه ويهتف «توقفوا!»، ويتّحد الجميع ضدّه ويُضطر إلى الثبات في مكانه، ويبدأ البلد الضحيّة هجوماً مُضاداً، ويُحاول أنْ يقضي على كل بلد مُعتدٍ على حِدة بضربة قوية بالكرة، ويبدأ برميها إلى أولئك الأقرب إليه ويتقدَّم بموقعه مع كل ضربة قاضية.

كنا نمارس هذه اللعبة بلا توقف. إلى أنْ تُمطِر وتزول أسماء البلدان مؤقّتاً، ويُضطر الناس إمّا أنْ يطؤوا عليها أو يطؤوا فوقها وهم ينطلقون في الشارع. وفي حيّنا لم يكن هناك نشاط آخر يمكن الحديث عنه في تلك الأيام، فقط هذا، ما تبقّى من ألعاب الشوارع البسيطة. وهي بريئة، ومع ذلك كانت تدفع بعض الأمهات اللائي كنّ يسمعننا من خلال النوافذ إلى الجنون ونحن نمارسها طوال ساعات لا تنتهي. «ألا تستطيعون أيّها الأولاد أنْ تفعلوا شيئاً آخر؟ ألا تستطيعون أنْ تلعبوا لعبة أخرى» لكننا لم نستطع - كانت لعبة إعلان الحرب هي كل ما نفكّر فيه.

في الثامن عشر من شهر تموز (يوليو)، عام 1940، رشّحَ اجتماع المؤتمر الديمقراطيّ في شيكاغو بالإجماع فرانكلين ديلانو روزفلت لولاية ثالثة من الاقتراع الأول. واستمعنا عبر المذياع إلى خطاب قبوله

الترشيح، الذي ألقاه بنبرة مُنغّمة واثقة خاصة بالطبقة الراقية ألهمتْ، وما زالت تُلهمُ حتى الآن بعد ما يُقارب ثماني سنوات، الملايين من العائلات العاديّة كعائلتنا بالتمسُّك بالأمل وسط المشقّة. كان هناك شيء في اللباقة المتأصّلة في الخطاب الذي لم يعمل، على الرغم من غرابته، على التخفيف من قلقنا فقط بل أضفى على عائلتنا أيضاً مغزى تاريخيّاً، ودمج حياتنا بصورة حازمة مع حياته ومع حياة الأمّة بأكملها عندما خاطبنا ونحن في غرفة جلوسنا بوصفنا «أقرانه من المواطنين». ولو أن الأميركيين استطاعوا أنْ يختاروا ليندبرغ - أو استطاعوا أنْ يختاروا *أيّ شخص* - غير الرئيس الذي أمضى فترتيّ ولاية وهيمن بصوته وحده على اضطراب القضايا الإنسانيّة... حسن، لكان شيئاً لا يمكن تصوّره، وحتى ذلك الحين لم يكنْ أميركيٌّ صغيرٌ مثلي قد سمع حتماً صوت أي رئيس غير هذا.

بعد ذلك بحوالي ستة أسابيع، في يوم السبت السابق لعيد العمّال، فاجأ ليندبرغ البلاد بعدم حضوره تظاهرة عيد العمال في ديترويت، حيث كان مُقرّراً أنْ يُطلِقَ حملة مع موكب سيارات خلال قلب منطقة الطبقة العاملة لأميركا الانعزاليّة (ومعقل الأب كوفلن وهنري فورد المُعادي للساميّة)، وبوصوله بدل ذلك من دون سابق إنذار إلى مطار لونغ أيلند الذي كان قد انطلقَ منه في عبور رائع للمحيط الأطلسيّ طائراً قبل ذلك بثلاثة عشر عاماً. وكانت طائرة «*روح سينت لويس*» قد أُخفيَتْ سراً تحت قماش مُشمَّع وخُزِنَتْ خلال الليل في حظيرة نائية، على الرغم من أنّه في الوقت الذي جرَّ ليندبرغ الطائرة إلى المُدرَّج في صباح اليوم التالي، كان لمراكز خدمة اللاسلكي كلها وكل محطة إذاعة وصحيفة في نيويورك مُراسلٌ حاضرٌ لمشاهدة عمليّة الانطلاق، غرباً هذه المرّة عبر أميركا نحو كاليفورنيا وليس شرقاً عبر الأطلسي إلى أوروبا. وطبعاً، بحلول عام 1940، كانت خدمة الطيران التجاريّ تنقل عبر القارات البضائع، والمسافرين، والبريد، منذ أكثر من عقد من الزمان، وكانت تفعل ذلك

إلى حدٍ بعيد نتيجة تحريض إنجاز ليندبرغ الإفراديّ وجهوده الحثيثة كمُستشار بمرتّب مليون دولار في العام للخطوط الجويّة المُنظَّمة حديثاً. ولكن ليس المؤيّد الثريّ للطيران التجاريّ هو الذي كان يُطلِق حملته في ذلك اليوم، ولا ليندبرغ الذي تقلَّدَ في برلين شعار النازيّة هو الذي وضع صراحة اللوم، في البث الإذاعيّ عبر البلاد، على اليهود المتنفّذين لمُحاولتهم جرّ البلاد إلى الحرب، ولا حتى الأب الرواقيّ للطفل الذي اختُطِفَ وقتَلَه برونو هاوبتمان[10] في عام 1932. بالأحرى كان ربّان البريد الجويّ المجهول هو الذي جرؤ على القيام بما لم يقُم به أيّ طيّار قبله، النسر المتوحِّد المحبوب، الذي لا يزال بريئاً ونقيّاً، على الرغم من سنوات الشهرة الاستثنائيّة. وفي العطلة الأسبوعيّة التي ختمَتْ صيف عام 1940، لم يقترب ليندبرغ حتى من تحقيق رقم قياسي في الطيران من دون توقّف بين الساحلَين الشرقي والغربي الذي كان هو نفسه قد حقّقه قبل ذلك بعقد من الزمان بطائرة أكثر تقدُّماً من طائرة «*روح سينت لويس*» القديمة. ومع ذلك، عندما وصل إلى مطار لوس أنجلوس، غمر الحماس حشداً يتألّف بدرجة كبيرة من عمال المطار - يبلغ عددهم عشرات الآلاف، جمعهم كبار أصحاب المصانع الجُدُد في لوس أنجلوس وحولها - كحال كل مَنْ رحّبَ به في أي مكان.

اعتبرَ الديمقراطيون رحلة الطيران خدعة علنيّة أعدّها طاقم ليندبرغ، في حين أنَّ قرار الطيران إلى كاليفورنيا اتّخذه ليندبرغ وحده قبل ذلك ببضع ساعات وليس المُحترفين الذين عيَّنهم الحزب الديمقراطيّ لدفع المبتدئ في مجال السياسة في حملته السياسيّة الأولى والذين توقعوا منه، كما من أي شخص آخر، أنْ يحضر اجتماع ديترويت.

كان خِطابه غير مُنمَّق ومباشَر، أُلقيَ بنبرة عاليّة، فاترة، بأسلوبِ

10- برونو هاوبتمان (1899-1936): نجّار أميركي، أُدينَ بخطف ثم قتل ابن تشارلز ليندبرغ وزوجته آن مورو ليندبرغ البالغ من العمرعشرين شهراً، وأصبحتْ هذه الجريمة تُعرَف باسم «**جريمة القرن**». - المترجم

الغربِ الأوسط، وبصوتٍ أميركيّ بعيدٍ حتماً عن أسلوب روزفلت. كان يرتدي ملابس الطيران المؤلَّفة من حذاء طويل العنق وبنطلون ركوب الخيل وسترة رياضية خفيفة ارتداها فوق قميص وربطة عنق تُشبه تلك التي وضعها عندما عبر الأطلسيّ، وتكلَّم من دون أنْ يخلع غطاء الرأس الجلديّ أو نظارات الطيران، التي كانت مرفوعة عالياً نحو الجبين تماماً كما كان ساندي قد وضعها في رسمه بقلم الفحم الذي أخفاه تحت سريره.

قال للحشد الخشن، بعد أنْ كفّوا عن الهتاف باسمه، «إنَّ نيَّتي في خوض هذه المعركة الرئاسيّة هي الحِفاظ على الديمقراطيّة الأميركيّة بمنع أميركا من خوض حربٍ عالميّةٍ أخرى. إنَّ خياركم بسيط. إنّه بين تشارلز أ. ليندبرغ وفرانكلين ديلانو روزفلت. إنّه بين ليندبرغ والحرب».

كان هذا محتواه كله - واحد وأربعون كلمة، بعد إضافة حرف ألف الذي يدل على أوغسطوس.

بعد أخذ دُش وتناول إفطار خفيف وقيلولة مدتها ساعة في مطار لوس أنجلوس، ركبَ المُرشَّح طائرة «*روح سينت لويس*» وطار إلى سان فرانسيسكو. ومع حلول الليل كان قد وصل إلى سكرامنتو. وأينما كان الموقع الذي حطَّ فيه في كاليفورنيا في ذلك اليوم، فكأنَّ البلد لم يعرف بأمر انهيار سوق البورصة وبؤس فترة الكساد الاقتصادي (أو انتصارات فرانكلين ديلاني روزفلت، في هذا المجال)، وكأنَّ الحرب التي كان موجوداً هناك لمنعنا من الاشتراك فيها لم تخطر في باله البتّة. لقد هبط ليندي من السماء بطائرته الشهيرة، وكأنَّ عام 1927 عاد من جديد. عاد ليندي من جديد، ليندي بكلامه الصريح، الذي لم يبدُ قط مُترفّعاً أو تكلَّم بترفُّع، كان ببساطة مترفّعاً **فعلاً** - ليندي غير الهيّاب، الشاب والناضج برصانة في وقتٍ واحد، الفردانيّ الصارم، الأميركيّ المُعجِز الذي يُنجِز المستحيل بالاتّكال فقط على نفسه.

على مدى الشهر ونصف الشهر التالي استمر في قضاء يوم كامل في كل

ولاية من الولايات الثماني والأربعين، إلى أنْ عاد أدراجه في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) إلى مدرج مطار لونغ أيلند الذي كان قد أقلعَ منه لقضاء عطلة نهاية أسبوع عيد العمّال. وطوال ساعات النهار كان ينتقل من كل مدينة، أو بلدة، أو قرية إلى التي تليها، ويهبط على الطرقات العامة إذا لم تكن هناك مدارج قريبة ويهبط ويُقلِع من شريط من المرج عندما يطير لكي يتحدث مع المزارعين وعائلاتهم في أقصى بقاع الريف الأميركيّ. وكانت تصريحاته في المدرج تُبثّ عبر أثير الإذاعات المحليّة والإقليميّة، وكان يبعثُ رسالة إلى الأمّة مرات عديدة خلال الأسبوع، من عاصمة الولاية حيث يقضي الليل. كانت دائماً بليغة وتجري على النحو التالي: لقد فات الأوان الآن لمنع نشوب الحرب في أوروبا. لكنَّ الأوان لم يفُتْ بعد لمنع أميركا من التورُّط في تلك الحرب. إنَّ فرانكلين ديلانو روزفلت يُضلِّل الأمّة. سوف تُجرّ أميركا إلى الحرب على يد رئيس جمهوريّة يعِدُ بسلام زائف. والخيار بسيط. صوّتوا لليندبرغ أو صوّتوا للحرب.

عندما كان ليندبرغ ربّاناً شاباً في أيام الطيران الأولى، أيام الابتكار، كان يقوم مع صديق حميم أكبر سناً، وأكثر خِبرة، بتسلية الجماهير على امتداد الغرب الأوسط بالتزلج في الهواء بمظلّة أو بالمشي على جناح الطائرة من دون مظلّة، وأسرع الديمقراطيون إلى الاستخفاف بجولاته في المناطق الريفيّة على متن «*روح سينت لويس*» بتشبيهها بتلك الحركات البهلوانيّة التي يقوم بها. وفي المؤتمرات الصحفيّة، لم يعُد روزفلت يُزعج نفسه بالإدلاء بتعليقات ساخرة عندما يسأله الصحفيون عن حملة ليندبرغ الجامحة، بل يكتفي بمتابعة مناقشة مخاوف تشرشل من وقوع اجتياح ألماني وشيك لبريطانيا أو يُعلن أنّه سوف يطلب من الكونغرس أنْ يُموِّل أول قرعة أميركيّة تُجرى للتجنيد العسكري في وقت السِلم أو يُذكِّر هتلر بأنَّ الولايات المتحدة لن تقبل بأي تدخُّل بالإعانة المُرسَلة عبر الأطلسي التي كانت سُفننا التجاريّة تزوِّد بها المجهود الحربيّ في بريطانيا. كان جليّاً منذ البداية أنَّ حملة رئيس الجمهوريّة سوف تتضمَّن البقاء في البيت

الأبيض حيث كان يُخطط، خلافاً لتصنيف السكرتير إيكس لـ«مهرجان ليندبرغ الغريب الأطوار»، لمُواجهة مخاطر الوضع الدوليّ بكل السُلطة المتوفّرة له، بالعمل الدؤوب على مدار الساعة إذا لزم الأمر.

في مناسبتين خلال جولته بين الولايات، كان ليندبرغ يضيعُ وسط الطقس السيئ وفي كل مرة تمر ساعات عديدة قبل أنْ يعود الاتّصال بالإذاعة ويتمكّن من إبلاغ الأمّة برمّتها بأنّه على ما يُرام. ولكن في شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وفي اليوم نفسه حين ذُهلَ الأميركيون عندما علِموا أنّه خلال الغارات الجويّة الأخيرة على لندن في الليلة المُدمِّرة التي قصفَ فيها الألمان كاتدرائيّة القديس بولس، ورد خبرٌ عاجل في وقت العشاء يُفيدُ بأنَّ طائرة «*روح سينت لويس*» شوهِدَتْ تنفجر في الجو فوق سلسلة جبال الليغيني[11] وتسقط عمودياً على الأرض كتلة من النار. وهذه المرة مرّتْ ست ساعات طوال قبل أنْ يصدر خبر عاجل ثانٍ يُصحِّح الخبر الأول بالقول إنّ ما أجبرَ ليندبرغ على الهبوط اضطرارياً في منطقة غادرة وسط الجبال غرب بنسلفانيا كان عطلاً في المُحرِّك وليس انفجاراً في الجو. ولكن قبل أنْ يُذاع التصحيح، بدأ جرس هاتفنا يرنُّ باستمرار – من أصدقاء وأقارب يتصلون لكي يتحدثوا مع والديّ عن السرد الأوّليّ لحادث الاحتراق وربما القاتل. ولم يكن الوالدان يذكران أي شيء أمام ساندي وأمامي ينمّ عن الارتياح لاحتمال موت ليندبرغ، على الرغم من أنّ أيّاً منهما لم يقل أنّه يأمل في ألّا يكون الأمر كذلك ولا ابتهج عندما وصل، عند حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، خبرٌ يُفيدُ بأنَّ النسرَ المتوحِّد، على الرغم من كونه سقط وسط كتلة من نار، خرج آمناً من الطائرة التي كانت سليمة وأنّه فقط ينتظر مَنْ يحلّ محلّه لكي ينطلق ويُتابع حملته.

11- سلسلة جبال الليغيني: سلسلة من الجبال تمتد في الولايات المتحدة عبر ولايات بنسلفانيا، وميريلاند، وفيرجينيا، وويست فيرجينيا، وتشكّل جزءاً من جبال الأبالانش. – المترجم

في صباح ذلك اليوم من شهر تشرين الأول (أكتوبر) الذي حطَّ ليندبرغ فيه بطائرته في مطار نيوارك، كان بين الحاشية المنتظرة للترحيب به في نيو جرزي الحاخام ليونيل بنغلسدورف من بناي موشى، أول المعابد المُحافِظة، التي أعدّها اليهودُ البولونيون. وكان معبد بناي موشى يقع بالقُرب من قلب حي عربات اليد القديم، الذي ما زال الحيّ الأشدّ فقراً في المدينة على الرغم من أنّه لم يعُد مأوى رعايا المعبد بل يضم الزنوج المُعدمين، المُهاجرين الحديثين من الجنوب. وعلى امتداد سنين عديدة كان معبد بناي موشى يخسر باستمرار المنافسة لمصلحة الأثرياء؛ وبحلول عام 1940 كانت تلك العائلات إمّا غادرتْ وانضمت إلى أبرشيّة بناي جيشورون وأوهيب شالوم - وكلاهما قائم بصورة لافتة وسط قصور قديمة في هاي ستريت - أو انضموا إلى المعبد المُحافِظ العريق الآخر، بناي أبراهام، الكائن على مسافة بضعة أميال إلى الغرب من الموقع الذي كان فيه أصلاً كنيسة معمدانيّة سابقة وهو الآن مُجاور لمنازل الأطباء والمحامين اليهود القاطنين في كلينتون هيل. ومعبد بناي أبراهام الجديد كان الأكثر روعة بين معابد المدينة، مبنى دائري صُمِّم بتقشُّف على ما كان يُسمّى «الأسلوب الإغريقيّ» وهو رحب بما يكفي لاستقبال ألفٍ من المُصلّين في العُطل الكبرى. وكان يواكيم برينتز، وهو مُهاجِر طرده غوستابو هتلر من برلين، قد حلَّ محل المتقاعِد يوليوس سيلبرفيلد كحاخام للمعبد قبل عام، وكان قد بدأ يظهر كرجلٍ قويّ يحمل وجهة نظر اجتماعيّة رحبة الأفق ومنح أتباعه الأثرياء منظوراً على التاريخ اليهوديّ مطبوعاً بقوةٍ بتجربته الخاصة الحديثة في المشهد الدمويّ للجريمة النازيّة.

كانت عِظات الحاخام بنغلسدورف تُبثّ أسبوعيّاً عبر أثير إذاعة WNJR للعامة الذين يُسمّيهم «رعاياي عبر أثير الإذاعة» وقد ألَّفَ عدداً من دواوين الشِعر المُلهِم كان يُهديها للأولاد الذين وصلوا سن البلوغ والمتزوجين حديثاً. كان قد وُلِدَ في جنوب كارولاينا في عام 1879، لابن تاجر أقمشة

وملابس جاهزة مُهاجر، وكلما خاطبَ جمعاً من اليهود، سواء من فوق المنبر أو عبر أثير الإذاعة كانت نبرة صوته الجنوبيّة المصقولة، بالإضافة إلى الإيقاعات الرخيمة - وإيقاعات اسمه متعدِّد المقاطِع - تتركُ انطباعاً بالعمق المهيب. على سبيل المثال، حول موضوع صداقته مع الحاخام سيلبرفيلد من معبد بناي أبراهام والحاخام فوستر من بناي جيشورون، أخبر جمهوره ذات يوم «كان ذلك مُقدَّراً: وكما أنَّ سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، ينتمون معاً إلى العالم القديم، كذلك ننتمي نحن معاً إلى العالم المتديِّن». والموعظة التي تدور حول الإيثار وألقاها لكي يشرح لجمهوره عبر الإذاعة السبب الذي يحدو بحاخام في مركزه إلى أنْ يبقى على رأس رعايا يتضاءل عددهم، بدأها بالقول، «قد تهتمون بإجابتي عن الأسئلة التي طرحها عليّ آلاف الأشخاص. لماذا تَشجب الأرباح التجاريّة التي يجنيها رجال الكهنوت المشّاؤون؟ لماذا اخترتَ أنْ تمكثَ في نيوارك، في معبد بناي موشى، واعتباره منبركَ الوحيد، في حين أمامك ست فُرَص في كل يوم لتركه إلى رعايا آخرين؟» وكان قد درسَ في مؤسّسات تعليميّة كبيرة في أوروبا بالإضافة إلى الجامعات الأميركيّة وعُرِفَ عنه إتقانه عشر لغات؛ لكي يتضلَّع في الفلسفة الكلاسيكيّة، واللاهوت، وتاريخ الفن، والتاريخ القديم والحديث؛ وكي لا يتنازل في قضايا المبدأ؛ وألّا يُشير إلى ملاحظات على المِقرأ أو وهو على منصّة إلقاء المُحاضرات؛ وأنْ يحمل معه دائماً مجموعة من أوراق الملاحظات حول المواضيع الرئيسة التي تشغل باله أكثر من غيرها في اللحظة الراهنة، وأضاف إلى ذلك تأملات جديدة وانطباعات يوميّة. وكان أيضاً فارساً ممتازاً، معروفاً عنه أنّه أوقفَ حصانه لكي يُدوِّن على عَجَل فكرة طارئة، مُستخدماً سرجه كطاولة كتابة مؤقّتة. وفي الصباح الباكر من كل يوم، كان يقوم بتمارينه الرياضية بركوب الدراجة على الدروب الخاصة بمرور الجياد في المتنزه اليهوديّ، تُرافقه - حتى وفاته متأثّراً بمرض السرطان في عام 1936 - زوجته، وريثة أشدّ صانعي المجوهرات ثراءً في نيوارك. وكان قصر عائلتها في جادّة

إليزابيث، حيث عاش الزوجان قبالة المتنزه منذ زواجهما في عام 1907، يضمُّ كنزاً من التراث اليهودي الذي قيلَ إنّه من بين أنفس المجموعات الخاصّة في العالم.

بحلول عام 1940 أعلن ليونيل بنغلسدورف أنّه صاحب أطول مدّة خدمة في معبده من أي حاخام في أميركا. وأشارت الصُحف إليه بوصفه الزعيم الدينيّ في نيو جرزي الجديدة، وفي مناسبات ظهوره العلني العديدة كان يذكر دائماً «موهبته في الخطابة» بالإضافة إلى إتقانه اللغات العشر. وفي عام 1915، في الذكرى الـ 250 لإعلان تأسيس نيوارك، جلس إلى جوار العمدة ريموند ورتّلَ الابتهال الدينيّ كما يفعل في كل عام خلال الاستعراضات التي تجري في يوم الذكرى وفي الرابع من تموز (يوليو): كان العنوان «*الحاخام يُمجِّد إعلان الاستقلال*» يتصدَّر صحيفة *ستار-ليدجر* كل عام في الخامس من تموز. وفي عِظاته وأحاديثه كان يعتبر أنَّ «تطوير مُثُل أميركا العليا» له الأولويّة بالنسبة إلى اليهود وأنَّ «أمركة الأميركيّين» هي الوسيلة الأفضل للحِفاظ على ديمقراطيتنا في وجه «البلشفيّة، والراديكاليّة، والفوضويّة»، وكان دائماً يستعين بمقتطفات من رسالة ثيودور روزفلت الأخيرة إلى الأمّة، التي قال فيها الرئيس الراحل، «هنا لا يمكن أنْ يوجد تحالف مُجزّأ. وكل مَنْ يقول إنّه أميركيّ، بالإضافة إلى شيء آخر، ليس أميركياً البتّة. لا مكان إلّا لعَلَم واحد، هو العلم الأميركيّ». وكان الحاخام بنغلسدورف قد تكلَّمَ عن أمركة الأميركيين في كل كنيسة ومدرسة حكوميّة في نيوارك أمام كل جماعة أخويّة، ومدنيّة، وتاريخيّة وثقافيّة في الولاية، وكل المقالات الإخباريّة في صُحُف نيوارك التي تحدّثتْ عن خطاباته ذُكِرَت بتواريخها مقرونة بأسماء عدد كبير من المُدُن في أرجاء البلاد التي دُعيَ إليها ليخطب في مؤتمرات واجتماعات حول هذا الموضوع بالإضافة إلى قضايا تتراوح ما بين الجريمة وحركة إصلاح السجون - «إنَّ حركة إصلاح السجون مُشبّعة بأرقى المبادئ الأخلاقيّة والمُثُل العُليا الدينيّة» - وأسباب نشوب

الحرب العالميّة - «إنَّ الحرب هي نتيجة الطموحات الدنيويّة للشعوب الأوروبيّة وجهودها لبلوغ غاياتها في العَظَمَة العسكريّة، والسُلطة، والثراء» - وأهميّة دور الحضانة النهاريّة - «إنَّ دور الحضانة هي حدائق الحياة للأزهار الإنسانيّة التي تساعد كل طفل على النمو في جوّ من الفرح والسعادة» - وشرور العصر الصناعيّ - «نعتقدُ أنَّ قيمة الرجل العامل لا ينبغي أنْ تُقدَّر بالقيمة المادّيّة لإنتاجه» - وحركة حق الانتخاب، التي كان يُعارِض بشدّة اقتراحها أنْ يمتد حق الانتخاب ليتضمَّن النساء، بحجّة أنَّه «إنْ كان الرجال غير قادرين على إدارة شؤون الولاية، فلِمَ لا نُساعدهم ليكونوا كذلك. إنَّ الشرّ لا يُقاوَم بمُضاعفته». وعمي مونتي، الذي كان يكره الحاخامات كلهم لكنّه يكنُّ امتعاضاً حاقداً من بنغلسدورف يعود عهده إلى فترة طفولته كطالب في الأعمال الخيريّة في مدرسة بناي موشى الدينيّة، ويحبّ أنْ يقول عنه «إنَّ ابن الحرام الطنّان يعرف كلّ شيء - من المؤسف أنّه لا يعرف أيّ شيءٍ آخر».

كان ظهور الحاخام بنغلسدورف في المطار - الذي وقفَ فيه للمرة الأولى، حسب التعليق الوارد تحت الصورة الفوتوغرافيّة على صفحة غلاف صحيفة نيوارك نيوز، في طابور لكي يُصافح يد ليندبرغ عندما خرج من قمرة طائرة «*روح سينت لويس*» - مصدر ذعر عددٍ كبير من يهود المدينة، وكان والداي بينهم، وكذلك الكلام المُقتطَف الذي نُسِبَ إليه وورد في الصحيفة عن زيارة ليندبرغ القصيرة. قال الحاخام بنغلسدورف للصحيفة، «لكي نُزيل كل شك حول الولاء الخالص لليهود الأميركيين للولايات المتّحدة الأميركيّة. وعرضتُ دعمي لترشيح الكولونيل ليندبرغ لأنَّ الأهداف السياسيّة لرعاياي تتطابق مع أهدافه. إنَّ أميركا هي وطننا الأم الحبيب. أميركا هي أرض وطننا الوحيد. وديننا مُستقلّ عن أي قطعة أرض خلاف هذا البلد العظيم، الذي نُسخِّر كامل إخلاصنا وتحالفنا له كأشدّ المواطنين افتخاراً به، الآن وإلى الأبد. وأريدُ لتشارلز ليندبرغ

أنْ يكون رئيسي ليس رُغماً عن كوني يهوديّاً بل لأنني يهوديّ - ***يهوديّ أميركي***».

بعد ذلك بثلاثة أيام، شارك بنغلسدورف في مسيرة ضخمة أُقيمَتْ في ماديسون سكوير غاردن بمناسبة نهاية جولة ليندبرغ بالطائرة. وحينئذٍ لم يكن قد تبقّى على الانتخابات أكثر من أسبوعَين، وعلى الرغم من أنّه بدا أنَّ دعمَ ليندبرغ يزداد بين المُنتخبين في كل أرجاء الجنوب الديمقراطي تقليديّاً، إلّا أنّه تمَّ التنبّؤ بتقارُب المنافسات في أشد ولايات الغرب الأوسط مُحافَظَة، وبيّنت الاستفتاءات الوطنيّة أنَّ الرئيس يتقدَّم بنسبة مُريحة في التصويت الشعبيّ ويتقدَّم كثيراً في التصويت الانتخابيّ. وقد قيل إنَّ زعماء الحزب الجمهوريّ في حالة يأس بسبب عناد مُرشّحهم في رفضه السماح لأي شخصٍ غيره بتحديد استراتيجيّة حملته الانتخابيّة، وهكذا، من أجل إبعاده عن الصرامة المتكرّرة لجولته الانتخابيّة التي لا تنتهي وإحاطته بجوٍ أقرب شَبَهاً بجو الاجتماع العاصِف لتعيين المُرشّح في فيلادلفيا، نُظِّمَتْ مسيرة ماديسون سكوير غاردن وبُثَّتْ وقائعها إلى كل أرجاء البلاد في أمسيّة ثاني يوم إثنين من شهر تشرين الأول (أكتوبر).

وُصِفَ المتكلِّمون الخمسة عشر الذين عرَّفوا بليندبرغ في تلك الليلة بأنّهم «شخصيات أميركيّة بارزة تمثّل كل المِهَن في الحياة». ومن بين نظام الوكالات زعيم مزارع جاء لكي يتكلَّم عن الأذى الذي تتسبَّب به الحرب للزراعة في أميركا، التي تمرّ بأزمة منذ الحرب العالميّة الأولى وفترة الكساد الاقتصاديّ؛ وزعيم عُمّاليّ تحدّث عن الكارثة التي سوف تتسبَّب بها الحرب للعمّال الأميركيين، الذين سوف يخضَعون للوكالات الحكوميّة؛ ورجل صناعة تكلَّم عن العواقب الكارثيّة الطويلة الأمد على الصناعة الأميركيّة من تضخُّم وضرائب مُرهِقة في زمن الحرب؛ ورجل دين بروتستانتي تحدّثَ عن التأثير الوحشيّ للحرب الحديثة على الشبّان الذين يخوضون هذه الحرب؛ وقسيس كاثوليكيّ تحدّثَ عن الانحطاط الحتمي للحياة الروحيّة لأمّةٍ مُحبّةٍ للسلام كأمّتنا وعن دمار التهذيب

والرأفة بسبب الكراهيّة التي ستفرزها الحرب. وأخيراً كان هناك حاخام، ليونيل بنغلسدورف من نيو جرزي، الذي استُقبِلَ استقبالاً حافلاً خاصّاً من كل المجتمعين الداعمين لليندبرغ عندما جاء دوره ليقف أمام المِقرأة وقد حضر لكي يُطنِب حول أنَّ ارتباط ليندبرغ بالنازيين ليس جريمة.

قال ألفن «نعم، لقد قبلوه. دبّروا الأمر. أقحموا خاتماً ذهبيّاً في أنفه اليهوديّ الكبير، وبات في إمكانهم الآن أنْ يقودوه إلى أي مكان».

قال والدي، ولكن ليس لأنه هو نفسه استشاط غضباً من سلوك بنغلسدورف، «أنت لا تعرف هذا». قال لألفن «أصغي إلى الرجل، اسمع ما يقول. إنّه مجرد معرَض» - كانت الكلمات تُقال إلى حدٍ بعيد لفائدة ساندي وفائدتي، كي لا يبدو منحى الأحداث المُذهل رهيباً لنا نحن الاثنين كما بدا للبالغين. وفي الليلة السابقة، كنتُ قد سقطتُ على الأرض وأنا نائم، وهو أمر لم يكن قد حدث معي منذ أنْ انتقلتُ من المهد إلى السرير ولكي يمنعني والداي من السقوط منه وضعا كرسيَّين من كراسي المطبخ بجانب الفراش. وعندما افتُرِضَ تلقائياً أنَّ سقوطي هكذا بعد كل تلك السنين له صِلة بظهور ليندبرغ في مطار نيوارك، أصررتُ على أنني لا أتذكَّر أنني رأيتُ كابوساً يتضمَّن ليندبرغ، وأنني تذكّرتُ فقط أنني استيقظتُ وأنا على الأرض بين سرير أخي وسريري، على الرغم من أنني عرفتُ مُصادفةً أنني في الحقيقة لم أعُد أنام أبداً من دون أنْ تتراءى لي صور ليندبرغ المرسومة المدسوسة داخل حقيبة أوراق أخي. ووددتُ لو أطلب من ساندي أنْ يُخفيها داخل صندوق التخزين في قبونا بدل أنْ يضعها تحت السرير المُجاور لسريري، ولكنْ لأنني كنتُ قد أقسمتُ على ألّا أتكلَّم عن الرسوم بعد الآن - ولأنني لم أستطع أنْ أتخلّى عن طابعي الذي يحمل صورة ليندبرغ - لم أجرؤ على ذِكرها بوصفها قضيّة هامة، على الرغم من أنها كانت في الحقيقة تسكنني وتمنعني من مفاتحة أخي الذي كنتُ في أمسّ الحاجة إلى تطمينه أكثر من أي وقت مضى.

كانت أمسية باردة. وكانت المدفأة مشتعلة والنوافذ مغلقة، ولكن

حتى مع عدم قدرتي على سماع أجهزة الراديو كنتُ أعلمُ أنها مفتوحة في كل أرجاء الحيّ وأنَّ العائلات التي لولا هذا الوضع ما كانت لتفكّر في الاستماع إلى مهرجان ليندبرغ فتحت الأجهزة بسبب موعد بثّ برنامج الحاخام بنغلسدورف. وكان بعضٌ من الشخصيات الهامة، من رعاياه، قد بدأوا يُنادون باستقالته، إذا لم يكن بطرده بقرارٍ من هيئة القيِّمين في المعبد، بينما الغالبية العُظمى التي تسانده حاولتْ أنْ تُصدِّق أنَّ حاخامها يُمارس فقط حقّه الديمقراطيّ في حريّة الكلام وأنَّ محاولة إسكات ضميرٍ مشهورٍ كضميره، على الرغم من إحساسها بالرعب من مُصادقته العلنيّة على ترشيح ليندبرغ، ليس من ضمن حقوقها.

في تلك الليلة كشفَ الحاخام بنغلسدورف لأميركا ما ادّعى أنّه الدافع الحقيقيّ وراء قيام ليندبرغ بمهامّه الجويّة الشخصيّة إلى ألمانيا في حقبة الثلاثينيات. أبلغنا الحاخام قال «خِلافاً للدعاية السياسيّة التي نشرها مُنتقدوه، لم يقم ولا مرة واحدة بزيارة ألمانيا كمُتعاطِف أو كداعِم لنظام هتلر بل سافر في كل مرة بوصفِهِ مُستشاراً سرّيّاً لحكومة الولايات المتّحدة. ولما كان بعيداً كل البُعد عن خيانة أميركا، كما كان المُضللون وسيئوا النية يتّهمونه، قام الكولونيل ليندبرغ بمبادرة فرديّة تقريباً على تقوية الاستعداد العسكري لأميركا بنقل معرفته لجيشنا وبفعله كل ما في مقدوره لدفع قضيّة الطيران الأميركيّ إلى الأمام وتوسيع دفاعات أميركا الجويّة».

هتف والدي «يا إلهي! الجميع *يعلمون* –».

همس ألفن «هسسسس، هسسس – دعوا الخطيب يتكلَّم».

«نعم، في عام 1936، وقبل بداية الحرب الأوروبيّة بوقت طويل، قلَّدَ النازيّون الكولونيل ليندبرغ ميداليّة» ثم استأنف بنغلسدورف قائلاً «و، نعم، نعم، لقد قبِلَ الكولونيل ميداليّتهم. ولكنّه كان طوال الوقت، يا أصدقائي، كان طوال الوقت يستغلّ إعجابهم به لكي يحمي ويُحافظ بشكل أفضل على ديمقراطيتنا ويُحافظ على حياديّتنا عبر القوة».

باشر والدي بالقول «*لا أصدِّق* -».

تمتم ألفن بصوت شرير «حاوِلْ».

أعلنَ بنغلسدورف «هذه ليست حربَ أميركا»، فاستجاب الحشد المتجمِّع في ماديسون سكوير غاردن على مدى دقيقة كاملة بتصفيق حار. قال لهم الحاخام «إنَّ هذه حرب أوروبيّة» ومرة أخرى تصفيق متواصل. «إنها واحدة من سلسلة من الحروب الأوروبيّة توالتْ على مدى ألف عام وتعود بدايتها إلى عصر شارلمان. إنها حربهم المُدمِّرة الثانية في أقلّ من نصف قرن. وهل هناك مَنْ ينسى التكلفة الباهظة التي دفعتها أميركا ثمناً لحربهم العُظمى الأخيرة؟ لقد قُتِلَ أربعون ألفاً من الأميركيين وهم يُحاربون هناك. وجُرِحَ مئة واثنان وتسعون ألفاً من الأميركيين. ومات ستّة وسبعون ألفاً من الأميركيين من المرض. واليوم هناك ثلاثمئة وخمسون ألفاً من الأميركيين المُعاقين وكل ذلك بسبب مُساهمتهم في تلك الحرب. فأي مبلغٍ فَلَكيّ سوف ندفعه هذه المرة؟ وأعداد موتانا - أخبرني، أيّها الرئيس روزفلت، هل سيكون فقط مُضاعفاً أم مضروباً بثلاثة أم ربما بأربعة؟ أخبرني، سيدي رئيس الجمهوريّة، أيّة أميركا سوف تُخلِّف المذبحة الهائلة للفتية الأميركيين الأبرياء وراءها؟ طبعاً، إنَّ عمليات التعذيب والإعدام التي تمارسها النازيّة على رعاياها اليهود الألمان تُسبِّب لي كما لكلّ يهوديّ ألماً لا يُحتَمَل. وخلال سنوات دراستي اللاهوت في كليّات أعظم الجامعات الألمانيّة في هايدلبرغ وفي بون، عقدتُ الكثير من الصداقات المُميَّزة هناك، مع رجال مُثقفين طُرِدوا اليوم، لمجرّد كونهم ألماناً من أصل يهوديّ، من مناصبهم العلميّة التي احتفظوا بها زمناً طويلاً واضطُهِدوا بوحشيّة على أيدي السفاحين النازيين الذين سيطروا على وطنهم. إنني أشجبُ معاملتهم بكل ذرة من قوتي، والكولونيل ليندبرغ أيضاً يشجبها. ولكن كيفَ سيُخفِّف انضمام بلدنا العظيم إلى مُحاربة مُضطهديهم من وطأة هذا المصير الوحشيّ الذي حلَّ بهم؟ إنَّ مأزق *كل* يهود ألمانيا سوف يزداد سوءاً إلى أقصى مدى - وأخشى أنّه سيزداد سوءاً

بصورة مأساويّة. نعم، أنا يهوديّ، وبوصفي يهودياً أشعر بمعاناتهم بحِدَّة عائليّة. ولكنّني مواطنٌ أميركيّ، يا أصدقائي» - مرة أخرى تصفيق حارّ - «وُلِدتُ ونشأتُ أميركيّاً، وعلى هذا أسألكم، كيف يمكن تخفيف ألمي إذا تورّطتْ أميركا اليوم في الحرب وحاربَ أبناء عائلاتنا اليهوديّة، جنباً إلى جنب مع أبناء عائلاتنا البروتستانتيّة وأبناء عائلاتنا الكاثوليكيّة، وماتوا بعشرات الآلاف في ساحة الحرب الأوروبيّة المُشبّعة بالدماء؟ كيف يمكن لألمي أنْ يزول باضطراري إلى مواساة رعاياي -».

كانت أمي، وهي في المعتاد العضو الأقلّ حماساً في عائلتنا، تقوم بصورة اعتياديّة بتهدئتنا عندما نغالي في التعبير عن انفعالاتنا، وعلى الفور تجد لكْنَة بنغلسدورف الجنوبيّة لا تُطاق إلى درجة أنّها تضطر إلى مغادرة الغرفة. ولكنْ إلى أنْ ينتهي من إلقاء خطابه ويُقابل بالتهليل الصاخب وهو ينزل عن المنصّة من قِبَل جمهور غاردن، لا يتحرّك أي شخصٍ آخر أو ينطق بأيّة كلمة أخرى. ولم أجرؤ على ذلك، وكان أخي منهمكاً - كعادته في مثل ذلك الجو - في وضع رسومٍ أوّليّة لتعبيرات وجوهنا، حينئذٍ ونحن نستمع إلى المذياع. كان ألفن يحمل تعبير صمت الاشمئزاز المُهلِك، وكان والدي - المسلوب ربما للمرة الأولى في حياته من ذلك الغضب القاسي الذي جلبه إلى الصراع ضد الارتكاس والإحباط - من فرط الإثارة بحيث عجز عن الكلام.

هرج. بهجة تعصى على الوصف. أخيراً ارتقى ليندبرغ منصة غاردن، وقفز والدي، كشخص شبه معتوه، عن الأريكة وأطفأ الراديو في لحظة عودة أمي إلى غرفة الجلوس وسألتْ «مَنْ يريد أنْ يتناول شيئاً؟» وسألت، والدموع في عينيها «ألفن، أترغب في فنجان من الشاي؟».

كان عملها هو أنْ تُحافظ على تماسُك عالمنا بهدوء وعقلانيّة قدر استطاعتها؛ وهذا ما سخّرتْ كامل حياتها من أجله وهذا كل ما كانت تحاول أنْ تفعل، ومع ذلك لم يحدث يوماً أنْ رآها أحدٌ منا وقد أصبحت سخيفة هكذا بسبب طموح الأم المُبتذل هذا.

بدأ والدي يصرخ «ما الذي يحدثُ بحقّ الجحيم! لِمَ فعلَ *هذا*؟ يا لذاك الخطيب الأحمق! أيعتقد أنَّ هناك يهوديّاً واحداً الآن سوف يُصوِّت لهذا المُعادي للساميّة بسبب ذلك الخطاب الأحمق والكاذب؟ هل فقد عقله تماماً؟ ما الذي يعتقد هذا الرجل أنّه *يفعل*؟».

قال ألفن «إنه يُشرِّع ليندبرغ، يُشرِّع ليندبرغ للمسيحيين».

قال والدي، وقد استشاط غضباً لأنَّ ألفن بدا أنّه يقول هراءً ساخراً في لحظة تتّسِم بالكثير من الاضطراب، «يُشرِّع ماذا، يفعلُ *ماذا*؟».

«إنهم لم يدفعوه للصعود إلى هناك ليُخاطب اليهود. لم يرشوه من أجل هذا. ألا تفهم؟» سألَ ألفن، وقد أضحى مسعوراً بالحماس لِما اعتبره الحقيقة الضمنيّة. «لقد صعد إلى هناك ليُخاطب المسيحيين - إنّه يمنح المسيحيين في أرجاء البلاد كلها بركته الشخصيّة كحاخام لكي يُصوّتوا للِيندي في يوم الانتخابات، ألا ترى، يا عم هرمان، ما دفعوا بنغلسدورف العظيم إلى فعله؟ لقد ضمِنَ هزيمة روزفلت!».

عند حوالي الساعة الثانية صباحاً من تلك الليلة، تدحرجتُ من جديد، وأنا مُستغرق في النوم، وسقطتُ عن سريري، ولكنْ في هذه المرة تذكّرتُ بعد ذلك أنني كنتُ أحلم قبل أنْ أقع على الأرض. كان كابوساً فعلاً، ويدور حول مجموعتي من الطوابع. كان شيئاً قد حدث لها. تغيّرَ التصميم على مجموعتين بصورة مُريعة من دون عِلمي متى حصل ذلك أو كيف. وفي الحلم، أخرجتُ ألبوم الطوابع من درج طاولة الزينة لكي آخذه معي إلى صديقي إرل ومشيت وأنا أحمله نحو منزله كما كنتُ قد فعلتُ عدداً كبيراً من المرّات قبل ذلك. وكان إرل أكسمان في العاشرة من العمر وفي الصف الخامس، يعيشُ مع أمّه في مُجمّع سكنيّ جديد بُنِيَ من القرميد الأصفر قبل ثلاث سنوات على قطعة الأرض الخالية المُجاورة لمنعطف شارعيّ تشانسلر وسَميت، ويقع قبالة المدرسة الابتدائيّة. وقبل ذلك كان يعيش في نيويورك. كان والده موسيقيّاً في أوركسترا غلين غراي كازا لوما

- اسمه ساي أكسمان، عزفَ على آلة الساكسفون الصادح مُصاحباً صوت غلين غراي العالي النبرة. وكان السيد أكسمان قد طلَّقَ والدة إرل، الشقراء ذات الجمال الصارخ التي عملتْ مُغنيّة لفترة وجيزة مع الفرقة قبل ولادة إرل وكانت في الأصل، حسب قول والديّ، يهوديّة سمراء من نيوارك اسمها لويز سويغ انتقلت إلى الحيّ الجنوبيّ لكي تُصبح مشهورة محلّيّاً في الحفلات الموسيقيّة في رابطة الشبيبة اليهوديّة. ومن بين كل الفتية الذين عرفتهم كان إرل هو الوحيد الذي كان والداه مُطلّقين، والوحيد الذي كانت أمّه تتبرَّج بمساحيق ثقيلة وترتدي بلوزة مكشوفة الكتفَين وتنّورة ترتفع وتطير مع الهواء وتحتها أخرى كبيرة تحتيّة. وسجّلتْ أيضاً أسطوانة أغنية «يجب أنْ أكون هذا أو ذاك» عندما كانت تعمل مع غلين غراي، وكثيراً ما أسمعني إرل إيّاها. ولم أُصادف بعد ذلك أيَّ أمّ تُشبهها. لم يكن إرل يُخاطبها بماما أو أمي - كان يُخاطبها، ويا للعار، بلويز. كان لديها خزانة في غرفة نومها مملوءة بمثل تلك التنورة التحتيّة، وعندما نكون أنا وإرل وحدنا في منزله، كان يُريني إياها. بل إنه سمح لي ذات مرّة أنْ ألمسها، وهمس، وأنا أنتظر لأُقرِّر ماذا أفعل بها، «افعل ما تريد». ثم فتح درجاً وأراني صدريات ثدييها وعرَضَ عليّ أنْ ألمس إحداها، لكنني رفضت. كنتُ لا أزال صغيراً جداً على إبداء إعجابي بصدرية نسائيّة عن بُعد. وكان كلٌ من والديه ينفحه دولاراً في الأسبوع لكي يُنفقه على شراء الطوابع، وعندما لا تكون أوركسترا كازا لوما تعزف في نيويورك وتقوم بجولة، كان السيد أكسمان يُرسِل إلى إرل مُغلّفات عليها طوابع بريد جوّي ومطبوعة بأختام من مدن في كل مكان. بل إنَّ أحدها كان من «هونولولو، أواهو»، حيث ادّعى إرل، الذي لم يكن يتوانى عن إضفاء البريق على والده الغائب - كما لو أنَّ بالنسبة إلى ابن موظف شركة التأمين ليس أمراً مُذهلاً بما يكفي أنْ يكون له والد عازف ساكسيفون يعمل مع فرقة موسيقى ناعمة شهيرة (وأمٌ مُغنّية شقراء الشعر) - ادّعى أنَّ السيد أكسمان كان قد أُخِذَ إلى «منزل خاصّ» لكي يُشاهد طابع «إرساليّة»

هاواي الذي ثمنه سنتان إصدار عام 1851، قبل سبعة وأربعين عاماً كاملة من ضمّ هاواي إلى الولايات المُتّحدة بوصفها منطقةً تابعة لها، كان كنزاً لا يمكن تصوّره قيمته مئة ألف دولار والتصميم المرسوم في وسطه هو فقط الرقم 2.

كان إرل يمتلك أفضل مجموعة طوابع قاطبة في المنطقة. وهو الذي علّمني كل شيء عملياً وسرّياً تعلّمته وأنا صبي صغير عن الطوابع – عن تاريخها، عن جمع الجديد منها والمستعمل، عن الأمور التقنيّة كالورق، والطباعة، واللون، والصمغ، والرسم الإضافيّ، والقضبان المتصالبة، والطباعة الخاصّة، وعن عمليات التزوير الكبرى والأخطاء في التصميم – ولما كان متحذلقاً عبقرياً، بدأ بتثقيفي بأنْ حكى لي عن جامع الطوابع الفرنسيّ مسيو إربان، الذي ابتكر كلمة «طوابعيّة[12]»، شارحاً اشتقاقها من كلمتَين يونانيتين، الثانية منهما، *ateleia*، وتعني التحرُّر من دفع الضريبة، ولم أجد في ذلك أيّ معنى. وبعد أنْ ننتهي من أمر طوابعنا في مطبخ بيته وينتهي هو مؤقّتاً من استبداده، يضحك ويقول، «والآن فلنقُم بأمرٍ شنيع» وبهذه الطريقة رأيتُ ملابس والدته الداخليّة.

في الحلم، كنتُ أمشي إلى منزل إرل وأنا أضمُّ ألبوم طوابعي إلى صدري وإذا بأحدهم يهتف باسمي وبدأ يُلاحقني. فغصتُ داخل زقاق وهرعتُ عائداً إلى أحد المرائب لكي أختبئ وأتفحّص الألبوم خشية أنْ تكون بعض الطوابع قد انحلَّتْ عن مكان تثبيتها بينما كنتُ أهرب من مُلاحقي، وتعثَّرتُ وأسقطتُ الألبوم في البقعة نفسها على الرصيف الذي كنا دائماً نمارس فيه لعبة «إنني أُعلن الحرب». وعندما فتحته على مجموعة عام 1932 للذكرى السنويّة الثانية لواشنطن – وتتألّف من اثني عشر طابعاً تتراوح بين فئة البُنيّة القاتمة التي تساوي نصف سنت إلى الصفراء ذات العشر سنتات – ذُهِلتُ. لم تعد صورة واشنطن موجودة على الطوابع. أمّا أعلى كل طابع فلم يتغيَّر – كان منقوشاً عليه ما ميَّزتُ شيئاً فشيئاً أنّه

12- الطوابعيّة: أي ممارسة جمع الطوابع ودراستها. – المترجم

صورة شخص روماني أبيض وله هامش بمقدار سطر أو سطرين - حيث العبارة الشهيرة «بريد الولايات المتّحدة». وألوان الطوابع أيضاً لم تتغيَّر - ذات السنتين حمراء، وذات السنتات الخمسة زرقاء، وذات الثمانية بلون أخضر زيتونيّ، إلى آخره - والطوابع بالحجم القياسي نفسه، وبقيتْ أُطُر الصور مُصمَّمة بصورة فريدة كما كانت في المجموعة الأصليّة، ولكن بدل صورة مختلفة لواشنطن على كلٍ من الطوابع الاثني عشر، بقيت الصور الآن هي نفسها ولكنها لم تعد لواشنطن بل لهتلر. وعلى الشريط أسفل كل صورة، لم يعُد هناك حتى اسم «واشنطن». وسواء أكان الشريط منحنياً نحو الأسفل كما في الطابع ذي السنت ونصف وستة سنتات، أو منحنياً نحو الأعلى كما في ذي السنتات الأربعة، والخمسة، والسبعة، والعشرة، أو مُستوياً بنهايات مرتفعة كما في طوابع السنت، والسنت ونصف، والسنتين، أو الثلاثة، أو الثمانية، والتسعة، كان الاسم الذي نُقِشَ عبر الشريط هو «هتلر».

في المرة التالية التي ألقيتُ فيها نظرة على صفحة الألبوم الأماميّة لأرى ما حدث، إنْ حدث أي شيء، لمجموعتي الخاصة بناشونال باركس ذات العشرة سنتات، وقعتُ عن السرير واستيقظتُ لأجد نفسي على الأرض، وهذه المرّة وأنا أصرخ. يوزمايت في كاليفورنيا، غراند كانيون في أريزونا، وميسا فيرده في كولورادو، وبحيرة كارتر في أوريغون، وأكاديا في مين، وجبل رينيير في واشنطن، ويلوستون في وايومينغ، زيون في يوتاه، وغلاسيير في مونتانا، وجبال سموكي في تينيسي - وعلى كل طابع منها، على صور الجروف، والغابات، والأنهار، وذُرى الجبال، والنبع الحارّ، والممرات الضيّقة، وخط ساحل الغرانيت، وعبر المياه الزرقاء العميقة والمساقط المائيّة المرتفعة، وعبر كل شيء في أميركا الأشدّ زُرقة وخُضرة وبياضاً ومحفوظ إلى الأبد في تلك الأضابير الأصليّة، طُبِعَت النجمة المعقوفة.

-2-

تشرين الثاني (نوفمبر) 1940 - حزيران (يونيو) 1941

اليهودي الصخّاب

في شهر حزيران (يونيو) من عام 1941، بعد ستة أشهر فقط من تنصيب ليندبرغ، قطعتْ عائلتي مسافة الثلاثمئة ميل التي تفصلنا عن مدينة واشنطن دي. سي، لزيارة المواقع التاريخيّة والمباني الحكوميّة الشهيرة. وكانت أمّي توفّر في حساب نادي عيد الميلاد في مصرف هاوارد سيفينغ طوال قرابة العامين، بمقدار دولار في الأسبوع تقتطعه من ميزانية المنزل لكي تغطّي تكاليف رحلتنا المُرتقبة الضخمة. وكان التخطيط للجولة قد وُضِعَ عندما كان فرانكلين ديلانو روزفلت يقضي فترة رئاسته الثانية وكان الديمقراطيون يُهيمنون على المجلسين، أما الآن مع استلام الجمهوريين لزمام الحكم والرجل الجديد القابع في البيت الأبيض يُعتبَر عدواً خائناً، دار بيننا نقاشٌ عائليّ مُقتَضَب حول انتقالنا بالسيارة إلى الشمال بدل ذلك لمشاهدة شلالات نياغارا ومن ثم نقوم برحلة بحرية على متن قارب مرتدين معاطف من المشمّع الواقي من المطر ونحن نتنقّل بين جُزُر نهر سينت لورنس الألف وبعد ذلك نجتاز الحدود بسيارتنا إلى كندا ونزور أوتاوا. وكان بعضٌ من أصدقائنا وجيراننا قد بدأوا فعلاً يتحادثون عن ترك البلاد والهجرة إلى كندا إذا ما انقلبت إدارة ليندبرغ صراحة ضد اليهود، وهكذا سوف تجعلنا الرحلة إلى كندا نتلاءم مع ملاذ مُحتَمَل من مواجهة

الاضطهاد. وقبل ذلك في شهر شباط، كان ابن عمي ألفن قد غادر فعلاً إلى كندا لكي ينضمّ إلى القوات المُسلّحة الكنديّة، كما قال إنّه سيفعل، ويُحارب مع الجانب البريطانيّ ضد هتلر.

* * *

كان ألفن حتى مغادرته تحت وصاية عائلتي على مدى ما يُقارب سبع سنين. وكان المرحوم والده هو الأخ الأكبر لأبي، وتوفيَ عندما كان ألفن في السادسة من العمر، وتوفيتْ والدة ألفن - التي تمتّ بقرابة إلى أمي، وهي التي عرَّفَت كلاً من أبي وأمي بعضهما إلى بعض - عندما كان ألفن في الثالثة عشرة، وهكذا جاء ليعيش معنا خلال السنوات الأربع في أثناء تردُّده على مدرسة اليهود الثانوية، وكان صبيّاً سريع البديهة يُقامِر ويسرق وكرَّسَ والدي نفسه لإنقاذه. وفي عام 1940 كان ألفن يبلغ الواحدة والعشرين من العمر، يستأجر غرفة مفروشة في طابق عُلويّ لصالون تلميع الأحذية في شارع رايت قريب من سوق الخضار، وكان حينئذٍ يعمل منذ سنتين لمصلحة شركة شتانهايم وأولاده، وهي إحدى أكبر شركتيّ بناء يهوديّة في المدينة - الأخرى كان يُديرها الإخوة راشلين. وحصل ألفن على العمل عبر شتاينهايم الأكبر، مؤسِّس الشركة وزبون تأمين حيث يعمل والدي.

كان العجوز شتاينهايم، صاحب لكنة ثقيلة ولا يُحسن القراءة بالإنكليزيّة لكنّه، حسب تعبير والدي «مصنوع من فولاذ»، لا يزال يحضر صلوات الأعياد الكبرى في كنيسنا المحلّي. وفي اليوم الكبير قبل ذلك بعدد من السنين، عندما شاهد العجوز والدي خارج الكنيس مع ألفن، اعتقد خطأً أنَّ ابن عمي هو أخي الأكبر سناً فسأله «ما هو عمل الفتى؟ دعه يأتي ويعمل عندنا». هنا أُعجِبَ آبيه شتاينهايم، الذي كان قد حوَّل شركة البناء الصغيرة الخاصة بوالده إلى مشروع يساوي الملايين - ولكن فقط بعد أنْ أدّى نشوب حربٍ عائليّة كبيرة إلى تشريد أخويه الآخرين في الشارع - أُعجِبَ بألفن الصّلب، الضخم، وبطريقته الواثقة من نفسه،

وبدل أنْ يُثبّته في غرفة البريد أو يستخدمه كصبي مكتب، جعل من ألفن سائقه الخاصّ: لكي يؤدي بعض المهام، ويوصِل الرسائل، وينقله بسرعة بين مواقع الإنشاء لكي يتفقّد المقاولين الفرعيين (الذين كان آبيه يُسمّيهم «النحّاتين» على الرغم من أنّه كان هو، كما قال ألفن، الذي ينحتهم ويستغلّ الجميع). وفي أيام السبت خلال فصل الصيف، كان ألفن ينقله بالسيارة إلى فريهولد، حيث يمتلك آبيه عدداً من الجياد المُدرّبة على الخبّ وكان يشارك فيها في سباقات قديمة حيث يخبُّ الحصان جارّاً عربات بدولابين، أحصنة كان يُحبّ أنْ يُشير إليها بأنها «شطائر لحم البقر». «لدينا شطيرة لحم سوف يجري اليوم في فريهولد»، وينطلقان بالعربة الخفيفة لكي يُشاهدا حصانه يخسر في كل مرة. ولم يكسب أيّة نقود منه، لكنَّ المهم ليس هنا. كان يُشارك بأحصنته لمصلحة رابطة رود هورس على مضمار الجري الجميل في المتنزّه اليهوديّ، وكان يتحدث مع الصحف عن استعادة المضمار المُمهّد في ماونت هولي، الذي انصرمت أيام مجده منذ زمن بعيد، وهكذا نجح آبيه شتانهايم في أنْ يُصبح مندوب سباق الخيل لمصلحة ولاية جيرزي ووضع حجاباً واقياً على سيارته يمكّنه من قيادة السيارة على الرصيف ويُطلق النفير والنباح في كل مكان. وعندما أصبحَ على علاقة ودّيّة مع مسؤولي مقاطعة مونماوث واندساسه بين الجماعة المُهتمّة بالخيول على الساحل - المسيحيين في وول تاونشيب وسبرينغ ليك الذين كانوا يأخذونه معهم إلى نواديهم الفخمة لتناول الغداء حيث، كما أخبر آبيه ألفن، «يراني الجميع وكل ما يفعلون هو الهمس، كم أنا مُشتاق إلى الهمس»، «انظر إلى مَنْ جاء إلى هنا»، لكنّهم لم يُمانعوا في شرب ما أشرب ودُعيتُ إلى حفلات عشاء مُرفّهة وهكذا فإنَّ الأمر كان يستحقّ العناء في النهاية». كان لديه قارب صيد في المياه العميقة يرسو عند خليج نهر شارك، وكان يأخذهم معه على متنه ويُغدِق عليهم بالمشروبات ويستأجر أشخاصاً لصيد السمك بالنيابة عنهم، بحيث إنّه كلما أُنشئ فندق جديد في أي موقع بين لونغ برانش وحتى بوينت

بليزنت، كان آل شتاينهايم يحصلون على ذلك الموقع برخص التراب – وكان آبيه، على غرار والده، يتَّصِف بكثير من الحِكمة فيما يختص بشراء الأشياء فقط بالسِعر المُخفَّض.

بعد كل ثلاثة أيام كان ألفن يوصله بالسيارة مسافة قصيرة تمتد من المكتب وحتى رقم 744 في شارع برود لكي يقصّ شَعره في صالون حلاقة يقع خلف كشك بيع السيجار الذي كان آبيه شتاينهايم يشتري منه تبغه المُفضَّل وسيجاره الذي يُساوي دولاراً ونصف الدولار. وكان رقم 744 في شارع برود واحداً من أعلى مبنيين مُخصَّصَين للمكاتب في الولاية، حيث يحتل ناشونال نيوارك إسكس بانك الطوابق العشرين الأعلى ويشغل أشهر مُحامي المدينة وخبراء المال الطوابق الباقية وحيث يتردَّد بانتظام أغنى أغنياء نيو جيرزي على صالون الحلاقة – ومع ذلك كان جزءٌ من عمل ألفن أنْ يتّصل مُسبّقاً وعلى الفور بالحلّاق ليُخبره بأنْ يستعدّ لاستقبال آبيه، وكائناً مَنْ كان يجلس على كرسي الحلاقة، يُطرَد. وعلى مائدة العشاء في الليلة التي حصل ألفن على عمله، أخبرنا والدي بأنَّ آبيه شتاينهايم هو أعظم البنّائين، وأشدّهم رونقاً وإثارة شهِدته مدينة نيوارك. قال والدي «وعبقريّ أيضاً. وما كان ليصِل إلى مركزه ذاك لو لم يكن عبقريّاً. لامعاً. ووسيماً. وأشقر، وخشناً، لكنّه ليس بديناً. ودائماً يبدو حسن المظهر. يرتدي معاطف من وبر الجِمال. وينتعل أحذية باللونين الأبيض والأسود. ويلبس قمصاناً جميلة. ملابسه خالية من العيوب. ولديه زوجة جميلة – راقية، فخمة، محظوظة بالمولِد. نسخة نيويورك من المحظوظة الألمانيّة، امرأة فاحشة الثراء بحُكم حقّها الشخصيّ. إنَّ آبيه غاية في الدهاء. ويتّصف بالشجاعة. اسأل أيّ شخص في نيوارك: إنَّ شتاينهايم يقبل أشدّ المشاريع خطورة. إنّه يُشيد أبنية حيث لا أحد يفكِّر في المحاولة. سوف يتعلَّم ألفن منه. سوف يُراقبه ويرى كيف يعمل على مدار الساعة من أجل شيء يخصّك. يمكن أنْ يكون مصدر إلهام هامّ في حياة ألفن».

كان هذا صحيحاً في الغالب بحيث إنَّ والدي أخذ يتقصّى عنه وعلِمتْ أمي أنّه لم يكن يعيش على أكل السجق وحده، كان ألفن يأتي إلى منزلنا مرّتين في الأسبوع لكي يأكل، والعجيب، أنّه بدل أنْ يتلقّى محاضرات صارمة عن الصدق والمسؤوليّة والعمل الشاقّ على مائدة العشاء في كل ليلة - وكما في الأيام التي قُبِضَ عليه وهو يمدّ يده إلى درج النقود في محطة وقود إسّو حيث كان يعمل بعد انتهاء دوام المدرسة، وإلى أنْ أقنعَ والدي سيمكوفيتز، مالك المحطة، بإسقاط التهمة بالإضافة إلى استخدام النقود في عمل الخير، بدا أنّه سوف يوضَع في إصلاحيّة راهواي - انخرطَ ألفن في نقاشٍ حماسيّ مع والدي في شؤون السياسة، وفي الرأسماليّة بوجه الخصوص، وهو نظام كان ألفن يستهجنه، منذ أنْ أثار والدي اهتمامه بقراءة الصحيفة والتحدث حول الأخبار، لكنَّ والدي دافع عنه، وتناقشَ بصبر مع ابن أخيه المُعاد تأهيله، ليس بوصفه عضواً في العصبة الوطنيّة للصناعيين بل كنصير متحمّس لصفقة[13] روزفلت الجديدة. وحذَّر ألفن، «لستَ مُضطراً إلى إخبار السيد شتاينهايم عن كارل ماركس. لأنَّ الرجلَ لن يتردَّد - سوف تجد نفسك في الشارع. تعلَّمْ منه. لهذا السبب أنتَ هناك. تعلَّمْ منه وعامله باحترام، قد تكون هذه هي فرصة العمر».

لكنَّ ألفن لم يتحمَّل شتاينهايم وكان دائماً يسبّه - إنه زائف، إنّه مُتنمِّر، إنّه بخيل، إنّه جعجاع، إنّه صخّاب، إنّه غشّاش، إنّه بلا أي صديق في العالم، والناس لا يُطيقون الاقتراب منه، وأنا، كما قال ألفن، مُضطر إلى نقله بالسيارة هنا وهناك. إنّه قاسٍ في معاملة أبنائه، ولا يهتمّ حتى بالنظر إلى حفيده، ويهين زوجته النحيلة، التي لا تجرؤ على فعل أو قول أي شيء يُزعجه، كلما رغبَ في ذلك. وكان كل أفراد العائلة مُضطرين إلى العيش في شُقق في العمارة المُرفّهة نفسها التي بناها آبيه في شارعٍ تحفّ

13- الصفقة الجديدة: خطة وضعها الرئيس الأميركي روزفلت للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي خلال فترة الكساد الاقتصادي في ثلاثينيات القرن الماضي. - المترجم

به أشجار الزان والقيقب بالقرب من جامعة أبسالا في إيست أورانج – كان الأبناء يعملون من الفجر وحتى الغسق لمصلحته في نيوارك وهو يصرخ ويزعق فيهم، وفي الليل يتّصل بهم هاتفياً في إيست أورانج ولا يزال يصرخ ويزعق. إنَّ المال هو كل شيء، ولكن ليس لشراء الأشياء بل لكي يستطيع الإنسان دائماً أنْ ينجو من الخطر: ليحمي مركزه ويضمن ممتلكاته، ويشتري كل ما يرغب من عقارات بأسعار مُخفَّضة، وبهذه الطريقة حقَّقَ ربحاً طائلاً بعد انهيار البورصة. المال، المال، المال – إنّه يلجُ عين الإعصار ووسط الصفقات ويجمع كل أموال العالم.

«إنَّ رجلاً يتقاعد في سن الخامسة والأربعين مع خمسة ملايين دولار. خمسة ملايين في المصرف، وهي ثروة طائلة، وهل تعلمان ماذا يقول آبيه؟» يتوجه ألفن بسؤاله هذا إليّ وإلى أخي ذي الاثني عشر عاماً. وتنتهي وجبة العشاء فينتقل معنا إلى غرفة النوم – ونستلقي كلنا فوق الأغطية، ساندي على سريره، وألفن على سريري، وأنا بجوار ألفن، بين انحناء ذراعه القويّة وصدره. وكان نعيماً: قصصاً عن جشع الإنسان، وحماسه، وحيويته غير المحدودة وغطرسته المُفرطة ورواية تلك الحكايات، وابن العم الذي هو نفسه غير محدود، حتى بعد أدائه لكل عمل والدي، ابن عم آسر ما زال من الناحية العاطفيّة من أشد الأغرار غرّاً، وكان وهو في الواحدة والعشرين يحلق لحيته الخشنة مرّتين في اليوم كي لا يبدو أشبه بمجرم قاس. كانت قصصاً عن السلالات اللّاحمة لقردة عملاقة سكنت ذات يوم الغابات العتيقة وتركت الأشجار، وأصبحت تقضم أوراق الشجر طوال النهار، ثم جاءت إلى نيوارك لتعمل في المدينة.

سأله ساندي «ماذا يقول السيد شتاينهايم؟».

«يقول» الرجل لديه خمسة ملايين. وهي كل ما يملك، وما زال في أوج شبابه، وأمامه فرصة في أنْ يجمع ذات يوم خمسين، أو ستين، وربما تصل حتى مئة مليون، ويُخبرني «أنا آخذ كل شيء عن الطاولة. أنا لستُ مثلك، يا آبيه. أنا لا أتسكّع بحثاً عن نوبة قلبيّة. لديّ ما يكفي لأقوم به في

النهار وأقضي ما تبقّى من حياتي في لعب الغولف»، «وماذا يقول آبيه؟»، «هذا رجل أحمق تماماً». وكل مقاول عندما يأتي إلى المكتب في يوم الجمعة لكي يأخذ مالاً من أجل شراء الخشب، والزجاج، والقرميد، يقول له آبيه «اسمع، نحن ينقصنا المال، وهذا أفضل ما يمكنني إعطاؤه» ويدفع له النصف، أو الثُلث - وإذا نجح الأمر، يُعطيه الربع - وأمثال هؤلاء الأشخاص يحتاجون إلى النقود ليعيشوا، ولكنْ هذا هو الأسلوب الذي تعلَّمه آبيه من والده. إنه يُنفِّذ الكثير من أعمال البناء وينجو من العقاب ولا يُحاول أحد أنْ يقتله».

يسأل ساندي «وهل كان *من الممكن* أنْ يحاول أحدٌ أنْ يقتله؟».

يقول ألفن «نعم، أنا».

أسألهُ «أخبرنا عن عيد الزواج».

يُردِّد «عيد الزواج. نعم، لقد غنّى خمسين أغنية. إنّه يستأجر عازف بيانو»، ويُخبرنا ألفن هذا بالضبط بالطريقة نفسها التي يحكي قصة آبيه وهو يعزف على آلة البيانو كلما طلبتُ منه أنْ أسمعها، «ولا يتفوّه أحد بكلمة، لا أحد يعرف ما الذي يجري، ويقضي الضيوف الليلة بأكملها يأكلون طعامه، وهو واقف مرتدياً بذلته الرسميّة بجوار البيانو، ولا يزال يُغنّي كل الأغاني الشائعة التي يمكنك تصوّرها، بل إنّه يُصغي عندما يقولون وداعاً».

أسألُ ألفن «هل يصرخ ويزعق في وجهك؟».

«في وجهي؟ بل في وجه الجميع. إنّه يصرخ ويزعق أينما ذهب. إنني أوصِله بالسيارة إلى محل تاباتشنيك في صباح كل يوم أحد. فنرى الناس يقفون رتلاً طويلاً ليشتروا خبز الباغل وسمك السلمون المُدخَّن. وندخل وهو يصرخ - وهناك صف من حوالي ستمئة شخص، لكنّه يزعق، «آبيه وصل!» فيُفسحون له الطريق ليقف في أول الصف. ويهرع تاباتشنيك إلى الخارج، ويُفسحون الطريق، إذ على آبيه أنْ يطلب أغراضاً تُقدَّر قيمتها بخمسة آلاف دولار، ونعود بالسيارة إلى المنزل فنجد السيدة شتاينهايم،

التي تزنُ اثنين وتسعين رطلاً وتعرف متى تزيح عن الطريق، ويتّصل هاتفيّاً بأبنائه الثلاثة فيحضرون خلال خمس ثوان، ويتناول الأربعة وجبة تكفي أربعمئة شخص. والشيء الوحيد الذي كان يُنفِق عليه بسخاء هو الطعام. الطعام والسيجار. وتأتي على ذِكر محل تاباشنيك، ومحل كارتزمان، هو لا يهمّه الموجودون هناك، مهما بلغ عددهم - يذهب إلى هناك ويشتري كل ما يحتويه المتجر. وهم يأكلون كل كسرة من كل شيء في صباح كل يوم أحد، سمك الحفش، وسمك الرنكة، والسمّور، وخبز الباغل، والمُخلّل، ومن ثم أنقله بالسيارة إلى مكتب الإيجار ليرى كم شقّة ما زالت شاغرة، وكم منها مُستأجَر، وكم منها تم إصلاحه. سبعة أيام في الأسبوع. من دون توقّف. لا يرتاح أبداً. لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد - هذا شِعاره. وكان يُثير جنونه إذا فرَّطَ أيٍ شخص بدقيقة واحدة من العمل. إنه لا يستطيع أنْ ينام إلّا إذا علِمَ أنَّ في اليوم التالي هناك المزيد من الصفقات سوف تجلب له المزيد من المال - والأمر اللعين كلّه يُثير اشمئزازي. إنَّ الرجل بالنسبة إليّ هو شيء واحد فقط - إنّه إعلان تجاري يمشي على قدمين عن الإطاحة بالنظام الرأسمالي».

أطلقَ أبي على شكاوى ألفن لقب شغل أولاد، وينبغي أنْ يحتفظ بها لنفسه في أثناء العمل، خاصة بعد أنْ قرَّر آبيه أنّه سيُرسِل ألفن إلى جامعة رتجرز. قال آبيه لألفن، أنت شديد الذكاء ولا يمكن أنْ تكون أحمق، ومن ثم حدث أمر يتجاوز كل ما كان يمكن لوالدي أنْ يتمنّاه واقعيّاً. رفع سمّاعة الهاتف واتصل برئيس جامعة رتجرز وبدأ يزعق في وجهه **هو**. «سوف تقبل هذا الفتى عندك، لا يهم أين أنهى مرحلته الثانويّة، إنَّ الفتى يتيم، وعبقريٌ مُحتَمَل، وسوف تمنحه منحة دراسيّة كاملة، وسوف أنشئ لك مبنى جامعيّاً، الأجمل في العالم - ولكن لن أُنشئ حتى مرحاضاً إلّا بعد أنْ يلتحق هذا الفتى اليتيم بجامعة رتجرز وتُدفع له التكاليف كلها!» ثم شرح الأمر لألفن، «أنا لم أرغب قط في أنْ يكون لديّ سائق شخصي رسمي يكون سائقاً شخصياً وغبيّاً. أنا أحبّ الفتية أمثالك الذين ينتظرهم

مُستقبل. سوف تلتحق بجامعة رتجرز، وسوف تعود إلى المنزل وتنقلني بالسيارة خلال فصول الصيف، وبعد أنْ تتخرَّج حاملاً شعار جمعيّة فاي بيتّا كابّا، حينئذٍ نجلس نحن الاثنين ونتحدث».

كان آبيه سيجعل ألفن يبدأ كطالب مُستجدّ في نيو برونسْويكْ في شهر أيلول (سبتمبر) عام 1941، وبعد أنْ يقضي أربع سنوات في الجامعة، يعود شخصيّة بارزة وينخرط في العمل، ولكن بدل ذلك، وفي شهر شباط (فبراير)، غادر ألفن إلى كندا. وغضبَ منه والدي غضباً عارماً. كانا قد تجادلا طوال أسابيع قبل أنْ يستقلّ ألفن أخيراً، من دون أنْ يُبلغنا، القطار السريع المتوجِّه من محطة بن في نيوارك إلى *مونريال* مباشرة. «إنني لا أفهم أخلاقيّتك، يا عم هرمان. أنت لا تريد لي أنْ أكون لصّاً ولكنكَ لا تُمانع إذا عملتُ لمصلحة لصّ»، وقال والدي «إنَّ شتاينهايم ليس لصّاً؛ إنّه بنّاء. وما يفعله هو يفعلونه هُمْ، ما يُضطرون جميعاً إلى القيام به بسبب ضرورات تجارة البناء هو مذبحة. لكنَّ أبنيته لا تقع، أليس كذلك؟ هل يخرقُ القانون، يا ألفن؟ هل يفعل؟»، «كلا، هو فقط يستغل العمّال بكل وسيلة ممكنة. لم أكنْ أعلم أنَّ أخلاقياتك هي من أجل ذلك»، قال والدي «إنَّ أخلاقياتي عفنة، كل سكان المدينة يعلمون بأمر أخلاقياتي. لكنَّ القضية ليست أنا. إنها مُستقبلك. إنها الالتحاق بالجامعة. تلقّي التعليم الجامعي على مدى أربعة أعوام»، «مجاناً لأنّه تغلّبَ على رئيس جامعة رتجرز بالصراخ كما يفعل مع العالم اللعين أجمَع»، «دع رئيس جامعة رتجرز يقلق بهذا الشأن! ما خطبك؟ أحقّاً تريد أنْ تجلس هناك وتخبرني بأنَّ أسوأ كائن بشري وُجِدَ هو رجلٌ يريد أنْ يصنعك ويُعلِّمكَ ويجد لك مكاناً في شركة الإنشاءات التي يمتلكها؟»، «كلا، كلا، إنَّ أسوأ كائن بشريّ وُجِدَ على الأرض هو هتلر، وبصراحة أنا أُفضّل أنْ أحارب ابن الحرام ذاك على أنْ أبدِّد وقتي مع يهوديّ كشتاينهايم، الذي لا يجلب إلّا العار على بقيتنا نحن اليهود بتصرّفه اللعين –»، «أوه كفاك كلاماً كالأطفال – وأستطيع أيضاً أنْ أعيش من دون تصرّفه اللعين. إنَّ الرجل

لا يجلب العار على أحد. أتعتقد أنكَ إذا عملتَ عند بنّاءٍ أيرلنديّ سوف يكون الوضع أفضل؟ جرِّب - اذهب واعمل عند شانلي، وسوف ترى كم هو شخص محبوب. والإيطاليون، أتعتقد أنهم أفضل؟ إنَّ شتاينهايم يُغلِق فمه - أما الإيطاليون فيُطلقون الرصاص»، «ولونغي زويلمان، ألا يُطلق الرصاص؟»، «من فضلك، أنا أعرف لونغي جيداً - لقد نشأتُ مع لونغي في الشارع نفسه. ما دخل هذا كله بجامعة رتجرز؟»، «إنّ له صِلة بي، يا عم هرمان، وبكوني مَديناً لشتاينهايم حتى آخر حياتي. ألا يكفي أنَّ لديه ثلاثة أبناء قام بتدميرهم؟ ألا يكفي أنّهم يضطرون إلى قضاء كل عطلة يهوديّة معه وكل عيد شُكر وليلة كل عيد ميلاد - وأنني كنتُ موجوداً وتلقّيتُ نصيبي من الصراخ أيضاً؟ إنهم جميعاً يعملون في المكتب نفسه ويُقيمون في المبنى نفسه وينتظرون شيئاً واحداً - أنْ يتقاسموا كلّ شيء حالما يموت. أستطيع أنْ أؤكّد لك، يا عم هرمان، أنَّ حزنهم لن يطول أمدُه كثيراً»، «أنتَ مُخطئ. مُخطئ تماماً. إنَّ مشكلة أولئك القوم تتجاوز المال»، «بل *أنتَ* المُخطئ! إنّه يُحكِم عليهم قبضته بماله! إنَّ الرجلَ مُقاتلٌ مسعور، وهم يبقون ويتقبّلون معاملته خشية خسارة المال!»، «إنهم باقون لأنهم عائلة. وكل العائلات تمرّ بالكثير من المشاكل. إنَّ العائلة تمثّل معاً السلام والحرب. ونحن الآن نخوضُ حرباً صغيرة. أنا أتفهَّمُ هذا. وأتقبّله. لكنَّه ليس عُذراً للتخلّي عن الجامعة التي فاتك الالتحاق بها وأصبح في وسعك الآن أنْ تفعل لكنكَ تنطلق بدل ذلك بتهوُّر لتُقاتل هتلر»، قال ألفن، وكأنّه في نهاية المطاف لم يستطع أنْ يُثبت الجريمة ليس على مُستخدمه فقط بل على حامي عائلته أيضاً، «وهكذا، أنت انعزاليّ قبل كل شيء. أنتَ وبنغلسدورف. إنَّ بنغلسدورف، وشتاينهايم - يُشكّلان ثُنائيّاً مثاليّاً»، وسأل والدي بنكد، بعد أنْ نفدَ صبره في نهاية المطاف، «بأيّة صِفة؟»، «بكونهما يهوديين زائفَين»، فقال والدي «أوه، أصبحتَ الآن ضد اليهود أيضاً؟»، «أولئك اليهود. اليهود الذين هم عارٌ على اليهود - نعم، حتماً!».

استمر الجدال على امتداد أربع ليالٍ متتالية، ومن ثم، في الليلة الخامسة، ليلة يوم الجمعة، لم يحضر ألفن، على الرغم من أنَّ الفكرة كانت جعْلَه يحضر بانتظام على مائدة العشاء إلى أنْ يُرهقه والدي ويعود الفتى إلى صوابه - الفتى الذي قام والدي وحده بتحويله من فاشل غرّ إلى ممثّل لضمير العائلة.

في صباح اليوم التالي علِمنا من بيلي شتاينهايم، الأقرب إلى ألفن من بين الأبناء ويهتمّ به إلى درجة الاتّصال بنا هاتفيّاً في الصباح الباكر من يوم السبت، أنّه بعد أنْ استلمَ أجره عن يوم الجمعة رمى ألفن بمفاتيح عربة مضمار الغولف في وجه والد بيللي وخرج، وعندما انطلقَ بسيارتنا إلى شارع رايت لكي يتحدّث مع ألفن في غرفته ويعرف كامل القصّة ويُقدِّر حجم الأذى الذي تسبَّب به للفُرَص التي أُتيحت له، أخبره صاحب محل مسح الأحذية الذي كان صاحب بيت ألفن بأنَّ النزيل قد دفعَ قيمة الإيجار وحزم أمتعته وانطلقَ لكي يُحارب أسوأ كائن بشري وُلِدَ على وجه الأرض. وبالنظر إلى حجم الهياج الذي كان يتملّك ألفن، لا أحد أقلّ شناعة منه يمكن أنْ يفعل ذلك.

كان موعد إجراء انتخابات شهر تشرين الثاني (نوفمبر) لا يزال بعيداً. حصلَ ليندبرغ على سبعة وخمسين بالمئة من عموم الأصوات، وبنجاح انتخابيّ ساحق، شملَ ستاً وأربعين ولاية، لم يخسر إلّا في ولاية نيويوركَ مسقط رأس فرانكلين ديلانو روزفلت وفي ولاية ميريلاند، فقط بفرق ألفين من الأصوات، وحيث صوّتَ عدد كبيرٌ من العاملين في المكتب الفدراليّ وبكل حماس لمصلحة روزفلت في حين تمكّن رئيس الجمهورية - كما لم يتمكن في أي مكان آخر تحت خط ميسون-ديكسون[14] - من المُحافظة على ولاء قرابة نصف دائرة المُنتخبين الديمقراطيين العريقة في الجنوب.

14- خط ميسون-ديكسون: هو خط الحدود الفاصل بين ولايتيّ ميريلاند وبنسلفانيا، وهو الخط الفاصل بين الشمال المُعادي للرقّ والجنوب المؤيِّد له. - المترجم.

وعلى الرغم من أنَّ عدم التصديق ساد في صباح اليوم الذي تلا الانتخابات، خاصة بين المُستفتين، فبحلول اليوم الذي تلا ذلك اليوم بدا أنَّ الجميع فهموا كل شيء، وجعل مُعلِّقو الإذاعة وكُتّاب الأعمدة الصحفيّة ذلك يبدو كأنَّ هزيمة روزفلت أُعِدَّتْ مُسبقاً. وشرحوا قائلين إنَّ ما حدث هو أنَّ الأميركيين بدوا غير راغبين في كسر عُرف الجلوس على سُدّة الرئاسة لفترتين الذي أسّس له جورج واشنطن ولا أحد قبل روزفلت جرؤ على تحدّيه. وزيادة على ذلك، عقب فترة الكساد الاقتصادي، تسارعت وتيرة انتعاش الثقة عند الشباب وكبار السن على قدم المُساواة في سن ليندبرغ الشاب نسبيّاً وببُنيته الرياضية الجميلة التي كانت تتناقض بصورة صارخة مع المعوقات الماديّة الخطرة التي كان روزفلت يرزح تحتها بوصفِهِ ضحيّة مرض شلل الأطفال. وكانت هناك أُعجوبة الطيران وأسلوب الحياة الجديد الذي تعِدُ به: كان في استطاعة ليندبرغ، سيد طيران المسافات الطويلة وكاسر الأرقام القياسيّة، أنْ يقود بذكاء أبناء بلده إلى مُستقبل الطيران المجهول ويُطمئنهم، بسلوكه الذي عفا عليه الزمن والمتزمّت، بأنَّ المُنجزات الهندسيّة الحديثة لا تعني محو قيم الماضي. ولقد اتَّضحَ، كما خلُصَ الخبراء، أنّ أميركيّ القرن العشرين، المُرهقين من مواجهة أزمة جديدة في كل عقد من الزمان، نهمون إلى الوضع السويّ، وما مثّله تشارلز أ. ليندبرغ كان الوضع السويّ الذي يرتقي إلى أبعادٍ بطوليّة، الرجل المهذّب صاحب الوجه الصادق والصوت العادي والذي استعرضَ بشكلٍ مدوٍ أمام العالم بأسره الشجاعة التي تولّى بها بجَلَد وثبات إعادةَ صياغة التاريخ، وطبعاً، القدرة على تصعيد المأساة الشخصيّة. فإذا كان ليندبرغ قد وعد بعدم خوض الحرب، فلن تكون هناك حرب - لقد كان الأمر بهذه البساطة بالنسبة إلى الغالبيّة العُظمى.

إنَّ ما كان أسوأ من الانتخابات بالنسبة إلينا هي الأسابيع التي تلت التنصيب، بعد أنْ سافر رئيس الجمهوريّة الأميركي الجديد إلى أيسلندا لمقابلة أدولف هتلر شخصيّاً وليوِّقع بعد يومين من تبادُل الأحاديث

«الودّيّة» «وثيقةَ تفاهمٍ» تضمن قيام علاقات يسودها السلام بين ألمانيا والولايات المتّحدة. وجرتْ مظاهرات ضد «وثيقة تفاهم أيسلندا» في عدد من المدن الأميركيّة، وألقيتْ خطابات حماسيّة في فناء مجلس النواب ومجلس الشيوخ من قِبَل أعضاء ديمقراطيين في مجلس النواب نجوا من الانهيار الجمهوريّ وأدانوا ليندبرغ بسبب تعامله مع طاغية فاشيّ مجرم كأنه صنو له ولأنه قبِلَ أنْ يكون مكان لقائهما جزيرة ملكيّة شكّلَ تحالفها التاريخيّ بالنسبة إلى نظام حُكم ديمقراطيّ كان النازيون قد غزوه تواً - شكّلَ مأساة وطنيّة بالنسبة إلى الدنمارك، واستهجنها الشعب وملِكُه بكل وضوح، لكنّها مأساة بدا أنَّ زيارة ليندبرع لريكيافيك تغاضت عنها ضمناً.

لدى عودة رئيس الجمهورية من أيسلندا إلى واشنطن - وقد رافق طائرةَ اعتراضٍ من طراز لوكهيد الجديدة بمُحرِّكَين كان يقودها بنفسه في الطريق إلى الوطن تشكيل من عشر طائرات من الدوريّة البحريّة الكبيرة - ألقى خطاباً إلى الأمّة لا يتألّف أكثر من بضع جُمَل طويلة. «لقد أصبح مضموناً الآن أنَّ هذا البلد العظيم لن يُشارك في الحرب الدائرة في أوروبا». هكذا بدأت الرسالة التاريخيّة، وهكذا صيغَتْ بإحكام وخُتِمَتْ: «لن ننضم إلى أي فريقٍ من المتقاتلين في أي مكان على وجه الكرة الأرضيّة. وفي الوقت نفسه سوف نستمر في تسليح أميركا وفي تدريب شبابنا في القوات المُسلّحة على استخدام التكنولوجيا العسكريّة الأكثر تطوّراً. إنَّ المفتاح المؤدي إلى حصانتنا هو تطوير الطيران الأميركيّ، بما فيه تكنولوجيا الصواريخ. وهذا سوف يجعل حدودنا القارّيّة عصيّة على التعرُّض للهجوم من الخارج وفي الوقت نفسه سوف نُحافظ على حيادنا الصارم».

بعد ذلك بعشرة أيام وقّعَ الرئيس على ميثاق هاواي للتفاهُم في هونولولو مع الأمير فوميمارو كونويه، رئيس وزراء حكومة اليابان الإمبراطوريّة، ووزير الخارجيّة ماتسوكا. وكان الاثنان، كمبعوثَين للإمبراطور هيروهيتو، قد وقّعا تواً على تحالفٍ ثلاثيّ مع الألمان والإيطاليين في برلين في شهر أيلول (سبتمبر) من عام 1940، وصادقَ اليابانيون على «نظام جديد في

أوروبا» يُؤسَّس تحت قيادة إيطاليا وألمانيا، اللتين بدورهما صادقتا على «نظام جديد في شرق آسيا الأكبر» اسّسته اليابان. وزيادة على ذلك تعهّدت البلدان الثلاثة بأنْ يدعم كل منها الآخر عسكريّاً إذا ما تعرّضَ للاعتداء من قِبل أمّة ليست متورطة في الحرب الأوروبيّة أو الصينيّة-اليابانيّة. وعلى غرار وثيقة أيسلندا للتفاهم، جعلتْ وثيقة هاواي للتفاهم الولايات المتحدة طرفاً غير مُباشَر في تحالف المحور الثلاثيّ بتوسيع الاعتراف الأميركيّ إلى هيمنة اليابان على شرق آسيا وضمان عدم معارضة الولايات المتحدة للتوسّع اليابانيّ على القارّة الآسيويّة، بما في ذلك ضمّ الأنديز الهولنديّة والهند-الصينيّة الفرنسيّة. وتعهّدت اليابان بالاعتراف بسيادة الولايات المتحدة على قارّتها، وباحترام الاستقلال السياسيّ للفيليبين التابعة للولايات الأميركية - وتقرّرَ العمل به في عام 1946 - وبقبول المناطق الأميركيّة لهاواي، وغوام وميدواي بوصفها من ممتلكات الولايات المتحدة في المحيط الهادئ.

بعد توقيع معاهدات التفاهم، بدأ الأميركيون في كل مكان يحتجّون، لا نريد حرباً، لا نريد للشبّان أنْ يُقاتلوا ويموتوا مرة أخرى! وقالوا، في استطاعة ليندبرغ أنْ يتعامل مع هتلر، وهتلر يحترمه لأنه ليندبرغ. وموسوليني وهيروهيتو يحترمانه لأنّه ليندبرغ. والوحيدون الذين وقفوا ضدَّه، كما قال الناس، هم اليهود. ولا شك في أنَّ هذا كان صحيحاً في أميركا. وكل ما استطاع اليهود أنْ يفعلوا هو أنْ يقلقوا. كان العجائز في شارعنا يفكرون على الدوام في ما يمكن أنْ يفعلوا لنا وعلى مَنْ نستطيع أنْ نتّكل لحمايتنا وكيف يمكننا أنْ نحمي أنفسنا. وكان الأولاد أمثالي يعودون إلى المنزل من المدرسة خائفين ومحتارين بل والدموع في عيونهم لأنَّ الأولاد الأكبر سناً منهم يتحدثون فيما بينهم عمّا قاله ليندبرغ عنا لهتلر وما قاله هتلر عنا لليندبرغ خلال تناولهما الوجبات معاً في أيسلندا. وأحد الأسباب التي دفعت والديّ إلى تقرير الالتزام بخُططنا الطويلة الأمَد لزيارة واشنطن كان إقناع ساندي وأنا - بغضّ النظر عمّا إذا كانا هما

أنفسهما يُصدّقان ذلك - بأنَّ لا شيء تغيَّر ما خلا أن روزفلت لم يعُد في الحُكم. لم تكن أميركا بلداً فاشيّاً ولن تُصبح كذلك، بغضّ النظر عن توقّع ألفن. لقد أصبحَ هناك رئيس جديد للبلاد ومجلس كونغرس جديد ولكن على كل شخص أنْ يرضخ للقانون كما وضعه الدستور. كانوا جمهوريين، وانعزاليين، وبينهم، نعم، كان هناك مُعادون للساميّة - كما كانوا موجودين أيضاً بين صفوف الديمقراطيين في حزب روزفلت - لكنَّ هذا لا يعني أبداً أنّهم كانوا نازيين. إلى جانب أنّه كان يكفي أنْ يستمع المرء في أمسيات أيام الأحد إلى برنامج وينتشل وهو ينهال بالنقد على الرئيس الجديد وعلى «صديقه جو غوبلز» أو أنْ يسمعه وهو يُعدِّد المواقع التي تفكِّر إدارة الشؤون الداخليّة في إقامة معسكرات اعتقال عليها - مواقع تتمركز بشكلٍ رئيس في مونتانا، مسقط رأس نائب الرئيس ليندبرغ المُنادي بـ «الوحدة الوطنيّة»، والديمقراطي الانعزاليّ برتون ك. ويلر - ليتيقّن من الحماسة التي سيتفحّص بها الصحفيون المُفضّلون لدى والدي الإدارة الجديدة، مثل وينتشل ودوروثي تومبسون وكوينتن رينولدز ووليم ل. شيرر؛ وطبعاً، طاقم إدارة مجلة ***P.M***. حتى أنا الآن جاء دوري مع مجلة ***P.M*** عندما أحضرها والدي إلى المنزل ليلاً، وليس لأقرأ فقط المُسلسل الهزليّ ***بارنابي*** أو أنْ أتصفَّح على عَجَل الصفحات المُصوّرة فلا أجد بين يديّ غير برهان موثّق على أنّنا، على الرغم من السرعة الفائقة التي بدا بها أنَّ وضعنا كأميركيين يتغيَّر، ما زلنا نعيش في بلدٍ حرّ.

بعد أنْ أدّى ليندبرغ القَسَم ليتولّى المنصب في العشرين من شهر كانون الثاني (يناير) من عام 1941، عاد روزفلت مع عائلته إلى عزبتهم في هايد بارك، نيويورك، ومنذ ذلك الحين لم يرهم أحد أو يسمع أخبارهم. وعندما كان صبيّاً في منزل هايد بارك بدأ اهتمامه بجمع الطوابع - لأنَّ أمّه، كما تقول الحكاية، كانت قد تركت له ألبوماتها الخاصة بفترة طفولتها - تخيّلتُهُ وهو هناك يقضي وقته كلّه يُنظِّم مئات من العينات التي جمّعها خلال فترة السنوات الثماني التي أمضاها في البيت الأبيض. وكما يعلم

كل مَنْ يجمع الطوابع، لم يحدث قط أنْ قام رئيس جمهوريّة قبله بتكليف المدير العام للبريد الذي يعمل عنده بإصدار كل ذلك العدد من الطوابع الجديدة، ولم يأتِ أي رئيس جمهورية أميركيّ آخر له صِلة حميمة هكذا بدائرة مكتب البريد. وعمليّاً كان هدفي الأول عندما حصلتُ على ألبومي الأول هو تجميع كل الطوابع التي عرفتُ أنَّه كان لروزفلت يدٌ في تصميمها أو اقترحها شخصياً، وبدأتُ بطابع قيمته ثلاثة سنتات ويخصّ سوزان ب. أنتوني[15] من عام 1936 صدر بمناسبة الذكرى السادسة عشرة لتعديل قانون تصويت النساء وطابع فيرجينيا دير[16] الذي يُساوي خمسة سنتات من عام 1937 وصدر بمناسبة مرور ثلاثمئة وخمسين عاماً على مولد أول طفلة إنكليزيّة في روانوك في أميركا. وطابع عام 1934 الذي يُساوي ثلاثة سنتات والصادر في عيد الأم صمَّمه في الأصل روزفلت - وتبيِّن الصورة في الزاوية اليُسرى منه لوحة «في ذكرى وتشريف الأمّ الأميركيّة» الأسطوريّة وفي الزاوية اليُمنى لوحة الرسّام ويستلر الشهيرة لأمّه - أعطتني أمي الطوابع الأربعة دفعة واحدة لكي تُساعدني في إكمال مجموعتي. وساهمتْ أيضاً في شرائي سبعة طوابع للمناسبات كان روزفلت قد استحسنها خلال سنته الأولى كرئيس للجمهوريّة، وأردتُها لأنَّ عام 1933 يظهر بارزاً في خمسة منها، وهو تاريخ مولدي.

قبل أنْ نذهب إلى واشنطن، طلبتُ الإذن لي بأخذ ألبوم طوابعي في الرحلة. وبدافع خوف أمي من أنْ أفقدها ويتحطَّم قلبي بعد ذلك، رفَضَتْ في أول الأمر ولكن بعد ذلك سمحتْ لنفسها أنْ تنهزم عندما ألححتُ

15- سوزان ب. أنتوني (1820-1906): مُصلِحة أميركيّة وناشطة في مجال حقوق المرأة، لعبتْ دوراً مركزيّاً في حركة مُعاناة المرأة، ووقّعَت على عرائض مُناهِضة للعبوديّة وهي في السابعة عشرة. - المترجم

16- فيرجينيا دير (1587 - اختفت بصورة غامضة): هي أول مولود في المستعمرات الإنكليزيّة في أميركا. أصبحت بعد ذلك رمزاً بالنسبة إلى الكثير من الجماعات، فظهر اسمها في كتب، وقصائد وأغانٍ وأفلام سينمائية وفي الطوابع، وحتى على ماركات الكثير من الأطعمة والمشروبات، إلى آخره. - المترجم

على ضرورة أنْ أحمل معي على الأقلّ طوابع رئيسي - الستة عشر، أي، تلك التي امتلكتها من مجموعة عام 1938 والتي تنامت بشكلٍ مُتسلسل وكانت هديّة من جورج واشنطن إلى كالفن كوليدج. وطابع مقبرة أرلينغتون الوطنيّة لعام 1922 وطابعا تمثال لينكولن وأبنية الكابيتول لعام 1923 كانا باهظيّ الثمن بالنسبة إلى ميزانيتي، ولكنْ مع ذلك كان هذا سبباً آخر لأخذي مجموعتي معي التي تحمل صوراً واضحة بالأبيض والأسود لأشهر المواقع على غلاف الألبوم الذي خُصِّصَ لها. وفي الحقيقة، كنتُ أخشى أنْ أترك الألبوم في المنزل في شقتنا الخالية بسبب الكابوس الذي راودني، خشيتُ إمّا لأنني لم أفعل أيّ شيء لإزالة طابع ليندبرغ الجويّ ذي العشرة سنتات من مجموعتي أو لأنَّ ساندي كذبَ على والديّ وبقيتْ رسومه لليندبرغ سليمة قابعة تحت سريره - أو بسبب خيانته كابنٍ بتآمره مع الآخر - أنْ يحصل تغيير شرير في أثناء غيابي، يتسبَّب في استبدال صور واشنطن بأخرى لهتلر، وتُطبَع علامة الصليب المعقوف على طوابع الناشنال باركس.

فور وصولنا إلى واشنطن، سلكنا منعطفاً خاطئاً وسط حركة المرور الكثيفة، وبينما كانت أمي تحاول أنْ تقرأ خريطة الطريق وتوجّه والدي نحو الفندق الذي ننزل فيه، ظهر أمامنا أضخم شيء أبيض رأيته في حياتي. فقد كان ينهض فوق أعلى منحدر يقع في آخر الشارع مبنى كابيتول الولايات المتحدة، والدرج العريض ينهضُ نحو الأعلى إلى ممرّ مُعمَّد تُظلله قُبّة مُتقنة من ثلاث طبقات. كنا قد توجّهنا بالسيارة، من دون قصد، إلى قلب التاريخ الأميركيّ، وسواء أكنّا قد تعلَّمنا ذلك باستخدام الكثير من الكلمات، فإنه كان تاريخاً أميركيّاً، موصوفاً بدقّة بأشدّ أشكاله إلهاماً، وكنا نعتمد عليه لحمايتنا من ليندبرغ.

قالت أمي، وهي تستدير نحو ساندي ونحوي في المقعد الخلفي، «انظرا! أليس مُدهشاً؟».

كان الجواب، طبعاً، نعم، لكنَّ ساندي بدا كأنه غاص في ذهول وطنيّ، لكنّني تأثّرتُ به وتركتُ الصمت يُسجّل أيضاً شعوري بالرهبة.

في تلك اللحظة توقف رجل شرطة يمتطي دراجة ناريّة إلى جانبنا. وهتفَ من خلال النافذة، «ما الأخبار، يا أهل جيرزي؟».

أجاب والدي «إننا نبحث عن الفندق الذي سجّلنا فيه. ما اسمه يا بيس؟».

على الفور شحب لون أمي، التي كانت حتى قبل لحظة مفتونة بالفخامة المُصغّرة لمبنى الكابيتول، وكان صوتها ضعيفاً جداً عندما حاولتْ أنْ تتكلَّم حتى أنّها لم تكن مسموعة مع ضجيج حركة المرور.

صرخ رجل الشرطة «يجب أنْ أخرجكم من هنا يا جماعة، ارفعي صوتك، يا سيدتي».

«إنّه فندق دوغلاس!» صاحتْ أمي في وجهه بلهفة وهي تحاول أنْ تُلقي نظرة متفحّصة على الدراجة، «ويقع في شارع ك، أيها الشرطي».

«عظيم»، ورفع ذراعه في الهواء، مُشيراً إلى السيارات التي خلفنا لكي تتوقف وأشار لنا أنْ نلحق به وهو يقوم بانعطاف كامل وينطلق في الاتّجاه المعاكس على جادّة بنسلفانيا.

قال والدي وهو يضحك «إننا نُعامَل معاملة فخمة».

سألتْ أمي «ولكن ما أدراكَ إلى أين يأخذنا؟ هرمان، ما الذي يحدث؟».

انطلقنا يتقدّمنا رجل شرطة ومررنا بسلسلة من الأبنيّة الفدراليّة وإذا بساندي يُشير بحركة حماسيّة إلى مرجٍ ممتد يقع إلى يسارنا مباشرة. وهتفَ «هناك فوق! إنّه البيت الأبيض!» وعلى الأثر طفقَتْ أمي تبكي.

حاولتْ أنْ تشرح قبل أنْ نصل بقليل إلى الفندق ويلوّح الشرطي بيده مودِّعاً وتهدر دراجته مبتعدة، قالتْ «لم يعد المكان يُشبه العيش في بلدٍ طبيعيّ. أنا في غاية الأسف، يا أولاد - سامحوني أرجوكم»، لكنّها طفقتْ تبكي من جديد.

في غرفةٍ صغيرة في خلفيّة فندق دوغلاس كان هناك سرير مزدوج من أجل أبويّ وسريران صغيران مُثبتان في الجدار، وما إنْ نفح والدي إكراميّة للخادم الذي فتح بابنا بالمفتاح ووضع حقائبنا داخل الغرفة حتى عادتْ أمي إلى طبيعتها - أو أنّها تظاهرتْ بأنّها كذلك بترتيبها محتويات الحقائب على طاولة الزينة ولاحظت باستحسان أنَّ الأدراج مزوّدة حديثاً بورق التبطين.

كنا قد أمضينا الوقت على الطريق منذ أنْ غادرنا بيتنا عند الساعة الرابعة صباحاً وكانت قد تجاوزت الساعة الواحدة بعد الظهيرة عندما نزلنا من جديد إلى الشارع بحثاً عن مكانٍ نتناول فيه طعام الغداء. كانت السيارة متوقفة على الجهة المقابلة للفندق، وكان يقفُ إلى جوارها رجلٌ ضئيل حادّ القَسَمات يرتدي بذلة بُنيّة اللون مزدوجة الصَدر رفَع قبعته وقال، «اسمي تيلر، يا جماعة. وأنا مُرشِد مُحترِف في عاصمة الأمّة. إذا أردتم ألّا تهدروا وقتكم، فقد ترغبون في استئجار شخصٍ مثلي. سوف أقود السيارة بالنيابة عنكم لكي لا تضلّوا الطريق، وسوف أقودكم إلى مواقع المناظر الطبيعية، وأخبركم بما تحتاجون إلى معرفته، سوف أنتظر وأقلّكم، وسوف أحرص على أنْ تأكلوا حيثُ الأسعار مناسِبة والطعام لذيذ، وكل ذلك لن يُكلّفكم، إذا استخدمنا سيارتكم، أكثر من تسعة دولارات في اليوم»، ثم قال «وهذه هي رُخصتي»، وفتحَ وثيقة من عدة صفحات ليُريها لوالدي. وشرح قائلاً «أصدرتْها غرفة التجارة، اسمي فرلين م. تايلور، يا سيدي، مُرشِد رسمي في مدينة واشنطن دي سي منذ الخامس من شهر كانون الثاني (يناير) عام 1937، على وجه الدقّة - في اليوم نفسه الذي اجتمع الكونغرس الأميركيّ للمرة الخامسة والسبعين».

تصافح الاثنان، وبأفضل أسلوبٍ لوكيل شركة الضمان الرسميّ قام والدي بتصفُّح أوراق الدليل قبل أنْ يُعيدها إليه. قال والدي «تبدو لي صحيحة، ولكن أعتقد أنَّ مبلغ تسعة دولارات في اليوم غير مذكور في الأوراق، يا سيد تيلر، وهو ليس مناسِباً لهذه العائلة على أيّ حال».

«أنا أُقدِّرُ هذا. ولكن أنتَ وحدك، يا سيدي، سوف تقوم بقيادة السيارة ولا تعرف الطريق التي ينبغي أنْ تسلك ومن ثم سوف تحاول أنْ تعثر على مكانٍ لركن السيارة في هذه المدينة - حسن، أنت وعائلتك لن تتمكنوا من مشاهدة نصف المشاهد التي سترونها معي، ولن تستمتعوا في أي مكان بالمقدار نفسه. في الحقيقة، أستطيع أنْ أقودكم إلى مكان ظريف لتناول طعام الغداء، وسوف أنتظركم في السيارة، ومن ثم يمكننا أنْ نبدأ بنُصُب واشنطن. وبعد ذلك، ننتقل من متنزه المول إلى نُصُب لينكولن. واشنطن ولينكولن. أعظم رؤساء جمهوريتنا - هكذا أحبّ دائماً أنْ أبدأ. وأنت تعلم أنَّ الرئيس واشنطن لم يُقِم أبداً في مدينة واشنطن. الرئيس واشنطن هو الذي اختار الموقع، ووقَّعَ على وثيقة المشروع وجعل المدينة المقرّ الدائم للحكومة، لكنَّ خليفته، جون آدمز، أول رئيس جمهوريّة ينتقل للإقامة في البيت الأبيض في الأول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1800، على وجه الدقّة. وانضمّتْ إليه زوجته، أبيغيل، بعد ذلك بأسبوعَين. ومن بين الأشياء الغريبة العديدة والمُثيرة للاهتمام في البيت الأبيض، أنّه ما زالت هناك كأس لوضع الكرّاس[17] ملك لجون وأبيغيل آدمز».

أجاب والدي «حسن، هذا ما لا أعرفه، ولكن دعني أتداول هذا مع زوجتي»، وسألها بهدوء «هل نستطيع تحمُّل نفقات هذا؟ إنّه بلا شك يعرف ما يقول»، فهمست أمّنا، «ولكن مَنْ أرسله؟ كيف استطاع أنْ يُميِّز سيارتنا؟»، «هذا عمله، بيس - أنْ يعرف السياح. هكذا يكسب الرجل قوته». التصقنا أنا وأخي بجوارهما، آملَين في أنْ تسكتْ أمي وأنْ يتم استئجار الدليل صاحب الكلام الحلو والوجه المُدبَّب والساقين القصيرتين خلال مدة وجودنا.

قال والدي، مُلتفتاً إلى ساندي وإليّ، «ماذا تريدان؟».

باشر ساندي بالقول «حسن، إذا كان يُكلِّفُ فوق طاقتنا...».

17- في القرن التاسع عشر كان نبات الكرّاس نفيساً وغالي الثمن وكان يوضع في مزهريات. - المترجم.

أجاب والدي «لا عليكما من التكاليف. هل يُعجبكما هذا الشخص أم لا؟».

همس ساندي «إنه صاحب شخصية مميَّزة، يا أبي. يبدو جذّاباً. يُعجبني قوله: على وجه الدقّة».

قال والدي «بيس، إنَّ الرجل مرشد نزيه في مدينة واشنطن دي سي. أعتقد أنّه لم يبتسم مرّة في حياته لكنّه شخص يقظ وأنّه شديد التهذيب. دعيني أرى إنْ كان يقبل بسبعة دولارات»، وهنا ابتعد عنا، ومشى نحو الدليل، وتحدثا بجديّة بضع دقائق ومن ثم، تم الاتّفاق، وتصافح الاثنان من جديد، وقال والدي بصوت مرتفع، «حسن، دعونا نأكل!» وهو يفيض بالحيويّة كعهده دائماً حتى عندما لا يتوفر لديه عمل يقوم به.

كان من الصعب معرفة الشيء الأصعب على التصديق: كوني خارج نيو جيرزي للمرة الأولى في حياتي، أم كوني على بُعد ثلاثمئة ميل من المنزل في عاصمة الأمّة، أم كوننا عائلة يقود سيارتنا سائقٌ خاصّ غريب يحمل الاسم نفسه الذي حمله الرئيس الثاني عشر للولايات المتحدة، والذي تُزيِّن صورة جانب وجهه الطابعَ ذا اللون الأحمر المائل إلى البنفسجي وقيمته اثنا عشر سنتاً في الألبوم القابع في حجري، والمُلصَق بين الطابع الأزرق الذي قيمته أحد عشر سنتاً ويحمل صورة بولك[18] والطابع الأخضر الذي قيمته ثلاثة عشر سنتاً ويحمل صورة فيلمور[19].

كان السيد تيلر يُخبرنا «إنَّ واشنطن منقسمة إلى أربعة قطاعات: الشمالي الغربي، والشمالي الشرقيّ، والجنوب الشرقيّ، والجنوب الغربيّ. ومع بعض الاستثناءات، الشوارع التي تمتدّ شمالاً وجنوباً تحملُ أرقاماً والشوارع التي تمتد شرقاً وغرباً تحملُ أحرفاً. ومن بين

18- جيمس نوكس بولك (1795–1849) رئيس الولايات المتحدة الحادي عشر، وفي عهده ضُمَّ عددٌ من الولايات إلى الاتّحاد. - المترجم

19- ميلارد فيلمور (1800–1874): رئيس الولايات المتحدة الثالث عشر، وزعيم حزب الأحرار. - المترجم

عواصم العالم الغربيّ كلها، هذه المدينة وحدها تطوّرتْ فقط لكي تكون للحكومة الوطنيّة. وهذا ما يجعلها مختلفة ليس عن لندن وباريس فقط بل عن مدينتينا نيويورك وشيكاغو أيضاً».

سأل والدي، وهو ينظر خلفه إلى ساندي وإليّ، «أسمعتما هذا؟ أسمعتِ، يا بيس، ما قال السيد تيلر تميُّز واشنطن؟».

قالت «نعم»، وأمسكتْ بيدي لكي تطْمئنَّ عبر طمأنتي بأنَّ كل شيء الآن سوف يكون على ما يُرام. ولكنْ منذ أنْ ولجنا واشنطن وإلى أنْ غادرناها لم أكنْ أهتمّ إلّا بشيء واحد - حماية مجموعتي من الطوابع من الأذى.

الكافيتيريا التي أوقفنا السيد تيلر أمامها كانت نظيفة ورخيصة والطعام جيد كما وعد، وبعد أنْ أنهينا تناول وجبتنا وخرجنا إلى الشارع، كانت سيارتنا متوقفة أمام الواجهة ومُلتصقة بسيارة أخرى. هتفَ والدي «يا له من توقيت!».

قال السيد تيلر «على مرّ السنين، يتعلَّمُ المرء تقدير المدّة التي تستغرقها عائلة لتتناول وجبتها». وسأل أمي «هل أعجبك، يا سيدة روث؟ هل كان كل شيء يتماشى مع ذائقتك؟».

«أعجبني كثيراً، شكراً لك».

قال «إذن الجميع مُستعدون لمشاهدة نُصُب واشنطن»، وانطلقنا. «أنتم تعلمون، طبعاً، مَنْ يُمثّل النُصُب - إنّه رئيسنا الأول، وفي رأي مُعظم الناس، هو أفضل رئيس بالإضافة إلى الرئيس لينكولن».

قال والدي «أنا أريد أنْ أُضيف فرانكلين ديلانو روزفلت إلى القائمة، كما تعلم. إنّه رجلٌ عظيم، ومع ذلك طرده شعب هذا البلد من منصبِه. وانظروا علام حصلنا بدلاً عنه».

أصغى السيد تيلر بدماثة لكنّه لم يُعطِ ردّاً. واستأنفَ قائلاً، «والآن، لقد سبقَ أنْ شاهدتم جميعكم الصور الفوتوغرافيّة لنُصُب واشنطن. لكنّها

لا تنقل دائماً روعتها الحقيقيّة. إنّه يقوم على مساحة خمسمئة وخمسة وخمسين قَدَماً، ويعلو عن الأرض بمقدار خمسة إنشات وثُمن الإنش عن الأرض، وعليه فهو أطول مبنى حجريّ في العالم. والمصعد الكهربائي الجديد سوف يحملكم إلى أعلاه في غضون دقيقة وربع الدقيقة. أو يمكنكم أنْ ترتقوا عبر الدَرَج اللولبيّ الذي يعدُّ ثمانمئة وثلاثاً وتسعين دَرَجة حتى القمّة سيراً على الأقدام. إنَّ المشهد من الأعلى يمتد على شعاع طوله حوالي خمسة عشر أو عشرين ميلاً. وهو يستحق المُشاهدة»، ثم قال «هناك – أترونه؟ أمامكم مباشرة».

بعد بضع دقائق أخرى عثر السيد تيلر على حيّز ليركن السيارة في مُحيط النُصُب، وعندما غادرنا السيارة، مشى معنا بساقين متقوستين وهو يشرح، «لقد تمَّ تنظيف النُصُب للمرة الأولى قبل بضعة أعوام. فقط تخيّل عمليّة التنظيف تلك، يا سيد روث. لقد استخدموا ماءً مخلوطاً بالرمال وفراشي شعرها من الفولاذ. واستغرقَ الأمر خمسة أشهر وكلفةً بلغَتْ مئة ألف دولار».

سأل والدي «تحت إشراف فرانكلين ديلانو روزفلت؟».

«أعتقد ذلك، نعم».

سألَ والدي «وهل يعلم الناس هذا؟ هل يهتمون؟ كلا. لقد أرادوا بدل ذلك ربّان طائرة بريد جويّ لكي يحكم البلاد. وهذا ليس الأسوأ».

بقيَ السيد تيلر في الخارج بينما ولجنا نحن النُصُب. وفي المصعد، اقتربت أمي، التي أمسكتْ يدي من جديد، من أبي وهمستْ له، «لا ينبغي أنْ تتكلَّم هكذا».

«ماذا تعنين بهكذا؟».

«أقصد عن ليندبرغ».

«هذا؟ إنني فقط أُعبِّرُ عن رأيي».

«ولكنك لا تعرف من **يكون** هذا الرجل».

«بل أعرف حتماً. إنّه مُرشِد مُرخَّص يحمل وثائق تُثبتُ ذلك. هذا

نُصُبِ واشنطن، يا بيس، وأنتِ تطلبين مني أنْ أحتفظ بأفكاري لنفسي وكأنَّ نُصُب واشنطن موجود في برلين».

زاد من اضطرابها أسلوبه البليد في الكلام، خاصة أنَّ الآخرين الذين ينتظرون المصعد كان في استطاعتهم أْن يسمعوا حديثنا. التفتَ والدي إلى أبٍ آخر كان يقفُ بجوار زوجته وطفليه، وسأله «من أين أنتم؟ نحن من جيرزي»، أجاب الرجل «نحن من مين». قال والدي لأخي ولي «أتريان؟». ولج المصعد ما مجموعه حوالي عشرين طفلاً وبالغاً، وملأوا حوالي نصف مساحته، وبينما المصعد يرتقي خلال منظومة الأعمدة الحديديّة، استغلَّ والدي مدة الدقيقة وربع الدقيقة لبلوغ القمّة ليسأل باقي العائلات عن الأماكن التي جاؤوا منها.

كان السيد تيلر ينتظر في الخارج عندما انتهوا من جولتهم. وطلبَ من ساندي ومني أنْ نصِفَ له ما شاهدنا من خلال النوافذ على علوّ خمسمئة قدم ومن ثم قادنا في جولة على الأقدام حول الجزء الخارجي من النُصُب، وهو يسرد علينا التاريخ المُتقطِّع لإنشائه. وبعد ذلك التقطَ بعض الصور للعائلة بصندوق آلة التصوير ماركة برلوني التي معنا؛ ثم أصرَّ والدي، على الرغم من اعتراضات السيد تيلر، على التقاط صورة له مع أمي، وساندي، وأنا على خلفيّةٍ من نُصُب واشنطن، وختاماً ركبنا السيارة، وانطلقنا، بقيادة السيد تيلر للسيارة من جديد، خلال متنزّه المول قاصدين نُصُب لينكولن التذكاري.

هذه المرة، حذّرنا السيد تيلر، وهو يركن السيارة، من أنَّ نُصُب لينكولن لا يُشبه أي صرحٍ في أي مكان في العالم وأننا يجب أنْ نُعدّ أنفسنا للذهول. ثم رافقنا من منطقة توقف السيارة إلى المبنى الضخم ذي الأعمدة والدَرَج الرخامي العريض الذي قادنا إلى أعلى خلال الأعمدة إلى الجزء الداخلي من القاعة وحيث نهَض تمثال لينكولن على عرش العروش الفسيح، والوجه المنحوت الذي نظر إليّ بأشدّ التعابير قداسة – يمثّل وجه إله ووجه أميركا معاً.

قال والدي بجديّة «وأطلقوا النار عليه، أولئك الكلاب القذرون».

وقفنا نحن الأربعة مباشرة عند قاعدة التمثال المُضاءة لكي تجعل كل شيء حول أبراهام لينكولن يبدو ضخماً وفخماً. وما يبدو في الحالة العاديّة شيئاً عظيماً بهُتَ، ولم يعُد هناك أي دفاع، سواء لبالغ أو لطفل، في مواجهة جو الغلوّ الرصين.

«عندما تفكرون في ما فعله هذا البلد بأعظم رؤسائه...».

ناشدته أمي «هرمان، لا تبدأ».

«أنا لا أبدأ أيّ شيء. تلك كانت مأساة عُظمى. أليس هذا صحيحاً، يا أولاد؟ أقصد قصة اغتيال لينكولن؟».

اقتربَ السيد تيلر وأخبرنا بهدوء، «غداً سوف نذهب إلى مسرح فورد، حيث كان قد اغتيل، ثم نجتاز الشارع إلى منزل بيترسون[20]، لنرى أين مات».

«كنتُ أقول، يا سيد تيلر، إنَّ ما يفعله هذا البلد لرجالاته العِظامِ لهو أشنع شيء».

قال صوت امرأة قريبة منهم، «شكراً لله لأنَّ لدينا الرئيس ليندبرغ». كانت عجوزاً وكانت واقفة على حِدة، وحدها، تستشير دليلاً سياحيّاً، وبدا أنَّ ملاحظتها ليست موجّهة إلى شخص بعينه لكنّها كانت ردّة فعل على ما سمعتْ من والدي.

قال والدي نائحاً «أتقارنين لينكولن بليندبرغ؟ أوه يا إلهي».

في الواقع لم تكن المرأة العجوز وحدها بل مع مجموعة من السائحين، من بينهم رجلٌ في مثل عمر والدي ويصلح أنْ يكون ابنها.

سألَ الرجل والدي، متقدِّماً بحركة جازمة نحونا، «أثمّة ما يزعجك؟».

20- بعد إطلاق النار على الرئيس لينكولن في المسرح المذكور، نُقِلَ إلى منزل بيترسون الذي يقع على الطرف المقابل من الشارع الذي توجد فيه دار المسرح، وهناك توفي. - المترجم

قال له والدي «ليس أنا».

«أثمّة ما يزعجك في ما قالته السيدة؟».

«كلا، يا سيدي. إنّه بلد حرّ».

ألقى الرجل الغريب نظرة مُطوّلة، مُحدِّقة، إلى والـدي، ثم إلى والدتي، ثم إلى ساندي، ثم إليّ. فماذا رأى؟ كان رجلاً أنيقاً، عريض الصدر، بعضلات متناسقة، طوله خمسة أقدام وتسع بوصات، وسيماً بصورة متواضعة، صاحب عينين رقيقتين خضراوين تميلان إلى الرمادي وشعر خفيف بُنّي مقصوص قصيراً جداً عند الصدغين وأُذناه تبرزان أكثر قليلاً من الضروريّ بصورة هزليّة. وكانت المرأة نحيلة لكنّها قويّة وأنيقة الملبس، وثمة خصلة من شعرها الفاحم المتموِّج تُغطّي أحد حاجبيها وكانت وجنتاها المُستديرتان مصبوغتين بقليل من الحُمرة وأنفها بارزاً وذراعاها قصيرتين مكتنزتين وساقاها جميلتين ووركاها نحيلين وعيناها حيويّتين جديرتين بفتاة تبلغ نصف عمرها. واتّسمَ الشخصان البالغان بفيضٍ من الحَذَر وبفيضٍ من الحيويّة، وكان معهما صبيّان لا يزالان رقيقين، وأطفال صِغار لوالدَين شابّين، شديديّ الانتباه وبصحّة جيدة وقويّين فقط بتفاؤلهما.

والنتيجة أنَّ الرجل الغريب تراجع عن ملاحظاته التي أبداها بحركة ساخرة من رأسه. ثم، أصدرَ هسيساً عالياً لكي لا يُضلِّل أحداً بشأنْ نظرته التقديريّة إلينا، وعاد إلى السيدة العجوز وإلى مشاهدة المناظر الطبيعيّة، وهما يبتعدان ببطء بخطوة مترنّحة بدتْ، مع المسقط الجانبيّ لظهره العريض، مقصودة لتسجيل تحذير. ومن هناك سمعناه يُشير إلى والدي بأنّه «يهوديّ مُتبجِّح»، وبعد ذلك ببرهة أخرى أعلنت العجوز، «أستطيع أنْ أهِبَ أيَّ شيء مقابل صفعه على وجهه».

قادنا السيد تيلر بسرعة بعيداً إلى قاعة أصغر حجماً ليست بعيدة عن القاعة الرئيسة حيث توجد رقعة منقوش عليها خطاب غيتيسبرغ ولوحة جداريّة يدور موضوعها حول الإعتاق.

قال والدي، وصوته المخنوق يرتعش من شدّة السخط، «ما أبشع سماع مثل هذه الكلمات في مكانٍ كهذا، وفي مزار يخصّ رجلاً كهذا!».

في تلك الأثناء قال السيد تيلر، وهو يُشير بإصبعه إلى اللوحة، «أترون هذه؟ إنّها تمثّل ملاك الحقيقة وهو يُحرِّر عبداً».

لكنَّ والدي لم يستطع أنْ يرى أيَّ شيء. قال والدي «أتعتقد أنّه كان في الإمكان سماع مثل هذا الكلام لو أنَّ روزفلت كان رئيساً للجمهوريّة؟ ما كان الناس ليجرؤوا، ما كانوا ليحلموا بهذا، في أيام روزفلت... ولكن الآن بعد أنْ أصبح حليفنا الأكبر هو أدولف هتلر، الآن بعد أنْ أصبح أفضل أصدقاء رئيس الولايات المتحدة هو أدولف هتلر - الآن يعتقدون أنَّ في استطاعتهم أنْ ينجوا من أيّة جريمة يرتكبونها. هذا خزي. يبدأ من البيت الأبيض...».

إلى مَنْ كان يتحدث إنْ لم يكن لي؟ كان أخي يتبع السيد تيلر، ويسأل عن اللوحة الجداريّة، وكانت أمي تحاول أنْ تمنع نفسها من قول أو فعل أيّ شيء، وتُكافح المشاعر التي كانت قد تغلَّبتْ عليها قبل ذلك وهي في السيارة - وحدث ذلك حينئذٍ من دون أيّ مُبرِّر.

قال والدي، مُلمِّحاً إلى الرقعة التي نُقِشَ عليها خطاب غيتيسبرغ، «اقرأ هذا، فقط اقرأه: لقد خُلِقَ الناس جميعاً سواسية».

شهقتْ أمي «هرمان، لا أستطيع أنْ أتابع مع هذا».

رجعنا إلى الخارج حيث ضوء النهار وتجمّعنا عند الدَرَجة العليا. كان الظل الطويل الذي رماه نُصُب واشنطن بطول نصف ميل، عند الطرف القصيّ من البركة التي تعكس انعكاس صورته وتقع عند قاعدة المدخل ذي المصطبة المؤدي إلى نُصُب لينكولن. وثمة أشجارٌ تنهضُ في كل مكان. كان أجمل ما يمكن رؤيته من مشاهد، كان جنّة وطنيّة، جنّة عدن الأميركيّة تمتد أمامنا، ووقفنا هناك منضمين معاً، نحن العائلة المنفيّة.

قال والدي، وهو يُقرّبُ أخي ويُقرّبني منه، «اسمعا، أعتقد أنّه حان

الوقت لنأخذ قيلولة. لقد كان يوماً مُرهِقاً للجميع. أنا أرى أنْ نعود إلى الفندق ونَنال قسطاً من الراحة لساعة أو ساعتين. ما رأيك، يا سيد تيلر؟».

«الأمر منوط بك، يا سيد روث. وبعد تناول وجبة العشاء أعتقد أنَّ العائلة يمكن أنْ تستمتع بجولة بالسيارة لمشاهدة واشنطن في الليل، والأنصاب المشهورة كلها وهي مُضاءة».

قال له والدي «هذا كلام معقول. يبدو اقتراحاً جيداً، أليس كذلك يا بيس؟». ولكنْ لم يكن من السهل إسعاد أمي كما هو حال ساندي وحالي. قال لها والدي «حبيبتي، لقد صادفنا أحمق، بل أحمقَين. كان يمكن أنْ نذهب إلى كندا ونُصادف شخصاً لا يقلّ حمقاً. لن ندع هذا يُفسِد علينا جولتنا. فلنأخذ فترة راحة مُمتعة، كلنا، وسوف ينتظرنا السيد تيلر، وسوف ننطلق من هناك»، ثم قال، وهو يُلوّح بذراعه الممدودة حتى آخرها، «اسمع، هذا شيء على كلّ أميركيّ أنْ يُشاهده. استديرا، أيّها الولدان. وألقيا نظرة أخيرة على أبراهام لينكولن».

نفّذنا ما أمرنا به ولكن كان مستحيلاً أنْ أشعر من جديد بنشوة الإحساس بالوطنيّة يغمرني قلباً وقالباً. وعندما باشرنا الهبوط الطويل إلى أسفل الدَرَج الرخاميّ، سمعتُ بعض الأولاد خلفنا يسألون آباءهم، «أهذا حقاً هو؟ أهو مدفونٌ هناك تحت كل ذلك الشيء؟». كانت أمي تقفُ إلى جواري مباشرة على الدَرَج، تحاول أنْ تتصرّف وكأنَّ الخوف لا يضطرب عنيفاً داخلها، وفجأة شعرتُ برغبة جامحة في أنْ أضمّها إليّ بقوة، أنْ أُصبح فوراً مخلوقاً جديداً وشجاعاً يتّصف بطرف من صِفات لينكولن نفسه. ولكن ما استطعتُ أنْ أفعل عندما قدَّمتْ لي يد المساعدة هو أنْ أُمسِك بها وأشدّ عليها بقوة كما يفعل مخلوق غرّ مثلي، فتى ما زالت مجموعته من الطوابع تمثّل تسعة أعشار معرفته بالعالم.

في السيارة، قسَّمَ السيد تيلر باقي يومنا. سوف نعود إلى الفندق، ونأخذ قيلولة، وعند الساعة السادسة إلّا ربعاً قد يقلّنا ويأخذنا لتناول العشاء. ويمكننا أنْ نعود إلى الكافيتريا القريبة من يونيون ستيشن حيث

يمكن أنْ نتناول وجبة الغداء، أو قد يوصي بمطعمَين آخرين بأسعار شعبيّة ويضْمَن نوعيّتهما الجيدة. وبعد العشاء، قد يأخذنا في جولة مدّة ساعة لنشاهد واشنطن في الليل.

قال والدي «لا شيء يُربكك يا سيد تيلر، أليس كذلك؟».

اكتفى بإيماء مُبهَم من رأسه كجواب.

سأله والدي «من أين أنت؟».

«من إنديانا، يا سيد روث».

سأله والدي «إنديانا. تصوّرا هذا، يا أولاد. ومن أيّة مدينة هناك؟».

«ليس من مدينة معيَّنة. لقد كان والدي ميكانيكيّاً. يُصلِح الآلات الزراعيّة. ويتنقَّل طوال الوقت».

قال والدي، لأسبابٍ ليست واضحة للسيد تيلر، «حسن، سوف أرفع قبعتي احتراماً لك، يا سيِّدي. لابد أنّك فخور بنفسك».

مرة أُخرى لم يُدلِ السيد تيلر بأكثر من إيماء بالرأس: لم يبدُ رجلاً تافهاً وهو ببذلته الضيّقة والسِمة العسكريّة الصارمة التي تُغلِّف فعاليّته وهيئته – كأنه شخص مُستتر، لولا أنّه لم يكن فيه ما يستحق الإخفاء، فكل ما كان غير شخصيّ كان مرئيّاً. كان كثير الكلام حول واشنطن دي سي، ومتكتِّماً حول كل شيء آخر.

عندما رجعنا إلى الفندق، ركنَ السيد تيلر السيارة واصطحبنا إلى الداخل وكأنّه ليس فقط مرشدنا بل ومُرافقنا، وكانت تلك لفتة جيدة، لأننا اكتشفنا في داخل بهو الفندق الصغير أنَّ حقائبنا الأربع موضوعة أمام طاولة الاستقبال.

عرَّفَ مسؤول الاستقبال الجديد عن نفسه بأنّه المُدير.

عندما سأل والدي عمّا تفعله حقائبنا في الطابق السفليّ، قال المدير: «يا جماعة، يجب أنْ أعتذر. لقد اضطُررتُ إلى نقل حقائبكم بالنيابة عنكم. لقد ارتكب موظّفنا خطأً. إنَّ الغرفة التي أعطاكم إياها كانت

مُخصَّصة لعائلة أخرى. وإليك العربون» وسلَّمَ والدي مظروفاً يحتوي ورقة نقديّة بعشرة دولارات.

«لكنَّ زوجتي كتبت لكم، وأنتم بعثتم بردّ. لقد حجزنا منذ أشهر مضت. ولهذا أرسلنا العربون. بيس، أين نُسخ الرسائل؟».

فأشارت إلى الحقائب.

قال المُدير «سيدي، إنَّ الغرفة مشغولة وما من شواغر. لن نُحاسبكم على استخدامكم للغرفة اليوم أو على قطعة الصابون التي فُقِدَتْ».

«فُقِدَتْ؟» هذه الكلمة أثارتْ جنونه. «أتريد أنْ تقول إننا ***سرقناها***؟».

«كلا، يا سيدي. لا أقول هذا. ربما أخذ أحد الطفلين قطعة الصابون كتذكار. ولا بأس في هذا. ولن نُماحك حول شيء تافه أو نفتّش جيوبهما بحثاً عن قطعة صابون».

استفهم والدي قائلاً «ما معنى هذا؟»، ثم ضربَ قبّعته بقوة على الطاولة تحت أنف المُدير على الطاولة.

«سيد روث، إذا أردتَ أنْ تُثير شجاراً هنا...».

قال والدي «نعم، أريد أنْ أُثير شِجاراً إلى أنْ أعرف ما هو موضوع تلك الغرفة!».

أجابَ المدير «إذن، ليس أمامي من خَيار غير أنْ أتّصل هاتفيّاً بالشرطة».

هنا، نطقتْ أمي -التي كانت تشدّ أخي وتشدّني إليها من كتفينا، لتحمينا بجسمها وتُبقينا على مسافة آمنة من الطاولة- اسم والدي، في مُحاولةٍ لمنعِه من التمادي. لكنَّ الأوان كان قد فات. وهذا ما كان يحدث دائماً. ما كان يمكن أبداً أنْ يوافق على قبول المكان الذي رغبَ المُدير في تخصيصه له.

قال والدي «إنّه ذلك الملعون ليندبرغ. أنتم جميعاً في السلّة نفسها الآن أيها الفاشيون الحقيرون!».

«هل أستدعي شرطة المنطقة، يا سيدي، أم تحمل حقائبك وحقائب عائلتك وتغادر في الحال؟».

قال والدي «استدع الشرطة. افعل».

كان خمسة أو ستة من الضيوف بالإضافة إلينا قد تجمّعوا في البهو، وكانوا قد دخلوا المكان بينما نحن نتجادل وكانوا يتلكّؤون ليفهموا ما الذي يحدث.

هنا اقترب السيد تيلر حتى أصبح إلى جوار والدي وقال «سيد روث، أنتَ على صواب تامّ، لكنَّ اللجوء إلى الشرطة هو الحل الخطأ».

كرّر والدي القول للمدير «كلا، بل هو الحلّ *الأمثل*. استدع الشرطة. هناك قوانين في هذا البلد ضد أمثالك».

مدَّ المدير يده إلى الهاتف، وبينما هو يُدير الأقراص، هرعَ السيد تيلر ليحمل حقائبنا، وحملها بكلتيّ يديه، ونقلها إلى خارج الفندق».

قالت أمي «هرمان، انتهى الأمر. لقد أخذ تيلر الحقائب».

قال بمرارة «كلا، يا بيس. لقد سئمت هراءهم، وأريد أنْ أتحدث مع الشرطة».

دخل السيد تيلر من جديد البهو بسرعة ومن دون توقّف اندفع نحو الطاولة، حيث كان المدير يُكمِل اتّصاله. وبصوت منخفض، تكلّمَ فقط مع والدي. «هناك فندقٌ جميل قريب من هنا. وقد اتصلتُ بهم هناك من كشك هاتف في الخارج. ولديهم غرفة شاغرة لأجلكم. إنه فندقٌ جميل يقع في شارع جميل. هيا بنا إلى هناك واحجز غرفة لعائلتك».

«شكراً لك، يا سيد تيلر. ولكن نحنُ الآن في انتظار وصول الشرطة. أريد منهم أنْ يُذكّروا هذا الرجل بكلمات خطاب غيتيسبرغ التي قرأتها محفورة هناك هذا اليوم».

تبادل الأشخاصُ المراقبون الابتسام عندما أتى والدي على ذِكر خطاب غيتيسبرغ.

همستُ لأخي. «ماذا حدث؟».

ردَّ همساً «إنها مُعاداة الساميّة».

من مكان وقوفنا شاهدنا اثنين من الشرطة لدى وصولهما على

دراجتين ناريّتين. راقبناهما يُسكتان مُحركاتهما ويلجان الفندق. تمركز أحدهما عند الباب من الداخل، حيثُ يستطيع أنْ يُراقب الجميع بينما الآخر يقترب من طاولة الاستقبال وأشار للمدير لكي يقترب منهما ويتحدثا فيما بينهما.

قال والدي «أيها الشرطي -».

فاستدار رجل الشرطة على عقبيه وقال، «أستطيع أنْ أتحدث مع طرفٍ واحد على حِدة، يا سيدي»، واستأنفَ حديثه مع المدير، وهو يُمسك ذقنه بباطن كفّه متفكِّراً.

التفتَ والدي نحونا، «يجب أنْ ننتهي، يا أولاد» ثم قال لأمي، «لا داعي إلى القلق».

بعد أنْ انتهى من النقاش مع المدير، اقترب رجل الشرطة الآن للتحدث مع والدي. لم يبتسم كما فعل بشكل متقطِّع بينما كان واقفاً يُصغي إلى المدير، لكنّه مع ذلك تكلَّمَ من دون أوهى أثر لغضب وبنبرة صوت بدتْ ودّية للوهلة الأولى، «ما المشكلة، سيد روث؟».

«لقد أرسلنا العربون لحجز غرفة في هذا الفندق قبل ثلاث ليالٍ. وتلقّينا رسالة تؤكِّد ذلك الحجز. وفي حوزة زوجتي الأوراق التي تؤكد ذلك وهي موجودة في الحقائب. ووصلنا إلى هنا اليوم، وأكّدنا الحجز، وشغلنا الغرفة وفتحنا الحقائب، ثم خرجنا لمشاهدة المناظر، ولدى عودتنا طُرِدنا لأنَّ الغرفة كانت محجوزة لشخصٍ آخر».

سأل الشرطيّ «وأين المشكلة؟».

«نحن عائلة من أربعة أشخاص، أيها الشرطي. وقطعنا بالسيارة كل المسافة من نيو جيرزي. ولا يمكنه أنْ يرمينا إلى الشارع هكذا ببساطة».

قال الشرطي «ولكن إذا كان شخصٌ آخر قد حجز غرفة -».

«ولكن لا أحد هناك! وإنْ كان موجوداً، لِمَ علينا أنْ نقبل بمقعد خلفه!».

«لكنَّ المدير أعاد إليكم العربون. بل إنّه حزم أغراضكم بالنيابة عنكم».

«أيها الشرطي، أنت لا تفهمني. لِمَ يجب أنْ نقبل بحجز ثانويّ؟ لقد

كنتُ مع عائلتي عند نُصُب لينكولن. وكانوا ينقشون خطاب غيتيسبرغ على الجدار. أتعلم ماذا كانت الكلمات المنقوشة هناك؟: إنَّ الناس جميعاً خُلِقوا متساوين».

«لكنَّ هذا لا يعني أنَّ حجوزات الفندق كلها خُلِقَتْ متساوية».

وصلَ صوت الشرطي إلى المتجمّعين عند أطراف البهو، فأخذ بعضهم، ممن لم يعُد في وسعهم أنْ يكبحوا أنفسهم، يضحكون بأصوات مرتفعة.

تركتْ أمي ساندي وأنا وحدنا لكي تتقدَّم وتتدخّل. كانت تنتظر اللحظة التي لا تجعلها تُفسِد الأمور، وعلى الرغم من تسارُع تنفّسها، فإنّه بدا أنّها تعتقد أنَّ الوضع يجب أنْ ينتهي. توسّلتْ إلى والدي «حبيبي، دع الأمر. لقد وجد لنا السيد تيلر غرفة في مكان قريب».

صرخ والدي «كلا!»، وأبعد عنه يدها التي حاولتْ بها أنْ تشدّ ذراعه. «إنَّ هذا الشرطيّ يعرف السبب في طردنا. هو يعلم، والمدير يعلم، والجميع في هذا البهو يعلمون».

قال الشرطي «أعتقد أنكَ ينبغي أنْ تُصغي إلى زوجتك. أعتقد أنَّ عليك أنْ تنفّذ ما تطلبه منك، يا روث. غادر المكان»، وقال، وهو يهزّ يده باتجاه الباب، «قبل أنْ ينفد صبري».

أبدى والدي المزيد من المقاومة، لكنّه كان أيضاً لا يزال يحتفظ بقدر من العقلانيّة، واستطاع أنْ يفهم أنَّ حجّته لم تعُد تُثير اهتمام أحد غير نفسه. وغادرنا الفندق والجميع يُراقبوننا. وكان الوحيد الذي تكلَّم هو الشرطي الآخر. ومن موقع تمركزه بجوار النبات المزروع في أصيص عند المدخل، أومأ برأسه بودّ، ونحن نقترب منه، ومدَّ يده لكي يعبث بشَعري. «كيف الحال، أيّها الصغير؟»، أجبتُ «جيد»، «ماذا لديك هنا؟»، قلتُ «طوابعي»، لكنّني تابعتُ طريقي قبل أنْ يتمكّن من طلب رؤية مجموعتي وأُضطر إلى عرضها عليه لكي لا يُلقي القبض عليّ.

كان السيد تيلر ينتظر في الخارج على الرصيف. فقال والدي له «لم يحدث مثل هذا لي من قبل في أي وقت من حياتي. إنني أختلط مع الناس طوال الوقت، مع أناس من جميع الطبقات، ومن كل مناحي الحياة، ولم...».

قال السيد تيلر «لقد تخلّى دوغلاس عن المكان، وهذا هو المالك الجديد».

قالت أمي له «ولكن لديه أصدقاء ينزلون هناك وهم راضون مئة بالمئة».

«في الواقع، يا سيدة روث، لقد تغيَّر المالك. لكنني حصلتُ لكم على غرفة في إيفرغرين، وسوف يسير كل شيء سيراً حسناً».

في تلك اللحظة سمعنا هديراً عالياً لطائرة تطير على ارتفاعٍ منخفض مارّة من فوق مدينة واشنطن. وفي الشارع حيث كان بعض الناس يسيرون رفع أحد الرجال ذراعيه نحو السماء، وكأنَّ الدنيا تهطل ثلجاً، ونحن في شهر حزيران (يونيو).

هتفَ ساندي، ساندي الذكي، الذي في استطاعته أنْ يُميِّز أيّ شيء يطير من صورته الجانبيّة، «إنها طائرة لوكْهيد إنترسبتر!».

شرحَ السيد تيلر «إنّه الرئيس ليندبرغ. إنّه يقوم بعد ظهيرة كل يوم في مثل هذا الوقت بجولة قصيرة بالطائرة على طول نهر بوتوماك. إنه يطير إلى جبال ألليغيني، ومن ثم يهبط على طول سلسلة جبال بلو ريدج، ومنها إلى خليج تشيزابيك. إنَّ الناس ينتظرونها».

قال أخي «إنها أسرع طائرة في العالم. إنَّ طائرة ميسرشميتْ 110 تطير ثلاثمئة وخمسة وستين ميلاً في الساعة – أما الإنترسبتر فتطير خمسمئة ميل في الساعة، وفي استطاعتها أنْ تتفوّق على أيّة طائرة مُقاتلة في العالم».

جارينا جميعاً ساندي في المراقبة، ولم يستطع أنْ يُخفي افتتانه بطائرة الإنترسبتر التي طار الرئيس بها إلى أيسلندا ليجتمع بهتلر وعاد بها. حلّقَت الطائرة بزاوية حادّة بسرعة فائقة قبل أنْ تختفي داخل عنان السماء.

وتحت في الشارع، انفجر الناس السائرون في عاصفة من التصفيق، وهتف أحدهم «يحيا لندي!» ومن ثم تابعوا طريقهم.

في فندق إيفرغرين، نام أبي وأمي معاً في سرير واحد ونمتُ أنا وساندي على سرير آخر. كان السريران التوأم هما أفضل ما استطاع السيد تيلر الحصول عليه خلال تلك الفترة الوجيزة، ولكن بعد ما حدث في فندق دوغلاس لم يشتكِ أحد - سواء من كون السريرين لم يُصنعا بالضبط من أجل أخذ قسط من الراحة أو من أنَّ الغرفة كانت أصغر حجماً من تلك الأولى المُزوَّدة بوسائل الراحة أو من الحمّام الشبيه بالعلبة، الذي ينضح بالماء وغير مُطهَّر، ورائحته غريبة - خاصة أننا استُقبِلنا بحفاوة لدى وصولنا من قِبَل امرأة بشوش على طاولة الاستقبال وكانت حقائبنا قد وُضِعَتْ على منصّة ذات عجلات من قِبَل زنجيٌ عجوز يرتدي زيّ خادم طويل القامة وهزيل وخاطبته المرأة باسم إدوارد بي، وبعد أنْ فتح باباً يؤدي إلى غرفةٍ في الطابق الأرضيّ على الطرف القصيّ من مجرى هواء، أعلنَ بمرح، «إنَّ فندق إفرغرين يُرحّبُ بعائلة روث في عاصمة الأمّة!» وتقدّمنا إلى الداخل وكأنَّ القبو السيئ الإضاءة هو غرفة نوم خاصة في فندق الريتز. لم يكفّ أخي عن التحديق إلى إدوارد بي. منذ أنْ حمل حقائبنا، وفي صباح اليوم التالي، وقبل أنْ يستيقظ أحد، ارتدى ملابسه خِلسة، وحمل أوراق الرسم، وهرع إلى البهو لكي يرسمه. وتصادفَ أنَّ خادماً زنجياً مختلفاً كان يقوم بالخدمة، شكله ليس مُخدَّداً ومُشقَّقاً مثل إدوارد بي، وإنْ كان من وِجهة النظر الفنيّة لا يقلّ قيمة - فهو شديد السواد ويحمل قسمات وجه إفريقيّة قويّة لم يرَ ساندي مثيلاً له في أيّ مكان ما خلا على الغلاف الخلفيّ لمجلة ***ناشنال جيوغرافي***.

أمضينا مُعظم فترة الصباح مع السيد تيلر وهو يُرينا مبنى الكابيتول والكونغرس، ولاحقاً المحكمة العليا ومكتبة الكونغرس. كان السيد تيلر يعرف علوّ كل قُبّة وأبعاد كل بهو والأصول الجغرافيّة لكل أرضيّة من الرخام وأسماء المواضيع والأحداث المُتزامنة مع كل لوحة أو جداريّة

في كل مبنى حكوميّ ولجناه. قال له والدي: أنت شخصٌ متميِّز، فتى قادم من بلدة صغيرة من إنديانا. يجب أنْ تظهر في برنامج المسابقات *Information Please*.

بعد تناول وجبة الغداء، توجّهنا بالسيارة جنوباً على طول نهر بوتوماك إلى ولاية فرجينيا لنتجول في ماونت فرنون[21]. شرح السيد تيلر «طبعاً كانت ريتشموند، في فيرجينيا، هي عاصمة الولايات الإحدى عشرة الجنوبيّة التي تركت الاتّحاد لكي تُشكِّل الولايات الأميركيّة المتحدة. والعديد من المعارك الكبرى أثناء الحرب الأهليّة دارت في ولاية فيرجينيا. وعلى مسافة حوالي عشرين ميلاً إلى الغرب يقع متنزّه ساحة الحرب الوطنيّة في مانساس. ويتضمَّن المتنزّه ساحات القتال حيث ركَّزَ المتحالفون القوات المتحدة بالقرب من جدول بول رَنْ الصغير، أولاً تحت قيادة الجنرال ب.ج.ت بورغارد والجنرال ج.إ. جونستون في شهر تموز (يوليو) عام 1861، ومن ثم تحت قيادة الجنرال روبرت إ. لي والجنرال ستونْويل جاكسون في شهر آب (أغسطس) عام 1862. وكان الجنرال لي على رأس الجيش في فيرجينيا، وكان رئيس الاتحاد الفدراليّ، الذي حكمَ من ريتشموند، هو جيفرسون ديفيز، إذا كنتم تذكرون تاريخكم. وإلى الجنوب الغربي على بُعد مئة وعشرين ميلاً من هنا تقع أبوماتوكس، في فرجينيا. وأنتم تعلمون ماذا حدث في دار المحكمة هناك في شهر نيسان (أبريل) عام 1865. في التاسع من نيسان، على وجه الدقّة. فقد استسلمَ الجنرال لي للقائد الأميركي غرانت، وهكذا انتهت الحرب الأهليّة. وكلكم تعلمون ما حدثَ للينكولن بعد ذلك بستة أيام: أُطلِقَ الرصاص عليه».

قال والدي من جديد «أولئك الكلاب القذرون».

قال السيد تيلر، حالما لاح منزل واشنطن في الأفق، «حسن، ها قد وصلنا».

21- ماونت فرنون: موقع تاريخي في ولاية فرجينيا حيث مكان إقامة الرئيس جورج واشنطن وزوجته مارثا. - المترجم

قالتْ أمي «أوه، ما أجمله. انظروا إلى المدخل المسقوف. انظروا إلى النوافذ الطويلة. يا أولاد، هذه ليست نسخة - هذا هو المنزل الحقيقيّ الذي عاش فيه جورج واشنطن».

ذكّرها السيد تيلر «وزوجته مارثا، مع ولديّ زوجته، اللذين كان الجنرال شغوفاً بهما».

سألته أمي «أحقاً؟ لم أكنْ أعلمُ هذا»، وأخبرته «إنَّ ولدي الأصغر لديه طابع يحمل صورة مارثا واشنطن. أرِ السيد تيلر الطابع»، وفي الحال عثرتُ عليه، الطابع البُنّي من عام 1938 وقيمته بنس ونصف البنس، ويحمل المسقط الجانبيّ لصورة زوجة الرئيس، بشعرها المُغطّى عرَّفَته والدتي لي، عندما شاهدت الطابع للمرة الأولى، بأنّه شيء يتراوح بين القلنسوة وشبكة الشَعر.

قال السيد تيلر «نعم، هذه هي. والصورة موجودة أيضاً، أنا واثق، على طابع قيمته أربعة سنتات من عام 1923 وعلى طابع قيمته ثمانية سنتات لعام 1902. وهذا الأخير، يا سيدة روث، هو أول طابع يحمل صورة امرأة».

سألتني أمي «أكنتَ تعلم هذا؟».

قلت «نعم»، وبيني وبين نفسي تلاشت كل تعقيدات كوننا عائلة يهوديّة في واشنطن في عهد ليندبرغ وشعرتُ كما شعرتُ وأنا في المدرسة عندما كنتُ أنهض، في بداية برنامج اجتماع، وأتلو النشيد الوطني، وأمنحه كل حماسي.

أخبرنا السيد تيلر «كانت رفيقة عظيمة للقائد واشنطن، وكان اسمها قبل الزواج مارثا داندريج. كانت أرملة الكولونيل دانييل برك كرتيس. ولداها هما بيتسي وجون بارك كرتيس. وقد جلبَتْ معها بزواجها من واشنطن إحدى أضخم الثروات في فيرجينيا».

قال والدي، وهو يضحك كما لم نسمعه يفعل طوال النهار، «هذا ما أقوله دائماً لولديّ. تزوّجا كما فعل الرئيس واشنطن. من السهل أنْ تحبّا زوجتيكما وهما ثريتان كما وهما فقيرتان».

كان الوقت الذي قضيناه في ماونت فرنون خلال تلك الرحلة هو الأسعد في حياتي، ربما بسبب جمال البقعة المحيطة به والحدائق والأشجار وبسبب المنزل نفسه، القائم بصورة مُهيمنة فوق جرف مرتفع يطلّ على نهر بوتوماك؛ وربما بسبب غرابة الأثاث، بالنسبة إلينا، والزخرفة، وورق الجدران - الورق الذي يعرف عنه السيد تيلر أشياء كثيرة؛ وربما لأننا شاهدنا من مسافة قصيرة جداً السرير ذا الأعمدة الأربعة الذي نام عليه واشنطن، وطاولة الكتابة التي كتبَ عليها، والسيوف التي تقلّدها، والكتب التي اقتناها وقرأها؛ أو ربما فقط لأننا كنا على بُعد خمسة عشر ميلاً من واشنطن دي سي، وجرّاء روح ليندبرغ التي تحوم فوق كل شيء.

كانت ماونت فرنون تفتح أبوابها حتى الساعة الرابعة والنصف، لذلك توفَّرَ لنا الكثير من الوقت لمشاهدة الغرف كلّها وكل الأبنية الخارجيّة وللتجوُّل حول الموقع ومن ثم لزيارة متجر بيع التذكارات، حيث استسلمتُ لغواية فتّاحة رسائل كانت نسخة من القصدير طولها أربع بوصات لمسدس وحربة يخصّان أحد الثوريين. اشتريتها بأحد عشر سنتاً من أصل الخمسة عشر التي كنتُ أدّخرها لأقوم في اليوم التالي بزيارة قسم الطوابع في مكتب النحت والطباعة، بينما كان ساندي حكيماً واشترى بمدخراته تاريخاً مُصوَّراً لحياة واشنطن، وهو كتاب يمكنه استخدام صوره لتوحي له بمزيد من اللوحات للسلسلة الوطنيّة المُخزّنة داخل الملفّ تحت سريره.

كان النهار قد اقترب من نهايته وانطلقنا لنتناول مشروباً في الكافيتريا بينما كانت طائرة تطير على ارتفاعٍ منخفض في الأفق تقترب بسرعة باتجاهنا. وبينما الهدير يعلو، هتفَ الناس، «إنّه الرئيس! إنّه ليندي!»، وهرَع الرجال، والنساء، والأطفال كلهم إلى الخارج إلى المرج الأمامي الفسيح وبدأوا يهتفون للطائرة المُقتربة، وعندما كانت تجتاز نهر بوتوماك أمالتْ جناحيها. «تحيّة لليندي!». كانت طائرة لوكْهيد المُقاتلة نفسها التي كنا قد شاهدنا تطير فوق المدينة بعد ظهيرة اليوم السابق، ولم يكن أمامنا

خيار غير أنْ نقف في مكاننا كمواطنين صالحين ونراقبها مع الباقين وهي تميل جانباً عائدة فوق منزل جورج واشنطن قبل أنْ تنعطف لتتبع مسار نهر بوتوماك شمالاً.

«إنّه ليس هو - بل هي!» أخذ أحدهم ادّعى أنّه رأى هذا في قمرة الطائرة يُشيعُ أنَّ الربّان في الطائرة كان زوجة الرئيس. وكان يمكن أنْ يكون ذلك صحيحاً. فقد علَّمها ليندبرغ قيادة الطائرة عندما كانت لا تزال عروسه الصغيرة وكانت دائماً تجلس إلى جانبه في أثناء قيامه بجولاته في الجو، وهكذا بدأ الناس يُخبرون أولادهم بأنَّ الطائرة التي شاهدوها تقودها آنْ مورو ليندبرغ فوق ماونت فرنون، وهو حَدَثٌ تاريخيّ لن ينسوه أبداً. وكانت جرأتها حينئذٍ كربّان لأحدث طائرة أميركيّة، بالإضافة إلى سلوكها الرزين كابنة حَسَنة التربية من الطبقات المُميَّزة ومواهبها الأدبيّة كمؤلِّفة لديوانين مطبوعَين من الشِعر الغنائيّ، قد رسّخَ مكانتها في كل صناديق الاقتراع بوصفها المرأة الأشدّ إثارة للإعجاب في الأمّة.

وهكذا أُفسِدَتْ نزهتنا المثاليّة - ليس بسبب ردّة الفعل من الطائرة التي قادها أحد أفراد عائلة ليندبرغ وتصادفَ أنْ عبرَتْ من فوق رؤوسنا لليوم الثاني على التوالي بل بسبب ما أثاره ذلك العمل الجسور، كما سمّاه والدي، في كل شخص ما عدانا نحن. قال والدي لأصدقائه الذين قام بالاتصال بهم على الفور حالما وصلنا إلى منزلنا، «كنا نعلم أنَّ الأمور سيئة، ولكن ليس بهذه الدرجة. يجب أنْ تكونوا حاضرين لتروا واقع الحال. إنهم يعيشون حُلماً، ونحن نعيشُ كابوساً».

كانت أشد ما سمعتُ منه من جُمَل فصاحة، وتميَّزاً بدقّةٍ تفوقُ أيّة كلمة خطَّتها زوجة ليندبرغ.

عاد بنا السيد تيلر بالسيارة إلى فندق إفرغرين لكي نغتسل ونرتاح قليلاً، وعند الساعة السادسة إلّا ربعاً قام بسرعة بنقلنا بالسيارة إلى الكافيتريا الرخيصة القريبة من محطة القطار؛ وقال، سوف نلتقي جميعاً بعد ذلك لكي نبدأ الجولة الليليّة التي كنا قد أرجأناها في اليوم السابق.

قال له والدي «لِمَ لا تأتي معنا هذه الليلة؟ لابد أنّك تشعر بالوحشة وأنت تتناول الطعام وحدك دائماً».

«لا أريد أنْ أنتهكَ خصوصيتكم، يا سيد روث».

«اسمع، أنت مُرشد رائع، وسوف نستمتع معاً. والنفقة علينا».

كانت الكافيتريا أكثر ازدحاماً في الليل مما هي في أثناء النهار، فلا كراسٍ شاغرة والزبائن واقفون في طابور الانتظار لكي يستلموا ما طلبوه من ثلاثة رجال يضعون مآزر بيضاء ويعتمرون قلنسوات بيضاء وهم من فرط الانشغال بحيث لم يتوفر لهم الوقت لتجفيف وجوههم التي تنضح بالعرق. وعلى طاولتنا فرحَتْ أمي باستعادة دورها كأم على مائدة الطعام - «عزيزي، حاول ألّا تُخفِض ذقنك نحو الطبق عندما تأكل» - وقد أتاحت دعوة السيد تيلر إلى الجلوس معنا كأنه أحد الأقرباء أو صديق للعائلة، على الرغم من أنّ حادثة طردنا من فندق دوغلاس لم تكن مغامرة جديدة، أتاحت لنا فرصة لنراقب شخصاً يأكل وكان قد نشأ في إنديانا. كان والدي هو الوحيد بيننا الذي أولى انتباهه لباقي الآكلين، وهم يضحكون ويُدخّنون ويلتهمون بنهم أطباقهم الخاصة في أمسية ذات طابع فرنسيّ - لحم بقر مشوي مع عُصارته وفطيرة الجوز الرائجة - بينما جلس هو هناك يُمسك بكأس الماء، وكأنّه يُحاول أنْ يفهم كيف يمكن أنْ تكون لديهم مشاكل تختلف عن مشاكله.

عندما توصّلَ إلى التعبير عن أفكاره - التي بقيتْ تسبق أكله - لم يوجّه كلامه لأحدنا بل للسيد تيلر، الذي كان قد باشر بالتهام قطعة الفطيرة التي يعلوها الجبن الأميركيّ والتي اختارها لنفسه كطبق بعد العشاء. «نحن عائلة يهوديّة، يا سيد تيلر. كما بتَّ تعرف هذا الآن، إذا لم تكن تعلم مُسبّقاً، لأنَّ هذا هو السبب في طردنا بالأمس»، ثم قال «هذه هي الصدمة الكبرى، ومن الصعب تجاوزها ببساطة. إنّها صدمةٌ لأنها أمرٌ ما كان يمكن أنْ يحدث من دون أنْ يُصبح ذلك الرجل رئيساً للجمهوريّة، إنّه رئيس الجمهوريّة وهو ليس صديقاً لليهود. إنّه صديق أدولف هتلر».

همستْ أمي «هرمان، سوف تُخيفُ الصغير».

قال «إنَّ الصغيرين يعرفان كل شيء أصلاً»، ثم استأنفَ مُخاطبته للسيد تيلر، «هل سبقَ لك أنْ استمعتَ إلى وينتشل وهو يقول: «هل تحدّثا حول أي شيء آخر غير تفاهمهما الدبلوماسي واتّفاقهما عليه؟ هل توصّلا إلى تفاهم حول اليهود الأميركيين - وإذا فعلا، ما هو ذلك التفاهم؟» هذه هي الشجاعة التي يتَّصِف بها وينتشل. وهذه هي الكلمات التي تجرَّأ على الجهر بها أمام البلد بأكمله».

المُدهِش أنَّ أحدهم اقتربَ كثيراً من مائدتنا حتى أصبحَ يُخيِّم فوقنا - كان رجلاً عجوزاً ثقيل الوزن، له شارب، وثمة فوطة ورقيّة بيضاء محشورة في حزامه وبدا مُضطرباً بما يعتمل في ذهنه ويريد أنْ يقوله. كان يتناول طعامه على مائدة مُجاورة وكان رفاقه هناك كلّهم يلتفتون نحونا، متلهّفين لسماع ما سنقوله تالياً.

قال والدي «هيه، ماذا تفعل يا هذا؟ هلّا تراجعت؟».

أعلنَ الرجل «إنَّ وينتشل يهوديّ أجير عند الحكومة البريطانيّة».

ما حدث بعد ذلك هو أنَّ يديّ والدي ارتفعتا بحركة عنيفة عن المائدة، وكأنما لكي يُشهر سكّينه وشوكة الأكل عالياً نحو بطن الرجل الغريب التي تُشبه بطّة العيد. لم يكن مُضطراً إلى مزيدٍ من الدقّة ليُعبِّر عن اشمئزازه، ومع ذلك لم يتزحزح الرجل ذو الشارب عن مكانه. لم يكن الشارب من بقعة صغيرة مُربّعة مُشذَبة سوداء الشعر على غرار شارب هتلر بل كان يتَّسِمُ بروح أقلّ رسميّة، وأكثر نزويّة، كشارب حيوان فظ أبيض ناصع من النوع الذي كان يظهر على وجه الرئيس تافت كما يبدو على الطابع الأحمر الخفيف من عام 1938 وقيمته خمسون سنتاً.

قال الشخص الغريب «إنْ كانت هناك حالة يهوديّ مُتبجِّح ويتمتّع بالكثير من السُلطة -».

هتف السيد تيلر «كفى!»، وقفز واقفاً، وتمركز - بحجمه الضئيل -

بين الجسد الضخم الذي يعلونا ووالدي الحانق، المُثبَّت في الأسفل بكل تلك الكتلة المُثيرة للضحك.

يهوديّ متبجِّح. وللمرة الثانية خلال أقلّ من ثمان وأربعين ساعة.

هرع اثنان من الرجال من ذوي المئزر من خلف نضد الخدمة إلى طابق الكافيتريا وأمسكا المُعتدي من كلا الجانبين. قال له أحدهما «هذه ليست الحانة التي ترتادها، فلا تنس هذا، يا سيد»، ودفعاه إلى الجلوس على الكرسي عند طاولته، ثم اقترب الرجل الذي وبّخه منا وقال «أودّ منكم يا شباب أنْ تجرعوا من القهوة قدر ما تشاؤون. دعني أجلب للولدَين المزيد من الكريما المثلجة. هيا اجلسوا وأنهوا تناول وجبتكم. أنا صاحب المكان، واسمي ويلبر، وكل فاكهة بعد الطعام التي تريدون هي على حساب المحل. ودعوني أُحضر لكم المزيد من الماء المُثلَّج بهذه المناسبة».

قال والدي، متكلِّماً بنبرة مُجرّدة غريبة جديرة بآلة، «شكراً لك»، وأخذ يُكرِّر «شكراً لك، شكراً لك».

همست والدتي «هرمان، أرجوك، دعنا نغادر».

«مستحيل. كلا. سوف نُكمل تناول طعامنا»، ثم تنحنحَ لكي يُتابع كلامه، «سوف نتجول في واشنطن ليلاً، ولن نعود إلى المنزل إلّا بعد أنْ نُكمل جولتنا الليليّة».

بعبارة أخرى، كان يجب الاستمتاع بالأمسية حتى نهايتها من دون أنْ نسمح بإخافتنا وإبعادنا. بالنسبة إلى ساندي وإليّ كان ذلك يعني التهام أطباق كبيرة أخرى من الكريما المُثلّجة، جلبها إلى مائدتنا أحد الرجلين الواقفين عند نضد الخدمة.

استغرقَ من روّاد الكافيتريا بضع دقائق ليستعيدوا الحيويّة بصرير الكراسي وقعقعة أدوات الأكل ورنين الأطباق الخفيف، إذا لم نقُل كامل رونق جو وقت العشاء.

قال والدي لوالدتي «أترغبين في المزيد من القهوة؟ أنتِ سمعتِ صاحب المكان - يريد منا أنْ نملأ كؤوسنا».

تمتمت «كلا، لا أريد المزيد».

«وأنت، سيد تيلر - أتريد قهوة؟».

«كلا، اكتفيت».

قال والدي للسيد تيلر - باقتضاب، ووهَن، لكنّه بدأ من جديد بإبعاد كل ما كان يجتاحه، «إذن، ما هو العمل الذي كنتَ تقوم به قبل هذا؟ أم أنَّك كنتَ دائماً تعمل مُرشداً في واشنطن؟».

هنا سمعنا من جديد الرجل الذي كان قد تقدَّمَ منا ليُخبرنا، كما فعل بينيديكت أرنولد[22] من قبله، بأنَّ والتر وينتشل كان أجيراً للبريطانيين. كان يؤكِّد لأصدقائه «أوه، لا تقلقوا، سوف يكتشف اليهود هذا الأمر قريباً».

لم يكن هناك لبس فيما قاله وسط كل ذلك الجو الهادئ، خاصة أنّه لم يُكلِّف نفسه عبء التخفيف من نبرة السخرية المتهكّمة بأي حال. لم يرفع نصف الآكلين أنظارهم عن طعامهم، متظاهرين بأنّهم لم يسمعوا شيئاً، لكنَّ حفنة منهم استداروا إلى الخلف لينظروا مباشرة إلى مصدر الإهانة.

لم أكن قد شاهدتُ أساليب التعذيب الهمجيّة إلّا مرة واحدة، في أحد أفلام الغرب، لكنني قلتُ في نفسي، «سوف نتعرَّض للتعذيب الهمجي»، متخيّلاً إذلالنا يبرز على بشرتنا كطبقة من القذارة السميكة لا يمكن التخلُّص منها.

سكنَ والدي برهة، لكي يُقرِّر مرة أخرى هل يُحاول أنْ يُسيطر على الحدث أم يتخلّى عنه. فجأة قال لأمي وهو يُمسك كلتيّ يديها بيديه، «كنتُ أسألُ السيد تيلر عمّا كان يعمل قبل أنْ يُصبح مُرشِداً سياحيّاً»، وهو ينظر إليها كمَنْ يرميها بسِحر، كشخصٍ بارع في منع إرادتها من التحرُّر من إرادته ومن استعمال إرادتها.

22- أرنولد بينيديكت (1741-1801): ضابط أميركي، اشترك في الحرب الثوريّة الأميركية ضد الاحتلال البريطاني عام 1870. - المترجم

قالت «نعم، سمعتُ»، ومن ثم نصبَتْ قامتها مع ذلك، وقد جلبَ الأسى الدموع إلى عينيها، وقالت للسيد تيلر «نعم، أخبرنا من فضلك».

قال والدي، وهو يمدّ يده ويربت على ساعدينا إلى أنْ نظرنا إلى عينيه مباشرة، «تابعا أكل الكريما المُثلّجة يا أولاد. أليستْ لذيذة؟».

قلنا «نعم».

«حسن، تابعا الأكل ولا تستعجلا»، وابتسم لكي يدفعنا إلى الابتسام، ثم قال للسيد تيلر، «العمل الذي قمتَ به قبل هذا، عملك القديم – ما العمل الذي قمتَ به من جديد، يا سيدي؟».

«كنتُ أستاذاً جامعيّاً، يا سيد روث».

قال والدي «أحقّاً؟ أسمعتما هذا يا أولاد؟ أنتما تتناولان العشاء مع أستاذ جامعيّ».

أضاف السيد تيلر على سبيل الدقّة، «أستاذ جامعي في مادة التاريخ».

اعترفَ والدي «كان ينبغي أنْ أعلم».

وجّه السيد تيلر كلامه إلينا نحن الأربعة «في جامعة صغيرة في شمال غرب إنديانا، وعندما أغلقوها في عام 1932، انتهى عملي».

سأله والدي «وماذا عملتَ بعد ذلك؟».

«أتركُ هذا لمخيّلتكم. مع انتشار البطالة والإضرابات، قمت بالكثير من الأعمال الصغيرة. حصدتُ المحاصيل في أراضي إنديانا القذرة، وضَبْتُ اللحم لمسلخ في هاموند، وعلّبتُ الصابون لمصلحة كوداي في شرق شيكاغو. وعملتُ مدة عام عاملاً في ميناء لوغانز، في مستشفى أمراض عقليّة هناك، وعملتُ حاجباً عند أشخاص مُصابين بأمراض عقليّة. وأخيراً أوصلتني الأوقات العصيبة إلى هنا».

سأله والدي «وماذا كان اسم تلك الجامعة التي درَّستَ فيها؟».

«واباش».

قال والدي، وقد هدهده رنين الكلمة وحده، «واباش؟ حسن، الجميع سمعوا بها».

«كانت تضم حوالي أربعمئة وستة وعشرين طالباً؟ لستُ متيقّناً من العدد. إنَّ ما سمع عنه الجميع هو ما قاله أحد المتخرجين البارزين ذات مرة، على الرغم من أنّهم لا يعرفون أنّه من خريجي جامعة واباش. إنّهم يعرفون أنّه نائب الرئيس الأميركيّ بين عاميّ 1912 إلى 1920. أعني بكلامي نائب رئيسنا لولايتين متتاليتين، توماس رايلي مارشال».

قال والدي «طبعاً، نائب الرئيس مارشال، الحاكم الديمقراطي لولاية إنديانا. نائب الرئيس في ظل حكم ديمقراطيّ عظيم آخر هو وودرو ويلسون» قال هذا، بعد يومين من وصاية السيد تيلر نفسه الذي أصبح الآن في مزاجٍ للتوضيح، «الذي تحلّى بما يكفي من الشجاعة لتعيين لويس د. برانديس في المحكمة العليا. وهو أول عضو يهوديّ يدخل المحكمة العليا. أنتما تعلمان هذا يا أولاد، أليس كذلك؟».

كنا نعلم - ولم تكن تلك المرة الأولى التي يُخبرنا بذلك. كانت فقط المرة الأولى التي أخبرنا بها بصوتٍ هادر في كافيتريا كتلك في واشنطن دي سي.

استأنف السيد تيلر قائلاً «وما قاله نائب رئيس الجمهورية شاع وانتشر في أرجاء الأمّة كلها منذ ذلك الحين. وذات يوم، في مجلس شيوخ الولايات المتحدة - بينما كان يترأس مُناظرة في المجلس - قال للشيوخ المجتمعين هناك، «إنَّ ما يحتاجه هذا البلد هو سيجار أصلي جيد بخمسة سنتات».

ضحك والدي - كانت حقاً ملاحظة ظريفة كسبتْ إعجاب جيله بأكمله وكنا أنا وساندي نعرفها من كثرة تكراره لها أمامنا. فضحك من قلبه، ومن ثم، أمام دهشة ليس عائلته فقط بل ربما كل مَنْ كان في الكافيتريا، الذين كان قد أطرى أمامهم وودرو ويلسون لأنّه عيَّنَ يهوديّاً في المحكمة العليا، وأعلن «إنَّ ما يحتاجُ إليه هذا البلد هو رئيس جمهورية جديد».

لم تتبع ذلك أيّة أعمال شغب. لا شيء، والحقيقة أنّه برفضه الاستسلام بدا أنّه تقريباً أحرز نجاحاً.

بعد ذلك سأل والدي السيد تيلر، «أوليس هناك نهر يحمل اسم واباش؟».

«إنّه أعظم روافد نهر أوهايو. ويمتد أربعمئة وخمسة وسبعين ميلاً من دون عوائق عبر الولاية من الشرق إلى الغرب».

حاول والدي أنْ يتذكّر كمَنْ يحلم، «وهناك أيضاً أُغنية حول هذا».

أجاب السيد تيلر «هذا صحيح، أغنية مشهورة جداً. ربما لا تقل شهرة عن أغنية «يانكي دوودل» نفسها. ألّفها بول دريسر في عام 1897، «على ضفاف نهر واباش، بعيداً جداً».

هتفَ والدي «صح!».

قال السيد تيلر «كانت الأغنية المُفضّلة عند الجنود الأميركيين-الإسبان المُشاركين في حرب 1898 وأصبحت الأغنية الوطنيّة لولاية إنديانا في الرابع من شهر آذار (مارس) من عام 1913، على وجه الدقّة».

قال له والدي «صحيح، صحيح. أنا أعرفُ هذه المعلومة».

قال السيد تيلر «أعتقد أنَّ كل أميركيّ يعلمُ هذا».

وفي الحال، باشر والدي، بإيقاع رشيق، الغناء، وبصوتٍ مرتفع بقدرٍ كافٍ يسمعه كل مَنْ في الكافيتريا، «أضواء الشموع تلمع من خلال شجر الدلب...».

قال دليلنا السياحيّ مُبدياً إعجابه «عظيم، عظيم جداً». وأخيراً ابتسم الموسوعة العلميّة الصغيرة الرصينة، وقد افتُتِنَ بأداء صوت والدي ذي النبرة العالية والبارع.

قالت أمي جافة العينين، «إنَّ لزوجي صوتاً جميلاً».

قال السيد تيلر «هذا صحيح»، وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك هتاف استحسان - خلافَ ما صدر عن ويلبر، من خلف نضد الاستقبال - نهضنا عندئذٍ بسرعة لكي نُغادر قبل أنْ نُطيل من أمد انتصارنا الصغير وقبل أنْ يستشيط صاحب الشارب الرئاسيّ غضباً.

-3-

حزيران (يونيو) 1941 – كانون الأول (ديسمبر) 1941

على خُطى المسيحيّين

في الثاني والعشرين من شهر حزيران (يونيو)، عام 1941، خُرِقَتْ وثيقة عدم الاعتداء بين هتلر وستالين التي وقعها الدكتاتوران قبل ذلك بعامَين وقبل بضعة أيامٍ فقط من غزو بولندا وتقسيمها – خُرِقَتْ من دون سابق إنذار وذلك عندما تجرّأ هتلر، الذي كان قد اجتاح أوروبا القارّيّة، على القيام بغزو الكتلة القارّية الشاسعة الممتدة من بولندا عبر آسيا وحتى المحيط الهادئ بإعداد هجوم هائل نحو الشرق ضد قوات ستالين. في تلك الليلة، ألقى الرئيس ليندبرغ خطاباً على الأمّة بُثَّ من البيت الأبيض دار حول توسُّع هتلر الهائل في الحرب وأدهشَ حتى والدي بمديحه الصريح للفوهرر الألمانيّ. أعلنَ الرئيس «إنَّ أدولف هتلر بفعله هذا رسَّخَ نفسه بوصفه الحارس العظيم للعالم في وجه تمدُّد الشيوعيّة وشياطينها. وهذا لا يُقلِّل من شأن الجهد الذي تبذله إمبراطوريّة اليابان. وكما أنَّ اليابانيين متفانون في تحديث الصين الإقطاعيّة والفاسدة بقيادة كيانغ كيشيك، فإنهم متفانون على قدم المُساواة في اجتثاث الأقلّيّة الشيوعيّة الصينيّة المتعصّبة من جذورها، التي تهدف إلى الاستيلاء على زمام السلطة في ذلك البلد الشاسع وتحويل الصين، كما يفعل البلاشفة في روسيا، إلى مُعتَقَل شيوعيّ. ولكنْ في هذه الليلة على العالم برمّته أنْ يشعر

بالامتنان لهتلر لقصفه الاتّحاد السوفيتي. فإذا نجح الجيش الألماني في صراعه ضد البلشفيّة السوفييتيّة - ولدينا كل الأسباب التي تجعلنا نؤمن بأنَّ هذا سوف يحدث - لن تُضطر أميركا أبداً إلى مواجهة تهديد الدولة الشيوعيّة الجشعة التي تفرِض نظامها الخبيث على باقي العالم. لا يسعني إلّا أنْ آمل في أنْ يُلاحظ دُعاة العالميّة في الكونغرس الأميركي أنّه لو أنّنا سمحنا لأمّتنا بأنْ تُجرّ إلى خوض هذه الحرب العالميّة إلى جانب بريطانيا العُظمى وفرنسا، لوجدنا ديمقراطيتنا العُظمى تتحالف مع نظام الاتّحاد السوفييتي الشرير. وفي هذه الليلة قد يشن الجيش الألماني الحرب التي كان يمكن للقوات الأميركيّة أنْ تخوضها».

لكنَّ قواتنا كانت على أُهبة الاستعداد وسوف تبقى كذلك، كما ذكَّرَ الرئيس أبناء بلده، لفترة طويلة استناداً إلى مشروع زمن السلم الذي وضع أساسه الكونغرس بطلبِ منه، أربعة وعشرون شهراً من التدريب العسكري الإجباريّ للشّبان الذين بلغوا الثامنة عشرة من العمر، تتبعها ثماني سنوات من الاستدعاء للاحتياط سوف تساهم بدرجة عالية في تحقيق هدفه المُزدوج بشأن «إبعاد أميركا عن التورُّط في كل الحروب الأجنبيّة وإبعاد كل الحروب الأجنبية عن أميركا». «ومصير مُستقلّ لأميركا» - هذه هي العبارة التي كرّرها ليندبرغ حوالي خمس عشرة مرة في سياق خطابه عن حالة الاتّحاد ومرة أخرى في ختام خطابه في ليلة الثاني والعشرين من شهر حزيران (يونيو). وعندما طلبتُ من والدي أنْ يشرح معاني الكلمات - وأنا غارق في العناوين الرئيسة ورازح تحت ثقل افكاري القلقة، وكنتُ أسأل أكثر فأكثر عن معنى كل شيء - تجهَّمَ وقال، «إنّها تعني التخلّي عن أصدقائنا. وتعني أنْ نعقد صداقات مع أعدائهم. أتفهم معنى هذا، يا بنيّ؟ إنّه يعني تدمير كل ما تمثّله أميركا».

في آخر يوم من شهر حزيران عام 1941 غادر أخي، تحت رعاية برنامج «*الأناس العاديين*» - الذي وصفه مكتب الاستيعاب الأميركي الذي

أسّسه ليندبرغ حديثاً بأنّه «برنامج للعمل الطوعيّ يُعرِّفُ شباب المدينة إلى السُبُل التقليديّة للحياة فيها» - غادر لقضاء «فترة تدرُّب» في فصل الصيف في مزرعة تبغ في كينتكي. ولأنه لم يكن قد ابتعد عن المنزل أبداً، ولأنَّ والدي احتجَّ بقوة على ما ينطوي عليه وجود «مكتب الاستيعاب الأميركي» بشأن وضعنا كمواطنين - وأيضاً لأنَّ ألفن، الذي كان قد انطلقَ تواً ليخدم في الجيش الكندي، أصبحَ مصدراً دائماً للقلق - كانت مُغادرة ساندي مُثيرة للعواطف. وما أمدَّ ساندي بالقوة لمقاومة حِجج والدينا ضد اشتراكه في مشروع «أناس عاديون» - ورسَّخَ فكرة تقديم الطلب منذ البداية - كان الدعم الذي تلقّاه من أخت أمي الصغرى الحيويّة، إيفلين، التي تعمل الآن مُساعداً منفّذاً للحاخام ليونيل بنغلسدورف، الذي كانت الإدارة الجديدة قد عيَّنته ليكون المدير الأول لمكتب الاستيعاب الأميركيّ في ولاية نيو جيرزي. وكان الهدف المُعلَن لذلك المكتب هو تنفيذ برامج «تشجيع الأقليات الدينيّة والوطنيّة في أميركا على الاندماج أكثر في المجتمع الأوسع» ولكن بحلول عام 1941 كانت الأقليّة الوحيدة التي أبدى المكتب اهتماماً جدّياً بتشجيعها هي أقلّيتنا. وكان هدف برنامج «أناس عاديون» هو نقل مئات من الصِبية اليهود ممَّن تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة من المدن التي يعيشون فيها ويرتادون المدارس ودفعهم إلى العمل لثمانية أسابيع في الحقول وكعمّال باليوميّة مع عائلات من المزارعين تُقيم على بُعد مئات الأميال من منازلهم. وانهالتْ عبارات المديح على البرنامج الصيفيّ الجديد وردتْ في نشرات الأخبار في تشانسلر وفي المدرسة الثانوية اليهوديّة المجاورة، حيث تبلغ نسبة عدد الطلاب اليهود، القريب من عددنا، حوالي مئة بالمئة. وذات يوم من شهر نيسان (أبريل) جاء ممثل عن مكتب الاستيعاب في نيو جيرزي ليتحدث مع الصِبية الذين تبلغ أعمارهم الثانية عشرة فما فوقَ عن مهمّة البرنامج، وفي تلك الأمسية ظهر ساندي على مائدة العشاء حاملاً طلب الانتساب الذي يحتاج إلى توقيع أحد الوالدَين.

سأل والدي ساندي «هل تفهم حقاً ما يُحاول ذلك البرنامج أنْ يفعل؟ هل تفهم لماذا يُريد ليندبرغ أنْ يُبعِد الأولاد عن عائلاتهم ويُرحّلهم بعيداً إلى مناطق نائية؟ هل لديك أدنى فكرة عمّا يكمن خلف هذا كله؟».

«ولكن هذا لا صِلة له البتّة بمُعاداة الساميّة، إنْ كان هذا ما تظن. إنَّ في رأسك فكرة واحدة ووحيدة. إنَّ هذه فرصة عظيمة، لا أكثر».

«فرصة من أجل ماذا؟».

«للعيش في مزرعة. للذهاب إلى كينتكي. لرسم كل شيء هناك. الجرارات. الحظائر. الحيوانات. الحيوانات بأنواعها كلها».

قال له والدي «لكنهم لا يرسلونك عبر كل تلك المسافة لكي ترسم الحيوانات؛ إنهم يُرسلونك إلى هناك لكي تحمل العلف للحيوانات. إنهم يرسلونك إلى هناك لكي تنشر السماد. ومع نهاية النهار سوف يكون الإرهاق قد نال منك ولن تتمكّن ساقاك من حملك، ناهيك عن أنْ ترسم لوحة لحيوان».

قالت أمي «ويداك. إنَّ المزرعة مُحاطة بأسلاك شائكة. وهناك آلات بشفرات حادّة. يمكن أنْ تجرح يديك، ومن ثم ماذا سيحصل لك؟ لن تستطيع أنْ ترسم بعد ذلك. حسبتُ أنك ستتلقّى دروساً في الفنون العليا هذا الصيف. كنتَ ستتلقّى دروساً في الرسم مع السيد ليونارد».

«أستطيع دائماً أنْ أفعل هذا - هكذا أشاهد أميركا!».

في الليلة التالية جاءت إيفلين على العشاء، دعتها والدتي لقضاء الساعات التي كان ساندي ينوي قضاءها في منزل صديقه لأداء الواجب المدرسي؛ وهكذا لن يكون موجوداً لحضور النقاش الذي سيحتدم حتماً بين الخالة إيفلين ووالدي حول موضوع برنامج «أناس عاديون»، وهذا ما حصل في الحقيقة فور دخولها المنزل وإعلانها أنها سوف تهتمّ بشأنْ طلب انتساب ساندي حالما يصل إلى المكتب. قال والدي المتجهِّم «لا نريد منك أيَّ معروف».

«أتريد أنْ تقول إنك لن تسمح له بالذهاب؟».

سألها «ولِمَ أفعل؟ لِمَ قد أفعل؟».

أجابت إيفلين «ولِمَ لن تفعل، إلّا إذا كنتَ مجرد يهوديّ آخر يخاف ظلّه».

واشتدَّ خلافهما خلال تناول العشاء، والدي يؤكّد أنَّ برنامج «أناس عاديون» يمثّل الخطوة الأولى من خطّة ليندبرغ لفصل الأولاد اليهود عن أهاليهم، لتفكيك تضامُن العائلة اليهوديّة، وخالتي إيفلين تُعلن بعنف أنّ أكبر مخاوف يهوديّ كصهرها هي احتمال أنْ ينتهي الأمر بأولاده أن يُصبحوا ضيّقي الأفق وخائفين مثله.

كان ألفن هو المرتد بالنسبة إلى والدي، وكانت إيفلين هي الخارجة بالنسبة إلى أمي، كانت أستاذاً بديلاً في المرحلة الإعداديّة حسب نظام نيوارك وقبل ذلك ببضع سنوات كانت ناشطة في تأسيس نقابة يساريّة، خاصة إلى حد بعيد بأساتذة نيوارك اليهود، كان أعضاؤها الذين بلغ عددهم بضع مئات يتنافسون مع اتحاد أساتذة يميل أكثر إلى الطابع السياسي، الرصين، من أجل التفاوض على عقود مع المدينة. لم تكن إيفلين قد تجاوزت الثلاثين من العمر في عام 1941، وحتى قبل ذلك بعامين، عندما توفيت جدَّتي لأمي بهبوط في القلب بعد مرض استمرّ عقداً من الزمن، كانت إيفلين هي التي تعتني بها في الشقة الصغيرة العليا في منزل يضمّ عائلتين ونصفاً اقتسمته الأم والابنة في شارع ديوي، في مكان قريب من مدرسة جادة هوثورن، حيث كانت إيفلين في المعتاد تعمل مُدرّساً بديلاً. وفي الأيام التي لم يكن أحد الجيران يُعرِّج لكي يسهر على راحة جدّتنا، كانت أمي تستقلّ الحافلة وتذهب إلى شارع ديوي وتعتني بها إلى أنْ تعود إيفلين إلى المنزل من العمل، وعندما كانت إيفلين تذهب إلى نيويورك لكي تُشاهد مسرحيّة مع أصدقائها المُثقفين في أمسية يوم سبت، فإمّا أنْ ينقل والدي جدّتنا إلى منزلنا لقضاء الأمسية معنا أو أنْ تعود والدتي إلى شارع ديوي لتعتني بها هناك. وكثيراً ما كانت الخالة إيفلين لا تعود

إلى منزلها من نيويورك - حتى عندما تُخطِّط للعودة قبل حلول منتصف الليل - وهكذا تُضطر والدتي إلى قضاء الليل بعيداً عن زوجها وولديها. ثم هناك اليوم الذي لا تعود فيه إيفلين إلى المنزل إلّا بعد ساعات طوال من انتهاء الدوام المدرسي، بسبب علاقات حب طويلة ومتقطّعة مع أستاذٍ بديل من شمال نيوارك، وهو على غرار إيفلين نصيرٌ قويّ للنقابة، ويختلف عن إيفلين بكونه متزوجاً، وإيطاليّاً، وأباً لثلاثة أطفال.

كانت أمي دائماً تؤكّد على أنّه لو لم تكن إيفلين تمكث في المنزل طوال كل تلك السنين لترعى أمّهما المريضة، لاستقرّتْ وتزوجتْ بعد نيل شهادة التدريس ولم ينته الأمر بها إلى الانخراط في علاقات «بغيضة» مع رجالٍ متزوجين كانوا زملاء لها في التدريس. وأنفها الكبير لم يمنع الناس من وصف الخالة إيفلين بأنها «مُذهلة» وكان صحيحاً، كما لاحظتْ أمي، أنَّه عندما كانت إيفلين الضئيلة تلج الغرفة - وهي السمراء الحيويّة ذات مسقط وجه جانبي أُنثويّ مثاليّ، وإنْ كان مُنمنماً، وذات العينين السوداوين الواسعتين والمائلتين كعينيّ قطّة، وتضع أحمر شفاه قرمزيّاً مضموناً في جعل الناظر ينبهر - كان الجميع يلتفتون لينظروا إليها، نساء ورجالاً. كان شعرها يلمعُ ببريقٍ معدنيّ ومُسرَّحاً إلى الخلف وملموماً على هيئة كعكة، وحاجباها منتوفين بصورة رائعة، وعندما تنطلق لتقوم بالتدريس، كانت ترتدي تنّورة ذات ألوان ساطعة وتنتعل حذاءً عالي الكعب وتُحيطُ خصرها بحزام أبيض عريض وتلبس بلوزة شافّة[23]، بلون فاتح. كان والدي يعتبرها أداةً تفتقر إلى الذوق كمُدرِّسة، وكذلك كان رأيه في مدير مدرسة هوثورن، لكنَّ أمي التي أنّبتْ نفسها، سواء أكانت على خطأ أم لا، لاضطرار إيفلين إلى «التضحية بشبابها» من أجل العناية بأمهما، كانت عاجزة عن الحُكم على جراءة أختها بقسوة، حتى عندما استقالت إيفلين من مهنة التدريس، من دون انْ يرفّ لها جفن، وتركت النقابة، وتخلَّتْ عن ولاءاتها السياسيّة لكي تعمل لمصلحة الحاخام بنغلسدورف في مكتب ليندبرغ للاستيعاب الأميركيّ.

23- شافّة: نصف شفّافة. - المترجم.

سوف تمرّ عدّة أشهر قبل أنْ يتّضح لوالديّ أنَّ الخالة إيفلين هي خليلة الحاخام وأصبحتْ كذلك منذ أنْ قابلها في حفل استقبالٍ تلا خطابه الذي ألقاه في نقابة مُدرّسي نيوارك حول «تطوير غرفة الدرس للمُثُل العليا الأميركيّة» - ولم يُدركا ذلك إلّا عندئذٍ لأنَّه لدى مغادرة بنغلسدورف مكتب الاستيعاب الأميركيّ في نيو جيرزي ليستلم عمله كمدير فيدرالي في مركز الإدارة الوطنيّة في واشنطن، أعلنَ للصحف في نيوارك الإخباريّة عن خطبته، وهو في سن الثالثة والستين، مُساعدته المُثيرة ذات الواحدة والثلاثين من العمر.

تخيّلَ ألفن، فور انطلاقه ليُحارب هتلر، أنَّ أسرع طريقة ليشهد الحرب هي أنْ يكون على متن إحدى المُدمّرات الكنديّة التي تقوم بحماية سفن الملاحة التجاريّة التي تنقل المؤن إلى بريطانيا العظمى. وكانت الصحف تنشر بانتظام تقارير عن إغراق غواصات ألمانيّة لسفينة أو أكثر من السفن الكنديّة في شمال الأطلسيّ، وأحياناً تقترب من اليابسة حتى تبلغ مياه الصيد الساحليّة في نيوفاوندلاند - وهو تطوُّرٌ مشؤوم جداً بالنسبة إلى البريطانيين لأنَّ كندا أصبحت فعليّاً مصدرهم الوحيد للسلاح، والطعام، والدواء، والآليات حالما أسقطتْ إدارة ليندبرغ مشروع المساعدة الذي فعّله كونغرس روزفلت. وفي مونريال قابل ألفن أحد المُرتدّين الشبان الأميركيين وطلبَ منه أنْ ينسى أمر الانضمام إلى البحريّة - كان رجال المغاوير الكنديين هم المنخرطين في قلب المعمعة، يشنّون غارات ليليّة على القارّة التي يحتلّها النازيّون، ويُخرّبون المُعدّات الألمانيّة الحيويّة، ويُفجّرون ترسانات الذخيرة الحربيّة، وبالتعاون مع المغاوير البريطانيين وبالتنسيق مع حركات المقاومة الأوروبيّة السرّيّة، يُدمّرون مُنشآت السفن وأحواض السفن على طول الخط الساحليّ لغرب أوروبا. وعندما سرد على مسمع ألفن السُبُل المتعدّدة كلها التي يُعلِّمها رجال المغاوير لقتل رجل، تخلّى ألفن عن خُططه الأصليّة وذهب لينضم إليهم. وكبقيّة القِوى

المُسلّحة الكنديّة، كان المغاوير توّاقين لقبول مواطنين أميركيين مؤهَّلين للانضمام إلى صفوفهم، وهكذا، بعد مرور ستة عشر أسبوعاً من التدرُّب، عُيِّنَ ألفن في وحدة المغاوير الفاعلة ونُقِلَ إلى منطقة عمليّات سرّية في الجُزُر البريطانيّة. ومن هناك بدأنا نسمع أخباره أخيراً، عندما تلقّينا رسالة من أربع كلمات تقول، «ذهبتُ لأقاتل. أراكم قريباً».

لم يكن قد مرَّ أكثر من بضعة أيام على رحيل ساندي، بقرار منه وحده، على متن قطار الليل المتوجّه إلى كينتكي عندما تلقّى والديّ رسالة ثانية، وهذه المرة ليس من ألفن بل من إدارة الحرب في أوتاوا، تُخطِر أقرباء ألفن المسؤولين عنه بأنَّ قريبهم قد أُصيبَ بجراح في أثناء القتال وأنّه نُقِلَ إلى مستشفى لقضاء فترة نقاهة في دورست، إنكلترا. وبعد رفع أطباق العشاء في تلك الليلة، جلستْ أمي إلى طاولة المطبخ وأمسكت بقلم حبر وأحضرت صندوقاً يضم قرطاسيّة تحمل أحرفاً أولى لأسماء مُخصّصة للمراسلات الهامة. وجلس أبي قبالتها، ووقفتُ أنا أنظر من خلفها لأرى كتابتها الموصولة الأحرف تنساب بتناسُق بفعل آليّة خط اليد التي استعانتْ بها عندما عملت سكرتيرة ومن ثم علَّمتها لساندي ومن ثم لي - بوضع الإصبعَين الثالث والرابع بشكلٍ يدعم اليد، وتضع السبّابة أقرب إلى رأس القلم من الإبهام. كانت تنطقُ كل جُملة بصوتٍ مرتفع قبل أنْ تكتبها في حال أراد والدي أنْ يُغيِّر أو يُضيف أيّ شيء.

عزيزي ألفن،

في صباح هذا اليوم استلمنا رسالةً من الحكومة الكنديّة تُخبرنا فيها أنكَ جُرِحتَ في أثناء القتال وأنكَ أودعت المستشفى في إنكلترا. والرسالة لا تذكر أيّ شيء مُحدَّد خِلاف عنوانك البريديّ.

الآن نحن جالسون على طاولة المطبخ، العم هرمان، وفيليب والخالة بيس. نحنُ جميعاً نريد أنْ نعرف كل شيء عن أحوالك. إنَّ ساندي غائب خلال فصل الصيف، لكننا سوف نُراسله وننقل له أخبارك في الحال.

هل هناك فرصة لعودتك إلى كندا؟ إنْ كان الأمر كذلك، سوف نذهب إلى هناك لنراك. وحتى ذلك الحين، نعبّر لك عن حبّنا وعن أملنا في أنْ تكتبَ لنا من إنكلترا. اكتب لنا أرجوك أو اطلب من أحد أنْ يكتب بالنيابة عنك. سوف نُلبّي كل ما تطلبه منا.

مرة أخرى، نحبّك ونشتاق إليك.

وضعنا تواقيعنا الثلاثة على هذه الرسالة. ولم نتلقَّ رداً إلّا بعد مرور ما يُقارب الشهر.

العزيزان السيد والسيدة روث:

لقد استلم الجندي ألفن روث رسالتكما في الخامس من تموز (يوليو). أنا الممرِّض الرئيس في وحدته وقد قرأتُ الرسالة الموجَّهة إليه مرات عِدّة وهو يعرف حتماً مصدرها ومحتواها.

في الوقت الحالي الجندي ألفن غير قادر على التواصُل. لقد فقدَ ساقه اليُسرى بدءاً من تحت الرُكبة وأصيبَ بجراح خطيرة في قَدَمه اليُمنى. القَدَم اليُمنى تبرأ وتلك الإصابة لن تُخلِّف إعاقة. وعندما تُصبح ساقه اليُسرى جاهزة، سوف يكون لائقاً لتزويده بجزء صناعيّ ويتعلَّم المشي به.

إنها لحظة كئيبة بالنسبة إلى الجندي ألفن، لكنني أودّ أنْ أُطمئنكم بأنّه سوف يتمكّن في الوقت المناسب من استئناف حياته كمدنيّ من دون أيّة مشاكل جسديّة تُذكَر. إنَّ هذه المستشفى تقتصِر على حالات الأعضاء المبتورة والحروق. وقد شهدتُ العديد من الرجال يتعرّضون للصعوبات النفسيّة نفسها التي يمرُّ بها الجندي روث، لكنَّ مُعظمهم ينجون، ولديّ اعتقادٌ راسخ بأنَّ الجندي روث سوف ينجو أيضاً.

المُخلص

الملازم أ. ف. كوبر

كان ساندي يكتبُ لنا مرةً في الأسبوع قائلاً إنّه في حال جيدة ويتحدّث عن شدّة الحرّ في كينتكي ويختم بجُملةٍ عن الحياة في المزرعة - كأنْ يقول «هناك محصول وافر من ثمار العلّيق» أو «إنّ الذباب يُثير جنون العجل» أو «اليوم يحصدون محصول الفصّة» أو «لقد بدأ التشذيب» مهما كان معنى هذا. ثم، تحت توقيعه - وربما لكي يُبرهن لوالده أنَّ لديه من القوة ما يكفي لإنجاز عمله الفنّي حتى بعد الانتهاء من العمل طوال النهار في المزرعة - كان يضعُ رسماً تخطيطيّاً لصورة خنزير (ويعلّقَ «هذا الخنزير يزنُ أكثر من ثلاثمئة رطل!») أو لكلب («هذه سوزي، كلبة أورين - اختصاصها إخافة الأفاعي») أو لحَمَل («بالأمس أخذ السيد ماويني 30 حَمَلاً إلى فناء المواشي») أو لحظيرة («لقد دهنوا هذا المكان تواً بزيت القطران. أعوذ بالله!»). وفي المعتاد كان الرسم يحتل مساحة أكبر مما يحتلّه نصّ الرسالة، وتحزن أمي لأنَّ الأسئلة التي تكون قد طرحتها عليه في رسالتها الأسبوعيّة له، وتسأله فيها إنْ كان في حاجة إلى ملابس أو دواء أو نقود، نادراً ما يُجيب عنها. وطبعاً كنتُ أعلم أنَّ أمي تهتم بكل ولد من أولادها بتفانٍ متعادل، ولم أعلم إلّا بعد أنْ رحل ساندي إلى كينتكي كم تُحبّه بوصفِهِ متميِّزاً عن أخيه الأصغر. وعلى الرغم من أنّها تكتئب لانفصالها طوال ثمانية أسابيع عن ابن بلغ الثالثة عشرة، فإنه طوال فصل الصيف كان هناك تيارٌ خفيّ من الإحساس بالحرمان تبدّى بإيماءات معيَّنة وبتعبيرات على الوجه، خاصّة ونحن على مائدة المُطبخ عندما يبقى كرسيٌ رابع من أجل تناول العشاء شاغراً ليلة بعد أخرى.

كانت خالتي إيفلين معنا عندما توجّهنا إلى محطة بين لكي نستقبل ساندي في يوم سبت من أواخر شهر آب (أغسطس) لدى عودته إلى نيوارك. كانت آخر شخص يرغب والدي في مرافقتنا، ولكن حين سمح لساندي أخيراً، ضد رغبته في ذلك، بالانضمام إلى مشروع «أناس عاديون» وبقبول عمله في أثناء فصل الصيف في كينتكي، رضخَ لتأثير

أخت زوجته على ابنه لكي يتفادى تفاقُم أزمة كان خطرُها الشديد لا يزال مُبهَماً قليلاً.

في المحطة، كانت الخالة إيفلين هي أول مَن رأى ساندي بيننا لدى ترجّله من القطار إلى رصيف المحطّة، وقد زاد وزنه بمقدار عشرة أرطال عمّا كان عليه حين غادر وأضحى شعره يميل إلى الشُقرة جرّاء عمله في الحقول تحت أشعة شمس الصيف. كان أيضاً قد ازداد طولاً بحوالي بوصتين، بحيث أنَّ بنطلونه أصبح يرتفع الآن كثيراً عن مستوى أعلى حذائه، وفي العموم كان انطباعي عن أخي هو أنّه يتخفّى.

هتفت خالتي «هيه، أيها المُزارع، نحن هنا!» وتقدَّم ساندي متبختراً باتجاهنا، يؤرجح حقائبه على جنبيه ويمشي بخطوة جديدة تتماشى مع تكوينه الجسدي الجديد.

قالت أمي «أهلاً بك في بيتك، أيها الغريب»، وبأسلوب فتاة صغيرة، طوّقتْ عنقه بذراعيها بسعادة، والكلمات التي تمتمت بها في أُذنه («هل سبقَ أنْ خُلِقَ فتى شديد الوسامة مثلك؟») دفعته إلى الشكوى «ماما، كفى!»، ودفعت باقي أفراد العائلة، طبعاً، إلى الضحك. وعانقناه كلنا، ووقف بجوار القطار بعد أنْ قطع سبعمئة وخمسين ميلاً وأخذ يشدّ عضلات ساعديه لكي أتحسَّسها. وفي السيارة، عندما بدأ يُجيب عن أسئلتنا، سمعنا كم أصبح صوته خشناً، وسمعنا للمرة الأولى نبرة التشدُّق والخُنّة.

لقد انتصرتْ خالتي إيفلين. وتحدث ساندي عن آخر عمل قام به في الحقول - التجوُّل مع أورين، أحد أبناء آل ماويني، والتقاط أوراق التبغ التي انكسرت في أثناء الحصاد، وسقطَتْ إلى أسفل موقع من النبات. قال ساندي، كانت تُسمّى «الطائرة»، وكثيراً ما يتصادف أنْ تكون من التبغ الممتاز وتجلب أعلى الأسعار في السوق. لكنَّ العمّال الذين يقطفون التبغ على امتداد خمسة وعشرين أكراً لا يأبهون بأوراقٍ واقعة على الأرض، كما أخبرنا، لأنّ عليهم أنْ يقطفوا ما يُقارب ثلاثة آلاف عود من التبغ في اليوم لكي يُخزّنوا كل شيء في حظيرة التخمير خلال

أسبوعَين. وسألت الخالة إيفلين، «ما، ما - ما هو «العود» يا عزيزي؟»، ولحُسن الحظ تكرَّمَ عليها بأفضل وأطول شرحٍ ممكن. وهكذا سألتْ ما هي حظيرة التخمير، ما هو التكديس، وما نزع الجذور، وما نزع الديدان - وكلما طرحت الخالة إيفلين المزيد من الأسئلة، أصبح ساندى موثوقاً أكثر، بحيث إننا عندما وصلنا إلى جادّة سَميثْ وركنَ والدي السيارة في الزقاق، كان لا يزال يُتابع الشرح حول زراعة التبغ وكأنه يتوقَّع منا جميعاً أنْ نندفع إلى الفناء الخلفي ونباشر في إعداد قطعة الأرض القذرة التي تغطيها الأعشاب والمُجاورة لحاويات القمامة لزراعة أول محصول في نيوارك من التبغ الأبيض. وأبلغنا «إنّ التبغ المُحلَّى في السوق هو الذي يمنحه المذاق الخاصّ»، وفي تلك الأثناء كنتُ توّاقاً إلى تحسُّس عضلات ساعديه من جديد، التي بالنسبة إليّ لم تكن تقلّ غرابة عن اللكنة المحلّية، إنْ كانت هكذا فعلاً - قال «cain't» بدل «can't» و«rimember» بدل «remember» و«fahr» بدل fire» و«agin» بدل «again» و«awalkin» و«atalkin» بدل «walking» و«talking»، ومهما أردتَ أنْ تُسمّي ذلك التلفيق للّغة الإنكليزيّة، فلم تكن هي التي نتكلَّمها نحن أبناء نيو جيرزي.

حقّقت الخالة إيفلين نصراً لكنَّ والدي شعر بالإحباط، ولم يكد ينطق بكلمة، وعلى مائدة العشاء في تلك الأمسية بدا أشدّ كآبة عندما أخذ ساندي يُخبرنا كم كان السيد ماويني شخصاً نموذجياً. فأولاً، كان السيد ماويني قد تخرَّجَ من كليّة الزراعة في جامعة كينتكي، في حين أنَّ والدي، كغالبية أطفال نيوارك الفقراء الآخرين قبل نشوب الحرب العالمية، لم يتجاوز في تعليمه الصف الثامن. والسيد ماويني لم يكن يمتلك فقط مزرعة واحدة بل ثلاثاً - الاثنتان الأقلّ قيمة مؤجّرتان للسكن - وأرضاً كانت مُلكاً لعائلته منذ عهد يعود تقريباً إلى أيام دانييل بوون[24]، ووالدي لم يكن يمتلك ما هو أكثر قيمة من سيارة عمرها ست سنوات. وكان

24- دانييل بوون (1734-1820): من الرواد الأميركيين، مُستكشف، ويسكن الغابات، ويجوب الحدود. - المترجم

السيد ماويني يُحسن امتطاء الخيل، وقيادة الجرّار، وتشغيل آلة الدرس، وركوب آلة نثر السماد، وحرث الحقل بسهولة بزوجٍ من البغال كما بزوجٍ من الثيران؛ كان في استطاعته أنْ يزرع المحاصيل بنظام التناوب ويُحسن التعامل مع الرجال المُستأجَرين، من البيض والسود معاً؛ كان يُحسن إصلاح الأدوات، وشحذ شفرات الحراثة وجزّازة العشب، وتركيب السياجات، والأسلاك الشائكة، وتربية الدجاج، وتطهير الخرفان، ونزع قرون الماشية، وذبح الخنازير، وتدخين اللحم المُقدَّد، وتحلية لحم الخنزير - وكان يزرع بطيخاً هو الأحلى مذاقاً والأكثر عُصارة. وبزراعته التبع، والذرة، والبطاطا، استطاع السيد ماويني أنْ يكسب عيشه من الأرض وبالتالي لم يكن يأكل على مائدة عشاء يوم الأحد (كان المزارع الذي يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، ويزن مئتين وثلاثين رطلاً يستهلك من الدجاج المقلي مع الصلصة الكثيفة أكثر من أي شخص آخر على مائدة مُشتركة)، إلّا طعاماً زرعه هو بنفسه، أما والدي فكل ما كان يُحسن عمله هو بيع سندات التأمين. قيل ذلك كلّه من دون ذِكر أنَّ السيد ماويني كان عضواً مسيحياً راسخ القَدَم في الغالبية العُظمى المُهيمنة التي قادت الثورة وأسّست الأمّة وقهرت البريّة وأخضعت الهنود واستعبدت السود وحرّرت السود وعزلت السود عنصرياً، هو أحد ملايين المسيحيين الطيبين، النظيفين، المجتهدين في العمل، الذين استوطنوا منطقة الحدود، وحرثوا المزارع، وبنوا المُدن، وحكموا الولايات، وجلسوا في الكونغرس، وشغلوا البيت الأبيض، وكدّسوا الثروات، واستولوا على الأرض، وامتلكوا مصانع الفولاذ ونوادي البيسبول وسكك الحديد والمصارف، بل وامتلكوا حتى اللغة وتفحّصوها، هو أحد سكان الشمال والبروتستانت الأنغلو-ساكسون المنيعين الذين أداروا أميركا وسوف يُديرونها دائماً - جنرالات، وأصحاب مقامات رفيعة، وأقطاب سلطة، وأساطين المال، الرجال

الذين وضعوا القانون وسيطروا على الأمور وفسّروا قانون الشغب[25] على هواهم - بينما كان والدي، طبعاً، مجرد يهوديّ.

سمع ساندي أخبار ألفن حالما غادرت الخالة إيفلين إلى بيتها. كان والدي جالساً عل طاولة المطبخ يعمل بدفاتر الحسابات الخاصة به استعداداً للخروج وجمع الحصيلة المسائيّة وكانت والدتي في القبو مع ساندي تفرز الملابس التي أعادها من كينتكي، وتُقرِّ أيُّها تُرمِّم وأيُّها ترمي قبل أنْ تضع كل شيء آخر في حوض الغسيل. كانت أمي دائماً تؤدي فوراً العمل الذي ينبغي تنفيذه، وكانت قد باشرت بالتخلُّص من ملابسه القذرة قبل أنْ تأوي إلى النوم. كنتُ هناك معهما، غير قادر على ترك أمي تغيب عن ناظريّ. كان دائماً يعرفُ كل ما لا أعرف، وقد عاد من كينتكي وفي جعبته المزيد من المعرفة.

قالت أمي له «يجب أنْ أخبرك عن ألفن. أنا لم أرغب في الكتابة لأنّ... حسن، لم أرغب في أنْ أُسبِّب صدمة لك، يا عزيزي». هنا، بعد أنْ تمالكتْ نفسها لتتيقّنْ من أنّها لن تبكي، قالت بصوت منخفض، «لقد أُصيبَ ألفن بجراح، وأُودِعَ مُستشفى في إنكلترا. وهو هناك حتى يبرأ من جراحه».

دُهِشَ ساندي وسأل «مَنْ الذي جرحه؟» وكأنّها تحكي عن حادث وقع في حيّنا وليس في أوروبا المُحتلّة نازيّاً، حيث يُشوَّه الناس، ويُصابون بجراح، ويُقتلون طوال الوقت.

قالت أمي «نحن لا نعرف أيّة تفاصيل. لكنّها ليست جراحاً سطحيّة. كان ينبغي أنْ أبلغك نبأً حزيناً جداً، سانفورد». وعلى الرغم من محاولتها استنهاض شجاعة كلٍ منّا، فإنَّ صوتها بدأ يرتعش وهي تقول «لقد فَقَدَ ألفن ساقاً».

25- قانون الشغب: قانون صدر في إنكلترا في عام 1715 واعتبرَ كل اجتماع يضم اثني عشر شخصاً أو أكثر بقصد الشغب جريمة يُعاقب عليها القانون .

«ساقاً؟» لم تكن هناك كلمات كثيرة أقلّ إبهاماً من كلمة «ساق»، ولكن استغرقَ منه بعض الجهد لفهمها.

«نعم. وِفقاً لِما وردَ في رسالةٍ استلمناها منِ أحد ممرّضيه، كانت ساقه اليُسرى من تحت الرُكبة»، ثم أضافتْ، وكأنَّ ذلك يمكن أنْ يُخفّف من اضطرابه، «إذا أردتَ أنْ تقرأها، الرسالة في الطابق العِلويّ».

«ولكن – كيف سيمشي؟».

«سوف يُركّبون له ساقاً اصطناعيّة».

«ولكن لا أفهم مَنْ تسبّب له بالجراح. كيف جُرِح؟».

قالت «في الواقع، لقد ذهبوا إلى هناك لكي يُحاربوا الألمان، إذن لابد أنّ أحدهم تسبّب في ذلك».

سألَ ساندي، وما زال يُؤجِّل استيعاب ما لم يسمعه جيداً، «أيّة ساق؟».

كررتْ، بأقصى رقّة ممكنة، «اليُسرى».

«الساق كلّها؟ كلّها؟».

أسرعت تُطمئنه، «كلا، كلا، كلا، لقد قلتُ لك، يا عزيزي – من تحت الرُكبة».

فجأة طفقَ ساندي يبكي، ولأنّه كان أكبر حجماً بكثير عند الكتفَين والصدر وحول الرسغين مما كان عليه في الربيع السابق، لأنَّ ذراعيه أصبحتا الآن مفتولتيّ العضلات وليستا نحيلتين كذراعيّ طفل، أذهلني أنْ أرى الدموع تجري عبر وجهه الأسمر الغامق حتى إنني بكيتُ أيضاً.

قالت أمي «هذا فظيع، يا عزيزي، لكنَّ ألفن لم يمُتْ. إنّه ما زال حيّاً، والآن هو على الأقلّ خارج الحرب».

انفجر ساندي قائلاً «*ماذا؟* هل تعين ما قُلتِهِ لي؟».

سألتْ «ماذا تعني؟».

«ألم تسمعي نفسك؟ لقد قُلتِ إنّه خارج الحرب».

«وهذا صحيح. حتماً. ولأنه كذلك، سوف يعود الآن إلى المنزل قبل أنْ يحدث المزيد».

«ولكن ما سبب تواجده في **معمعة** الحرب، يا أمي؟».

«بسبب –».

صرخ ساندي «بسبب والدي!».

«كلا، يا عزيزي، هذا ليس صحيحاً» وارتفعتْ يدها لتُغطي فمها وكأنها هي التي قالت تلك الكلمات التي لا تُغتَفَر. اعترضتْ قائلة «ليس الأمر كذلك. لقد رحل ألفن إلى كندا من دون أنْ يُخبرنا. هرب في ليلة يوم الجمعة تلك. أنت تذكُر كم كان ذلك رهيباً. لا أحد كان يُريد لألفن أنْ ينضم إلى الحرب – لقد رحل ببساطة، بقرارٍ منه».

«لكنَّ والدي يريد للبلد كلّه أنْ يلتحق بالحرب. أليس كذلك؟ أليس هذا هو سبب تصويته لمصلحة روزفلت؟».

«أخفض صوتك، أرجوك».

«أولاً تقولين شكراً لله لأنَّ ألفن خرج من الحرب –».

«أخفض *صوتك!*» هنا تغلَّبَ عليها التوتّر الذي ساد ذلك النهار إلى أنْ فقدتْ أعصابها، وقالت بحِدَّة للفتى الذي اشتاقت إليه بشدّة طوال فصل الصيف، «أنتَ لا تعي ما تقول!».

صرخ «لكنكِ ترفضين ***الإصغاء***. فلولا الرئيس ليندبرغ –».

ذلك الاسم من جديد! كنتُ أُفضّل سماع انفجار قنبلة على اضطراري مرة أخرى إلى سماع الاسم الذي كان يُعذّبنا كلّنا.

عندئذٍ ظهر أبي وسط الضوء المُعتِم على مسطبة أعلى دَرَج القبو. لعلّ من الجيد أننا من مكان وقوفنا بجوار حوض الغسيل العميق لم نر منه إلّا البنطلون والحذاء.

قالتْ أمي، رافعة بصرها لتشرح سبب الصراخ، «إنّه منزعج بسبب ما حدث لألفن» ثم وجّهتْ كلامها لساندي، «لقد ارتكبتُ خطأً. ما

كان ينبغي أنْ أحمل إليك النبأ هذه الليلة. ليس سهلاً على فتى أنْ يعود إلى المنزل بعد تجربة كبيرة كتلك... ليس سهلاً أبداً الانتقال من مكان إلى آخر... وعلى ايّة حال أنتَ مُرهَق...»، ومن ثم قالت، بعجز، وهي تستسلم لإرهاقها، «أنتما الاثنين، أنتما معاً، اصعدا إلى الطابق العُلويّ لكي أقوم بغسل الملابس».

وهكذا استدرنا لكي نرتقي الدَرَج فاكتشفنا، لحُسن الحظ، أنَّ أبي قد اختفى عن المسطبة وانطلقَ بالسيارة ليقوم بجمع حصيلته المسائيّة.

في السرير، بعد ذلك بساعة، أُطفئت الأنوار في المنزل كلّه. وأخذنا نتهامس.

أحقاً أمضيتَ وقتاً ممتعاً؟

بل أمضيتُ وقتاً رائعاً.

كيف كان وقتاً رائعاً؟

إنَّ العيش في مزرعة أمرٌ رائع. إنك تتعوّد على الاستيقاظ باكراً في الصباح. وتقضي طوال النهار في الخارج، ثم هناك كل تلك الحيوانات. لقد رسمتُ الكثير من الحيوانات. سوف أُريكَ رسوماتي. وكنا نتناول المُثلجات في كل يوم. كانت السيدة ماويني تصنعها بنفسها. وهناك حليب طازج.

إنَّ الحليب كله طازج.

كلا، كنا نحصل عليه من البقرة مباشرة. كان لا يزال دافئاً. ونضعه على المدفأة حتى يغلي ونكشط الكريما فقط من أعلاه، ومن ثم نشربه.

ألم تمرض بسببه؟

لهذا كانوا يغلونه.

إذن لم تكن تشربه مباشرة من البقرة.

جرّبتُ ذلك مرّة لكنَّ مذاقه لم يكن طيّباً. كان كثيفاً جداً.

هل قمتَ بحلب بقرة؟

لقد بيَّنَ لي أورين كيف أفعلُ ذلك. إنّه أمرٌ صعب. كان أورين يعصره، فتأتي القطط وتتجمَّع لتتلقّف الحليب.

هل تعرّفتَ على أصدقاء؟

في الواقع، كان أورين هو صديقي المُفضَّل.

أورين ماويني؟

نعم، إنّه في مثل عمري. ويذهب إلى المدرسة هناك. ويعمل في المزرعة. يستيقظ في الرابعة صباحاً. ويقوم بأعمال شاقة شتّى. إنّه ليس مثلنا. هو يذهب إلى المدرسة على متن حافلة. الأمر يستغرقُ خمساً وأربعين دقيقة بالحافلة، ومن ثم يعود في المساء، ويقوم ببعض المهام الأخرى، ومن ثم يؤدي وظيفته المدرسية، ويأوي إلى السرير. وينهض في الرابعة صباحاً في اليوم التالي. أمرٌ شاقّ أنْ يكون المرء ابن مُزارع.

لكنّهم أغنياء، أليسوا كذلك؟

إنّهم فاحشو الثراء.

كيفَ أصبحتَ تتكلَّم كما تتكلَّم الآن؟

ولِمَ لا أفعل؟ هكذا يتكلَّمون في كينتكي. يجب أنْ تسمع السيدة ماويني. إنها من جورجيا. إنها تصنع فطائر مُحلّاة في صباح كل يوم من أجل وجبة الإفطار. مع اللحم المُقدَّد. السيد ماويني يقوم بنفسه بتدخين اللحم. في معمل التدخين. إنّه يُحسن فعل ذلك.

وكنتَ تأكل اللحم المُقدَّد في صباح كل يوم؟

في كل صباح. إنّه لذيذ. وعندما نستيقظ في أيام الأحد نتناول الفطائر المُحلّاة واللحم المُقدَّد والبيض. من إنتاج دجاجهم الخاصّ. والبيض - الذي يكون أحمر اللون تقريباً في المُحّ، يكون طازجاً جداً. تذهب وتأخذه من تحت الدجاج وتُحضره وتأكله في التوّ.

هل أكلتَ لحم الخنزير؟

كنا نأكل لحم الخنزير على العشاء حوالي مرّتين في الأسبوع، والسيد ماويني يصنع لحمه المُقدَّد بنفسه. ولديه وصفة خاصة بالعائلة. يقول إذا لم يُعلَّق لحم الخنزير مدة عام فهو لا يصلح للأكل.

وهل أكلتَ السجق؟

نعم. وهو يصنع السجق أيضاً. إنّهم يطحنونه في مطحنة السجق. أحياناً نأكل السجق بدل اللحم المُقدَّد. إنّه طيب. وشرائح لحم الخنزير. وهذه طيّبة أيضاً. إنها رائعة. إنني لا أفهم حقاً لماذا لا نأكلها.

لأنها من لحم الخنزير.

وما معنى هذا؟ لماذا تعتقد أنَّ المُزارعين يُربّون الخنازير؟ ألكي يتفرَّج عليها الناس؟ إنها كأي لحم آخر تأكله. إنكَ فقط تأكله، وهو طيب حقاً.

وهل سوف تستمر في أكله الآن؟

طبعاً.

اعتقد أنَّ الحر كان شديداً هناك، هه؟

في أثناء النهار. ولكن كنا نعود على الغداء، ونأكل شطائر البندورة والمايونيز. مع الليمونادة - مع الكثير من الليمونادة. ونأخذ قسطاً من الراحة في المنزل ومن ثم نخرج إلى الحقول ونقوم بالأعمال الواجبة. نقتلع الأعشاب الضارة. نفعل ذلك طوال فترة بعد الظهيرة. نزيل الأعشاب عن نبات الذرة. وعن التبغ. وكانت لدينا حديقة للخضروات، أنا وأورين، وكنا نزيل الأعشاب عنها. كنا نعمل مع عمّال أُجراء، من بينهم زنوج، وعمّال باليوميّة. وأحد الزنوج، اسمه راندولف، كان مُقيماً، وارتقى من عامل أجير. إنه مُزارع من الدرجة الأولى، كما يقول السيد ماويني.

هل تفهم ما يقوله الزنوج عندما يتكلّمون؟

طبعاً.

هل تستطيع أنْ تُحاكي أحدهم؟

يقولون «bacca» بدل كلمة tobacco. ويكررون عبارة «I ‛clare» كثيراً. لكنّهم لا يتكلّمون كثيراً. هم يعملون في الغالب. وعند ذبح الخنازير، يستعين السيد ماويني بكليت وهنري العجوز للإمساك بالخنازير. وهما شقيقان من الزنوج ويأخذان الأمعاء ويأكلانها مشويّة في المنزل. على شكل سجق.

هل كنتَ تأكلها؟

هل أبدو كزنجيّ؟ يقول السيد ماويني إنَّ الزنوج بدأوا يُغادرون المزرعة لأنهم يعتقدون أنَّ في وسعهم أنْ يكسبوا مزيداً من النقود في المدينة. أحياناً كان يُلقى القبض على هنري العجوز في ليالي أيام السبت. بسبب معاقرة الخمر. ويدفع السيد ماويني الغرامة لإخراجه لأنه يحتاج إليه في يوم الاثنين.

هل لديهم أحذية؟

بعضهم. أما الأطفال فحُفاة. كان آل ماويني يُعطونهم الملابس بعد أنْ يستهلكوها. لكنهم كانوا يفرحون بها.

ألم يكن أحد يأتي على ذِكر مُعاداة الساميّة؟

إنها حتى لا تخطر في بالهم، يا فيليب. أنا كنتُ أول يهوديّ يُقابلونه، كما قالوا لي. لكنّهم لم يقولوا أيّ شيء خسيس. إنها ولاية كينتكي. والناس هناك ودودون حقاً.

إذن، هل أنت سعيد بعودتك إلى المنزل؟

تقريباً. لا أعلم.

هل ستعود إلى هناك في العام المقبل؟

طبعاً.

ماذا لو أنَّ أمي منعتك؟

سوف أذهب في كل الأحوال.

بدا أنَّ النتيجة المُباشرة لأكل ساندي لحم الخنزير المُقدَّد، وفخذ الخنزير، ولحم الخنزير، وسجق الخنزير، لم يعُد في الإمكان التحكُّم في التغيّرات التي طرأتْ على حياتنا. كان الحاخام بنغلسدورف قادماً لتناول طعام العشاء عندنا. كانت خالتي إيفلين ستُحضره معها.

قال أبي لأمي «لماذا يأتي إلينا؟». وبعد انتهاء تناول العشاء، لجأ ساندي إلى سريره لكي يكتب رسالة إلى أورين ماويني، وبقيتُ وحدي معهم في غرفة الجلوس، مُصمماً على أنْ أرى كيف سيتقبّل والدي النبأ بعد أنْ أخذ كل شيء حولنا يتغيَّر دفعة واحدة.

قالت أمي، مع رغبة في إثارة شجار «إنّها أختي، وهو رئيسها في العمل - لا أستطيع أنْ أقول لها لا تأتي».

قال «أنا أستطيع».

«أمنعك من فعل شيءٍ كهذا».

«إذن اشرحي لي من جديد ما الذي يجعلنا نستحق هذا الشرف العظيم؟ أليس لدى الشخصيّة البارزة عملاً مُلحّاً تقوم به غير الحضور إلى هنا؟».

«إيفلين تريد له أنْ يُقابل ابنك».

«هذا سُخف. لطالما كانت أختك سخيفة. إنَّ ابني في الصف الثامن في مدرسة تشانسلر آفنيو. وأمضى فصل الصيف وهو ينزع الأعشاب الضارّة. إنَّ هذا *كلّه* سُخف».

«هرمان، سوف يأتيان في ليلة يوم الخميس، وسوف نرحّب بهما. ربما أنت تكرهه، لكنّه ليس نكرة».

قال بنزق «أعلم هذا. *ولذلك* أكرهه».

عندما أخذ يتجول في أرجاء المنزل الآن كان يحمل معه نسخة من مجلة *PM*، إما وهي ملفوفة على شكل سلاح - وكأنّه يستعد لخوض الحرب هو نفسه، إذا ما دُعيَ إليها - أو يفتحها على صفحة تحتوي شيئاً

أراد أنْ يقرأه بصوت مرتفع على مسمع من أمي. كان مرتبكاً في تلك الأمسية بالذات بسبب استمرار تقدُّم الألمان بسهولة بالغة داخل روسيا، وهكذا، يُعلن على الفور، وهو يُقعقع الورقة بسخط، «لِمَ لا يقوم أولئك الروس *بالقتال*؟ إنَّ لديهم طائرات - لِمَ لا يستخدمونها؟ لِمَ لا يشنّ أحدٌ هناك قتالاً؟ إنَّ هتلر يتقدَّم داخل بلد ما، ويجتاز الحدود ويتقدَّم، وفجأة، تُصبح مُلكه»، ثم أعلن «إنَّ إنكلترا هي البلد الوحيد في أوروبا التي تواجه ذلك الكلب. إنّه يقصِف تلك المُدن الإنكليزيّة في كل ليلة، لكنّهم يعودون ويُتابعون قتاله بسلاح الجو الملكيّ. شكراً لله على رجال سلاح الجو الملكيّ».

سألتُه «متى سيغزو هتلر إنكلترا؟ لِمَ لا يغزو إنكلترا الآن؟».

«كان ذلك جزءاً من الصفقة التي عقدها مع السيد ليندبرغ هناك في أيسلندا»، وشرح لي والدي قائلاً، «إنَّ ليندبرغ يريد أنْ يكون مُنقذ الجنس البشريّ، وتفاوضَ على السلام الذي يُنهي الحرب، وهكذا بعد أنْ يستولي هتلر على روسيا، وبعد أنْ يستولي على الشرق الأوسط، وبعد أنْ يستولي على كل ما يُريد، سوف يدعو ليندبرغ إلى عقد مؤتمر سلام زائف - من النوع الذي يكون لمصلحة ألمانيا. سوف يكون الألمان حاضرين، وسوف يكون ثمن حلول السلام العالميّ وامتناع ألمانيا عن غزو بريطانيا العُظمى هو إقامة حكومة فاشيّة إنكليزيّة في إنكلترا. وتنصيب رئيس وزراء فاشي في داوننغ ستريت. وعندما يرفض الإنكليز العَرض، حينئذٍ سوف يقوم هتلر بغزو إنكلترا، وكل ذلك بموافقة رئيس جمهوريتنا صانع السلام».

سألتُ، مُعتقداً أنَّ ما شرحه لي كله يفوق ذكاءه، «أهذا ما يقوله والتر وينتشل؟».

أخبرني «بل هذا ما أقوله *أنا*»، وربما كان صحيحاً. لقد كان ضغط الأحداث يُسرِّع من وتيرة معرفة الجميع، بما فيها معرفتي. «ولكن شكراً لله على وجود والتر وينتشل. فمن دونه كنا ضِعنا. إنّه آخر شخص تبقّى في الإذاعة يجهر بكلامه ضد أولئك الكلاب القذرين. شيء مُقزِّز للنفس.

بل أسوأ من مُقزِّز. وشيئاً فشيئاً لم يعُد هناك أحد في أميركا يرغب في الجهر برأيه ضد تذلُّل ليندبرغ أمام هتلر».

سألتُ «وماذا عن الديمقراطيين؟».

«يا بُنيّ، لا تسألني عن الديمقراطيين. إنني غاضبٌ بما يكفي من الأمر».

دفعتني أمي إلى مساعدتها في إعداد المائدة في غرفة الطعام في أمسية يوم الخميس، ثم أرسلتني إلى غرفة نومي لكي أُبدل ملابسي بأخرى أفضل. وكان من المُقرَّر أنْ تصل خالتي إيفلين والحاخام بنغلسدورف عند الساعة السابعة، أي بعد انتهائنا في المعتاد من تناول طعامنا على طاولة المطبخ بخمسٍ وأربعين دقيقة، ولكنْ لم يكن في استطاعة الحاخام أنْ يأتي قبل الساعة السابعة إلى منزلنا بسبب كل واجباته الرسميّة. وهذا هو الخائن نفسه الذي كان والدي، الذي في المعتاد يكنّ احتراماً جمّاً لرجال الدين اليهود، قد اتّهمه جهاراً بأنّه ألقى «خِطاباً أحمقَ وكاذباً» بالنيابة عن ليندبرغ في ماديسون سكوير غاردن، وهو «اليهوديّ الزائف» في رأي ألفن، الذي ضمِنَ هزيمة روزفلت عبر «تشريع صورة ليندبرغ لغير اليهود»، ولهذا كان من المُحيِّر حضور الفترات الطويلة التي نُطعمه خلالها. وأنا نفسي تلقّيت أوامر مُسبقة بعدم استخدام مناشِف جديدة في الحمّام أو بعدم الاقتراب من أريكة والدي، التي خُصِّصَت لجلوس الحاخام قبل تناول وجبة العشاء.

أولاً جلسنا جميعاً لا نُبدي حِراكاً في غرفة الجلوس بينما قدَّمَ والدي للحاخام مشروباً مُسكِراً أو، إذا كان يُفضِّل، جرعة من مشروب شنايس، فرفضهما بنغلسدورف معاً مقابل شرب كأس من ماء الحنفيّة. قال الحاخام «إنَّ في نيوارك أفضل مياه للشرب في العالم»، قال هذا كما يقول أيّ شيءٍ آخر، باهتمامٍ عميق. تلقّى الكأس بإيماء لبق، موضوعة على صينيّة، من أمي، التي كُنتُ لا أزال أتذكّرها وهي تبتعد عن جهاز الراديو في شهر تشرين الأول (أكتوبر) السابق لكي لا تُضطر إلى سماعه يمدح ليندبرغ. قال لها «إنَّ لديك بيتاً غاية في الجمال. كل شيء في مكانه وكل

شيء وُضِعَ بشكل مثاليّ. إنّه يوحي بحب النظام الذي أتقاسمه معك. وأرى أنكِ مولعة باللون الأخضر».

قالتْ أمي، مُحاولة أنْ تبتسم ومُحاولة أنْ تسرّه لكنها كانت تتكلَّم بصعوبة وهي غير قادرة بعد على النظر إلى جهته، «خُضرة الغابة».

«جدير بكِ أنْ تكوني فخورة بمنزلك الجميل. ويُشرّفني أنْ أكون ضيفاً هنا».

كان الحاخام رجلاً مفرط طول القامة، بُنيته تُشبه بنية ليندبرغ، ونحيلاً، وأصلع، يرتدي بذلة قاتمة اللون من ثلاث قِطع وينتعل حذاءً أسود لامعاً؛ وقامته المُنتصبة وحدها بدتْ لي أنّها تُعبِّر عن أناقة ترقى إلى أعلى مُثُل الإنسانيّة. ومن اللكنة الجنوبيّة الممتعة التي كنتُ قد سمعتُها عبر المذياع تخيّلتُ شخصاً يبدو أقلّ قسوة بكثير، لكنَّ نظارته وحدها كانت تبثّ الخوف، من ناحيةٍ لأنها نظّارة بيضاوية الشكل تشبه عينيّ بوم تقرص الأنف لكي تستقر على الوجه، وتشبه تلك التي كان يضعها روزفلت، ومن ناحية أخرى بما أنه يضعها فقط - ويتفحّصكَ من خلالها بتمعُّن - وضَحَ حقيقة أنّه رجل لا يمكن الاختلاف معه. ومع ذلك عندما كان يتكلّم كانت نبرة صوته دافئة، وودّية، بل وحَسَنَة الظن بالناس. ورحتُ أنتظره كي يُعاملنا بامتعاض أو أنْ يُصدِر إلينا أوامره بشأن كل شيء، ولكنْ كل ما فعل هو أنه تكلَّمَ بلكنةٍ (لا تشبه البتّة لكنة ساندي)، وبهدوء شديد إلى درجة أنّه كان عليك أحياناً أنْ تحبس أنفاسك لكي تُدرك مدى ثقافته العالية.

قال لساندي «ولابد أنكَ أنت الفتى الذي جعلنا كلنا نفخر به».

أجاب ساندي، وقد تضرَّجَ وجهه بحُمرة الغضب، «أنا هو، يا سيدي». لقد كان، في اعتقادي، ردّاً ذكيّاً على سؤالٍ جدير بفتى ناجح آخر، في محاولةٍ للتوافُق مع معيار التواضُع المُعترَف به، ألّا يقدر على التعامُل معه. كلا، لم يعُد في استطاعة أي شيء أنْ يُحطِّم معنويات ساندي، مع كل تلك العضلات وذلك الشَعر الذي لَفَحَته أشعّة الشمس وكمّيات لحم الخنزير الكبيرة التي يُخبِّئها من دون أخذ الإذن من أحد.

سألَ الحاخام «وكيف كان حال العمل هناك في حقول كينتكي تحت أشعة الشمس الحارقة؟»، كان قد قال «wuhk» بدل «work» و«buhning» بدل «burning» و«theyuh» بدل «there»، ولفظَ «Kentucky» كما تُهجّى وليس، كما أصبح ساندي ينطقها الآن، وكأنَّ الأحرف الثلاثة الأولى هي .n–i–K

«لقد تعلَّمتُ الكثير، يا سيدي. تعلَّمتُ الكثير عن بلدي».

كان جليّاً أنَّ خالتي إيفلين توافق، كما هو متوقَّعٌ منها، بما أنها كانت في الليلة السابقة قد زوّدته، عبر الهاتف، بالجواب المُلائم لمثل ذلك السؤال. ولما كانت دائماً تريد أنْ تتفوَّق على والدي، لم تكن هناك متعة أكبر بالنسبة إليها من أنْ تُشكِّل كيان ابنه الأكبر أمام عينيه مباشرة.

«تقول خالتك إيفلين إنكَ كنتَ تعمل في مزرعة للتبغ».

«نعم، يا سيدي. تبغ بُرلي الأميركيّ الأبيض».

«أكنتَ تعلم، يا ساندي، أنَّ التبغ كان أساس اقتصاد أول مستوطنة إنكليزيّة دائمة في أميركا، في جيمستاون، ولاية فيرجينيا؟».

اعترفَ «كلا»، ثم أضاف «ولكنني لستُ مُندهِشاً لسماع هذا» وفي الحال انقضى أسوأ ما يمكن أنْ يحدث.

قال له الحاخام «هناك العديد من الحوادث المؤسفة تُحدِق بروّاد جيمستاون. ولكن ما أنقذهم من الجوع وأنقذ المستوطنة من الزوال هو زراعة التبغ. فكِّر في هذا. من دون التبغ، لما انعقدتْ أول حكومة نيابيّة في العالم الجديد في جيمستاون، كما حدث في عام 1619. ومن دون التبغ، لانهارت مُستعمرة جيمستاون، ولفشلت إقامة مُستعمرة فيرجينيا، ولما برزَتْ أولى عائلات فيرجينيا، التي جمعت ثرواتها من مزارع التبغ. وعندما تتذكَّر أنَّ العائلات الأولى كانت أسلاف رجال الدولة في فيرجينيا الذين هم الآباء المؤسسون لبلدنا، سوف تُقدِّر الأهميّة الحيوية للتبغ بالنسبة إلى تاريخ جمهوريتنا».

أجاب ساندي «أنتَ تُقدِّرها».

قال الحاخام «أنا نفسي وُلِدتُ في الجنوب الأميركيّ، وُلِدتُ بعد مأساة الحرب الأهليّة بأربعة عشر عاماً. وقد قاتل والدي في شبابه من أجل التحالُف الكونفدراليّ. جاء والده من ألمانيا لكي يستقرّ في لويزيانا عام 1850. وعمل بائعاً جوّالاً. كان لديه حصان مع عربة وكان يُربّي لحية طويلة وكان يبيع للزنوج وللبيض على قدم المُساواة»، وسأل الحاخام ساندي «هل سمعتَ مرَّة بيهودا بنجامين؟».

«كلا، يا سيدي»، ولكن من جديد أسرع بتصحيح كلامه، وهذه المرّة بقوله «هل لي أنْ أسأل مَنْ كان؟».

«حسنٌ، كان يهوديّاً وفي المرتبة الثانية بعد جيفرسون ديفيز في الحكومة الفيدراليّة. كان مُحامياً يهوديّاً عملَ لدى ديفيز نائباً عاماً، وسكرتير حرب، ووزير خارجيّة. وقبل انفصال الجنوب عمل في مجلس الشيوخ الأميركيّ كأحد شيخَين يُمثّلان ولاية لويزيانا. والسبب في انضمام الجنوب إلى الحرب، في اعتقادي، لم يكن شرعيّاً ولا أخلاقيّاً، ومع ذلك لطالما نظرتُ إلى يهودا بنجامين بأقصى احترام. وفي تلك الأيام كان وجود شخص يهوديّ في أميركا شيئاً نادراً، في الشمال كما في الجنوب، ولكن هذا لا يعني أنّه لم تكن هناك مُعاداة للساميّة تجب مواجهتها. ومع ذلك اقترب يهودا بنجامين من ذروة النجاح السياسيّ في الحكومة الفيدراليّة. وبعد خسارة الحرب، غادر البلاد وأصبحَ محامياً بارزاً في إنكلترا».

هنا انتقلتْ أمي إلى المطبخ - ظاهرياً لكي تتفقّد أمر العشاء - وقالت الخالة إيفلين لساندي، «لعلها فرصة مناسِبة للحاخام لمشاهدة الرسومات التي أنجزتها في المزرعة».

نهضَ ساندي وحمل إلى كرسي الحاخام دفاتر الرسوم الأوّليّة العديدة التي أنجزها مع الرسومات خلال فصل الصيف وتلك التي كان يضعها على حجره منذ أنْ اجتمعنا كلنا في غرفة الجلوس.

تناول الحاخام أحد دفاتر الرسم وبدأ يستعرض صفحاته ببطء.

اقترحت خالتي قائلة «أخبر الحاخام قليلاً عن كل رسم».

قال ساندي «هذا هو المخزن، حيث يُعلّقون التبغ بعد حصاده».

«نعم، إنه حقاً المخزن، وقد رسمته بصورة جميلة. إنني أحبّ كثيراً نسق الضوء والظل. أنت عالي الموهبة، يا سانفورد».

«وهذا هو نبات التبغ كامل النموّ. هكذا يبدو. انظر. إنّه مُثلّث الشكل. وهو كبير. وهذه النبتة ما زالت تحمل ازهاراً في قمّتها. وهذا قبل قطعها».

قال الحاخام، وهو يقلب صفحة أخرى، «ونبات التبغ هذا، الذي يضعون كيساً في قمّته - هذا شيء لم أر مثيلاً له من قبل».

«هكذا يحصلون على البذور. إنّه نبات مُخصَّص لجمع البذور. إنهم يُغطّون الزهر بكيس من الورق ويربطون فتحته بإحكام، وهذا يُبقي الزهر كما يُريدون له».

قال الحاخام «عظيم، عظيم جداً. ليس سهلاً رسم نبات بدقّة وفي الوقت نفسه جعله عملاً فنّياً. انظر كيف ظلَّلتَ الجوانب السُفليّة من الأوراق. جيد جداً حقاً».

قال ساندي «وهذا محراث، طبعاً، وهذه مِعزقة. وهذه ذراع المِعزقة. من أجل نزع الأعشاب الضارّة. ولكن أيضاً يمكن استخدام اليدين لذلك».

سأله الحاخام مُستفزّاً «وهل نزعتَ الكثير من الأعشاب؟».

قال ساندي «أوه، كثيراً»، فابتسم الحاخام بنغلسدورف، ولم يبدُ أبداً شخصاً مُخيفاً، وتابع ساندي قائلاً، «وهذه فقط الكلبة. كلبة أورين. إنها نائمة. وهذا أحد الزنوج، العجوز هنري، وهاتان هما يداه. وجدتُ فيهما شخصيّة مميَّزة».

«ومَنْ هذا؟».

«إنه أخو العجوز هنري. كليت».

«تعجبني الطريقة التي رسمتُه بها. كم يبدو مُرهَقاً، وهو مترهّل هكذا. أنا أعرف أولئك الزنوج - لقد ترعرعتُ معهم، وأحترمهم»، وسأل الحاخام «وهذا؟ ما هذا؟ هنا، الذي يحمل المنفاخ».

«حسن، هناك شخص في الداخل. هكذا يرشّ التبغ من أجل التخلُّص من الديدان. ويجب أنْ يُغطي نفسه من رأسه وحتى قدميه بملابس ثقيلة وقفاز وكلها مُثبّتة بأزرار لكي لا يحترق. وعندما يضغط مُبيد الحشرات من المنفاخ يمكن أنْ يحرق نفسه به. إنّه أخضر، أقصد الغبار، ومع انتهائه يكون قد غطّى ملابسه. حاولتُ أنْ أسجل شكل الغبار، حاولتُ أنْ أجعل اللون في موقع الغبار أخفّ، ولكن أعتقد أنني لم أنجح كثيراً».

قال الحاخام «حسن، أنا متيقّن من أنّ رسم الغبار أمرٌ صعب»، وبدأ يمرّ على باقي الصفحات بسرعة أكبر إلى أنْ وصل إلى النهاية وأغلق الدفتر. «لقد كانت كينتكي تجربةً لم تذهب هباءً، أليس كذلك أيها الشاب؟».

أجاب ساندي «لقد أحببتها»، ثم نهضَ والدي، الذي لزم الصمت والسكون وهو جالس على الأريكة منذ أنْ تخلّى عن كرسيه المُفضّل للحاخام، وقال «يجب أنْ أساعد بيس» وكأنّه كان يقول «والآن سوف أقفز من النافذة وأنتحر».

على مائدة العشاء قال الحاخام «إنَّ يهود أميركا يختلفون كلّياً عن أيّة جماعة من اليهود في تاريخ العالم. إنَّ لديهم أعظم الفُرَص التي أُتيحتْ لشعبنا في العصر الحديث. يمكن ليهود أميركا أنْ يُساهموا مُساهمة تامّة في الحياة الوطنيّة لبلدهم. لم يعودوا في حاجة إلى أنْ يسكنوا منفصلين، كفئة منبوذة منفصلة عن الباقين. إنَّ ما هو مطلوب هو الشجاعة التي أبداها ابنكم ساندي برحيله على مسؤوليته إلى مجاهل كينتكي لكي يعمل خلال فصل الصيف كعامل في مزرعة هناك. أعتقد أنَّ ساندي وباقي الفتية اليهود على شاكلته المشتركين في برنامج «أناس عاديون» يجب أنْ يكونوا قُدوة ليس لكل طفل يهوديّ يترعرع في هذا البلد فقط بل لكل بالغ يهوديّ. وهذا ليس مجرد حلم راودني أنا؛ إنّه حلم الرئيس ليندبرغ».

هنا اتّخذت محنتنا فجأة أسوأ منعطف ممكن تصوّره. لم أكنْ قد نسيتُ بعد كيف واجه والدي في واشنطن مدير الفندق ورجل الشرطة المُتنمِّر، وهكذا عندما ذُكِرَ اسم ليندبرغ الآن بكل احترام في منزله الخاص رأيتُ أنَّ اللحظة قد حانت لكي ينهض واقفاً ويواجه بينغسلدورف.

لكنَّ الحاخام كان حاخاماً، ووالدي لم يكن كذلك.

جلبت أمي والخالة إيفلين وجبة العشاء، ثلاثة أطباق تبعتها كعكة مُرخّمة[26] خرجت توّاً من الفرن في ذلك اليوم. التهمنا الأطباق «اللذيذة» المُقدَّمة بالفضيات «الثمينة»، وفي غرفة الطعام ولا أقلّ، حيثُ وضعنا أفضل ما لدينا من سجّاد وأفضل أثاث لدينا وأفضل مفارش وحيث نحن أنفسنا لا نأكل إلّا في المناسبات الخاصّة. ومن جانبي من المائدة كان يمكن مشاهدة الصور الفوتوغرافيّة للشخصيات الميّتة من العائلة المُرتَّبة في قمة الجزء البارز من الخزانة الذي كان بمنزلة المزار الخاصّ بنا. كانت صور جدّينا، وجدّتي لأمي، وقريبتي من جهة أمي، واثنين من أعمامنا، أحدهما كان العم جاك، والد ألفن وأخا والدي الأكبر المحبوب مُرتّبة هناك ضمن أُطُر. وفي إثر ذِكر الحاخام بنغلسدورف لاسم ليندبرغ المُستفزّ، تفاقمَ غضبي إلى أقصاه. إنَّ الحاخام هو مجرد حاخام، لكنَّ ألفن كان في تلك الأثناء في مستشفى كنديّ تابع للجيش في مدينة مونريال يتدرَّب على المشي على ساقٍ اصطناعيّة يُسرى بعد أنْ فقدَ ساقه اليُسرى وهو يُقاتل هتلر، وفي بيتي الخاصّ - حيث من المُفترَض أنْ أرتدي أي شيء ما عدا الملابس الأنيقة - كان ينبغي أنْ أضع ربطة عنقي وأنْ أرتدي سترتي الوحيدة لكي أترك انطباعاً حسناً لدى الحاخام نفسه الذي ساعد في انتخاب الرئيس الذي كان صديقاً لهتلر. فكيف لا أضطرب، وعارنا ومجدنا كانا شيئاً واحداً؟ لقد دُمِّرَ شيءٌ أساسيّ وضاع، وأُجبِرنا على أنْ نُصبح غير ما نحن عليه كأميركيين، ومع ذلك، تحت أضواء ثريّا الزجاج المصقول، وسط الجناح الفخم لأثاث غرفة الطعام القاتم، كنا نأكل لحم القدر الذي أعدّته أمي في صحبة أول زائر شهير استضفناه قاطبة.

26- كعكة مُجزّعة على شكل الرخام.

وزيــادة في إرباكي وجعلي أدفـع الثمن الكامل لأفكاري، بدأ بينغلسدورف يتكلَّم، في الحال، عن ألفن، الذي سمعَ ما حصل له من خالتي إيفلين، «لقد أحزنني المُصاب الذي ألمَّ بعائلتكم. لقد طفر قلبي تعاطفاً معكم. إنَّ إيفلين تُخبرني بأنّه عندما يُسرَّح نسيبكم من المُستشفى سوف يعود من أجل قضاء فترة نقاهة معكم. أنا متأكّد من أنكم تعرفون الألم الذهني الذي يمكن لمثل هذا الجرح أنْ يُسبّبه لشخص ما زال في زهرة شبابه. إنَّ إعادته إلى المكان الذي يستطيع فيه أنْ يستأنف حياةً مُفيدة يتطلَّبُ كل ما يمكن حشده من حب وصبر. إنَّ قصّته تتسم بمأساويّة خاصة لأنّه لم تكن هناك أيّة ضرورة لانتقاله إلى كندا للانضمام إلى القوّات المُسلّحة. لقد وُلِدَ ألفن روث مواطناً في الولايات المتّحدة، والولايات المتحدة ليستْ في حالة حربٍ مع أحد، وليست لديّها نيّة أنْ تُحاربَ أحداً، وليست في حاجة إلى التضحية بالحياة أو بعضوٍ من الجسم في الحرب من فردٍ واحد من شبّانها. إنَّ بعضنا بذل الكثير من أجل تحقيق ذلك. وقد واجهتُ الكثير من العِداء من أفراد من الجالية اليهوديّة لأنني تحالفتُ في انتخابات عام 1940 مع حملة ليندبرغ. لكنني بقيتُ على مقتي للحرب. تكفي بشاعة أنْ يفقد شابٌ ساقه في معركةٍ تدور في أوروبا التي لا تهتمُّ البتّة بأمن أميركا أو بخير الأميركيين...».

وتابع على هذا المنوال، مُكرّراً بصورةٍ أو بأخرى ما كان قد قاله في ماديسون سكوير غاردن دعماً لبقاء أميركا حياديّة، لكنَّ تركيزي عندئذٍ كان فقط على ألفن. أكان قادماً ليُقيمَ معنا؟ ونظرتُ إلى أمي. لم تكن قد أخبرتنا بأي شيء عن الأمر. متى سيصل؟ أين سينام؟ كان يكفينا سوءاً، كما قالتْ أمي ونحن في واشنطن، أننا لم نكن نعيشُ في بلدٍ عاديّ؛ والآن لن نعيش أبداً في منزل عاديّ. كانت تتشكّلُ حولي حياةٌ أشدّ إيلاماً، وأردتُ أنْ أصرخ «لا! لا يمكن لألفن أنْ يمكثَ هنا - فليس لديه إلّا ساق واحدة!».

كنتُ من شدّة الانزعاج بحيث لم أُدرِك إلّا بعد مرور بعض الوقت أنَّ

اللياقة التي سادت جو غرفة الطعام قد انتهتْ ولم يعُد والدي يسمح بأنْ يتمّ تجاهله. ونجحَ أخيراً بصورةٍ ما في أنْ يجتاز العوائق التي وضعتها إنجازات بنغلسدورف ونقاط ضعفه هو؛ لم تعُد فخامة الحاخام تُخيفه، وبإلحاحٍ من إحساسه القويّ بوقوع كارثة وشيكة - وبغضبه الشديد من التعامُل بكياسة - انقضَّ على بنغلسدورف، بنظّارة أنفه وكل شيء.

سمعته يقول «إنَّ هتلر ليس قضيّة عاديّة، أيُّها الحاخام! إنَّ هذا المجنون لا يُثير حرباً على غرار ما كان يحدث قبل ألف عام. إنّه يُثير حرباً لم يشهد لها أحدٌ مثيلاً من قبل على هذا الكوكب. لقد غزا أوروبا. وشنَّ حرباً على روسيا. وفي كل ليلة يقصف لندن بالقنابل ويُهدّمها ويقتل آلاف المدنيين البريطانيين الأبرياء. إنّه أسوأ مُعادٍ للساميّة في التاريخ. ومع ذلك فإنَّ رئيسنا، أكبر أصدقائه، صدَّقَ وعده عندما أخبره هتلر بأنَّ بينهما «تفاهماً». لقد سبقَ لهتلر أنْ عقد اتفاق تفاهم مع الروس، فهل حافظ على ذلك الاتفاق؟ وعقد اتفاق تفاهُم مع تشامبرلين، فهل حافظَ عليه؟ إنَّ هدف هتلر هو غزو العالم كله، وهذا يتضمَّن الولايات المتّحدة الأميركيّة. وبما أنّه يقتل اليهود أينما وجدهم، وعندما يحين الوقت المناسب سوف يأتي ويقتل اليهود هنا. فماذا سيفعل رئيسنا حينئذٍ؟ هل سيحمينا؟ إنَّ رئيسنا لن يرفع إصبعاً واحداً. *هذا هو* التفاهم الذي توصّلَا إليه في أيسلندا، وكل إنسان راشد يعتقد غير هذا هو مجنون».

لم يُبدِ الحاخام بينغلسدورف أيّ نفاد صبر من أبي بل أصغى باحترام، وكأنّه يتعاطف على الأقل مع بعضٍ مما يسمع. وحده ساندي بدا أنّه يجد صعوبةً في إخفاء مشاعره، وعندما أشار والدي بازدراء إلى ليندبرغ بوصفه «رئيسنا»، التفتَ نحوي ورسم تعبير اشمئزاز بيَّنَ مدى خروجه عن تقاليد العائلة بمجرّد رسم صورة توافُق الأميركيّ العادي مع الإدارة الجديدة. كانت أمي جالسة إلى يمين والدي، وبعد انتهائه، قبضتْ على يده بيدها، وكأنَّ التعبير عن افتخارها به أو الإشارة إليه بوجوب لزوم الهدوء لم يكن واضحاً. وأمّا الخالة إيفلين، فقد عرِفَتْ كيف ستتعامل مع

الحاخام، وأخفَتْ أفكارها خلف قِناعٍ من الصبر المعتدل بينما زوج أختها الضحل تجرّأ على مُعارضة فقيه يُحسِن عشر لغات بمُفرداته الضئيلة.

لم يُعطِ بينغلسدورف ردّاً فوريّاً بل ابتكر فاصلاً استثنائياً أقحمَ فيه بهدوء ردّه: «في صباح يوم أمس كنتُ في البيت الأبيض أتحدّث مع الرئيس»، هنا رشفَ رشفة من كأس الماء، مُتيحاً لنا فترة من الوقت لنتمالك أنفسنا. واستأنف «كنتُ أهنّئه على الهجوم الكبير الذي شنّه لكي يُهدِّئ من الارتياب اليهوديّ الذي يعود عهده إلى زمن قيامه بالرحلات إلى ألمانيا في أواخر حقبة الثلاثينيات، عندما كان يقوم سرّاً بتقدير حجم سلاح الجو الألمانيّ لمصلحة الحكومة الأميركيّة. وأبلغته بأنَّ الحشود مهما كان عددها التي صوّتت لمصلحة روزفلت قد أصبحتِ الآن من أقوى الداعمين له، امتناناً لتأسيسه حياديّتنا وتجنيبه بلدنا مآسي حرب عُظمى أخرى. قلتُ له إنَّ «أناس عاديون» وبرامج مُشابهة له قد بدأتْ تُقنِع يهود أميركا بأنّه لا يمكن أنْ يكون عدوّهم. ويجب الاعتراف بأنه قبل أنْ يُصبح رئيساً قام أحياناً بالإدلاء بتصريحات علنيّة قائمة على أساس مقولات مبتذلة مُعادية للساميّة. لكنّه حينئذٍ كان يتكلَّم عن جهل، وقد اعترفَ بذلك اليوم. ويسرّني أنْ أخبركم بأنَّ الأمر لم يستغرق أكثر من جلستين أو ثلاث على انفراد مع الرئيس لإقناعه بالتخلّي عن أفكاره الخاطئة وقبول الطبيعة المتنوعة للحياة اليهوديّة في أميركا. إنّه ليس رجلاً شريراً بأي حال من الأحوال. إنه رجل يتمتّع بذكاء فِطريّ استثنائيّ وباستقامة هائلة واحتُفيَ به عن جدارة لشجاعته الشخصيّة وهو يريد الآن أنْ يستعين بمعونتي لمساعدته في إزالة حواجز الجهل التي لا تني تفصِل بين المسيحيّ واليهوديّ وبين اليهوديّ والمسيحيّ. ولأنَّ الجهل يسود بين اليهود أيضاً، لسوء الحظ، يصرّ العديد منهم على النظر إلى الرئيس ليندبرغ بوصفه النسخة الأميركيّة من هتلر مع أنّهم يعلمون عِلم اليقين أنّه ليس طاغية وصل إلى السلطة عبر عصيان مُسلَّح بل هو قائد ديمقراطيّ وصل إلى منصبه عبر انتصار ساحق في انتخابات عادلة وحرّة ولم يُبدِ أدنى ميل

نحو الحكم الاستبداديّ. إنّه لا يُمجِّد الدولة على حساب الفرد، بل على العكس، يُشجِّع الفرديّة المُلتزمة ونظام المغامرة الحرّ الذي لا يُعيقه تدخُّل الحكومة الفيدراليّة. أين هيمنة الدولة الاقتصاديّة الفاشيّة في ذلك؟ أين اللصوصيّة الفاشيّة؟ أين النازيون ذوو القمصان البنيّة والشرطة السرّية؟ متى لاحظتم وجود مظهر من مظاهر العِداء للساميّة الفاشيّ يصدر عن حكومتنا؟ إنَّ ما ارتكبه هتلر في حقّ يهود ألمانيا مع تمرير قوانين نورمبرغ عام 1935 هو النقيض المُطلَق لِما تعهّدَ الرئيس ليندبرغ بفعله من أجل يهود أميركا من خلال تأسيس مكتب الاستيعاب الأميركيّ. لقد حرمَتْ قوانين نورمبرغ اليهود من حقوقهم المدنيّة وفعلتْ كل ما من شأنه إقصاؤهم من عضويّة أمّتهم. وما شجّعتُ الرئيس ليندبرغ على فعله هو إطلاق برامج تدعو اليهود عبرها إلى الانخراط أعمق في الحياة الوطنيّة كما يشاؤون - قد تتفقون معي على أنّ الحياة الوطنيّة هي لنا بقدر ما هي لأي إنسان آخر».

لم يكن كل ذلك السيل من الجُمَل كما قيلَ قد ظهر على مائدة عشائنا أو ربما في أي مكان في حيّنا من قبل، والشيء المُذهل حينئذٍ - بعد أنْ ختمَ الحاخام بسؤاله برقّة، بل بودّ، «أخبرني، يا هرمان، هل بدأ ما شرحته يُخفِّف من مخاوفك؟» - كان ردّ والدي الصريح، «كلا، كلا، ولا للحظة». ومن ثم أضاف، من دون احتراس من أنْ يوجّه أيّة إهانة تُثير ليس سخط الحاخام فقط بل وتُهين كرامته وتستفزّ امتعاضه الانتقاميّ أيضاً، قائلاً «عندما أسمع شخصاً مثلك يتكلَّم هكذا - بصراحة، تتفاقم مخاوفي».

في الأمسية التالية اتّصلت خالتي إيفلين وأخبرتنا بكثير من الحماس بأنّه من بين المئة فتى من نيو جيرزيّ الذين ذهبوا غرباً في ذلك الصيف في رعاية برنامج «أناس عاديون»، اختير ساندي كـ «ضابط تجنيد» في الولاية كلها لكي يتحدّث بوصفه متمرِّساً إلى الفتية اليهود المؤهَّلين وعائلاتهم عن الفوائد العديدة لبرنامج مكتب الاستيعاب الأميركيّ ولكي يُشجّعهم على التطوُّع. وهكذا انتزع الحاخام انتقامه. لقد أصبح ابن والدي الأكبر عضواً شَرَفيّاً في الإدارة الجديدة.

بُعيد أنْ بدأ ساندي يقضي فترات بعد الظهيرة في المدينة في مكتب الاستيعاب الأميركي في منزل خالتي إيفلين ارتدتْ أمي أفضل ملابسها - سترة رماديّة أنيقة وتنّورة مُخطّطة باهتة اللون ارتدتها لكي تترأس اجتماعات رابطة الآباء والمُدرّسين وبوصفها مُراقب نتائج الاقتراع في الطابق التحتيّ في المدرسة في وقت الانتخابات - وانطلقتْ تبحث عن عمل. وعلى مائدة العشاء أعلنتْ أنها عثرت على عمل كبائعة ملابس نسائيّة في محل هاهن، وهو متجر متنوع ضخم في المدينة. وقد استُخدِمَتْ باكراً للمُساعدة في العطلة لتعمل ستة أيام في الأسبوع وفي أمسيات أيام الأربعاء، ولكن لمّا كانت سكرتيرة مكتب متمرّسة حداها الأمل في أنْ تجد عملاً على مرّ الأسابيع في طابق إدارة المتجر وأنْ يحتفظوا بها بعد انتهاء عطل عيد الميلاد كمُستخدمة دائمة. وشرحتْ لستانلي ولي أنَّ راتبها سوف يُساهم في تسديد فواتير المنزل الكبرى التي ترتّبتْ إبّان عودة ألفن في حين أنَّ نيّتها الحقيقيّة (التي كانت مجهولة للجميع ما عدا زوجها) هي أنْ ترسل قيمة مرتّبها بالبريد لتودِعه حسابها في مصرف مونريال تحسُّباً لاضطرارها إلى الهرب والبدء من الصِفر في كندا.

غادرتْ أمي، وغادر أخي، وقريباً سيعود ألفن إلى منزله. وذهب والدي بالسيارة إلى مونريال لكي يقوم بزيارته في المستشفى التابع للجيش هناك. وفي صباح يوم الجمعة، قبل أنْ نستيقظ أنا وساندي للذهاب إلى المدرسة بساعات طويلة، أعدّت أمي له وجبة الإفطار، وملأت الترمس له، وحزمتْ له الوجبة - في ثلاثة من الأكياس الورقيّة المُعلَّمة بقلم تظليل ساندي بحروف غ أي غداء، وواو أي وجبة خفيفة، وع أي عشاء - ثم انطلق نحو الحدود الدوليّة على مسافة ثلاثمئة وخمسين ميلاً شمالاً. ولما لم يكن رئيسه في العمل يمنحه إجازة إلا يوم الجمعة، كان عليه أنْ يقود السيارة طوال ذلك اليوم لكي يزور ألفن في يومّ السبت ومن ثم يقودها عائداً طوال يوم الأحد لكي يلحق باجتماع هيئة الإدارة الصباحي في يوم الإثنين. وأُفرِغ دولاب للسيارة في رحلة الذهاب

ودولابان في رحلة العودة إلى المنزل ولكي ينجح في اللحاق بالاجتماع كان عليه أنْ يتّخذ طريقاً جانبيّة ويخرج من الطريق العامة نحو قلب البلدة مباشرة. وعندما سنراه في موعد العشاء سيكون قد حُرِمَ النوم طوال أكثر من يوم وحُرِمَ الاغتسال مدة أطول من ذلك. وأخبرنا بأنَّ ألفن بدا أشبه بالجثّة، وانخفضَ وزنه إلى حوالي المئة. ولدى سماعي هذا، تساءلتُ كم كان وزن الساق التي فقدها، وفي تلك الأمسية حاولتُ، وفشلتُ، أنْ أزنَ ساقي على ميزان الحمّام. قال والدي «لقد فقدَ شهيّته. إنهم يضعون الطعام أمامه فيدفعه بعيداً عنه. إنَّ ذلك الفتى يرفض الحياة، على الرغم من صلابته، ولا يريد إلّا أنْ يستلقي حيث هو هزيلاً بذلك الوجه الكئيب الكالح. فقلت له «إنني أعرفك منذ أنْ وُلِدتَ. أنت قويّ. ولا تستسلم. وتتحلّى بقوة أبيك. كان في استطاعة والدك أنْ يتلقّى أقوى الضربات ومع ذلك يتحمّل. وكذلك الأمر مع أمك»، وقلت له «عندما مات والدك، اضطرت المرأة إلى التراجُع - لم يكن أمامها خيار، كنت أنت معها»، وقال وقد ازدادت خشونةَ صوته، «ولكن لا أعلم ما الذي فهمه. آمل أنْ يكون قد فهم شيئاً، لأنه في أثناء وجودي هناك، مع كل أولئك الفتية المرضى المتمددين على تلك الأسرَّة من حولي، وأنا جالس بجوار سريره في ذلك المستشفى -» وكان ذلك أقصى ما توصّلَ إلى قوله. كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها والدي يبكي. عندما تصبح دموع شخص آخر لا تُطاق أكثر من دموعك، تكون تلك علامة فارقة في عهد الطفولة.

قالت له أمي «ذلك لأنكَ مُرهق». ونهضتْ عن كرسيها واقتربت منه، في محاولة لتهدئته، وبدأتْ تمسّد على شَعره، قالت «بعد أنْ تنتهي من تناول الطعام سوف تأخذ دشاً وتأوي فوراً إلى السرير».

ضغط جمجمته بقوة داخل قبضة يدها، وبدأ يجهش ببكاءٍ لا سيطرة له عليه. قال لها «لقد نسفوا ساقه»، وهنا أومأت أمي لساندي ولي كي نتركها وحدها لتواسيه.

وهكذا بدأتْ حياةٌ جديدة بالنسبة إليّ. لقد شاهدتُ والدي ينهار،

ولن أعود إلى الطفولة نفسها. الآن أصبحت الأم التي كانت تلزم المنزل تغيب طوال النهار لتعمل لمصلحة محل هاهن، والأخ الذي كان متوفراً أصبح الآن يغيب بعد انتهاء الدوام المدرسي ليعمل لمصلحة ليندبرغ، والأب الذي كان يتغنّى بجرأة بكل أولئك المُعادين للساميّة الأغرار الذين يرتادون الكافيتريا في واشنطن أصبحَ يبكي بصوت مرتفع وبفم مفتوح واسع - يبكي كطفل متروك وكرجل تعرّضَ للتعذيب - لأنه كان عاجزاً عن إيقاف ما لا يمكن توقّعه. ولما لم يكن انتخاب ليندبرغ أمراً واضحاً لديّ، فإنَّ كشفَ ما لا يمكن توقّعه كان هو كل شيء. والذي لا يمكن توقّعه، عندما يسير في الاتجاه الخاطئ، هو الذي درسناه نحن تلاميذ المدرسة باسم «التاريخ»، التاريخ غير المؤذي، حيث يُدرَج كل ما هو غير متوقَّع في سياقه الزمنيّ على الصفحة بوصفه حتمياً. ورعب ما لا يمكن توقّعه هو ما يُخفيه عِلم التاريخ، مُحوِّلاً الكارثة إلى ملحمة بطوليّة.

لمّا كنتُ وحدي، بدأتُ أقضي ساعات ما بعد انتهاء الدوام المدرسي كلها مع إيرل آكسمان، دليلي المُخلص في عالم الطوابع، وليس بالاستغراق فقط في استعراض مجموعته بعدستي المُعظِّمة أو بالبحث في دولاب ملابس والدته عن تشكيلتها المُحيِّرة من الملابس الداخليّة. ولمّا لم يكن أداء واجبي المدرسي يستغرق مني الكثير من الوقت وكان عملي الروتيني الآخر هو إعداد المائدة لوجبة العشاء، أصبحتُ متوفراً بالكامل للأعمال الخبيثة. وبما أنّه بدا أنَّ والدة إيرل تكون دائماً في صالون التجميل أو في نيويورك لتتسوَّق، كان إيرل حراً في توفير الجو المناسب. كان يكبرني بنحو عامين، ولأنَّ والديه الفخمين كانا مُطلَّقَين - ولأنّهما فخمان - بدا أنّه لا يزعج نفسه بالتصرُّف كطفلٍ مثاليّ. ومؤخّراً أصبحتُ شديد التوتُّر لأنني كذلك، صرتُ أُغمغم في أثناء نومي. والاقتراح الذي كان إيرل يهزّني ويُثير به أعصابي بالتناوب كلما سئم ما ننوي القيام به هو «والآن دعنا نقوم بعمل فظيع». كانت روح المغامرة تفرِض متعتها عاجلاً

أو آجلاً، ولكن لإحساسي بخيبة الأمل لإحساسي بأنَّ عائلتي وبلدي يفلتان مني، أصبحتُ على استعداد لتعلُّم الانتهاكات التي يمكن لصبي من عائلة نموذجيّة أنْ يلجأ إليها عندما يتوقّف عن إرضاء كل شخص بنقائه الصِبياني ويكتشف المتعة الممزوجة بالإحساس بالذنب بالتصرُّف وحده.

إنَّ ما انغمستُ في القيام به مع إيرل هو ملاحقة الناس. كان يفعل ذلك مرّتين في الأسبوع وعلى مدى أشهر طويلة حتى الآن - يذهب إلى قلب المدينة وحده بعد انتهاء دوام المدرسة ويتسكَّع حول مواقف الحافلات بحثاً عن رجالٍ في طريقهم إلى منازلهم عائدين من مراكز أعمالهم. وعندما يستقل أحدهم الحافلة الخاصة به، كان إيرل يصعد خلفه أيضاً، يتبعه من دون أنْ يُلاحظه أحد إلى أنْ يترجّل، فينزل خلفه، ومن ثم يلحق به من مسافة آمنة حتى منزله. سألته «لماذا؟»، «لكي أعرف أين يسكن». «أهذا كل شيء؟ هذا فقط؟»، «بل هذا كثير. إنني أذهب إلى كل مكان. بل إنني قد أغادر نيوارك. أذهبُ إلى أي مكان أريده. إنَّ الناس يُقيمون في كل مكان»، كما يشرح لي. «وكيف تنجح في العودة إلى المنزل قبل وصول أمك؟»، «هذه هي الخدعة - أنْ أذهب إلى أبعد ما أستطيع وأنْ أعود قبلها». واعترفَ على الفور بأنّه سرقَ أجرة الحافلة من حقيبة أمّه ثم فتح، بمرح وكأنّه يفتح باب سرداب بقفل زنبرك في مستودع فورت نوكس[27]، درْج غرفة النوم حيث تتراكم تشكيلة كاملة من حقائب اليد بصورة عشوائيّة واحدة فوق أخرى. وفي عُطل نهاية الأسبوع عندما يذهب لكي يمكث عند والده في نيويورك، كان يسرق من جيوب البذلات المُعلَّقة في خزانة ملابس والده، وعندما كان أربعة أو خمسة من الموسيقيين من فرقة كازا لوما الموسيقيّة يأتون إلى شقّة والده لكي يلعبوا البوكر في أيام الأحد، كان يُساعد في تكويم معاطفهم على السرير، ثم يقوم بتفتيش جيوبهم ويُخفي القطع النقديّة الصغيرة في جورب قذر في قعر حقيبة سفره. ومن ثم يتبختر بكل هدوء عائداً إلى غرفة الجلوس لكي يُراقب

27- مستودع فورت نوكس: حيث يُخزَّن ذهب الولايات المتحدة الأميركية. - المترجم

لعب الورق طوال فترة بعد الظهيرة ويُصغي إلى القصص المُضحكة التي يحكونها عن لعب الورق في كازينو بارامونت وإسكس هاوس وغلين أيلند. وفي عام 1941 كانت الفرقة الموسيقيّة قد عادتْ تواً من هوليوود، حيث كانت تظهر في السينما، وهكذا بين دورات لعب الورق كانوا يتحدثون عن النجوم وعن أشكالهم، وعن أخبارهم الخاصة التي كان إيرل ينقلها إليّ ومن ثم أُعيدُ سردها على مسمع ساندي، الذي كان دائماً يقول «هذا هراء»، ويُحذّرني من التسكُّع مع إيرل آكسمان. ويُخبرني «إنَّ صديقك يعرف أكثر مما يجدر بطفل صغير أنْ يعرف»، «إنَّ بحوزته مجموعة عظيمة من الطوابع»، ويقول ساندي «نعم، ولديه أم تخرج مع أي رجل. إنها تخرج برفقة رجال ليسوا حتى بمثل عمرها»، «كيف تعرف هذا؟»، «الجميع في جادة سَميتْ يعلمون»، قلت «أنا لا أعلم»، فيقول لي «حسن، إنَّ هذا ليس كل ما لا تعلم»، فأفرحُ كثيراً بنفسي، وأفكِّر «وربما هناك شيء لا تعرفه أنت أيضاً»، ولكن كان عليّ أنْ أتساءل بعصبيّة إنْ كانت والدة أفضل أصدقائي هي ما يُسمّيه الشبّان الأكبر سناً «عاهرة».

لقد اتّضحَ أنَّ التعوُّد على السرقة من أمي وأبي أسهل بكثير مما اعتقدتُ - وأسهل من ملاحقة الناس، على الرغم من أنَّه خلال المرات القليلة الأولى لم تمرّ لحظة واحدة لم أشعر بها بالذهول، بدءاً بكوني في قلب المدينة بعيداً عن المُراقبة عند الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهيرة. وأحياناً كنا نذهب حتى إلى محطة بن للعثور على شخص ما، وأحياناً إلى برود وماركت، أو نصل حتى ماركت حيث دار المحكمة لكي ننتظر عند محطة الحافلة ونلاحق فريستنا من هناك. ولم نكن نلاحق النساء. لم يكنَّ يُثرن اهتمامنا، كما قال إيرل. لم نكن نلحق أيّ شخصٍ نعتقد أنّه يهوديّ. لم يكونوا يُثيرون اهتمامنا. كان اهتمامنا مُنصبّاً على الرجال، الرجال المسيحيين البالغين الذين يعملون طوال النهار في قلب نيوارك. إلى أين كانوا يذهبون بعد أنْ يصلوا إلى بيوتهم؟

كانت خشيتي قد بلغتْ ذروتها عندما استقللنا الحافلة ودفعنا التعرفة.

كانت نقود التعرفة مسروقة، وكنا موجودَين حيث لا ينبغي أنْ نكون، ولم نكن نعلم إلى أين نحن ذاهبان - ومع وصولنا إلى حيث ينبغي أنْ نترجّل، كنتُ مُصاباً بدوار الانفعال ولم أفهم ما قاله لي إيرل عندما همس باسم الحيّ في أُذني. كنتُ تائهاً، فتى تائهاً - هذا ما تظاهرتُ به. ماذا سآكل؟ أين سأنام؟ هل ستهاجمني الكلاب؟ هل سيُلقى القبض عليّ وأُرمى في السجن؟ هل سيستقبلني بعض المسيحيين ويتبنّوني؟ أم هل سينتهي بي الأمر إلى الاختطاف كما حدث لطفل ليندبرغ؟ وتظاهرتُ إمّا بأنني تائه في منطقة نائية ومجهولة لي أو بأنَّ هتلر غزا أميركا، مع تغاضي ليندبرغ، وبأنني وإيرل نهرب من النازيين.

وطوال الوقت وأنا أُمطِرُ نفسي بمخاوفي، كنا ننحدر خلسة إلى منعطفات ونجتاز شوارع ونجثم خلف أشجار لكي نستتر إلى أنْ تحين لحظة الذروة التي يصل عندها الرجل الذي نلاحقه إلى منزله ونراقبه وهو يفتح الباب ويدخل. ثم نقفُ جانباً بعيداً وننظر إلى المنزل - بعد أنْ أُغلِق بابه من جديد - ويقول إيرل شيئاً على غرار، «إنَّ ذلك المرج كبير جداً» أو «لقد انتهى فصل الصيف - لماذا الستائر مرفوعة؟» أو «أترى ماذا في المرأب؟ إنها سيارة بونتياك جديدة». ومن ثم، لأنَّ التسلُّل إلى النوافذ من أجل التلصُّص خِفية حفّزَ حتى طبيعة إيرل اليهوديّة المتلصِّصة، عدنا إلى الحافلة التي تُعيدنا إلى محطة بن. وغالباً في مثل تلك الساعة، والجميع منهمكون في مغادرة مراكز أعمالهم، تكون الحافلة المتوجهة إلى قلب المدينة خالية من أي ركّاب غيرنا، ويبدو كأنَّ السائق هو سائق خاص وأنَّ حافلة الخدمة العامة هي سيارتنا الليموزين الخاصة وأنّنا نحن الاثنين. أجرأ صبيِّين على وجه الأرض. كان إيرل حَسَن التغذية، أبيض البشرة في العاشرة من العمر، وأشبه بالقدر، وذا وجنتين طفوليّتين ممتلئتين ورموش عينين سوداء وطويلة وخصلات شعر سوداء مُجعّدة مُضمّخة بعطر والده الخاص بالشَعر، وإذا كانت الحافلة فارغة، يتمدَّد على طوله على المقعد الطويل الخلفي في وضعيّة الباشا مُجسّداً بصورة مثاليّة مزاجه المزهو

بنفسه، بينما أجلسُ إلى جواره، أنا النحيل وبارز العِظام، وأرسم ابتسامة السموّ الصغيرة الحميمة وشبه الخجول.

من محطة بن نستقل حافلة رقم 14 إلى المنزل، وهي المرة الرابعة التي نستقل فيها حافلة بجراءة في اليوم. وعلى مائدة العشاء أقول في نفسي، «لقد لاحقتُ مسيحيّاً، من دون عِلم أحد. وكان يمكن انْ أتعرَّض للخطف، من دون عِلم أحد. وكان يمكن، لو أنّنا استخدمنا النقود التي حصلنا عليها، أنْ...» وأحياناً أكاد أفضح نفسي أمام عين أمي الثاقبة لأنني من تحت طاولة المطبخ (وبالضبط كما يفعل إيرل عندما يُعدُّ أمراً ما) لا أستطيع أنْ أضبط اهتزاز رُكبتي. وليلة بعد أخرى كنتُ أذهبُ إلى النوم وأنا تحت تأثير إثارة الهدف الجديد الذي اكتشفته من أجل حياتي التي لا تتجاوز الثماني سنوات: أنْ أنجو منه. وعندما أكون في المدرسة أسمعُ ضجيج حافلة من خلال النافذة المفتوحة وهي ترتقي تل جادة تشانسلر، وكل ما أفكِّرُ فيه هو أنْ أكون على متنها؛ لقد أصبحَ العالم الخارجي كلّه حافلة تماماً كما كانت جنوب داكوتا فرساً صغيراً بالنسبة إلى صبي - الفرس الذي يحمله إلى حدودِ طيرانٍ مُباح.

انضممتُ إلى إيرل ككاذب مُبتدئ ولص في أواخر شهر تشرين الأول (أكتوبر) واستمرت رحلاتنا القصيرة السرّية الممتعة، من دون توانٍ في الإحساس بخطورتها، مع ازدياد برودة الجوّ في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ومن بعده كانون الأول (ديسمبر)، عندما تنتشر زينة عيد الميلاد في أرجاء المدينة ويتوفّر فيضٌ من الرجال لننتقي منهم عند كل موقف حافلة حِرَفيا. وكانت أشجار عيد الميلاد معروضة للبيع على أرصفة المدينة، وهو شيء لم أكنْ قد شاهدتُه من قبل، وهناك أطفال بدوا إمّا في حالة من الفقر المُدقِع أو خشنين أُطلِقَ سراحهم حديثاً من الإصلاحيّة، يبيعون الأشجار مقابل دولار للواحدة. وفي أول الأمر فوجئتُ بمشهد الأيدي وهي تتبادل النقود هكذا علناً بوصفه شيئاً مُخالفاً للقانون ومع ذلك لم يبدُ أنَّ أحداً يهتم بإخفاء عمليّة التبادُل. كان هناك الكثير من رجال

الشرطة، يحملون عصياً ويمشون بخُطى قوية مرتدين معاطفهم الزرقاء الضخمة، لكنهم بدوا سعداء بقدرٍ كافٍ ومُستغرقين في الجو العامّ - أي في أجواء عيد الميلاد. وبعد عيد الشُكر بدأت العواصف الثلجيّة تضرب مرّتين في الأسبوع، وهكذا تراكمت ثلوج كئيبة على كلا جانبي الشوارع الخالية وارتفعت وأصبحتْ بعلوّ سيارة.

أخذ الباعة يفصلون الأشجار بعضها عن بعض، لا تُعيقهم حشود المساء، ويُبعدونها إلى الجانب المزدحم من الرصيف ويُسندونها إلى جذعها المقصوص لكي يُقيِّمها الزبون. كان أمراً غريباً رؤية أشجار زرعها مُزارع يُقيمُ على بُعد أميال من المدينة وهي تتراكم على طول سياج من الحديد المشغول خارج أقدم كنائس المدينة وتتكِّئ على واجهات المصارف المهيبة وشركات الضمان، وغريبٌ أيضاً أنْ يستنشق المرء، على رصيف المدينة، عبق رائحتها الريفيّة النفّاذة. وفي حيّنا لم تكن هناك أشجارٌ للبيع - لأنه لم يكن هناك مَنْ يشتريها - ولذلك كان شهر كانون الأول (ديسمبر) يفوح، إنْ كانت له أيّة رائحة، برائحة شيء اصطادته قطّة زقاق تهسّ من حاوية قمامة مقلوبة في فناء منزل أحدهم، أو وجبة عشاء تُسخَّن على مدفأة في شقّةٍ كانت نافذة مطبخها التي ينبعثُ منها البخار مواربة قليلاً لجعل هواء الزقاق يدخل، أو دفقات من غاز الفحم الضارّ المنبعث من مداخن الفرن، أو دلو الرماد المجرور من القبو لكي يُفرَّغ في الخارج على بقع لزجة من الرصيف. ومقارنة بالروائح العطرة لربيع نيو جيرزي الرطب والصيف المُستنقعيّ والمُضطرب، والخريف المتقلّب، وروائح الشتاء ببرودته القارصة، لم تكن تُلاحَظ - أو هكذا كنتُ أعتقد إلى أنْ تجولتُ في قلب المدينة مع إيرل وشاهدتُ الأشجار واستنشقت العبق واكتشفتُ، كما حدث مع أشياء كثيرة، أنَّ شهر كانون الأول (ديسمبر) بالنسبة إلى المسيحيين هو خلاف ذلك. فمع وجود آلاف المصابيح الكهربائيّة التي تملأ المدينة كلها وإنشاد التراتيل وقصف فرقة جيش الخلاص الموسيقيّة ووقوف بابا نويل آخر يضحك على ناصية كل

شارع. كان ذلك الشهر هو الأهمّ في العام حين يُصبح قلب مسقط رأسي مُلكهم بسموّ وملكهم وحدهم. وفي المتنزّه العسكري كانت هناك شجرة ميلاد مُزيَّنة طولها أربعون قدماً، وعلى واجهة مبنى الخدمة العامة عُلِّقَتْ شجرة ميلاد معدنيّة عملاقة، مُضاءة بفيضٍ من نور المُصابيح، قالت صحيفة نيوارك نيوز إنَّ طولها يبلغ ثمانين قدماً، في حين أنَّ طول قامتي لم يتجاوز أربعة أقدام ونصف القدم.

رحلتي الختاميّة مع إيرل وقعتْ بعد ظهيرة أحد الأيام قبل بدء عطلة عيد المولد عندنا ببضعة أيام عندما استقللنا حافلة ليندن وجلسنا خلف رجل يحمل بكلتيّ يديه حقيبة مشترياته من المخزن التنويعي مملوءة بالهدايا ومُزيَّنة بمناسبة العيد بألوان الأحمر والأخضر؛ وبعد ذلك بعشرة أيام فقط سوف تُعاني السيدة آكسمان من انهيارٍ عصبيّ وسوف تُنقَل بسيارة إسعاف في منتصف الليل، وبعد ذلك بوقت قصير، في أول يوم من العام الجديد 1942، سوف ينقل والد إيرل ابنه، مع مجموعة طوابعه وكل شيء. سوف تأتي شاحنة نقل في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) وتنقل، أمام ناظري، أثاث المنزل كلّه، بما فيه خزانة الملابس التي تضم ملابس والدة إيرل الداخليّة، وبعد ذلك لم ير أحدٌ في جادّة سَميت آل آكسمان.

لأنَّ غسق الشتاء البارد يغيب بسرعة كبيرة، جعلتنا ملاحقة الناس إلى منازلهم من الحافلة نشعر برضا أكبر عن أنفسنا، وكأنّنا نستمر في عملنا بعد منتصف الليل بكثير، بعد أنْ ينام الأولاد الآخرون بساعات. والرجل الذي كان يحمل أكياس التسوُّق بقيَ في الحافلة حتى بعد خط هلسايد وحتى وصلنا مدينة إليزابيث ثم ترجّل بعد المقبرة مباشرة، ليس بعيداً عن الموقع الذي ترعرعت فيه أمي، فوق محل بقالة والدها. وترجلنا خلفه بهدوء شديد، لا نبدو أننا نختلف عن العديد من الأولاد المحليين الآخرين الذين يتخفّون بمعاطف شتويّة قياسيّة بقلنسوة ويلبسون قفازات من الصوف في أيديهم وبنطلونات من الجوخ لا شكل لها وينتعلون

أحذية غالوش[28] من المطاط ونصف أربطتها محلولة. ولكنْ لأننا تخيّلنا نفسينا أشدّ تخفّياً مما كنا فعلاً بفعل الظلال القاتمة، أو لأنَّ براعتنا كانت تفقد تأثيرها مع مرور الوقت، لابد أننا مشينا في إثره ببراعة أقلّ مما تدرّبنا على فعله، وبالتالي عرّضنا «الثنائي الخفيّ» للشبهة، بما أنَّ إيرل أفشل بتباهِ المُقتَفيين المسيحيّين اللذَين كنا ندّعيهما.

كان أمامنا مجموعتان سكنيّتان طويلتان علينا اجتياز مسافتهما، وكل منهما تتألف من منازل فخمة مبنيّة من القرميد تتلألأ بأضواء عيد الميلاد عرَّفهما إيرل همساً بقوله مثلاً «قصور أصحاب الملايين»؛ ثم كانت هناك مجموعتان أُخريان أقصر طولاً وتتألّفان من منازل أصغر، منازل متواضعة الشكل من النوع الذي كنا قد شاهدنا حتى ذلك الحين المئات منها في الشوارع التي جبناها، وكل منها يضع إكليل عيد الميلاد على بابه. وفي المجموعة الثانية منهما انعطفَ الرجل نحو ممر ضيِّق من القرميد يرتفع إلى منزل صغير منخفض من الخشب المُركَّب برز عالياً بصورة جميلة من بين الثلوج المتراكمة على الجانبين يُشبه كعكة كبيرة متجمّدة ومُزيّنة وصالحة للأكل. وكانت المصابيح تشتعل بضوء خافت في الطوابق العليا وفي الأسفل، ويمكن رؤية شجرة الميلاد وهي تتلألأ من خلال النوافذ إلى جانب الباب الأمامي. وعندما ترك الرجل أكياس التسوُّق لكي يُخرِج مفتاحه، أخذنا نقترب أكثر فأكثر من المرج الأبيض المتموّج حتى تمكّنا، من خلال النافذة، من تمييز الزخارف التي تزيِّن الشجرة.

همس إيرل «انظر، أترى القمة؟ في ذروة قمّة الشجرة – أتراه؟ إنّه يسوع!».

«كلا، بل هو ملاك».

«وما هو يسوع في اعتقادك؟».

أجبتُ همساً «كنتُ أحسب أنّه ربّهم».

28– الغالوش: حذا مطاطي يُرتدى فوق الحذاء العاديّ.

«وهو كبير الملائكة - وها هو!».

هذا إذن كان هدف بحثنا - يسوع المسيح، الذي يمثِّل في اعتقادهم كل شيء والذي في اعتقادي أفسدَ كلّ شيء: لأنه لولا المسيح لما كان هناك مسيحيّون، ولولا المسيحيون لما كانت هناك مُعاداة للساميّة، ولولا مُعاداة الساميّة لما كان هناك هتلر، ولولا هتلر لما أصبح ليندبرغ رئيساً، ولو لم يُصبح ليندبرغ رئيساً...

وفجأة استدار الرجل الذي كنا نلاحقه، وكان عندئذٍ يقفُ عند ممر الباب المفتوح مع أكياس تسوّقه، وهتف بهدوء، وكأنّه ينفثُ حَلَقةً من الدخان، «يا أولاد».

ذُهلنا لأنَّ أمرنا قد انكشف إلى درجة أنني، أولاً، شعرتُ بأنني استُدعيتُ لكي أتقدَّم إلى الممر المؤدّي إلى المنزل، وأريح ضميري، بوصفي الولد النموذجي الذي كنتُه قبل ذلك بشهرين، بإخباره باسمي. لكنَّ ذراع إيرل شدّتني إلى الخلف.

قال الرجل «لا تختبئان، أيها الولدان. لا داعي لذلك».

همستُ لإيرل «ماذا نفعل الآن؟».

ردّ عليّ همساً «هسسسسس».

«أيها الولدان، أعلمُ أنكما هناك»، ثم حذّرنا بصوت ودود، «أيها الولدان، الظلام يزداد حلكة. ألا تشعران بقرص البرد؟ ألا ترغبان في كوب لذيذ من الكاكاو؟ ادخلا الآن، يا ولدان، هيا بسرعة إلى الداخل قبل أنْ تُثلِج. هناك كاكاو ساخن، ولديّ كعكة بالبهار ولديّ كعكة بالبذور العطرة وخبز الزنجبيل على هيئة أشخاص، ولديّ بسكويت على شكل حيوانات ملوّنة بألوان متنوعة، وهناك حلوى الخطمي في الخزانة يمكننا أنْ نشويها على النار».

عندما نظرتُ من جديد إلى إيرل لأتبيَّن ماذا سنفعل، كان يستعد للعودة إلى نيوارك. هتف لي من خلف ظهره «اركض، اهرب، يا فيل - إنّه شاذّ!».

-4-

كانون الثاني (يناير) 1942 – شباط (فبراير) 1942

الجدعة

أُطلِقَ سراح ألفن في شهر كانون الثاني (يناير) عام 1942، بعد أنْ تخلّى عن الكرسي المتحرِّك ومن ثم عن العُكّاز، وعلى امتداد دورة من إعادة تأهيل طويلة في المستشفى، وبعد تلقّي التدريب على أيدي ممرضي الجيش الكندي على المشي من دون مُساعدة على ساقه الاصطناعيّة. وسوف يتلقّى معاش إعاقة شهريّاً من الحكومة الكنديّة مقداره مئة وخمسة وعشرون دولاراً، وهو أكثر قليلاً من نصف ما كان والدي يكسبه في كل شهر من شركة ميتروبوليتان، بالإضافة إلى ثلاثمئة دولار على دفعات متفرّقة. وبوصفه مُحارباً قديماً مُعاقاً كان مؤهّلاً لنيل المزيد من الفوائد إذا ما اختار أنْ يُقيم في كندا، حيث يُمنَح المتطوعون الأجانب في قِوى الجيش الكندي، إذا رغبوا، المواطنة في الحال حال إخلاء سبيلهم. ولِمَ لم يُصبح مواطناً كنديّاً؟ هكذا سأل العم مونتي. بما أنّه لم يكن يطيقُ أميركا في كل الأحوال، لِمَ لم يكتفِ في المكوث هناك وتلقّي المعاش؟

كان مونتي أشد أعمامي غطرسة، وربما هذا ما برَّر كونه الأشدّ ثراءً. لقد جمع ثروته من بيع الفاكهة والخضروات بالجملة هناك بالقرب من سكك الحديد في سوق شارع ميللر. وكان والد ألفن، العم جاك، قد بدأ أعماله وضمَّ إليه مونتي، وبعد وفاة العم جاك أخذ مونتي ابنه الأصغر في

رعايته، عمي هيربي؛ وعندما دعا والدي أيضاً إلى العمل معه - عندما كان والداي حديثيّ الزواج ومُعدمَين - رفضَ والدي، لأنَّه كان قد تلقّى ما يكفي من التنمُّر من مونتي منذ أنْ ترعرعا معاً. كان في وسع والدي أنْ يُجاري مونتي في البذل المُعجِز للطاقة، وكانت مقدرته على تحمُّل شتى صنوف المشقّة لا تقلّ إدهاشاً عن مقدرة مونتي، لكنّه كان يعلم من المُصادمات التي وقعت بينهما في عهد الطفولة أنّه لا يستطيع أنْ يُجاري المُبتكر الذي قام أولاً بالمقامرة على إنتاج بندورة ناضجة في نيوارك في فصل الشتاء بشراء كميات كبيرة من ثمار البندورة الخضراء من كوبا وجعلها تنضج داخل غُرفٍ مُدفّأة تقع في الطابق العِلويّ المتصدِّع من مخزنه في شارع ميللر. وعندما أصبحت جاهزة، وضعها مونتي أربع ثمار في كل صندوق، وحصل مقابل كل منها على أعلى سِعر وهو دولار، وأصبح يُعرَف بعد ذلك بلقب ملك البندورة.

وفي حين بقينا نسكن بالإيجار في شقّة في طابق ثانٍ يتألَّف من خمس غُرف في نيوارك أقام أعمامي العاملون في مجال الإنتاج بالجملة في القسم اليهوديّ من حيّ ميبلوود في الضواحي، حيث امتلك كلٌ منهم منزلاً أبيض، كبيراً، بمصاريع، على الطراز الكولونيالي مع مرجٍ أخضر في مقدّمته وسيارة كاديلاك لامعة في المرأب. ولسبب صالح أو طالح، لم تكن الأنانيّة المترفّعة التي يتّصف بها أمثال آبيه شتاينهايم أو العم مونتي أو الحاخام بينغلسدورف - اليهود الحيويون بكل وضوح المُستندون كما يبدو إلى وضعهم المُحصَّن بوصفهم نِتاج سلالة قليلة الخبرة لكي يلعبوا أكبر دور يمكنهم القيام به كمواطنين أميركيين - لم تكن في تكوين والدي، ولا كان يتَّصِف بأقلّ توق إلى التفوُّق، وهكذا على الرغم من أنّ الافتخار الشخصي كان القوة الدافعة وكان مزيجه من الثبات والاستعداد للقتال مشحوناً، كما حالهم، بالآلام التي لازمت أُصوله كطفل فقير يُسميه باقي الأولاد كايك، كان يكفيه أنْ يصنع من نفسه شيئاً ما (بدل كل شيء) وأنْ ينجز ذلك من دون أنْ يُحطِّم حياة المُحيطين به. لقد خُلِقَ والدي

لكي يُناضل ولكن أيضاً لكي يحمي، وإنزال الأذى بالعدو لم يكن يُبهِج روحه كما يحصل مع أخيه الأكبر (بالإضافة إلى كل كبار المقاولين المتوحشين). كان هناك الرؤساء وكان هناك المرؤوسون، والرؤساء في المعتاد يُصبحون رؤساء لسبب - ويعملون لمصلحة أنفسهم لسبب، سواء أكان العمل هو مجال الإنشاء أو الإنتاج أو الحاخاميّة أو الأعمال العامة. كان أفضل ما يمكن أنْ يخلصوا إليه هو أنْ يبقوا أحراراً - وأيضاً، في نظر أنفسهم، لا يُهانون - ليس بالتمييز العنصريّ فقط الذي يفرضه التسلسل الهرميّ البروتستانتي الذي يُبقي تسعة وتسعين في المئة من اليهود مُستخدَمين عند الشركات المُهيمنة ويبقون في مواقعهم لا يشتكون.

قال مونتي «لو أنَّ جاك حيّاً لما خرج الفتى من الباب الأمامي. ما كان ينبغي أنْ تتركه يرحل، يا هرم. لقد فرَّ إلى كندا لكي يُصبح بطل حرب وهذا ما آل إليه، أصبح مُعاقاً حتى نهاية حياته». كان يوم الأحد السابق ليوم السبت الذي عاد فيه ألفن، وكان العم مونتي، مرتدياً ملابس نظيفة بدل السترة القصيرة الممتلئة بالبقع وبنطلوناً عتيقاً قذراً ويضع قلنسوة من القماش القذر وملابس السوق المعتادة، يتّكئ على مغسلة المطبخ، وسيجارة تتدلّى من فمه. لم تكن أمي حاضرة. كانت قد استأذنت بالمغادرة، كعادتها عندما يحضر مونتي، لكنّني كنتُ صبيّاً صغيراً وكنتُ مفتوناً به، وكأنّه كان حقاً الغوريلا التي كانت تصِفه بها سرّاً عندما يبلغ غضبها من فظاظته ذروته.

أجاب والدي «إنَّ ألفن لا يطيق رئيسك، لهذا السبب فرَّ إلى كندا. وقبل وقتٍ قريب لم تكن أنتَ أيضاً تتحمَّل الرجل. أمّا الآن فأصبح هذا المُعادي للساميّة صديقاً لك. لقد انتهتْ فترة الكساد الاقتصاديّ، هذا ما تقولونه أنتم معشر الأثرياء اليهود، والفضل في ذلك ليس لروزفلت بل للسيد ليندبرغ. وسوق البورصة بدأ ينتعش، والأرباح تزيد، والأعمال تزدهر - ولماذا؟ لأننا حصلنا على سلام ليندبرغ بدل حرب روزفلت. وماذا يهمّ غير ذلك، ماذا غير المال يهمّكم؟»، «إنكَ تتكلَّم مثل ألفن،

يا هرمان. تتكلَّم كطفل. ما الذي يهمّ إلى جانب المال؟ إنَّ ولديك شيء مهمّ. أتريد لساندي أنْ يعود إلى الوطن ذات يوم كما عاد ألفن؟»، ثم قال، وهو يمدّ بصره نحو مكان جلوسي على طاولة المطبخ أُصغي، «أتريد لفيل أنْ يعود إلى الوطن كما عاد ألفن؟ نحن خارج الحرب، وسوف نبقى خارجها. إنَّ ليندبرغ لم يتسبّب لي بأي أذى كما أرى». توقّعتُ من والدي أنْ يردّ بالقول «انتظر وسوف ترى»، ولكن ربما بسبب وجودي في المكان وكوني خائفاً أصلاً، لم يفعل.

حالما غادر مونتي، أخبرني والدي، «إنَّ عمّك لا يستخدم عقله. لن تعود إلى الوطن كما عاد ألفن»، قلت «ولكن ماذا لو عاد روزفلت إلى سُدّة الرئاسة من جديد؟ سوف تنشب الحرب»، أجاب والدي «لا يمكن لأحد أنْ يتكهّن بهذا مُقدَّماً»، قلت «ولكنْ إذا نشبت الحرب، وإذا وصل ساندي إلى السنّ القانونيّة، سوف يُجنَّد لكي يُشارك في الحرب. وإذا قاتل في الحرب، فإن ما حدث لألفن *قد* يحدث له»، قال لي والدي «يا بنيّ، إنَّ أيَّ شيء قد يقع لأيّ شخص، ولكن لا يحدث هذا في المعتاد». قلتُ في نفسي «إلّا إذا حدث»، لكنني لم أجرؤ على قول هذا لأنه كان أصلاً منزعجاً من أسئلتي وقد لا يعرف بماذا يُجيب إذا استمررتُ في طرحها. ولمّا كان ما قاله العمّ مونتي له عن ليندبرغ هو بالضبط ما كان الحاخام قد قاله له - وأيضاً ما كان ساندي يقوله لي سرّاً - بدأتُ أتساءل إنْ كان والدي يُدركُ ما يقول.

كان قد مضى ما يُقارب العام على استلام ليندبرغ الحكم عندما عاد ألفن إلى نيوارك في القطار الليلي من مونريال، تصحبه ممرِّضة من الصليب الأحمر الكنديّ وفاقداً لنصف إحدى ساقيه. ذهبنا إلى قلب المدينة إلى محطة بن لكي نستقبله كما فعلنا عندما استقبلنا ساندي في الصيف السابق، ولكن هذه المرة كان ساندي معنا. وقبل ذلك ببضعة أسابيع، ولمصلحة الانسجام العائليّ، سُمِحَ لي بالذهاب إلى الخالة

إيفلين وسُمِحَ له بالجلوس بين المُشاهدين وإثارة إعجاب المُصلّين في الكنيس الذي يقع على مسافة أربعين ميلاً جنوب نيوارك، في نيو برونسويك، بتشجيعهم على إرسال أولادهم إلى برنامج «أناس عاديون» بسرد حكايات عن مغامرته في كينتكي وبعرض رسوماته. وكان والداي قد وضّحا لي أنَّه لا ينبغي لي أنْ آتي على ذكر عمل ساندي في برنامج «أناس عاديون» أمام ألفن؛ وسوف يشرحان كل شيء، ولكن بعد أنْ تُتاح فرصة لألفن ليتعوَّد على أجواء المنزل وليتفهَّم بصورة أفضل كيف تغيَّرتْ أميركا منذ أنْ غادر إلى كندا. لم يكن الأمر يتعلَّق بإخفاء أيّ شيء عن ألفن أو بالكذب عليه بل بحمايته ممّا يمكن أنْ يُعيق شفاءه.

وصل قطار مونريال متأخّراً في صباح ذلك اليوم، وتمضيةً للوقت - ولأنَّ الوضع السياسيّ باتَ يُلازمه الآن في كل لحظة من اليوم - اشترى والدي نسخة من صحيفة *الديلي نيوز*، وجلس على مقعد في محطة بن وأخذ يستعرض الصحيفة، وهي صحيفة صغيرة يمينيّة تصدر في نيويورك كان دائماً يُشير إليها بأنها «تافهة» بينما كانت بقيّتنا تتمشّى على الرصيف، ننتظر بقلق بداية المرحلة التالية من حياتنا. وعندما أعلن مُكبِّر الصوت أنَّ قطار مونريال سوف يتأخّر في الوصول أكثر مما كان متوقَّعاً، عادت بنا أمي، وهي تشبك ذراعيها بذراع ساندي وذراعي، إلى المقعد لكي ننتظر كلنا معاً. في تلك الأثناء كان والدي قد انتهى من استعراض معظم *الديلي نيوز* قدر استطاعته على التحمُّل ورماها في سلّة القمامة. ولما كان منزلنا يهتم بأصغر القطع النقديّة، شعرتُ بالحرج من رؤيته يرمي الصحيفة بعد أنْ اشتراها ببضع دقائق كما شعرت وأنا أراه يقرأها أصلاً. قال «أتصدقون هؤلاء الناس؟ إنَّ ذلك الكلب الفاشيّ *ما زال* بطلاً في عيونهم». وما لم يقُله هو أنّه بفعله الخير في حملته الانتخابيّة بإبقاء أميركا خارج أتون الحرب العالميّة، أصبحَ الكلب الفاشيّ عمليّاً بطلاً في عين كل صحيفة في البلاد باستثناء مجلّة ***PM***.

قالت أمي عندما ولجَ القطار أخيراً المحطة وبدأ يستعد للوقوف، «حسن، ها قد وصل ابن عمّكما».

سألتُها، وهي تحثّنا على النهوض على أقدامنا والتقدُّم نحو حافة المحطة، «ماذا ينبغي أنْ نفعل؟».

«قولا مرحباً. إنّه ألفن. رحّبا به في بيته».

همستُ «وماذا عن ساقه؟».

«ماذا عنها، يا عزيزي؟».

هززتُ كتفيّ بلا مُبالاة.

هنا أمسكني والدي من كتفيّ. قال لي «لا تخف. لا تخف من ألفن ولا تخف من ساقه. دعه يرى كم أصبحتَ راشداً».

انفصلَ ساندي عنّا وهرعَ نحو عربة القطار الذي وصل إلى نقطة الوقوف على بُعد مائتيّ قَدَم على سكّة الحديد. كانت ممرِّضة ترتدي زيّ الصليب الأحمر تدفعُ ألفن الجالس على كرسيّ متحرِّك خارج القطار، بينما الشخص الذي هرع مُقترباً منه هاتفاً باسمه كان الوحيد بيننا الذي فاز باهتمام الطرف المُقابل. ولم أعد أفهم أخي، ولكن أيضاً لم أعُد أفهم نفسي، وأنا مُنشغل في مُحاولة تذكُّر أنني يجب أنْ أحفظ أسرار الجميع في الوقت الذي كنتُ أبذل أقصى جهدي لأكبت مخاوفي وأحاول ألّا أكفّ عن تصديق أبي وتصديق الديمقراطيين وروزفلت وكل شخص يمنعني من الانضمام إلى باقي البلد في الافتتان بالرئيس ليندبرغ.

صرخ ساندي «ها قد عدتَ! عدتَ إلى وطنك!». ثم شاهدتُ أخي، الذي كان قد بلغ تواً الرابعة عشرة من العمر لكنّه لا يقلّ في قوّته عن شاب في العشرين، يخرُّ على رُكبتيه على أرضيّة الرصيف الاسمنتيّة، وهي الوضعيّة الأفضل لمُعانقة ألفن. وهنا طفقتْ أمي تبكي، وأسرع والدي بإمساك يدي، إمّا ليُحاول منعي من الانهيار أو لحماية نفسه من فوضى مشاعره.

رأيتُ أنَّ من واجبي أنْ أكون التالي الذي يهرع لمُلاقاة ألفن، فانفصلتُ عن والديّ واندفعتُ نحو الكرسي المُتحرِّك، وحالما وصلتُ إلى هناك،

ومُحاكاةً لساندي، طوّقته بذراعيّ، فإذا بي أكتشف أنَّ رائحته فظيعة. في أول الأمر اعتقدتُ أنَّ الرائحة تنبعثُ من ساقه، لكنها كانت تنبعثُ من فمه. حبستُ أنفاسي وأغمضتُ عينيّ ولم أنفكّ عن ألفن إلّا بعد أنْ شعرتُ به يميل إلى الأمام على كرسيه لكي يُصافح يد والدي. وعندئذٍ لاحظتُ العكّاز الخشبيّ موضوعاً إلى جانب الكرسي المتحرّك، وللمرة الأولى تجرّأتُ على النظر إليه مباشرة. لم أكنْ قد رأيت مرة في حياتي شخصاً شديد النحول والكآبة مثله. لكنَّ عينيه لم تُظهرا أيّ خوف أو أي أثر لبكاء، واستعرضتا قسمات وجهي بضراوة، وكأنَّ الحارس هو الذي ارتكبَ الفعل الذي لا يُغتَفَر وتسبَّبَ بإعاقة السجين.

قال «هرمان»، ولم يزد.

قال والدي «ها قد عُدت، أنت في وطنك. سوف نأخذك إلى المنزل».

ثم مالت أمي لكي تُقبّله.

قال ألفن «عمّتي بيس».

كانت ساق البنطلون اليُسرى تهبط مباشرة إلى أسفل بدءاً بالرُكبة، وهو مشهد مألوف في العموم للبالغين لكنّه أذهلني، على الرغم من أنني كنتُ أعرف سابقاً رجلاً فقَدَ كلتا ساقيه، رجلاً يبدأ من الوركَين ولم يكن هو نفسه أكثر من جذعة. كنتُ قد رأيته من قبل، يستجدي على الرصيف خارج مكتب والدي في المدينة، ولكن لمّا كنتُ مذهولاً بشكله الضخم والغريب، لم أفكّر فيه كثيراً بما أنّني لم أكنْ مُعرَّضاً أبداً لخطر مجيئه ليُقيم في بيتنا. كان يُحرزُ نجاحاً بالاستجداء في موسم مباريات البيسبول عندما يُعلِن، بعد مغادرة عمّال المبنى في آخر النهار، النتائج النهائية لبعد الظهيرة بصوته الخطابيّ والعميق بتنافُر، ويُسقِط كلٌّ منهم قطعتين من النقد في دلو الغسيل المعطوب الذي يجمع به المعونة. كان يتنقّل على قاعدة صغيرة من الخشب المُثبَّتة من الأسفل بمزلجة تنزلق – بل بدا، في الحقيقة، أنّه يُقيمُ عليها. وبغضّ النظر عن تذكُّري قفّاز العمل المتهرِّئ الثقيل البالي الذي كان يلبسه على مدار العام – لكي يحمي اليدين اللتين كانتا وسيلته

للتنقُّل - لا أستطيع أنْ أصِفَ باقي ملابسه لأنَّ الخوفَ من الانشداه امتزج برعبِ الرؤيةِ ومنعاني من النظر فترة كافية لأسجِّل ما كان يرتدي. وكونه كان يرتدي أي شيء مهما كان بدا شيئاً مُعجِزاً كقُدرته على التبوُّل والتبرُّز، ناهيك عن تذكّر نتائج المباريات. وكلما أتيتُ إلى مكتب شركة التأمين الخالية في صباح يوم السبت مع والدي - إلى حدّ بعيد للاستمتاع ببهجة الدوران على مقعد طاولة المكتب في أثناء استعراضه بريد الأسبوع - كان دائماً يتبادل هو ورجل الجدعة التحيّة بإيماء وديّ بالرأس. واكتشفتُ حينئذٍ أنَّ الظلم الغريب الذي نزل برجلٍ لم يتبقَّ منه غير نصفه ليس فقط حدَثَ، وغير مفهوم البتّة، بل وقعَ لإنسانٍ اسمه روبرت، وهو اسم ذكَر شائع ويتألّف من ستة أحرف طويلة، كاسمي. قال والدي ونحن نجتاز نحو المبنى، «كيف الحال، يا روبرت الصغير؟»، أجابَ روبرت الصغير، «وكيف حالك أنت، هرمان؟». وأخيراً سألتُ والدي «أليست لاسمه كنية؟»، فسألني والدي «وهل لديك أنت؟»، «نعم»، «وهو أيضاً لديه». سألتُه «وما هي؟ اسمه روبرت ماذا؟». فكّرَ والدي برهة، ثم ضحك وقال «في الحقيقة، يا بُني، لا أعلم».

منذ لحظة اكتشافي أنَّ ألفن عائدٌ إلى نيوارك لقضاء فترة نقاهة في منزلنا، صرتُ أتخيَّل لا إراديّاً روبرت على مزلجته مرتدياً قفّازه كلما استلقيت في السرير ليلاً مُحاولاً إجبار نفسي على النوم: أولاً تتراءى لي طوابعي مُغطّاة بعلامات الصليب المعقوف، ثم الصغير روبرت، الجدعة الحيّة.

سمعتُ والدي يقول لألفن «حسبتُ أنكَ سوف تُركِّب الساق التي منحوكَ إياها. حسبتُ أنهم لن يُسرّحوكَ إلّا إذا ركّبتها. ماذا حدث؟».

أجاب ألفن ساخراً، من دون أنْ يُزعج نفسه بالنظر إليه «إنَّ الجدعة تنكسر».

سأل والدي «ما معنى هذا؟».

«لا شيء. لا عليك».

سألَ والدي الممرضة «هل لديه أمتعة؟».

ولكن قبل أنْ تتمكن من الإجابة، قال ألفن «طبعاً معي أمتعة. أين في اعتقادك ساقي؟».

توجهتُ أنا وساندي نحو مكتب الأمتعة في الباحة الرئيسة مع ألفن وممرّضته بينما هرع والدي لإحضار السيارة من موقف ريموند بوليفار، تصحبه أمي، التي رافقتْه في الدقيقة الأخيرة، في الغالب لكي تناقشه في كل ما لم يتوقعاه حول حالة ألفن الذهنيّة. وعلى رصيف المحطّة، كانت الممرّضة قد استدعتْ حمّالاً، وقاما معاً بمساعدة ألفن على اتّخاذ وضعيّة الوقوف ومن ثم تولّى الحمّال أمر الكرسي المتحرِّك بينما مشتِ الممرضة إلى جانب ألفن وهو يقفز نحو أعلى السلَّم الكهربائيّ. وهناك اتّخذَت موقعها كدرعٍ بشريّ، وبينما هو يقفز خلفها، قابضاً على العانس المتقدِّمة بينما السُلَّم يهبط. وقفتُ أنا وساندي خلف ألفن، وقد أصبحنا أخيراً خارج نطاق أنفاسه الكريهة - واتخذَ ساندي غريزياً وضعيّة الاستعداد ليُمسك بألفن إذا ما اختلَّ توازنه. وارتقى الحمّال، الذي حمل الكرسي المتحرِّك مقلوباً ومعه العكّاز لا يزال مُثبتاً إلى أحد جنبيه، الدَرَج الموازي للسلَّم الكهربائي وكان قد وصل إلى الباحة الرئيسة لكي يُرحّبَ بنا عندما وصل ألفن قفزاً قادماً من السلّم الكهربائي ومشينا خلفه. وضعَ الحمّال الكرسي المتحرّك في وضعيّته الصحيحة على أرض الباحة وثبّته في وضعيّةٍ تسمح لألفن بالجلوس عليه، لكنَّ ألفن استدار على عقب ساقه الوحيدة وبدأ يقفز بنشاط مُبتعداً، تاركاً ممرّضته - التي لم يشكرها ولا ودّعها - تراقبه وهو يهرع على طول الأرضيّة الرخاميّة المزدحمة في اتجاه غرفة الأمتعة.

سألَ ساندي الممرضة «ألن يسقط؟ إنّه يسير بسرعة كبيرة. ماذا لو انزلقَ ووقع؟».

أجابتِ الممرضة «هو؟ في استطاعة هذا الفتى أنْ يقفز في أي مكان. هذا الفتى يستطيع أنْ يقفز مسافة طويلة جداً. لن يقع. إنّه بطل العالم في السير قفزاً. كان سيُسعده أكثر أنْ يقطع المسافة من مونريال قفزاً على

أنْ يدعني أساعده على المجيء إلى هنا بالقطار». ثم أسرّتْ لنا، نحن الطفلين المحميين الجاهلَين تماماً لمرارة الخسارة، قائلة «لقد سبقَ أنْ رأيته غاضباً، رأيتُ أشخاصاً فقدوا أطرافهم *كلّها* غاضبين، ولكنْ لم أر أحداً غاضباً مثله».

سأل ساندي قلِقاً «غاضبٌ ممَّ؟».

كانت امرأة قويّة البنية ذات عينين رماديتين صارمتين وشَعر قصير كشَعر جندي من تحت قلنسوتها الرماديّة الخاصّة بالصليب الأحمر، لكنَّ صوتها كان ذا نبرة أموميّة شديدة النعومة، وبرقّةٍ شكَّلَتْ مفاجأة أخرى من مفاجآت ذلك اليوم، وكأنَّ ساندي هو أحد الموضوعين تحت وصايتها، شرحتْ قائلة «غاضبٌ ممّا يغضَبُ منه الناس - ممّا تؤول إليه الأمور».

اضطررنا أنا وأمي إلى أنْ نستقلّ الحافلة إلى المنزل لأنه لم يكن هناك مُتّسع في سيارة العائلة الستيودبيكر الصغيرة. وُضِعَ كرسي ألفن المُتحرِّك في صندوق السيارة، على الرغم من أنّه كان من النمط القديم الصلب وغير العمليّ، ولذلك توجَّبَ تثبيته بربطِهِ بخيط قنَّب ثخين مُلائم. وكانت حقيبة رسوماته المُخصّصة لعبور البحار (مع الساق الاصطناعيّة محشورة داخلها) مُمتلئة عن آخرها حتى عجز ساندي عن حملها حتى بمساعدتي، واضطررنا إلى جرّها عبر أرض الباحة وخلال الباب إلى الشارع؛ وهناك استلمها والدي وقام هو وساندي بمدّها على طول المقعد الخلفي. وجثمَ ساندي فوق الحقيبة في أثناء التوجّه إلى المنزل في وضعية الانطواء على نفسه من الخصر، وعكّاز ألفن مُثبّتٌ على حِجره. برز طرَفا العكّاز المُلبّسان بالمطّاط من إحدى النوافذ الخلفيّة، وربط والدي منديل جيبه حول الطرفَين كتحذير للسائقين الآخرين. ركبَ والدي وألفن في المقدّمة، وتهيّأتُ أنا منزعجاً لحشر نفسي بينهما إلى يمين مُبدِّل السرعة الأرضيّ عندما قالتْ أمي إنّها تريد أنْ تكون برفقتي في الرحلة إلى المنزل. واتّضحَ أنَّ ما أرادت كان منعي من الاضطرار إلى مشاهدة المزيد من البؤس.

قالت عندما وصلنا إلى منعطف نحو الطريق السفليّ حيث مسار الحافلة رقم 14، «أمرٌ طبيعيّ تماماً أنْ ننزعج. كلنا ننزعج».

أنكرتُ كل الإنكار انزعاجي لكنني وجدتُ نفسي أتلفّتُ حول موقف الحافلة بحثاً عن شخص ألاحقه. وكان يتفرّع من موقف محطة بن ذاك وبكل سهولة عددٌ من الطُرُق، وتصادفَ أنْ كانت حافلة فيلسبرغ متوجهة إلى شمال نيوارك القصيّ تقبل ركّاباً في اللحظة التي وقفنا أنا وأمي عند حافة الطريق السُفليّ في انتظار وصول الحافلة 14. ولمحتُ الرجل المناسب للملاحقة، رجل أعمال يحمل حقيبة شخصيّة بدا لي - بمقدرتي التي أعترفُ بأنها ناقصة على تمييز المميِّزات التي كان إيرل يتفوَّق فيها - أنّه ليس يهوديّاً. ولكن لم يسعني إلّا أنْ أتابعه بشوق عندما أُغلِقَ باب الحافلة خلفه وابتعد من دون أنْ أُدقِّق النظر فيه عن قُرب.

حالما أصبحنا أنا وأمي وحدنا على متن الحافلة، قالت «أخبرني عمّا يُزعجك».

عندما لم أُجِب بدأتْ تشرحُ سلوك ألفن في محطة القطار «إنَّ ألفن يشعر بالخزي. يشعر بالخزي لأننا نراه يتنقّل على كرسيّ متحرّك. فعندما غادرنا كان قويّاً ومُستقلّاً. أما الآن فيرغب في الاختباء ويرغب في الصراخ ويرغب في تسديد الضربات، وهذا أمر فظيع بالنسبة إليه. وأمر فظيع بالنسبة إلى فتى مثلك أنْ ترى ابن عمك الأكبر سناً على هذه الصورة. ولكنْ هذا كله سوف يتغيَّر. وحالما يفهم أنَّ ليس في مظهره أو فيما حدث له ما يستدعي الشعور بالخزي، سوف يستعيد وزنه الذي فقده، وسوف يبدأ بالمشي في كل مكان بالاستعانة بساقه الاصطناعيّة، وسوف يستعيد مظهره الذي تتذكّره قبل أنْ يُغادر إلى كندا... فهل هذا يُهدِّئ من روعك؟ هل يبعثُ ما أقولُ الطمأنينةَ فيك؟».

قلتُ «لستُ في حاجة إلى الطمأنينة»، ولكن ما أردتُ هو أنْ أسأل: «ما المقصود بتعبير أنّ جدعته قد انكسرتْ؟ هل أنا مُضطر إلى النظر إليها؟ هل أنا مُضطر إلى لمسها؟ هل سيعالجونها؟».

ذات يوم سبت قبل أنْ أهبط إلى القبو بأسبوعَين مع أمي لمُساعدتها في إخراج صناديق الكرتون الممتلئة بمتعلّقات ألفن، والتي أنقذها والدي من غرفة شارع رايت بعد فرار ألفن لكي ينضمّ إلى الجيش الكنديّ. ونظّفَتْ أمي كل ما هو صالح للتنظيف على المغسلة في حوض القبو المُجزّأ، تدعكه بالصابون في مغسلة، وتشطفه في أُخرى، ومن ثم تضعُ كل قطعة في العصّارة بينما كنتُ أُدير اليد لكي أُخرِجَ ماء الشطف. كنتُ أكره تلك العصّارة؛ كانت كل قطعة من الغسيل تظهر مُسطّحة من بين الدولابين، وتبدو كأنَّ سيارة شاحنة دهستها، وكلما هبطتُ إلى القبو لأي سبب كان، كنتُ دائماً أخافُ أنْ أُعطي ظهري لذلك الشيء. أما الآن فصرتُ أُصمِّم على أنْ أُسقِط كل قطعة مُشوّشة، رطبة من خليط الغسيل في سلّة الغسيل وأحمل السلّة إلى الطابق العُلويّ لكي تقوم أمي بتجفيفه على حبل الغسيل في الفناء الخلفيّ. وأمدّها بملاقط الغسيل وهي تميل من النافذة لتنشره، وعندما وقفتْ في المطبخ بعد تناول وجبة العشاء في تلك الأمسية لتكوي القمصان والبيجامات التي كنتُ قد ساعدتها في جمعها، جلستُ على طاولة المطبخ أطوي ملابس ألفن الداخليّة وألفّ كل زوج من الجوارب على شكل كرة، وصمّمتُ على تصحيح مسار كل شيء بأنْ أُصبح أفضل فتى صغير يمكن تخيّله، بل أفضل، وأفضل، من ساندي وحتى أفضل من نفسي.

بعد انتهاء الدوام المدرسيّ في اليوم التالي، تطلَّبَ مني القيام بمشوارَين لحمل ملابس ألفن الجيدة إلى دكان الخياط القريب حيث قاموا بتجفيفها على البخار. وفي وقت لاحق من الأسبوع أحضرتها وفي المنزل وضعتها كلها - المعطف الخفيف، والبذلة، والسترة الرياضيّة، وبنطلونه - على العلّاقات الخشبيّة في الجزء الذي خصّصتُه له من خزانة ملابسي في غرفة النوم وكدّستُ الباقي من الملابس داخل الدُرجَين العُلويين اللذين كانا في السابق خاصّين بساندي. ولما كان ألفن سينام في غرفتنا - استعدَّ ساندي للانتقال إلى الصالون المُشمس - لكي يوفّر له أسهل بلوغ ممكن للحمّام - في الجهة الأماميّة من الشقّة بترتيب متعلّقاته

الخاصة في خزانة غرفة الطعام، بجوار مفارش المائدة والفوط. وذات أمسية قُبيل عودة ألفن المُقرَّرة قمتُ بتلميع حذائه البُنّي وحذائه الأسود، متجاهلاً قدر استطاعتي أيّ شكّ لديّ حول ما إذا كان تلميع الحذاءين لا يزال أمراً ضروريّاً. وجعل تلك الأحذية تلمع، وجعل ملابسه نظيفة، وترتيب محتويات أدراجه من الملابس المغسولة حديثاً - كان ذلك كلّه ببساطة بمنزلة صلاة، صلاة مُرتجلَة للتوسُّل لآلهة المنزل كي تحمي غُرفنا الخمس المتواضعة وكل محتوياتها من الحنق الانتقاميّ للساق المفقودة.

حاولتُ أنْ أُقدِّر مما شاهدتُ خارج نافذة الحافلة مقدار الوقت المتبقّي للوصول إلى جادّة كلينتون وكان الأوان قد فات للكشف عمّا يُخبئه قَدَري. كنا قد وصلنا إلى جادة كلينتون ونمرّ من أمام فندق ريفييرا حيث أمضى والدي ووالدتي، وهذا ما لم أنسه أبداً، ليلة عرسهما. كنا قد أصبحنا خارج المدينة، وفي حوالي منتصف الطريق إلى المنزل، وأمامنا مباشرة كنيس بناي أبراهام الحصن البيضاوي العظيم الذي بُنيَ من أجل خدمة أثرياء المدينة اليهود وكان بالنسبة إليّ بناءً أجنبيّاً كالفاتيكان.

قالت أمي «يمكنني أنْ أنام في سريرك، إنْ كان هذا ما يزعجك. أما الآن، وإلى أنْ يتعوّد كلّ منكم على الآخر من جديد، يمكنني أنْ أنام في سريرك بجوار سرير ألفن وتستطيع أنْ تذهب وتنام مع البابا في سريرنا. أليس هذا أفضل؟».

قلتُ إنني أُفضّل أنْ أنام وحدي في سريري.

اقترحتْ أمي «ماذا لو انتقلَ ساندي من الصالون المُشمِس إلى سريره، ونام ألفن في سريرك ونمتَ أنتَ حيث ينوي ساندي أنْ ينام، في السرير النهاريّ في الصالون المُشمِس؟ هل ستشعر بالوحشة في الجزء الأمامي من المنزل، أم أنَّ هذا ما تُفضِّل حقاً؟».

هل أفضّل هذا؟ بل أحبّه. ولكن كيف يمكن لساندي، الذي أصبح الآن يعمل لمصلحة ليندبرغ، أنْ يتقاسم غرفة مع شخصٍ فقدَ ساقه بالاشتراك في حربٍ ضد أصدقاء ليندبرغ النازيين؟

كنا ننعطف نحو ساحة كلينتون من موقف جادة كلينتون، الركن السكنيّ المألوف حيث كنا أنا وساندي - قبل أنْ يتركني ويذهب إلى الخالة إيفلين بعد ظهيرة أيام السبت - نترجل لمشاهدة العرض المُزدوج في مسرح روزفلت، الذي كانت على ظِلّة مدخله كتابة بأحرف سوداء على مسافة قريبة منه. وقريباً سوف تمرّ الحافلة من أمام الأزقّة الضيِّقة والمنازل التي تتَّسِع لعائلتين ونصف تصطفّ على طول ساحة كلينتون - في شوارع تشبه كثيراً شارعنا لكنَّ المصرف المبنيّ بالقرميد الأحمر وذا الرواق الأماميّ الذي يعلوه جملون مُثلَّث الشكل لم يُثِر أيّاً من انفعالات عهد الطفولة الأساسيّة كما أثارها شارعنا - وقبل أنْ تصل إلى النهاية الختاميّة تنعطف إلى جادة تشانسلر. وهناك سوف يبدأ الارتقاء الصعب للتل، مروراً بالمعابر الضيقة الأنيقة للمدرسة الثانوية الجديدة الراقية، ومنها إلى سارية العلم الضخمة التي تتقدَّم مدرستي الابتدائيّة، ثم إلى قمّة التل، حيث حسب قول أستاذنا في الصف الثالث كانت مجموعة من هنود ليني لينيب تُقيم في قرية صغيرة، يطبخون طعامهم على حِجارة ساخنة ويرسمون أشكالاً عن قدور الطبخ. تلك كانت وِجهتنا، موقف جادة صنسيت، بخطٍ قطريّ من أطباق الشوكولاتة المغموسة تواً المعروضة بشكلٍ مُغرٍ في الواجهات ذات الحواف المُخرّمة لمحل آنّا ماي لبيع الحلوى الذي حلَّ محل خيام الهنود المخروطيّة وكانت الرائحة العطِرة المُغرية يعبق الجو بها قبل الوصول إلى منزلنا بمسير أقلّ من دقيقتين.

بعبارة أخرى، كان الوقت المتبقّي للموافقة على النوم في الصالون المَشمِس يمكن حسابه بدقّة ويكاد ينفَد، دار سينما بعد دار سينما، ومحل حلوى بعد محل حلوى، ورواق بعد رواق، ومع ذلك كل ما استطعتُ قوله كان كلا، كلا، سوف أكون على ما يُرام حيثُ أنا، إلى أنْ خلا وِفاض أمي من الحلول الهادئة التي تقترحها، ورُغماً عنها، ابتعدتْ يرين عليها الصمت الكئيب بصورة مُنذرة بالشؤم وجليّة جداً، وكأنَّ الصباح الحافل أرهقها أخيراً كما أرهقني. في تلك الأثناء، وبما أنني كنتُ أجهل المدة

التي أستطيع خلالها أنْ أُخفي عدم قُدرتي على تحمُّل ألفن بسبب ساقه المفقودة وساق بنطلونه الفارغة ورائحته الشنيعة وكرسيه المتحرك وعُكّازه والطريقة التي يتجنّب بها النظرَ إلى أيّ منّا عندما يتكلّم، بدأتُ أتظاهر بأنني ألاحقُ شخصاً على متن حافلتنا لا يبدو أنّه يهوديّ. وعندئذٍ أدركتُ - مُستعينا بكل المعايير التي أخذتُها عن إيرل - أنَّ أمي تبدو يهوديّة. شَعرها، أنفها، عيناها - إنَّ والدتي تبدو يهوديّة بصورة لا تترك *أي مجال* للشكّ. ولكن لابد أنني أنا كذلك، لأنني أُشبهها شبهاً شديداً. ولم أكن أعلم.

كان سبب انبعاث الرائحة الكريهة من ألفن هو الفساد الذي نال فمه. وشرح الدكتور ليبرفارب لنا بعد تفحّص داخله بمرآته الصغيرة قائلاً، «إنَّ المرء يفقد أسنانه عندما يقع في المشاكل»، وكرَّر «أوه» تسع عشرة مرَّة، وبعد ظهيرة ذلك اليوم بالذات بدأ الثقب. وسوف يواظب على ذلك الثقب من دون مقابل لأنَّ ألفن تطوّع لقتال الفاشيين ولأنَّ ليبرفارب، خِلاف «اليهود الأثرياء» الذين أدهشوا والدي بتخيُّل أنفسهم آمنين في أميركا بقيادة ليندبرغ، بقيَ غير مُضلَّل بشأن ما يمكن أنْ يدَّخره «العديد من أشباه هتلر في هذا العالم» وما يُعدّونه لنا. كان تسعة عشر ترصيعاً ذهبيّاً شيئاً كثيراً، ولكن هكذا أبدى تضامنه مع والدي، ووالدتي، ومعي، ومع الديمقراطيين، في مقابل العم مونتي، والخالة إيفلين، وساندي، وكل الجمهوريين الذين يستمتعون حالياً بحب أبناء بلدهم. وحشو التسعة عشر ترصيعاً يستغرقُ وقتاً، خاصة بالنسبة إلى طبيب أسنان تلقّى تدريبه في مدرسة ليليّة بينما كان يعمل في أثناء النهار في إعداد الصناديق في مرفأ نيوارك، وهو ليس بارعاً جداً في معالجته. واستمر ليبرفارب في الثقب على مدى أشهر طويلة، ولكن خلال الأسابيع القليلة الأولى أزال قدراً كافياً من النخر بحيث لم يعُد النوم بالقُرب من فم ألفن تجربة مريرة جداً. أما الجدعة فكان أمرها مختلفاً. وتعبير «مكسور» يعني أنَّ طرف

الجدعة يفسد: ينكأ الجرح، يفتح، ويتعفّن. كانت هناك بثور، وتقرّحات، واستسقاء، ولا يمكن السير على الجدعة مع الجراحة الترقيعيّة ولذلك يجب التخلّي عنها واللجوء إلى العكّاز إلى أنْ تبرأ وتستطيع تلقّي الضغط من دون أنْ تنكأ من جديد. كانت الساق الاصطناعيّة تتطابق مع الجدعة. وقد قال له الأطباء «لم يعُد هناك شيء يتطابق معك»، فقال ألفن إنّه *لم يحصل* على أي شيء يتطابق، *لم يحصل* أبداً على شيء متطابق، لأنَّ صانع الساق في الأساس لم يأخذ المقاييس بشكل صحيح.

سألتُه أخيراً «كم يستغرق شفاؤها؟»، في الليلة التي أخبرني خلالها عن معنى كلمة «الكسر». كان ساندي قد نام في الجزء الأمامي من المنزل ونام والداي في غرفة نومهما منذ ساعات، وكذلك ألفن وأنا عندما بدأ يصرخ «ارقص! ارقص!»، وانتصبَ بحركة سريعة على سريره، مع شهيق مُخيف، وقد استيقظ يقظة تامة. فنهضتُ وفتحتُ باب غرفة النوم، وعلى الرغم من أنني أنا نفسي أخذتُ فجأة أتصبّب عرقاً، إلّا أنني قطعتُ على أطراف أصابع قدميّ أرض الردهة الخلفيّة، متوجّهاً ليس إلى والديّ لكي أبلّغهما ما حدث، بل إلى غرفة الحمّام لكي أُحضِر منشفة لألفن. استخدمها ليمسح وجهه وعنقه، ثم خلع قميص بيجامته لكي يمسح صدره وتحت إبطيه، وهنا شاهدتُ أخيراً ما ألمَّ بالرجل المتفوِّق منذ أنْ تهشَّمَ الرجل المتواضع. لم تكن هناك جراح، أو قُطَب، أو نُدب تشوّهه، ولكن لم تكن هناك أيضاً قوّة، بل فقط جلدٌ شاحب لفتى سقيم بارز المفاصل والقفص العظمي.

كانت تلك ليلتنا الرابعة التي نقضيها معاً. خلال الليالي الثلاث الأولى كان ألفن يحرص على خلع ملابسه وارتداء البيجاما داخل غرفة الحمّام ومن ثم يقفز عائداً لكي يُعلِّق ملابسه في الخزانة، بما أنّه كان يستخدم غرفة الحمّام من جديد لكي يرتدي الملابس في الصباح، لم أكن بعد قد اضطررتُ إلى النظر إلى الجدعة وتظاهرتُ بأنني لا أعلم بوجودها. وفي الليل كنتُ أستدير نحو الجدار وأستغرق في الحال في النوم، بسبب

التعب الذي سبّبتها لي همومي، وبقيتُ نائماً حتى ساعات الصباح الأولى عندما استيقظ ألفن وقفز إلى غرفة الحمّام ومن ثم عاد إلى السرير. فعل ذلك كله من دون إضاءة الأنوار وأنا مُستلقٍ في مكاني أخشى أنْ يرتطم بشيء وينهار على الأرض. ليلاً، كانت أقل حركة منه تحدوني إلى الفرار، وليس خوفاً من الجدعة فقط. وفي تلك الليلة الرابعة، وبعد أنْ انتهى ألفن من تجفيف نفسه بالمنشفة واستلقى لا يرتدي غير بنطلون البيجاما، الذي ارتداه بساقه اليُسرى لكي ينظر إلى الجدعة. واعتبرتُ ذلك إشارة تدعو إلى الأمل - أي أنّه بدأ يُصبح أقلّ جنوناً في غضبه، على الأقل في وجهي - ومع ذلك بقيتُ لا أرغب في النظر نحوه... وهذا ما فعلتُ، محاولاً أنْ أتصرَّفَ كجنديّ في سريري. وما رأيتُه يمتد بدءاً من مِفصل رُكبته كان شيئاً بطول خمس بوصات أو ست يُشبه رأساً متطاولاً لحيوانٍ بلا ملامح، شيئاً كان جديراً بساندي أنْ يرسم عليه، ببضع ضربات من القلم، عينين، وأنفاً، وفماً، وأسناناً، وأُذنين، ويُحوّله إلى ما يُشبه الجرذ. ما رأيته كان ما تصِفه كلمة «جدعة»: البقايا الفظّة لشيءٍ تامّ مكانه هناك وكان ذات يوم ينتمي إلى هناك. وإذا كنتَ لا تعلم شكل الساقّ، فقد يبدو ذلك الشيء طبيعياً في عينك، إذا أخذنا بعين الاعتبار كيف كان ذلك الجلد الخالي من الشَعر مُدوّراً بنعومة عند الطرف المُختَزَل وكأنَّه من عمل الطبيعة وليس نتيجة سلسلة من المحاولات لإجراء عمليات بتر.

سألتُه «هل التأمتْ؟».

«ليس بعد».

«كم ستستغرق؟».

أجاب «وقتاً طويلاً».

ذُهِلتُ. قلتُ في نفسي، إذن فالأمر لن ينتهي أبداً!

قال ألفن «شيء مُحبِط إلى أقصى مدى. إنكَ تضع الساق التي صنعوها لأجلك فإذا بالجدعة تنكسر. وتستخدم العكّاز فتبدأ بالتورُّم. إنَّ الجدعة تزداد سوءاً مهما فعلت. أحضِرْ لي الضمادات من درج طاولة الزينة».

نفّذتُ ما أمرني به. كنتُ مُضطراً إلى التعامُل مع الأربطة المُمغنَطة من قماش البيج التي يستخدمها لمنع جدعته من التورُّم بعد خلع الساق الاصطناعيّة. كانت ملفوفة في إحدى زوايا الدرج بجوار جواربه. كان كلٌ منها بعَرض ثلاث بوصات ومُثبّتاً عليها دبوس كبير مُقحَم في الطرف لمنعها من الانفلات. ولم أعُد أرغب في إقحام يدي داخل ذلك الدرج كما لم أرغب في الهبوط إلى القبو وإقحامها داخل العصّارة، لكنّني فعلت، وعندما جلبتُ الضمادات إلى السرير، حاملاً واحدة على راحة كل يد، قال، «أنت ولد طيّب»، ونجح في دفعي إلى الضحك بالربت على رأسي وكأنني كلب.

وخوفاً مما سيلي، جلستُ على سريري وراقبتُ.

شرح قائلاً «توضع الضمادة من أجل منع التورُّم»، وأمسك الجدعة بيد وبالأخرى أمسك الدبوس وبدأ يبسط إحدى الضمادات بشكل متصالب على الجدعة ومدّها عالياً حتى مفصل الرُكبة واستمرَّ بعدها بعدّة بوصات. «وتضع هذا الضماد لمنعها من التورُّم» - أخذ يُكرِّر الكلمات بضجر، وبصبرٍ مُبالَغٍ فيه - «ولكن لا ينبغي أنْ تضعه فوق الكسر لأنَّ ذلك لن يجعل الكسرَ يبرأ. لذلك يجب أنْ تقوم بذلك جيئة وذهاباً إلى أنْ تُصاب بالجنون». وبعد أن انتهى من بسط الضماد وتثبيت الدبوس على طرفه، عرَضَ عليّ النتائج. ثم باشر عمليّة روتينيّة أخرى بضماد آخر قائلاً «يجب أنْ تشدّه جيداً، أترى؟». وبعد انتهائه ذكّرتني الجدعة من جديد بحيوان صغير، وهذه المرّة كان ينبغي تكميم رأسه بعناية فائقة لمنعه من غرز أسنانه الحادة في يد آسره.

سألتُه «كيفَ تعلَّمتَ هذا؟».

«لستَ مُضطراً إلى التعلُّم. يكفي أنْ تضعه»، وفجأة أعلنَ «إلّا إذا كان مشدوداً أكثر مما ينبغي. وربما عليك *حقاً* أنْ تتعلَّم. ابن الحرام اللعين! إنّه إمّا رخو أكثر مما ينبغي أو مشدود بشكل مُبالَغ فيه. إنّه يُثير الجنون - ذلك الشيء اللعين كلّه». نزع الدبوس الذي ثبَّتَ الضماد الثاني ومن

ثم أزال الضمادين لكي يبدأ من جديد. قال لي، وهو يُكافح الآن لكي يكبح الشعور بالامتعاض من عقم *كل شيء*، «ها أنتَ ترى كم تبرع في فعل هذا»، واستأنفَ إعادة الربط التي بدا أنّها، كمدّة الشِفاء، سوف تستمر هكذا بلا طائل في غرفة نومنا.

في اليوم التالي وبعد انتهاء دوام المدرسة، أسرعتُ بالعودة إلى المنزل الذي كنتُ أعلمُ أنّه سيكون خالياً - كان ألفن عند طبيب الأسنان، وكان ساندي قد ذهب مع الخالة إيفلين إلى مكان ما، والاثنان يقومان بصورة مُبهمة بمساعدة ليندبرغ في تحقيق أهدافه، ووالداي لن يعودا من العمل إلّا على موعد العشاء. وعندما قرَّرَ ألفن أنْ يستغلّ ساعات النهار في السماح للكسر بالالتئام من دون ضمادات ويستغل ساعات الليل في تغطية الجدعة لمنع التورُّم، عثرتُ على الفور على الضمادتين في زاوية درج طاولة الزينة العُلويّ إلى حيثُ أعادهما في صباح ذلك اليوم. وجلستُ على حافة سريري، ورفعت بنطلون ساقي اليُسرى، ولما صُعِقتُ عندما اكتشفتُ أنَّ ما تبقّى من ساق ألفن لم يكن أكبر من ساقي، باشرتُ بوضع الضماد عليها. وكنتُ وأنا في المدرسة في النهار أقوم ذهنيّاً بمراجعة ما كان قد فعله في الليلة السابقة، ولكن عند الساعة الثالثة والثلث، لدى عودتي إلى المنزل، وما إنْ باشرتُ بلفّ الضماد الأول حول الجدعة الوهميّة على ساقي حتى شعرتُ، على لحمي تحت رُكبتي، ما اتَّضحَ أنّه قشرة خشنة انتقلتْ إليّ من الجزء السُفلي من جدعة ألفن المتقرِّحة. لابد أنَّ القِشرة سقطَتْ في أثناء الليل - إمّا أنَّ ألفن تجاهلها أو لم يُلاحظها - وها هي الآن تلتصقُ بي وابتعدتُ كثيراً عمّا أستطيع أنْ أتعامَل معه. وعلى الرغم من أنَّ جيشان التقيُّؤ بدأ في غرفة النوم، إلّا أنني عندما هرعتُ نحو الباب الخلفيّ وهبطتُ الدَرَج الخلفي إلى القبو، نجحتُ في وضعِ رأسي فوق المغسلة المزدوجة قبل ثوانٍ من بدء التقيُّؤ الفعلي.

كان وجودي وحدي في التجويف الشديد الرطوبة للقبو محنةً في ظروفي تلك، وليس بسبب العصّارة فقط. فمع التراب المتراكم على

الإفريز المُبقَّع والعفن الذي ينتشر على طول الجدران المُشقّقة والمُبيَّضة بالجير - بقعٌ بكل تدرّجات لون الغائط ولُطخ سائلة بدا كأنها نزَّتْ من جثّة - بدا القبو أشبه بعالم قائم بذاته خاصّ بالغيلان، يمتد تحت المنزل كلّه ولا يستمدّ أي ضوء من عدد من الشروخ في الزجاج المُعتِم الكئيب الذي يطلّ على أرضية الأزقة الإسمنتيّة والفناء الأمامي المكسو بالأعشاب البريّة. كان هناك عدد من بقع مياه الرشح بحجم طبق غاصت إلى قعر تجويف منحدر وسط الأرضيّة الإسمنتيّة. وداخل كل واحدة قرص ثقيل أسود فيه ثقوب متّحدة المركز بحجم قطعة نقد صغيرة تخيّلتُ أنَّ مخلوقات وهميّة تنفذ عالياً بحركة لولبيّة حاقدة، بلا أيّة صعوبة، من أحشاء الأرض إلى حياتي. وكان القبو مكاناً محروماً ليس من أيّة نافذة مُشمِسة فقط بل من كل طمأنينة إنسانيّة أيضاً، وعندما درستُ الميثولوجيا الإغريقيّة والرومانيّة في الصف الابتدائي من المرحلة الثانويّة وقرأتُ في المُقرَّر عن هيدس، وسيربيروس، ونهر ستيكس، كنتُ دائماً أتذكَّر قبو بيتنا. ثمة مصباح كهربائي بطاقة 30 وات يتدلّى فوق المغسلة التي تقيَّأتُ فيها، ومُصباح آخر يتدلّى بجوار أفران الفحم - المتوهّجة والمتجاورة بضخامتها معاً أشبه بثلاث نسخ من أفلاطون في عالمنا السُفليّ - ومصباح آخر، ودائماً مُحترق تقريباً، كان مُعلّقاً من سلك كهربائيّ داخل كل صندوق للتخزين.

لم أقبل قط أنْ تعني مسؤوليّة زمن الحرب بالنسبة إليّ أنْ أحبّ جرف الفحم إلى فرن العائلة في الصباح الباكر من كل يوم، ثم تغطية النار بالرماد قبل الإيواء إلى النوم، وحمل ملء دلو من الرماد البارد كل يوم إلى وعاء الرماد في الفناء الخلفيّ. وكان ساندي قد أصبحَ قويّ البُنية بحيث يحلّ محل والدي، وفي غضون بضع سنوات أخرى، عندما ذهب كما يفعل كل فتى أميركيّ بلغ الثامنة عشرة من العمر لكي يتلقّى التدريب العسكري لمدة عامَين في صفوف جيش الرئيس ليندبرغ المدني الجديد، سوف أرِثُ العمل ولا أتخلّى عنه إلّا عندما أُطلَب أنا أيضاً إلى التجنيد. لقد

كان تصوُّر مُستقبلٍ، وأنا في سن التاسعة، أقوم فيه وحدي بتلقيم الفرن في القبو، شيئاً مُزعجاً كالتفكير في حتميّة الموت التي كانت قد بدأتْ أيضاً تُعذِّبني وأنا في سريري كل ليلة.

لكنني كنتُ أخشى في المقام الأول القبو بسبب أولئك الذين ماتوا - جدَّاي، جدّتي لأمي، والعمّة والعم اللذان كانا ذات يوم يُشكلان عائلة ألفن. ربما دُفِنَتْ جثثهم قبالة الطريق رقم 1 على خط نيوارك-إليزابيث، لكنَّ أشباحهم كانت تسكن الطابقَين الكائنين تحت شقّتنا لكي تشرف على شؤوننا وتُدقِّق في سلوكنا. وأكاد لا أتذكَّر أيّاً منهم ما عدا جدَّتي التي توفيتْ وأنا في سن السادسة، ومع ذلك كلما توجّهتُ إلى القبو وحدي، أحرصُ على تحذير كلٍ منهم بدوره من أنني قادم ومناشدتهم أنْ يبتعدوا وألّا يُحاصروني حالماً أُصبح وسطهم. وعندما كان ساندي في مثل سنّي كان يتسلَّح ضد خوفه الخاصّ بهبوط دَرَج القبو بسرعة وهو يصرخ «أيّها الأشرار، أنا أعلم أنكم هناك في الأسفل - أنا أحمل مُسدساً»، بينما أنا أهبط هامساً «أنا آسف على ما ارتكبتُ من أخطاء مهما كانت».

كانت هناك العصّارة، ومياه الصرف، والموتى - أرواح الموتى الذين يُراقبون ويُصدرون أحكامهم ويُدينون بينما أتقيّأ في المغسلة المزدوجة حيث كنتُ أنا وأمي نغسل ملابس ألفن - وهناك قطط الزقاق التي تختفي داخل القبو عندما يُترَك الباب الخلفيّ مواربأ ومن ثم تموء من حيث تجثم في الظلام، ومن ثم هناك السُعال المُعذِّب للجار في الطابق السُفلي السيد ويشْسنو، سُعال بدا من القبو وكأنّما تمزّقه أسنان منشار. وكان السيد ويشْسنو، على غرار والدي، أحد وكلاء الضمان في شركة متروبوليتان، لكنه كان منذ أكثر من عام يتلقّى معاش عجز، ويُعاني من حالة متقدِّمة من سرطان الفمّ والحنجرة بحيث أصبح عاجزاً عن فعل أي شيء خلاف ملازمة المنزل والاستماع إلى المسلسلات الإذاعيّة النهاريّة عندما لا يكون نائماً أو يسعل سعالاً متواصلاً. وحلّتْ زوجته محلّه، بمباركة وزارة الداخليّة - كأول وكيلة شركة ضمان أنثى في تاريخ منطقة نيوارك -

وأصبحتْ تداوم الساعات الطويلة نفسها كما كان والدي يفعل، الذي كان يُضطر في العموم إلى العودة بعد العشاء لتحصيل المال ويقوم بعمليات تدقيق لمصلحة زبائن مُحتملين في أغلب أيام السبت والأحد، وعطلة نهاية الأسبوع كانت الوقت الوحيد الذي يأمل فيه إيجاد مُعيل في المنزل يُصغي إلى حديثه. وقبل أنْ تبدأ أمي عملها كبائعة في محل هاهن، كانت تتوقف في الطابق السُفلي مرتين في اليوم لتتفقّد أحوال السيد ويشْسنو؛ والآن، عندما تتّصل السيدة ويشْسنو لتقول إنها لم تتمكن من العودة إلى المنزل في الوقت المناسب لتُعدّ عشاءً لائقاً، تقوم أمي بإعداد وجبة أفضل قليلاً مما نتناوله ويحمل كل منا، ساندي وأنا، قبل أنْ يُسمَح لنا بالجلوس وتناول وجبتنا، طبقاً ساخناً من الطعام إلى الطابق الأول على صينيّة، واحد من أجل السيد ويشْسنو وواحد لسيلدون، ابن آل ويشْسنو الوحيد. ويفتح سيلدون الباب لنا ونُناور لإدخال الصينيّتين من الردهة ومنها إلى المطبخ، منهمكَين في محاولة عدم إراقة أيّ شيء ونحن نضعهما على الطاولة التي ينتظرنا عليها السيد ويشْسنو، وفوطة محشورة في أعلى بيجامته ولكن لا يبدو أنّه قادر على إطعام نفسه بنفسه، مهما كانت حاجته إلى الغذاء. ويسألنا بصوته المُهلهل الذي لم يتبقَّ له غيره، «كيف حالكما أيها الولدان؟ ما رأيك في أنْ تُخبرني نكتة، يا فيلي؟ يمكنني أنْ أستخدم نكتة جيدة»، يقول هذا، ولكن بلا نبرة مرارة، أو سعادة، فقط مُستعرِضاً المرح الناعم، الدِفاعيّ لشخصٍ ما زال متمسّكاً بالحياة من دون أي سبب ظاهر. ولابد أنَّ سيلدون أخبر والده بأنّه في استطاعتي أنْ أجعل الأطفال يضحكون في المدرسة، وهكذا كان يُضايقني بأنْ يطلب مني إخباره نكتة في حين كان يقضي على قُدرتي على الكلام بحضوره القريب مني. وكان أفضل ما استطعتُ فعله هو أنْ أحاول أنْ أنظر إلى شخصٍ أعلمُ أنّه يحتضر – والأسوأ من ذلك، أنّه *استسلَم* للموت – من دون أنْ أسمح لعينيّ أنْ تريا في عينيه الدليل المُخيف للبؤس الجسديّ الذي أُجبِرَ على مُعاناته وهو في طريقه إلى حياة طيفيّة في قبو منزلنا مع كل الأموات

الآخرين. وأحياناً، عندما يتوجَّب التزوُّد بدفعة جديدة من دواء السيد ويشْسنو من الصيدليّة، كان سيلدون يُسرع بارتقاء الدَرَج ليسأل إنْ كنتُ أرغب في مرافقته، ولأنني علِمتُ من والديّ بأنّ والد سيلدون محكوم عليه بالموت - ولأنَّ سيلدون نفسه كان يتصرَّف وكأنّه لا يعرف أيّ شيء عن هذا - كان من المُستحيل أنْ أرفض عرضه، على الرغم من أنني لم أكن أحبّ قط أن أرافق شخصاً توّاقاً بشكلٍ مكشوف إلى أنْ يُصاحبني. لقد كان سيلدون طفلاً رازحاً بوضوح تحتَ ضغط وحدته، ومُترعاً بحزن لا يستحقّه ويُرهِق نفسه بالعمل لكي يرسم الابتسامة الدائمة، كان أحد أولئك الصِبية النحيلين، الشاحبين، ذوي الوجوه الرقيقة الذين يُحرجون الجميع لأنهم يرمون الكرة كالفتيات ولكنه أيضاً أذكى ولد في صفّنا ومتفوِّق على المدرسة كلها في مادة الحساب. والغريب في الأمر هو أنه لم يكن هناك في درس الألعاب الرياضيّة مَنْ يتفوَّق على سيلدون في الارتقاء والهبوط على طول الحبل المُتدلّي من سقف صالة الألعاب المرتفع، وكانت لرشاقته في الهواء صِلة - وِفقاً لأقوال أحد الأساتذة - ببراعته التي لا تُجارى في استخدام الأرقام. وكان في الأصل بطلاً صغيراً في لعبة الشطرنج التي تعلَّمها على يديّ والده، وهكذا كلما رافقته إلى الصيدليّة كنتُ أعلم أنّه لا سبيل إلى منع انتهائي من الوصول إلى رقعة الشطرنج في غرفة جلوس عائلته المُعتِمة - مُعتمة من أجل توفير الكهرباء ومُعتمة لأنَّ الستائر أصبحتِ الآن تُسدَل طوال الوقت من أجل تنفير الجيران من التحديق المَرَضيّ إلى هبوط سيلدون شيئاً فشيئاً إلى حالة غياب الوالد. ويُحاول سيلدون المتوحِّد (كما كان إيرل آكسمان يُكنّيه، الذي شكّلتْ أمّه التي انهارت عقليّاً بين ليلة وضُحاها، أزمة أبويّة مُذهلة من نوعٍ آخر) أنْ يُعلِّمني للمرَّة المليون، لا تردعه مُقاومتي الصلبة، كيف أُحرِّك القِطَع وأمارس اللعبة في حين كان والده هناك، خلف باب غرفة النوم الخلفيّة، يسعل بتسارُع شديد وبقوّة هائلة حتى بدا كأنّه ليس والداً واحداً بل أربعة، خمسة، أو ستة آباء هناك يسعلون معاً حتى الموت.

خلال أقلّ من أسبوع صرتُ أنا وليس ألفن الذي يُضمِّد جدعته، ومع حلول ذلك الوقت كنتُ قد تدرَّبتُ قدراً كافياً على نفسي - ومن دون أنْ أتقيّأ - بحيث لم يُضطر ولا مرة واحدة إلى التذمُّر من ارتخاء الضمادات أو شدّها أكثر مما ينبغي. فعلتُ ذلك في كل ليلة - حتى بعدما برأتِ الجدعة وأصبحَ يمشي بانتظام على الساق الاصطناعيّة - لكي أؤخِّر تجدُّد التورُّم. وطوال الوقت كانت الجدعة تبرأ، وكانت القدَم الاصطناعية مدسوسة في خلفيّة خزانة الملابس، مُخبّأة بعيداً عن الأنظار بالأحذية على الأرضيّة وبالبنطلونات المُعلَّقة من قضيب الخزانة. ومع ذلك استغرقَ مني بعض الوقت لتجاهُل رؤيتها، لكنني كنتُ عازماً على ذلك ولم أعلم مما كانت مصنوعة إلى أنْ خلعها ألفن لكي يرتدي ملابسه. باستثناء الانطواء الغريب لشكل النصف السُفلي للعضو السُفلي الحقيقيّ، فإنَّ كل شيء فيه كان فظيعاً، لكنه فظيع وأُعجوبة معاً، يبدأ بما سمّاه ألفن الطقم: المشدّ العالي المصنوع من الجلد القاتم الذي يشدّ المُقدّمة ويمتدّ من تحت الكفل مُباشرة إلى أعلى رَضفة الركبة وهذه موصولة إلى الإضافة الاصطناعية بمفاصِل من الفولاذ على كلا جانبيّ الرُكبة. وتتطابق الجدعة، المكسوّة بجوربٍ طويل من الصوف الأبيض، تطابقاً تاماً مع تجويف المِحجر المُزوَّد ببطانة والمحفور داخل أعلى الجزء الاصطناعيّ، الذي صُمِّمَ من الخشب المُجوَّف مع ثقوب للتهوية أُحدِثَتْ فيه وليس، كما تخيّلتُ، من قطعة من المطّاط الأسود تشبه هراوة في كتاب للرسوم الهزليّة. وفي نهاية الساق كانت هناك قدمٌ اصطناعيّة تنثني فقط بضع درجات ومُزوّدة بأخمص من الإسفنج. ثُبِّتت بأناقة ببراغي داخل الساق من دون أنْ تظهر أيّة قطعة، وعلى الرغم من أنّها تبدو أقرب شَبَهاً بقالب حذاء خشبيّ منها بقدم حيّة بخمسة أصابع منفصلة، فعندما كان ألفن يرتدي جوربه وحذاءه - كانت أمي تُنظِّف المِحجرَين، وكنتُ أنا أُلمِّع الحذاء - كنتَ تعتقد أنَّ القَدَمين هما قدماه الحقيقيتان.

أخذ ألفن يتدرَّب، في أول يوم يعود فيه إلى المشي على ساقه

الاصطناعيّة، جيئة وذهاباً في الزقاق من المرأب الكائن في أقصى نهايته وحتى السياج الأعجف الذي يُحيط بالفناء الأمامي الصغير، ولكن ليس أبعد من ذلك، ليس إلى حيث يمكن أنْ يراه أحدهم في الشارع. وفي اليوم الثاني عاد إلى التدرُّب وحده في الصباح، ولكن عندما رجعتُ إلى المنزل عائداً من المدرسة أخذني معه إلى الخارج للقيام بجولة أخرى، وهذه المرة لم يكن فقط يُركِّزُ على مشيه بل ويتظاهر بأنَّ متانة جدعته وتطابُق الجزء الاصطناعيّ - والمستقبل الطويل الذي ينتظره كرجلٍ بساقٍ واحدة - لا ترزح على تفكيره. وفي الأسبوع التالي كان ألفن يرتدي الساق في جولته حول المنزل طوال النهار، وفي الأسبوع الذي تلاه، قال لي، «اذهب واحضر كرة قدم»، ولكن لم يكن لدينا كرة قدم - بما أنَّ كرة القدم كانت شيئاً كبيراً كامتلاك حافظات لنعل القدم أو ضمادات للكتف، وليس هناك أي طفل لديه واحدة إلّا إذا كان «ثريّاً». ولم يكن ممكناً أنْ أطلب واحدة من ملعب المدرسة إلّا إذا كنا سوف نستخدمها هناك، لذلك فإنَّ ما فعلتُ - أنا الذي لم أكن قد سرقتُ أي شيء حتى ذلك الحين أكثر من بضعة قروش من جيوب والديّ - ما فعلتُ من دون أقلّ تردُّد هو أنْ أتسكَّع في جادَّة كير حيث منازل العائلات الواحدة ذات المروج الأماميّة والخلفيّة وأتفحّص كل ممر سيارات إلى أنْ عثرتُ على ما كنتُ أبحثُ عنه - كرة قدم لأسرقها، كرة قدم من الجلد الأصلي ماركة ولسون، رُمِيَتْ عن الرصيف، جلدها متهرِّئ ويمكن نفخها، تركها أحد الأطفال الأثرياء بإهمال. دسستُها تحت ذراعي وانطلقتُ، مُسرِعاً في ارتقاء التل إلى جادّة صنسيت وكأنني أُعيد الكرة إلى كنيسة نوتردام.

بعد ظهيرة ذلك اليوم تدرّبنا على تبادُل تمرير الكرة في الزقاق طوال ما يُقارِب الساعة، وليلاً، عندما تفحّصنا الجدعة معاً خلف باب غرفة النوم المّغلَق، لم نر أيّة دلالة على وجود انكسار، على الرغم من أنّه بينما ألفن يرمي لي الكرة بيده اليُسرى البارعة عبر الهواء كان يضع كامل وزنه بالمعنى الحرفيّ للكلمة على ساقه الاصطناعيّة. ولو أنَّ أحداً فاجأني وأنا

أفعل ذلك في جادة كير في ذلك اليوم لدافعتُ عن نفسي بالقول «لم يكن لديّ خَيار». لقد أراد ابن عمي ألفن كرة قدم، يا سيادة القاضي. لقد فقَدَ ساقه وهو يُحارب هتلر والآن عاد إلى الوطن وأراد كرة قدم. ماذا كان في وسعي أنْ أفعل؟

ولكن كان قد مرَّ شهرٌ منذ العودة المشؤومة إلى أرض الوطن عبر محطة قطارات بن، وعلى الرغم من أنّها لم تكن بالضبط حادثة سارّة، لن أشعر بالاشمئزاز وأنا أتحدث عنها عندما مددتُ يدي إلى خلفيّة خزانة ألفن، وأنا أُحضِر حذائي في الصباح، بحثاً عن الجزء الاصطناعي لأسلّمه له في مكان جلوسه على السرير ببنطلونه الداخلي، في انتظار دوره للذهاب إلى الحمّام. كانت الكآبة تختفي وبدأ يكتسبُ وزناً، ويلتهم الأكل بين الوجبات بكميات كبيرة مما يجده في البرّاد، ولم تعُد عيناه تبدوان جاحظتين، ونما شعره من جديد بكثافة، شعر متموِّج وحالك السواد وله لمعة برّاقة، وبينما هو يجلس هناك شبه عاجز وجدعته مكشوفة، كان يجدّ شيء جديد كل صباحٍ في الفتى الذي أحبّه حتى العبادة، وأصبح ما يستحق الشفقة فيه محمولاً أكثر قليلاً.

وسرعان ما لم يعُد ألفن يقصِر نفسه على الزقاق، وأصبح يتنقّل في أرجاء المنطقة كلها بساقه الاصطناعيّة من دون الاضطرار إلى الاعتماد على العكّاز أو على العصا التي كان يشعر بالمهانة لاستخدامها عَلَناً، فيتسوَّق من أجل أمي من محل اللحّام، والخبّاز، وبيع الخضروات، ويشتري السجق لنفسه من محلٍ قريب، ويستقلّ الحافلة ليس فقط للذهاب إلى طبيب الأسنان في جادة كلينتون بل يُتابع طريقه حتى شارع ماركيت لكي يشتري قميصاً جديداً من محل لاركي - وأيضاً، وهو ما لم أكنْ أعرفه بعد، كان يتوقف عند ملاعب أيام المدرسة الثانوية وفي جيبه راتب الصرف من الخدمة العسكريّة ليرى إنْ كان هناك مَنْ يتسكّع ويرغب في لعب البوكر أو رمي النرد. وذات يوم بعد انتهاء دوام المدرسة، أفسحنا أنا وهو مكاناً في وعاء التخزين للكرسي المُتحرِّك، وفي تلك الليلة بعد

العشاء نقلتُ إلى أمي شيئاً خَطرَ لي وأنا في المدرسة. كنتُ أفكِّر، أينما كنتُ ومهما كان ما أفعل، في ألفن وكيف أنَّ في استطاعتي أنْ أجعله ينسى أمر ساقه الاصطناعيّة - فقلتُ لأمي، «ألنْ يكونَ أسهل على ألفن، لو أنَّ لديه سحّاباً على جانب كُم بنطلونه، أنْ يرتدي بنطلونه ويخلعه وهو يضع الساق الاصطناعيّة؟». وفي صباح اليوم التالي، أودعتْ أمي، وهي في طريقها إلى مركز عملها، بنطلون ألفن العسكري عند خيّاطة تعمل خارج منزلها، واستطاعت الخيّاطة أنْ تشقّ جانب البنطلون وتُثبِّت فيه سحّاباً طوله ست بوصات على كُم البنطلون الأيسر الخالي من الثنية. وفي الليلة التي ارتدى ألفن البنطلون بعد أنْ فتح السحّاب، غطّتْ ساق البنطلون الجزء الاصطناعي بسهولة من دون أنْ يُضطر إلى أنْ يكيلَ السِباب على كل سكّان الأرض لمجرّد كونه يرتدي ملابسه. وعندما أغلقَ السحّاب، كان مرئيّاً. هتفتُ «إنكَ حتى لا تشعر بوجوده!». وفي الصباح، وضعنا بنطلوناته كلها في كيس من الورق لكي تأخذها أمي إلى الخيّاطة فتُصلحها. قال ألفن لي عندما أوينا إلى السرير في تلك الليلة «لم أكنْ لأستمر في الحياة من دونك؛ لم أكنْ لأستطيع أنْ أرتدي بنطلوني من دونكَ»، وأعطاني الميداليّة الكنديّة التي كان قد فاز بها لأحتفظ بها إلى الأبد «مكافأة له على أدائه في ظل ظروف استثنائيّة». كانت ميدالية فضيّة مُستديرة، على أحد جانبيها مسقط جانبيّ لوجه الملك جورج السادس وعلى الجانب الآخر صورة أسد يقفُ بانتصار فوق جثّة تنّين. وطبعاً حافظتُ عليها وبدأتُ أضعها باستمرار، ولكن بعد تثبيتها من الشريط الأخضر الضيّق على قميصي التحتيّ كي لا يراها أحد ويشكّ في ولائي للولايات المتحدة. وتركتُها في الدرج في المنزل فقط في الأيام التي يكون لدي دروس التمارين الرياضيّة حين يتوجّب علينا أنْ نخلع قمصاننا الخارجيّة لنتمرن.

وإلى أين أوصلَ هذا ساندي؟ لأنه كان هو نفسه منهمكاً في العمل، في أول الأمر بدا أنّه لا يُلاحظ تحوُّلي الخطِر إلى خادم شخصيّ لبطل حرب

كندي نال ميداليّة وها هو الآن يمنحني إياها؛ وعندما لاحظَ ذلك - وشعر بالانزعاج في أول الأمر ليس بسبب تورُّط ألفن معي، وكان ذلك متوقَّعاً جرّاء ترتيبات النوم التي قمتُ بها، بل بسبب اللامبالاة العِدائيّة التي أبداها ألفن بوضوح تجاهه - كان الأوان قد فات على إخراجي من أداء دوري الداعم الكبير (بما يُرافقه من القيام بواجبات مُثيرة للاشمئزاز) الذي أُجبِرتُ في الواقع على تولّيه وفوجئ ساندي بأنني انتزعتُ ذلك التقدير السامي خلال السنوات الأخيرة من مسيرتي المِهنيّة الطويلة بوصفي أخاه الأصغر.

وقد تحقَّقَ ذلك كلّه من دون أنْ أُلمِّح ولو مرة واحدة إلى انتساب ساندي، عبر الخالة إيفلين والحاخام بينغلسدورف، إلى إدارتنا الكريهة الحاليّة. وكان الجميع، بمن فيهم أخي، قد تفادوا التطرُّق إلى الحديث عن مكتب الاستيعاب الأميركيّ وبرنامج «أناس عاديون» على مسمع من ألفن، لاقتناعهم بأنه إلى أنْ يتوصّل إلى إدراك أنَّ الشعبيّة الهائلة لسياسات ليندبرغ الانعزاليّة قد بدأتْ تكسب حتى دعم العديد من اليهود - وكيف أنَّ الأمر أبعد عن كونه خيانة مما بدا لصبي يهوديّ في سن ساندي انجذب إلى خوض المغامرة التي قدّمها برنامج «أناس عاديون» - لن يكون هناك ما يُخفِّف من حنق أشدّ الكارهين لليندبرغ والمُضحين بأنفسهم والمُخلصين بيننا. ولكن بدا أنَّ ألفن كان يشعر أصلاً بأنَّ ساندي قد خذله، ولم يُزعج نفسه بإخفاء مشاعره، وهو في حالته تلك. أنا لم أقُل شيئاً، ووالداي لم يقولا شيئاً، وحتماً ساندي لم يقُل شيئاً يُجرِّمه في عينَي ألفن، ومع ذلك توصّل ألفن إلى معرفة (أو إلى التصرُّف وكأنه عرفَ) أنَّ أوّل مَنْ رحّبَ بعودته إلى الوطن في محطة القطار كان أول المتعاونين مع الفاشيين.

لا أحد كان متيقّناً مما سيفعله ألفن بعد ذلك. كان سيواجه مشاكل لإيجاد وظيفة لأنَّ لا أحد يستخدم شخصاً يُعتبَر مُعاقاً، وخائناً، أو كليهما. ومع ذلك، كما قال والداي، كان من الضروريّ كبح أي ميل لدى ألفن إلى الكسل والاكتفاء بالاكتئاب ورثاء الذات حتى آخر حياته والاستمرار

في حياته على معاشه التقاعديّ. أرادتْ أمي له أنْ يستخدم راتب الإعاقة الشهري للدراسة. وقد تقصَّت عن الأمر وقيل لها إنّه إذا أمضى شهراً في أكاديميّة نيوارك، ونال درجة حَسَنة على الدورات التي كان قد نال فيها درجات أدنى في المدرسة اليهوديّة، فمن المُرجَّح أنْ يتمكن من الانتساب إلى جامعة نيوارك في العام التالي. لكنَّ والدي لم يستطع أنْ يتصوّر ألفن يعود إلى الصف الثاني عشر، حتى في مدرسة خاصة في المدينة؛ فكونه في الثانية والعشرين من العمر وبعد كل ما مرّ به، كان في حاجة إلى أنْ يحصل على عمل له مستقبل بأسرع ما يمكن، ومن أجل ذلك اقترح والدي على ألفن أنْ يتّصل ببيلي شتاينهايم. وبيلي هو الابن الذي كان صديقاً لألفن عندما عمل سائقاً خاصاً لآبيه، وإذا رغب بيلي في إقناع والده بإعطاء ألفن فرصة ثانية، فقد يوافقون على إيجاد عمل له في الشركة، عمل متواضِع في الوقت الحالي لكنّه يستطيع أنْ ينقذ نفسه في عينيّ آبيه شتاينهايم. وإذا احتاج الأمر، فقط إذا اقتضت الحاجة، يمكن لألفن أنْ يبدأ مع العم مونتي، الذي كان قد جاء لكي يمنح ابن أخيه عملاً في سوق الإنتاج؛ حدث ذلك في تلك الأيام السيئة الأولى عندما كانت جدعة ألفن مكسورة بصورة خطرة وكان لا يزال يلزم السرير في أغلب الأوقات ولا يسمح للأشباح أنْ تظهر في غرفتنا خوفاً من أنْ يلمح قبساً من العالم الصغير الذي كان فيه ذات يوم كياناً كاملاً. وفي أثناء نقله بالسيارة من محطة بن بمعيّة والدي وساندي، أغمضَ عينيه حالما لاحَ مبنى المدرسة الثانويّة حتى لا يتذكَّر المرات العديدة التي خرج منها وهو يقفز من ذلك المبنى في نهاية النهار لا يُعيقه عذاب جسديّ وكان مُهيّأً لممارسة أي عمل يريد.

بعد ظهيرة ذلك اليوم وقبل زيارة العم مونتي لنا تأخّرتُ قليلاً في العودة إلى المنزل قادماً من المدرسة - كان قد حان دوري لأبقى وأنظف السبورات - ورجعتُ إلى المنزل واكتشفتُ أنَّ ألفن قد رحل. لم أجده في سريره ولا في الحمّام ولا في أي مكان آخر في الشقّة، فهرعتُ إلى الخارج

لأبحث عنه في الفناء الخلفيّ ومن ثم، عندما تولتني الحيرة، عدتُ مُسرعاً إلى المنزل فسمعتُ، من أسفل الدَرَج، أنيناً واهناً صادراً من الأسفل - إنها أشباح، أشباح والدة ألفن ووالده يتألّمان! وعندما هبطتُ الدرج بحذر إلى القبو لأرى إنْ كان في الإمكان رؤيتهم هناك وسماعهم، وما رأيتُ بدل ذلك، في أعلى الجدار الأمامي للقبو، كان ألفن نفسه يُحدِّق من الشق الصغير الأفقيّ في الزجاج المُطلّ على مُستوى الشارع إلى جادة صنسيتْ. كان يرتدي مبذل الحمّام، ويتوازن بإحدى يديه التي تتمسّك بحافة النافذة. ولم أتمكن من رؤية اليد الأخرى. كان يستخدمها لشيءٍ ما كنتُ أصغر سناً من أنْ أعرفَ عنه أيّ شيء. ومن خلال دائرة صغيرة في النافذة نظّفها من القذارة، كان يُراقبُ فتيات المدرسة الثانوية اللواتي يسكنَّ في جادة كير وهنَّ يمشين إلى منازلهن من الحيّ اليهوديّ على طول شارعنا. كان كل ما في استطاعته أنْ يرى هو سيقانهن تمرّ برشاقة من أمام السياج، لكنَّ ذلك القدر من المُشاهدة كان كافياً ودفعه إلى الأنين بما اعتبرتُهُ ألماً لأنّه لم تعد لديه ساقان يمشي عليهما. تراجعتُ بهدوء مرتقياً الدَرَج وخرجتُ من الباب الخلفيّ وجلستُ القرفصاء في الزاوية الأبعد من مرأبنا، أُخطِّطُ للهرب إلى نيويورك لكي أُقيمَ مع إيرل آكسمان. وفقط لأنَّ الظلام بدأ يسود وكان لديه واجب مدرسيّ يجب القيام به، رجعتُ إلى المنزل، وتوقّفتُ أولاً لألقي نظرة إلى القبو لأرى إنْ كان ألفن ما يزال هناك. لم يكن هناك، ولذلك تجرّأتُ بهبوط الدَرَج، مندفعاً بسرعة مروراً بالعصّارة وتفاديتُ الماء الراشح، وحالما وصلت النافذة ورفعتُ نفسي على أطراف أصابع قدميّ - عازماً فقط على الإطلال من النافذة كما كان يفعل - فاكتشفتُ أنَّ الجدار المُبيَّض بالجير تحت النافذة زلق وكثيف كالمحلول الحلو. ولما لم أكنْ أعرفُ ما هو الاستمناء، لم أكنْ أعلم طبعاً ما هو القذف. حسبتُ أنّه صديد. حسبتُ أنّه بلغم. لم أكن أعلم ماذا أعتقد، ما عدا أنّه شيء شنيع. وفي حضور نوع من الإفراغ كان ما يزال مُبهماً لدي، تخيّلتُ أنّه شيء فسدَ في جسم الإنسان ومن ثم انبثقَ من الفم بعد أنْ استنزف الألمُ ألفن.

بعد الظهيرة عرَّجَ العم مونتي ليطمئن على ألفن، وكان في طريقه إلى شارع ميللر في المدينة، حيثُ يعمل طوال الليل في السوق، منذ أنْ كان في الرابعة عشرة من عمره، فيصِل عند حوالي الساعة الخامسة ولا يعود إلى المنزل إلّا عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي لكي يتناول وجبته الكبرى ومن ثم ينام طوال النهار. هذه هي الحياة التي كان يعيشها أشدّ أفراد عائلتنا ثراءً. وكانت ابنتاه أفضل حالاً. كان لدى ليندا وآنيت، الأكبر سناً بقليل من ساندي وتُظهِران الحياء المؤلِم الذي تتميَّز به فتاتان تتحركان على رؤوس أصابعهما حول والدهما الطاغية، كان لديهما الكثير من الملابس وترتادان مدرسة كولومبيا الثانويّة في ضواحي ميبلْوود، حيث المزيد من الأطفال اليهود الذين لديهم الكثير من الملابس وآباؤهم، على غرار العم مونتي، يمتلك كلٌ منهم سيارة كاديلاك لنفسه وسيارة ثانية يودِعُها المرأب خاصة بالزوجة وبالبنتين اللتين تكبران في السن. وكانت تُقيمُ معهم في منزل ميبلوود جدّتي، التي بدورها كان لديها الكثير من الملابس، اشتراها لها ابنها الأكثر نجاحاً ولم تكن ترتدي أيّاً منها إلّا في العُطل الكُبرى وكان مونتي يدفعها إلى ارتداء ملابسها للخروج وتناول الطعام مع العائلة في أيام الأحد. ولم تكن المطاعم تقدِّم ما يكفي من الطعام الحلال الذي يتّفق مع معاييرها، ولذلك لم تكن تطلب إلّا وجبة السجناء المؤلَّفة من الخبز والماء، ثم إنها على أيّة حال لم تكن تعرف آداب السلوك في المطاعم. وفي إحدى المرّات عندما رأتْ صبياً نادلاً يحمل كمّاً هائلاً من الأطباق عائداً إلى المطبخ، نهضَتْ لكي تذهب إليه وتساعده. هتف العم مونتي «أمي، كلا! ***loz im tsu ru*** (دعيه وشأنه!) دعي الفتى وشأنه!»، وعندما ضربتْ يده وأبعدتها اضطرَّ إلى جرّها إلى الخلف نحو الطاولة من طرف ثوبها المُدجَّج بصورة سخيفة بالترتر اللامع. وكانت هناك امرأة سوداء، تُعرَف باسم «الفتاة»، تأتي بالحافلة من نيو جيرزي لكي تقوم بأعمال التنظيف مرَّتين في الأسبوع، لكنَّ ذلك لم يمنع الجدّة من الركوع عندما لا يراها أحد لكي تنظِّف أرضيّة المطبخ

والحمّام أو من غسل الملابس بنفسها على لوح الغسيل على الرغم من وجود غسّالة كهربائيّة جديدة من شركة بنديكس هوم ثمنها 99$. وكانت العمّة تيلي، زوجة مونتي، لا تني تتذمَّر لأنَّ زوجها ينام طوال النهار ولا يتواجد في المنزل طوال الليل، على الرغم من أنَّ كل أفراد العائلة يعتبرون أنَّ هذا من حُسن حظّها - وأفضل من سيارتها الأولدزموبيل الجديدة.

كان ألفن مستلقياً على السرير ولا يزال يرتدي البيجاما في الساعة الرابعة بعد الظهر في يوم الغسيل ذاك عندما عرَّجَ مونتي أولاً للسؤال عنه وتجرّأ على طرح السؤال الذي لا يعرفُ أيٌّ منا الجواب الدقيق عليه - «كيف بحقّ الله فقدتَ ساقك؟» ولمّا لم يكن ألفن يطيقُ صُحبة أحد لدى عودتي من المدرسة، ولا يُجيب إلّا بزمجرة اشمئزاز على أي شيء أفعله لأُدخل البهجة إلى نفسه، لم أتوقَّع أنْ ينتزع نسيبنا المكروه أيَّة إجابة منه.

لكنَّ وجود العم مونتي المُثير للرعب، مع السيجارة المُدلّاة دائماً من زاوية فمه، كان مهيمناً إلى درجة أنَّه حتى ألفن لم يكن في وسعه، في تلك الأيام، أنْ يطلب منه أنْ يخرس ويرحل. وبعد ظهيرة ذلك اليوم بالذات لم يستطع ألفن أنْ يبدأ بمُحاكاة التحدّي الوقح الذي مكَّنه من القفز كأعجوبة عبر باحة محطة بن لدى وصوله عائداً إلى الوطن مبتور الساق.

أجاب ألفن عن السؤال الكبير بصوت مكتوم «في فرنسا».

أخبره مونتي بثقة تامّة، «إنّه أسوأ بلد في العالم». كان مونتي، وهو في سن الثامنة عشرة في صيف عام 1918، قد حارب الألمان بنفسه في فرنسا في المعركة الدامية الثانية في المارن، ومن ثم في غابة أرغون حيث اخترقَ الحُلفاء جبهة الألمان الغربيّة، وعلى هذا، فهو يعرف كل شيء، طبعاً، عن فرنسا.

قال مونتي «أنا لا أسألك أين؛ أنا أسألك كيف».

كرَّر ألفن «كيف».

«تكلَّم، يا فتى. سوف ترتاح».

هو أيضاً كان يعلم ذلك - أي ما يُريح ألفن.

سأله «أينَ كنتَ عندما أُصِبتَ؟ ولا تقُل لي «في المكان الخطأ». طوال حياتك وأنتَ في المكان الخطأ».

«كنا في انتظار القارب لكي يُخرِجنا».

هنا أغمضَ عينيه وكأنّه يأمل في ألّا يفتحهما مرة أخرى. لكنّه بدل أنْ يتوقف عند ذلك الحد، كما كنتُ أُصلّي كي يفعل - قال فجأة «أطلقتُ النار على ألمانيّ».

قال مونتي «ثم؟».

«كان هناك يصرخ طوال الليل».

«إذن؟ إذن؟ تابع. إذن كان يصرخ. ما المشكلة؟».

«مع بزوغ الفجر، وقبل وصول القارب، زحفتُ إلى حيث كان. ربما على مسافة خمسين ياردة. كان حينئذٍ قد مات. لكنني رحتُ أزحفُ إلى أنْ صرتُ فوقه وأطلقتُ النار مرّتين على رأسه. ثم بصقتُ على ابن الحرام. وفي تلك اللحظة رموني بقنبلة يدويّة، فأصابتني في ساقيّ. وفي إحدى ساقيّ التوت القدَم. انكسرتْ والتوت. وهذه تمَّ شفاؤها. عالجوها وعدّلوا وضعها. وضعوها في الجبس. وعدّلوا وضعها. أما الأخرى فنُسِفَتْ. نظرتُ إلى أسفل ووجدتُ أنَّ إحدى القَدَمَين معكوسة الاتّجاه وإحدى الساقين متدلّية. أما الساق اليُسرى فقد بُتِرَتْ».

تلك كانت الحكاية، الخالية من الواقع البطوليّ التي كنتُ أتخيّله بضحالة.

أخبره مونتي «عندما تخرج إلى أرض مُتنازَع عليها وحدك، يمكن أنْ يُصيبك أحد زملائك. لم يكن قد طلع الفجر، والدنيا مُعتِمة، وعندما يسمعُ رجلٌ طلقاً نارياً يُصيبه الرعب - وبووم، يضغط الزناد».

لم يكن لدى ألفن ما يقول عن هذا الظن.

كان يمكن لأي شخص آخر أنْ يتفهَّم ويلين، ولو فقط بسبب العرق المُتشكّل على جبين ألفن والقطرات المتجمّعة في تجويف نحره وكونه لا يزال يرفض أنْ يفتح عينيه. لكنَّ هذا لم يكن حال عمّي - إنّه يتفهَّم **ولا**

يلين. «وكيف حدث ولم تُترَك هناك؟ بعد أنْ ارتكبتَ تلك الحماقة، كيف لم يتركوك لتموت؟».

وكان جواب ألفن الفارغ هو «كان الوحل في كل مكان. كانت الأرض موحِلة. إنَّ كل ما أتذكَّر هو أنَّه كان هناك وحل».

«مَنْ أنقذك، أيّها المنعزل؟».

«أخذوني. لابد أنني كنتُ مُهمَلاً. جاؤوا وأخذوني».

«إنني أحاول أنْ أتصوّر ما تفكِّر فيه يا ألفن، ولا أستطيع. إنّه يبصق. يبصق. وهذه هي قصّة فقدانه ساقه».

قلتُ «بعضُ الأشياء لا يعرفُ المرء لماذا يقوم بها»، ماذا أعرفُ أنا؟ لكنني قلتُ لعمّي، «إنّه فقط يقوم بها، يا عم مونتي. ولا يستطيع إلّا أنْ يقوم بها».

قال لألفن «لا تستطيع إلّا أنْ تقوم بها، يا فيلي، عندما تكون منعزلاً مُحترفاً. والآن ماذا ستفعل؟ ستبقى مُستلقياً هكذا وتعيش على راتب الإعاقة؟ أم ستعيش كمُحتال عاثر الحظ؟ أم ربما سوف تفكّر في إعالة نفسك كما نفعل نحن الحمقى كلنا؟ هناك عمل ينتظرك في السوق حالما تنهض من السرير. سوف تبدأ من الصِفر، ترش الأرضيّة وتعتني بالبندورة، سوف تبدأ من الصِفر مع الذين يجرّون عربات الأمتعة والحمّالين، ولكن يمكنك أنْ تعمل عندي، وسوف تتلقّى أجرك أسبوعيّاً. سوف تتلقّى نصفه في محطة البنزين، لكنني سوف أرافقك في كل مكان على أيّة حال لأنكَ ما زلت ابن جاك، وأنا أفعل ذلك إكراماً لأخي جاك. لم أكن لأصل إلى ما وصلتُ إليه لولا جاك. لقد علَّمني جاك مجال الإنتاج ومن ثم توفي. تماماً كما أراد شتاينهايم أنْ يُعلِّمني تجارة البناء. ولكن ليس لديْك مَنْ يُعلِّمك، أيها المنعزل. اترك شتاينهايم. إنها مهمّة تفوق قُدرة آبيه شتاينهايم. وحده هتلر كبير ويناسب ألفن روث».

في المطبخ، وداخل درج يضمُّ مسّاكات ومقياس حرارة الفرن، كانت

أمي تحتفظ بإبرة طويلة صلبة وبخيطان ثقيلة من أجل خياطة الديك الرومي الخاصّ بعيد الشُكر بعد حشوه. كانت أداة التعذيب الوحيدة التي نملكها في اعتقادي، بغضّ النظر عن العصّارة، وأردتُ أنْ أدخل وأُحضِرها لأستخدمها في إغلاق فم عمي.

عند باب غرفة النوم، وقبلِ الذهاب إلى السوق، التفتَ مونتي إلى الخلف لكي يُلخِّصَ ما قال. إنَّ المُتنمّرين يُحبّون أنْ يُلخِّصوا. التلخيص الموبِّخ المُسهَب - الذي لا يُضاهيه إلّا النقد اللاذع على الطريقة القديمة. «لقد خاطر رفاقك بكل شيء لكي يُنقذوك. غامروا وأخرجوك من تحت قصف النار. ألم يفعلوا؟ ومقابل ماذا؟ ألكي تقضي ما تبقّى من حياتك في لعب النرد مع مارغوليس؟ أم لتلعب الورق في فناء المدرسة؟ أمْ لتعود إلى محطة بيع الوقود وتسرق كل ما مع سيمكوفيتش؟ إنك ترتكب كل الأخطاء المعروفة. إنَّ ما تقوم به تنفّذه بطريقة خاطئة. حتى إطلاق النار على الألمان قمتَ به بصورة خاطئة. ما السبب؟ لماذا تتخلّى عن الناس؟ لماذا تبصق؟ الرجل ميتْ أصلاً - وتبصق عليه؟ لماذا؟ لأنَّ الحياة لم تُقدَّم لك على طبق من فضّة كما قُدِّمَتْ إلى باقي آل روث؟ إنني لولا جاك، يا ألفن، ما وقفتُ هنا أُبدِّدُ أنفاسي. أنتَ لم تكسب أي شيء. فلنكن واضحين حول هذا. لا شيء. لقد بقيتَ بمنزلة كارثة طوال أربعة وعشرين عاماً. إنني أفعل هذا إكراماً لوالدك، يا بُنيّ، وليس من أجلك. أفعل هذا من أجل جدّتك. إنها تقول لي «ساعد الفتى»، وها أنا أمدّ لك يد العون. وحالما تُدرك كيف تصنع قَدَرَك، تعالَ إليّ على ساقك الاصطناعيّة وسوف نتحدث».

لم يصرخ ألفن، ولم يسبّ، ولم يتذمّر، حتى بعد أنْ خرج مونتي من الباب الخلفيّ وركب سيارته وكان يمكن أنْ يُطلِق كل أفكاره الشريرة. وفي ذلك اليوم كان قد تمادى كثيراً ولم يعُد مُضطراً إلى الصياح. أو حتى إلى الانهيار. أنا فقط فعلتُ ذلك، بعد أنْ رفضَ أنْ يفتح عينيه وينظر إليّ عندما ناشدته أنْ يفعل؛ أنا فقط انهرتُ، عندما أصبحتُ وحديَ لاحقاً في

المكان الوحيد من المنزل الذي كنتُ أعلم أنَّ في استطاعتي أنْ ألجأ إليه وأكون منفصلاً عن الأحياء وعن كل ما لا يستطيعون إلّا أنْ يقوموا به.

-5-

آذار (مارس) 1942 – حزيران (يونيو) 1942

لم يحدث من قبل

إليك كيف طفحَ كيل ألفن مع ساندي.

قبل أنْ تترك أمي ألفن في صباح أول يوم إثنين بعد عودته، دفعته إلى أنْ يعِد باستخدام عكّازه حتى يبرأ وإلى أنْ يذهب أحدنا إلى المنزل ليُحضره له. لكنَّ ألفن كره كثيراً أنْ يسير على العكّاز إلى درجة أنّه رفضَ أنْ يستسلِم حتى وهو وحده للدعم الذي يوفّره له. وليلاً، عندما أوينا إلى سريرينا وأُطفئت الأنوار أثار ألفن ضحكي عندما شرح لي لماذا استخدام العكّاز ليس بالأمر البسيط كما تصوّرتْ أمي. قال ألفن «إنك تذهب إلى الحمّام فتجد أنّه قد سقط. وهو دائماً يُقعقع. دائماً يُصدر ضجيجاً مُزعجاً. وتذهب إلى الحمّام، وأنت تستخدم ذلك العكّاز، وتحاول أنْ تُخرِج أيرك، فلا تستطيع أنْ تُخرِج أيرك لأنَّ العكّاز يُعيقك. يجب أنْ تتخلّص من العكّاز. ثم تقفُ على ساقٍ واحدة. وهذا ليس مريحاً. وتميل على هذا الجانب أو ذاك، ويتبعثر البول في كل الاتّجاهات. إنَّ والدك يطلب مني أنْ أتبوّل وأنا جالس. أتعلم ماذا قلتُ؟ «سوف أجلس عندما تجلس أنت، يا هرمان». عكاز لعين. تقف على ساقٍ واحدة. وتُخرِج أيرك. يا إلهي. إنَّ التبوُّل عملية شاقّة جداً». إنني أضحك الآن ضحكاً لا أستطيع التحكُّم فيه ليس لأنَّ القصّة مُضحكة جداً وأنّه كان يسردها بشبه همس في الغرفة

المُظلِمة، فقط، بل لأنه لم يحدث من قبل أنْ كشفَ رجل عمّا يحدث معه لي بتلك الطريقة، مُستخدِماً الكلمات المُحرَّمة بكل حرّية والنكات البذيئة أيضاً. قال ألفن «هيا، اعترف، يا فتى - إنَّ التبوُّل ليس بالأمر السهل كما يبدو».

وتصادفَ أنّه في صباح يوم الإثنين كان وحده، حين كان البتر يُعتبَر خسارة لا تُعوَّض وافترَضَ أنّه سوف يُعيق حركته ويُسبّب له العذاب إلى الأبد، وتحمّل العذاب الذي لم يكن أحد غيري في العائلة يعلم به. وقفَ مُستنداً إلى مغسلة المطبخ طرف جدعته كان الأسوأ لكي يشرب كوباً من الماء، من دون مُساعدة عكّازه. وعندما استدار لكي يعود إلى غرفة النوم نسيَ (لكلّ الأسباب الممكنة) أنَّ لديه فقط ساقاً واحدة، وبدل أنْ يتقدَّم قفزاً، فعل كما يفعل كل شخص في بيتنا - بدأ يمشي وطبعاً انكفأ ووقع. والألم الذي كان ينبثق من طرف جدعته كان أسوأ من ذاك المنبثق من الجزء المفقود من ساقه - ألمٌ، كما شرح ألفن لي بعد أنْ رأيته أول مرة يستسلم لحِصار في السرير المُجاور لسريري، «يقبضُ عليك ولا يتركك»، على الرغم من عدم وجود عضو يُسبِّبه. قال ألفن عندما حان الوقت لأطمئنه بما يُشبه الملاحظة الهزليّة، «هناك ألم حيث تكون، وهناك ألم حيثُ لا تكون. لا أعلم مَنْ قال هذا».

كانت المُستشفيات الإنكليزيّة تُعطي المُعاقين المورفين للسيطرة على الألم. وأخبرني ألفن «والمريض دائماً يطلب منه المزيد، وكلما طلب تزوّده المستشفى به. ويضغط على الزر ليستدعي الممرضة وعندما تحضر يصرخ «مورفين، مورفين»، ثم يزول الألم تماماً». سألتُه «كم عانيتَ من الألم وأنت في المستشفى؟»، «لا يُستهان به، يا فتى»، «أكان أسوأ ألم عانيتَ منه؟»، أجابَ «أسوأ من ذلك الألم الذي داهمني عندما أغلقَ والدي باب السيّارة على إصبعي وأنا في السادسة من العمر» وضحك، وضحكتُ أنا أيضاً. «وقال والدي - عندما رآني أبكي بعنف، بسبب ذلك الشيء الصغير القذر بذلك الصوت المرتفع - قال والدي «كفاك بكاءً،

فذلك لا ينفع البتّة»». وقال ألفن، وهو يضحك بهدوء من جديد، «وكان ذلك الكلام ربما أسوأ من الألم. وكان آخر ما أتذكّره عنه، أيضاً. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم انكفأ على نفسه ومات».

عندما كان ألفن يتلوّى من الألم وهو على أرضيّة المطبخ، لم يكن لديه أحد يلجأ إليه طلباً للمساعدة، ناهيك عن طلب جرعة من المورفين؛ كان الجميع غائبين إما في المدرسة أو في العمل، وهكذا، في الوقت المُحدَّد، اضطرّ إلى أنْ يتلمّس طريقه عبر المطبخ والرواق إلى سريره. ولكن حالما بدأ ينهض عن الأرض، لمح إضبارة لوحات ساندي. كان ساندي لا يزال يستخدم الإضبارة للاحتفاظ برسوماته الكبيرة بأقلام الرصاص والفحم بين الورق الشفّاف ولكي يحملها معه عندما يريد أنْ يعرض رسوماته على أحدهم. وكانت كبيرة جداً ولا يمكن الاحتفاظ بها في الصالون المُشمس، ولذلك تركها في غرفتنا. وقام ألفن بدافع من الفضول الصِرف بإخراج الإضبارة من تحت السرير، ولكنْ لأنه لم يكن قادراً على أنْ يُقرِّر في الحال الغرض منها - ولأنه كان يرغبُ بشدّة في أنْ يندسّ بين الأغطية - كان لديه استعداد لنسيان هذا الأمر عندما لاحظ الشريط الذي يربط دفّتيها معاً. كان الوجود بلا قيمة، والعيش لا يُطاق، وهو ما زال يُعاني ألماً ممضّاً من تلك الحادثة المتهورة التي وقعتْ عند مغسلة المطبخ، وهكذا ومن دون سبب خِلاف إحساسه بالعجز في الاستمرار في إنجاز مهمّة جسديّة بنجاح، عبثَ بالأشرطة إلى أنْ حلَّ عقدتها.

وجدَ في الداخل ثلاث لوحات شخصيّة لتشارلز أ. ليندبرغ بوصفِهِ طيّاراً، وهي اللوحات التي كان ساندي قد قال لوالديه إنّه دمّرها قبل عامَين مع تلك التي رسمها بتوصية من العمّة إيفلين حالما أصبح ليندبرغ رئيساً للجمهوريّة. ولم أكن قد رأيتُ الصور الجديدة إلّا مرة واحدة عندما صحبتني خالتي إيفلين معها إلى نيو برونسويك لكي نستمع إلى ساندي وهو يُلقي خِطاب تجنيده في برنامج «أناس عاديون» في الطابق التحتيّ من الكنيس. «هذه اللوحة تبيِّن الرئيس ليندبرغ وهو يوقِّع على قانون

التجنيد الإلزامي العالمي، الذي وُضِعَ من أجل إبقاء أميركا في حالة سِلم من خلال تعليم شبابنا المهارات الضروريّة لحماية الأمّة والدفاع عنها. وهذه اللوحة تبيِّن الرئيس يقفُ أمام لوحة التخطيط، يُضيف اقتراحاته الملاحيّة على أحدث قاذفة قنابل تُصممها الأمّة. وهنا أرسمُ الرئيس ليندبرغ يقضي وقت فراغ في البيت الأبيض مع كلب العائلة».

تفحَّصَ ألفن كلاً من صور الرئيس ليندبرغ، التي عُرِضَتْ كمُقدّمة لخطاب ساندي في نيو برونسويك، على أرض غرفة النوم. ثم قام، على الرغم من الحافز إلى التدمير الذي أثارته ملاحظته للبراعة الفائقة التي نُفِّذَت بها تلك الرسوم الجميلة، بوضعها بين الأوراق الشفّافة وأقحم الإضبارة من جديد تحت السرير.

حالما أصبحَ ألفن يخرج ليتمشّى في الجوار، لم يعُد يعتمد فقط على الرسوم التي وضعها ساندي لليندبرغ ليُدرِك أنّه، بينما كان هذا الأخير يشنُّ غارات على مستودعات الذخيرة في فرنسا، تمَّ قبول خليفة روزفلت الجمهوريّ، حتى وإنْ لم يكن يحظى بثقة اليهود التامّة، بوصفِهِ معقولاً في الوقت الحاضر حتى بين صفوف جيراننا الذين كانوا قد بدأوا بكراهيته بعُنف كما فعل والدي. وألحَّ والتر وينتشل في الهجوم على الرئيس في برنامجه الإذاعي ليلة يوم الأحد، واستمع أهل الحيّ كلهم إليه لكي يُصدِّقوا، عبر استماعهم، على تأويلاته المُرعبة لسياسات الرئيس، ولكنْ بما أنَّه لم يتلاش أيٌّ من مخاوف جيراننا منذ تنصيبه رئيساً، بدأوا يؤمنون وببطء بتطمينات الحاخام بينغلسدورف المتفائلة أكثر من إيمانهم بتنبؤات وينتشل الجريئة. وليس الجيران فقط بل القادة اليهود في كل أرجاء البلاد بدأوا يعترفون علناً بأنَّ حاخام نيوارك ليونيل بينغلسدورف، بغضّ النظر عن خيانته لهم لأنّه صادقَ على ليندي في انتخابات عام 1940، كان بصيراً بما يكفي ليرى إلى أين تتجّه الأمّة وأنَّ تبوءه دكتاتوريّة مكتب الاستيعاب الأميركيّ – ومركز المُستشار الأول للإدارة الرئاسيّة في الشؤون اليهوديّة

- كان النتيجة المُباشَرة لفوزه ببراعةٍ بثقة ليندبرغ بوصفه أوّل الداعمين له. وإذا كان قد تمَّ تحييد النزعة المُعادية للساميّة عند الرئيس (أو استئصالها، بتعبير أكثر تميُّزاً)، فإنَّ اليهود كانوا راغبين في عزو المعجزة إلى تأثير الحاخام المُبجَّل الذي سوف يُصبح قريباً - وهذه مُعجزة أخرى - نسيباً لساندي ولي عبر صِلة الزواج.

وذات يوم من أوائل شهر آذار (مارس) مشيتُ، من دون دعوة، إلى آخر الشارع الذي يؤدّي آخره إلى ملعب المدرسة حيث كان ألفن قد بدأ يلعب رمي النرد والورق عندما يكون الجو دافئاً بقدرٍ كافٍ ولا تُمطِر. كنتُ نادراً ما أجده في المنزل لدى عودتي من المدرسة، وعلى الرغم من أنّه كان في العموم يؤم المنزل بحلول الساعة الخامسة والنصف لتناول العشاء، فإنه بعد تناول الفاكهة كان يخرج إلى بائع سجق قريب من منزلنا ليُقابل أصدقاءه القُدامى من أيام المدرسة، وكان عددٌ منهم يعملون في محطة وقود يمتلكها سيمكوفيتش وطُرِدوا منها وكان معهم لأنهم سرقوا صاحب العمل. وعندما عاد ليلاً كنتُ قد نمتُ، ولم أفتح عينيّ إلّا عندما خلع ساقه وبدأ يقفز جيئة وذهاباً إلى الحمّام ومنه وتمتمتُ اسمه قبل أنْ أستغرق في النوم من جديد. وبعد حوالي سبعة أسابيع من انتقاله إلى السرير المُجاور لسريري، لم أعُد ضروريّاً وسرعان ما وجدتُني محروماً منه كبديل فاتن كما كان هو بالنسبة إلى ساندي، واختفى ألفن من جواري لينتقل إلى نجوميّة صاحب العقل الموجِّه بالنسبة إلى ساندي على يد الخالة إيفلين. والمنبوذ الأميركيّ المبتور والمتألِّم الذي لاحَ بالنسبة إلي أضخم من أي رجل قابلته في حياتي، بمن فيهم والدي، الذي انتقلَ كفاحه الحماسيّ إليّ، والذي أغضبني مستقبله في الوقت الذي كان ينبغي أنْ أُصغي إلى الأستاذ في المدرسة، بدأ يُصاحِب الفاشلين أنفسهم الذين عملوا على تحويله إلى لصّ حقير وهو في سن السادسة عشرة. وبدا أنّ ما فقدَه في المعركة، بالإضافة إلى ساقه، كان كل عادة محترمة انغرستْ فيه

عندما كان يعيش بوصفه تحت وصاية والديّ. ولم يُبدِ أيّ اهتمام بمحاربة الفاشيّة التي، قبل ذلك بعامَين، لم يكن في استطاعة أحد أنْ يمنعه من الانضمام إليها. وفي الحقيقة، إنَّ السبب في خروجه من المنزل في كل ليلة والانطلاق في الجوار على ساقه الاصطناعيّة كان وإلى حدٍ بعيد، في البداية على أيّة حال، تجنُّب الاضطرار إلى الجلوس في غرفة الجلوس في أثناء قراءة والدي أخبار الحرب في الصحيفة بصوتٍ مرتفع.

لم تُشنّ حملة ضد قِوى المحور إلّا وأثارت قلقَ والدي، خاصة عندما كانت الأمور تتّخذُ مساراً سيئاً بالنسبة إلى الاتّحاد السوفيتي وبريطانيا العُظمى وكان جليّاً مدى حاجتهما إلى الجيوش الأميركيّة التي حظر ليندبرغ ومجلس الشيوخ الجمهوريّ إرسالها. وبحلول ذلك الوقت بات في استطاعة والدي أنْ ينشر مفردات اختصاصيّ في استراتيجيّة الحرب ببراعة خبير عندما يُسهِب في الكلام عن حاجة البريطانيين، والأستراليين والهولنديين إلى منع اليابانيين - الذين، باجتياحهم جنوب شرق آسيا - أبدوا كل القسوة المُبرّرة للمتفوِّق عِرقيّاً - من الامتداد غرباً إلى الهند وجنوباً إلى نيوزيلندا ومنها إلى أستراليا. وخلال الأشهر الأولى من عام 1942 كانت أخبار حرب المحيط الهادئ التي قرأها على مسمعنا سيئة بانتظام: كان هناك الاجتياح الياباني الناجح لبورما، والاحتلال الياباني لملايو، والقصف الياباني لغينيا الجديدة، بعد الهجمات البحريّة والجويّة اليابانيّة المُدمِّرة وأسر عشرات الآلاف من القوات البريطانيّة والهولنديّة على الأرض، وسقوط سنغافورة، وبورنيو، وسومطرة، وجاوة. لكنَّ أشدّ ما أزعج والدي كان تقدُّم الحملة الروسيّة. وقبل ذلك بعام، عندما بدا أنَّ الألمان على شفا اجتياح كل مدينة كبيرة في النصف الغربيّ من الاتحاد السوفيتي (بما فيها كييف، التي هاجر من ضواحيها جدّاي لأمي إلى أميركا في تسعينيات القرن التاسع عشر)، وأضحتْ أسماء مُدُن روسيّة أقلّ قيمة كبيتروزافودسك، ونوفغورود، دنيبروبتروفسك، وتاغانروغ، مألوفة لديّ على غرار أسماء الولايات الثماني والأربعين. وفي شتاء عام 1941-42

أعدّ الروس العدّة لتوجيه ضربات مُضادة مستحيلة لكسر حصار لينينغراد، وموسكو، وستالينغراد، ولكن مع حلول شهر آذار (مارس) كان الألمان قد تجمّعوا من جديد بعد الكارثة التي حلّتْ بهم في الشتاء وعزّزوا قوتهم، كما يظهر من تحرّكات القوّات التي بيّنتها صحيفة *نيوارك نيوز*، استعداداً لشن هجوم في الربيع لغزو القوقاز. وشرح والدي قائلاً إنَّ سبب توقُّع أنْ يكون الانهيار الروسيّ هائلاً هو أنّه سوف يُظهِر للعالم استحالة اختراق آلة الحرب الألمانيّة. كانت الموارد الطبيعيّة الشاسعة للاتحاد السوفييتي سوف تسقط بين أيدي الألمان وسوف يُجبَر الشعب الروسيّ على خدمة الرايخ الثالث. والأسوأ بالنسبة «إلينا» كان أنّه مع تُقدُّم الألمان شرقاً سوف يرضخ الملايين من اليهود الروس لسيطرة جيشٍ مُحتلّ مُجهَّز بكل الوسائل لكي يُنفِّذ برنامج هتلر التحريريّ لتخليص الإنسانيّة من براثن اليهود.

ووِفقاً لوالدي، كان الانتصار الوحشيّ للروح العسكريّة المُضادة للديمقراطيّة ساحقاً في كل مكان، وأوشكت مذبحة اليهود الروس، بمَنْ فيهم أفراد عائلة أمي الممتدّة، أنْ تقع، ولم يُبدِ ألفن أدنى قدر من الاهتمام. فهو لم يعُد يحمل على كاهله همَّ مُعاناة أي شخص غير نفسه.

وجدتُ ألفن راكعاً على رُكبة الساق السليمة، يحمل حجر النرد بيد وإلى جواره حزمة من الأوراق الماليّة مُؤمَّنة بقطعة خشنة من الإسمنت. بدا، بالجزء الاصطناعيّ البارز أمامه، كمَنْ يؤدي رقصة القرفصاء الروسيّة على تلك الإيقاعات السلافيّة الراقصة المجنونة. وكان هناك ستة آخرون من المُقامرين متحلّقين عن قُرب حوله، وثلاثة ما زالوا يلعبون، ويقبضون على ما تبقّى لديهم من نقود، واثنان أفلسا وما زالا يقفان في الجوار - تذكّرتُ بصورة مُبهمة أنهما كانا من اليهود الفاشلين وأصبحا الآن في العشرينيات من العمر - والفتى صاحب الساقين الطويلتين يُهيمن عليهم، اتّضحَ أنّه

«شريك» ألفن، شوشي مارغوليس، يرتدي سترة زوت[29] وذو بُنية قويّة ومشية منسابة، متسكّع من أيام عمل ألفن في محطة الوقود وكان والدي يكنّ له كل الاشمئزاز. كان شوشي معروفاً لنا نحن الأطفال بأنّه ملك لعبة الكرة والدبابيس لأنَّ لديه عمّاً يتباهى به كان هو ملك لعبة الكرة والدبابيس – وكان أيضاً ملكاً في الألعاب غير الشرعيّة كلها في فيلادلفيا، حيث كان يُهيمن – وأيضاً بسبب الساعات التي أمضاها في تسجيل العديد. من النقاط بضرب آلات الكرة والدبابيس في محلات بيع السكاكر المجاورة، فيدفع الآلة، ويسبّها، ويهزّها بعنف من جانب إلى جانب إلى أنْ ينتهي اللعب إما بومض الأضواء المُلوّنة بعبارة «نهاية اللعبة» أو بطرد صاحب المتجر له من المحل. وكان شوشي هو الممثل الهزلي المشهور الذي يُسلّي المُعجبين به برمي أعواد الثقاب المُشتعلة في فوهة علبة البريد الكبيرة الخضراء وهو يضحك أيام المدرسة، وذات مرة أكل حشرة حيّة على رهان، وخلال فترة دراسته القصيرة كان يُحبّ أنْ يُضحِك حشداً مُتجمّعاً خارج محل بيع سجق بالمشي مترنّحاً في جادة تشانسلر رافعاً إحدى يديه ليوقِف حركة المرور – يمشي ويعرج، بحركة مأساويّة، مع أنه سليم. في ذلك الوقت كان قد تجاوز الثلاثين من العمر ولا يزال يُقيم مع والدته الخيّاطة في إحدى الشُقق الصغيرة الكائنة في قمة منزل يتّسِع لعائلتين ونصف بجوار كنيس في شارع وينْرايتْ. وكانت أمي قد حملتْ بنطلون ألفن إلى والدة شوشي، والمعروفة للجميع تعاطُفاً بلقب «المسكينة السيدة مارغوليس»، لكي تركّب له سحّاباً – لُقِّبَت بالمسكينة السيدة مارغوليس ليس لأنّها تحمّلتْ فقط حياة الأرملة وتعمل مقابل أجور زهيدة لمصلحة صانع ملابس نسائية هو داون نيك، بل لأنَّ ابنها المحتال لم يستطع أنْ يحتفظ بأي عمل خِلاف عمله كساعٍ عند وكيل مُراهنات يعمل خارج مكتب المراهنات القريب من منزله ومن الميتم الكاثوليكي في جادّة ليونز.

29- سترة زوت: بذلة رجاليّة تتألّف من صدرة قصيرة وسترة طويلة تصل حتى الرُكبتين وبنطلون ضيِّق. – المترجم

كان الميتم يقع بجوار كنيسة القديس بطرس، الأبرشية التي احتكرت بصورة غريبة ما يُقارب ثلاثة أبنية مُربّعة في قلب حيّنا العصيّ على الخلاص. الكنيسة نفسها كان يعلوها برج ناقوس طويل وبرج آخر أطول منه في أعلاه صليب ينهض بقُدسيّة فوق أسلاك الهاتف. ومحلياً لم يكن هناك مبنى بذلك العلوّ يمكن رؤيته إلّا بعد أنْ تتقدَّم حوالي الميل على تل جادة ليونز نحو مسقط رأسي، مستشفى بيت إسرائيل، حيث وُلِدَ أيضاً كل صبي أعرفه، وفي سن ثمانية أيام، يُختَن في حرم المُستشفى. وكان هناك بمُحاذة برج ناقوس الكنيسة برجان أصغر حجماً لمْ أهتمّ بتفحّصهما لأنَّه قيل أنَّ وجوه القديسين المسيحيين حُفِرَتْ في الحجر، ونوافذ الكنيسة العالية والضيقة، ذات الزجاج المُلوَّن، تحكي حكاية لم أرغب في معرفتها. وبالقُرب من الكنيسة كان هناك منزل صغير للقسّ؛ وكأي شيء آخر قائم ضمن أعمدة السياج الحديديّة السوداء لهذا العالم الغريب بُنِيَ خلالَ الردح الأخير من القرن السابق، قبل بضعة عقود من بناء أول منازلنا وقبل أنْ تتخذ الحافة الغربيّة للحيّ اليهوديّ شكلها بوصفها الجبهة اليهوديّة لنيوارك. وخلف الكنيسة كانت تقع مدرسة متوسطة للأيتام - عددهم يبلغ حوالي المئة - مع عدد أقلّ من الأطفال المحلّيين الكاثوليك. وكانت تُدير المدرسة والميتم مجموعة من الراهبات الألمانيات، كما أتذكَّر أنّه قيل لي. والأطفال اليهود الذين تربّوا حتى في بيوت يسودها التسامُح كبيتنا كانوا في المُعتاد يجتازون الشارع في المناسبات النادرة التي رأيناهم فيها يفعلون ذلك مندفعين بسرعة في طريقنا بملابسهم التي تُشبه ملابس الساحرات، ويذكر التراث العائلي أنّه عندما لمح أخي، وهو طفل صغير جالس وحده على عتبة منزلنا الأماميّة بعد ظهيرة أحد الأيام، اثنين منهم يقتربان من جهة جادّة تشانسلر، هتف بإثارة لأمي «انظري، ماما - المجانين».

كان الدير يقوم بجوار مأوى الأيتام. وكان الاثنان بناءين من القرميد الأحمر البسيط، وفي نهاية يوم صيفيّ يلمح المرء الأيتام - وهم أطفال من البيض، فتيات وفتياناً، تتراوح أعمارهم بين السادسة والرابعة عشرة -

جالسين خارج المنازل على سلّم الحريق. ولا أتذكَّر أنني شاهدتُ الأيتام ضمن جماعات في أي مكان آخر، وحتماً ليس وهم يركضون بحريّة في الشوارع كما كنا نفعل نحن. كان حشدٌ منهم يُربكني كما يُربكني الظهور المُزعج للراهبات، لأنهم كانوا بالدرجة الأولى يتامى ولكن أيضاً لأنه كان يُقال إنهم «مُهمَلون» و«مُعوزون».

في خلفيّة ردهة المنزل، وخِلافاً لأي شيء يمكن مشاهدته في حيّنا - أو في أي مكان آخر في مدينة صناعيّة يقتربُ عدد سكّانها من نصف مليون - كانت هناك حديقة لزرع الخضار من النوع الذي جعل من نيو جيرزي «الولاية الحديقة» حين كانت مزارع خضار العائلة المتماسكة التي تدرّ ربحاً قليلاً تميِّز المراكز الهامة الريفيّة المتخلِّفة في الولاية. كان الطعام الذي يُزرَع ويُحصَد في كنيسة القديس بطرس يذهب من أجل تغذية الأيتام، والراهبات، والمونسيور العجوز المسؤول، ومساعده الكاهن الشاب، وبمساعدة الأيتام، كان يعمل في الأرض مُزارع ألمانيّ مُقيم اسمه تيميس - وإذا لم تخُني الذاكرة فإنَّ هذا أيضاً كان اسم مونسنيور كنيسة القديس بطرس، الذي أدار المكان على مدى سنين طويلة.

في مدرستنا الابتدائيّة الحكوميّة التي تبعُد أقل من ميل أُشيعَ أنَّ الراهبات اللائي كنّ يُدرّسن الأيتام في الصف كنَّ يضربن بانتظام أشدّهم غباءً على الأيدي بمساطر من خشب وذلك عندما تكون إساءة الصبي منهم من الفظاظة بحيث يستحيل تحمُّلها فيُستدعى مُساعد المونسنيور لكي يضربه على مؤخرته بالسوط نفسه الذي كان المُزارع يستخدمه لضرب حصانيّ الشغل المتوانيين المُرهقَين اللذَين يجرّان المحراث من أجل الزراعة في الربيع. وكنا جميعاً نعرف ذينك الحصانين ونُميِّزهما لأنهما كانا بين حينٍ وآخر يتمشّيان معاً عبر المزرعة نحو المرج المُشجَّر على الطرف الجنوبيّ من ملاك كنيسة القديس بطرس ويُبرزان رأسيهما بفضول من فوق البوابة التي تنفتح في الخلف على جادّة غولدسميث، حيث كانت لعبة النرد التي صادفتُها تجري على قدم وساق.

كان هناك سياج من حلقات سلسلة ارتفاعه حوالي سبعة أقدام عند حافة أرض الملعب على الجانب القريب من جادة غولدسميث وسياج من الأسلاك مع قوائم عند الحافّة المُشجَّرة من مزرعة الخضار على الجانب البعيد، وبما أنّه لم يُقَم أي منزل في أي موقع قريب ولم يكن هناك أي مُشاة أو حركة مرور تستحق الذِكر، كانت تتوفر هناك عزلة مريحة تكاد تكون حِرجيّة من أجل الحفنة القليلة من فاشلي الحيّ لكي يستمدّوا مُتعهم بعيداً عن الأذى. وأقرب نقطة وصلتُ إليها من تلك الاجتماعات السرّية قبل ذلك كانت عندما اضطررتُ، خلال مباراة جرت في الملعب، إلى ملاحقة كرة تدحرجتْ إلى حيث يتجمّعون كلهم معاً خارج السياج مباشرة، يتبادلون الألفاظ النابية ويوفّرون الكلام المعسول لوقت لعب النرد.

أنا لم أكنْ مُناوئاً لرمي النرد، وناشدتُ ألفن ذات يوم كي يُعلّمني طريقة اللعب عندما كان لا يزال يستخدم العُكّاز وكانت أمي قد أمرتني بمرافقته عندما يذهب إلى موعده مع طبيب الأسنان وأقوم ببعض المهام كإسقاط النقود في صندوق الأجرة وأُمسك بالعُكّاز عندما يقفز إلى الشارع من باب الحافلة الخلفي. وفي تلك الليلة، بعد أنْ أوى الجميع إلى النوم وأطفأنا مصباح الطاولة على الحامل بين سريرينا، راح يُراقبني مبتسماً، وأنا أهمس، على ضوء مصباحي الومضي، «كن طيّباً أيها النرد» ورميتُ من دون إحداث ضجيج النرد وحصلتُ على التوالي على رقم سبعة ثلاث مرات على الغطاء. ولكن وأنا أراقبه الآن وهو بين براثن أشخاص أدنى منه قيمة، وتذكّرتُ كل ما ضحّتْ به عائلتنا لمنعه من أنْ يتحوّل إلى نسخة من شوشي، تبرزُ بقذارة في ذهني كل بذاءة تعلّمتها بوصفي شريكه في الغرفة. ولعنتُه بالنيابة عن والدي، وأمي، وخاصّة عن أخي المنبوذ – أمن أجل هذا اتّفقنا جميعاً على تحمُّل سلوك ألفن البغيض مع ساندي؟ أليس من أجل هذا هرب لكي يُشارك في الحرب؟ قلتُ في نفسي «خُذ ميداليتك اللعينة، وارمها!». ليته فقط يتعلّم درسه بفقد كل قرش من راتب الإعاقة، لكنّه في الواقع لا يستطيع أنْ يمتنع عن الربح، ولا يستطيع أنْ

يمتنع عن التخلّي عن الرغبة في أنْ يُصبح من جديد بطلاً في عين أي شخص، وبما أنه حصَدَ مبلغاً كبيراً من المال، حمل حجر النرد إلى شفتيه، وبصوت وقور قصدَ به أنْ يكون مُضحِكاً لأصدقائه، أمرني «انفخ عليه - يا حبيبي»، فنفختُ، ودحرجه وربح من جديد. سألني «ستة وواحد - ما مجموعهما؟» أجبتُ طائعاً «سبعة. بالطريقة الصعبة».

مدَّ شوشي يده لكي يعبث بشَعري وبدأ يصفني بجالب الحظ لألفن: وكأنَّ عبارة «جالب الحظ» يمكن أنْ تُنجِز ما كنتُ قد صممتُ على أنْ أكون بالنسبة إلى ألفن منذ أنْ حلَّ بيننا، وكأنَّ كلمة جوفاء وصبيانيّة يمكن أنْ تُبرِّر تعليقي ميدالية الملك جورج الخاصة بألفن على قميصي التحتيّ. كان شوشي يرتدي بذلة من قماش الغبرداين المتين مزدوجة الصدر بلون الشوكولاتة، مع بنطلون واسع من الأعلى وضيّق في الأسفل، مع حشوة على الكتفَين وطيّة صدر مزخرفة، وهي الهيئة المُفضَّلة لديه للظهور في أي مكان يذهب إليه في الحيّ وهو يُفرقِع بإصبعيه - وأيضاً، وحسب تعبير أمي «يُبدّد حياته» - في حين أنَّ أمّه، هناك في شقّتهم الصغيرة في العلّيّة، تُزركش مئات الأثواب في اليوم لكي تُسدِّد فواتير العائلة.

وعندما يخسر ألفن خانته، كان يجمع أرباحه كلّها ويحشرها في جيبه مُتفاخراً - هذا الرجل الذي سطا على المصرف الكائن خلف المدرسة الثانوية. ثم، يقبض على سلسلة السياج وينهض واقفاً على قدميه. وعلِمتُ (ليس فقط من مراقبة الطريقة المُعذِبة التي بدأ يعرج بها لكي ينطلق في طريقه) أنَّ بثرة كبيرة انبجست على جدعته في الليلة السابقة وأنه لم يكن في أحسن أحواله في ذلك اليوم. لكنّه كان يرفض أنْ يراه أي شخص خارج أفراد العائلة يسير على عكّاز، وقبل أنْ ينضم إلى شوشي السيئ السُمعة - ويقضي يوماً آخر وهو يُنكِر بصخب كل المُثُل العليا التي جعلتْ منه شخصاً مُعاقاً - شدَّ الجدعة داخل الجزء الاصطناعيّ ولكن مع كثير من الألم.

كل ما قال على سبيل التذمُّر وهو يقترب ليضع يده على كتفي «لعنة الله على صانع الساق».

همستُ «هل أستطيع أنْ أذهب إلى المنزل الآن؟».

«حتماً، ولِمَ لا؟» ثم أخرج ورقتين نقديّتين قيمة كلٍ منهما عشرة دولارات من جيبه - أي حوالي نصف راتب والـدي الأسبوعي - وبسطهما على راحة يدي. لم تبدُ النقود قبل ذلك شيئاً حيّاً هكذا.

بدل أنْ أعود عبر أرض الملعب، طرقتُ درباً أطول قليلاً إلى المنزل، متقدِّماً إلى أسفل تل جادّة غولدسميث نحو شارع هوبْسون بحيث كان في وسعي أنْ أُلقي نظرة عن قُرب على حصانيّ الميتم. لم أكن قد جرؤت على مدّ يدي ولمسهما، وقبل ذلك اليوم لم أُحدثهما كما يفعل بقيّة الأطفال، مُطلقين بسخرية على ذينك الحيوانين المُلطّخين بالطين اللذين يُريّلان لُعاباً لزجاً «أوماها» و«ويرلاواي»، وكانا اسميّ اثنين من أعظم مَنْ ربح سباق كينتكي للخيول في وقتنا.

توقفتُ على مسافة آمنة من حيث كانت العيون اللامعة القاتمة التي تحمل نقشاً بارزاً تُحدِّقُ من فوق سياج الميتم، تراقب بجمود من خلال رموشها الطويلة الأرض المشاع التي تفصل معقل كنيسة القديس بطرس عن حيّ اليهود الذي يقع ما بعد الحدود. كانت السلسلة محلولة وتتدلى من البوابة. كان يكفي أنْ أرفعها على السقّاطة وأفتح البوابة واسعاً ويتحرَّر الحصانان ويخبّان مبتعدَين. كانت الغواية هائلة - كما كان الحقد.

قلتُ للحصانين «ليندبرغ اللعين، ليندبرغ ابن الحرام النازي اللعين!» ومن ثم، خشية من أنني إذا فتحتُ البوابة، وبدل أنْ يتحرَّر الحصانان يغرزان أسنانهما الكبيرة فيّ ويجرّاني إلى داخل الميتم، اندفعتُ أركض على طول الشارع، وانعطفتُ إلى شارع هوبسون، وانطلقتُ في الشارع مارّاً بصف طويل من منازل تتّسع لأربع عائلات ومنه إلى منعطف جادة تشانسلر، حيث ربّات البيوت اللواتي أعرفهن يتردّدن جيئة وذهاباً على محل البقالة والمخبز ودكان اللحّام، وصِبية أكبر سنّاً أعرف أسماءهم يمتطون دراجاتهم، وابن الخيّاط يحمل على كلتا كتفيه حملاً من الملابس

المكويّة حديثاً لتسليمها لأصحابها، وحيث ينبعث الغناء الإيطاليّ إلى الشارع من خلال باب دكان الإسكافيّ، الذي دائماً يفتح جهاز الراديو على محطة تحمل اسم الخطيب الاشتراكي اليهودي يوجين فيكتور ديبس - تقديراً للبطل الذي أُعدِمَ - وحيثُ كنتُ أشعر بالأمان من ألفن، وشوشي، والأبطال، والأيتام، والكهنة، والراهبات، وسوط المدرسة الأبرشيّة.

عندما رجعتُ أرتقي التل قاصداً المنزل اقتربَ رجلٌ أنيق بملابس رجال الأعمال وجاراني في خطوتي. كان الوقت لا يزال باكراً على العاملين المحليين للعودة إلى المنزل وتناول وجبة العشاء، ولذلك أدركتُ في الحال أنّه شخصٌ مُريب.

سألني مع ابتسامة عريضة «السيد فيليب؟ هل تستمع إلى برنامج «*مكافحو العصابات*» في الإذاعة، سيد فيليب؟ الذي يحكي عن ج. إدغار هوفر والإف بي آي؟».

«نعم».

«حسن، أنا أعمل لمصلحة السيد هوفر. إنّه رئيسي في العمل. أنا وكيل من الإف بي آي»، ثم قال، «خُذ»، وأخرجَ محفظة جيب من جيب معطفه الداخلي وبسطها لكي يُريني شارته. «بعد إذنك، أريد أنْ أطرح عليك بعض الأسئلة الصغيرة».

«لا مانع لديّ، لكنني في طريقي إلى المنزل. يجب أنْ أكون في المنزل».

وفي الحال فكّرتُ في ورقتي العشرة دولارات. إذا قام بتفتيشي، إذا كان بحوزته مُذكّرة تفتيش، ألنْ يعثُر على النقود ويزعم أنّها مسروقة؟ ألن يفعل هذا أي شخص؟ وحتى قبل عشر دقائق، وطوال حياتي، كنتُ أتنقّل بجيوب خاوية، وأمشي في الشارع لا أملك قرشاً واحداً! ومصروفي البالغ خمسة سنتات في الأسبوع كنتُ أوفّره داخل برطمان للهلام فتح ساندي شقّاً في غطائه بشفرة فتّاحة العُلب التي في سكين الكشّافة الخاصة به. والآن أنا أتنقّل وكأنني سارق بنوك.

«لا تخفْ. اهدأ، سيد فيليب. أنت استمعتَ إلى برنامج «مكافحو العصابات». ونحن إلى جانبك. نحن نحميك. أريدُ فقط أنْ أطرح بعض الأسئلة عن ابن عمك ألفن. كيف أحواله؟».

«جيدة».

«كيف حال ساقه؟».

«جيدة».

«هل هو قادر على المشي بأمان؟».

«نعم».

«أليس هو الذي رأيتُه هناك من حيثُ أتيتَ؟ ألم يكن ألفن هناك خلف أرض الملعب؟ وعلى الرصيف، ألم يكن ألفن هو الذي يُرافق شوشي مارغوليس؟».

لم أُجِب، فقال «لا بأس إذا كانا يلعبان النرد. هذا ليس جريمة. إنَّ هذا جزء من كون المرء شخصية عظيمة. لابد أنَّ ألفن مارس لعبة النرد كثيراً وهو في مستشفى الجيش في مونريال».

عندما بقيتُ ألزم الصمت، سألني «عمَّ كان الرفاق يتحدثون؟».

«لا شيء».

«إنهم يجتمعون هناك طوال فترة بعد الظهيرة، ولم يتحدثوا عن أيّ شيء؟».

«كانوا يتحدثون فقط عن مقدار خسارتهم».

«ولا شيء آخر؟ لا شيء عن رئيس الجمهوريّة؟ أنتَ تعلم مَنْ هو الرئيس، أليس كذلك؟».

«تشارلز أ. ليندبرغ».

«لم يأتوا أبداً على ذِكر الرئيس ليندبرغ، سيد فيليب؟».

أجبتُ بكل صِدق «لم أسمع شيئاً عن هذا».

ولكن ألا يمكن أنْ يكون قد سمعني أقول ما قلتُ للحصانين؟

مستحيل – لكنني بحلول ذلك الوقت كنتُ قد تيقّنتُ من أنّه على عِلم بكل تحرّكاتي منذ أنْ عاد ألفن إلى المنزل من الحرب وأعطاني ميداليته. ومن المؤكَّد أنه كان يعلم أنني أضعُ تلك الميداليّة. وإلّا لماذا كان يُدقِّق النظرّ فيّ من رأسي وحتى قدميّ؟

سألَ «ألم يتحدثوا عن كندا؟ عن الذهاب إلى كندا؟».

«كلا، يا سيدي».

«لِمَ لا تُخاطبني باسم دون؟ وأنا سأناديك فيل. أنتَ تعرِف مَنْ هو الفاشي، أليس كذلك، يا فيل؟».

«أعتقدُ ذلك».

«ألا تذكُر أنّهم أطلقوا على شخصٍ ما صِفة فاشيّ؟».

«كلا».

«لا تستعجل. لا تستعجل في الإجابة. خُذ كل ما تحتاج من وقت. حاول أنْ تتذكّر. هذا أمر هامّ. ألم يُطلقوا على أحد صِفة فاشي؟ ألم يقولوا أي شيء عن هتلر؟ أنتَ تعلم مَنْ هو هتلر».

«الجميع يعرفونه».

«هو رجل شرير، أليس كذلك؟».

قلت «نعم».

«إنّه ضد اليهود، أليس كذلك؟».

«نعم».

«مَنْ غيره مُناهِض لليهود؟».

«منظّمة البوند[30]».

سألَ «ومَنْ أيضاً؟».

كنتُ من الوعي بحيث أمتنع عن ذِكر هنري فورد، أو منظمة أميركا أولاً، أو الديمقراطيين الجنوبيين، أو الجمهوريين الانعزاليين، ناهيك عن ليندبرغ. وعلى مدى السنوات القليلة الأخيرة، كانت لائحة الأميركيين

30- البوند: منظمة اليهود الاشتراكيين في ألمانيا. – المترجم

البارزين التي سمعتها في المنزل الذين يكرهون اليهود أطول بكثير من ذلك، ومن ثم كان هناك الأميركيون العاديون، عشرات الآلاف منهم، بل ربما الملايين، كشاربي البيرة الذين لم نرغب في العيش بجوارهم في الاتحاد ومالك الفندق في واشنطن والرجل صاحب الشارب الذي كان يتناول الطعام وأهاننا في الكافيتريا بالقرب من محطة يونيون. قلتُ لنفسي «لا تتكلَّم»، وكأنَّني صبيّ يتلقّى الحماية في التاسعة من العمر يُخالِط المجرمين ويُخفي أمراً ما. ولكنْ لابد أنني كنتُ قد بدأتُ أعتبر نفسي مجرماً صغيراً لأنني يهوديّ.

كرّر السؤال «ومَنْ أيضاً؟ إنَّ السيد هوفر يُريد أنْ يعرف مَنْ أيضاً. برِّئ نفسك، يا فيل».

أصررتُ «أنا بريء **فعلاً**».

«كيف حال خالتك إيفلين؟».

«بخير».

«سوف تتزوج. أليس صحيحاً أنّها تنوي الزواج؟ يمكنك على الأقلّ أنْ تُجيب عن هذا السؤال».

«نعم».

«وهل تعلمْ بمَنْ ستتزوج؟».

«نعم».

«أنت فتى ذكيّ. أعتقد أنكَ تعرف المزيد - أكثر بكثير. لكنّك أذكى من أنْ تُخبرني، أليس كذلك؟».

قلتُ «سوف تتزوج من الحاخام بنغلسدورف، رئيس الاستيعاب الأميركي».

دفعني قولي هذا إلى الضحك. قال لي «حسنٌ، اذهب إلى المنزل. اذهب إلى المنزل وتناول خبز الفطير[31]. أليس هذا ما يجعل منك ذكيّاً؟ أقصد أكل خبز الفطير؟».

31- خبز الفطير: نوع خاص من الخبز يُقدَّم في عيد الفصح اليهودي. - المترجم

كنا عندئذٍ قد وصلنا إلى منعطف تشانسلر وسميثْ، وكان في استطاعتي انْ أرى واجهة منزلنا في نهاية المُجمَّع السكنيّ. هتفتُ «وداعاً!»، ولم أنتظر تغيُّر ضوء إشارة المرور بل ركضتُ نحو المنزل قبل أنْ أقع في فخّه، إذا لم أكنْ قد وقعتُ فيه أصلاً.

كانت هناك ثلاث سيارات شرطة متوقفة في الشارع أمام منزلنا، وكان زقاقنا مسدوداً بسيارة إسعاف، وثمة شرطيان واقفان في الردهة يتحدثان بينما شرطي آخر واقف بجوار الباب الخلفيّ. كانت نسوة الحي، ومعظمهن ما زلن يرتدين مآزرهن، يقفنَ أمام منازلهن يُحاولن أنْ يفهمن ما الذي يحدث، وتجمّع الأطفال كلهم على الرصيف المقابل لمنزلنا من الشارع، يُحدّقون إلى رجال الشرطة وسيارة الإسعاف من بين صف السيارات المتوقفة. لم أكنْ قد رأيتهم متجمّعين في صمتٍ هكذا، يبدو عليهمُ التوجُّس.

كان جارنا في الطابق السفلي قد مات. السيد ويشْناو انتحر. لهذا السبب كل ما لم أتوقّع رؤيته قط كان يحدث الآن خارج باب بيتنا. بما أنّ وزنه لم يكن يتجاوز الثمانين رطلاً، استطاع أنْ يشنق نفسه بربط حبل ستارة غرفة الجلوس عبر العارضة الخشبيّة في خزانة المعاطف في الردهة الخلفيّة، ثم لفّه حول رقبته ورمى بنفسه إلى الأمام من على حافة كرسي المطبخ حيث كان يجلس داخل الخزانة، ولدى عودة سيلدون من المدرسة، توجّه لكي يُعلِّق معطفه، فوجد والده، مرتدياً بيجامته، متدلّياً منكّس الوجه على أرضيّة الخزانة وسط أحذية العائلة المطاطيّة والواقية. وأول ما خطر على بالي لدى سماعي الخبر هو أنّني لن أخشى بعد الآن سماع نوبات السُعال المنبعثة من الرجل المُحتضِر القابع في شقّة الطابق الأول كلما كنتُ وحدي في القبو، أو سماعه وأنا في السرير في الطابق الذي فوقه بينما أحاول أنْ أستغرق في النوم. ولكنني أدركتُ أنَّ شبح السيد ويشناو سوف ينضم الآن إلى حلقة الأشباح التي تسكن أصلاً القبو، وأنّه، فقط لأنني ارتحت لموته، سوف يخرج عن مساره ويتلبَّسني حتى آخر حياتي.

ولما لم أكنْ أعلم ماذا أفعل، جثمتُ أولاً إلى جانب السيارات المتوقفة، مُختبئاً مع الأطفال الآخرين. لم يكن لدى أي منهم تصوّر أكبر من تصوّري عن الحدَث الجلل الذي حلَّ بآل ويشناو، ولكنني جمعتُ شذرات من الهمس الدائر بينهم حول الطريقة التي مات بها السيد ويشناو وكيفَ عُثِرَ عليه وعلِمتُ أنَّ سيلدون وأمّه كانا في الداخل مع أحد رجال الشرطة والأطباء. ومع الجثّة. وكانت الجثّة هي كل ما كان الأطفال كلهم ينتظرون رؤيته. وانتظرتُ معهم بدل أنْ أدخل من الرواق الخلفيّ وهم يحملون السيد ويشناو ويهبطون الدَرَج. وما أردتُ أنْ ألجَ المنزل وأجلس هناك وحدي إلى أنْ تظهر أمي، وأبي، وساندي. أما ألفن، فلم أرغب أبداً في رؤيته مرة أخرى أو في أنْ أُستجوَبَ عنه بعد الآن.

المرأة التي خرجت من المنزل يُرافقها الأطباء لم تكن السيدة ويشناو بل أمي، ولم أفهم لماذا عادتْ إلى المنزل وتركتْ عملها إلى أنْ تكشَّفَ لي أنَّ الوالد الميِّت الذي يحملونه كان والدي. نعم، طبعاً – إنَّ والدي أنا هو الذي انتحر. لم يعُد في استطاعته تحمُّل وجود ليندبرغ ولا ما كان ليندبرغ يسمح للنازيين بفعله ليهود روسيا ولا لِما فعله ليندبرغ لعائلتنا هنا ولذلك كان هو الذي شنقَ نفسه – داخل خزانتنا **نحن**.

حينئذٍ لم أكن أحمل عنه الكثير من الذكريات، كانت لدي فقط ذكرى واحدة، ولم تبدُ لي على الإطلاق ذكرى هامة إلى درجة الاحتفاظ بها. وآخر ذكرى حملها ألفن عن والده كانت وهو يُغلِق باب السيارة على إصبع ابنه الصغير – أما الذكرى التي أحملها فكانت عن والدي وهو يُلقي التحيّة على جدعة رجلٍ يستجدي كل يوم خارج المبنى حيثُ يقع مكتبه. قال والدي «كيف حالُك، روبرت الصغير؟»، فتجيب جدعة الرجل، «وكيف حالك أنت، هرمان؟».

هنا تسلّلتُ من بين السيارات المتوقفة بسلسلة متقاربة ومن ثم انطلقتُ مُسرعاً أجتاز الشارع.

عندما وجدتُ أنَّ الغطاء الذي يُخفي جثّة والدي ووجهه لا يسمح له بالتنفّس، بدأتُ أنتحب.

قالت أمي «لا تبك، لا تبك، يا عزيزي، لا شيء يُخيف». وطوّقت رأسي بذراعها، وضمّتني إليها، وأخذت تردّد، «لا شيء يُخيف. لقد كان مريضاً وكان يتألّم ومات. والآن لم يعُد يتألَّم».

قلت «لقد كان في الخزانة».

«كلا، لم يكن. كان في سريره. مات وهو في سريره. لقد كان مريضاً جداً، جداً. أنت تعلمُ هذا. ولهذا كان يسعل طوال الوقت».

حينئذٍ كانت سيارة الإسعاف قد فتحتْ بابها واسعاً لاستقبال النقّالة. وقام الأطباء بتدبُّر وضعها داخل السيارة وأغلقوا الباب خلفهم. وقفتْ أمي إلى جواري في الشارع، ممسكة بيدي وذُهِلتُ إذ وجدتها هادئة تماماً. وانفصلتُ عنها وركضتُ خلف سيارة الإسعاف وأنا أصرخ «إنّه لا يستطيع التنفُّس!»، وعندها فقط أدركَتْ أخيراً ما الذي يُعذّبني.

أخذتْ تهزّني، «إنّه السيد ويشناو - السيد *ويشناو* هو الذي مات»، هزّتني بلطف جيئة وذهاباً لكي تُعيدني إلى صوابي. «إنّه والد *سيلدون*، يا عزيزي - لقد مات متأثّراً بمرضه بعد ظهيرة هذا اليوم».

لم أستطع أنْ أتبيَّن إنْ كانت تكذب لكي توفّر عليّ المزيد من الهيستريا أم أنها كانت تقول الحقيقة الرائعة.

«وسيلدون هو الذي عثر عليه في الخزانة؟».

كلا. لقد أخبرتُكَ - كلا. لقد عثر سيلدون على والده في سريره. لم تكن والدة سيلدون في المنزل لذلك استدعى الشرطة. وجئتُ لأنَّ السيدة ويشناو اتصلتْ بي في المتجر وطلبتْ مني أنْ أساعدها. أتفهم؟ البابا موجود في مركز عمله. البابا في العمل. أوه، ما الذي خطر في بالك؟»، ثم قالتْ مُطمئنة، «سوف يعود البابا قريباً إلى المنزل ويتناول وجبة العشاء وسوف يكون كل شيء على ما يُرام».

ولكن لا شيء كان «على ما يُرام». فقد كان عميل الإف بي آي الذي انهال عليّ بالأسئلة عن ألفن في جادة تشانسلر قد عرَّجَ على محل هاهن لبيع الملابس واستجوبَ أمي، ثم عرَّجَ على مكتب المتروبوليتان في نيوارك ليستجوب والدي، وبُعيد مغادرة ساندي لمكتب الخالة إيفلين قاصداً المنزل، استقلّ حافلة أمي، فجلس إلى جواره واستجوبه. لم يكن ألفن حاضراً على وجبة العشاء ليسمع عن هذا كلّه - وبينما نحن جالسون لنأكل، اتصل هاتفيّاً وطلبَ من أمي أنْ لا توفر له حصّة. وبدا أنّ ألفن كلما أحرزَ ربحاً كبيراً في البوكر أو في النرد، يأخذ معه شوشي إلى المدينة إلى محل كباب هيكوري لتناول لحم مشوي على الفحم على العشاء. وكان والدي يُطلِق على شوشي اسم «شريك ألفن في الجريمة». أما في تلك الليلة فأطلقَ على ألفن لقب جاحد، وغبي، ومتهوِّر، وجاهل، ولا سبيل إلى تقويمه.

قالت أمي بحزن «ووضعه مرير، مرير بسبب ساقه».

قال والدي «حسن، لقد سئمتُ وتعبتُ من ساقه. لقد ذهبَ إلى الحرب. مَنْ أرسله إلى هناك؟ أنا لم أفعل. وأنتِ لم تفعلي. وآبيه شتاينهايم لم يفعل. لقد أراد آبيه شتاينهايم أنْ يُرسله إلى الجامعة. وهو التحقَ بالحرب بإرادته، ومن حُسن حظّه أنّه لم يُقتَل. محظوظ لأنّه لم يُصَب إلا في ساقه. انتهينا، يا بيس. لقد نفضتُ يدي من هذا الولد. الإف بي آي تستجوب أولادي أنا؟ يكفيهم سوءاً أنْ يُزعجونا أنا وأنتِ - وفي مكتبي، انتبهي، وأمام رئيسي في العمل!» وقال لها «كلا، يجب أنْ ينتهي هذا وأنْ ينتهي الآن. هذا بيت. ونحن عائلة. أيريد أن يتناول العشاء في المدينة مع شوشي؟ فليذهب إذن ويُقيم مع شوشي».

قالت أمي «ليته فقط يلتحق بالمدرسة، ليته يجد عملاً».

أجاب أبي «إنَّ لديه عملاً. إنّه التسكُّع».

بعد أنْ انتهينا من تناول الطعام، أعدَّت أمي بعض الطعام من أجل سيلدون والسيدة ويشناو، وساعدها والدي في حمل الأطباق إلى الطابق

السفلي وتُرِكنا أنا وساندي مع أطباق العشاء. وباشرنا العمل على المغسلة كما كنا نفعل في كل ليلة تقريباً، لكنني لم أتمكن من البقاء ساكتاً. أخبرته عن لعب النرد. وأخبرته عن عميل الإف بي آي. وأخبرته عن السيد ويشناو. قلتُ «إنّه لم يمُتْ في سريره. إنَّ أمي لا تُخبرنا الحقيقة. لقد انتحر، لكنّها لا تريد أنْ تُفصِح عن هذا. لقد عثر عليه سيلدون في الخزانة عندما عاد إلى المنزل من المدرسة. لقد شنقَ نفسه. ولهذا السبب جاءت الشرطة».

سألني أخي «هل تغيَّرَ لونه؟».

«لم أره إلّا وهو تحت الغطاء. ربما تغيَّر لونه - لا أعلم. ولا *أريد* أنْ أعلم. لقد كان المشهد بشعاً بما يكفي وهم يهزّون النقّالة حتى لكأنّه كان يتحرّك». لم أُخبره بأنني في أول الأمر اعتقدتُ أنّ والدي كان تحت الأغطية ظنّاً مني أنني إذا فعلتُ فسوف يتحقَّق ذلك. وحقيقة أنَّ والدي كان لا يزال حيّاً، حياً بكل معنى الكلمة - غاضباً من ألفن ويُهدِّد بطرده من المنزل - لم يكن له أيّ أثر على تفكيري.

سأل ساندي «كيف تعرف أنّه كان في الخزانة؟».

«هذا ما يقوله الأولاد كلهم».

«وتُصدّقهم؟». بسبب شهرته، أصبح فتى صعب المراس وازدادت ثقته الهائلة بنفسه حتى تحوّلتْ أكثر فأكثر إلى غطرسة فخمة كلما تحدث عني أو عن أصدقائي.

«حسن، ما سبب تواجد كل ذلك الكمّ من رجال الشرطة هنا؟ فقط لأنّه مات؟ إنَّ الناس يموتون طوال الوقت»، لكنّه قال هذا مُحاولاً ألّا يُصدِّقه. «لقد قتل نفسه. كان مُضطراً».

سألني أخي «هل هذا مُنافٍ للقانون، أقصد قتل النفس؟ ماذا كانوا سيفعلون، يودعونه السجن لأنّه قتل نفسه؟».

لم أكنْ أعلم. لم أعدْ أعلم ما هو القانون ولذلك لم أعلم ماذا يمكن

أنْ يكون مع القانون أو ضده. بدا أنني لا أعلم إنْ كان والدي - الذي هبط إلى الطابق السُفلي مع أمي - حيّاً حقّاً أم أنّه يتظاهر بأنّه حيّ أو محمولاً في خلفيّة سيارة إسعاف. لم أعد أعلم أي شيء. لم أعد أعلم لماذا أصبحَ ألفن شريراً الآن وليس طيّباً. لم أعد أعلم إنْ كنتُ حلمتُ بأنَّ عميل الإف بي آي استجوبني في جادة تشانسلر. كان يجب أنْ يكون حُلماً ولكن لا يمكن أنْ يكون كذلك لأنَّ الآخرين كلّهم تعرَّضوا أيضاً للاستجواب. إلّا إذا كان ذلك هو الحُلم. شعرتُ بتشوّش في ذهني وبأنني سأفقد وعيي. لم أكنْ قد رأيتُ أحداً يفقد وعيه، إلّا في السينما، ولم أكن أنا نفسي قد فقدتُ وعيي من قبل. لم أكنْ قد نظرتُ من قبل إلى منزلنا من مخبأ على الرصيف المقابل وتمنّيتُ لو أنّه منزل شخص آخر. لم يحدث من قبل أنْ حملتُ في جيبي عشرين دولاراً. ولم أعرف من قبل أحداً شاهدَ والده مُعلَّقاً من خزانة. ولم أُضطر من قبل إلى أنْ أنضج بوتيرة سريعة كهذه.

لم يحدث من قبل - إنّها اللازمة الكُبرى لعام 1942.

قلتُ لأخي «يُستحسَن أنْ تتَّصِل بالماما - اتصلْ بها - اطلبْ منها أنْ تعود إلى المنزل في الحال!»، ولكنْ قبل أنْ يصِل ساندي إلى الباب الخلفيّ لكي يندفع إلى منزل آل ويشناو، كنتُ أتقيّأ في الطاس الذي كنتُ لا أزال أحمله بيدي، وعندما انهرتُ حدثَ ذلك لأنَّ ساقي انفجرتْ وتناثر دمي في كل مكان.

لزمتُ السرير مع الحرارة العالية طوال ستة أيام، وأنا مُنهَك وخائر القِوى حتى أنَّ طبيب العائلة كان يُعرِّج في كل ليلة ليتفقَّد تطور مرضي، مرض عهد الطفولة غير الشائع ذاك الذي يُسمَّى «لِمَ لا يعود كل شيء إلى سابق عهده».

كان اليوم التالي بالنسبة إليّ هو الأحد. كان الوقت بعد الظهيرة، وكان العم مونتي في زيارة لنا. كان ألفن موجوداً أيضاً، ومما تناهى إلى سمعي وأنا في السرير ما قيل في المطبخ عن أنّ لا أحدَ شاهده في أي مكان

منذ انتحار السيد ويشناو يوم الجمعة وتخلّى عن ممارسة المُقامرة بالنرد تلك بما في حوزته من قطع نقديّة صغيرة. ولكنّني كنتُ أنا نفسي غائباً منذ وقت عشاء يوم الجمعة، في صحبة الحصانين وحوافرهما، تكتنفني هلوسات متنوعة الألوان عن حصانيّ العمل في الميتم وهما يُلاحقانني حتى آخر الأرض.

والآن ها هو العم مونتي من جديد، ومن جديد هاجم العم مونتي ألفن، وبكلمات لم أُصدِّق أنّها نُطِقَتْ في منزلنا وفي حضور أمي. لكنَّ العم مونتي كان يعرف كيف يتغلَّب على ألفن بأساليب لا يستخدمها والدي.

مع حلول الليل، وبعد أنْ خَفَتَ كل الصراخ وتحوّلَ إلى تفجُّع على الراحل العم جاك وأصبح صوت مونتي الهادر أجش، قبِلَ ألفن العمل في سوق الإنتاج الذي كان قد رفضَ أنْ يُفكِّر في قبوله عندما عرَضَه مونتي عليه في المرة الأولى. ولمّا كانت رجولته قد وَهَنَتْ بفعل البتر الذي ناله في صباح يومٍ وصوله إلى محطة بن برعاية تلك الممرِّضة الكندية الضخمة، وكان مهزوماً بما أنّه لم يكن يجرؤ، وهو جالس على كرسيّ متحرِّك، على النظر في عينيّ أيّ منا مباشرة، وافقَ ألفن على فصم شراكته مع شوشي والتخلّي عن المقامرة في شوارع الحيّ. ولما كان كارهاً للخنوع بقدر كراهيته للبكاء، أدهشَ الجميع عندما انفجر في نوبة من بكاء الشعور بالذنب وهو يستجدي الغفران ويوافق على الكفّ عن معاملة أخي بفظاظة، وعن عقوقه مع أمي وأبي، وعن أنْ يكونَ ذا تأثير سيئ عليّ، وعلى أنْ يُعاملنا المعاملة الحسنة التي نستحق. وحذَّرَ العم مونتي ألفن من أنّه إذا لم يلتزم بوعوده واستمرّ بدل ذلك في تخريب منزل هرمان، فسوف تنتهي علاقة آل روث به إلى الأبد.

على الرغم من أنّه بدا أنَّ ألفن يحاول جاهداً أنْ يستمر في العمل اليدوي المُرهِق الذي كان عمله الأول، فإنه لم يستمر في السوق مدة كافية بحيث يرتفع ولو نقطة عن كنس الأرض وإحضار الأشياء. وذات يوم، بعد

أنْ كان عميل الإف بي آي قد عرّج علينا بأسبوع أو نحوه، عاد ليسأل عني، العميل نفسه مع الأسئلة البريئة التي تنطوي على التهديد نفسه، والتي كان قد طرحها على أفراد عائلتي وعليّ، لكنّه هذه المرة اكتفى بالتلميح إلى عُمّال الإنتاج الآخرين بأنَّ ألفن خائن صريح يتآمر مع أشرار مُناهضين لأميركا مثله لاغتيال الرئيس ليندبرغ. وكانت الاتّهامات مُثيرة للسخرية، ولكن على الرغم من أنَّ ألفن كان وديعاً طوال ذلك الأسبوع - وديعاً كما أقسمَ أنْ يكون وكرّسَ نفسه للبقاء - طُرِدَ من عمله على الفور، وفي أثناء خروجه، أمره أحد المُشاكسين المسؤولين بالّا يقترب من السوق من جديد. وعندما اتصل والدي هاتفياً بأخيه يسأله عمّا حدث، أجاب مونتي بأنَّه لا فائدة تُرجى منه - لقد صدرتْ إليه الأوامر من رجال لونغي بطرد ابن أخيه. وكان لونغي زيلمان من نيوارك، الذي نشأ على غرار والدي وإخوته ابن مُهاجرَين في الأحياء اليهوديّة الفقيرة، يُدير حينئذٍ أعمال جيرزي، وكان المُهيمن الذي لا يعرف الرحمة على كل شيء بدءاً بصناعة الكتب وإفساد الإضرابات إلى خدمات النقل بالشاحنات ثم بالعربات التي تُفرَض على تجّار أمثال بلمونت روث. ولأنَّ العملاء الفدراليين هم آخر أشخاص كان لونغي يرغب في أنْ يجوسوا في المكان بتطفُّل، خسِرَ ألفن عمله، وطُرِدَ من المنزل، وغادر المدينة في غضون أقلّ من أربعٍ وعشرين ساعة، وهذه المرّة لم يعبر الحدود الدوليّة قاصداً مونريال للالتحاق برجال المغاوير الكنديين بل عبر ديلاوير فقط قاصداً فيلادلفيا ليعمل لمصلحة عم شوشي ملك آلة القِمار، المُبتزّ الذي بدا أكثر تسامحاً مع الخونة من نظيره في نيو جيرزي.

في ربيع عام 1942، واحتفالاً بنجاح التفاهُم مع أيسلندا، أقامَ الرئيس وحرمه السيدة ليندبرغ حفل عشاء رسميّ في البيت الأبيض على شرف وزير الخارجيّة يواكيم فون ريبنتروب، المعروف بأنّه قدَّمَ ليندبرغ إلى زملائه النازيين بقوله إنه المُرشَّح الرئاسي الأميركي المثالي بالنسبة إلى

ألمانيا قبل أنْ يختاره الحزب الجمهوريّ في جلسته التي انعقدت في عام 1940 بوقتٍ طويل. وكان فون ريبنتروب هو المُفاوِض من جانب هتلر طوال اللقاءات التي تمّت في أيسلندا وأول زعيم نازي يُدعى إلى أميركا من قِبَل *أيّة* حكومة رسميّة أو إداريّة منذ أنْ استلم الفاشيون سُدّة الحكم قبل ذلك بحوالي عشرة أعوام. وما إنْ انتشر خبر إقامة حفل العشاء على شرف فون ريبنتروب حتى انبرت الصحافة الليبراليّة تنتقد بقسوة، وخرجَت المسيرات والمُظاهرات في طول البلاد وعرضها احتجاجاً على قرار البيت الأبيض. وللمرة الأولى منذ أنْ غادر الرئيس السابق روزفلت منصبه خرج من عُزلته لكي يُلقي خِطاباً مُقتَضَباً على الأمّة كلها من هايد بارك يحثّ فيه الرئيس ليندبرغ على إبطال الدعوة «إكراماً للأميركيين المُحبّين للحريّة، وخاصة لعشرات الملايين من الأميركيين ذوي الأصول الأوروبيّة الذين لابد أنَّ بلاد أجدادهم ترزح تحت نير النازيين الساحق».

وفي الحال هاجمَ نائبُ الرئيس ويلر روزفلت لأنّه «يمارس لعبة السياسة» مع إدارة رئيس جمهوريّةٍ حاكم للشؤون الخارجية. وقال نائب الرئيس، إنَّه مجرَّد سلوك يُثير السُخرية لكنّه غير مسؤول يصدر عنه للترويج للسياسات الخطرة نفسها التي عملتْ على جرّ أميركا للتورُّط في حربٍ أوروبيّة دمويّة بينما تحالُف الديمقراطيين الجديد يحكم البلاد. وكان ويلر نفسه ديمقراطيّاً، وعضواً سابقاً في مجلس الشيوخ لثلاث دورات متتالية من ولاية مونتانا والعضو الأول والوحيد من الحزب المُعارِض يتم اختياره للمشاركة في حملة الانتخابات الرئاسيّة بما أنَّ لينكولن كان قد انتقى أندرو جونسون شريكاً له للفترة الرئاسيّة الثانية على التوالي في عام 1864. وبما أنَّ ويلر كان لا يزال في فترة مسيرته السياسيّة المُبكّرة، فإنه كان حتى الآن يقفُ مع اليسار بحيث مثَّلَ صوت قادة بتْ Butte العمّاليين الراديكاليين، عدو أناكوندا كوبر – شركة التعدين التي أدارت ولاية مونتانا وكأنها متجر تابع للشركة – وبوصفِهِ داعماً مُبكِّراً لإدارة فرانكلين ديلاني روزفلت، اقتُرِحَ مُرشّحاً نائباً للرئيس في عام 1932. وكان أولاً قد ترك

الحزب الديمقراطيّ في عام 1924 لكي ينضم إلى عضو مجلس الشيوخ الإصلاحي عن ولاية ويسكونسون روبيرت لا فوليت على لائحة الحزب التقدُّمي للانتخابات الرئاسيّة المدعومة من العمّال، ثم، بعد تخلّيه عن لا فوليت وداعميه في اليسار الأميركي اللاشيوعيّين انضمَّ إلى ليندبرغ والانعزاليين اليمينيين للمساعدة على تأسيس حركة «أميركا أولاً»، مُهاجِماً روزفلت بتصريحات مُناوئة للحرب شديدة التطرُّف حتى إنّهم حثوا الرئيس على تصنيف انتقاده بأنّه «أشدّ ما قيل كذباً، وخِسّة، وخيانة وطنيّة في الحياة العامّة في جيلي». وانتخَبَ الجمهوريون ويلر ليكون رفيق ليندبرغ في الحملة من ناحيةٍ لأنَّ آلته السياسيّة في ولاية مونتانا ساهمتْ في انتخاب الجمهوريين لدخول مجلس الشيوخ على امتداد أواخر حقبة الثلاثينيات ولكنَّ السبب الرئيس كان إقناع الشعب الأميركي بقوة دعم الحزبَين للنزعة الانعزاليّة وإضافة مُرشَّح مُقاتِل لا يُشبه ليندبرغ إلى اللائحة يكون عمله مُهاجمة حزبه السياسي الخاص وسبّه في كل مناسَبة، كما فعل في المؤتمر الصحفيّ الذي أُقيم في مكتب نائب الرئيس عندما تكهّنَ بأنّه إذا كانت الفصاحة «الداعية إلى الحرب» المتهوّرة في رسالة روزفلت التي ألقاها من هايد بارك هي إشارة إلى الحملة التي ينوي الديمقراطيون إطلاقها في الانتخابات القادمة، فسوف يُتكبّدون خسائر أشدّ فداحة مما تكبّدوا في الانتصار الجمهوريّ الساحق في عام 1940.

في الأسبوع التالي مباشرة، ملأتِ العُصبة الألمانيّة-الأميركيّة[32] ماديسون سكوير غاردن حتى آخرها تقريباً بحشد من الناس، بلغ ما يُقارب الخمسة والعشرين ألفاً حضروا لكي يدعموا دعوة الرئيس ليندبرغ وزير الخارجيّة الألمانيّ ويشجبوا الديمقراطيين لتجديد «ترويجهم للحرب». وخلال فترة روزفلت الرئاسيّة الثانية، جمّدت الإف بي آي وجمعيات مجلس الشيوخ التي كانت تُجري تحقيقاً حول نشاطات العُصبة مُعتبرةً إياها جبهة نازيّة ووجَّهت تُهَماً إجراميّة

32- الموالية للنازيّة. - المترجم

في حق قياداتها العليا. ولكن في ظل حُكم ليندبرغ، توقفت محاولات الحكومة لمُضايقة أعضاء العُصبة وترويعهم وأصبح في استطاعتهم استعادة قوتهم بالتعرُّف إلى أنفسهم ليس كمواطنين أميركيين من أصل ألمانيّ يُناهضون تدخُّل أميركا في الحروب الأجنبيّة، فقط، بل كأعداء أوفياء للاتحاد السوفييتي أيضاً. وأصبحَ الرباط الفاشي القويّ الذي يوحِّد العُصبة يضعُ قِناعاً من خطابات وطنيّة صاخبة عن خطر قيام ثورة شيوعيّة تكتسح العالم كلّه.

لمّا كانت العُصبةُ مُنظّمةً مُناهضة للشيوعيّة أكثر منها مُشايعة للنازيّة، فإنها بقيَتْ مُعادية للساميّة كعهدها سابقاً، تُساوي صراحة بين البلشفيّة واليهوديّة في النشرات الدعائيّة وتضرب على وتر عدد اليهود «المؤيدين للحرب» - على غرار سكرتير وزارة الماليّة موغينثاو والخبير المالي برنارد باروخ، اللذين كانا موضع ثقة روزفلت - وطبعاً، متمسّكة بالأهداف المُعلنة في إعلانهم الرسميّ في بداية انتظامهم في عام 1916: «في أنْ نكافح جنون تهديد العالم الأحمر الذي تنشره موسكو وما ينطوي عليه من آفات يهوديّة» وأنْ نُعزِّز «ولايات متّحدة حرَّة يحكمها غير اليهود». ولكن اختفَتْ من مسيرة ماديسون سكوير غاردن عام 1942 الرايات النازيّة، وعُصابات الذراع التي تحمل الصليب المعقوف، وتحيّة هتلر بالأذرع المُستقيمة، واللباس الرسمي لقوات الصاعقة، والصورة العملاقة للفوهرر التي ظهرتْ في المسيرة الأولى، في العشرين من شباط (فبراير) عام 1939، كان حَدَثاً آزرته العُصبة بوصفِهِ «تدريبات على الاحتفال بعيد مولد جورج واشنطن». واختفَتْ مُلصقات الجدران التي تُعلن «استيقظي يا أميركا - واسحقي الشيوعيين اليهود!» وإشارات الخُطباء إلى فرانكلين ديلانو روزفلت باسم «فرانكلين د. روزنفلد» والأزرار البيضاء الكبيرة ذات الأحرف السوداء التي وُزِّعَتْ على أعضاء العُصبة لكي يُثبّتوها على ياقاتهم، الأزرار التي تقول:

أبقوا أميركا خارج الحرب اليهوديّة.

في تلك الأثناء، استمرَّ والتر وينتشل في الإشارة إلى أعضاء العُصبة (Bundists) خطأً بـ «Bundits»، واستمرّتْ دوروثي طومبسون، الصحفيّة البارزة وزوجة الروائيّ سينكلير لويس، التي طُرِدَتْ من مسيرة العُصبة في عام 1939 بسبب ممارستها ما سمَّته «حقّها الدستوريّ في الضحك من التصريحات السخيفة التي قيلَتْ في مكانٍ عامّ»، في شجب دعايتهم السياسيّة بالروح نفسها التي تظاهرت قبل ذلك بثلاث سنوات عندما تركت المسيرة وهي تصرخ «هراء، هراء، هراء!، هذا مأخوذ من كتاب *Mein Kampf* (كفاحي) كلمة فكلمة!»، وفي برنامجه الذي بثّه في ليلة يوم الأحد الذي تلا مسيرة العُصبة، أكّدَ وينتشل، بالثقة المُعتادة، أنَّ العدائيّة المستمرة لحفل العشاء الرسميّ المُقام على شرف فون ريبنتروب تدلُّ على انتهاء شهر العسل الذي تقضيه أميركا مع تشارلز أ. ليندبرغ. وسمّاه وينتشل «التخبُّط الرئاسيّ الأكبر في هذا القرن، التخبُّط الذي يفوق كل تخبُّط، والذي سوف يدفع أتباع الرئيس المُحبّ للفاشيّة الجمهوريون الرجعيّون ثمنه بحياتهم السياسيّة في انتخابات شهر تشرين الثاني (نوفمبر)».

بدا البيت الأبيض، المتعوِّد على أنْ يؤلِّه تقريباً ليندبرغ عالميّاً، قد أُحرِجَ بالاستهجان القويّ الذي تمكّنت المُعارضة وبسرعة من حشده ضده، وعلى الرغم من أنَّ الإدارة سعتْ إلى النأي بنفسها عن مسيرة العُصبة في نيويورك، فإنَّ الديمقراطيين - تصميماً منهم على ربط ليندبرغ بسُمعة المنظّمة الشائنة - نظّموا مسيرة خاصّة بهم في ماديسون سكوير غاردن. وأخذ المتكلِّمون يشجبون بقسوة واحداً إثر آخر «عصابات ليندبرغ»، إلى أنْ ظهر فرانكلين ديلانو روزفلت نفسه، أمام دهشة الجميع وابتهاجهم على المِنصّة. وكان يمكن للاحتفاء الذي أثاره حضوره واستمر عشر دقائق أنْ يستمر أطول من ذلك لولا أنَّ رئيس الجمهوريّة السابق هتفَ بقوة فاقت الهدير قائلاً «رفاقي الأميركيين، رفاقي الأميركيين - لديّ رسالة أوجّهها معاً إلى السيد ليندبرغ والسيد هتلر معاً. إنَّ اللحظة

الراهنة تُجبرني على أنْ أُعلن بلا تحيُّز أنهما لا يفهمان أننا نحن، لا هما، سادة مصير أميركا»، كلمات كانت شديدة التحريض والفخامة بحيث إنَّ كل مخلوق ضمن الحشد (وفي غرفة جلوسنا وفي غرف جلوس منازل حيّنا كله) غمره الوهم المُفرِح بأنَّ خلاص الأمّة باتَ قريباً.

أخبر فرانكلين روزفلت جمهوره - مُتذكِّراً الكلمات السبع الأولى من جُملةٍ شهيرة قيلتْ في أول حفل تنصيب - قال «إنَّ الشيء الوحيد الذي علينا أنْ نخشاه هو استسلام تشارلز أ. ليندبرغ الخنوع لأصدقائه النازيين، هو التودُّد الشائن لرئيس أعظم ديمقراطيّة في العالم لطاغيةٍ مسؤولٍ عن جرائم وأعمال وحشيّة لا حصر لها، مُستبدّ بربري متوحش لا نظير له في تاريخ الجرائم الإنسانيّة. ولكنْ نحن الأميركيين لن نقبل أميركا يُهيمن عليها هتلر. نحن الأميركيين لن نقبل عالماً يُهيمن عليه هتلر. واليوم تنقسم الكرة الأرضيّة برمّتها بين العبوديّة الإنسانيّة والحريّة الإنسانيّة. ونحن - نختار - الحريّة! نحن لا نقبل إلّا أميركا مُكرَّسة للحريّة! إنْ كانت هناك مؤامرة تُدبّرها قِوى مُناهِضة للديمقراطيّة هنا في أرض الوطن تتبنّى مُخطَّط كيسلينغ لجعل أميركا فاشيّة، أو دول أجنبيّة تطمعُ في السلطة والتفوُّق - مؤامرة لكبت الفوران الهائل للحريّة الإنسانيّة التي تُعتبَر اللائحة الأميركيّة لحقوق الإنسان الوثيقة الأساسيّة لها، مؤامرة لاستبدال الديمقراطيّة الأميركيّة بسُلطة مُطلَقَة لحُكم استبداديّ كاستعباد شعوب أوروبا المهزومة - فليفهم أولئك الذين يجرؤون سرّاً على التآمُر على حرّيتنا أنَّ الأميركيين لن يتخلّوا، تحت أيّ تهديد أو في مواجهة أيّ خطر، عن ضمانات الحرّية التي أعدَّها لنا آباؤنا في دستور الولايات المتحدة».

جاء ردّ ليندبرغ بعد ذلك ببضعة أيام - ففي صباح أحد الأيام الباكر ارتدى ملابسه الفضفاضة التي تحمل رسم النسر الوحيد وانطلقَ من واشنطن على متن طائرته لوكهيد إنترسبتر ذات المُحرِّكَين لكي يُقابل الشعب الأميركيّ وجهاً لوجه ويُطمئنه بأنَّ كل قرار يتّخذه وُضِعَ فقط لزيادة أمنه وليضمن رخاءه. وهذا ما فعلَ عندما لاحتْ أصغر أزمة في

الأفق، طار إلى مُدُنٍ في كل منطقة من البلاد، وهذه المرّة بلغَ عددها في اليوم الواحد أربعاً أو خمساً نظراً إلى سرعة طائرة الإنترسبتر الهائلة، وأينما حطَّتْ طائرته يجد في انتظاره جمعاً من ميكروفونات الإذاعة كشأن الشخصيات البارزة المحليّة، شخصيات وسائل البثّ المعروفة، مُراسلي المدينة، وآلاف المواطنين الذين تجمّعوا ليُلقوا نظرة على رئيسهم الشاب بسترة الطيّار الشهيرة وقبعته الجلديّة. وفي كل مرة يحطّ، يوضِّح أنّه يطير في أرجاء البلاد بلا مُرافقة، بلا حماية المُخابرات السرّية أو سلاح الجو. إلى هذه الدرجة اعتبر الأجواء الأميركيّة آمنة؛ هكذا كان *البلد* آمناً بحيث بدَّدتْ إدارته، منذ أقلّ من عام، أي تهديد للحرب. وذكَّرَ جماهيره بالحياة التي لم يتعرَّض فيها أي صبي أميركيّ للخطر منذ أنْ جاء إلى سُدة الحُكم ولن يتعرَّض للخطر ما دام هو في سُدَّة الحكم. لقد استثمر الأميركيّون إيمانهم بقيادته، وكل وعد قَطَعَه لهم أوفى به.

كان هذا كل ما قال أو اضطُرَّ إلى قوله. ولم يأتِ قط على ذِكر اسم فون ريبنتروب أو فرانكلين ديلانو روزفلت أو على الإشارة إلى العُصبة الألمانيّة-الأميركيّة أو إلى توافق أيسلندا. لم يقُل أيَّ شيء يدعم النازيين، أو أي شيء يكشِف عن وجود أيّ تقارُب مع زعيمهم ومع أهدافه، ولا حتى يُشير باستحسان إلى أنَّ الجيش الألمانيّ قد برؤ من خسائره التي حلّت به في الشتاء وأنَّ الشيوعيين السوفييت يتقدَّمون أكثر شرقاً، على طول الجبهة الروسيّة لكي يُلحِقوا بهم هزيمتهم المُطلقة. ولكن كان الجميع في أميركا يعلمون أنَّ إيمان الرئيس الراسخ، كما كان إيمان حزبه اليميني المُهيمن، هو بأنَّ أفضل حماية ضد امتداد الشيوعيّة عبر أوروبا، ومنها إلى آسيا والشرق الأوسط، وصولاً حتى جانبنا من الكرة الأرضيّة هي التدمير الكامل للاتحاد السوفييتي بالقُدرة العسكريّة الهائلة للرايخ الثالث.

أخبر ليندبرغ، بطريقته المنتصرة، والحرون، وصوته المنخفض، الجماهيرَ المحتشدةَ في أرض المطار، ومُستمعي الإذاعة، عن نفسه وعن إنجازاته، وعندما حان موعد صعوده متن الطائرة ليُقلِع إلى وِجهته التالية،

أعلنَ، بعد حفل العشاء الذي أعدّه البيت الأبيض لفون ريبنتروب، أنَّ السيدة الأولى سوف تدعو أدولف هتلر وصديقته لكي يقضيا عطلة عيد الرابع من تموز (يوليو) بوصفهما ضيفيّ عطلة في غرفة نوم لينكولن داخل البيت الأبيض وبقيَ يتلقّى الهتاف من أهل بلده بوصفِهِ مُنقِذ الديمقراطيّة.

كان صديق طفولة والدي شيبسي تيرشويل واحداً من المُحررين- ومُشغلي آلة العرض السينمائيّ في مسرح الأخبار في شارع برود منذ افتتاحه في عام 1935 بوصفه دار السينما الوحيدة التي لا تعرض إلا الأخبار. وكان عرض نشرة الأخبار الذي يدوم ساعة كاملة يتضمَّن لقطات سينمائية، وأفلاماً قصيرة، والوثائقيّ «مسيرة الزمن»، ويُبثّ يوميّاً من الصباح الباكر ويستمر حتى منتصف الليل. وفي كل يوم خميس، كان السيد تيرشْويل وثلاثة مُحررين آخرين يقومون بانتقاء قصص، من بين آلاف أشرطة الأخبار التي تزوّدهم بها شركات مثل باتيه وبارامونت، ويركّبون منها عرضاً سينمائيّاً عن مُجريات اللحظة الراهنة بحيث يبقى زبائن مثل والدي - الذي كان مكتبه الكائن في شارع كلينتون قريباً منا - على تواصُل مع الأخبار الوطنيّة، والأحداث الهامة في كل أرجاء العالم، ولحظات مُثيرة من مباريات البطولات الرياضيّة التي لم يكن ممكناً، خلال تلك الفترة الزمنيّة من البثّ الإذاعيّ، مُشاهدتها إلّا في دار السينما. وكان والدي يسعى إلى أنْ يُفرِد ساعة من الزمن خلال الأسبوع ليُشاهد العرض بأكمله.، وعندما كان يفعل، يُعيد سرد ما كان قد شاهده ومَنْ شاهد على مائدة العشاء. توجو. بيتان. دو فاليرا.. أرياس. كيزون. كاماتشو. إيتفينوف. جوكوف. هَلْ. ويلز. هاريمان. ديس. هيدريش. بْلَمْ. غيسلينغ. غاندي. رومل، مونتباتن. الملك جورج. لا غوارديا. فرانكو. البابا بيوس. وهذه فقط لائحة مُختصرة للمجموع الهائل من شخصيات نشرة الأخبار التي ترد باستمرار في الأحداث التي كان والدي يسردها على مسمعنا وسوف نتذكّرها ذات يوم بوصفها تاريخاً يستحق أنْ ننقله إلى أولادنا.

سأل ببلاغة وهو في مزاج ساعة العشاء التعليميّ الممتدة، «إذن ما التاريخ؟ التاريخ هو كل ما يحدث في كل مكان. حتى هنا في نيوارك. حتى هنا في جادّة سَمِيت. حتى ما يحدث لرجل عاديّ في منزله - إنَّ هذا كلّه سوف يُصبح تاريخاً بالنسبة إلى شخصٍ ما أيضاً».

في العُطل الأسبوعيّة عندما كان السيد تيرشْويلْ يعمل، كان والدي يأخذ ساندي وأنا لكي نُعزّز ثقافتنا في دار عرض الأخبار السينمائيّة. وكان السيد تيرشويل يترك بطاقات دخول مجّانيّة عند شباك قطع البطاقات من أجلنا، وفي كل مرة كان والدي يُحضِرنا إلى حُجيرة العرض بعد انتهاء العرض كان يُلقي على مسامعنا المحاضرة التربويّة نفسها. يقول لنا إنَّه في ظل حُكمٍ ديمقراطيّ، أهمّ واجبات المواطنين هو مواكبة الأحداث الجارية عن قُرب، وإنَّ الوقت لا يكون مُبكّراً أبداً على الاطّلاع على الأخبار اليوميّة. كنا نجتمع معاً عند آلة عرض الفيلم، ويُسمّي لنا كل جزء منها، ومن ثم نتفرَّج على الصور الفوتوغرافيّة داخل إطاراتها على الجدران، تلك الصور التي كانت قد التُقِطَتْ في ليلة الافتتاح الرسميّ لدار السينما، عندما قصَّ أول عمدة يهودي لنيوارك، ماير إيلينشتاين، الشريط الممدود عبر البهو ورحَّبَ بالضيوف المشاهير، ومن بينهم، كما أخبرنا السيد تيرشويل، وهو يُشير إلى صورهم، كان السفير السابق للولايات المتحدة في إسبانيا ومؤسّس متجر بامبرغر المتنوع.

إنَّ أكثر ما أعجبني في مسرح عرض الأخبار هو أنَّ المقاعد كانت معدَّة بحيث لا يُضطر حتى شخص بالغ إلى النهوض ليدع الآخرين يعبرون، وأنَّه قيل إنَّ حُجيرة العرض مُضادة للصوت، وإنَّه على السجادة في البهو هناك رسم لبكرات عرض سينمائي يمكنك أنْ تطأ عليها لدى دخولك وخروجك. وأنا لا أتذكّر، إلّا عندما أعود بذاكرتي إلى أيام الآحاد المتوالية تلك من عام 1942، حين كان ساندي في الرابعة عشرة وكنتُ في التاسعة من العمر وصحبنا والدي تحديداً إلى مسيرة العُصبة في أحد الأسابيع وفي الأسبوع التالي لسماع فرانكلين ديلانو روزفلت يَخطب في

الخارجين في مسيرة مُناهِضة لريبنتروب في غاردن، أقول لا أتذكّر أكثر من صوت الراوي لويل توماس، الذي كان يُقدِّم معظم الأخبار السياسيّة، وصوت بيل ستيرن، الذي كان يُقدِّم تقاريره الحماسيّة عن الألعاب الرياضيّة. لكنّني لم أنس مسيرة العُصبة بسبب الكراهيّة التي غرسها داخلي أعضاء تلك العُصبة وهم واقفون يهتفون باسم فون ريبنتروب وكأنما هو رئيس الولايات المتحدة، ولم أنسَ خطاب فرانكلين ديلانو روزفلت لأنه عندما أعلنَ أمام حشد المسيرة المُناهِضة لريبنتروب، «إنَّ الشيء الوحيد الذي علينا أنْ نخشاه هو استسلام تشارلز أ. ليندبرغ المُذلّ لأصدقائه النازيين»، أصدر أكثر من نصف الجماهير المحتشدة أصوات الاحتجاج والاستهجان بينما صفّقَ الباقون، ومن بينهم والدي، بأقوى ما في استطاعتهم، وتساءلتُ إنْ كانت الحرب ستندلع هناك في شارع برود في وضح النهار وإنْ كنا، حالما نُغادر دار السينما المُظلِمة، سوف نجد قلب بلدة نيوارك وقد تحوّلَ إلى رُكام من الأطلال ينبعثُ منها الدخان والنيران تشتعل في كل مكان.

لم يكن سهلاً على ساندي أنْ يجلس طوال فترة العرض بعد ظهيرة يوم سبت في دار سينما نيوارك، ولما كان يُدركِ مُسبقاً أنَّ ذلك لن يحدث، رفضَ في أول الأمر دعوة والدي ولم يُوافق على مرافقتنا إلّا بعد أنْ أُمِرَ بذلك. وبحلول ربيع عام 1942، لم يتبقَ أمام ساندي إلّا بضعة أشهر لبدء الدراسة في المدرسة الثانوية، وهو الفتى النحيل، الممشوق، والوسيم الأنيق الملبس، ذو الشعر الأشقر المُسرَّح، وهيئته وهو واقف أو جالس مثاليّة كهيئة طالب في أكاديميّة ويست بوينت العسكريّة. وتجربته كمتحدث شاب أول في برنامج «أناس عاديون» منحته، أيضاً، مسحة من السلطة نادراً ما تُرى في شخصٍ صغير السن مثله. وساندي ذاك سوف يُثبت أنّه خبير في التأثير على البالغين وأنّه كان ينبغي أنْ يُصبح مرجعاً بين أولاد الحي الأصغر سنّاً الذين كانوا توّاقين إلى مُحاكاته وإلى أنْ يُصبحوا مؤهّلين للالتحاق ببرنامج المزرعة الصيفيّة التابع لمكتب

الاستيعاب الأميركيّ أثار دهشة والديّ وجعل وجود ابنهما الأكبر سناً في المنزل مُخيفاً أكثر مما كان عندما عاد ورأى الجميع أنّه فتى عاديّ جداً، وأنيس، وصاحب موهبة في رسم الأشخاص. وبالنسبة إليّ كان دائماً القويّ بسبب تفوّقه؛ أما الآن فبدا أقوى من السابق ويمكن إثارة الإعجاب بسهولة على الرغم من أنني تخلّيتُ عنه بسبب ما وصفه ألفن بأنّه انتهازيتّه - على الرغم منْ أنّه حتى الانتهازيّة (إنْ كان ألفن دقيقاً وكانت تلك هي الكلمة الصحيحة) بدا أنّها إنجاز رائع آخر، ورمز لنضج هادئ واعٍ لذاته مُرتبِط عن دراية بأساليب العالم. طبعاً، كان مفهوم الانتهازيّة بالكاد مألوفاً لديّ وأنا في سن التاسعة، لكنَّ ألفن كان يربط مرتبتها الأخلاقيّة بوضوح بالاشمئزاز الذي لفظَ به اتّهامه وما أضافه على سبيل التضخيم. كان حينئذٍ قد غادر المستشفى حديثاً ومن شدّة البؤس بحيث لا يستطيع أنْ يُبدي الكثير من ضبط النفس.

أبلغني وهو في سريره ذات ليلة «إنَّ والدك نكرة. بل أقلّ من نكِرة». وعندئذٍ صنَّفَ ساندي بأنّه انتهازيّ.

«أهو كذلك؟ لماذا؟».

«هذا هو حال الناس، لأنهم يبحثون عن الفائدة لأنفسهم وليذهب أي شيء آخر إلى الجحيم. إنَّ ساندي انتهازيٌ لعين. وكذلك خالتك القذرة بثدييها الكبيرين البارزين. وكذلك الحاخام العظيم. إنَّ العمّة بيس والعم هرمان صادقان. أما ساندي - الذي يبيع نفسه لأولاد الحرام أولئك بكامل إرادته؟ وهو في سنه تلك؟ وبموهبته؟ إنَّ أخاك ذاك شخص غريب الأطوار حقّاً».

يبيع نفسه. هذه الألفاظ أيضاً كانت جديدة عليّ، أما الآن فلم تعُد صعبة الفهم أكثر من وصف «انتهازيّ».

شرحتُ قائلاً «إنّه فقط يرسم بعض اللوحات».

لكنَّ ألفن لم يكن في مزاجٍ يسمح له بفتح المجال لي لمُحاولة الاستخفاف بتلك اللوحات، خاصة أنّه علِمَ بأمر انضمام ساندي إلى

برنامج ليندبرغ «أناس عاديون». ولم أكنْ أتحلّى بالشجاعة الكافية لأسأل كيف اكتشفَ ما عزمتُ على ألّا أُخبره به، على الرغم من أنَّ ما فهمتُه، بعد أنْ كشف اللثام عما يُخفيه من أعمال فنيّة تحت السرير، هو أنّه تابع الإغارة على أدراج الخزانة في غرفة الطعام، حيث أخفى ساندي دفاتر أيام المدرسة والأوراق التي يكتب عليها، ووجد هناك كل الدليل اللازم ليكره ساندي إلى الأبد.

قلتُ «إنَّ هذا لا يعني ما تظن»، ولكن اضطررتُ إلى التساؤل إنْ كان يعني شيئاً آخر. أعلنتُ «إنّه يفعل ذلك ليحمينا، لكي لا نتورط في المشاكل».

قال ألفن «بسببي».

قلتُ مُحتجّاً «كلا!».

«ولكن هذا ما أخبركَ به. لكي لا تتورط العائلة في المشاكل بسبب ألفن. هكذا يُبرِّر الهراء الذي ينوي أنْ يتورط فيه».

«ولكن لأي سبب آخر **يمكن** أنْ يفعله؟» سألتُ هذا ببراءة طفل لكي أبدأ بالنأي بنفسي عن نزاع لم أعمل إلّا على مفاقمته بالكذب بكل غباء دفاعاً عن أخي. «ما الخطأ فيما يفعل إنْ كان يمدّ يد المُساعدة؟».

اكتفى بالإجابة بـ «أنا لا أصدقك، يا صاحبي»، ولأنني لم أكنْ أستطيع أنْ أُجاري ألفن، تخلّيتُ عن محاولة تصديق نفسي. ولكن ليتَ ساندي أخبرني بأنّه كان يعيشُ حياةً مُزدوجة! ليته *كان* يستغل موقفاً سيّئاً أفضل استغلال ويتنكَّر بهيئة الموالي لليندبرغ لكي يحمينا! ولكن بعد أنْ رأيته يُلقي مُحاضرة في جمهور من البالغين اليهود في كنيس برونسويك الكائن في طابقٍ تحتيّ، علِمتُ كم كان مُقتنعاً بما كان يقول وكيف كان يعبُّ من الانتباه الذي جلبَه ذلك له. لقد اكتشفَ في نفسه الموهبة الغريبة في أنْ يكون شخصيّة هامة، وهكذا بينما كان ساندي يُلقي خُطباً في مديح الرئيس ليندبرغ ويعرِض الرسوم التي تمثّله ويُطري علناً (بكلماتٍ كتبتها الخالة إيفلين) الفوائد الجمَّة للأسابيع الثمانية التي كان خلالها عاملاً في مزرعة

يهوديّة في قلب أرض غير اليهود - بينما كان يقوم، إذا عُرِفَت الحقيقة، بما لم أفكِّر أنا نفسي في فعله، بما هو عادي ويدل على حب الوطن في أميركا كلها ويُعتبَر شاذاً وغريباً فقط في منزله - كان يعيش أفضل أوقات حياته.

ثم كان التدخّل التالي الهائل من التاريخ: على هيئة دعوة محفورة من الرئيس ليندبرغ والسيدة حرمه للحاخام ليونيل بنغلسدورف والآنسة إيفلين فينكل لحضور حفل عشاء رسميّ على شرف وزير الخارجيّة الألماني في ليلة يوم السبت، الرابع من شهر نيسان (أبريل)، عام 1942. ورفعت جولةُ الطيران وحيداً بين ثلاثين مدينة عبر البلاد كلها سُمعةَ ليندبرغ بوصفِهِ رجلاً واقعيّاً حقيقيّاً واضح الكلام من شعب أرقى حتى مما كان قبل أنْ يُصنِّف وينتشيل حفلَ عشاء فون ريبنتروب بأنه يدل على «أفدح خطأ سياسيّ في هذا القرن». وسرعان ما بدأت الصفحات الافتتاحيّة للصُحُف الموالية للجمهوريين في الغالب في أرجاء البلاد كلّها تنعقُ قائلة إنّ فرانكلين ديلانو روزفلت والديمقراطيين هم الذين ارتكبوا خطأ الإساءة المقصودة لتفسير ما كان لا أكثر من حفل عشاء ودّي أقامه البيت الأبيض لشخصية أجنبية رفيعة المقام بأنّه مؤامرة خبيثة.

على الرغم من ذهول والديّ لدى سماعهما بأمر الدعوة، فإنه لم يكن هناك ما يمكنهما فعله. وكانا قبل ذلك بأشهر قد سجّلا خيبة أملهما من إيفلين لأنها أصبحت عضواً آخر في الجماعة الصغيرة من اليهود المُضلَّلين التابعين للذين يملكون السلطة. ولم يكن هناك معنى في تحدّي مرة أخرى صِلتها الإدارية عن بُعد برئيس الولايات المتحدة، خاصة أنهما كانا يعلمان أنّه ليس القناعة الأيديولوجيّة ما حفّزها، كما بدا خلال فترة وجودها في الاتّحاد، أو مجرد طموح سياسيّ جبان، بل بهجة إنقاذ الحاخام بنغلسدورف لها من حياتها كمُدرِّسةٍ بديلةٍ تعيش في علّيّة في شارع ديوي وانتقلتْ إلى حياةٍ في بلاط مَلَكيّ وكأنها سندريلا. ولكن عندما اتّصلتْ هاتفياً فجأة ذات مساء لتُخبر أمي بأنّها والحاخام أعدّا العُدّة

لكي يُرافقهما أخي إلى حفل عشاء فون ريبنتروب... حسن، في أول الأمر لم يرغب أحدٌ في تصديقها. إذ كان لا يزال من المستحيل قبول انتقال إيفلين بين ليلة وضُحاها من مجتمعنا المحلي الصغير إلى شهرة «مسيرة الزمن»، والآن سيحدث هذا لساندي أيضاً؟ ألم يكن ترويجه للينديرغ في أقبية الكنيس مُستحيلاً كفاية؟ وأصرَّ والدي على أنَّ هذا ببساطة لا يمكن أنْ يحدث - وكان يعني أنَّ هذا لا ينبغي أنْ يحدث، وأنّه، إذا استبعدنا التصديق، بغيضٌ جداً. وقال لأخي «إنَّ هذا يُثبِت فقط أنَّ خالتك مجنونة».

وربما كانت كذلك - ربما جُنَّت مؤقّتاً بسبب إحساسها المُبالَغ فيه بأهمّيتها الجديدة. إذ كيف بغير ذلك كان في وسعها أنْ تحشد الجرأة على الحصول على دعوة لحضور حدَث عظيم لابن أختها البالغ من العمر أربعة عشر عاماً؟ كيف بغير ذلك كان في استطاعتها أنْ تتغلَّب على الحاخام بنغلسدورف بتقديم مثل هذا الطلب الغريب إلى البيت الأبيض وليس عبر الإصرار بعِناد لا يلين على طلبه من أحمق مُستغرق في ذاته يرتقي في المرتبة؟ وتحدَّثَ معها والدي عبر الهاتف بأقصى ما استطاع من الهدوء، «كفاكِ حماقة، يا إيفلين. نحن لسنا من عليّة القوم. دعينا وشأننا، أرجوك. إنَّ لدى الإنسان العادي ما يكفي من الأمور ليهتم بها». لكنَّ التزام خالتي بتحرير ابن أخت متفوق من قيودِ تفاهةِ صهرٍ جاهل (لكي يلعب دوراً أساسيّاً في عالمٍ كعالمها) كان قد أصبح الآن صلباً. سوف يحضر ساندي العشاء كميثاقٍ على نجاحه في برنامج «أناس عاديون»، سوف يحضر بوصفِهِ لا أقلّ من ممثّل لبرنامج «أناس عاديون» في كل أرجاء البلاد، ولا يمكن لأبٍ يعيش في حيّ للأقليات أنْ يمنعه - أو يمنعها عن ذلك. ركبتْ سيارتها، وبعد خمس عشرة دقيقة جاءت فاتورة الحساب.

بعد أنْ أنهى والدي المكالمة، لم يبذل أيّ مجهود ليُخفي حنقه، وأخذ صوته يرتفع ويرتفع وكأنّه العم مونتي. «في ألمانيا يتمتّع هتلر بالكياسة على الأقلّ ليمنع اليهود من حضور حفلة نازيّة. هذا وعُصابات الذراع، هذا ومعسكرات الاعتقال، وعلى الأقلّ من الواضح أنَّ اليهود القذرين

غير مُرحَّب بهم. أما هنا فالنازيون يدّعون أنّهم يدعون اليهود إلى الحفل. لماذا؟ لكي يُضجروهم ويدفعوهم إلى النوم. يدفعونهم إلى النوم بحُلمهم السخيف بأنَّ كل شيء في أميركا رائع»، ثم هتف «أما *هذا*؟ *هذا*؟ دعوتهم لكي يُصافحوا يد مجرم نازيّ مُلطّخة بالدم؟ هذا لا يُصدَّق! إنَّ كذبهم ومكيدتهم لا يتوقفان لحظة واحدة! إنهم يعثرون على أفضل فتى، والأكثر موهبة، واجتهاداً في العمل، والأكثر نضجاً... كلا! لقد سخروا منا بما يكفي بما يفعلون بساندي! لن يذهب إلى أي مكان! يكفي أنهم سرقوا بلدي - ولن يسرقوا ابني!».

صرخ ساندي «ولكن لا أحد يسخر من *أحد*. إنَّ هذه الفرصة ***لا تُعوَّض***»، وقلتُ في نفسي «بالنسبة إلى شخص انتهازيّ»، لكنني لزمتُ الصمتَ.

قال له والدي «اهدأ»، لا أكثر، وكانت الصرامة الهادئة أشدّ تأثيراً من الغضب في دفع ساندي إلى فهم أنّه كان على شفا أنْ يمرّ بأسوأ ساعة في حياته.

قرعت الخالة إيفلين على الباب فنهضَتْ أمي لكي تفتح الباب الخلفيّ. هتفَ والدي من خلفها «ما الذي تفعله هذه المرأة الآن؟ لقد أمرتها بأنْ تدعنا وشأننا - وها هي ذي هنا، مع كل جنونها!».

لم تكن أمي تُخالف أبداً قرار أبي، لكنّها نجحتْ في أنْ ترميه بنظرة مُناشدة بينما كانت تُغادر المطبخ، وتأمل في إقناعه ربما في أنْ يكون رحيماً ولو قليلاً بإيفلين التي تستحق ذلك لحماقتها المتهوّرة التي استغلّتْ بها حماسة ساندي.

دُهِشَت الخالة إيفلين (أو هكذا تظاهرتْ) من عجز والديّ عن فهم ما يعني لفتى في مثل عمر ساندي أنْ يُدعى إلى البيت الأبيض، وما سيعني بالنسبة إلى مستقبله أنْ يكون ضيفاً على عشاء يُقام في البيت الأبيض... صرخَ والدي «أنا لستُ منبهراً *بالبيت الأبيض!*» وهو يضرب بيده بقوة على الطاولة ليُسكِتها بعد أنْ قال «في البيت الأبيض» للمرة الخامسة عشرة. «لا

يُبهرني إلّا مَنْ يُقيم هناك. والشخص الذي يُقيم هناك هو نازيّ»، وأصرّتْ إيفلين «إنّه ليس نازيّاً!»، «وهل تريدين أنْ تقولي إنَّ فون ريبنتروب أيضاً ليس نازيّاً؟»، وردّاً على هذا، وَصَفَتْ والدي بأنّه ضيِّق الأفق، جاهل، ريفيّ خائف... ووصفها هو بأنّها متسلّقة اجتماعياً، ساذجة، معدومة التفكير... واحتدم الشجار عبر الطاولة، كلٌ منهما ينفثُ حِممَ الاتّهام ليُضرِم حنق الآخر، إلى أنْ قالت الخالة إيفلين شيئاً - شيئاً مُعتدلاً نسبيّاً، كما اتّضحَ، حول كل الأشياء التي فعلها الحاخام بنغلسدورف من أجل ساندي - كان حماقة فاقَتْ كل ما سبقها بالنسبة إليه، فنهضَ عن الطاولة وأمرها بالمغادرة، «ارحلي. اذهبي. وإياكَ أنْ تعودي. لا أريد أنْ أراكِ في هذا المنزل بعد الآن».

لم تُصدِّق ما قال بقدر عدم تصديقنا جميعاً. بدا لنا مُزاحاً، عبارة قيلَتْ في فيلم لأبوت وكاستيللو. ارحل، يا كاستيللو. إذا استمررتَ على هذا المنوال، غادر هذا المنزل ولا تعُد أبداً.

نهضَتْ أمي من بين الثلاثة الجالسين مع أكواب الشاي وتبعته إلى البهو.

قال والدي لها «إنَّ المرأة بلهاء، يا بيس؛ بلهاء ساذجة لا تفهم أيَّ شيء. إنها بلهاء ***خطرة***».

قالت أمي له «أغلق الباب، أرجوك».

هتف «إيفلين. الآن. في الحال. ارحلي».

همستْ أمي «لا تفعل هذا».

أجاب «أنا في انتظار خروج أختك من بيتي».

قالت أمي «بل بيتنا»، ثم عادتْ إلى المطبخ. قالت بهدوء «إيف، ارحلي، لكي يسود الهدوء». كان وجه خالتي على الطاولة، مُستتراً بيديها. فأمسكت أمي بها من ذراعها ورفعتها لتنهض على قدميها ومشتْ بها إلى الباب الخلفي ومنه إلى خارج المنزل، وبدت خالتنا المنفعلة، الجازمة،

وكأنَّها أُصيبَتْ بطلقٍ ناريّ وحُمِلَتْ بعيداً لتموت. ثم سمعنا والدي يصفق الباب.

قال لساندي ولي عندما خرجنا إلى الرواق لنشاهد آثار المعركة، «تلك المرأة تعتقد أنّها *حفلة*. تعتقد أنّها *لعبة*. لقد سبقَ أنْ ارتدتما مسرح الأخبار. لقد صحبتكما إلى هناك. وتعرفان ماذا شاهدتما هناك».

قلتُ «نعم». شعرتُ بأنني يجب أنْ أقولَ شيئاً بما أنَّ أمي باتت الآن ترفض أنْ تتكلَّم. لقد تحمَّلَ بتجرُّد نبذ ألفن القاسي وتحمّلَ بتجرُّد مسرح عرض الأخبار والآن ها هو يتحمَّل بتجرُّد طرد خالته الأثيرة – وقرَّرَ وهو في سن الرابعة عشرة وانسجاماً مع رجال العائلة العنيدين أنْ يواجه أي شيء بكل جرأة.

قال والدي «حسن، إنها *ليست* لعبة. إنها معركة. تذكّرا هذا: معركة!».

من جديد قلتُ نعم.

«هناك في العالم الخارجي...». لكنّه سكت هنا. لم تكن أمي قد عادت بعد. كنتُ في التاسعة وظننتُ أنّها لن تعود أبداً. وربما هذا ما ظنّه والدي أيضاً، وهو في الحادية والأربعين: والدي، الذي تحرَّر بشقاء العديد من السنين، لم يتحرَّر من خشية فقدان زوجته النفيسة. ولم تعد الكارثة بعيدة عن ذهن أي منا، وكان ينظر إلى ولديه وكأنهما أصبحا فجأة محرومَين من الأمّ كما كان إيرل أكسمان في الليلة التي أُصيبت بها السيدة أكسمان بانهيارٍ عصبيّ. وعندما ذهب والدي إلى غرفة الجلوس لكي يطلّ من النوافذ الأماميّة، تبعناه أنا وساندي عن قُرب. لم تعُد سيارة الخالة إيفلين متوقفة عند حافة الرصيف. لم تكن أمي واقفة على الرصيف أو في الرواق أو في الزقاق أو حتى على الجانب المقابل من الشارع – ولا كانت في القبو عندما هرع والدي يهبط دَرَج القبو وهو يهتف باسمها. ولا كانت مع سيلدون وأمّه. كانا يتناولان الطعام في مطبخهما عندما قرع والدي الباب ودخلنا نحن الثلاثة.

قال والدي للسيدة ويشناو، «هل رأيتِ بيس؟».

كانت السيدة ويشناو امرأة بدينة، وطويلة القامة وخرقاء، تتنقّل في المكان وقبضتا يديها مضمومتان معاً، وما أذهلني هو أنّه كان يُقال عنها إنّها امرأة ضاحكة ولا تحمل همّاً عندما كان والدي يعرفها ويعرف عائلتها في منطقة «الجناح الثالث» قبل نشوب الحرب العُظمى. والآن بعد أنْ أصبحتْ أمّاً وتعيل عائلة، صار والداي دائماً يُطريان جهودها المُتواصلة بالنيابة عن سيلدون. وحياتها التي كانت صراعاً لا جدال حولها: كان يكفي النظر إلى قبضتيّ يديها.

سألته «ما الخطب؟».

«أليست بيس هنا؟».

ترك سيلدون مائدة المطبخ وخرج لكي يرحّبَ بنا. فمنذ انتحار والده كان بغضي له قد ازداد، وفي نهاية النهار كنتُ أختبئ في خلفيّة المدرسة عندما أعلم أنّه خرج ينتظرني في الشارع لكي يُرافقني إلى البيت. وعلى الرغم من أننا كنا نُقيم في مكان قريب من المدرسة، كنتُ في الصباح أهبط الدَرَج على أطراف أصابع قدميّ وأغادر المنزل قبل موعدي المُحدَّد بخمس عشرة دقيقة لكي أسبقه في الخروج من الباب. ولكن في وقت متأخر من بعد الظهيرة كنتُ دائماً أُصادفه، حتى وإنْ كنتُ في الطرف القصيّ من تل جادة تشانسلر. أكون في أداء مهمة منزليّة وإذا بسيلدون يتبعني، يتصرَّف وكأنه قابلني مُصادفة. وكلما عرَّجَ عليّ لكي يُعلِّمني لعب الشطرنج، أتظاهر بأنني لستُ في المنزل ولا أفتح الباب. وإذا كانت أمي حاضرة تُحاول أنْ تُقنعني باللعب معه بتذكيري بكل ما أريد أنْ أنسى. «لقد كان والده لاعب شطرنج بارعاً. وقبل سنين عديدة كان بطل العام. وهو الذي علَّمَ سيلدون، والآن لم يعُد لدى سيلدون مَن يلعب معه، ويُريد أنْ يلعب معك». وأقول لها إنني لا أحبّ اللعبة ولا أفهمها أو أعرف كيف ألعبها، ولكن أخيراً لا يبقى أمامي خيار ويأتي سيلدون مع رقعة الشطرنج وأحجاره وأجلسُ قبالته على طاولة المطبخ حيث يبدأ في الحال بتذكيري كيف صنعَ والده الرقعة وكيف عثر على

قطع الشطرنج. «ذهبَ إلى نيويورك، وكان يعرف بالضبط الأماكن التي ينبغي ارتيادها، ويعثر بالضبط على ما يريد - أليستْ جميلة؟ إنها مصنوعة من نوعٍ خاص من الخشب. وهو الذي صنع هذه الرقعة. يجلب الخشب، ويقطّعه - أترى تنوُّع ألوانها؟» والطريقة الوحيدة التي تجعلني أُسكته عن متابعة الكلام إلى ما لا نهاية عن والده الميِّت المُخيف كانت بقصفه بآخر ما سمعتُ من نكات قذرة في المدرسة.

عندما ارتقينا من جديد إلى الطابق العُلويّ علِمتُ أنَّ والدي سوف يتزوج السيدة ويشناو، وأنّنا ذات مساء قريب سوف نحمل أغراضنا ونهبط من الدَرَج الخلفيّ وننتقل للعيش معها ومع سيلدون، وأنني في طريقي إلى المدرسة كما في طريقي إلى المنزل لن تكون هناك وسيلة لتفادي سيلدون من جديد وحاجته النهمة إلى استمداد المُساندة مني. وحالما أصل إلى المنزل، أُضطر إلى إخفاء معطفي داخل الخزانة التي كان والد سيلدون قد شنقَ نفسه فيها. وينام ساندي في صالون آل ويشناو المُشمس، كما كان يفعل في منزلنا عندما نام ألفن معنا. كنتُ أنام في غرفة النوم الخلفيّة بجوار سيلدون، بينما في غرفة النوم الأخرى كان والدي ينام حيث كان والد سيلدون ينام، بجوار والدة سيلدون وقبضتيها المشدودتين.

أردتُ أنْ أذهب إلى منعطف الشارع وأركب الحافلة وأختفي. كنتُ لا أزال أحتفظ بالدولارات التي أعطاني إياها ألفن في داخل حذاء في قعر خزانتي. وكنتُ سأُخرِج النقود وأستقلّ الحافلة إلى محطة بن وأشتري بطاقة اتجاه واحد لمقعد على متن القطار المتوجّه إلى فيلادلفيا. وهناك سوف أعثر على ألفن، ولن أعيش بعد ذلك أبداً مع عائلتي. وبدل ذلك سوف أمكث مع ألفن وأعتني بجدعته.

اتصلتْ أمي بالمنزل بعد أنْ أودعتِ الخالة إيفلين السرير. كان الحاخام بنغلسدورف في واشنطن، لكنّه تكلَّم مع إيفلين عبر الهاتف وبعد ذلك تكلَّم مع أمي، وطمأنها بأنّه يعلم أفضل من زوجها الغبي ما هو في مصلحة اليهود وما هو في غير مصلحتهم. ولن ينسى أبداً أسلوبه

في مُعاملة إيفلين، كما قال، خاصة بعد أنْ بذل أقصى جهده لمساعدة ابن أختها تلبية لطلب إيفلين. وختم الحاخام كلامه مع أمي بإبلاغها بأنَّ تصرُّفاً مناسباً سوف يُتّخذ في الوقت المناسب.

عند حوالي الساعة العاشرة، ذهب والدي لكي يوصِل والدتي إلى منزلها. وكنتُ أنا وساندي قد ارتدينا بيجامتينا عندما ولجَتِ الغرفة وجلستْ على سريري وأمسكتْ بيدي. لم أكنْ قد رأيتها مُرهقة هكذا – لم تكن مُستنزفة تماماً كحال السيدة ويشناو ولكنها لم تعُد الأم الحيوية الممتلئة بالرضا والتي تضجّ بالطاقة الداخليّة عندما كانت متاعبها تتركّز على تدبُّر أمر عائلتها بالمعاش الصافي الذي لا يزيد على خمسين دولاراً في الأسبوع. عملٌ في قلب المدينة، وإدارة شؤون منزل، وأخت صاخبة، وزوج حازم، وابن عنيد في الرابعة عشرة، وابن خائف في التاسعة – ولا حتى الإغراق المتزامن لكل هذه الهموم بكل طلباتهم الكثيرة كان يمكن أنْ يُثقِل كاهل امرأة واسعة الحيلة، لولا وجود ليندبرغ أيضاً.

قالت «ساندي، ماذا سنفعل؟ هل أشرح لك لماذا لا يعتقد البابا أنَّ عليك أنْ تذهب؟ هل نستطيع أنْ نفعل هذا معاً وبهدوء؟ فعند نقطة ما علينا أنْ نناقش كل شيء. بيني وبينك فقط. أحياناً يفقد والدك أعصابه، ولكن هذا لا يحدث معي – أنت تعلمُ هذا. تستطيع أنْ تثقَ بي في الإصغاء إليك. ولكن ينبغي أنْ نكوِّن وِجهة نظر مما يحدث. لأنه ربما ليس في مصلحتك أنْ تنجذب أكثر إلى شيءٍ كهذا. ربما ارتكبتِ الخالة خطأً. لقد تمادت في حماستها، يا عزيزي. هي كذلك طوال حياتها. ما إنْ يقع أمرٌ غريب حتى تفقد قُدرتها على رؤية الأشياء. البابا يعتقد... هل أتابع، يا عزيزي، أم ترغب في الإيواء إلى النوم؟».

قال ساندي بفتور «كما تشائين».

قلتُ «تابعي».

ابتسمت أمي لي «لماذا؟ ماذا تريد أنْ تعرف؟».

«سبب صُراخ الجميع».

«لأنَّ الجميع مختلفون في وجهات النظر». ثم قالت، وهي تُقبّلني مودِّعة، «لأنَّ الكثير من الهموم تشغل الجميع»، ولكن عندما مالتْ فوق سرير ساندي لكي تُقبّله أشاح بوجهه نحو الوسادة.

في المعتاد كان والدي يذهب إلى مركز عمله قبل أنْ نستيقظ ساندي وأنا، وتكون أمي قد استيقظتْ باكراً لكي تتناول وجبة الإفطار معه ولكي تُعدّ لنا شطائر الغداء وتلفّها بورق المُشمّع وتضعها في الثلاجة ومن ثم تغادر بدورها إلى عملها بعد أن تتأكّد من أننا استعددنا للانطلاق إلى المدرسة. ولكن في اليوم التالي لم يخرج والدي إلى المكتب إلّا بعد أنْ أُتيحتْ له الفرصة ليوضِّح لساندي سبب عدم السماح له بالذهاب إلى البيت الأبيض ولماذا لن يُسمَح له بعد الآن بالمشاركة في أي برنامج يرعاه مكتب الاستيعاب الأميركي.

قال يشرح لساندي «إنَّ أصدقاء فون ريبنتروب أولئك ليسوا أصدقاءنا. وكل مكيدة قذرة دبّرها هتلر في أوروبا، كل كذبة حقيرة قالها للبلدان الأخرى، خرجتْ من فم السيد فون ريبنتروب. وذات يوم سوف تدرس ما حدث في ميونيخ. سوف تدرس الدور الذي لعبه السيد ريبنتروب في خِداع السيد تشامبرلين لتوقيع معاهدة لا تستحق الورقة التي كُتِبَتْ عليها. اقرأ ما ورد عن هذا في مجلة *PM*. استمع إلى ما يقوله وينتشل عن هذا الرجل. إنَّ وينتشل يُسمّيه وزير الخارجيّة فون ريبنْسنوب[33]. أتعلم ماذا كان يعمل لكسب عيشه قبل الحرب؟ كان يبيع الشمبانيا. كان بائع مشروبات، يا ساندي. زائف - إنه بلوتوقراطيّ[34] ولصّ وزائف. حتى لقب «فون» في اسمه زائف. لكنك لا تعلم أي شيء عن هذا. لا

33- أضاف لفظ «سنوب» إلى الاسم، ويعني المتكبِّر والمتعجرف. - المترجم
34- البلوتوقراطية هي حكم أصحاب المال والثروات. - المترجم

تعلم أيّ شيء عن ريبنتروب، لا تعلم أيّ شيء عن غورينغ[35]، ولا تعلم أيّ شيء عن غوبلز[36] وهيملر[37] وهيس[38] - أما *أنا* فأعلم. هل سمعتَ مرّة عن القلعة في النمسا التي يأوي فيها الهر فون ريبنتروب ويُطعِم مجرمين نازيين؟ أتعلم كيف حصل عليها؟ لقد سرقها. والنبيل الذي كان يمتلكها هيملر أُلقيَ به في معسكر للاعتقال، والآن أصبحتْ مُلكاً لبائع المشروبات! أتعلم أين تقع دانتزيغ، يا ساندي، وماذا وقعَ لها؟ أتعلم ما هي معاهدة فيرساي؟ هل سمعتَ عن كتاب ***Mein Kampf*** (كفاحي)؟ اسأل السيد فون ريبنتروب - هو سيُخبرك. وأنا أيضاً سأخبرك، ولكن ليس من وِجهة نظر نازيّة. إنني أتابع الأخبار، وأقرأ أشياء، وأعرف مَنْ هم أولئك المُجرمون، يا بنيّ. ولن أسمح لكَ بالاقتراب منهم بعد الآن».

أجابَ ساندي «لن أسامحكَ أبداً على هذا».

قالتْ له أمي «بل ستسامحه. ذات يوم سوف تفهم أنَّ ما يريده البابا من أجلك هو أفضل ما في مصلحتك. إنّه على صواب، صدّقني - لا صِلة لك بأولئك الناس. إنهم فقط يستغلونك».

سألَ ساندي «والخالة إيفلين؟ الخالة إيفلين أيضاً «تستغلّني»؟ توفير دعوة لي إلى البيت الأبيض - أهذا ما يجعل مني «مُستغلّاً»؟».

قالتْ أمي بحزن «نعم».

قال «كلا! هذا غير صحيح! أنا آسف ولكن لا أستطيع أنْ أخذل خالتي إيفلين».

35- هرمان فيلهلم غورينغ (1893-1946): زعيم وقائد جيش ألماني نازي، ومؤسّس منظمة البوليس السري النازي، الغيستابو.. انتحر. - المترجم

36- بول جوزيف غوبلز (1897-1945): سياسي نازي، ووزير الدعاية السياسيّة. - المترجم

37- هاينريش هيملر (1900-1945): زعيم نازي، ورئيس قِوى الأمر النازية SS والغيستابو. - المترجم

38- فالتر رودولف هيس (1894-1987): زعيم نازي. طار سرّاً إلى بريطانيا لعقد معاهدة سلام، لكنّه احتُجِزَ كسجين حرب. لاحقاً حُكِمَ عليه بالسجن مدى الحياة، لكنه انتحر.

قال والدي له «إنَّ خالتك إيفلين هي التي خذلتنا»، ثم أردفَ باحتقار، «إنَّ الهدف الوحيد من برنامج «أناس عاديون» هو تحويل الأطفال اليهود إلى طابور خامس وجعلهم ينقلبون ضد أهاليهم».

قال ساندي «هذا هراء!».

قالت أمي «اسكتْ! اسكتْ عن هذا فوراً. أتُدرك أننا العائلة الوحيدة في المبنى التي تمرّ بمثل هذه المحنة؟ بل العائلة الوحيدة في الحي كلّه. لقد تعلَّم الجميع الآن أنْ يُتابعوا العيش كما كانوا يعيشون قبل الانتخابات وأنْ ينسوا مَنْ يكون الرئيس. وهذا ما نفعله أيضاً. لقد وقعتْ أمورٌ سيّئة، لكنّها انتهت الآن. لقد رحل ألفن الآن ورحلت الخالة إيفلين، وكل شيء سوف يعود إلى طبيعته».

سألها ساندي «ومتى ستنتقلون إلى كندا، بسبب عقدة الاضطهاد هذه؟».

قال والدي وهو يُشير بإصبعه «إياك أنْ تُحاكي بسُخرية عمّتك الغبيّة. إياك أنْ تتكلَّم هكذا مرة أخرى».

قال ساندي له «أنت دكتاتور، أنت دكتاتور *أسوأ* من هتلر».

لأنَّ كلاً من والديّ نشأ وترعرع في منزلٍ لم يكن الوالد الذي ينتمي إلى بلدٍ قديم يتردَّد في تأديب أولاده وفقاً للأساليب التقليديّة بالإكراه، كانا هما أنفسهما عاجزين عن ضرب ساندي أو ضربي ويستنكران العقاب الجسديّ لأي شخص. وبالتالي، فإنَّ كل ما فعله والدي ردّاً على قول ابنٍ له إنّه أسوأ من هتلر كان أنْ يدير ظهره باشمئزاز والذهاب إلى العمل... ولكن ما إنْ خرج من الباب الخلفيّ حتى رفعَتْ أمي يدها وصفعَتْ ساندي على وجهه، أمام ذهولي. وصرختْ فيه «ألا تعلم ما الذي فعله والدك الآن من أجلك؟ أكمِلْ إفطارك واذهب إلى المدرسة. وعُدْ إلى المنزل بعد انتهاء الدوام. لقد وضع والدك القانون – ويُستحسَن بك أنْ ترضخ له».

عندما ضربته لم يرفّ له جفن، والآن، قام، بكل مقاومة لديه، بتضخيم تصرّفه البطوليّ بأنْ قال لها بوقاحة «سوف أذهب إلى البيت الأبيض مع خالتي إيفلين. ولا يهمني إنْ أحبَّ أهل الحيّ اليهودي ذلك أم لم يُحبّوه».

وزيادة في قُبح صباح ذلك اليوم، وزيادة في اضطرابنا الذي لا يُصدَّق بدرجةٍ تُحطِّم الأعصاب، جَعلتْه يدفع الثمن الكامل لتحدّيه كابن بتسديد ضربة قوية ثانية إليه، وهذه المرّة انفجر بالبكاء. ولو لم يفعل، لرفعتْ أمنا العاقلة هذه يدها الرقيقة الحنون، وضربته مرة ثالثة، فرابعة، وخامسة. قلتُ في نفسي «إنها لا تعرف ماذا تفعل، إنها شخصٌ آخر- *الجميع* هم كذلك»، وحملتُ الكتب المدرسيّة وهرعتُ أهبط الدَرَج الخلفيّ إلى الزقاق ومنه إلى الشارع العامّ، وإذا بسيلدون، وكأنَّ النهار لم يكن كئيباً كفاية حتى الآن، ينتظرني عند الرواق الأمامي للمنزل لكي يُرافقني إلى المدرسة.

في طريق عودتي من المدرسة إلى المنزل بعد ذلك بأسبوعَين توقفَ والدي في مسرح عرض الأخبار لكي يلحق بعرض التغطية المُصوّرة لحفل عشاء فون ريبنتروب. عندئذٍ علِمَ من شيبسي تيرشويل، الذي قام بزيارته في مقصورته بعد انتهاء العرض، أنَّ صديق طفولته القديم سوف يرحل مع زوجته إلى وينيبغ، وأولاده الثلاثة، وأمّه، ووالديّ زوجته العجوزَين، في الأول من شهر حزيران (يونيو). كان ممثلو جالية صغيرة من يهود وينيبغ قد ساعدوا السيد تيرشْويل على إيجاد عمل كعامل عرض في دار للسينما في الحيّ هناك وعثروا على شُقق لعائلة بأكملها في حي يهودي متواضِع يُشبه كثيراً حيّنا. وتدبّر الكنديون أيضاً قرضاً منخفض الفائدة يدفعونه لتكاليف انتقال آل تريشويل من أميركا وللمساعدة في دعم الأقارب إلى أنْ تعثُر السيدة تريشويل على عمل في وينيبغ يُمكّنها من تغطية تكاليف حياة والديها. وأخبر السيد تريشويل والدي أنّه يكره مغادرة المدينة مسقط رأسه وأصدقائه الأعزّاء، وانّه يندم طبعاً على تركه عمله الفريد من نوعه

في المسرح الأهمّ في نيوارك. لقد ترك الكثير وخسر الكثير، لكنّه اقتنعَ بعد أنْ شاهد كل الفيلم الخام غير المحذوف منه أي جزء والذي بقيَ يشاهده طوال العديد من السنوات الماضية من طواقم نشرات الأخبار العاملين في أنحاء العالم بأنَّ الجانب السرّي من المعاهدة الدوليّة التي تمَّ التوصُّل إليها في ايسلندا بين ليندبرغ وهتلر في عام 1941 شريطة أنْ يهزم هتلر الاتحاد السوفييتي، ثم أنْ يجتاح إنكلترا ويهزمها، وفقط بعد ذلك (بعد أنْ يكون اليابانيون قد اجتاحوا الصين، والهند وأستراليا، وبذلك يكتمل تشكيل «نظامهم الجديد في شرق آسيا الأعظم») يمكن لأميركا بقيادة ليندبرغ أنْ تؤسِّس «نظاماً جديداً فاشيّاً أميركيّاً»، حُكماً دكتاتوريّاً شموليّاً على غرار حُكم هتلر يُعدّ الساحة لنشوب الصراع العظيم الأخير في أوروبا - غزو ألمانيا واجتياحها لأميركا الجنوبيّة وتحويلها إلى نازيّة. وبعد مُضيّ عامَين، ورفع راية هتلر مع النجمة المعقوفة على مباني البرلمان في لندن، ورفع راية الشمس المُشرقة[39] فوق سيدني، ونيو دلهي، وبكين، وانتخاب ليندبرغ لفترة رئاسيّة أخرى مدّتها أربع سنوات، سوف تُغلِق الولايات المتحدة حدودها مع كندا، وتُقطَع العلاقات الدبلوماسيّة بين البلدَين، وهكذا من أجل تركيز انتباه الأميركيين على الخطر الداخلي الكبير الذي يستلزم اختزال حقوقهم الدستوريّة، سوف تبدأ المذبحة الجماعيّة في حق أربعة ملايين ونصف المليون من الأميركيين اليهود.

في عقب زيارة فون ريبنتروب لواشنطن - والنصر الذي مثّلته بالنسبة إلى داعمي أميركا في ظل ليندبرغ الأشدّ خطراً - كان هذا هو تكهُّن تيرشويل، وكان أشد تشاؤماً بكثير من أي شيء توقّعه والذي بحيث أنّه قرّرَ ألّا يُكرِّر سرده على مسامعنا عندما عاد إلى المنزل من دار عرض الأخبار لتناول وجبة العشاء باكراً في ذلك المساء، وألّا يقول أيَّ شيءٍ عن رحيل تيرشويل الوشيك، متيقّناً من أنَّ الأخبار سوف تبثُّ فيَّ الرعب، وتُغضِب

39- راية الشمس المشرقة: كانت العلم الرسمي الياباني في العهد الإمبراطوري، وكان يرمز إلى الحرب. - المترجم.

ساندي، وتدفع أمي إلى أنْ تُطالب بغضب بالهجرة الفوريّة. ومنذ تنصيب ليندبرغ رئيساً قبل ذلك بعامٍ ونصف، كان يُقدَّر عدد العائلات اليهوديّة التي اتّخذتْ من كندا ملاذاً دائماً لا يتجاوز المئتين أو الثلاثمئة عائلة؛ وكان آل تيرشويل هم أول أولئك المُهاجرين الذين كان والدي يعرفهم شخصيّاً، وعِلْمه بقرار رحيلهم هزَّه.

ثم جاءت صدمة مُشاهدته في الفيلم النازيّ فون ريبنتروب وزوجته وهما يُستقبَلان بحرارة في البيت الأبيض من قِبَل الرئيس والسيدة ليندبرغ. وصدمة مُشاهدة كل الضيوف البارزين وهم يترجّلون من سياراتهم الليموزين ويبتسمون بترقُّب لِما سينتُج عن تناول الطعام والرقص في حضور فون ريبنتروب - ومن بين الضيوف، ولا يقلّ حماساً عن الآخرين من المناسبة المُثيرة للاشمئزاز، كان الحاخام ليونيل بنغلسدورف والآنسة إيفلين فينكل. قال والدي «لم أُصدِّق الابتسامة العريضة التي رسمتها على وجهها. والزوج المُرتَقَب؟ يبدو وكأنّه يعتقد أنَّ العشاء مُقامٌ على شرفه. ينبغي أنْ تري هذا الرجل - وهو يومئ برأسه لكل شخص وكأنّ له أيّة أهميّة!». سألتْه أمي «ولكن لماذا ذهبتَ، وأنت تعلم أنَّك سوف تنزعج هكذا؟»، قال لها «لقد ذهبتُ لأنَّني أتساءلُ في كل يوم السؤال نفسه: كيف يمكن لهذا أنْ يحدث في أميركا؟ كيف يُعقَل أنْ يحكم بلدنا أناسٌ كهؤلاء؟ ولو لم أشاهده بعينيّ، لاعتقدتُ أنني أهذي».

على الرغم من أننا كنا بالكاد باشرنا تناول وجبة العشاء، إلّا أنَّ ساندي ترك طعامه، وتمتمَ «ولكن لا شيء يحدث في أميركا، **لا شيء**» ثم غادر المائدة - وليس للمرة الأولى منذ صباح ذلك اليوم الذي صفعته أمي على وجهه. والآن أثناء تناول الوجبات، كلما ذُكرَت الأخبار بأقلّ ملاحظة، ينهض ساندي من دون تفسير أو اعتذار ويختفي داخل غرفتنا، ويُغلق الباب خلفه. في المرات القليلة الأولى كانت أمي تنهض وتتبعه وتُجري معه حديثاً وتدعوه إلى العودة إلى المائدة، لكنَّ ساندي يجلس على طاولة كتابته ويبري قلم الفحم أو يعبث به ويُمرّره على أوراق الرسم إلى أنْ

تتركه. ولم يكن أخي يتحدث حتى معي عندما أتجرّأ، فقط بدافع الشعور بالوحدة، وأسأله إلى متى سيبقى يتصرَّف هكذا. وبدأتُ أتساءل إنْ كان سيجمع أغراضه ويغادر المنزل، ليس إلى الخالة إيفلين بل لكي يعيش مع آل ماويني في مزرعتهم في كينتكي. ويُغيِّر اسمه ليُصبح ساندي ماويني ولن نراه بعد ذلك، كما أننا لن نرى ألفن. ولن يهتم أحد باختطافه - سوف يفعل ذلك بنفسه، سوف يُسلِّم نفسه للمسيحيين ويقطع كل صِلة له باليهود. لا أحد يهتم باختطافه لأنَّ ليندبرغ اختطفه أصلاً، كما اختطف الجميع!

سبَّب سلوك ساندي لي الاضطراب إلى درجة أنني، في الأمسيات، كنتُ أحلُّ وظائفي المدرسيّة بعيداً عن نظره على طاولة المطبخ. هكذا تناهى إلى سمعي صوت والدي - الذي كان في غرفة الجلوس مع أمي، يقرأ صحيفة المساء هناك بينما بقيَ ساندي في معتزله المُمتعِض في الجزء الخلفي من الشقّة - ويُذكّرها بأنَّ اضطرابنا الخاص هو بالضبط نوع الخلاف الذي كان يأمل المُعادون للساميّة من أتباع ليندبرغ في إثارته بين الآباء اليهود وأولادهم ببرامج شبيهة ببرنامج «أناس عاديون». لكنَّ إدراك هذا الأمر لم يعمل إلّا على تصعيب عزمه على الّا يسير على خُطى تريشويل ويرحل.

قالتْ أمي «عمَّ تتحدث؟ هل تقول إنَّ آل تريشويل مُغادرون إلى كندا؟»، أجاب «نعم، في شهر حزيران»، «لماذا؟ لِمَ في حزيران؟ ماذا سيحدث في حزيران؟ ماذا اكتشفتَ؟ لِمَ لا تقول شيئاً؟»، «لأنني أعلم أنَّ كلامي سيزعجكِ»، «وهذا ما حصل -»، ثم سألتْ «لِمَ لا أنزعج؟ لماذا، لماذا، يا هرمان، لِمَ سيرحلون في حزيران؟»، قال والدي بهدوء «لأنَّ الوقتَ قد حان للرحيل حسب رأي شيبسي. دعينا من هذا النقاش. إنَّ الصغير في المطبخ، ويُعاني ما يكفي من المخاوف. إذا شعر شيبسي بأنَّ الوقتَ قد حان، فهذا قراره لمصلحته ومصلحة عائلته، ونتمنى له حظّاً وافراً. إنَّ شيبسي يُتابع آخر الأخبار على امتداد الساعات. والأخبار هي أساس حياة شيبسي، والأخبار رهيبة، وتؤثِّر على أسلوب تفكيره، وهذا

هو القرار الذي توصّلَ إليه»، قالت أمي «لقد توصّلَ الرجل إلى قرارٍ لأنه *مُطّلع*»، قال والدي بحِدّة «وأنا أيضاً مُطلِع. ولستُ أقلّ اطلاعاً – كل ما في الأمر أنني توصّلتُ إلى نتيجة مختلفة. ألا تفهمين أنَّ أولاد الحرام المُعادين للساميّة أولئك يُريدون *منا* أنْ نهرب؟ يُريدون أنْ يجعلوا اليهود يسأمون كل شيء» كما قال، «وأنّ يُغادروا إلى الأبد، ومن ثم يستولي غير اليهود على هذا البلد الجميل كلّه ويُصبح لهم وحدهم. حسنٌ، أنا لديّ فكرة أفضل. لِمَ لا يرحلون *هم*؟ كلّهم – لِمَ لا يذهبون كلّهم ويعيشون في ظل حكم صاحبهم الفوهرر في ألمانيا النازيّة؟ حينئذٍ سوف يحصلون *هم* على بلد رائع! اسمعي، في وسع شيبسي أنْ يفعل ما يراه صواباً، أما نحن فلنْ نذهب إلى أي مكان. ما زالت هناك محكمة عُليا في هذا البلد. وبفضل فرانكلين روزفلت هي محكمة عُليا ليبراليّة، وهناك تتم رعاية حقوقنا. هناك القاضي دوغلاس[40]. وهناك القاضي فرانكفورتر. هناك القاضي مورفي والقاضي بلاك. إنّهم هناك لدعم القانون. ما زال هناك رجالٌ صالحون في هذا البلد. هناك روزفلت، هناك إيكس، وهناك العمدة لا غوارديا. وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سوف تجريَ انتخابات في الكونغرس. ما زال هناك صندوق الاقتراع ويستطيع الناس أنْ يُصوّتوا في منأى عن وصاية أحد»، سألته أمي «وعلام سيصوتون؟»، وقامت بنفسها بالإجابة عنه في الحال، قالت «الشعب الأميركي سيصوّت، وسوف يصبح الجمهوريون أقوى»، «الزمي الهدوء. أبقي صوتك منخفضاً، هلّا فعلتِ؟» ثم قال «عندما يأتي شهر تشرين الثاني سوف نعرف النتائج، وسوف يتوفّر لنا الوقت لنُقرِّر ماذا نفعل»، «وإذا لم يتوفّر الوقت؟»، «سوف يتوفّر»، ثم قال «أرجوك، بيس، لا يمكننا أنْ نستمر هكذا كل ليلة»، وكانت تلك آخر كلماته، وربما بسبب وجودي في المطبخ أؤدي واجبي المدرسي اضطرَّت أمي إلى السكوت.

40- وليم دوغلاس (1898–1980): عيَّنه الرئيس فرانكلين روزفلت قاضياً في المحكمة العليا، وكان من أعدل القُضاة. – المترجم

ولجتُ إلى الداخل حالما أُطفئت الأنوار وتصاعدت الموسيقى العسكريّة وبدأ عرض الفيلم. ولأنَّ كل رجل في نيوارك (لم تكن دار المسرح تجذب إلّا القليل من النساء) بدا أنّه يريد انْ يُلقي نظرة على ضيف البيت الأبيض البغيض، كان المكان ممتلئاً عن آخره لمشاهدة عرض مساء يوم الجمعة والمقعد الوحيد الشاغر الذي عثرتُ عليه كان في آخر البلكون - والآن أي شخص يدخل سوف يُضطر إلى الوقوف في خلفيّة آخر صفّ من الفرقة الموسيقيّة. وغمرني الحماس، ليس بسبب نجاحي بصعوبة في انتزاع شيء لم يُتوقَّع مني فقط، بل لأنني شعرتُ، ودخان مئات السجائر والعبق القويّ لسيجار الخمس سنتات يُغلّفني، وكأنني في أعماق سِحر رجوليّ لفتى يضعُ قِناع رجل وسط الرجال.

البريطانيون ينزلون على جزيرة مدغشقر من أجل احتلال قاعدة بحريّة فرنسيّة.

بيير نافال، رئيس وزراء حكومة فيشي الفرنسيّة، يدين التحرُّك البريطاني ويصِفه بأنه «عمل عُدوانيّ».

قِوى الجو الملكي الفرنسيّ تقصِف شتوتغارت لليلة الثالثة على التوالي.

المُقاتلات البريطانيّة تخوضُ معركة شرسة فوق جزيرة مالطا.

الجيش الألماني يستأنف قصفه للاتحاد السوفييتي في شبه جزيرة كيرش.

ماندالية تسقط في أيدي الجيش الياباني في بورما.

الجيش الياباني يشقُّ طريقاً جديدة في أدغال غينيا الجديدة.

الجيش الياباني يقتحم مقاطعة يونان في الصين انطلاقاً من بورما.

رجال العصابات الصينيون يشنّون غارة على مدينة كانتون، ويقتلون خمسمئة من القوات اليابانيّة.

الكثير من الخوذات، والملابس العسكرية، والأسلحة، والأبنية،

والمرافئ، والشواطئ، والنباتات والحيوانات - ووجوه إنسانية من الأعراق كلّها - وفيما عدا ذلك الجحيم نفسه من جديد، والشر الفائق الذي لم تنجُ من أهواله، من بين الدول العُظمى كلها، إلّا الولايات المتحدة وحدها. وتوالت صور البؤس بلا توقف: مدافع هاون تدوّي، وجنود المُشاة يتكاثرون ويركضون، وجنود البحرية يرفعون بنادقهم ويخوضون الشاطئ، وطائرات ترمي القنابل، وطائرات تُنسَف وتنهار بحركة لولبيّة إلى الأرض، وقبور جماعيّة، وقساوسة راكعون، وصلبان مُرتجلة، وسُفن تغوص، وبحّارة غارقون، وبحر مُلتهِب، وجسور منسوفة، وقصف الدبابات، والمستشفيات المُستهدفة مُهشّمة إلى نصفين، وأعمدة النار تتصاعد من حاويات بترول مقصوفة، وسجناء وسط بحر من الطين، ونقّالات تحمل أجساداً حيّة، ومدنيون مطعونون بالحِراب، وأطفال موتى، وجُثث مقطوعة الرؤوس يُبقبق منها الدم...

ومن ثم البيت الأبيض. وأمسية ربيع تُضيئها حُمرة الشفق. وظلالٌ تسقط عبر مرج. وشجيرات مُزدهرة. وأشجار مزهرة. وسيارات ليموزين يقودها سائقون بزيّ رسميّ والجميع يترجّلون منها بملابسهم الرسميّة. ومن الأروقة ذات الرخام خلف أبواب الأروقة المكشوفة، تعزف فرقة من عازفي آلات وتريّة الأغنية التي كانت رائجة العام السابق، «فاصل موسيقي»، أُخِذَ لحنها من اللحن الأساسي لأوبرا فاغنر «*تريستان وإيزولد*». وابتسامات جميلة. وضحك خافت. ورئيس الجمهوريّة النحيل والوسيم. وإلى جواره الشاعرة الموهوبة، وقائدة الطائرة الجريئة، العضوة اللائقة والبارزة في المجتمع وأم ولدهما المغدور. والضيف المُشرَّف، المهذار، ذو الشعر الفضيّ. والزوجة النازيّة الأنيقة بثوبها الطويل من الساتان. وكلمات الترحيب، والطُرَف، ورجل العالم القديم الأنيق، المُغرَق بالحركات المسرحيّة الجديرة بالبلاط الملكيّ ويبدو بملابس السهرة بأبهى صورة، يُقبِّل بحركة فاتنة يد السيدة الأولى.

لولا الصليب الحديديّ، الذي أُعطيَ كجائزة إلى الوزير الأجنبي

من قِبَل سيده الفوهرر ويُزيِّن الجيب تحت منديل الحرير المُرتَّب بأناقة شديدة ببضع بوصات، ودجّال مُتحضِّر بصورة مُقنِعة بأقصى ما يمكن لبراعةِ مخلوقٍ إنسانيّ أنْ تُنجز.

وها قد وصلنا! الخالة إيفلين، والحاخام بنغلسدورف - يمرّان بحرس جنود البحريّة، ومن خلال الباب، ويختفيان!

لم يظهرا على الشاشة أكثر من ثلاث ثوان، ثم تلا ذلك باقي الأخبار المحليّة والختام بلقطات من الأنشطة الرياضيّة التي لم أفهمها وتمنّيتُ لو يعود الشريط السينمائي إلى اللحظة التي ظهرت فيها خالتي تتلألأ بالأحجار الكريمة التي كانت سابقاً من ممتلكات زوجة الحاخام المتوفّاة. ومن بين اللقطات غير المُحتملَة التي أنجزتها آلات التصوير وكأنها حقيقة لا يمكن دحضها، كان انتصار الخالة إيفلين المُشين بالنسبة إليّ هو الأقلّ واقعيّة على الإطلاق.

بعد انتهاء العرض السينمائي وإنارة الأضواء، كان هناك عامل إرشاد إلى المقاعد بزيّ رسمي واقفاً في الممر يُشير بمصباحه. قال «أنت. تعال معي».

قادني خلال الحشد الذي كان يُخلي البهو ودخلنا من باب فتحه بمفتاح ومن ثم ارتقينا دَرَجاً ضيّقاً تعرَّفتُ عليه منذ أنْ جُلِبنا أنا وساندي إلى هنا من أجل مشاهدة مسيرات فون ريبنتروب في ماديسون سكوير غاردن. سألني المرشِد «كم عمرك؟».

«ست عشرة سنة».

«سن مناسبة. استمر، يا فتى. أقحم نفسك في مزيد من المشاكل».

قلتُ له «يجب أنْ أعود إلى المنزل الآن. سوف تفوتني الحافلة».

«سوف تفوتك أشياء أكثر من هذا».

وربتَ بحِدّة على الباب الشهير المُضاد للصوت المؤدي إلى حُجيرة عرض نيوارك وفتح السيد تيرشويل لنا.

كان يُمسك برسالة من الأخت ميري كاثرين.

قال لي «لا أفهم لِمَ لا أستطيع أنْ أُري هذه لوالدَيك».

قلتُ «كانت مجرد نكتة».

«إنَّ والدك قادمٌ ليأخذك. لقد اتّصلتُ بمكتبه لأخبره بأنكَ هنا».

قلت بأدب كما تعلّمتُ أنْ أفعل «شكراً لك».

«اجلس من فضلك».

كرّرتُ «لكنها مجرد نكتة».

كان السيد تيرشويل يُعدُّ البكرات من أجل العَرض الجديد. وعندما تلفّتُّ حولي وجدتُ أنَّ العديد من الصور الموقّعة التي تبيِّن أصحاب دار المسرح المشهورين قد أُزيلتْ عن الجدران، وأدركتُ أنَّ السيد تيرشويل قد بدأ يجمع التذكارات الذي سيأخذها معه إلى وينبيغ. وأدركتُ أيضاً أنَّ جاذبيّة تلك الحركة وحدها قد تكون كافية لتعليل الصرامة التي كان يُعاملني بها. لكنّه أيضاً صدمني بكونه النوع الدقيق من البالغين الذين غالباً ما يمتد حسّهم بالمسؤوليّة إلى ما لا يخصّهم. كان سيكون صعباً أنْ أُميِّز من مظهره أو من كلامه أنّه نشأ مع والدي في منزل في نيوارك. كان نسخة أُبخس حقّها، وأكثر لمعاناً بصورة واضحة وإحساساً بالفخر من والدي الطفل الذي لم ينل حظّاً وافراً من التعليم وينتمي إلى حيّ فقير، والذي ارتفعَ من فقر والديه المُهاجرَين مُعتمداً بشكلٍ كامل على الاجتهاد المُبرمَج، والحذر. وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الرجال، الحماس المتوهج هو كل ما يملكون. وما كان نظراؤهم الأفضل منهم من غير اليهود يُسمّونه الاندفاع كان في العموم مجرد حماس - كان الحماس المتوهج هو كل شيء.

قلتُ «إذا خرجتُ فقد ألحق بالحافلة وأصل إلى المنزل على موعد العشاء».

«ابقَ حيث أنت، من فضلك».

قلت، وأنا أقترب بصورة خطرة من البكاء، «ولكن أي ذنب ارتكبتُ؟ لقد أردتُ أنْ أشاهد خالتي، أردتُ أنْ أشاهد خالتي في البيت الأبيض، لا أكثر».

قال «خالتك»، وشدَّ على أسنانه كأنما يطلب مني ألّا أقول المزيد.

استدرَّ احتقاره لخالتي إيفلين، من دون الأشياء كلّها، دموعي. هنا فقَدَ السيد تيرشويل السيطرة على صبره. سألني بسُخرية «هل تتألَّم؟ ممَّ، ممَّ تتألَّم؟ هل لديك أدنى فكرة عمّا يُعانيه الناس في أرجاء العالم؟ هل تفهم أيّاً مما شاهدتَ الآن؟ إنَّ كل ما آمل هو أنْ تُستثنى من أي سبب حقيقيّ للبكاء. آمل وأُصلّي أنك وعائلتك في الأيام القادمة -» وسكت بسرعة، وكان جليّاً أنّه غير متعوِّد على التعبير عن انفجارٍ غير لائق للانفعال المتهوِّر، خاصة في التعامُل مع صبي تافه. وحتى أنا فهمتُ أنَّ مناظرته كانت تجري مع شيء آخر غيري، لكنَّ ذلك لم يُقلِّل من صدمة اضطراري إلى تحمُّل وطأة الموقف كله العُظمى.

سألتُه «ماذا سيحدث في شهر حزيران؟». كان سؤالاً لم يحظَ بجواب وكان قد تناهى إلى سمعي عندما طرَحته أمي على والدي في الليلة السابقة.

استمرَّ السيد تيرشويل يستعرض وجهي وكأنّه يُحاول أنْ يُقرِّر إلى أي مدى كنتُ أفتقر إلى الذكاء. وأخيراً قال «تمالك نفسك. خُذ»، وناولني منديلاً، «امسح دموعك».

نفّذتُ ما طلبَ مني، ولكن عندما كرّرت السؤال «ما الذي سيحدث في شهر حزيران؟ لماذا سترحلون إلى كندا؟» اختفى في الحال كل أثر لغضب في صوته وظهر شيءٌ أقوى وأكثر اعتدالاً معاً - كان ذكاءه هو.

أجاب «سأتولى وظيفة جديدة هناك».

أخافني ما كان يُجنّبني إياه، ومن جديد ذرفتُ الدموع.

بعد ذلك بعشرين دقيقة وصل والدي. سلَّمه السيد تيرشويل الرسالة التي كنتُ قد كتبتُها لكي أتمكن من دخول دار العرض، لكنَّ والدي لم يُفسح لنفسه الوقت لقراءتها إلّا بعد أنْ أمسكني من مِرفقي وحثّني على الخروج من دار العرض ومنها إلى الشارع. وهناك ضربني. أولاً أمي

ضربت أخي، والآن والدي يقرأ كلمات الأخت ميري كاثرين، وللمرّة الأولى، يضربني بقوة، بلا هوادة، على وجهي. ولما كنتُ في الأصل مُضطرباً - وأبعد ما أكون عن ساندي المتمالك لأعصابه - انهرتُ بلا أيّة مقاومة بجوار نافذة قطع التذاكر، وأمام أنظار غير المسيحيين المباشرة العائدين بخُطى سريعة من مكاتبهم في المدينة لقضاء عطلة الربيع الخالية من الهمّ في أميركا ليندبرغ التي تنعم بالسلام، والحصن المُستقل يتراجع بعيداً عن مناطق الحرب العالمية حيث لا أحد مُعرَّض للخطر غيرنا.



-6-

أيار (مايو) 1942 – حزيران (يونيو) 1942

بلدهُم

22 أيار، 1942

عزيزي السيد روث:

نزولاً عند طلب من هومستيد 42، مكتب الاستيعاب الأميركيّ، ووزارة الداخليّة الأميركيّة، تُقدِّم شركتنا فُرَصاً للترحيل لكبار المُستَخدَمين أمثالك، الذين يُعتقَد أنهم مؤهّلون لضمّهم إلى المبادرة العالمية الجديدة والجريئة من مكتب الاستيعاب الأميركيّ.

قبل ثمانين عاماً بالضبط مرَّر الكونغرس الأميركي فصل هومستيد لعام 1862، التشريع الشهير، الفريد من نوعه في أميركا، والذي يمنح مساحة 160 إكراً من الأرض المشاع والمجّانيّة تماماً لمزارعين راغبين في العمل وإنشاء غرب أميركيّ جديد. ولم يحدث أي شيء مُماثل منذ ذلك الحين لإنتاج مُغامرين أميركيين وفُرص جديدة مُثيرة لمدّ آفاقهم وتقوية بلدهم.

إنَّ شركة «الحياة المدنيّة» تفخر بأنْ تكون من بين أول مجموعة من الشركات الأميركيّة الكبرى والمؤسسات الماليّة المُنتقاة لتُساهم في برنامج هومستيد الجديد، المُصمَّم للعائلات الأميركية الجديدة فرصة العُمر لنقل منازلهم، على نفقة الحكومة، كي يستقروا في منطقة مُلهِمة في

أميركا وكانت من قبل بعيدة المنال بالنسبة إليهم. وسوف تزوِّد هومستيد 42 ببيئة مُتحدّية راسخة في أعرق تقاليد بلدنا حيث يمكن للآباء والأطفال أنْ يُثروا هويتهم الأميركيّة عبر الأجيال.

فور استلامك هذا الإعلان عليك أنْ تتّصل على الفور بالسيد ويلفريد كيرث، ممثّل هومستيد 42 في مكتب جادة ماديسون، وسوف يُجيب شخصيّاً عن أسئلتك كلها وسوف تتكرَّم هيئته الإدارية بمساعدتك بكل السُبُل الممكنة.

تهانينا لك ولأسرتك لاختياركم من بين مُرشّحين يستحقون كُثُر في شركة «الحياة المدنيّة» لتكونوا من بين أوائل المنضمّين إلى مشروع «هومستيد» لعام 1942.

المُخلِص لكم
هومر ل. كاسون
نائب رئيس شؤون المُستخدَمين

مرَّت عدّة أيام قبل أنْ يتمكّن والدي من استجماع هدوئه لعرض رسالة الشركة على أمي ولينقل الخبر القائل إنه بحلول الأول من شهر أيلول (سبتمبر)، عام 1942، سوف يُنقَل من شركة ميتروبوليتان في منطقة نيوارك إلى مكتب المنطقة الذي سيُفتَح في دانفيل، ولاية كينتكي. وعلى خارطة كينتكي التي قدَّمها له مع حزمة أغراض هامستيد 42 السيد كيرث، عيَّنَ لنا دانفيل. ثم قرأ بصوتٍ مرتفع من صفحة في كُتيِّب من إصدار غرفة التجارة عنوانه «*ولاية العشب الأخضر*»، «إنَّ دانفيل هي المقرّ الريفي لمقاطعة بويل الريفيّة. تقوم وسط ريف كينتكي الجميل على مسافة حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب من ليكسينغتون، ثاني أكبر مدينة في الولاية بعد لويزفيل»، وبدأ يُقلِّب بحركة سريعة صفحات الكتيِّب بحثاً عن حقائق أشد إثارة للاهتمام لكي يقرأها بصوت مرتفع وتعمل بصورة ما على التخفيف من عبث

هذا المجرى الذي تحوّلتْ إليه الأحداث. «نجح دانييل بوون في إطلاق فكرة «طريق البريّة»، وفتحت الطريق إلى استقرار كينتكي... في عام 1792 أصبحتْ كينتكي أول ولاية تقع غرب جبال الأبالانش تنضم إلى الولايات المتحدة... في عام 1940 كان تعداد سكّان دانفيل - دعني أُثبِّت هذا هنا - هو 6700 نسمة».

سألتْ أمي «وكم عدد اليهود في دانفيل، من بين الستة آلاف وسبعمئة؟ كم عددهم في الولاية بأكملها؟»».

«أنتِ تعلمين، يا بيس، إنّهم قِلّة قليلة. وكل ما في وسعي أنْ أخبرك به هو أنّه يمكن للوضع أنْ يكون أسوأ. يمكن أنْ تكون ولاية مونتانا، إلى حيث يذهب آل غيلر. ويمكن أنْ تكون كنساس، إلى حيث يتوجّه آل شفارتز. ويمكن أنْ تكون أوكلاهوما، إلى حيث يذهب آل برودي. هناك سبعة رجال سوف يتركون مكتبنا، وأنا أوفرهم حظّاً، صدّقيني. إنَّ ولاية كينتكي مكان جميل ومناخها جميل. إنّها ليست نهاية العالم. سوف ينتهي بنا الأمر إلى العيش هناك كما نعيش هنا. وربما في ظروفٍ أفضل، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ كل شيء أرخص ثمناً والمناخ جميل جداً. سوف تتوفر مدرسة للولدَين، ويتوفر عمل لي، ويكون لك منزل. وقد يشاء الحظ أنْ نتمكّن من دفع تكاليف شراء مكان خاص لنا يحظى فيه كل ولد بغرفة منفصلة وبفناء في الخلفيّة للّعب فيه».

سألته أمي «ومن أين لهم تلك الشجاعة ليقدّموا كل هذا للناس؟ إنني منذهلة، يا هرمان. إنَّ عائلاتنا هنا. وأصدقاء عمرنا هنا. وأصدقاء ولدينا هنا. لقد عشنا هنا طوال عمرنا في سلام ووئام. ونحن قريبون جداً من أفضل المدارس الابتدائيّة في نيوارك، وقريبون من أفضل المدارس الثانوية في نيو جيرزي. لقد نشأ ولدانا بين اليهود، ويذهبان إلى المدرسة مع فتية يهود آخرين. ولا أثر لأي صِبية آخرين. ليست هناك شتائم، ولا مُشاجرات. وليسا مُضطرَين إلى أنْ يشعرا بأنهما منبوذَان وبأنهما وحيدان كما حدث معي وأنا طفلة. لا أصدّق أنَّ الشركة توفر هذا لك. بعد

خدمتك لهؤلاء الناس، والساعات التي أنفقتَها، والجهد -» ثم أضافَتْ بغضب «ثم هذه هي الجائزة».

قال والدي «يا ولدَيّ، اسألاني عن أي شيء تريدان معرفته. إنَّ أمّكما على صواب. إنَّ هذه مُفاجأة كبيرة لنا جميعاً. كلنا مذهولون. لذلك اسألا أيّ شيء يخطر في بالكما. لا أريد لأي منكما أنْ يبقى مُشوّشاً حول أي شيء».

لم يكن ساندي مُشوّشاً، ولا بدا منذهلاً بأي قدر. ساندي كان فرِحاً ويكاد لا يستطيع إخفاء ابتهاجه، وذلك كلّه لأنه كان يعلم جيداً أين يعثر على دانفيل، كينتكي، على الخريطة - على مسافة أربعة عشر ميلاً من مزرعة آل مالويني لزراعة التبغ. وربما أيضاً لأنه كان يعلم أننا سوف ننتقل إلى هناك قبل الآخرين جميعاً. ربما والدي ووالدتي لم يذكُرا الكثير عن الأمر، ولكن، بسبب ما لم يكن أحد يقوله، حتى أنا فهمتُ أنَّ انتقاء والدي أحد السبعة اليهود من «هومستيد» ليس بالأمر السعيد أكثر من تعيينه في مكتب الشركة الجديد في دانفيل. وحالما فتح الباب الخلفي لشقّتنا وأمر خالتي إيفلين بمغادرة المنزل وبأن لا تعود مرة أخرى، لم يعُد في الإمكان لقَدَرنا أنْ يتّخذ أي مجرى آخر.

حدثَ ذلك بعد وجبة العشاء ونحن في غرفة الجلوس. كان ساندي يرسم شيئاً، بهدوء لا يُعكّره شيء، وليس لديه أسئلة يطرحها، وليس لديّ أنا ما أسأله - وأنا أطلّ على الخارج ووجهي مضغوطٌ على ستارة النافذة المفتوحة - وكذلك كان والدي، المُستغرِق بعبوس في أفكاره، ولعِلمه أنّه هُزِمَ، أخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً، وأمي، الجالسة على الأريكة، تُغمغمُ بشيء بصوت منخفض، رافضة الاستسلام لِما ينتظرنا. وفي خضم المواجهة، والصراع مع المجهول، قام كلٌ منا بأداء الدور الذي كانَ الآخر قد لعبه في بهو فندق واشنطن. وأدركتُ المدى الذي وصلَتْ إليه الأمور والمدى الذي تشوَّش عنده كل شيء الآن وكيف تنقضّ الكارثة، عندما تأتي.

بدءاً بالساعة الثالثة عصفت الأمطار هوجاء بثبات، لكنّها وبسرعة

توقّفتْ وسطعت الشمس برّاقة وكأنَّ الساعة تقدَّمتْ، ونحو الغرب بزغ صباح الغد عند الساعة السادسة بعد ظهيرة هذا اليوم. كيف يمكن لشارع متواضع كشارعنا أنْ يُفرِز كل تلك النشوة لمجرد أنّه تلألأ بالمطر؟ كيف يمكن لبقع المياه على الرصيف المغطّاة بأوراق الشجر ويتعذّر عبورها والأفنية الصغيرة المعشوشبة التي تنضح بمياه فيوض المزاريب تفوح برائحةٍ أنْ تنعش ابتهاجي وكأنني وُلِدتُ في غابةٍ مطريّةٍ استوائيّة؟ كانت جادة سَميت المُشبّعة ببريق ضوء ما بعد العاصفة تومضُ بالحياة كحيوان أليف، حيواني الأليف الناعم، نظّفته سيول الأمطار وهو الآن يتمدَّد على طوله لكي يتشمّس وسط النعيم.

لا شيء يستطيع أنْ يدفعني إلى ترك هذا المكان.

سألتْ أمي «ومع مَنْ سيلعب الولدان؟».

أجابها «هناك الكثير من الأطفال في كينتكي يمكن أنْ يلعبا معهم».

سألَتْه «ومع مَنْ سأتحدّث أنا؟ مَنْ سأتّخذ هناك أصدقاء يُشبهون الأصدقاء الذين عرفتهم طوال حياتي؟».

«هناك نساء أيضاً».

قالتْ «نساء غير يهوديات». في المعتاد لا تستمد أمي القوة من الازدراء، لكنّها عندئذٍ كانت تتكلَّم بازدراء - إلى هذه الدرجة كانت مرتبكة وتشعر بأنّها مُعرَّضة للخطر. قالتْ «نساء مسيحيات صالحات سوف يتهافتن لجعلي أشعر بالألفة»، ثم أعلنتْ «لا يحقّ لهم أنْ يفعلوا هذا».

«أرجوك، بيس - هذا هو حال العمل لمصلحة شركةٍ كبيرة. إنَّ الشركات الكبرى تنقل الناس طوال الوقت. وعندما يفعلون ذلك، عليك أنْ تحزمي أمتعتك وتذهبي».

«أنا أتكلَّم عن الحكومة. لا يحقّ *للحكومة* أنْ تفعل هذا. لا يمكنها أنْ تُجبِر الناس على حزم أمتعتهم والذهاب - إنَّ هذا لا يتضمّنه أيّ دستور أعرفه».

«إنّهم لا يُجبروننا».

سألتُ «إذن لِمُ نحن ذاهبون؟ طبعاً يُجبروننا. إنَّ هذا تصرّفٌ *غير قانونيّ*. إنهم فقط لا يقبلون اليهود لمجرّد أنّهم يهود ويُجبرونهم على العيش حيثُ يريدون لهم أنْ يعيشوا. لا يمكنهم أنْ يحتلوا مدينة ويفعلوا بها ما يشاؤون. أيريدون أنْ يتخلّصوا من نيوارك كما هي، مع اليهود الذين يعيشون فيها كأي شخص آخر؟ ما شأنهم بهذا؟ إنَّ هذا منافٍ للقانون. الجميع *يعلمون* أنّه مُنافٍ للقانون».

قال ساندي من دون أنْ يُزعج نفسه برفع بصره عمّا كان يرسم، «نعم، لِمَ لا نرفع دعوى على الولايات المتحدة الأميركيّة؟».

قلتُ له «*يمكنك* أنْ تُقاضيها في المحكمة العليا».

أمرتني أمي «تجاهله. وإلى أنْ يتعلَّم أخوك أنْ يكون متحضِّراً، سوف نتجاهله».

نهضَ ساندي واقفاً وأخذ أدوات رسمه إلى غرفة نومنا. ولما لم يعُد في استطاعتي أنْ أتابع مشهد ضعف أبي وأسى أمي، فتحتُ الباب الأمامي وهرعتُ أهبط الدَرَج الأماميّ ومنه خرجتُ إلى الشارع حيث كان الأطفال الذين أنهوا تناول وجبة العشاء يرمون قضبان الجليد إلى المجاري ونراقبها تنهمر على الشعريّة الحديديّة ثم داخل مياه المجرور المغرغرة مع فُتات الحطام الطبيعي الذي تسبّبت العاصفة في سقوطه عن أشجار الخرنوب ودوّامة من أوراق لفّ الحلوى، والخنافس، وسدّادات الزجاجات، وديدان الأرض، وأعقاب السجائر، وأيضاً، وبصورة غريبة، مُبهمة، ومتوقّعة، قطعة ممحاة واحدة دبقة. كان الجميع في الخارج يقضون وقتاً ممتعاً للمرَّة الأخيرة قبل أنْ يأووا إلى السرير - وكلهم ما زالوا قادرين على قضاء وقتٍ ممتع لأنَّ لا أحد منهم كان لديه والد يعمل لمصلحة أيّ من الشركات المتعاونة مع مشروع هومستيد 42. كان آباؤهم رجالاً يعملون وحدهم أو مع شريك يكون أخاً أو أحد الأقرباء وهكذا هم ليسوا مُضطرين إلى الرحيل إلى أي مكان. ولكنْ أنا أيضاً لم أكن ذاهباً

إلى أي مكان. لن أدع حكومة الولايات المتحدة تُبعدني عن الشارع الذي حتى المجاري فيه تتدفق بإكسير الحياة.

كان ألفن يلهو في فيلادلفيا. وكان ساندي يعيش منفيّاً في بيتنا، وكانت سُلطة والدي كحامٍ قد تراختْ بقسوة إذا لم نقُل تدمّرتْ. وقبل عامين من ذلك، وحِفاظاً علىً أسلوبنا الذي اخترناه في الحياة، كان قد استجمع قوّته وذهب إلى المكتب الرئيس وقابل رئيسه الكبير في العمل وجهاً لوجه، ورفض العلاوة التي كانت يمكن أنْ تدفعه قُدُماً في مسيرته العمليّة وتزيد أرباحه ولكن في مُقابل أنْ يأخذنا لنعيش في نيو جيرزي التي تعبق بجوٍ نازيّ ثقيل. والآن لم يعُد يرغب في تحدّي فكرة انتزاعه من جذوره التي لا تقلّ خطراً ضمناً، بعد أنْ استنتج أنَّ المواجهة أمرٌ عقيم وأنَّ أمرَ قَدَرِنا خرجَ من بين يديه. والصدمة الكبرى هي أنَّ شركته التي خضعَتْ للتعاون مع الدولة اعتبرته شخصيّة هامة. ولم يتبقَّ هناك مَنْ يحمينا غيري أنا.

بعد انتهاء دوام المدرسة في اليوم التالي، توجّهتُ خِفية لأستقلّ من جديد الحافلة إلى قلب المدينة، وهذه المرة على متن الخط رقم 7، الذي يمتد حوالي ثلاثة أرباع الميل بدءاً بجادّة صنسيتْ، على الجانب القصيّ من المساحة المزروعة من مأوى الأيتام، حيث تواجه كنيسة القديس بطرس جادّة ليونز وكان مُستبعداً، في ظل برجها المتوَّج بالصليب، أنْ يُشاهدني جارٌ أو رفيق من المدرسة أو صديق للعائلة أكثر مما كان الوضع عندما كنتُ أمشي من أمام المدرسة الثانويّة ومنها إلى كلينتون بليس لأستقلّ الخط رقم 14.

انتظرتُ عند موقف الحافلة خارج الكنيسة بجوار اثنتين من الراهبات المدفونتين على قدم المُساواة داخل القماش الخشن الثقيل لردائيّ، تينك الراهبتين اللتين لم تكن قد أُتيحت لي الفرصة قبل ذلك للتدقيق فيهما. حينئذٍ، كان رداء الراهبة يصل طوله حتى حذائها، وكان هذا، بالإضافة إلى قوس القماش المُنشّى الناصع البياض والذي يُحيطُ بصرامة إطار

قَسَمَات وجهها ويُلغي كل رؤية جانبية - الخِمار المتيبِّس الذي يُخفي فروة الرأس، والأذنَين، والذقن، والعنق، وكان هو نفسه مُغلَّفاً بغطاء رأس أبيض كبير - يُشكِّل اللباس التقليديّ للراهبات الكاثوليك المخلوقات ذوات المظهر الأشد عتقاً الذي رأيته في حياتي، ومُشاهدته في حيِّنا أشد إذهالاً من شكل القساوسة الشبيهين بالحانوتيّة بصورة تبعثُ على القشعريرة. فلا تُرى أزرار ولا جيوب، وهكذا فلا سبيل إلى فهم كيف يمكن النظر إلى تلك الكتلة من الغلاف المتكتِّل بكثافة أو كيف يُنزَع أو إنْ كان يُنزَع أصلاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه يُغلِّفَ ذلك كله صليب معدنيّ كبير يتدلّى من قِلادة لها حبلٌ طويل، ومسبحة، حبّاتها كبيرة ولامعة، ككرات الكلّة، تتدلّى على امتداد بضعة أقدام إلى أسفل من مقدّمة حزام جلديّ أسود، مع خِمار أسود مُثبَّت بغطاء الرأس يتَّسِع في الخلف ويهبط مباشرة حتى الخصر. وفيما عدا داخل المنطقة الصغيرة العارية التي هي الوجه، البسيط، المُغطّى بالخِمار والخالي من أيّة زينة، ليس هناك أي زَغَب، أو رقّة، أو زئبُر.

افترضتُ أنهما من الراهبات اللائي يُشرفن على حياة اليتامى ويُمارسن التعليم في المدرسة الأبرشيّة. لم تنظر أيٌّ منهما باتجاهي ولم أجرؤ، وحدي، ومن دون صديق حميم يُدلي بملاحظات بارعة مثل إيرل أكسمان، على النظر إليهما بأكثر من استراق بعض النظرات السريعة، على الرغم من أنني حتى وأنا أُحدِّق إلى قَدَميّ، تخلَّتْ عني مقدرة الطفل البارع على مُراقبة الذات ومرة بعد أخرى واجهتُ الألغاز، كل الأسئلة التي تدور حول جسديهما الأنثويّ وأشدّ وظائفهما وضاعة، وكل ذلك الميل نحو الحرمان. وعلى الرغم من المهمّة السرّية الجادّة التي كنتُ أقوم بها بعد ظهيرة ذلك اليوم وكل ما يترتَّبُ عنها، لم أنجح في الاقتراب من راهبة، ناهيك عن اثنتين، من دون أنْ تتلاطم في ذهني أفكارٌ ليست نقيّة جداً.

احتلّتِ الراهبتان المقعدين خلف السائق، وعلى الرغم من أنَّ معظم المقاعد في الخلفيّة كانت شاغرة، جلستُ عبر الممر الضيِّق على الجانب

المقابل منهما، على المقعد الذي يقع بعد الباب الدوّار مباشرة وصندوق دفع الأجرة. لم تكن لديّ أيّة نيّة في الجلوس هناك، ولم أفهم سبب فعلي ذلك، ولكن بدل أنْ أنتقل بعيداً عن أي تعرُّض لفضول مباشَر، فتحتُ دفتري أو تظاهرتُ بأنني أؤدي واجبي المدرسي، وأنا آمل في الوقت نفسه وأخشى أنْ يتناهى إلى سمعي شيء متحررٌ يقولانه. للأسف لزمتا الصمت، كانتا تصلّيان في اعتقادي، ولم يكن ذلك أقل سِحراً لأنهما كانتا تفعلان ذلك داخل حافلة.

بعد الخروج من قلب البلدة بخمس دقائق، سُمِعَت قرقعة حبّات المسبحة عندما نهضتا معاً لتترجلا عند تقاطُع الطرق الواسع بين شارع هاي وجادة كلينتون. وعلى أحد جانبيّ تقاطع الطرق كانت هناك أرض خاصة لبيع السيارات وعلى الجانب المقابل فندق ريفييرا. ولدى مرورهما من أمامي، ابتسمت الراهبة الأطول قامة لي من ممر بين المقاعد، وبصوتها الهادئ الذي تشوبه نبرة حزن مُبهمة - ربما لأنَّ المسيح جاء ورحل من دون عِلمي - علَّقتْ قائلة لرفيقتها، «يا له من صبي صغير ظريف ونظيف».

كان ينبغي أنْ تعرف ما الذي دار في ذهني. ومع ذلك، ربما عرفت.

بعد ذلك ببضع دقائق، وقبل أنْ تقوم الحافلة بانعطافها الكبير الختامي بعيداً عن شارع برود وتنطلق في بولفار ريموند نحو نقطة توقفها الأخيرة خارج محطة بن، ترجّلتُ أنا أيضاً وبدأتُ أركض باتجاه مبنى المكتب الفيدراليّ في شارع واشنطن، حيث كان لخالتي إيفلين مكتبها الخاص. وداخل البهو قال لي عامل المصعد إنَّ مكتب الاستيعاب الأميركيّ يقع في الطابق الأخير، وعندما وصلتُ إلى هناك سألتُ عن إيفلين فينكل. هنفتْ موظفة الاستقبال «أنت أخو ساندي»، ثم قالتْ مُستحسِنة «كأنك توأمه الصغير». قلتُ «ساندي أكبر بخمس سنوات». قالت «ساندي فتى رائع، رائع. الجميع يُحبّون حضوره»، ثم اتصلت بمكتب الخالة إيفلين. أعلنتْ، «ابن أختك فيليب هنا، آنسة ف.»، وفي غضون لحظات، كانت الخالة إيفلين قد جرّتني بين عدد من طاولات الكتابة الخاصة ببعض

الرجال والنساء العاملين على آلاتهم الكاتبة ومنها إلى غرفة مكتبها المُطلّة على المكتبة العامة ومتحف نيوارك. كانت تُقبّلني وتحضنني وتقول لي كم هي مشتاقة إليّ، وعلى الرغم من مخاوفي كلها - بدءاً، طبعاً، بخشيتي من أنْ يكتشِفَ والداي أمر لقائي بخالتي المنبوذة - استمررتُ كما كنتُ قد خطّطتُ بالإفضاء لخالتي كيف ذهبتُ وحدي سرّاً إلى دار عرض الأخبار لأشاهدها في البيت الأبيض. جلستُ على الكرسي المُجاور لطاولة مكتبها - طاولة مكتب يبلغ حجمها بسهولة ضعف حجم طاولة مكتب والدي الكائن في الجهة المقابلة من شارع كلينتون - وطلبتُ منها أنْ تُخبرني عن شعورها وهي تتناول طعام العشاء مع رئيس الجمهوريّة ومع السيدة ليندبرغ. وعندما بدأتْ تُدلي بجوابها بتفصيلٍ دقيق - مع توقٍ إلى إثارة إعجابي لم يكن يعني الكثير لمجرد صبي صغير مبهور أصلاً بفداحة خيانتها - لم أُصدِّق أنني كنتُ أخدعها بسهولة بالغة ودفعها إلى الاعتقاد أنَّ هذا هو سبب مجيئي إلى هنا.

كانت هناك خريطتان مُثبّتتان بدبّوسين كبيرين مُلوَّنين على لوحة أخبار ضخمة من الفلّين ومعلّقتان على الجدار خلف طاولة مكتبها. الخريطة الأكبر حجماً كانت للولايات الثماني والأربعين والأصغر حجماً فقط لولاية نيو جيرزي، التي تعلَّمنا في المدرسة أنَّ حدودها مع الولاية المجاورة بنسلفانيا على اليابسة المُعلَّمة بنهر طويل تُشبه في شكلها العام الغريب الرسم الجانبي لوجه زعيم هندي، والجبين العالي تُحدده فيليبسبرغ، والمنخار تحدده ستوكتون، والذقن تضيق باتجاه العنق بجوار ترينتون. والولاية تكون كثيفة السكان في الزاوية الشرقيّة القُصوى وتشتمل على مدن جيرزي، ونيوارك، وباسيك، وبيترسون، وعلى الامتداد الشماليّ نحو الحدود المستقيمة مع المقاطعات الجنوبيّة القُصوى لولاية نيويورك، يظهر الطرف الخلفيّ العُلويّ لغطاء رأس الهندي المُدجَّج بالريش. هكذا كنتُ أراها حينئذٍ، وهكذا ما زلتُ أراها الآن؛ في تلك الأيام، كانت لدى طفل بخلفيتي حاسّةٌ سادسة بالإضافة

إلى الحواس الخمس، الحاسّة الجغرافيّة، الحاسّة الحادّة حول مكان عيشه والأشخاص والأشياء المُحيطين به.

على طاولة مكتب الخالة إيفلين الثمينة، بجوار صور داخل أُطُر ومنفصلة تبيِّن جدّتي المتوفّاة والحاخام بنغلسدورف، كانت هناك صورة فوتوغرافيّة كبيرة وموقّعة للرئيس ليندبرغ وحرمه واقفين معاً في المكتب البيضاويّ وصورة فوتوغرافية أصغر حجماً للخالة إيفلين بثوب السهرة تُصافحُ يد الرئيس. شرحتْ قائلة «هذا طابور الاستقبال. في الطريق إلى داخل قاعة الطعام الرسميّة، والضيوف يمرّون رتلاً من أمام الرئيس والسيدة الأولى وضيف شرف الأمسية. كنتَ تُعرَّف بالاسم وتُلتَقَط لك صورة يُرسلها البيت الأبيض إليك».

«هل قال الرئيس أي شيء؟».

«قال: يُسعدني حضورك».

سألتُ «وهل سُمِحَ لك بالردّ بأي شيء؟».

«قلتُ: يُشرّفني هذا، سيدي الرئيس». ولم تبذل أقلّ جهد لإخفاء مدى أهمّية ذلك الحديث لها وربما لرئيس الولايات المتحدة. وكما يحدث دائماً مع الخالة إيفلين، كان في حماستها شيءٌ فاتن، على الرغم من أنّه في خضم الفوضى المنزليّة، لم يفُتني الجانب الشيطانيّ منها أيضاً. لم يكن قد حدث قط في حياتي أنْ حكمت بمثل تلك القسوة على شخصٍ بالغ - لا على والديّ، ولا حتى على ألفن أو العم مونتي - ولا فهمتُ حتى ذلك الحين كيف يمكن للتفاهة الوقحة للحمقى الصِرف أنْ تُحدِّد بكل وضوح مصير الآخرين.

«هل قابلتِ السيد فون ريبنتروب؟».

هنا أجابت، بخجل جدير بطفلة صغيرة، «لقد رقصتُ مع السيد فون ريبنتروب».

«أين؟».

«كان هناك رقص بعد العشاء في الخيمة الكبيرة المُقامة على مرج

البيت الأبيض. كم كانت ليلة جميلة. مع فرقة موسيقيّة ورقص، وتمَّ تقديمنا أنا وليونيل إلى وزير الخارجيّة وزوجته، وتحدثنا، ومن ثم انحنى وطلب مني أنْ أرقص معه. وهو معروف بأنّه راقص ممتاز، وهو كذلك فعلاً، هذه حقيقة - راقص ذو فتنة مثاليّة في قاعة الرقص. ولغته الإنكليزيّة لا تشوبها شائبة. لقد درسَ في جامعة هارفرد في لندن ومن ثم عاش أربع سنوات وهو شاب في كندا. كانت مغامرته الكبرى المُفعمة بروح الشباب، كما وصفها. ووجدتُه رجلاً في غاية السِحر وذا ذكاء *عالٍ*».

سألتُ «ماذا قال؟».

«أوه، تحدثنا عن الرئيس، وعن مكتب الاستيعاب الأميركيّ، وعن حياتنا - تحدثنا عن كل شيء. إنّه يعزف على آلة الكمان، في الواقع. وهو يُشبه ليونيل، رجل واسع الاطلاع يستطيع أنْ يتكلَّم عن معرفة في كل شيء. وهنا، انظر، يا عزيزي - انظر إلى ما كنتُ أرتدي. أترى الحقيبة التي كنتُ أحمل؟ إنها مشغولة بخيوط الذهب. أترى هذا؟ أترى الجُعل؟ إنها بألوان الذهبيّ، والمينا والفيروزيّ».

«ما هو الجُعل؟».

«إنها الخنفساء. إنها دُرَّة قُطِعَتْ لكي تُشبه الخنفساء. وقد صُنِعَتْ هنا في نيوارك على يد عائلة زوجة بينغلسدورف الأولى. كانت ورشتها مشهورة في العالم. كانت تصنع الأحجار الكريمة لملوك وملكات أوروبا ولأشدّ الناس ثراءً في أميركا»، وقالت، «انظر إلى خاتم خطبتي»، وهي تُقرِّب يدها الصغيرة المُضمّخة بالعطر من وجهي إلى درجة أنني شعرتُ فجأة كأنني كلب ورغبتُ في لعقه، «أترى الحجر؟ إنه زمرد، يا بُنيّ العزيز».

«أصليّ؟».

قبَّلتني. «أصليّ! وفي هذه الصورة، هنا - هذا سِوار سلسلة. إنّه من الذهب ومُرصّع بالياقوت الأزرق وباللؤلؤ. *الأصليّ!*» قالت هذا وقبّلتني من جديد. «وقال وزير الخارجيّة إنّه لم يرَ في حياته في أي مكان أجمل منها. وماذا في رأيكَ هذا الذي يُحيط بعنقي؟».

«قِلادة؟».

«قِلادة على شكل فيستون».

«ما هو الفيستون؟».

«هو سلسلة من الأزهار، إكليل من الأزهار. أنت تعرف كلمة «احتفال» وتعرف كلمة «احتفالات». وتعرف كلمة «وليمة» أيضاً، أليس كذلك؟ حسن، كلها مُشتقّة إحداها من الأخرى. وانظر، إلى هذين البروشين، أتراهما؟ إنهما من الياقوت الأزرق، يا عزيزي - ياقوت مونتانا يُرصِّع الذهب. وهل ترى مَن التي تضعهما؟ مَنْ؟ مَنْ هذه؟ إنّها الخالة إيفلين! إنّها إيفلين فينكل من شارع ديزي! في البيت الأبيض! أليس هذا شيئاً لا يُصدَّق؟».

قلتُ «أعتقد ذلك».

قالت «أوه، يا حبيبي»، وهي تُقرّبني منها وتُقبّلني هذه المرة على كل أرجاء وجهي، «وأنا أعتقد هذا أيضاً. إنني سعيدة جداً لأنكَ أتيتَ لتزورني. لقد اشتقتُ إليك كثيراً»، ثم راحت تتحسّسني وكأنّما لترى إنْ كانت جيوبي مملوءة بأشياء مسروقة. ولم أفهم إلّا بعد ذلك ببضع سنوات أنَّ أسلوبها البارع في التحسُّس بيديها ربما يكون السبب في الإحياء السريع الذي طرأ على حياة الخالة إيفلين على يد شخص ليونيل بنغلسدورف. وعلى الرغم من كون الحاخام ذكيّاً وواسع المعرفة، ومتفوقاً على الجميع حتى في أنانيّته، ما كان ينبغي على خالتي أنْ ترتبك معه.

في ذلك الوقت لم يكن نعيم الاحتواء الذي تلا، طبعاً، واضحاً. فأينما وضعتُ يديّ، أجد السطح الناعم لجسمها. وأينما توجّهتُ أشمّ رائحة عطرها القويّة. وكيفما تلفّتُ أجد ملابسها، أثواباً ربيعيّة جديدة وهفهافة وشفّافة غير قادرة على حجب حتى سروالها الداخليّ. وكانت هناك عيون أُناسٍ آخرين كما لم أرها من قبل. لم أكن قد وصلتُ بعد إلى سن الشهوة، كنتُ جاهلاً، طبعاً، لمعنى كلمة «خالة»، كنتُ لا أزال أجد ذلك الانتصاب القصير العشوائي لقضيبي الصغير شيئاً مُحيّراً يُثير

الاشمئزاز دائماً، وكذلك الأمر النشوة التي كنتُ أستمدّها وأنا مستكين داخل استدارة جسم أخت أمي ذات الحادية والثلاثين من العمر، أشبه بثمبيلينا[41] الصغيرة، الحيويّة، لا تبدو خائفة البتّة وخُلِقَتْ على نمط التلال وثمار التفاح، كان شعوراً بلا حياة من الهياج ولا أكثر، وكأنَّ طابعاً ثميناً نادراً، عليه رسم رائع أعلمُ أنّه لا يُقدَّر بثمن ظهر فجأة على مُغلَّف رسالة عاديّة أودعها ساعي البريد صندوق بريدنا في جادّة صنسيت.

«خالتي إيفلين؟».

«نعم يا حبيبي».

«أتعلمين أننا سوف ننتقل إلى كينتكي؟».

«أهاه».

«لا أريد أنْ أرحل، يا خالتي إيفلين. أريد أنْ أبقى في مدرستي».

تراجعت بحِدّة بعيداً عني، وسألت بهيئة أضحت الآن أبعد ما تكون عن العشيقة، «مَن الذي أرسلكَ إلى هنا، يا فيليب؟».

«أرسلني؟ لا أحد؟».

«مَنْ أرسلك لتزورني؟ أخبرني».

«إنها الحقيقة. لا أحد».

عادتْ إلى الكرسي خلف طاولة المكتب، ودفعتني النظرة التي ظهرتْ في عينيها إلى أنْ أبذل أقصى جهدي كي لا أنهض وأنطلق هارباً. لكنني كنتُ أريد ما أريد إلى درجة أنني لم أهرب.

قالت «لا شيء في كينتكي يستدعي الخوف».

«أنا لستُ خائفاً. أنا فقط لا أريد أنْ أُضطر إلى الانتقال».

حتى صمتها كان مُعانِقاً، ولو كنتُ حقاً أكذب، لاستطاعت أنْ تنتزع

41- ثمبيلينا: عنوان قصة للكاتب الدنماركي هانس كريستيان أندرسن (1805-1875)، واسم بطلتها، وهي جنّية وُلِدَتْ من زهرة لكنَّ طولها لم يتعدّ بضع بوصات، وكانت حزينة خشية ألّا تجد مَنْ يُحبّها، إلى أنْ تقابل الأمير الذي سيحبها. - المترجم

مني الاعتراف الذي أرادت. لقد كانت حياة تلك المرأة المسكينة حالةً متواصلة من الضيق.

سألتُ «ألا يمكن لسيلدون وأمّه أنْ يذهبا عِوضاً عنّا؟».

«مَن يكون سيلدون؟».

«فتى من الطابق السُفلي مات والده. وأمّه تعمل الآن في شركة ميتروبوليتان. لماذا علينا أنْ ننتقل وهما لا؟».

«أليس والدك هو الذي دفعكَ إلى القيام بهذا، يا عزيزي؟».

«كلا، كلا. لا أحد حتى يعلم بوجودي هنا».

لكنني لاحظتُ أنها لا تزال لا تصدّقني - كان مقتها لوالدي أثمن من أنْ تتخلَّصَ منه بالحقيقة الجليّة.

سألتني «هل يرغب سيلدون في الذهاب معك إلى كينتكي؟».

«لم أسأله. ولا أعرف. أنا فقط فكّرتُ في أنْ أسأله إنْ كان يمكن أنْ يحلّا محلنا».

«يا عزيزي الصغير، أترى خريطة نيو جيرزي؟ أترى تلك الدبابيس في الخريطة؟ إنَّ كلاً منها تمثّل عائلة مُختارة للانتقال. والآن انظر إلى خريطة البلاد كلها. أترى كل تلك الدبابيس؟ هذه تمثّل المواقع التي ستحلّ فيها عائلات نيو جيرزي. وتحقيق كل تلك الانتقالات يتضمَّن التنسيق من عدد كبير جداً من الناس في هذا المكتب، وفي مركز الإدارة في واشنطن، وفي الولاية التي ستنتقل إليها كل عائلة. وأكبر أهمّ الشركات في نيو جيرزي تقوم بنقل المُستخدَمين بالتعاون مع شركة هومستيد 42، مع الكثير جداً من التخطيط، والذين انضموا إلى هذا النشاط هم أكثر بكثير جداً مما يمكن لكَ أنْ تبدأ بتخيُّله. وطبعاً، لا يُتّخذ أيّ قرار من قِبَل أي شخص واحد. ولكن حتى لو حدث هذا، وكنتُ ذلك الشخص، واستطعتُ أنْ أعمل شيئاً لأُبقيكَ إلى جوار أصدقائك ومدرستك، لبقيتُ أعتقد أنكَ أنت بالذات سوف تستفيد فائدة هائلة من تحوّلك إلى شيء يتجاوز كونك

مجرد طفل يهودي جعله والداه مفرط الخوف من مغادرة حي اليهود. انظر ماذا فعلَتْ عائلتك لساندي. لقد شاهدتَ أخاك في نيو برونسويك في تلك الليلة. شاهدتَه يتحدث في تلك الجموع من الناس عن مغامرته في مزرعة التبغ»، وسألتني «أتتذكّر تلك الأمسية؟ ألم تشعر بالفخر به؟».

«نعم».

«وهل بدا كأنَّ العيش في كينتكي شيء مُخيف وأنَّ ساندي كان، ولو للحظة، خائفاً؟».

«كلا».

هنا، مدَّتْ يدها إلى طاولة المكتب لتتناول شيئاً ما، ثم نهضَتْ ودارت حول الطاولة لتعود إلى مكان جلوسي. وفجأة بدا وجهها الجميل، بقسماته الكبيرة والمساحيق الكثيفة، فظيعاً - الوجه الشهوانيّ للهوس النهِم الذي وقعتْ، في تقدير أمي، أختها العاطفيّة فريسة عاجزة له. ولا شك في أنَّه، بالنسبة إلى طفل نشأ في بلاط لويس الرابع عشر، ما كان يمكن لمطامح ورغبات تلك القريبة المُشبعة أنْ تبلغ هالة الأهميّة المُخيفة نفسها التي حقّقتها الخالة إيفلين بالنسبة إليّ، ولا كان التقدُّم الدُنيويّ لرجل دين مثل الحاخام بينغلسدورف قد بدا أقلّ خزياً في عيون والديّ لو أنّهما تربّيا في بلاط مركيز ومركيزة. ربما ما كان يمكن لي أنْ أُنجز ما هو أسوأ من هذا - وربما كان يمكن أنْ أُنجز ما هو أفضل بكثير - لو أنني استمددتُ العزاء من الراهبتَين على متن حافلة جادة ليونز وليس من شخصٍ غارق في متع الفساد الحقيرة، المعروفة، التي تستشري حيثما تنافسَ الناس حتى من أجل أحقر امتياز في المكانة.

«كنْ شجاعاً، يا عزيزي، كنْ فتى شجاعاً. أتريد أنْ تجلس على الشرفة الأماميّة في جادة سميت حتى آخر حياتك، أم تريد أنْ تخرج إلى العالم الواسع كما فعل ساندي وتُثبتْ أنك بارع كأي شخص آخر؟ لنفرِض أنني خفتُ الذهاب إلى البيت الأبيض ولقاء رئيس الجمهورية لأنَّ أُناساً كوالدك يقولون أشياء عنه ويشتمونه. لنفرِض أنني خشيتُ لقاء الوزير

الأجنبيّ لأنهم **يصفونه** بأوصاف مُشينة. لا يمكنكَ أنْ تستمر في الحياة بخوفك من كل ما هو غير مألوفٍ لك. ولا يمكنكَ أنْ تكبُر وتُصبح كوالديك. عِدني بألّا تفعل هذا».

«أعدك».

قالتْ «خذ، لديّ شيء ممتع لك»، وناولتني حزمة من اثنتين داخل علبتين صغيرتين من الكرتون كانت تحملهما بيدها. «أحضرتُ هذه لك من البيت الأبيض. أنا أحبّك، يا حبيبي، وأريد منك أنْ تأخذها».

«ما هذا؟».

«شوكولاتة لبعد العشاء. إنها شوكولاتة مُغلَّفة بورق مُذهّب. أتعلم ماذا يبرز على سطح الشوكولاتة؟ إنّه الختم الرئاسيّ. هذه واحدة لك، وإذا أعطيتك علبة ساندي، هل توصلها إليه بالنيابة عني؟».

«حسن».

«هذا ما يوضَع على الطاولة في البيت الأبيض في نهاية الوجبة. قطع من الشوكولاتة على طبق من الفضّة. وحالما رأيتها هناك فكّرتُ في الصبيِّين الوحيدَين في العالم اللذين أشدّ ما أرغبُ في إسعادهما».

نهضتُ واقفاً، وأنا أقبض على علبة الشوكولاتة بيدي، وأحاطت خالتي إيفلين كتفيّ بقوّة ومشتْ معي إلى الخارج وتجاوزنا كل الأشخاص العاملين عندها ومنهم إلى الرواق، حيث ضغطتْ على زر المصعد.

سألتني «ما هي كنية سيلدون؟».

«ويشناو».

«وهو أفضل أصدقائك».

كيف يمكن أنْ أشرح لها أنني لا أطيقه؟ وهكذا كذبتُ في نهاية المطاف وقلت «نعم، هو كذلك»، ولما كانت خالتي تحبّني حقاً ولم تكذب هي عندما قالت إنها أرادتْ أنْ تُسعدني، فبعد مُضيّ بضعة أيام، وبعد أنْ تخلّصتُ من شوكولاتة البيت الأبيض بالانتظار إلى أنْ انفردتُ

بنفسي ورميتُها عبر سياج دار الميتم، تلقّتِ السيدة ويشناو رسالةً من شركة ميتروبوليتان تبلِغها فيها بأنّها وعائلتها محظوظون وأنّهم اختيروا للانتقال أيضاً إلى كينتكي.

بعد ظهيرة يوم أحد في نهاية شهر أيار (مايو)، عُقِدَ اجتماعٌ سرّي في غرفة جلوسنا يضم وكلاء الضمان اليهود الذين نُقِلوا، مع والدي، من مكتب ميتروبوليتان في نيوارك تحت رعاية شركة هومستيد 42. وقد حضروا جميعاً لا ترافقهم غير زوجاتهم، بعد أنْ اتّفقوا على أنَّ من الأفضل ترك الأطفال في المنزل. وفي وقت مُبكِّر من بعد الظهيرة قمنا ساندي وأنا، بالإضافة إلى سيلدون ويشناو، بترتيب الكراسي من أجل الاجتماع، بالإضافة إلى مجموعة من الكراسي الخفيفة حملناها إلى الطابق العِلويّ من منزل آل ويشناو. بعد ذلك أخذتنا السيدة ويشناو نحن الثلاثة بالسيارة إلى مسرح مايفير في هيلسايد، حيثُ يُعرَض فيلمان معاً ومن ثم جاء والدي ليعيدنا بعد انتهاء الاجتماع.

الضيفان الأخيران كانا شيبسي وإستل تيرشويل، اللذين كانا سينتقلان مع عائلتهما إلى وينيبغ، ومونرو سيلفرمان، وهو يمتُّ بصِلة قرابة بعيدة لنا وكان قد فتح مؤخراً مكتب مُحاماة في إرفينغتون، فوق متجر للخردة مباشرة يملكه أخو والدي الأكبر سناً مباشرة، ليني، العم الذي كان يمدّنا ساندي وأنا بملابس المدرسة الجديدة «بسعر التكلفة». وعندما اقترحتْ أمي - احتراماً منها الدائم لكل ما تعلَّم المرء احترامه - وجوبَ دعوة هايمان ريسنيك، حاخامنا المحلّي، لحضور الاجتماع، لم يُبدِ غيرها من بين المُنظّمين الذين اجتمعوا في المطبخ خلال الأسبوع السابق أي حماس للفكرة، وبعد بضع دقائق من النقاش المحترم (أدلى والدي خلاله بأسلوبٍ دبلوماسيّ ما كان يقوله دائماً بدبلوماسيّة عن الحاخام ريسنيك، «يُعجبني الرجل، وتعجبني زوجته، ولا شك لديّ في أنّه قام بإنجاز ممتاز، لكنّه في الحقيقة لا يتمتع بقدر عال من الذكاء»)، ورُفِضَ

اقتراح أمي. ومع ذلك، كان طفلٌ مثلي يبتهج لسماع أولئك الأصدقاء المُقرّبين من عائلتنا بسلسلة واسعة مُسلّية من الأصوات تشبه أجواء برنامج «*عرض فريد ألن*» وكانوا مختلفين بوضوح كل منهم عن الآخر كشخصيات في مسلسل صور متحركة في صحيفة مسائيّة - كان ذلك في الماضي حين كان خبث التطور الخبيث لا يزال واضحاً وجليّاً، قبل أنْ يُصبح التجديد المُفعم بالشباب للوجه والقوام طموحاً جدّياً للبالغين بوقتٍ طويل - كانوا أشخاصاً متشابهين في الجوهر: يُنشئون عائلاتهم، ويضعون الميزانيّة الماليّة، ويهتمون بآبائهم العجائز، وببيوتهم المتواضعة بأسلوبٍ متشابه، ويفكرون في كل قضيّة عامة بأسلوب متشابه، ويصوّتون في الانتخابات السياسيّة بأسلوب متشابه. وكان الحاخام ريسنيك يرأس كنيساً مبنيّاً بقرميد أصفر اللون غير مهيب يقع في طرف الحيّ يؤمّه الجميع في العطلة الكبيرة لمدة ثلاثة أيام في كل عام لحضور شعائر رأس السنة واليوم الكبير ولكن فيما عدا ذلك كانوا قلما يعودون إلى هناك، ما عدا، عند الضرورة، لكي يؤدوا واجب الصلاة اليوميّة على أرواح الموتى خلال الفترة المُقرّرة. وكان الحاخام يؤدي مهمته في مناسبات الزواج والجنازات، واحتفالاً بوصول أبنائهم إلى سن البلوغ، وفي عيادة المرضى في المستشفى، وفي مواساة المُعدَمين خلال فترة الحِداد؛ وفيما عدا ذلك لا يؤدي أيّ دور هامّ في حياتهم اليوميّة، ولا يتوقَّع أي منهم - بمَنْ فيهم أمي المُحترَمة - القيام بذلك، وليس لأنَّ ريسنيك ليس لامع الذكاء فقط. وكونهم يهوداً لم ينشأ من الحاخاميّة أو من الكنيس أو من ممارسة طقوسهم الدينيّة الرسميّة، على الرغم من أنّه عبر السنين، وإلى حدٍ بعيد إكراماً للآباء الأحياء الذين يأتون مرّة في الأسبوع للزيارة ولتناول الطعام، كان عدد من العائلات، بما فيها عائلتنا، يلتزم بالشريعة اليهوديّة. وكونهم يهوداً لم ينشأ حتى من سُلطة عُليا. وفي الحقيقة، عند غروب يوم الجمعة، عندما كانت تقوم أمي شعائريّاً (وبصورة مؤثِّرة، وبكياسة ورعة تشرّبتها وهي طفلة من مراقبة أمّها) بإشعال شموع يوم السبت،

كانت تستحضر الرب العظيم بلقبه العبريّ ولكن فيما عدا ذلك لم يكن هناك مَنْ يأتي على ذِكر «أدونوي». لقد كانوا يهوداً ليسوا في حاجةٍ إلى صلاحيّة واسعة، ولا إلى مهنة الإيمان أو إلى عقيدة مذهبيّة، لكي يكونوا يهوداً، وهم حتماً لم يحتاجوا إلى أيّة لغة أخرى - فلديهم واحدة، لغتهم الأصليّة، يستخدمون أسلوبها العاميّ بسهولة وأيضاً، سواء على طاولة لعب الورق أم أثناء المماحكة في البيع، بالبراعة السهلة التي يتسم بها الناس البسطاء. ولم تكن هويتهم اليهوديّة بمنزلة حادث مؤسف أو حظٍ عاثر أو إنجاز يستدعي «الافتخار» به. إنَّ ما كانوا عليه هو ما لا يمكن التخلُّص منه - هو ما لا يمكنهم حتى البدء بالرغبة في التخلّص منه. لقد نشأتْ هويتهم اليهوديّة من كونهم أنفسهم، وكذلك هويتهم الأميركيّة. كان الأمر كما هو، في طبيعة الأشياء، أساسيّاً كما الأوردة والشرايين في الجسم، ولم يكونوا يُظهرون أدنى رغبة في تغييره أو إنكاره، بغضّ النظر عن العواقب.

لقد عرفتُ أولئك القوم طوال حياتي. كانت النساء صديقات مُقرّبات موثوقات يتبادلن الأسرار ووصفات الطبخ، تواسي إحداهن الأخرى عبر الهاتف وتعتني كلٌّ منهن بأطفال الأخرى ويحتفلن بانتظام بأعياد ميلاد إحداهن بقطع مسافة اثني عشر ميلاً إلى مانهاتن لمشاهدة عرض مسرحي في برودواي. وكان الرجال لا يعملون فقط طوال سنين في مكتب المنطقة نفسه بل ويجتمعون ليلعبوا الورق في الأمسيتين من الشهر اللتين تلعب فيهما النساء لعبتهن المُفضّلة، وبين حين وآخر، في صباح يوم أحد، تذهب مجموعة منهم إلى حمّام البخار القديم الكائن في شارع ميرسر مع أبنائهم الصغار الذين في رعايتهم - وتصادف أنْ كانت السلالة كلها من الصِبية الذين تتراوح أعمارهم بين عمر ساندي وعمري. وفي عيد الذكرى، والرابع من تموز (يوليو)، ويوم العمّال تُنظِّم العائلات نزهة على مسافة حوالي عشرة أميال إلى الغرب من حيّنا في محميّة ثاوث ماونتن الريفيّة، حيث كان الآباء والأبناء يرمون نعال الجياد وينقسمون إلى فرق للعب

الكرة الليّنة ويستمعون إلى وقائع مباراة في كرة القدم عبر البث المُشوّش لجهاز راديو محمول يخصّ أحد الأشخاص، وكان يمثّل التقنية الأشد سِحراً في عالمنا. ولم يكن الصِبية بالضرورة من أفضل الأصدقاء لكننا كنا نشعر بأننا متّصلون عبر قرابة الآباء. وكان سيلدون، من بيننا جميعاً، الأقلّ ضخامة، والأقلّ ثِقة في النفس وأيضاً، وهو الأمر الأشدّ إيلاماً، الأقلّ حظاً، ومع ذلك كان سيلدون هو الذي نجحتُ في الارتباط به طوال ما تبقّى من فترة فتوتي وربما بعد ذلك. كان قد بدأ يفرِض نفسه بمزيد من العناد بعد أنْ علِمَ هو وأمّه بأنهما سوف ينتقلان، ولم أكن أفكّر إلّا في أنّه لأننا سنكون التلميذَين اليهوديين الوحيدين في جهاز مدرسة دانفيل الابتدائيّة، سوف يُتوقَّع مني - من قِبَل أهل دانفيل غير اليهود بالإضافة إلى أهالينا - أنْ أكون حليفه الطبيعيّ ورفيقه الأقرب. وربما لم يكن حضور سيلدون الدائم هو ما ينتظرني في كينتكي، لكنَّ مُخيّلة صبي في التاسعة صوّرته على أنّه محنة لا تُطاق وعجّلَ في حافز التمرُّد.

كيف؟ لم أكنْ قد علِمتُ بعد. كل ما شعرتُ به حتى ذلك الحين هو فوران ما قبل التمرُّد، وكل ما فعلتُ بهذا الشأن كان العثور على حقيبة صغيرة من الكرتون المُبقَّع بالماء منسيّة تحت الأمتعة المُهمَلة في صندوق التخزين في قبونا، وبعد تنظيفها من الداخل والخارج من العفن الفِطريّ، أخفيتُ فيها الملابس التي كنتُ آخذها خلسة من غرفة سيلدون، قطعة بعد قطعة، كلما أجبرتني أمي على تحمُّل قضاء ساعة في الطابق السُفلي لأقوم بدور التلميذ المتذمِّر في لعبة الشطرنج. كنتُ سأُخفي ملابسي أنا في الحقيبة لولا أنني علِمتُ أنَّ أمي سوف تكتشف المفقود وذات يوم قريب سوف أُضطر إلى تقديم تفسير. كانت ما تزال تقوم بالغسيل في عطلة نهاية الأسبوع ثم تُعيد الملابس المغسولة إلى مكانها - بالإضافة إلى الغسيل على الناشف الذي كان عملي أنْ أُحضِره من دكان الخيّاط في أيام السبت - وهكذا كانت تضعُ في ذهنها قائمة بملابس كل فرد وتذكر فيها كل شيء حتى موقع آخر زوج من الجوارب. ومن ناحية

أخرى، كانت سرقة الملابس من سيلدون عملاً سهلاً، وأيضاً - وبسبب التصاقه بي وكأنني ذاته الأخرى - كانت انتقاماً لا يُقاوَم. كان سهلاً جداً إخراج الملابس الداخليّة والجوارب من شقّة ويشناو - وهبوط دَرَج القبو إلى الحقيبة - ودسّها تحت قميصي الداخليّ. وشكّلت سرقة وإخفاء بنطلونه، وقميصه الرياضيّ، وحذائه مشكلة أصعب، ولكن يكفي القول إنَّه يمكن إلهاء سيلدون إلى درجة إتمام السرقة من دون ملاحظة أحد، لبعض الوقت.

حالما جمعتُ كل ما أحتاج من أغراضه، لم يكن في استطاعتي أنْ أبوح بما خطّطتُ للقيام به بعد ذلك. وكنا أنا وهو من مقاس واحد، وبعد الظهيرة عندما تجرّأتُ على الاختباء في صندوق التخزين ونزعتُ ملابسي وارتديتُ ملابس سيلدون، كل ما فعلت هو أنني وقفتُ هناك وهمستُ، «مرحباً. اسمي سيلدون ويشناو»، وشعرتُ بأنني مخلوق غريب، وليس فقط لأنَّ سيلدون أصبحَ مخلوقاً غريباً في عيني وكنتُ أتحوَّل إليه بل لأنه كان جليّاً بعد أنْ جستُ أرجاء نيوارك بطريقة منتهكة - أجمعُ كل تلك الملابس في القبو المُظلِم - أنني أصبحتُ أنا نفسي شيئاً ضخماً وشاذاً. مخلوقاً شاذاً يحملُ جهاز عروس.

أودعتُ أيضاً مبلغ 19،50$ المتبقّي من الـ20$ الحقيبة، تحت الملابس. ثم عدتُ على عجل إلى ارتداء ملابسي، وأقحمتُ الحقيبة الكرتونيّة تحت الأمتعة الأخرى، وقبل أنْ يتمكّن شبح والد سيلدون الغاضب من خنقي حتى الموت بحبل جلّاد، ركضتُ إلى الزقاق ومنه إلى الخارج. وعلى امتداد الأيام القليلة التالية تمكّنتُ من نسيان ما أخفيتُ والهدف الغامض منه. بل بات في استطاعتي أنْ أعتبر ذلك الهروب الصغير الأخير ليس تصرّفاً ضالاً بدرجة خطيرة وغير ضارّ كالانضمام إلى المسيحيين مع إيرل، إلى أنْ كانت أمسية اضطرّتْ فيها أمي إلى الاندفاع إلى الطابق السُفليّ لتجلس وتُمسِك بيد السيدة ويشناو وتصنع لها فنجاناً من الشاي وتجعلها تأوي إلى السرير، فقد كانت والدة

سيلدون مُرهقة بصورة بائسة من الإفراط في العمل بسبب «ضياع ملابس ابنها» بصورة مُبهمة.

في تلك الأثناء كان سيلدون فوق في شقّتنا، حيثُ أُرسِلَ لكي يؤدي الواجب المدرسيّ بالنيابة عني. هو نفسه كان مُرهقاً من كثرة العمل. قال وهو يبكي «أنا لم أُضيِّعها. كيف أُضيِّع حذاءً؟ كيف أُضيِّع سروالاً؟».

قلت «سوف تتجاوز الأمر».

«كلا، هي لا تفعل - إنها لا تتجاوز أي شيء. إنها تقول لي: سوف تُرسلنا إلى الملجأ. إنَّ كل شيء بالنسبة إلى أمي هو بمنزلة «القشّة الأخيرة»».

اقترحتُ قائلاً «لعلك تركتها في حصّة الألعاب الرياضيّة».

«كيف يُعقل هذا؟ كيف أخرجُ من حصّة الألعاب وأنا عارٍ من الملابس؟».

«سيلدون، لابد أنْ تكون قد تركتها في مكانٍ ما. فكِّر».

في صباح اليوم التالي، وقبل أنْ أتوجّه إلى المدرسة وتُغادر أمي إلى عملها، اقترحتْ عليّ أنْ أُهدي سيلدون مجموعة من ملابسي عوضاً عن ملابسه التي ضاعت. قالت «هناك القميص الذي لم تلبسه أبداً - ذاك الذي أهداك إياه العم ليني وقلتَ إنّ لونه أخضر ساطع. وبنطلون ساندي الجوخ، بُنّي اللون الذي لم يكن على مقاسك - أنا متأكّدة من أنّه يُناسب مقاس سيلدون. إنَّ السيدة ويشناو شديدة الغضب، وسوف تكون لفتة ذكيّة من جانبك».

«والملابس الداخليّة؟ هل تريدين مني أنْ أُعطيه ملابسي الداخليّة أيضاً؟ هل أخلعها الآن، ماما؟».

قالت، مبتسمة لتُهدِّئ من توتّري، «ليس ضروريّاً. لكنَّ القميص الأخضر والبنطلون الجوخ وربما أحد أحزمتك القديمة التي لا تستخدمها. الأمر كلّه عائدٌ إليك، لكنَّ اللفتة سوف تعني الكثير بالنسبة

إلى السيدة ويشناو، وسوف يُقدّرها سيلدون كل التقدير. إنَّ سيلدون يعبدك. وأنت تعلمُ هذا».

قلت في نفسي في الحال. «إنها تعلم. تعلم ما فعلتُ. تعلمُ كل شيء».

قلتُ «ولكن لا أريد منه أنْ يتنقّل وهو يرتدي ملابسي. لا أريد منه أنْ يُخبر الأمر لكل شخص في كينتكي، «انظر إليّ، أنا أرتدي ملابس روث»».

«لِمَ لا تقلق بشأنْ كينتكي عندما نذهب، إذا ذهبنا، إلى كينتكي؟».

«سوف يرتديها ويذهب إلى المدرسة *هنا*، ماما».

أجابت «ما *خطبك*؟ ما الذي يجري لك؟ إنك تتحول إلى –».

«وكذلك أنتِ» وانطلقتُ حاملاً كتبي إلى المدرسة، ولدى عودتي إلى المنزل على موعد الغداء عند الظهيرة سحبتُ من خزانة الملابس في غرفة النوم القميص الأخضر الذي كرهته والبنطلون البُنّي الذي لم يكن على مقاسي وهبطت بهما إلى الطابق السُفلي إلى سيلدون، الذي كان في المطبخ يأكل الشطيرة التي تركتها أمّه له ويلعب الشطرنج مع نفسه.

قلتُ، وأنا أرمي الملابس على الطاولة، «خُذ. أنا أُعطيك هذه» ثم أضفتُ، لمجرد أنَّ ذلك جيد لعكس اتجاه مسار حياة كلٍ منا، «شريطة أنْ تكفّ عن ملاحقتي أينما ذهبت!».

لدى رجوعنا أنا وساندي وسيلدون من السينما وجدنا شطائر طعام مُعلَّب تُرِكَتْ لنأكلها على العشاء. كان البالغون الذين تناولوا الطعام في غرفة الجلوس بعد انتهاء اجتماعهم، فيما عدا السيدة ويشناو، التي جلستْ على طاولة المطبخ تشدّ قبضتيّ يديها معاً، ولا تزال تقاتل، ولا تزال تُصارع يوماً بعد يوم وكل شيء مُصمِّم على سحقها وسحق ابنها يتيم الأب. استمعتْ، معنا نحن الثلاثة، إلى عروض ليلة يوم الأحد الهزليّة، وفي أثناء تناولنا الطعام، راقبتْ سيلدون كما تراقبُ أنثى حيوان ابنها حديث الولادة عندما تلمح شيئاً يتسلّل خِلسة زاحفاً نحوهما. كانت

السيدة ويشناو قد غسلت الأطباق وجفّفتْها وأودعتها خزانة أدوات المطبخ، وأمي في غرفة الجلوس تدفع المكنسة الكهربائية على السجّادة، وكان والدي قد جمع القمامة وأخرجها وحمل مجموعة كراسي السيدة ويشناو الخفيفة إلى الطابق السُفليّ لكي يُعيدها إلى خلفيّة الخزانة حيث قتل السيد ويشناو نفسه. كان عبَق دخان التبغ يعمّ المنزل على الرغم من أنَّ النوافذ كلها كانت مفتوحة على مصاريعها وأُغرِقَ الرماد وأعقاب السجائر في المرحاض وغُسِلَت المنافِض الزجاجيّة تماماً ووُضِعَتْ داخل خزانة المشروبات البارزة (التي لم تؤخَذ منها أيّة زجاجة في ذلك اليوم ولم يطلب أي ضيف - تماشياً مع الالتزام الاعتياديّ بالامتناع عن شرب الخمر المعمول به في كامل منازل ذلك الجيل الأميركيّ المُكافِح - نقطة مشروب واحدة).

في الوقت الراهن، كانت حياتنا متماسكة، ومنازلنا راسخة، ومواساة الطقوس الاعتياديّة كانت قوية بما يكفي للمحافظة على وهم طفل في زمن السلم حول الحاضر الأبديّ، المُطمئن. كان لدينا جهاز الراديو الذي يُقدِّم لنا برامجنا المُفضّلة، وكانت لدينا شطائر لحم البقر المحفوظ اللذيذة على العشاء وكعك القهوة الكثيفة بعد الطعام، وكان لدينا استئناف العادات الروتينيّة لأسبوعٍ دراسيّ ينتظرنا بعد أنْ شاهدنا عرضاً مزدوجاً. ولكنْ لأنّه لم تكن لدينا أدنى فكرة عمّا قرّره آباؤنا حول المستقبل - لم نكن نعرف بعد ما إذا كان شيبسي تيرشويل قد أقنعهم بالهجرة إلى كندا، سواء أكان النسيب مونرو قد توصّلَ إلى مناورة شرعيّة يمكن تحمّلها لتحدّي خطة الانتقال من دون التسبُّب في طرد الجميع من العمل، أو ما إذا كانوا، بعد تقصِّيهم حول محاسِن ومثالب الانتقال الذي أقرّته الحكومة بتجرُّدٍ يتّصفون به، لم يعثروا على بديلٍ لقبول كون ضمانات المواطَنَة لم تعُد من حقّهم - لم يكن قبول المألوف بكل معنى الكلمة هو عربدة ليلة الأحد المعتادة.

عندما انقضَّ سيلدون بنهم يلتهم الشطيرة تغطّى وجهه كلّه بالخردل، فوجئتُ بأمّه تمدّ يدها لتمسحه بمنديل من الورق. وما فاجأني أكثر أنّه

سمحَ لها بفعل ذلك. قلتُ في نفسي «هذا لأنه ليس لديه والد» وعلى الرغم من أنني عندئذٍ آمنتُ بأنّني في ذلك الوقت كنتُ مُحقّاً بشأن كل ما يتعلّق به. قلتُ في نفسي «هكذا سيجري الأمر في كينتكي». عائلة روث في مواجهة العالم، وسيلدون وأمّه على مائدة العشاء إلى الأبد.

صدح صوت المُحتجّ المُحارِب، والتر وينتشل، عند الساعة التاسعة. كان الجميع ينتظرون أمسيات أيام الأحد المتتالية هجومٍ وينتشل على شركة هومستيد 42، وعندما لا يفعل، يُحاول والدي أنْ يتخلّص من غضبه بالجلوس وكتابة رسالة إلى الرجل الوحيد خلاف روزفلت الذي يعتبره آخر أفضل أمل لأميركا. كتبَ يقول «هذه تجربة، يا سيد وينتشل. هذا ما فعله هتلر. لقد بدأ المجرمون النازيّون بشيءٍ صغير، وإذا كانوا قد أفلتوا بجرائمهم، إذا لم يُطلِق رجلٌ مثلك صرخة إنذار...» لكنّه لم يُتابع سرد قائمة الأعمال المُرعبة التي تلتْ، لأنَّ أمي كانت متيقّنة من أنَّ الأمر سوف ينتهي بالرسالة في نهاية المطاف إلى مكتب الإف بي آي. فكّرتْ، إنّها موجّهة إلى وينتشل، لكنّها لا تصل أبداً إلى والتر وينتشل – في مكتب البريد توجَّه إلى الإف بي آي لكي تُصنَّف في ملفّ عنوانه «روث، هرمان» الذي يوضَع جنباً إلى جنب مع ملف عنوانه «روث، ألفن».

حاججَ والدي قائلاً «مستحيل. ليس البريد الأميركيّ»، لكنَّ جواب أمي المنطقيّ جرّده في الحال من القليل مما تبقّى من يقينه. قالت «أنت جالسٌ هنا تكتب رسالة لوينتشل وتتكهّن له كيف أنَّ الناس لن يتورّعوا عن فعل أي شيء حالما يعلمون أنَّ في استطاعتهم أنْ ينجوا بفعلتهم. والآن تحاول أنْ تُخبرني أنهم لا يستطيعون أنْ يفعلوا ما يشاؤون للنظام البريديّ؟ دع شخصاً آخر يُكاتب والتر وينتشل. لقد استجوبَتِ الإف بي آي أولادنا. والإف بي آي تراقبُ بعين ثاقبة ما فعله ألفن»، فقال لها «ولكن هذا هو *السبب* في أنني أكتب له. ماذا أفعل غير هذا؟ أي شيء آخر في *استطاعتي* أنْ أفعل؟ إذا كنتِ تعلمين، أخبريني. هل أكتفي بالجلوس وانتظار حدوث الأسوأ؟».

في غمرة حيرته العاجزة وجدتْ فرصتها، ليس لأنها كانت صلبة بل لأنها كانت يائسة، استغلّتها وأذلّته أكثر. قالتْ «إنَّ شيبسي لا يجلس ويكتب رسائل وينتظر حدوث الأسوأ»، قال «كلا، لن أعود إلى كندا من جديد!» وكأنَّ كندا هو اسم مرض يوهِننا كلنا خلسة. قال لها بحزم «لا أريد أنْ أسمع عن الأمر. إنَّ كندا ليست الحل»، ناشدته «بل هي الحل *الوحيد*»، صرخ «لن أهرب!» فأجفل الجميع. «هذا بلدنا!»، قالت أمي بحزن «كلا، لم يعُد كذلك. إنّه بلد ليندبرغ. وهو بلد غير اليهود. إنّه بلدهم»، قالت هذا، وأجبرَ صوتها المتردِّد والكلمات الصادمة والفوريّة المروّعة لِما كان حقيقيّاً بصورة قاسية والدي، وهو في ذروة رجولته، ولياقته البدنيّة، وتركيزه، وثباته كأي رجل في الحادية والأربعين من عمره، على النظر إلى نفسه بصفاء شديد: كأبٍ متفانٍ ذي طاقة جبّارة لم يعُد قادراً على حماية عائلته من الأذى بقدر ما كان السيد ويشناو وهو يتدلّى ميّتاً داخل الخزانة.

بالنسبة إلى ساندي - الذي كان لا يزال حانقاً بصمت من جور تجريده من أهميّته المُبكِّرة - لم يبدُ كلٌ منهما أكثر من غبي، وعندما يكون وحده معي لم يكن يتردَّد في التحدث عنهما بلغة استمدّها من الخالة إيفلين. قال لي «إنَّ يهود الحيّ هم يهود خائفون، مُرتابون». وفي المنزل كان يُحاكي ساخراً كل ما يقولانه، حول كل المواضيع، ومن ثم يسخر مني عندما أبدو مرتاباً بإحساسه بالمرارة. وعلى أيّة حال كان يمكن أنْ يكون قد بدأ في ذلك الوقت بالاستمتاع بالسخرية، بل وربما في الأوقات العاديّة كان والدي ووالدتي يجدان أنَّ عليهما أنْ يتحمّلا قدر ما يستطيعان سُخرية مُراهِق قلِق مُثيرة للامتعاض، ولكن ما جعل الأمر أكثر من مُجرَّد مُثير للسخط في عام 1942 هو الورطة المُهدِّدة بصورة غامضة التي كان خلالها يستمرّ في الانتقاص من قدرهما في وجهيهما.

سألتُه «ما معنى مرتاب؟».

«هو الشخص الذي يخاف من خياله. الشخص الذي يعتقد أنَّ العالم برمّته يقفُ ضدّه. الشخص الذي يعتقد أنَّ كينتكي أشبه بألمانيا وأنَّ رئيس

الولايات المتحدة هو أحد جنود العاصفة النازيين»، ثم قال، مُحاكياً بسُخرية خالتنا العيّابة كلما ميَّزتْ نفسها بتشامُخ عن الرعاع اليهود. قال ساندي «إنَّك تتبرَّع بتسديد تكاليف انتقال هؤلاء القوم، وتتبرّع بفتح البوابة واسعاً لكي يمرّ منها أولادهم... أتعرف ما هو المُرتاب؟ المرتاب شخصٌ مجنون. إنَّ الاثنين معتوهَان - إنّهما مجنونان. أتعلم ما الذي تسبَّب في جنونهما؟».

الجواب كان ليندبرغ، لكنّني لم أجرؤ على قول هذا له. سألتُه «ماذا؟».

«إنّه العيش كحفنة من الأغرار في حيّ لعين لليهود. أتعلم بماذا يصف الحاخام بينغلسدورف ذلك حسب قول الخالة إيفلين؟».

«يصِفُ ماذا؟».

«أسلوب عيش هؤلاء الناس. يُسمّيه «الإيمان بحتميّة الكدح اليهوديّ»».

«وما معنى هذا؟ لا أفهم. ترجم، من فضلك. ما هو «الكدح»؟».

«الكدح؟ الكدح هو ما يُسمّيه اليهود tsuris (مشاكل)».

* * *

عندما فتح والداي جهاز الراديو للاستماع إلى برنامج والتر وينتشل في الجزء الأمامي من المنزل، كان آل ويشناو قد نزلا إلى الطابق السُفليّ وكان ساندي قد استقرَّ في المطبخ لكي يُنهي واجبه المدرسيّ. كنتُ في سريري والأضواء مُطفأة: لم أرغب في سماع أي كلمة مُخيفة أخرى من أي شخص عن ليندبرغ، أو فون ريبنتروب، أو دانفيل، أو كينتكي، ولم أرغب في التفكير في مستقبلي مع سيلدون. أردتُ فقط أنْ أختفي داخل نومٍ من النسيان وأنْ أستيقظ في الصباح في مكان آخر. ولكن لأنَّ جو الأمسية كان دافئاً والنوافذ مُشرّعة، لم يسعني، عندما دقّت الساعة التاسعة، إلّا أنْ أشعر بعلامة وينتشل الشهير المُميِّزة في الراديو تكتنفني من كل ركن - قعقعة النقاط والقاطعات تصدر عن إبرة التلغراف وتُرسِل

عبر رموز مورس (التي علَّمني ساندي إياها) لا شيء على الإطلاق. ومن ثم، يتغلَّبُ على قعقعة الإبرة المتلاشية، انفجار صوت وينتشل الحارّ نفسه منبعثاً من منازل الحيّ كلها. «أُسعدتُم مساءً، سادة أميركا وسيداتها...» وتبع ذلك وابلٌ مُتقطِّع من الكلمات التي طال انتظارها - أخيراً جاء سوط وينتشل المُطهِّر الذي سيغيِّر كل شيء. وفي الأوقات المعتادة، عندما يكون في قُدرة أمي وأبي تصحيح الأمور وشرح ما يكفي من المجهول لكي يجعلا الوجود يبدو عقلانيّاً، لم يكن الأمر على هذه الصورة، ولكنْ بسبب الجو المجنون السائد هنا والآن، أصبحَ وينتشل، حتى في عيني، إلهاً بكل معنى الكلمة وأشدّ أهميّة بما لا يُقاس من أدونوي (الرب).

«أسعدتم مساءً، يا سادة أميركا وسيداتها ويا كل السفن في البحر. هيا بنا إلى الصحافة! إليكم موجز الأنباء! تهلَّل جو غوبلز ذو وجه الفأر ورئيسه لبدء استهداف فاشيي ليندبرغ يهود أميركا. واللقب الزائف للمرحلة الأولى من الاضطهاد اليهوديّ المُنظَّم في أرض الأحرار هو «هومستيد 42». إنَّ هومستيد 42 تلقّت المُساعدة والتحريض على الإجرام على أيدي بارونات اللصوصيّة الأميركيّة الأشدّ احتراماً - ولكن لا تقلقوا، سوف يُكافئهم المتفانون في سبيل جمهورية ليندبرغ بفترات من الإعفاء الضريبيّ في جلسة مجلس الشيوخ المُناصِر للجشع التالية.

«نبأ: سوف يُقرِّر لاحقاً اثنان من أعلى موظفي ليندبرغ النازيين، نائب الرئيس ويلر وسكرتير وزارة الداخليّة هنري فورد، إنْ كان يهود هومستيد 42 سوف ينتهي بهم الأمر في معسكرات الاعتقال على غرار معسكر الاعتقال الذي أنشأه هتلر في بوخنفالد. هل قلتُ «إنْ كان»؟ اغفروا لي لغتي الألمانيّة الركيكة. كنتُ أقصد عندما.

«نبأ: أُمِرَت حتى الآن مئتان وخمس وعشرون عائلة يهوديّة بإخلاء مدن شمال شرق أميركا استعداداً لشحنهم بعيداً عن عائلاتهم وأصدقائهم آلاف الأميال. الشحنة الأولى جُعِلَتْ صغيرة استراتيجيّاً هَرَباً من الانتباه العالميّ. لماذا؟ لأنَّ هذا يُحدِّد بداية نهاية أربعة ملايين ونصف المليون

من المواطنين الأميركيين اليهود. سوف يتشتّت اليهود إلى كل بقعة يزدهر فيها أوائل المُناصرين لهتلر في أميركا. هناك يمكن لمُخرّبي الديمقراطيّة اليمينيين - الذين يُسمّون بالوطنيين ويُسمّون بالمسيحيين - أنْ ينقلبوا ضد تلك العائلات اليهوديّة المعزولة بين ليلةٍ وضُحاها.

«ومَن التالي، يا سادة وسيدات أميركا، بعد أنْ لم يعُد ميثاق حقوق الإنسان قانون البلاد وأصبح الحاقدون العنصريون يتحكّمون في كل شيء؟ مَن التالي في ظل مشروع خطة ويلر- فورد للاضطهاد الذي تموّله الحكومة؟ أهُم العبيد الذين طالت مُعاناتهم؟ أم الإيطاليون المجتهدون في العمل؟ أم آخر سلالة الموهيكان؟ مَن أيضاً بيننا لم يعُد مُرحَّباً به في أميركا أدولف ليندبرغ الآريّة؟

«سبق صحفي! لقد علِمَ مُراسلنا أنَّ هومستيد 42 كانت في طور الإعداد في العشرين من شهر كانون الثاني (يناير) عام 1941، اليوم الذي نقل النظام الأميركي الفاشي الجديد رعاعه إلى البيت الأبيض، ووقَّعَ على عملية البيع الكاملة لأيسلندا بين الفوهرر وشريكه النازيّ في الجريمة.

«سبق صحفيّ! لقد علِمَ ذلك المُراسل أنّه فقط في مقابل الانتقال التدريجيّ - وفي الختام السجن الجماعيّ - لليهود الأميركيين على أيدي آريّي ليندبرغ سوف يوافق هتلر على إعفاء الجزر البريطانيّة من الغزو المُسلَّح الشامل عبر القنال الإنكليزية. واتّفقَ الفوهريران المحبوبان على أنَّ ذبح الآريّين الأصليِّين ذوي الشعر الأشقر والعيون الزرقاء لا معنى له إلّا إذا اضطررتَ إلى ذلك. وليس غريباً أنَّ هتلر سوف يُضطر حتماً إلى ذلك إذا فشل حزب أوزالد موسلي البريطاني الفاشيّ في الهيمنة استبداديّاً على 10 داونينغ ستريت قبل حلول عام 1944. وحينئذٍ يُخطط العرق المتفوِّق أنْ يختم بالاستعباد النازيّ لثلاثمئة مليون روسيّ وأنْ يرفع علامة الصليب المعقوف فوق مبنى الكرملين في موسكو.

«إلى متى سوف يتحمّل الشعب الأميركي هذه الخيانة التي ارتكبها رئيسه المُنتَخَب؟ إلى متى سيبقى الأميركيون نياماً بينما دستورهم

النفيس يُمزَّق إرباً على يد الطابور الخامس الفاشيّ لليمين الجمهوريّ الذي يمشي بخطوة عسكريّة تحت شارة الصليب والعلم؟ ابقوا معي، أنا مراسلكم في نيويورك والتر وينتشل، في انتظار القنبلة الكبيرة التالية حول أكاذيب ليندبرغ الغادرة.

«سوف أعود حالاً مع موجز الأخبار».

عندئذٍ حدثتْ ثلاثة أشياء دفعة واحدة: بدأ الصوت المُهدِّئ للمذيع بن غوير يُعلِن عن غسول لليد لمصلحة راعي البرنامج؛ وبدأ جرس الهاتف يرن في الرواق خارج غرفة النوم لأنَّ ذلك لا يحدث أبداً بعد الساعة التاسعة مساءً؛ وانفجر ساندي. أخذ يصرخ في وجه المذياع فقط (ولكن بقوة حتى إنَّ والدي نهضَ في الحال عن كرسيه في غرفة الجلوس)، «كذّابٌ قذر! كذّاب وضيع!».

قال والدي، مندفعاً نحو المطبخ «هيه، لا تفعل هذا في بيتي. ليس بهذه الألفاظ. يكفي».

«ولكن كيف تتحمّل *سماع* مثل هذا الهراء؟ *أية* معسكرات اعتقال؟ ليستْ هناك معسكرات اعتقال! إنَّ كل كلمة هي كذب - هراء من النوع الذي يجذبكم إلى الإصغاء! إنّ البلد برمّته يعلم أنَّ وينتشل ممتلئ بالهواء الحارّ - وأمثالكم فقط لا يعلمون هذا».

سمعتُ والدي يقول «وأي نوع بالضبط من الناس أولئك؟».

«أنا أعيشُ في كينتكي! إنَّ كينتكي هي واحدة من ثمانٍ وأربعين ولاية! والبشر يعيشون هناك كما يعيشون في أي مكانٍ آخر! إنها ليستْ معسكر اعتقال! إنَّ هذا الرجل يكسب الملايين من بيع غسول اليد القذر - وأمثالكم يُصدّقونه!».

«لقد أمرتُك تواً ألّا تستخدم ألفاظاً نابية، وها أنا أُكرّر أمرك من جديد بألّا تستخدم تعبير «أمثالكم» مرّة أخرى، يا بنيّ، وسوف أطلبُ منك أنْ تغادر المنزل. وإذا أردتَ أنْ تذهب وتعيش في كينتكي بدل هنا،

فسوف أنقلك بالسيارة بنفسي إلى محطة بن ويمكنك أنْ تستقل القطار التالي المُغادر. لأنني أعلم جيداً ما تعني بـ «أمثالكم». وأنتَ أيضاً تعلم. والجميع يعلمون. فإياك أنْ تستخدم هذه الكلمة في بيتي بعد الآن».

«حسن، في رأيي أنّ والتر وينتشل مملوء بهذا».

قال «عظيم، هذا رأيك الخاص وأنتَ مؤهَّل له. أما الأميركيون الآخرون فلديهم رأي آخر. وواقع الحال هو أنّ ملايين وملايين من الأميركيين يُصغون إلى والتر وينتشل في أمسية كل يوم أحد - وهم ليسوا مجرد «أمثالكم» كما تقول أنت وخالتك. إنَّ برنامجه ما زال يحتل المركز الأعلى بين برامج الأخبار. لقد أسرَّ فرانكلين روزفلت أشياء ما كان ليُخبرها لأي صحفيّ. ثم اسمع - إنَّ ما أقول هي ***حقائق***».

«ولكن ***لا أستطيع*** أنْ أُصغي إليك. كيف أُصغي إليك وأنت تتكلَّم بالنيابة عن «ملايين» الناس؟ إنَّ ملايين الناس ليسوا أكثر من بلهاء!».

في تلك الأثناء كانت أمي قد أجابت على الهاتف الذي في الرواق، وسمعتها وأنا في سريري أيضاً وهي تتكلَّم. قالت: نعم، طبعاً يستمعون إلى وينتشل. نعم كان شيئاً رهيباً، وأسوأ مما اعتقدوا، ولكن على الأقلّ أصبح الآن معلناً على الملأ. نعم، سوف يتّصل هرمان حالما ينتهي برنامج وينتشل.

أجرت مثل هذا الحديث أربع مرّات، ولكن عندما رنَّ جرس الهاتف للمرة الخامسة، لم تهبّ للإجابة على المكالمة، على الرغم من أنَّ المُتّصل هو حتماً أحد أصدقائهما الذين هزّتهم الأسرار الناريّة التي كشفَ عنها وينتشل - لم تُجِب لأنَّ الإعلان التجاري كان قد انتهى وعادت هي ووالدي إلى جوار جهاز الراديو في غرفة الجلوس. وكان ساندي قد لجأ إلى غرفة النوم، حيث تظاهرتُ بأنني نائم بينما كان يستعد للنوم على ضوء الليل، المصباح الصغير ذو المفتاح على شكل مقبض المضخّة كان قد صنعه كلّه في حصّة الأشغال عندما لم يكن أكثر من صبي لديه ميول فنيّة منهمك بما يمكن أنْ يصنعه بيديه البارعتين ولم يكن مُلوَّثاً بالعراك الأيديولوجي والحمد لله.

لم يكن جهاز الهاتف عندنا قد استُخدِمَ بمثل ذلك الإلحاح مؤخراً خلال الليل منذ وفاة جدَّتي قبل عامَين. كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة قبل أنْ يُجيب والدي عن كل المكالمات الهاتفيّة، ومرّتْ ساعة أخرى قبل أنْ يُغادر والداي المطبخ، حيث كانا يتبادلان الحديث بهدوء، وأويا هما أيضاً إلى النوم. ومرّتْ ساعتان أُخريان قبل أنْ أتيقّن من أَنّهما قد استغرقا في النوم ومن أنَّ أخي، على السرير المُجاور لسريري، لم يعُد يُحدِّق إلى السقف بل كان أيضاً مُستغرقاً في النوم، ومن أنَّ في استطاعتي أنْ أنهض بسلام من دون أنْ يكتشف أمري أحد وأشقّ طريقي إلى الباب الخلفي وأُدير القفل وأتسلّل إلى خارج الشقّة وأهبط الدَرَج إلى القبو حافياً متجهاً، في الظلام، عبر بلاط أرضيّة القبو نحو صندوق التخزين لدينا.

لم يكن يدفعني إلى ذلك أي دافعٍ متهور أو مسعور، ولم يكن في قراري أيّة سِمة ميلودراميّة، أو اندفاع طائشْ. ولاحقاً قال الناس إنّه لم تكن لديهم أدنى فكرة أنّه تحت غلالة الطاعة وحُسن السلوك اللذين يتصف بهما تلميذ الصف الرابع يكمنُ ولدٌ متهورٌ بصورة مُدهشِة، ومُستغرق في أحلامْ اليقظة. لكن هذا لم يكن حلم يقظة تافهاً. لم أكنْ أمارس لعبة التظاهُر، ولم أكن أمارس الخبث لمجرد الخبث. وكما اتّضحَ، كانت ممارسة الخبث مع إيرل أكسمان تدريباً قيِّماً لكنّها مورِسَتْ لغرض مختلف تماماً. أنا حتماً لم أشعر كأنني أندفع مباشرة نحو الجنون، ولا حتى عندما وقفتُ داخل الصندوق المُظلِم أخلعُ بيجامتي وأرتدي بنطلون سيلدون وفي الوقت نفسه أتفادى شبح والده وأحاول ألّا أشعر بالرعب من كرسي الألفن المتحرِّك الخالي. لم يغمرني أيّ شيء خلاف عزمي الشديد على مقاومة وقوع كارثة لا تستطيع عائلتي وأصدقائي تجنّبها وقد لا ينجون منها. ولاحقاً قال والداي، «لم يكن يعلم ماذا يفعل» وأصبحت عبارة «إنه السير في أثناء النوم» هي التفسير الرسمي. لكنني كنتُ في كامل يقظتي ولم أكن غافلاً عن دافعي. كل ما كنتُ غافلاً عنه هو إمكانيّة نجاحي. واقترحَ أحد

أساتذتي أنني كنتُ أعاني من «أوهام العَظَمَة» التي ألهمني بها ما كنتُ تعلّمتُه في المدرسة عن سكة القطار تحت أرضيّة، التي أُعدَّتْ قبل نشوب الحرب الأهليّة لمُساعدة العبيد على شق طريقهم نحو الشمال إلى الحريّة. لكنَّ هذا غير صحيح. أنا لم أكن أشبه ساندي البتّة، الذي كانت الفرصة تحثّ رغبته في أنْ يكون فتى على أعلى مستوى، يمتطي متن التاريخ. أنا لم أرغب في أنْ تكون لي أيّة صِلة بالتاريخ. أردتُ أنْ أكون فتى على أدنى مستوى ممكن. أردتُ أنْ أكون يتيماً.

كان هناك شيء واحد فقط لم أستطع أنْ أتركه ورائي - ألبوم طوابعي. ربما لو أنني كنتُ متيقّناً من ضمان بقائها محفوظة جيداً بعد رحيلي، لما توقّفتُ، في اللحظة الأخيرة، وأنا في طريق خروجي من غرفة نومي، لكي أفتح درج طاولة الزينة وأرفعه، بأقصى ما أستطيع من هدوء، من مكان حفظه تحت جواربي وملابسي الداخليّة. لكنَّ تخيّل ألبومي مُحطَّماً أو مُهمَلاً أو، وهذا أسوأ، أُعطيَ بأكمله إلى فتى آخر، كان شيئاً لا يُطاق، ولهذا تأبطتُه، مع فتّاحة الرسائل التي على شكل بندقية قديمة الطراز اشتريتُها من ماونت فرنون وكنتُ أستعمل طرف حربتها لكي أفتح بأناقة البريد الوحيد الذي كان يصلني، بالإضافة إلى بطاقات أعياد الميلاد - حزم «الموافقات» التي كانت تأتيني بانتظام من عنوان بوسكن 17، ماساتشوستس، من قِبَل «أكبر مصنع في العالم لإنتاج الطوابع»، هـ. إ هاريس وشركاه.

لا أتذكّر شيئاً مما وقع بين تسلّلي خِلسة من المنزل وانطلاقي على الطريق الخالي نحو أرض الميتم واستيقاظي في اليوم التالي لأرى والديّ بوجهيهما الكالحين عند أسفل سريري والطبيب المنهمك في إخراج ما يُشبه الأنبوب من أنفي وهو يقول لي إنني مريض في مستشفى بيت إسرائيل وإنني على الرغم من أنني ربما أشعر بصداع شديد، فإنني سوف أكون بخير. كان رأسي يؤلمني فعلاً، ألماً رهيباً، ولكن ليس بتأثير

الضغط الذي تسبّبت به الجلطة الدمويّة على دماغي - وهو احتمال كانوا يخشونه عندما عثروا عليّ أنزف وأنا غائب عن الوعي - وليس بسبب تضرُّر الدماغ. استبعد الفحص بالأشعة السينيّة وجود شرخ في الجمجمة ولم يُبيِّن الفحص العصبيّ أي خلل في الأعصاب. وفيما عدا تمزُّق بطول ثلاث بوصات يتطلَّب ثماني عشرة قطبة أُزيلَتْ في الأسبوع التالي، ولمّا لم أتذكّر الضربة بحد ذاتها، فلا شيء خطيراً ألمَّ بي. وكما قال الطبيب، إنّه مجرد ارتجاج عادي في المخّ - هذا ما تسبَّبَ في الألم وأيضاً في فقدان الذاكرة. قد لا أتذكّر أبداً أنَّ حصاناً رفسني - أو سلسلة الأحداث التي أدّتْ إلى ذلك التصادُم - لكنَّ الطبيب قال إنَّ هذا عاديّ أيضاً. وفيما عدا ذلك فإنَّ ذاكرتي سليمة. لحُسن الحظ. استخدم هذه العبارة مرات عِدّة وبدت سخيفة داخل رأسي المتوجِّع.

أبقوني تحت الملاحظة طوال ذلك اليوم وطوال الليل - كانوا يوقظونني في كل ساعة تقريباً لكي يضمنوا ألّا أنزلق إلى اللاوعي من جديد - وفي صباح اليوم التالي أطلقوا سراحي ونصحوني بأنْ تكون نشاطاتي الجسديّة سهلة على مدى أسبوع أو اثنين. وكانت أمي قد أخذتْ إجازة من العمل لكي تلازمني في المستشفى وكانت حاضرة لكي ترافقني إلى المنزل على متن حافلة. ولأنَّ رأسي لم يكفّ عن إيلامي على مدى عشرة أيام، ولأنه لم يكن في وسع أحد فعل أي شيء بهذا الشأن، لزمتُ المنزل ولم أذهب إلى المدرسة، وفيما عدا ذلك قيل إنني بخير، والشُكر في المقام الأول لسيلدون، الذي راقب عن بُعد كل ما لم أتمكّن من تذكّره. فلو لم يتسلَّل سيلدون خلسة من سريره عندما سمعني وأنا أهبط الدَرَج الخلفيّ، لو لم يتبعني في الظلام على طول جادة سَميت وعبر ملعب المدرسة الثانوية إلى جادة غولدسميث المجاور للميتم وخلال البوابة غير الموصدة ومنها إلى غابة الميتم، لبقيتُ متمدداً هناك غائباً عن الوعي وأنا أرتدي ملابسه وأنزفُ حتى الموت. وهرع سيلدون عائداً إلى منزلنا، وأيقظَ والديّ، اللذين اتصلا هاتفياً في الحال بعامل الهاتف

طالبين المساعدة، ورافقهما بالسيارة ودلّهما إلى البقعة التي كنتُ فيها. كانت الساعة عندئذٍ تقترب من الثالثة صباحاً وكان الظلام دامساً؛ ركعتْ أمي إلى جواري على الأرض الرطبة، وأخذتْ تضغط منشفة كانت قد جلَبَتها معها على رأسي لكي توقِف النزيف بينما دثّرني والدي بغطاء قديم للنزهة كان في صندوق السيارة وأبقاني دافئاً ريثما تصل سيارة الإسعاف. لقد نظّم والداي عمليّة إنقاذي، لكنَّ سيلدون ويشناو أنقذَ حياتي.

يبدو أنني تسبّبتُ في إجفال الحصانَين، وعندما اختلّ توازني وبدأتُ أتعثّر في الظلام حيث تنفتح الغابة على أرض مزروعة، وعندما استدرتُ أبغي الهرب من الحصانين وأعود إلى الشارع خلال الغابة شبَّ أحدهما، فتعثّرتُ وسقطتُ، وأثناء هرب الآخر ضربني بحافره على خلفيّة جمجمتي. وبقيَ سيلدون طوال أسبوع يُعيد بكل حماس على مسمعي (وطبعاً على مسمع المدرسة كلّها) كل تفصيل في محاولتي الليليّة للهرب من المنزل واستقبال الراهبات لي على أني طفل يتيم - وأثناء سرده روايته، مُستمتعاً على وجه الخصوص بحادث الحصانين المؤسف بالإضافة إلى حقيقة أنّه، وهو خارج المنزل في قلب الليل، حافياً وببيجامته، قطع مرّتين مسافة ميل في المنطقة الصعبة بين غابة الميتم ومنزلنا.

لم يستطع سيلدون، خلافاً لأمه ولوالديّ، أنْ يتغلَّب على إثارة اكتشاف أنّه ليس هو الذي «أضاع» بصورة مُبهمة ملابسه بل أنا الذي سرقها لكي أستعين بها في الهرب. هذا الاحتمال المُستبعَد تماماً أضفى، كما لم يحدث من قبل، قيمةً إلى وجوده لم ينتبه إليها من قبل. بدا أنَّ سرد القصة بكل ما تخلعه عليه من صِفة المُنقِذ والشريك المُتآمِر معاً - وعرْض قدميه المكشوطتين أمام الملأ - جعل من سيلدون أخيراً شخصاً رائعاً حتى في عينيّ نفسه، فتى جريئاً قادراً على جذب انتباه بطل للمرة الأولى في حياته، بينما كنتُ أنا مُدمَّراً، ليس بسبب عار الأمر كلّه فقط، الذي كان لا يُطاق ويدوم أكثر من الصداع، بل لأنَّ ألبوم طوابعي، كنزي الأعظم، الذي لا أستطيع العيش من دونه، ضاع. لم أتذكّر أنني أخذته معي إلّا في

يوم عودتي من المستشفى إلى المنزل واستيقظتُ في الصباح لكي أرتدي ملابسي واكتشفتُ فقدانه من تحت جواربي وملابسي الداخليّة. والسبب الرئيس لإخفائي له هناك كان لكي يكون أوّل شيء أراه في الصباح عندما ارتدي ملابسي استعداداً للذهاب إلى المدرسة. والآن أول ما اكتشفتُ في صباح أول يوم لي في المنزل كان أنَّ أثمن ممتلكاتي قد ضاع. اختفى ولا يمكن تعويضه. إنّه يُشبه - ولا يُشبه البتّة - فقدان ساق.

صرختُ «ماما! ماما! لقد وقعَ أمرٌ رهيب!».

صرخت «ما هو؟» وهرعت من المطبخ إلى غرفة الجلوس، «ماذا حصل؟».

كانت، طبعاً، قد اعتقدتْ أنني بدأتُ أنزف جرّاء القُطب أو أنني أكاد أغيبُ عن الوعي أو أنَّ الصداع كان أشدّ وطأة من قُدرتي على تحمّله.

«طوابعي!» هذا كل ما استطعتُ قوله، وتمكّنتْ من فهم الباقي.

ما فعلتْه عندئذٍ هو أنها باشرت بالبحث عنها. خرجتْ وحدها إلى غابة الميتم وأخذتْ تفتش الأرض حيث تمَّ اكتشافي، لكنها لم تعثر على الألبوم في أي مكان - لم تعثر حتى على طابع واحد.

عندما عادتْ إلى المنزل سألتني «هل أنت متأكّد من أنها كانت في حوزتك؟».

«نعم! نعم! إنها هناك! يجب أنْ تكون هناك! لا يمكنني أنْ أخسر طوابعي!».

«لكنني بحثتُ مطوّلاً. بحثتُ في كل مكان».

«ولكن مَنْ يمكن أنْ يكون قد أخذها؟ أين يمكن أنْ تكون؟ إنها لي! يجب أنْ تعثري عليها! إنها طوابعي!».

لم يكن هناك ما يواسيني. تخيّلتُ حشوداً من الأيتام يعثرون على الألبوم في الغابة ويمزّقونه إرباً بأيديهم القذرة. تخيّلتهم ينزعون الطوابع ويأكلونها ويدوسون عليها ويتخلّصون من حفنات منها مع دفق مياه

المرحاض في غرفة نومهم الفظيعة. لقد كرهوا الألبوم لأنّه ليس لهم - كرهوا الألبوم لأنَّهم لا يمتلكون أي شيء.

تلبية لطلبٍ مني، لم تُخبر أمي أبي ولا أخي عمّا حصل لطوابعي أو عن النقود التي في بنطلون سيلدون. «عندما عثرنا عليك، كان هناك في الجيب تسعة عشر دولاراً وخمسون سنتاً. لا أعلم من أين أتتْ ولا أريد أنْ أعرف. لقد انتهى الحادث وانقضى. لقد فتحتُ حساباً للتوفير من أجلك في مصرف هاوارد للتوفير. وضعتُه باسمك من أجل المستقبل» وناولتني دفتر توفير صغيراً مكتوباً اسمي داخله وعلى صفحة الإيداع كان البند الأول والوحيد المطبوع باللون الأسود كُتِبَ رقم 19،50 $. قلت «شكراً لكِ» ثم أدلتْ بحُكمها على ابنها الثاني الذي اعتقدتُ أنها سوف تحمله معها إلى القبر. أخبرتني «أنت طفل شديد الغرابة». قالت «لم تكن لديّ أدنى فكرة. لم أبدأ بمعرفة هذا»، ثم ناولتني فتّاحة رسائلي، النموذج المُصغَّر لبندقيّة قديمة مصنوعة من القصدير الذي اشترته من ماونت فرنون. كان الزند مخدوشاً وقذراً والحربة ملويّة قليلاً ومُشوّهة. كانت قد عثرتْ عليها بعد ظهيرة ذلك اليوم عندما هرعت، من دون عِلمي، من العمل عند ساعة الغداء وعادتْ للمرة الثانية لكي تمشِّط تربة غابة الميتم بحثاً عن أصغر بقيّة لمجموعة الطوابع التي تلاشتْ في الأثير.

-7-

حزيران (يونيو) 1942 – تشرين الأول (أكتوبر) 1942

أحداث شغب وينتشل

في اليوم السابق لاكتشافي ضياع طوابعي، علِمتُ بأمر قرار والدي ترك عمله. وبعد وصولي إلى المنزل ببضع دقائق من المستشفى في صباح يوم ثلاثاء، أوصلني إلى منزلنا وإلى الزقاق بشاحنة العم مونتي ذات الجوانب الخشبيّة وركنها هناك خلف سيارة السيدة ويشناو، بعد انتهائه من أول ليلة عمل في سوق شارع ميللر. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، من ليلة يوم الأحد وحتى صباح يوم الجمعة كان يعود إلى المنزل عند الساعة التاسعة، أو العاشرة صباحاً، فيغتسل، ويأكل وجبته الكبرى، ويأوي إلى السرير وينام بحلول الساعة الحادية عشرة، ولدى عودتي من المدرسة كنتُ أحرص على ألّا أصفع الباب الخلفيّ وأوقظه. وبُعيد الساعة الخامسة بعد الظهر يستيقظ ويخرج، لأنه عند الساعة السادسة أو السابعة يبدأ المزارعون بالتوافد على السوق مع منتجاتهم، ومن ثم في وقت ما بين العاشرة مساءً والرابعة صباحاً يأتي بائعو البقالة بالتجزئة لكي يشتروا، بالإضافة إلى أصحاب المطاعم والفنادق وآخر ما تبقّى من باعة جوالين على عربات تجرها أحصنة في المدينة. وكان يُحافِظ على يقظته طوال الليل بشرب وعاء من القهوة مع تناول شطيرتين أعدّتهما أمي ليأخذهما معه إلى العمل. وفي صباحات أيام الأحد يقوم بزيارة أمّه في منزل العم مونتي

أو يُحضِرها مونتي إلى المنزل لترانا، ويقضي ما تبقّى من يوم الأحد في النوم، ومن جديد نُحافِظ على جو الهدوء لكي لا نزعجه. كانت حياة صعبة، خاصّة أنّه أحياناً يُضطر إلى الخروج بالسيارة قُبيل الفجر ليذهب إلى المزارعين في باسيك ومقاطعات النقابة ويُحضِر منتجاتهم بنفسه إنْ كان العم مونتي سيحصل على صفقة أفضل بهذه الطريقة.

كنتُ أعلم أنها حياة شاقّة لأنه عندما يعود إلى المنزل في الصباح يتناول مشروباً. وفي المعتاد في بيتنا كانت زجاجة الفور روزز تدوم عاماً. ولم تكن أمي، مِثال الامتناع عن شرب الخمر، تطيق النظر إلى كأس بيرة يعلوه الزبد، ناهيك عن رائحة الويسكي الصِرف، فمنذ متى كان والدي يتناول مشروباً، ما عدا في مناسبة الاحتفال بعيد زواجهما أو عندما يزورنا رئيسه في العمل على العشاء ويُقدِّم له مشروب الفور روزز مع الثلج؟ أما الآن فبات يعود إلى المنزل من السوق، وقبل أنْ يُبدِّل ملابسه القذرة ويأخذ دشّاً، يصبّ لنفسه الويسكي في كأس الجرعة الواحدة، ويميِّل رأسه إلى الخلف، ويجرعه دفعة واحدة، راسماً وجه رجل عضَّ مصباحاً كهربائيّاً. ويقول بصوتٍ مرتفع «عظيم! عظيم!». وحينئذٍ فقط يسترخي بما يكفي استعداداً لتناول وجبة كاملة من دون أنْ يُصاب بعسر الهضم.

وذُهِلتُ، ليس بسبب الانحدار السريع في وضع والدي المِهنيّ – وليس بسبب الشاحنة المركونة في الزقاق والحذاء الضخم ذي النعل السميك في قدم رجلٍ كان في السابق يتوجّه إلى العمل مرتدياً بذلة رسميّة ويضع ربطة عنق وينتعل حذاءً أسود لامعاً، وليس بسبب صعوبة ابتلاعِهِ البطيء لمشروبه وتناول عشائه وحده في الساعة العاشرة صباحاً فقط – بل بسبب أخي أيضاً، بسبب تحوّله غير المتوقَّع.

لم يعُد ساندي يغضَب. لم يعُد مُزدرياً. لم يعد يتصرَّف بتعالٍ بأيّة طريقة. وكأنّه هو أيضاً تلقّى لكمةً في رأسه، لكنّها بدل أنْ تُسبِّب فقدان ذاكرة بعثَت الحياة في الفتى الهادئ والخجول الذي لم ينشأ رضاه من كونه شخصيّة بارزة نضجتْ قبل الأوان مملوءة بالآراء المُضادة، بل من

ذلك التيّار القويّ، المُنتظَم لحياةٍ داخليّة كان يحمله بثبات من الصباح وحتى الليل ولطالما جعله، في رأيي، متفوّقاً بأصالة على أقرانه من الصِبية. أو ربما أنَّ الشغف بالنجوميّة - بالإضافة إلى القُدرة على الصراع - قد استُهلكا؛ ربما لم يتَّصِف أبداً بالأنانيّة اللازمة، وتحرَّر سرّاً من اضطراره إلى أنْ يكون نجماً ساطعاً. أو ربما هو فقط لم يؤمن بما كان من المُفتَرَض أنْ يُذيعه. أو ربما، بينما كنتُ غائباً عن الوعي في المستشفى مع احتمال تهديد حياتي بإصابتي بورم دمويّ، أعطاه والدي التقريع الناجع. أو ربما، في إثر الأزمة التي تَسبّبتُ بها، كان فقط يُخفي الذات المتألّقة *خلف* ساندي القديم، مُتنكِّراً، يقوم بحساباته، وينتظر ببراعة في الخفاء ريثما... ريثما يقع أمرٌ ما لنا. على أيّة حال، حالياً أعادتْ صدمة الظروف أخي إلى حظيرة العائلة.

وأمي لم تعُد امرأة عاملة. لم تحصل على مبلغ يقترب مما كانت تأمل في جمعه في حساب مصرف مونريال للتوفير، لكنّه كان كافياً ليُغطي تكاليف عبورنا الحدود والبدء من جديد في كندا إذا ما اضطررنا إلى الهرب فور إعلامنا. كانت قد تركتْ عملها في شركة هاهن بالسرعة نفسها التي هجر بها والدي أمان انضمامه على مدى عشرين عاماً إلى شركة ميتروبوليتان من أجل إحباط خُطط الحكومة لنقلنا إلى كينتكي وحمايتنا من ذريعة المُعاداة للساميّة التي كان هو، مع وينتشل، يعتبران أنَّ شركة هومستيد 42 تمثّلها. وعادت لتدير المنزل بدوام كامل وتكون حاضرة عندما نعود إليه لتناول وجبة الغداء أو لدى عودتنا من المدرسة، وخلال عطلة الصيف، تكون حاضرة لكي تراقبنا أنا وساندي خشية أنْ نخرج عن السيطرة نظراً لغياب الإشراف.

أبٌ تجدَّد، وأخ استُعيد، وأم برؤتْ، وثماني عشرة قطبة بخيط من الحرير الأسود في رأسي وكنزي الأعظم ضاع إلى الأبد، وذلك كلّه تمَّ بسرعةِ قصةٍ خرافيّةٍ عجائبيّة. عائلة اختُزِلَت اجتماعيّاً وانتُزِعَتْ من جذورها بين ليلة وضحاها، لا هي منفيّة ولا مطرودة بل ما تزال منقوعة

في جادّة صنسيتْ، في حين أنَّ سيلدون في خلال ثلاثة أشهر قصيرة - والذي كنتُ حينئذٍ موثقاً إليه رُغماً عني بحيث أنّه أخذ يتجول في الحيّ ويستمتع بسرد قصة منعي من النزف حتى الموت وأنا مُتخفٍ بملابسه - كان في طريقه إلى الخارج. بما أنَّ سيلدون كان سينتقل، بحلول الأول من شهر أيلول (سبتمبر) ليعيش مع أمّه، ويكون الصبي اليهوديّ الوحيد في دانفيل، كينتكي.

كان يمكن «لسيري أثناء النوم» أنْ يُسبِّب من الفضيحة المهينة أكثر مما فعلَ في مُحيطنا المباشَر لو لم تطرد شركة إعلان غسول يرغن وينتشل بُعيد بدء برنامجه الإذاعيّ بساعات قليلة في ليلة يوم الأحد الذي هربت فيه من المنزل. كان نبأً صاعقاً حقاً لم يُصدِّقه أحد ولم تكن في نيّة وينتشل أنْ يدع البلد ينساه. وبعد مرور عشر سنين على تبوّئه قمّة المراسلين الإذاعيين في أميركا، استُبدِلَ عند الساعة التاسعة مساءً في يوم الأحد التالي بفرقة موسيقى راقصة أخرى تبثّ من ناد عائليّ راقٍ آخر من على مسطبة فندق مانهاتن في وسط المدينة. وكان اتّهام شركة يرغن الأول له هو أنَّ مُذيعاً يبلغ تعداد جمهوره على امتداد الأمّة أكثر من خمسة وعشرين مليوناً قام في الحقيقة «بإثارة الشغب بين الجماهير»؛ والاتّهام الثاني هو افتراؤه على رئيس الولايات المتحدة بادّعاءات خبيثة «لا يعمد إلى توجيهها إلّا أسوا محرِّض شائن من أجل تهييج غضب الرعاع».

حتى صحيفة مُعتدلة مثل *النيويورك تايمز*، الصحيفة التي أسّسها ويمتلكها يهود - وتحظى باحترام والدي الشديد لهذا السبب - ولا تبخل بتوجيه النقد لسياسة ليندبرغ تجاه ألمانيا تحت سيطرة هتلر، أعلنَتْ دعمها التامّ للخطوة التي اتّخذتها شركة يرغنز لوشن في مقالة افتتاحيّة عنوانها «خزيٌ مهنيّ». وورد في *التايمز*:

«منذ بعض الوقت تجري منافسة بين المُعادين لليندبرغ من أجل

تحديد مَنْ يستطيع أنْ يُعطي أشد سرد شائن ممكن لدوافع إدارة ليندبرغ. وفي خطوة جبّارة، قفز والتر وينتشل إلى رأس تلك القائمة. ويسقط التخم المهتز وذائقة السيد وينتشل المشكوك فيها إلى مستوى هيجان من النقد اللاذع لا يُغتَفَر بقدر ما هو لا أخلاقيّ. ومع اتّهامات بعيدة الاحتمال حتى ديمقراطيٌّ طوال حياته يمكن أنْ يشعر بتعاطُفٍ غير متوقَّع مع الرئيس. لقد جلب وينتشل الخزيَ على نفسه إلى الأبد. وسوف تُمدح شركة يرغن لوشن على السرعة التي أبعدته بها عن البثّ الإذاعي. إنَّ الصحافة كما مارسها والتر وينتشل في هذا البلد هي إهانة لمواطنينا المُستنيرين كما للمعايير الصحفيّة من دقة، وأمانة، وإحساس بالمسؤوليّة، التي طالما أبدى السيد وينتشل، وجماعته الساخرة في الصحافة الرخيصة، وناشروها الشرهون إلى المال، أقصى احتقارٍ لها».

في الهجوم التالي الذي شُنَّ لمصلحة إدارة ليندبرغ ونُشِرَ في صحيفة التايمز بوصفه أول وأطول الرسائل التي كتبها مُحرّرها، المراسل الشهير، بعد التلميح بامتنان إلى رئيس التحرير ودعم حجّته بمزيد من الأمثلة عن إساءة وينتشل المتباهية إلى التعديل الأول[42]، خلُصَ إلى «أنَّ محاولته تهييج أقرانه اليهود وإخافتهم لا يقلُّ بشاعة عن تجاهُل معايير الكياسة التي تُدينها صحيفتكم بقوة. ولا شك في أنّ لا شيء أشدّ فظاعة من التغذية على المخاوف التاريخيّة لشعبٍ مُضطَهَد، خاصّة عندما تكون المُساهمة الكلّية في مجتمع منفتح ومتحرِّر من الاضطهاد هي بالضبط ما تعمل الإدارة الحاليّة على إنجازه لهذه الجماعة نفسها عبر جهود مكتب الاستيعاب الأميركيّ. وتمييز والتر وينتشل لوصف هومستيد 42، وهو برنامج أُعدَّ لتوسيع وإثراء انخراط مواطني أميركا من اليهود الأُباة في

42- التعديل الأول في الدستور الأميركي: الذي يمنع الحكومة من وضع قوانين تحترم المؤسّسة الدينيّة والممارسة الحرَّة للشعائر الدينيّة وضبط حريّة التعبير وحرية الصحافة وحرّية التجمُّع... - المترجم

الحياة الوطنيّة، بأنّه استراتيجيّة فاشيّة لِعزل اليهود وإقصائهم عن الحياة الوطنيّة، هو ذروة التهوُّر الصحفيّ وتصوير لتقنيّة الكذبة الكبرى التي تشكّل اليوم أكبر تهديد للحريّة الديمقراطيّة في كل مكان».

الرسالة موقَّعة باسم «الحاخام ليونيل بنغلسدورف، مدير مكتب الاستيعاب الأميركيّ، شعبة وزارة الداخلية، واشنطن دي سي».

جاء ردّ وينتشل في عمود صحفيّ كتبه لمصلحة صحيفة دايلي ميرور، الصحيفة النيويوركيّة التي يمتلكها أثرى أثرياء ناشري أميركا، وليم راندولف هيرست، صاحب سلسلة من حوالي ثلاثين صحيفة يمينيّة وحفنة من المجلات الشعبيّة بالإضافة إلى شركة كينغ فيتشرز[43]، حيث اشترى إنتاجه المزيدُ من الملايين وقرأوه. كان هيرست يكره تحالفات وينتشل السياسيّة، خاصة تمجيده لفرانكلين ديلانو روزفلت، وكان يمكن أنْ يطرده قبل ذلك بسنين لولا أنَّ أهالي نيويورك الذين تنافسُ صحيفةُ ميرور بقروشهم التي يدفعونها صحيفةَ دايلي نيوز وجدوا أنَّ السحر القذر لتلفيق كاتب المقال الفريد من نوعه لمُشاكسة التشهير والنزعة الوطنيّة المُتخمة لا يُقاوَم. ووفقاً لوينتشل، فإنَّ طرد هيرست له في نهاية المطاف لا صِلة له بالعداء الطويل الأمد بين كاتب العمود الصحفيّ وناشره بل بالضغط الذي مارسه البيت الأبيض بحيث حتى صاحب نفوذ ماليّ قاسي القلب وقويّ كهيرست لا يجرؤ على مقاومته خشية العواقب.

«إنَّ فاشيّي ليندبرغ» - هكذا بدأ عمود وينتشل الصحفيّ العنيد، والوقح بصورة مُميَّزة الذي نُشِرَ بعد أنْ خسِرَ عقد عمله في الإذاعة - «قد باشروا علناً هجومهم النازيّ على حريّة التعبير. واليوم أصبح وينتشل هو العدوّ الذي ينبغي إسكاته... وينتشل «المُحرِّض على الحرب»، و«الكذّاب»، «الذي ينشر الرعب»، «الشيوعيّ»، «اليهوديّ». اليوم هو المخلص المتفاني، وغداً هو كل مُذيع للأخبار ومُراسِل صحفي يجرؤ

43- شركة ضخمة لتوزيع كل المجلات والكتب وأفلام الصور المتحركة والهزليّة. - المترجم

على قول الحقيقة حول المؤامرة الفاشيّة لتدمير الديمقراطيّة الأميركيّة. والآريون الأشراف على غرار الحاخام المُتطرِّف والكذّاب ليونيل ب. ومُلّاك صحيفة *نيويورك تايمز* الجبناء والمتكبّرون قاطنو جادة بارك ليسوا أوائل الخونة اليهود فائقي التحضُّر الذين ينبطحون أمام سيد مُعادٍ للساميّة لمجرّد أنهم أرقى أكثر بكثير من أنْ يُقاتلوا كما يفعل وينتشل... ولن يكونوا الأخيرين. وحمقى شركة يرغن ليسوا أوائل المتعاونين الجبناء الذين يلعبون الكرة مع آلة الكذب الدكتاتوريّة التي تعمل الآن على تدمير هذا البلد... ولن يكونوا أيضاً الأخيرين».

وذلك العمود الصحفيّ - الذي تابع بسرد لائحة بأسماء حوالي خمسة عشر آخرين من أعدائه الشخصيين الذين تأهّلوا ليُصبحوا كبار المتعاونين الفاشيين في أميركا - سوف يكون، في الحقيقة، عموده *الأخير*.

بعد ذلك بثلاثة أيام، وبعد زيارته لهايد بارك لكي يتيقّن من أنَّ فرانكلين ديلانو روزفلت لا يزال مُصمّماً على ألّا يخرج من عزلته السياسيّة لكي يخوض معركة الرئاسة للمرة الثالثة، أعلنَ وينتشل ترشّحه لرئاسة الولايات المتحدة وخوض معركة الانتخابات التالية. وحتى ذلك الحين، كان الذين يُعتبَرون في قلب تلك المعركة هم وزير خارجيّة روزفلت، كورديل هَلْ؛ ووزير الزراعة السابق ونائب المُرشَّح الرئاسيّ لانتخابات عام 1940، هنري والاس؛ والمدير العام للبريد في عهد روزفلت ورئيس مجلس إدارة الحزب الديمقراطي، جيمس فارلي؛ وقاضي المحكمة العليا وليم أو. دوغلاس؛ واثنان من الديمقراطيين العاديين، وليس أي منهما من أنصار البرنامج الجديد[44]، وحاكم سابق لولاية إنديانا بول ف. ماكْنَتْ والسيناتور سكوت و. لوكاس عن ولاية إلينويز. وكان هناك أيضاً تقرير غير مؤكّد (وزّعه وينتشل وربما أصدره عندما كان لا يزال دخله في العام

44- البرنامج الجديد: برنامج تشريعي وإداريّ وضعه الرئيس فرانكلين روزفلت من أجل إنعاش الاقتصاد والإصلاح الاجتماعيّ في أربعينيات القرن الماضي. - المترجم

800 ألف دولار من توزيع تقارير غير مُؤكّدة) مفاده أنّه إذا ما انتهى الأمر بالاجتماع إلى طريق مسدودة، كما يمكن أنْ يحدث مع قائمة مُرشّحين غير هامة، فسوف تظهر إلينور روزفلت، التي كان لها حضور سياسيّ ودبلوماسيّ قويّ خلال فترتيّ رئاسة زوجها - وما زالت شخصيّة محبوبة أكسبها مزيج الصراحة والتحفّظ الأرستقراطيّ الذي تتصِفُ به عدداً هائلاً من الأتباع بين صفوف المُرشّحين الليبراليين في الحزب بالإضافة إلى عددٍ غفير من الأعداء الساخرين في الصحافة اليمينيّة - سوف تظهر في موقع الاجتماع كما كان ليندبرغ قد ظهر في المؤتمر الجمهوريّ عام 1940 واكتسح الترشيح بعاصفة من التصفيق. ولكن حالما أصبح وينتشل أول مُرشَّح ديمقراطيّ يدخل السباق، ويفعل ذلك قبل حوالي ثلاثين شهراً قبل انتخابات عام 1944، وقبل حتى انتخابات مجلس الشيوخ نصف الفصليّة - ويفعل ذلك مباشرة بعد الشجار الصاخب الذي نتج عن «تطهيره» من مهنته بفعل «خُطط الفتنة القويّة للعصابة الفاشيّة التي تسكن البيت الأبيض» (كما وصفَ وينتشل أعداءه وأساليبهم بإعلانه ترشّحه) - أصبحَ هذا الرجل الذي كان ذات يوم صاحب عمود الشائعات الصحفيّ مُعرَّضاً للضرب، الديمقراطيّ الوحيد الذي يعرفه الجميع والمتهور إلى درجة الهجوم بشراسة على صاحب منصب رفيع ومحبوب كليندي.

لم يتنازل الزعماء الجمهوريون بأخذ كلام وينتشل على محمل الجدّ، مُفترضين إمّا أنَّ المُذيع الذي لا يكبحه شيء كان يُمجد ذاته ويبتزّ المال من حفنة من الديمقراطيين العنيدين الأثرياء أو أنّه المُرشَّح الدريئة المُزخرف لمصلحة فرانكلين ديلانو روزفلت (أو ربما لمصلحة زوجته الطموح)، وفي وقتٍ واحد يُهيِّج ويحسب بدقّة أيّة عاطفة مُضادة سرّية لليندبرغ في أمّةٍ تبيِّنُ فيها صناديق الاقتراع أنَّ ليندبرغ ما زال مدعوماً بنسبة قياسيّة تتراوح بين ثمانين إلى تسعين بالمئة من كل صنف أو فئة من المُصوّتين، ما عدا اليهود. باختصار، كان وينتشل هو مرشَّح اليهود، وهو نفسه كان يهوديّاً من أصلب نوع، ولا يُشبه في شيء فئةَ

الدائرة الضيقة من اليهود الديمقراطيين المحترمين، ذوي الأصل الكريم أمثال صديق روزفلت الثريّ برنارد باروخ أو المصرفيّ وحاكم نيويورك هربرت ليمان أو قاضي المحكمة العُليا المتقاعِد حديثاً لويس برانديس. وكأنَّ كونه يهوديّاً بلا خلفيّة يُجسّد كل سِمة سوقيّة جعلَتِ اليهود منبوذين من أفضل الطبقات الاجتماعيّة وعالم الأعمال الأميركي ليس كافياً ليجلب عليه وقاحة لا معنى لها على الساحة السياسيّة في كل مكان ما عدا منطقة مدينة نيويورك المكتظة باليهود، وكانت سُمعته كزير نساء فاسق مع ولع بإغواء فتيات الاستعراض ذوات السيقان الطويلة وحياته الليليّة المتهتّكة بين المشاهير بحياتهم المنفلتة في هوليوود وبرودواي الذين يجرعون الخمر في كل الأوقات في نادي نيويورك ستورك كافية لجعله بغيضاً بالنسبة إلى الغالبيّة المُتزمّتة. لقد كان ترشّحه نكتة وتعامل الجمهوريون معه على أنّه كذلك ولا أكثر.

ولكن في ذلك الأسبوع في شارعنا، بُعيد طرد وينتشل من عمله وبعثه الفوريّ كمُرشَّح رئاسيّ، كان مغزى الحَدَثين هو كل ما تحدّث عنه الجيران تقريباً فيما بينهم. فبعد حوالي العامَين من عدم معرفتهم هل ينبغي أنْ يُصدِّقوا الأسوأ، ومحاولة التركيز على متطلبات حياتهم اليوميّة ومن ثم تقبّلهم بعجز كل إشاعة حول ما تُخبِّئه لهم الحكومة، وعجزهم عن تبرير رغبهم أو هدوء أعصابهم بالحقيقة الصلبة - بعد الكثير من الارتباك، نضجوا كثيراً على تصديق الوهم بحيث إنّه عندما اجتمع أبواي على كرسيهما لكي يتناقشا في الزقاق ليلاً، كان يمكن للعبة التخمين التي يبدآن بها دائماً أنْ تستمر بلا انقطاع على امتداد ساعات طوال: مَنْ سيُصبح نائب الرئيس على لائحة وينتشل الانتخابيّة؟ ومَنْ سيُعيَّن في وزارته؟ ومَنْ سيُعيِّن قاضياً للمحكمة العليا؟ ومَنْ سيتّضح أنّه القائد الأعظم، فرانكلين ديلانو روزفلت أم والتر وينتشل؟ وغاصا تماماً في ألف وهم ووهم، وحتى الأطفال الصِغار جداً وصلهم قبسٌ من تلك الروح وأخذوا يطفرون ويرقصون حول المكان، وهم ينشدون «حاجب

ريح للرئيس... حاجب ريح للرئيس». طبعاً، كان يمكن لطفل في مثل عمري أنْ يتقبّل حقيقة أنّه لا يمكن ليهوديّ أنْ يترشّح لمنصب الرئاسة - ناهيك عن يهوديّ ثرثار كوينتشل - وكأنَّ الحرمان الكنسيّ أُقرّ بكثير من الكلمات في الدستور الأميركيّ. ولكن حتى هذا اليقين الصارم لم يتمكّن من منع البالغين من التخلّي عن الحسّ السليم ومن تخيُّل أنفسهم وأولادهم، لليلة أو اثنتين، من سكان الجنّة الأصليِّين.

أُقيم حفل زفاف الحاخام بنغلسدورف والخالة إيفلين في يوم أحد من أواسط شهر حزيران (يونيو). لم يُدعَ إليه والدايّ، ولا توقّعا ذلك أو رغبا في حدوثه، ومع ذلك لم يكن هناك ما يمكن فعله للتخفيف من أسى أمي. وقد تناهى إلى سمعي بكاؤها من خلف باب غرفة نومها، وعلى الرغم من أنّها لم تكن ظاهرة معتادة ولا كنتُ أحبّها، فإنني طوال الأشهر التي كافح فيها والداي لتقدير حجم التهديد الذي شكّلته إدارة ليندبرغ وتقرير الردّ المعقول الذي على عائلة يهوديّة أنْ تُدلي به، فإنني لم أعرفها عصيّة على العزاء. سألتْ والدي «لِمَ ينبغي لهذا أيضاً أنْ يحدث؟» فأجابها «إنّه مجرد زواج. إنها ليست نهاية العالم»، قالتْ «لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في والدي»، قال «إنَّ والدك مات، ووالدي مات. لم يكونا صغيرين، وقد مرِضا وماتا». كان صعباً تخيُّل نبرة صوت أشدّ تعاطفاً من نبرة صوته، لكنَّ بؤسها كان من الشِدّة بحيث إنّه كلما ازدادت نعومة صوته، ازدادتْ مُعاناتها». قالت «وأفكّر في أمي، وكيف أنها لم تعُد تفهم أي شيء»، «حبيبتي، أنتِ تعلمين أنَّه يمكن لكل شيء أنْ يسوء كثيراً»، قالت «وهذا ما سيحصل»، «ربما لن يحصل، ربما لن يحصل. ربما كل شيء يبدأ بالتغيُّر. إنَّ وينتشل -»، «أوه، أرجوك، إنَّ وينتشل لن -»، «قال لها «هسس، هسس، سوف يسمعك الصغير».

وهكذا فهمتُ أنَّ والتر وينتشل لم يكن، في الحقيقة، مُرشَّح اليهود - بل كان مُرشَّح أطفال اليهود، وهو شيء أعطونا إياه لنتشبّثَ به، كما كانوا

قد أعطونا قبل سنوات قليلة الثدي ليس فقط لنتغذّى بل للتخفيف من مخاوف عهد الفتوة.

أُقيمتْ مراسم الزفاف في كنيس الحاخام والاستقبال بعد ذلك كان في قاعة الرقص في إسيكس هاوس، أفخم فنادق نيوارك. والشخصيات البارزة التي حضرت، وكل منهم بمُصاحبة زوجته أو زوجها، كانت مُدرَجة للجلوس في مقصورة منفصلة عن مكان الزفاف نفسه ومباشرة بجوار صور فوتوغرافيّة للعروس والعريس ظهرتْ في صحيفة *نيوارك صنداي كول*. كانت اللائحة طويلة ومُبهِرة بصورة مُفاجئة، وأنا أورِدها هنا لكي أشرح لماذا اضطررتُ، أولاً، أنْ أتساءل إنْ كان والداي وأصدقاؤهما في شركة ميتروبوليتان أبعد ما يمكن عن الواقع بحيث يتخيّلون أنَّ أي أذى يمكن أنْ يقع لهم يعود إلى أنَّ البرنامج الحكومي يُديره شخص الحاخام بنغلسدورف المُشعّ.

بدايةً، كان حفل الزفاف يغصُّ باليهود، من بينهم أقرباء وأصدقاء ورعايا كنيس الحاخام بنغلسدورف، ومُعجبون وزملاء من أنحاء نيو جيرزي، وآخرون جاؤوا من أنحاء البلد كلّه ليحضروا المناسبة. وكان هناك أيضاً العديد من المسيحيّين. ووفقاً لِما ورد في مقالة صحيفة *صنداي كول* - التي احتلّتْ صفحة ونصفاً من الصفحتين المُخصّصتين لأخبار المجتمع في ذلك اليوم - من بين الضيوف العديدين الذين دُعوا ولم يتمكنوا من الحضور لكنّهم بعثوا بأفضل تمنياتهم عبر خدمة ويسترن يونيون، زوجة الرئيس، السيدة الأولى، آنْ مورو ليندبرغ، التي تُعتبَر صديقة مُقرَّبة لعائلة الحاخام، «بوصفها من سكان نيو جيرزي وشاعرة زميلة» تجمع بينهما «اهتمامات ثقافيّة وفكريّة» وكانا يتقابلان باستمرار «ويشربان الشاي بعد الظهيرة ويدور بينهما نقاش حميم في البيت الأبيض في الفلسفة، والأدب، والدِين، وعِلم الأخلاق».

كان يمثّل المدينة اثنان من اليهود ذوي المقام الرفيع في حكومة

نيوارك، العمدة لفترتين، ماير إلينشتاين، ومُخلِّص المعاملات، هاري س. رايخنشتاين، وخمسة من العديد من الأيرلنديين الذين يُعتبَرون من أبرز شخصيات المدينة، مدير الأمن العام، ومدير إدارة الدخل والتمويل، ومدير المتنزهات والأملاك العامة، ورئيس مُهندسي المدينة، ومستشار المجلس البلدي. وكان هناك مدير المكتب الفيدرالي في نيوارك، والرئيس المسؤول عن المكتبة العامة في نيوارك بالإضافة إلى رئيس هيئة القيِّمين على المكتبة. ومن بين المُربين البارزين الذين حضروا حفل الزفاف كان هناك رئيس جامعة نيوارك، ورئيس كليّة هندسة نيوارك، ومُراقِب المدارس، ومدير إعداديّة القديس بينيديكت. وكان حشدٌ من رجال الدين البارزين - البروتستانت، والكاثوليك، واليهود - أيضاً من بين الحاضرين. ومن كنيسة فيرست بابتيست ميموريال تشيرش، أكبر كنيسة في المدينة للرعايا السود، كان هناك المحترم جورج إ. دوكينز؛ ومن كاتدرائيّة الثالوث، كان المحترم آرثر دمبر؛ ومن الكنيسة الأسقفيّة، المحترم تشارلز ل. غومبف؛ ومن كنيسة القديس نيقولاس الأرثوذكسية اليونانيّة الكائنة في هاي ستريت، المحترم جورج إ. سبيريداكيس؛ ومن كاتدرائيّة القديس باتريك، المحترم جداً جون ديليني.

الغائب - وهذا أثلج صدر والديّ، على الرغم من عدم ذِكر اسمه في المقال الصحفيّ - كان خصم الحاخام بنغلسدورف وكبير حاخامات نيوارك، يواكيم بريتز من أبرشيّة بناي أبراهام. فقبل ارتقاء الحاخام بنغلسدورف إلى الشهرة الوطنيّة، كانت سلطة الحاخام بريتز بين صفوف يهود المدينة، في الجالية اليهوديّة الأوسع، وبين الفقهاء واللاهوتيين في كل دين قد تجاوزت بكثير سلطة زميله الأكبر سناً، وهو وحده من بين الحاخامات المُحافظين الذي يتزعّم أشد أبرشيات المدينة الثلاث ثراءً والذي لم يهتز في معارضته ليندبرغ. لكنَّ الاثنين الآخرين، تشارلز أ. هوفمان من أوهيب شالوم وسولومون فوستر من بناي جيشوروم، فكانا حاضرَين، وترأسَ الحاخام فوستر مراسم الزفاف.

من الحاضرين أيضاً كان رؤساء أكبر أربع مصارف في نيوارك، ورئيسا اثنين من أكبر شركات الضمان فيها، ورئيس أكبر شركة للهندسة المعماريّة، والشريكان المؤسّسان لمكتب المُحاماة الأهمّ، ورئيس نادي نيوارك الرياضيّ، ومالك ثلاثة من أكبر دور العرض السينمائيّ في قلب المدينة، ورئيس غرفة التجارة، ورئيس شركة بيل تليفون في نيوجيرزي، والمُحررون المسؤولون عن اثنتين من الصحف اليوميّة، ورئيس بي. بالاتاين، أشهر مصنع للبيرة في نيوارك. ومن حكومة مقاطعة إسيكس كان هناك المُشرِف على هيئة المُلاك الأحرار وثلاثة من أعضاء تلك الهيئة، ومن السلطة القضائيّة في نيو جيرزي كان هناك نائب مُستشار المحكمة العليا وقاض مُرافِق من محكمة الولاية العليا. ومن جمعية الولاية التشريعيّة كان هناك المتحدث بلسان الأغلبيّة وثلاثة من أعضاء الجمعية من مقاطعة إسيكس، ومن مجلس شيوخ الولاية ممثل عن مقاطعة إسيكس. وموظف الدولة الرسميّ الرفيع كان يهوديّاً، هو النائب العام ديفيد ت. ويلينتز، الذي قاد بنجاح عمليّة إعدام برونو هاوبتمان[45]، لكنَّ موظف الدولة الذي أثار إعجابي بحضوره فكان آبيه ج. غرين، وهو يهوديّ آخر ولكنَّ الأهمّ من ذلك أنّه كان وكيل ملاكمة في نيوجيرزي. وكان هناك واحد من عضويّ مجلس الشيوخ الأميركيّ عن ولاية نيوجيرزي، الجمهوريّ و. وارين باربور، وأيضاً عضو مجلس شيوخنا روبرت و. كين. ومن المحكمة الفرعية للولايات المتحدة لمنطقة نيو جيرزي كان هناك قاض جوّال، وقاضيان من المناطق، والمُحامي المناطقيّ (أُميِّز اسمه من قائمة أسماء مسلسل *غانغ-بستر*) جون ج. كوين.

وكان عدد من الرفاق المُقرَّبين للحاخام في الإدارة الوطنيّة لمكتب الاستيعاب الأميركيّ وعدد من الموظفين الرسميين الذين يمثّلون فرع وزارة الداخليّة قد جاؤوا من واشنطن، وعلى الرغم من عدم وجود أحد

45- برونو هاوبتمان (1899-1936): النجّار الألمانيّ الذي قتل ابن ليندبرغ البالغ عشرين شهراً من العمر، وأُطلِقَ على تلك الجريمة لقب «جريمة القرن». - المترجم

في العرس من ذوي أعلى المراتب في الحكومة الفيدراليّة، فإنّه كان هناك مفوّضون فُصحاء يمثّلون لا أقلّ من شخص رئيس الجمهوريّة نفسه: والبرقيّة التي وردت من السيدة الأولى وقرأها الحاخام فوستر على الملأ في الاستقبال، وبعد تلك القراءة نهضَ ضيوف العرس عفويّاً لكي يُصفّقوا لمشاعر السيدة الأولى ومن ثم طلَبَ العريس منهم أنْ يبقوا واقفين والانضمام إليه وإلى عروسه في غناء النشيد الوطني.

نشرتْ صحيفة *صنداي كول* كامل نصّ البرقيّة الطويل. وجاء كما يلي:

عزيزيّ الحاخام بنغلسدورف وإيفلين:

إننا زوجي وأنا نبعثُ إليكما بطيب تمنياتنا القلبيّة، ونتمنى معاً لكما كل السعادة والهناء.

كم ابتهجنا للقاء إيفلين في العشاء الرسمي الذي أُقيم في البيت الأبيض على شرف وزير الخارجيّة الألمانيّ. إنها شابة فاتنة، حيويّة، وهي بكل وضوح شخصيّة فاضلة ومستقيمة، ولم يستغرق مني أكثر من اللحظات التي تبادلتُ معها الحديث لأميِّز تمتّعها بمواهب الشخصيّة البارزة والذكاء أكسبتها إخلاص رجلٍ استثنائيّ كليونيل بنغلسدورف.

إنني أتذكّر الآن الأبيات الشِعريّة التي صيغَتْ ببراعة التي أوحى بها لقائي بإيفلين في تلك الأمسية. والشاعرة هي إليزابيث باريت براونينغ، والكلمات التي تبدأ بها السوناتة الرابعة عشرة من مقطوعتها «*سوناتات عن البرتغاليّة*» تُجسّد بالضبط تلك الحكمة النسائيّة كما رأيتها تشعّ من عينيّ إيفلين السوداوين والجميلتين بصورة مُدهشة. تقول السيدة براونينغ «إنْ كان لابد لك من أنْ تحبّني، فليكن ذلك من غير مقابل / إلا إكراماً للحب وحده...».

وأنت أيّها الحاخام بنغلسدورف، لقد كنتَ أكثر من صديق منذ أنْ تقابلنا هنا في البيت الأبيض بعد انتهاء مراسم تأسيس مكتب الاستيعاب

الأميركي؛ ومنذ انتقالك إلى واشنطن لتُصبح مدير مكتب الاستيعاب الأميركيّ، وأنتَ الناصِح الثمين. وأحاديثنا الرائعة، بالإضافة إلى الكتب المُنيرة التي أكرمتني بها لكي أقرأها، علّمتني الكثير، ليس عن الإيمان اليهوديّ فقط، بل عن محن الشعب اليهودي أيضاً ومصادر القوة الروحيّة العظمى التي كانت المنبع الرئيس لنجاته على مدى ثلاثة آلاف عام. إنني الأكثر ثراءً لأنني اكتشفتُ من خلالك مدى عمق جذور إرثي الدينيّ في إرثك.

إنَّ مهمّتنا العُظمى كأميركيين هي أنْ نعيش في تواؤم وأُخوَّة كشعبٍ واحد. وأنا أعلم من العمل الممتاز الذي تُنجِزانه معاً لمكتب الاستيعاب الأميركيّ مدى تفانيكما في مساعدتنا لبلوغ هذا الهدف النفيس. ومن بين البركات العديدة التي يُغدِق بها الله على هذه الأمّة، ليس هناك ما هو أعلى قيمة من أنْ نضم بين صفوفنا مواطنين مثلكما، أبطالاً حيويّين، أُباة من سلالة لا تُقهَر آزرتْ مفاهيمها العريقة عن العدالة والحريّة ديمقراطيتنا الأميركيّة منذ عام 1776.

مع أفضل تمنياتي،
آنْ مورو ليندبرغ

في المرة التالية التي دخلَتْ فيها الإف بي آي حياتنا، كان والدي هو المُعرَّض للمراقبة. العميل نفسه الذي كان قد استوقفني ليستجوبني عن ألفن، في اليوم الذي شنقَ السيد ويشناو نفسه (وكان قد استجوب ساندي في الحافلة، وأمي في المتجر، ووالدي في المكتب)، ظهر في سوق الإنتاج وأخذ يتسكّع في المطعم حيثُ يتناول الرجال طعامهم ويشربون القهوة في منتصف الليل وطفق يطرح أسئلته، كما كان قد فعل عندما بدأ ألفن يعمل لمصلحة العم مونتي، وهذه المرة حول هرمان عمّ ألفن وعمّا كان يقول للناس عن أميركا وعن رئيسنا. ووصلتْ إلى سمع العم مونتي كلمة عبر أحد أتباع لونغي زويلمان، الذي نقل إلى العم

مونتي أنَّ العميل ماكوركل قد نقلَ إليه - أي، بعد أنْ أوى وأطعمَ خائناً قاتلَ لمصلحة بلدٍ أجنبيّ، استقال والدي الآن من عملٍ لائقٍ في شركة ميتروبوليتان لايف بدل أنْ يُساهِم في برنامجٍ حكوميّ أُعِدَّ لتوحيد وتعزيز الشعب الأميركيّ. وأخبر العمُ مونتي تابعَ لونغي بأنَّ أخاه أبله مسكين بلا أية ثقافة ولديه ولدان وزوجة عليه أنْ يُعيلهم ولا يمكن أنْ يضرّ أميركا بجرّ صناديق الإنتاج بصعوبة طوال ست ليال في الأسبوع. وأصغى تابع لونغي بتعاطُف، وفقاً لِما قاله العم مونتي، الذي أخبرنا 'القصّة كلها في مطبخنا بعد ظهيرة يوم سبت، بلا أيٍّ من الزخرفة التي تُمارَس عادة في منزلنا - «وأخذ الرجل يُردِّد أمامي: على أخيك أنْ يرحل». فقلتُ له «هذا هراء. أخبر لونغي بأنَّ هذا كلّه جزءٌ من كل الهراء الذي يُقال ضد اليهود». والرجل نفسه يهوديّ، اسمه نيغي أبْفلبوم، ولكن ما أقول لا يترك أي أثر. ويعود نيغي إلى لونغي، ويُخبره بأنَّ روث لا يُنفِّذ ما أمره به. فماذا حدث بعد ذلك؟ يظهر الطويل بنفسه، هناك في غرفة مكتبي الصغيرة والقذرة مرتدياً بذلة من الحرير مُفصّلة يدويّاً؟ طويل القامة، كلامه ناعم، ومستعدّ للقتل - كما ترى فإنّه يُقلِّد نجوم السينما. قلتُ له «إنني أتذكّرك منذ أيام المدرسة الابتدائيّة، يا لونغي. ومنذ ذلك الحين وأنا أُدرِك أنك سوف تتنقّل بين الأماكن»، فيقول لونغي لي «أنا أيضاً أتذكّركَ. ومنذ ذلك الحين وأنا أُدرك أنك لن تتزحزح من مكانك»، وأخذنا نضحك، وقلتُ له «إنَّ أخي في حاجة إلى عمل، يا لونغي. ألا أستطيع أنْ أوفّر عملاً لأخي؟»، فسألني «وهل أستطيع أنْ أمنع الإف بي آي من الجوس في المكان؟» فأقول «أنا أعلم بهذا كله. ألم أتخلّص من ابن أخي ألفن بسبب الإف بي آي؟»، وأُضيف، «لكنَّ الأمر مع أخي يختلف، أليس كذلك؟ امنحني أربعاً وعشرين ساعة وسوف أُدبِّر كل شيء. وإذا لم أفعل، إذا لم أستطع، يرحل هرمان». وهكذا انتظرت حتى بعد أنْ أغلقنا في صباح اليوم التالي، وتوجّهتُ إلى حانة سامي إيغل، وإذا بذلك الأبله من الإف بي آي جالس على البار. فأقول له «دعني أدعوك إلى وجبة إفطار»، وأطلب له مشروباً،

وأجلسُ إلى جواره وأقول «ماذا لديك ضد اليهود، يا ماكوركل؟»، فيقول «لا شيء». «إذن لماذا تلاحق أخي هكذا؟ ماذا اقترفَ في حق أي إنسان؟»، يقول ماكوركل، «اسمع، لو كان لديّ شيءٌ ضد اليهود، هل كنتُ جلستُ هنا في حانة إيغل، هل كان سامي أصبحَ صديقي لو فعلتُ؟». وطلب من إيغل أنْ يقترب. يقول ماكوركل «أخبره، هل أحمل أيّة ضغينة ضد اليهود؟»، فيقول إيغل «ليس حسب عِلمي». «عندما وصل ابنك إلى سن البلوغ، ألم آتِ وأعطه دبوس ربطة عنق؟»، ويُخبرني إيغل «وهو ما زال يضعه»، يقول ماكوركل «أترى؟ إنني فقط أؤدّي عملي، كما يؤدي سامي عمله وتؤدي أنتَ عملك»، فأقول له «وهذا ما يفعله أخي». «حسن. جيد. إذن لا تقُل إنني ضد اليهود»، أقول «لقد أخطأتُ. أعتذر». في تلك الأثناء أُسلّمه المُغلّف، المُغلَّف البُنّيّ الصغير، وينتهي الأمر».

هنا التفتَ عمّي إليّ وقال «أنا أفهم أنكَ لصّ خيول. وأفهم أنكَ سرقتَ حصاناً من الكنيسة. أنت ولد ذكي. دعني أرى»، ملتُ نحوه وأريته المكان الذي أحدثَ فيه حافر الحصان جرحاً كبيراً في رأسي. فضحك عندما مرَّر إصبعه بنعومة على طول الندب وحول البقعة الحليقة حيث كان الشَعر قد بدأ ينمو. قال لي «ليتك تنال المزيد منها» - ثم، رفعني بخشونة، كما كان يفعل دائماً حسبما أذكر، ليُجلسني على إحدى رُكبتيه كأنني أمتطي حِصاناً. سألني «هل سبقَ لكَ أنْ حضرتَ عملية خِتان؟» وبدأ يهزّني إلى أعلى وإلى أسفل كما يفعل الراكب وذلك برفع فخذه وخفضه. «أتعلم عندما يختنون الطفل في تلك المناسبة، أتعلم ماذا يفعلون؟»، قلتً «يقطعون القلفة»، «وماذا يفعلون بالقلفة الصغيرة؟ بعد أنْ يقطعوها - هل تعلم ماذا يفعلون؟»، قلتُ «كلا». قال العم مونتي «حسن، إنّهم يدّخرونها، وعندما يتجمّع لديهم ما يكفي منها يعطونها للإف بي آي ليصنع منها عملاء له». لم أستطع منع نفسي من الضحك، على الرغم من عِلمي أنّه ليس من المُفترَض أنْ أفعل ذلك - وعلى الرغم من أنّه في آخر مرّة أخبرني نكتة، قال «إنهم يُرسلونها إلى أيرلندا ليصنعوا منها قساوسة». سألتُه «ماذا كان

في المُغلَّف؟»، قال «خمِّنْ». «لا أعلم. نقود؟»، «إنَّ مونتي على صواب. أنتَ لص أحصنة صغير ذكي. إنَّ النقود التي تُسبِّب كل المشاكل تتبدَّد».

لم أعلم إلّا لاحقاً من أخي، الذي سمِعَ والديّ يتحدثان في غرفة النوم، أنَّ كامل قيمة الرشوة التي تلقّاها ماكوركل سرف تُعاد للعم مونتي، مُقتَطَعَة من راتب والدي الهزيل أصلاً، بنسبة عشرة دولارات في الأسبوع على امتداد ستة أشهر متتالية. وأنَّ والدي لم يتمكّن من فعل أي شيء بهذا الشأن. أما عن الاجتهاد في العمل، وعن التضحيات المُرافقة لخدمة أخيه، فكل ما قال «إنّه هكذا منذ أنْ كان في العاشرة، وسيبقى كذلك إلى يوم مماته».

إذا استثنينا أوقات صباح أيام السبت والأحد، لم يكن أحد يرى والدي خلال صيف ذلك العام. ومن جهة أخرى، كانت أمي حاضرة طوال الوقت، وبما أنَّه كان على ساندي وأنا أنْ نكون في المنزل عند الظهيرة على مائدة الغداء ومرة أخرى بعد الظهيرة لكي نُثبت حضورنا لها، لم يكن في استطاعة أيّ منا أنْ يبتعد كثيراً عن المنزل، وفي أوقات المساء كان مُحرَّماً علينا أنْ نغادر إلى أي مكان أبعد من فناء ملعب المدرسة القريب من المنزل. فإما أنَّ أمي كانت تمارس على نفسها رقابة شديدة الصرامة أو أنّها كانت تنجح على فترات في عقدِ سلامٍ مع أحزانها كلها، لأنّه على الرغم من أنَّ راتب والدي اقتُطِع منه قسم كبير وتطلَّب الأمر إجراء تشذيب صعب على ميزانيّة المنزل، فإنها لم تُبدِ أيّة دلائل على العجز أمام الأحداث الصعبة التي واجهتها على امتداد العام المنصرم. وكان مردّ مرونتها بقدرٍ كبير إلى عودتها إلى ممارسة عملٍ كانت تعويضاته أهمّ لديها بكثير من تلك التي كانت تحصل عليها من بيع الملابس، عمل لم تتقاعس عن أدائه لكنّه بدا لها بلا معنى مقارنةً بطموحاتها العادية. ولم يتَّضح مدى استمرار ثقلِ وطأة الهموم إلّا عندما وصلتْ رسالة من إستيل تيرشويل، تنقلُ فيها تقدُّم أحوال العائلة في وينيبغ. وكنتُ عند موعد

غداء كل يوم أجلبُ معي البريد إلى الطابق العلويّ من صندوق بريدنا الكائن عند المدخل الأماميّ، وإذا كان هناك مُغلّف يحمل الختم البريدي الكندي، فإنها تجلس في الحال على طاولة المطبخ، بينما ساندي وأنا نأكل شطائرنا، وتقرأ الرسالة لنفسها وتعيد قراءتها مرتين، ثم تطويها لتحملها معها في جيب مئزرها لكي تُعيد قراءتها عشر مرّات أُخَر قبل أنْ تُسلّمها لوالدي لكي يقرأها عند استيقاظه للذهاب إلى السوق - الرسالة لأبي، والطوابع الكنديّة الملغيّة لي، لكي تساعدني في البدء بتكوين مجموعة جديدة.

فجأة أصبح أصدقاء ساندي فتيات في مثل سنّه، فتيات في سن المراهقة تعرَّفَ عليهنّ من المدرسة لكنّه لم يكن قبل ذلك يتفحّصهن بنظرة اشتهاء. كان يعثر عليهنّ في أرض الملعب حيث تجري نشاطات الصيف المُنظَّمة طوال النهار وتستمرّ حتى أوائل المساء. أنا أيضاً كنتُ هناك، وحينئذٍ كان سيلدون يواظب على مرافقتي. كنتُ أراقبُ ساندي بمشاعر متقلِّبة بين الخوف والبهجة، وكأنَّ أخي أصبح نشّالاً أو قنّاصاً مُحترفاً. أراه يتمركز على مقعد بالقرب من طاولة البينغ-بونغ، حيث تتجمَّع الفتيات، ويبدأ بوضع رسوم بالقلم الرصاص على دفتر الرسم لأجمل الفتيات هناك؛ كنَّ دائماً يرغبن في مشاهدة الرسوم، وهكذا قبل انصرام اليوم، وإذا حالفه الحظ السعيد يخرج من الملعب بخُطى حالمة ممسكاً بيد إحداهنّ. لم يعُد ميل ساندي إلى الافتتان خاضعاً لنشر الدعاية لبرنامج «أناس عاديون» أو جمع أوراق التبغ لعائلة ماويني بل لإثارة أولئك الفتيات. فإمّا أنَّ الإثارة الجديدة للشهوة حوّلتْ وجوده بالعذوبة نفسها التي لا تُصدَّق والتي تمتَّعت بها كينتكي وتجدَّدَ، وهو في سن الرابعة عشرة والنصف، بضربة هورمونية واحدة أو، في اعتقادي - بميلي إلى أنْ أخلع عليه صِفة الكائن الكُليّ الوجود - أنَّ دفع الفتيات إلى الخروج معه كان ببساطة خدعة مُسلّية، كيف كان ينتظر إلى أنْ... كنتُ دائماً وأنا مع ساندي أعتقد أنّه لابد أنَّ هناك الكثير يحدث خِلاف ما بدأتُ أفهمه، في

حين أنّه لم تكن لديه فكرة في الحقيقة أكثر من أي شخص آخر، على الرغم من هيئة الفتى الوسيم الواثق من نفسه، عن سبب وقوعه في الفخّ. إنَّ مزارع التبغ اليهودي التابع للينديرغ يكتشف الأثداء، ويتَّضح فجأة أنّه مجرد مراهق عادي.

أحال والداي ولعه بالفتيات إلى روح التحدّي، إلى «روح التمرُّد»، إلى عرض تعويضيّ للاستقلال بعد استقالته الإجبارية من قضيّة ليندبرغ، وبدا أنهما راغبان في اعتبار ذلك شيئاً غير ضارّ. وقد رأتْ والدة إحدى الفتيات خِلاف ذلك بكل وضوح، واتّصلتْ هاتفياً لتقول هذا، ودار حديث مُطوَّل بين أمي وأبي خلف باب غرفة نومهما، ومن ثم حديثٌ آخر بين أخي وأبي خلف باب غرفة النوم، وخلال ما تبقّى من أيام الأسبوع لم يُسمَح لساندي بمغادرة منطقة المنزل وما حولها. لكنّهما لم يتمكّنا، طبعاً، من حبسه في جادة صنسيت طوال فصل الصيف، وسرعان ما سيعود إلى أرض الملعب ويرسم بكل تحدٍّ صوراً للجميلات، وكل ما سمحت أولئك الفتيات له بفعله بيديه عندما يذهبن معه وحدهن - وهذا أمر لم يكن هامّاً بالنسبة إلى تلاميذ الصف الثامن الجهلة بالجنس وفي تلك السن الصغيرة في ذلك الوقت - لم يكنَّ يهرعنَ إلى المنزل لينقلن الأخبار، وهكذا لم تعُد هناك مُكالمات هاتفيّة مُثيرة تأتي لوالديّ لكي يتجادلا حولها في خضمّ كل مشاكلهما الأخرى.

سيلدون. سيلدون كان صيفي *أنا*. أواجه خطمَ سلدوم كأنّه خطم كلب، وأطفالاً عرفتُهم طوال حياتي يضحكون وينعتونني بالنعسان، أطفالاً تبرز أذرعهم المتيبّسة أمامهم ويمشون بخُطى بطيئة، ملتوية، كالموتى الأحياء، ربما يُحاكونني ساخرين وأنا أتمايل في طريقي إلى الميتم في أثناء نومي، وكل الفريق المجتمع في الملعب ينشد «مرحى يا بطل!» كلما ضربتُ الكرة في مباراة بين فريقَين.

لم تكن هناك نزهة كبيرة بمناسبة انتهاء فصل الصيف في محميّة

ساوث ماونتن في عيد العمّال في ذلك العام لأنَّ أصدقاء والديّ في شركة ميتروبوليتان كانوا قد غادروا نيوارك مع أولادهم بحلول شهر أيلول (سبتمبر) لكي يستقرّوا في أرجاء البلاد قبل بدء الفصل الدراسي. وطوال ذلك الصيف كانت العائلات، واحدة إثر أخرى، تقوم يوم السبت بزيارة وداع. كان أمراً مزعجاً بالنسبة إلى أبويّ، اللذين وحدهما من منطقة ميتروبوليتان المحلّية كان مشروع هومستيد 42 قد اختارهما للانتقال وقرَّر أنْ يبقيا حيث هما. كان أولئك هم أصدقاءهما الأعزّ، وفترات بعد ظهيرة أيام السبت الحارة مع أشخاصٍ بالغين تملأ عيونهم الدموع ويتعانقون في الشارع بينما يراقبهم الأولاد مع إحساس بالبؤس - الفترات التي انتهتْ بنا نحن الأربعة الذين سيبقون نلوّح مودّعين من حافة الرصيف وأمي تهتف خلف السيارة المُغادِرة «لا تنسوا أنْ تكتبوا لنا!» - مثّلتْ أشد اللحظات تعذيباً حتى ذلك الحين، عندما أصبحَ عجزنا واقعاً بالنسبة إليّ وأحسستُ ببداية دمار عالمنا. وعندما أدركتُ أنَّ والدي، من بين الرجال جميعاً، هو الأشدّ عِناداً، ومُرتبط بعجزٍ بأفضل غرائزه وبمطالبها المتطرِّفة، عندئذٍ فقط فهمتُ أنّه استقال من عمله ليس فقط لأنّه كان خائفاً مما قد ينتظرنا لاحقاً إذا ما وافقنا كما وافق الآخرون على النقل بل لأنه عندما تعرَّضَ للتنمُّر، خيراً أم شرّاً، من قِبَل قِوى عُليا اعتبرها فاسدة كان من طبيعته ألّا يستسلم - في هذه اللحظة، كان الهرب إلى كندا، كما حثّتنا أمي على فعله، أو الرضوخ لتوجيهات الحكومة، أمراً غير عادل بكل وضوح. كان هناك نمطان من الرجال الأقوياء: أشباه العم مونتي وآبيه شتاينهايم، الذين لا يعرفون الرحمة في جمع المال، وأشباه والدي، الذين يلتزمون بلا هوادة بفكرتهم عن العدل.

قال والدي «هيا بنا»، محاولاً أنْ يُدخِل البهجة إلى قلوبنا في يوم السبت الذي بدا فيه أنَّ العائلات الست الأخيرة المُقيمة قد تلاشت من الوجود إلى الأبد. «هيا بنا، يا أولاد. سوف نذهب لتناول المثلجات». مشينا نحن الأربعة على طول شارع تشانسلر نحو الصيدليّة التي كان

صاحبها أحد أقدم زبائن شركة الضمان وحيث يكون المكان خلال الصيف أكثر إبهاجاً من جو الشارع، بوجود المظلات المنشورة لمنع أشعة الشمس من اختراق زجاج النافذة والشفرات المتحركة لمراوح السقف الثلاث تصرّ بهدوء وهي تدور فوق الرؤوس. ولَجْنا الكشك وطلبنا المثلجات، وعلى الرغم من أنَّ أمي لم تستطع أنْ تُجبِر نفسها على الأكل رُغم إلحاح أبي، استطاعت أخيراً أنْ تُكفكفَ دموعها الجارية على وجنتيها. فنحن، قبل أي شيء، لم نكن أقلّ جهلاً بالمستقبل الغامض من أصدقائنا المنفيين، وهكذا جلسنا نغرف مثلجاتنا في جو الصيدليّة البارد المُعتِم بسبب المظلّة، والصمت يرين على الجميع المُنهكين، إلى أنْ رفعتْ أمي أخيراً رأسها عن منديل الورق الذي كانت تمزّقه إرباً، ومع ابتسامة ساخرة، مُقتَضَبة، يرسمها المرء عندما يكون مُستنزفاً، قالتْ لأبي، «شئنا أم أبينا، إنَّ ليندبرغ يُعلِّمنا معنى أنْ نكون يهوداً»، ثم أضافتْ «نحن نظن أننا فقط أميركيون». أجاب والدي «هراء. كلا! **هم** الذين يعتقدون أننا نعتقد أننا فقط أميركيون. الأمر ليس مطروحاً للنقاش، يا بيس. ليس مطروحاً للمُناظرة. إنَّ أولئك القوم لا يفهمون أنني أسلِّمُ بهذا ***بداهةً***، اللعنة! آخرون؟ أيتجرأ على وصفنا ***بالآخرين***؟ إنّه **هو** الآخر. إنّه الشديد الشبه بالأميركيين – وليس أميركيّاً! إنّه غير صالح. ولا ينبغي أنْ يكون في منصبه. لا ينبغي أنْ يبقى في منصبه، الأمر بهذه البساطة!».

بالنسبة إليّ كان رحيل سيلدون هو الأقسى. طبعاً أبهجني رحيله. كنتُ أعدُّ الأيام طوال الصيف. ولكن في صباح ذلك اليوم الباكر من الأسبوع الأخير من شهر آب (أغسطس) عندما انطلقَ آل ويشناو مع فراشين مُدّا على سطح السيارة (كان والدي وساندي قد رفعاهما إلى هناك وربطاهما تحت قماش مُشمّع في الليلة السابقة) وكوّمت الملابس بأعلى الكرسي الخلفي لسيارة البليموث القديمة (أكوام من الملابس، تتضمّن العديد من قطع ملابسي، ساعدناهما أنا وأمي على نقلها من المنزل)، والغريب أنني أنا الذي لم يتمكّن حبس دموعه. كنتُ أتذكّر بعد ظهيرة أحد الأيام

عندما كنا أنا وسيلدون لا نتجاوز السنوات الست من العمر، وكان السيد ويشناو ما يزال على قيد الحياة ويبدو بصحّة جيدة ويعمل في كل يوم لمصلحة ميتروبوليتان، والسيدة ويشناو كانت ما تزال ربّة بيت كأمي، منهمكة في تلبية حاجات عائلتها اليوميّة بل وأحياناً تعتني بي عندما تضطر أمي إلى القيام بعمل في رابطة الأساتذة والآباء ويكون ساندي غائباً وأبقى أنا وحدي في البيت بعد انتهاء دوام المدرسة. كنتُ أتذكّرُ الأمومة الشاملة التي تتشارك بها مع أمي- الدفء المُهدهِد الذي كنتُ أتقبّله كشيءٍ بديهيّ - وقد خبِرتُ هذا بصورة مُذهلة بعد ظهيرة اليوم الذي علِقتُ فيه داخل غرفة استحمامهم ولم أتمكن من الخروج. كنتُ أتذكّر كم كانت لطيفة معي وأنا أحاول باستمرار وأفشل في فتح الباب، وهي تقلق بشأني عفويّاً وكأننا نحن الأربعة - سيلدون وسالما، وفيليب وبيس - بغضّ النظر عن الفروق في المظهر والمزاج والظرف الفوريّ، متساوين. كنتُ أتذكّر السيدة ويشناو عندما كانت أقصى اهتماماتها أقصى اهتمامات أمي - عندما كانت مجرد عضوٍ في النظام الأموميّ المحلّي وكانت وظيفتها الأساسيّة هي ترسيخ أسلوب محلّي في الحياة من أجل الجيل التالي. كنتُ أتذكّر السيدة ويشناو المتماسكة، عندما لا تكون قبضتا يديها مشدودتين معاً ووجهها ليس مُترعاً بالألم.

كانت غرفة استحمام صغيرة، كالتي عندنا بالضبط، ضيقة، الباب بجوار المرحاض والمرحاض مُلاصِق لمِغسلة وحوض استحمام محشورين بجواره. شددتُ الباب لكنّه لم ينفتح. في المنزل كان يكفي أنْ أُغلِقه خلفي، أما في منزل آل ويشناو فأقفلتُه - وهو شيء لم أكنْ قد فعلته قبل ذلك في حياتي. أقفلته وتبوّلتُ وتركتُ الماء يتدفّق وغسلتُ يديّ، ولأنني لم أرغبْ في لمس منشفتهم، جفّفتهما على خلفيّة ساقيّ البنطلون الجوخ - كل شيء كان على ما يُرام، ومن ثم حاولت أنْ أخرج من الحمّام، فلم أتمكَّن من فتح القفل الذي فوق قبضة الباب. استطعتُ أنْ أُحرِّكه قليلاً لكنّه كان يتوقف. لم أقرع الباب بقوة أو أُقعقع بالمقبض.

واكتفيتُ بمحاولة إدارة القفل بأقصى هدوء ممكن. لكنّه لم يتزحزح، فعدتُ إلى الجلوس على كرسي المرحاض وفكّرتُ في أنّه ربما سيُفتَح من تلقاء ذاته. جلستُ هناك قليلاً ولكني شعرتُ بالوحشة ونهضتُ واقفاً وحاولت مع القفل من جديد. وبقيَ عالقاً، فبدأتُ أقرعُ الباب قرعاً خفيفاً، فاقتربتِ السيدة ويشناو وقالت «أوه، إنَّ هذا يحدث مع القفل أحياناً. يجب أنْ تُديره بهذا الشكل» وراحتْ تشرح لي الطريقة، لكنني مع ذلك لم أتمكّن من فتحه، فقالتْ بكل هدوء، «كلا، فيليب، عندما تُديره يجب أنْ تشدّه إلى *الخلف*»، وعلى الرغم من محاولتي أنْ أنفِّذ ما طلبتْ مني لم أنجح. قالت «يا عزيزي، أدِرْ وشِدّ معاً - أدِرْ وشِدّ في وقتٍ واحد»، قلت «في أيّ اتّجاه هو الخلف؟»، «إلى الخلف، الخلف باتّجاه الجدار»، قلت «أوه، الجدار. حسن»، لكنني لم أُحسِن العمل مهما بذلت. قلت «لا فائدة»، وبدأتُ أتصبّب بالعرق، ثم سمعتُ سيلدون يقول «فيليب؟ أنا سيلدون. لِمَ أقفلتَه؟ لم نكن لندخل عليك»، قلتُ «أنا لم أقُل إنكما ستفعلان ذلك»، «إذن لِمَ أقفلتَه؟»، قلت «لا أعلم»، «أتعتقدين أنَّ علينا أنْ نتصل بفريق إطفاء المبنى، يا أمي؟ في استطاعتهم أنْ يُخرجوه عبر سُلَّم»، قالتِ السيدة ويشناو «كلا، كلا، كلا»، قال سيلدون «هيا، يا فيليب، إنَّ الأمر ليس صعباً جداً»، «بل هو صعب، إنّه عالِق»، «كيف سيخرج، يا أمي؟»، «اهدأ، يا سيلدون. فيليب؟»، «نعم»، «هل أنت بخير؟»، «في الواقع، الجو حارّ هنا. والحر يزداد»، «اشرب كوباً من الماء، يا عزيزي. هناك كأس في علبة الصيدليّة. خُذ كوباً من الماء واشربه ببطء وسوف تشعر بتحسُّن»، «طيّب». لكنَّ الكأس كان يحويّ مادة لزجة في قعره، وعلى الرغم من أنني أخرجتُه، تظاهرتُ فقط بأنني أشرب منه وشربتُ بدل ذلك من يديّ المضمومتين. قال سيلدون «ماما، ما الذي يُخطئ في عمله؟ فيليب، ما الذي تُخطئ في عمله؟»، قلتُ «ما أدراني؟ سيدة ويشناو، سيدة ويشناو؟»، «نعم، يا عزيزي»، «أصبح الحرّ لا يُطاق هنا. وبدأتُ أتعرَّق»، «إذن افتح النافذة. افتح النافذة الصغيرة التي في الدشّ.

هل طول قامتك يسمح بفعل هذا؟»، «أعتقد ذلك». خلعتُ حذائي ووقفت تحت الدش لا أنتعل إلّا جوربي، ارتفعتُ على أطراف أصابع قدمَيّ وتمكّنتُ من بلوغ النافذة - كانت نافذة صغيرة من الزجاج غير الشفّاف وتطلّ على الزقاق - ولكن عندما حاولتُ أنْ أفتحها، كانت عالقة بدورها. قلتُ «إنها لا تُفتَح»، «اضربها قليلاً، يا عزيزي. اضرب الإطار في أسفله، ولكن ليس بقوة، وأنا واثقة من أنها سوف تُفتح». فعلتُ كما طلبتْ مني لكنها لم تتزحزح. عندئذٍ كان قميصي قد تشبَّعَ بالعرق، فاتخذتُ الوضعيّة التي تمكّنني من توجيه ضربة قوية للنافذة نحو الأعلى، ولكن عندما استدرتُ يبدو أنَّ مرفقي ارتطمَ بمقبض الدش لأنَّ الماء بدأ يتدفق فجأة. قلت «أوه، كلا!» كان ماءً مُثلّجاً ينصبّ على رأسي وعلى ظهر قميصي، فقفزتُ من تحت الدش إلى أرضيّة الآجُر. «ماذا حدث، يا عزيزي؟»، «لقد تدفق ماء الدش»، قال سيلدون «كيف؟ كيف تدفق ماء الدش؟»، «لا أعلم!»، سألتْني «هل تبلّلتَ كثيراً؟». «قليلاً»، قالتْ «أحضِر منشفة، أحضر منشفة من الخزانة. المناشف موجودة في الخزانة». كان لدينا حمام صغير ضيق مُشابه يقع مباشرة في الطابق العِلويّ فوق خزانة حمّام آل ويشناو، وكنا نستخدمها لحفظ المناشف أيضاً، ولكن عندما توجهتُ لأفتح خزانتهم، لم أستطع - كان البابُ عالقاً. شددتُه لكنّه رفضَ أنْ يفتح. «ما الأمر الآن، فيليب؟»، «لا شيء». لم أقوَ على إخبارها. «هل أخذتَ منشفة؟»، «نعم»، «إذن جفِّف نفسك. يجب أنْ تُحافِظ على هدوئك. لا شيء يستدعي القلق»، «أنا هادئ»، «اجلس. اجلس وجفِّف نفسك»، «كنتُ منقوعاً بالرطوبة، والآن أصبحتِ الأرضيّة رطبة، فجلستُ على مقعد المرحاض، وهنا رأيتُ غرفة الحمّام على حقيقتها - إنها الطرف العُلويّ من مجرور - وعندئذٍ شعرتُ بالدموع تتجمَّع. هتفَ لي سيلدون «لا تقلق، سوف تعود أمك وأبوك قريباً إلى المنزل»، «ولكن كيف *سأخرج*؟» وفجأة فُتِحَ الباب - وظهر سيلدون ومن خلفه أمّه. قلتُ «كيفَ فعلتَ هذا؟»، قال «فتحتُ الباب»، «ولكنْ كيف؟». هزَّ

كتفيه استخفافاً. «دفعتُه. فقط دفعتُه. لقد كان مفتوحاً طوال الوقت»، وهنا بدأتُ أصيح وضمتني السيدة ويشناو بين ذراعيها وقالتْ «لا بأس. مثل هذه الأمور تحدث. تحدث مع أي شخص». قال لها سيلدون «لقد كان مفتوحاً، يا أمي». أمرَتْه «اصمتْ. اصمت. لا يهمّ»، ثم دخلتِ الحمّام وأغلقت صنبور الماء البارد - الذي كان لا يزال ينهمر داخل الحوض - وفتحت باب الخزانة من دون مواجهة أيّة مشكلة وأخرجتْ منشفة جديدة وبدأتْ تُجفِّفُ شَعري ووجهي وعنقي، وطول الوقت تقول لي بلطف إنّه لا يهم وإنَّ تلك الأمور تحدث للناس في كل الأوقات.

ولكن هذا وقع قبل أنْ تسوء الأحوال كلّها.

بدأتْ حملة الكونغرس عند الساعة الثامنة صباحاً في يوم الثلاثاء الذي تلا عيد العمّال، عندما اعتلى والتر وينتشل صندوق الصابون عند تقاطع طريقيّ برودواي والشارع الثاني والأربعين - تقاطُع الطرق الشهير حيث أعلنَ ترشّحه لمعركة الرئاسة من فوق صندوق الصابون الخشبي الأصلي نفسه - وبدا في وضح النهار بالضبط كما صوّرته الصحافة وهو يبثّ برنامجه الإذاعي في أمسيات أيام الأحد من استوديو محطة NBC عند الساعة التاسعة؛ بلا سترة، ويرتدي قميصاً طرفا كُمّيه مرفوعان عالياً وربطة عنقه متدلّية، وقبعة اللبّاد القاسية التي يعتمرها العامل في الصحافة مرفوعة عن جبهته. وفي غضون بضع لحظات فقط أصبح الوضع يحتاج إلى حفنة من فرسان رجال شرطة مدينة نيويورك من أجل تغيير حركة السير بعيداً عن السيل المتحمِّس من العمّال المحتشدين في الشارع لكي يستمعوا إليه ويُشاهدوه شخصياً. وحالما أُشيعَ أنَّ الخطيب حامل مُكبِّر الصوت لم يكن مجرد مُبشِّر توراتي يتنبّأ بالموت لأميركا الآثمة بل هو أحد روّاد نادي ستورك وكان قبل عهد قريب أشدّ مُقدّمي البرامج الإذاعيّة في البلاد تأثيراً وأسوأ كُتّاب صحافة الفضائح، تضاعفَ عدد الحضور من المئات إلى الآلاف - بعدد إجمالي يبلغ حوالي العشرة آلاف، حسب ما

ورد في الصحف، جاؤوا من الشوارع الفرعيّة وعبر الحافلات، جذبهم المنشقّ وتطرّفه.

قال لهم «إنَّ جُبناء الإذاعة وسفّاحي النشر المليارديرات الذين يحكمون من البيت الأبيض عبر عصابة ليندبرغ يقولون إنَّ وينتشل أُعِدَّ لكي يهتف «أطلقوا النار!» في الجمهور المُحتشِد. يا سادة وسيدات مدينة نيويورك، إنَّ العبارة التي أطلقها وينتشل لم تكن «أطلقوا النار»، بل كلمة «فاشيّة» - وما زالت. فاشيّة! فاشيّة! وسوف أستمرّ في الهتاف «الفاشيّة» في كل حشدٍ في أميركا أجد نفسي وسطه إلى أنْ يُطرَد حزب الهر ليندبرغ الخائن الموالي لهتلر من مجلس الشيوخ. يمكن لأنصار هتلر أنْ يأخذوا مني مايكروفون الإذاعة، وقد فعلوا هذا حقاً، كما تعلمون. يمكنهم أنْ يحرموني من عمودي الصحفيّ، وقد فعلوا هذا، كما تعلمون. وعندما تُصبح أميركا فاشيّة، لا سمح الله، يمكن لقوات الصاعقة التابعة لليندبرغ أنْ تحتجزني في معسكر اعتقال لكي تُخرسني - وسوف يفعلون هذا، كما تعلمون. بل في إمكانهم أنْ يحتجزوكم *أنتم* في معسكرات اعتقال لكي يُخرسوكم *أنتم*. وآمل أنْ تكونوا الآن قد بتّم تعلمون هذا. ولكنْ ما لا يستطيع أنصار هتلر الذين ينتشرون في بلدنا أنْ يأخذوا مني هو حبي لأميركا وحبّكم لها. وحبّي للديمقراطيّة وحبكم لها. وحبي للحرية وحبّكم لها. ما لا يستطيعون أخذه منا - إلّا إذا كان السُذّج والخجولون والخائفون ضعفاء إلى درجةِ إعادتهم إلى واشنطن من جديد - هو قوة صندوق الاقتراع. والمؤامرة الهتلريّة على أميركا يجب منعها - وأنتم سوف تمنعونها! أنتم، يا سادة وسيدات نيويورك! بقوة تصويت شعب هذه المدينة العظيمة العاشق للحريّة في يوم الثلاثاء، الثالث من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، سنة ألف وتسعمئة واثنين وأربعين!».

طوال ذلك اليوم - الثالث من شهر أيلول (سبتمبر)، عام 1942 - وحتى المساء، ووينتشل يعتلي صندوق الصابون في كل حيّ في مانهاتن، بدءاً بشارع وول، حيث كانوا في الأصل يتجاهلونه، إلى ليتل إيتالي، حيث

صرخوا وأسكتوه، إلى قرية غرينتش، حيث سخروا منه، إلى المنطقة الألمانيّة، حيث قوبِلَ بهتافٍ مُتقطِّع، إلى أعلى الحيّ الغربي، حيث قابله يهود روزفلت بالترحاب وكأنّه مُنقذهم، وأخيراً توجّه شمالاً إلى هارلم، وهناك، وسط حشد من بضع مئات من الزنوج اجتمعوا عند الغسق ليستمعوا إلى خطابه عند منعطف جادة لينكس والشارع رقم 125، ضحك البعض وهلَّلت حفنة منهم لكنَّ الغالبيّة بقيَتْ لا مبالية باحترام، وكأنَّ شقّ طريقه إلى كراهيتهم يتطلَّب إلقاء خطاب مختلف كل الاختلاف.

كان صعباً التيقُّن من التأثير الذي أحدثه وينتشل في الجمهور المُصوِّت في ذلك اليوم. وبالنسبة إلى الصحيفة التي كان وينتشل يكتب فيها سابقاً، صحيفة هيرست *دايلي ميرور*، بدا الجهد المبذول لجمع الدعم المحلّي الأساسي من أجل طرد الحزب الجمهوريّ من مجلس الشيوخ في كل أنحاء البلاد أشبه بدعاية مُثيرة أكثر من أي شيء آخر – دعاية مُثيرة ذاتيّة متوقّعة لكاتب عمود صحفيّ فضائحيّ عاطل عن العمل لم يتحمّل خروجه من دائرة أضواء الشهرة – وهذا يتجلّى بصورة أوضح بما أنَّه لم يرغب أي مُرشَّح ديمقراطي من مجلس الشيوخ للانتخابات في مانهاتن في الظهور في أي مكان ضمن نطاق سماع مُكبِّر صوت وينتشل. فإذا خرج أي من المُرشّحين للقيام بحملاتهم، يبقون بعيداً عن أي مكان يرتكب فيه وينتشل الخطأ السياسي الفاضح بربط اسم أدولف هتلر باسم الرئيس الأميركيّ الذي ما زال العالم يُمجِّد أعماله البطوليّة، وحتى الفوهرر يحترم إنجازه، وتستمر الغالبية الساحقة من أبناء بلده في عشقه بوصفه معبود الأمّة المُرسِّخ للسلام والرفاهيّة. وفي مقالة افتتاحيّة ساخرة ومُقتَضَبة، عنوانها «الموضوع نفسه من جديد»، استطاعت صحيفة نيويورك تايمز أنْ تتوصّل إلى نتيجة واحدة حول آخر خدع وينتشل «التي تعمل في مصلحته»، قالت التايمز «ليس هناك ما يبرع فيه والتر وينتشل أكثر من العمل لمصلحة نفسه».

أمضى وينتشل يوماً كاملاً في كلٍ من الإدارات الأربع الأخرى من

المدينة، وفي الأسبوع الذي يلي توّجه شمالاً إلى كونكتيكت. وعلى الرغم من حاجة وينتشل إلى مُرشَّح ديمقراطي يرغب في أنْ يقرِن فصاحته الحماسيّة بحملة غرّة لمجلس الشيوخ، استمر في نصب صندوق الصابون خارج بوابات مصانع بريدجبورتْ وعند مدخل رسو السفن في نيو لندن، حيث دفع قبعته إلى الخلف، وأرخى ربطة عنقه، وصرخ «فاشيّة! فاشيّة!» في وجه الحشد. ومن ساحل كونكتيكت الصناعي انتقل شمالاً من جديد إلى مناطق الطبقة العاملة من بروفانس ومن ثم عَبرَ من رود أيلند إلى البلدات الصناعيّة في جنوب شرق ماساتشوستس، مُخاطِباً تجمّعات صغيرة عند منعطفات الشوارع في فول ريفر، وبروكتن، وكوينسي بحماسة لا تقلّ عن تلك التي بذلها في خطابه الأول الذي ألقاه في تايمز سكوير. ومن كوينسي انتقل إلى بوسطن، وهناك خطط للمكوث ثلاثة أيام منتقلاً من أنحاء دورشستر الأيرلنديّة وجنوب بوسطن إلى نورث إند الإيطاليّة. ولكن في يومه الأول في ساحة بيركنز المزدحمة في جنوب بوسطن تكاثرت الحفنة القليلة من المُضايقين الساخرين الذين كانوا يصفونه باليهوديّ منذ مغادرته مسقط رأسه نيويورك - تاركاً خلفه هناك حماية الشرطة التي ضمنها فيوريللو لا غوارديا، عمدة المدينة المُعادي لليندبرغ الجمهوريّ - تكاثرت تلك الحفنة وأضحتْ رعاعاً يرفعون لافتات صنعوها بأنفسهم تُذكّرُ بالرايات واللافتات التي تزيِّن مسيرات المُناصرين للنازيّة في ماديسون سكوير غاردن. وحالما بدأ وينتشل يخطب، اندفعَ شخصٌ يُلوِّح مُهدداً بصليب يحترق نحو صندوق الصابون لكي يحرق وينتشل وأُطلِقَ عياران ناريّان في الهواء، إمّا كإشارة من المُنظِّمين للمُشاغبين أو كتحذير للرجل المُستهدَف من «يهود نيويورك»، أو كليهما. وهناك في مشهد المدينة المؤلَّفة من متاجر صغيرة من القرميد العتيق تُديرها العائلات وحافلات وأشجار ظليلة ومنازل صغيرة، التي لم يكن يعلو كلاً منها، قبل انتشار التلفزيون، إلّا أعمدة المداخن السامقة، في بوسطن التي لم تكن فترة الكساد الاقتصادي قد

انتهتْ بعد، وسط واجهات المتاجر المُقدَّسة بالنسبة إلى الشارع الرئيس الأميركيّ - صالات تقديم المثلجات، ودكان الحلّاق، والصيدليّة - وعلى الطريق الممتدة من كنيسة القديس أوغسطين المُظلِمة وحدودها المُدبّبة، اندفعَ قُطّاع طُرُق يحملون هراوات إلى الأمام وهم يصرخون «اقتلوه!»، وكان وينتشل قد تصوّر أنَّ حملته قد بدأتْ، قبل أسبوعَين من بدايتها في إدارات نيويورك الخمس. وأخيراً أخرج غرابة أطوار ليندبرغ إلى السطح، الجانب السُفلي من رقّته العذبة، لتظهر فجّة ومكشوفة.

على الرغم من أنَّ شرطة بوسطن لم تفعل أيّ شيء لتكبح المُشاغبين - كان الطلق الناري قد استمرّ يُدوّي على مدى ساعة كاملة قبل أنْ تأتي سيارة الدوريّة لتُعاين المشهد العام - نجح فريق الحرّاس الشخصيين المُحترفين والمُسلّحين بملابسهم البسيطة الذين كانوا قد تمركزوا بجانب وينتشل طوال الرحلة في إطفاء اللهب الذي أمسك بإحدى ساقيّ بنطلونه، وبعد تحريره من الموجة الأولى من الحشود بعد توجيه بضع ضربات فقط، ورفعه إلى داخل سيارة كانت متوقفة على مسافة قصيرة من صندوق الصابون ونقلته إلى مستشفى كارني الكائن على تل تليغراف، وهناك عولِجَ من جراحٍ في الوجه ومن حروقٍ ثانويّة.

أول زائر له في المستشفى لم يكنْ العمدة، موريس توبين، أو مُنافِس توبين المُنهزم على منصب العمدة، الحاكم السابق جيمس م. كرلي (وهو شبيه آخر بروزفلت الديمقراطي الذي لم يرغب، على غرار توبين الديمقراطي، في القيام بدور والتر وينتشل). ولا كان عضو الكونغرس المحلّيّ، جون و. ماكورماك، الذي هيمنَ أخوه الجلف، وهو نادل يُعرَف باسم نوكو، على الحيّ بسُلطةٍ تُعادلُ سُلطةَ ممثل ديمقراطي معروف. وأمام دهشة الجميع، بدءاً بوينتشل نفسه، كان أول زائر له جمهوريّ نبيل ينحدر من سلالة معروفة من نيو إنغلند، حاكم ماساتشوستس لفترتين، ليفيريت سالتونشتال. وحالما سمِعَ عن إيداع وينتشل المستشفى، غادر الحاكم مكتب الولاية لكي يُعبِّر عن قلقه مباشرة لوينتشل (الذي كان يكنّ

له الاحتقار سرّاً)، ويعِده بإجراء تحقيق شامل حول الشغَبِ المُخطَّط بإتقان، والمُعدّ مُسبقاً كما هو واضح والذي، لحُسن الحظ، لم تنتج عنه ضحايا. وطمأنَ أيضاً وينتشل بضمان حماية شرطة الولاية - وأيضاً، إذا لزم الأمر، الحرس القوميّ - طوال فترة حملة وينتشل الانتخابيّة في ماساتشوستس. وقبل أنْ يُغادر الحاكم المستشفى، حرِصَ على أنْ يتمركز اثنان من القوات المُسلّحة عند الباب على مقربة من سرير وينتشل.

فسّرتْ صحيفة *بوسطون هيرالد* تدخُّل سالتونشتال بأنّه مناورة سياسيّة تُكسِبه اعترافاً بأنه شجاع، وشريف، ومُحافِظ غير مُتحيِّز، يمكنه أنْ يخدم حزبه كبديل جليل في عام 1944 لنائب الرئيس الديمقراطيّ، برتون ك. ويلر، الذي أنجزَ العمل المطلوب منه في حملة عام 1940 لكنَّ وقاحته كخطيب يعتقدُ العديدُ من الجمهوريين الآن أنّها قد تُعرِّض سمعة رئيسهم للشُبهة للمرة الثانية على التوالي. وفي مؤتمر صحفي عُقِدَ في المستشفى ظهَرَ وينتشل أمام المُصوّرين برداء نومه، مع مُعدّات العمليّة الجراحيّة تُغطّي نصف وجهه وتُضمِّد بكثافة قَدَمَه اليُسرى، رحَّبَ بعَرض الحاكم سالتونشتال لكنّه رفضَ المُساعدة في رسالةٍ (صيغَتْ، الآن بعد أنْ تعرَّضَ للاعتداء، بلغةٍ أقرب إلى لغة رجل دولة منها إلى ثرثرته المحمومة المعتادة) وُزِّعَتْ إلى العديد من مُراسلي الإذاعة والصحافة الذين اجتمعوا في غرفته. ويبدأ التصريح بما يلي، «في اليوم الذي يحتاج أحد المُرشّحين لمعركة رئاسة الولايات المتّحدة إلى كتيبة من ضباط الشرطة المُسلّحين والحرس الوطني لحماية حقّه في حريّة التعبير، سوف يكون هذا البلد قد انتقلَ إلى مرحلة البربريّة الفاشيّة. لا يمكنني أنْ أقبل القول إنَّ التعصُّب الدينيّ المنبثق من البيت الأبيض عمل حتى الآن على تخريب المواطن العادي إلى درجة أنّه فقَدَ كل احترام لأقرانه من الأميركيين ذوي المعتقد والإيمان المُختلفين عن معتقده وإيمانه. لا أستطيع أنْ أقبل أنَّ كراهيّة ديانتي التي يتشارك فيها أدولف هتلر مع تشارلز أ. ليندبرغ قد أتلفت حتى الآن...».

منذ ذلك الحين فصاعداً، أصبح المُهيّجون المُعادون للساميّة يتصيّدون وينتشل عند كل ملتقى طرق، ولكن من دون تحقيق أي نجاح في بوسطن، حيثُ تجاهلَ سالتونشتال[46] شعبيّة وينتشل وأمرَ قوّاته بفرضِ النظام، بالقوة إذا لزم الأمر، وأنْ يزجّ بالذين يلجأون إلى العنف في السجن، وقد نفّذوا الأمر، على مضض. وفي تلك الأثناء استمرَّ وينتشل - مُستعيناً بعصا مشي لتدعمه بسبب حرق قدَمِه والضماد ما زال يلفّ فكّه - في جذب رعاع غاضبين يهتفون «أيّها اليهودي عُد إلى وطنك!» في كل أبرشيّة عَرَضَ فيها أثر جُرحه على المؤمنين، من كنيسة بوابة الجنّة في جنوب بوسطن إلى دير القديس جبرائيل في برايتن. وما بعد ماساتشوستس، في جاليات في ولاية نيويورك العليا، وفي بنسلفانيا، وفي أرجاء الغرب الأوسط الذي كان أصلاً صاحب سُمعة سيئة في تعصّبه الأعمى - وإلى حيث كانت استراتيجيّة وينتشل المتفجّرة توجّهه بصورة حتميّة - لم تُشارك السلطات المحليّة عدم رغبة سالتونشتال في التسامُح مع القلاقل المدنيّة، وهكذا، على الرغم من مُضاعفة بطانته من الحرس الخاص بملابسهم العاديّة، اقترب المُرشَّح من التعرُّض للضرب الوحشيّ كلما ارتقى صندوق الصابون ليشجب «الفاشيّة في البيت الأبيض» ويُحمِّل «كراهيّة الرئيس الدينيّة» مباشرةً مسؤوليّة «تشجيع البربريّة النازيّة غير المسبوقة في شوارع أميركا».

أسوأ أعمال العنف وأوسعها انتشاراً ظهرتْ في ديترويت، المركز الرئيسيّ في الغرب الأوسط لـ «قسيس الإذاعة» الأب كوفلين والجبهة المسيحيّة الكارهة لليهود والكاهن الذي يحبّه الجمهور والمعروف «عميد المُعادين للساميّة» المُحترَم جيرالد ل. ك. سميث الذي يبشّر بأنَّ «الشخصيّة المسيحيّة هي الأساس الصحيح للروح الأميركيّة الحقيقيّة». وكانت ديترويت، طبعاً، هي أيضاً موطن صناعة السيارات الأميركيّة

46- ليفيريت سالتونشتال (1892-1979): محام أميركيّ ضليع وسياسي من عائلة عريقة في ولاية ماساتشوستس، أصبح حاكماً لولاية ماساتشوستس. - المترجم

ومسقط رأس وزير داخليّة ليندبرغ العجوز، هنري فورد، الذي كانت صحيفته التي تُعلن صراحة مُعاداتها للساميّة «*دبيربورن إندبندنت*» ونُشِرَتْ في عشرينيات القرن، تعمل على «إجراء بحث حول القضيّة اليهوديّة «قام فورد بإعادة نشره كله في أربع مجلّدات، بعدد إجمالي يبلغ حوالي ألف صفحة، بعنوان «اليهودي العالمي»، وفيه يقول إنَّ تطهير أميركا «لن يستثني اليهودي العالمي وأتباعه، بوصفهم الأعداء الواعين لكل ما يعنيه الأنغلو-ساكسونيون بكلمة حضارة».

كان من المتوقَّع أنْ يثور غضب منظماتٍ كاتّحاد الحرّيات المدنيّة الأميركيّة وصحفيين ليبراليين بارزين أمثال جون فونثر ودوروثي تومبسون من أعمال الشغب في ديترويت وأنْ يُعلنوا فوراً عن اشمئزازهم، وكذلك العديد من أميركيّ الطبقة الوسطى التقليديّة الذين أبدوا أيضاً رعبهم، حتى وإنْ اعتبروا والتر وينتشل وفصاحته بغيضَين وأدركوا أنّه «يسعى وراء المشاكل»، من تقارير شهود عيان عن أعمال الشغب التي اندلعتْ في أول محطة توقفَ عندها وينتشل في هامتراك (القسم الرئاسيّ الذي لا يقطنه في الأساس إلّا العمّال المُستقلّون وعائلاتهم وقيل إنّه يضمّ أكبر جالية من البولنديين خارج مدينة وارسو) وامتدّتْ بصورة مُريبة في غضون دقائق حتى الشارع الثاني عشر، وإلى لينْوود ومن ثم إلى بولفار ديكستر. وهناك، في أوسع الأحياء اليهوديّة في المدينة، نُهِبَت المتاجر وكُسِرَت الواجهات، واليهود الذين وجدوا أنفسهم في العراء تعرّضوا للهجوم العنيف والضرب، وأُشعِلَت النار في الصلبان المُغمّسة بالكيروسين على مروج المنازل الفاخرة على طول بوليفار شيكاغو وأمام منازل العائلات المتواضعة التي يقطنها داهنو المنازل، والسمكريون، واللحامون، والخبّازون، وتجّار الخُردة والبقّالون الذين يعيشون على ويب أند توكسيدو وفي الأفنية الصغيرة القذرة لأشد اليهود فقراً يعيشون على بينغري ويوكليد. وفي منتصف فترة بعد الظهيرة، وقُبيل نهاية الدوام المدرسي بلحظات، أُلقيَتْ قنبلة حارقة على الردهة الأماميّة لمدرسة

وينترهالتر الابتدائيّة، حيث نصف التلاميذ هم من اليهود، وأُلقيَتْ أخرى على ردهة مدرسة سنترال الثانوية، حيث نسبة خمسة وتسعين من مجموع الطلاب هم من اليهود، وأخرى رُميَتْ من نافذة مؤسسة شولوم أليخيم - وهي مؤسّسة ثقافيّة وصفها كوفلين بسُخف بأنّها شيوعيّة - ورابعة خارج أحد أهداف كوفلين «الشيوعيّة»، هو تحالف العمّال اليهود. بعد ذلك حدثَ الهجوم على بيوت العبادة. لم يكتفوا بتكسير النوافذ وتشويه الجدران في حوالي نصف كنائس المدينة اليهوديّة الأرثوذكسيّة التي يُناهز عددها الثلاثين، ولكن مع بداية الصلوات المسائيّة حسب برنامجها المُدْرَج وقع الانفجار على دَرَج معبد شعاري صادق (بوابات الاستقامة) في بولفار شيكاغو الفخم. وقد تسبَّبَ الانفجار هناك بأضرارٍ جسيمة في الواسطة الأجنبيّة التي صمّمها المُهندّس أليرت كان Kahn على الطراز المغربيّ - وهي ثلاثة مداخل أبواب ضخمة مُقوّسة بدتْ لجمهور الطبقة العاملة بكل وضوح طرازاً غير أميركيّ. وأُصيبَ ثلاثة من المارّة، تصادف أنّهم لم يكونوا من اليهود، بجراح من شظايا تطايرت من الواجهة، ولكن فيما عدا ذلك، لا ضحايا.

مع هبوط الليل، كان بضع مئات من سكان المدينة من اليهود الثلاثين ألفاً قد فرّوا ولجأوا عبر نهر ديترويت إلى ويندسور، أونتاريو، وسجّلَ التاريخ الأميركيّ أول مذبحة كبيرة فيه، صُمِّمَت بكل وضوح على شكل «المظاهرات العفويّة» ومورست في حق اليهود الألمان المعروفة باسم Kristallnacht (السماء الصافية)، أو «ليلة الزجاج المكسور» التي خطَّط ممارساتها الوحشيّة وارتكبها النازيون قبل ذلك بأربع سنوات، والتي كان الأب كوفلين في صحيفته الشعبيّة *«العدالة الاجتماعيّة»* قد دافع عنها في حينها بوصفها ردّة فعل من الألمان ضد «الشيوعيّة المُلهِمة لليهود». وقد تمَّ تبرير عمليّة «السماء الصافية» بالطريقة نفسها في المقالة الافتتاحيّة لصحيفة *«ديترويت تايمز»* باعتبارها ضربة مؤسِفة ولابد منها ومفهومة بصورة عامة موجّهة ضد نشاطات المُتطفِّل مُثير الشغب الذي

عرّفته الصحيفة بأنّه «المُهيِّج اليهوديّ الذي كان هدفه الأول إثارة حنق الأميركيين الوطنيين بتهييجه الخائن».

في الأسبوع التالي لحادث اعتداء أيلول (سبتمبر) على يهود ديترويت - الذي لم يوجّه حاكم ميتشيغان ولا عمدة المدينة أيّة رسالة بصدده - مورِسَتْ أعمال عنفٍ جديدة على المنازل، والمتاجر، والكنائس اليهوديّة في أحياء يهوديّة في كليفلاند، وسينسيناتي، وإنديانابوليس، وسينت لويس، أعمال عنف نسبها أعداء وينتشل إلى ظهوره المُتحدّي المُستفز في تلك المدن بعد موجة العنف التي اجتاحت ديترويت، والذي قام وينتشل نفسه - الذي بالكاد نجا، في إنديانابوليس، من سحق انهيار حجارة رصف من أعلى السقف التي كسرت عنق الحارس الشخصي المُتمركز بجواره - بتفسيرها بأنّها «مناخ من الكراهيّة» انبعثَ من البيت الأبيض.

كان شارعنا في نيوارك لا يبعد أكثر من بضع مئات من الأميال عن بوليفلر ديكستر في ديترويت، ولا أحد في الجوار كان قد ذهب إلى ديترويت، وقبل شهر أيلول عام 1942 كان كل ما يعرفه الفتية في الحيّ عن ديترويت هو أنَّ اللاعب اليهودي الوحيد في مباريات البيسبول المُنظّمة كان نجم فريق تايغر وأول لاعب قاعدة، هانك غرينبرغ. ولكن بعد ذلك وقعت أعمال شغب وينتشل، وفجأة أصبح حتى الأطفال يحفظون أسماء أحياء ديترويت التي هزّتها أعمال العنف. كانوا يُردّدون ما سمعوا من آبائهم، ويتناقشون مطوّلاً حول ما إذا كان والتر وينتشل شجاعاً أم أحمق، مُضحّياً بذاته أم يخدمها، وما إذا كان يعمل لمصلحة ليندبرغ بالسماح لغير اليهود أنْ يقولوا لأنفسهم إنَّ اليهود جلبوا البؤس على أنفسهم أم لا. وتجادلوا حول ما إذا كان من الأفضل - قبل أنْ يتسبّب وينتشل بمذبحة في طول البلاد وعرضها - أنْ يكفّ يده عن ذلك ويسمح بإعادة العلاقات «الطبيعيّة» بين اليهود وإخوتهم الأميركيين أم إنّهَ من الأفضل له على المدى الطويل أنْ يستمر في نشر الرعب بين يهود البلاد الأكثر رضا - وأنْ يستنهض ضمير المسيحيين - بكشف تهديد مُعاداة الساميّة في طول

أميركا وعرضها. وفي الطريق إلى المدرسة، وفي الملعب بعد انتهاء دوام المدرسة، وبين الدروس في أروقتها، كنتَ تشاهد أذكى الأولاد يقفون متقاربين، أولاد في مثل عمر ساندي بالإضافة إلى عدد آخر لا يزيدونني في العمر، يتجادلون بحميّة حول ما إذا كانت جولات والتر وينتشل في أرجاء البلاد كلها مع صندوق الصابون ليفضح التحالُف الألماني الأميركي وأتباع كوفلين وعصابة الكو كلوكس كلان وذوي القمصان الفضيّة وكبار المسؤولين الأميركيين والكتيبة السوداء والحزب النازي الأميركيّ، ما إذا كان دفعُ هؤلاء المُعادين للساميّة المُنظّمين وآلاف المتعاطفين معهم المجهولين إلى الظهور على حقيقتهم - وفضح الرئيس وكشف حقيقته، بأنّه المُنفِّذ الرئيس والآمر الذي لم يُزعِج نفسه بعد بالاعتراف بأنَّ حالة الطوارئ موجودة - ما إذا كان ذلك في مصلحة اليهود أم ضدّهم.

بعد ديترويت، بدأ يهود نيوارك - الذين يبلغ عددهم حوالي خمسين ألفاً في مدينةٍ يفوقُ تعداد سكّانها نصف مليون نسمة - يستعدّون لانفجار أعمال عنف في شوارعهم، إمّا بسبب زيارة وينتشل لنيو جيرزي عندما عاد إلى الشرق أو بسبب أعمال الشغب التي تجتاح مدناً، كما حدث في نيوارك، تتاخمُ فيها أحياءٌ ذات كثافة سكانية من اليهود جاليات كبيرة من طبقات عمّاليّة من الأيرلنديين، والإيطاليين، والألمان، والسلافيين، وكانت في الأصل موطناً لعدد كبير من المتعصّبين. والافتراض كان أنَّ هؤلاء الناس لن يحتاجوا إلى الكثير من التشجيع لكي يتحوّلوا إلى رعاعٍ بلا عقل، ومُدمّرين، عبر المؤامرة الموالية للنازيين التي خطّطتْ بنجاحٍ لأعمال الشغب في ديترويت.

وبين ليلة وضحاها تقريباً، أسّسَ الحاخام يواكيم برينتز، مع خمسة آخرين من يهود نيوارك البارزين - بمَن فيهم ماير إلينشتاين - لجنةَ نيوارك من المواطنين اليهود المهتمين. وسرعان ما أصبحت المجموعة مُشابهة لتجمّعاتٍ من المواطنين اليهود في مدنٍ كبرى أخرى مُصمّمين على ضمان أمان جالياتهم بحثّ السلطات على وضع خُطط طوارئ استعداداً

لأسوأ الاحتمالات. أولاً أعدَّتْ لجنة نيوارك لعقد اجتماع في بلديّة المدينة - يترأسه العمدة مورفي، الذي كان انتخابه قد أنهى فترة ثماني سنوات من تولّي إلينشتاين المنصب - مع رئيس شرطة نيوارك، ورئيس مركز الإطفاء، ومدير شعبة الأمن العام. وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة في مجلس الولاية في ترينتون مع الحاكم الديمقراطي تشارلز إديسون، المُشرِف على إدارة شرطة نيو جيرزي، وآمر الحرس الوطني في نيو جيرزي. وحضر الاجتماع أيضاً النائب العام ويلينتز، وهو أحد معارف أعضاء اللجان الست كلها، وفي نشرة الأخبار التي تُرسِلها لجنة نيوارك إلى صُحُف جيرزي، ذُكِرَ أنّه طمأنَ الحاخام برينتز بأنَّ أي شخص يُحاول أنْ يهجم على يهود نيوارك سوف يُحكَم عليه بأقصى عقوبة يقرّها القانون. وبعد ذلك بعثت اللجنة برقيةً إلى الحاخام بينغلسدورف، تطلبُ فيها الاجتماع به في واشنطن، لكنها أُبلِغَتْ بأنَّ قضيّتها قضية محليّة وليست فيدراليّة ونصحها بأنْ تعرض مشكلتها، كما كانت تفعل، على موظفي الدولة والمدينة.

أثنى الموالون للحاخام بينغلسدورف عليه لأنّه نأى بنفسه عن قضية والتر وينتشل الدنيئة في الوقت الذي كان يحثّ بهدوء، وفي محادثات سرّية في البيت الأبيض مع السيدة ليندبرغ. على طلب المُساعدة لليهود الأبرياء في كل أنحاء البلاد الذين كانوا يدفعون بصورة مأساويّة ثمن السلوك الجائر للمُرشَّح المُرتدّ، المُحرِّض الذي يُشجِّع بسُخرية المواطنين الأميركيين الذين لم يشعروا البتّة بأنهم مُحاصَرون حتى يتشبّثوا بهمومهم القديمة، والمُعيقة. كان أنصار بنغلسدورف يُشكّلون زمرة مؤثِّرة تتكوَّن من الطبقة الأعلى الشديدة التجانُس من المجتمع اليهوديّ الألمانيّ. وعدد كبير منهم وُلِدوا أثرياء وكانوا من الجيل اليهوديّ الأول الذي انتسب إلى مدارس ثانوية للنُخبة وإلى كلّيات أيفي ليغ حيث امتزجوا، لأنَّ عددهم ضئيل جداً، مع غير اليهود، الذين اتحدوا معهم لاحقاً في مساع جماعيّة، وسياسيّة، وتجاريّة، وأحياناً بدوا أنهم مقبولون كأنداد. وبالنسبةً إلى اليهود المُميَّزين لم يكن

هناك أيّ شيء مُريب في البرامج التي وضعتها وكالة الحاخام بينغلسدورف لمُساعدة الفقراء واليهود الأقلّ ثقافة في تعلُّم العيش بتناغُم وتقارُب مع مسيحيّي الأمّة. والمؤسِف، حسب رأيهم، هو أنَّ يهوداً أمثالنا يستمرون في التكتُّل معاً في مدنٍ كنيوارك بدافع رِهاب الأجانب مُعزَّزٍ بضغوطٍ تاريخيّة لم يعُد لها وجود. والوضع الذي يُوجِده الامتياز الاقتصاديّ والمِهني يدفعهم إلى الاعتقاد بأنَّ المُفتقرين إلى المكانة المحترَمة يرفضهم المجتمع الأوسع بسبب العشائريّة المتعصّبة أكثر من رفضهم بسبب أيّة رغبة واضحة في التميُّز من جانب الغالبيّة المسيحيّة، وأنَّ أحياءً كأحيائنا لم تنشأ نتيجة التميز بل نتيجة أُسُسِها التربويّة. ولاحظوا، طبعاً، أنَّ هناك جيوباً من الرجعيين في أميركا ما زالت مُعاداة الساميّة الخبيثة هي أقوى صِفاتهم، وشغفهم الأشدّ، ولكنْ بدا أنّ هذا فقط سبب آخر توفّرَ لمدير مكتب الاستيعاب الأميركيّ لتشجيع اليهود الذين أعاقتهم قيود الوجود المُنعزِل على أنْ يسمحوا على الأقلّ لأولادهم بالانخراط في الحياة العامة الأميركيّة وأنْ يُثبتوا أنهم هناك لا يمثّلون صورة اليهوديّ التي يرسمها لهم أعداؤهم. والسبب في مقتِ أولئك اليهود الأثرياء، سكان المدينة، الواثقين من أنفسهم، مقتاً شديداً لوينتشل الذي يرسم لنفسه صورته الخاصّة، هو أنّه دعم عن سبق إصرار العِدائيّة التي تخيّلوا هم أنفسهم أنهم استرضوها بسلوكهم المثالي نحو زملائهم وأصدقائهم المسيحيين.

بالإضافة إلى الحاخام برينتز والعمدة السابق إلينشتاين، كان الأربعة المتبقّون من أعضاء اللجنة هم الزعيمة المدنية العجوز المسؤولة عن نجاح برامج أمركة الأطفال المُهاجرين في نظام التدريس في نيوارك – وزوجة كبير جرّاحي مستشفى بيت إسرائيل – جيني دانتزيس؛ ومدير المتجر المتنوِّع وابن مؤسِّس سينت بلوت وشركاه بالإضافة إلى كونه رئيس رابطة شارع برود للمرة العاشرة؛ ومالك العقارات الشهير والرئيس السابق لمؤتمر نيوارك للمؤسسات الخيريّة اليهوديّة، وزعيم الجالية مايكل ستافيتسكي؛ ورئيس الهيئة الطبّية في مستشفى بيت إسرائيل

الدكتور يوجين بارسونيت. واستبعاد زعيم عصابة نيوارك، لونغي زويلمان، عن الانضمام إلى جماعةٍ من اليهود المحلّيين بارزة كهذه لم يُدهِش أحداً، على الرغم من أنَّ لونغي كان رجلاً ثريّاً ذا نفوذٍ هائل ولا يقلّ تألُّماً عن الحاخام برينتز بسبب التهديد الذي شكّله المُعادون للساميّة الذين عرضوا، بذريعة استفزاز والتر وينتشل لهم، ما بدا للعديدين أنّه عرض مسرحيّ لأحد قرارات «المسألة اليهوديّة» التي أعدّها هنري فورد.

شرع لونغي بشكلٍ منفصل، بعيداً عن العديد من السلطات المدنيّة التي كانت قد وعدت الحاخام برينتز بتعاونها الكامل، يؤكّد أنّه إذا فشِلَتْ أو عندما تفشل شرطة نيوارك وقوات ولاية نيو جيرزي في أنْ تردَّ بنشاط يفوق ما أبدته الشرطة على الاضطرابات التي جرت في بوسطن وديترويت، لن يبقى يهود المدينة بلا حماية. وعُيِّنَ لونغي بوليت أبْفيلبوم الصديق الحميم المعروف في أرجاء المدينة بكونه ساعد لونغي الأيمن - الأخ الأكبر سناً لنيغي أبفيلبوم - لكي يُكمل العمل الجيد الذي تنجزه لجنة نيوارك للمواطنين اليهود المهتمّين بتجنيد الأطفال اليهود الأشدّاء الذين فشلوا في التخرُّج في المدرسة الثانوية وتدريبهم ليكونوا تجمُّعاً سريعاً لشرطة متطوعة تُسمّى الشرطة اليهوديّة المؤقّتة. وكان هؤلاء هم الفتية المحليين الذين لا يحملون أيّاً من المُثُل العُليا المزروعة فينا نحن الباقين، وبدأوا يُظهرون قدراً من التمرّد منذ الصف الخامس، ينفخون الواقيات الذكريّة في مرحاض المدرسة ويشتبكون في الملاكمة على متن الحافلة رقم 14 ويتصارعون حتى ينزفوا دماً على الرصيف الإسمنتيّ خارج دور السينما، الدور التي كان الآباء، خلال سنوات الدراسة، يمنعونهم من ارتيادها وقد أصبحوا الآن في عشرينيات أعمارهم وينهمكون في المقامرة وفي لعب البلياردو وغسل الأطباق في مطابخ مطاعم تقديم الأطعمة المُعلّبة في الحيّ. وكانوا معروفين بيننا بسحر ألقاب المجرمين القويّة التي يحملونها - ليو «الأس» نسْبوم، البراجم كيملمان، الضخم غاري شفارتز، بريتبارت الأبله، الدوق «المُقاتل» غليك - وبمستويات ذكاء منخفضة.

والآن تتمركز حفنة من فاشلي حيّنا عند ناصية كل شارع ثان، يبصقون بخبرة في المجرور من بين أسنانهم ويوزّعون إشاراتهم إلى الأمام والخلف بالصفير بإقحام أصابعهم عميقاً داخل أفواههم. كانوا هناك، الصلب والبليد والمتخلِّف عقليّاً، ومنحرفو اليهود يتسكعون في الشوارع كبحّارة في إجازة على الشاطئ يفتشون عن المتاعب. كانوا هناك، القِلّة البلهاء التي نشأنا على الشفقة عليها والخوف منها، خُرق العصور الحجريّة والأقزام المُضطربون ورافعو الأثقال المترنحون، المشؤومون، وأطفال صغار مثلي في جادة تشانسلر يطلبون منا أنْ نجعل مضارب البيسبول في المتناول في حال استُدعينا في الليل للخروج إلى الشوارع والذهاب إلى منظمة الشبيبة في الأمسيات وإلى ملاعب الكرة في أيام الأحد وإلى المتاجر المحليّة خلال أيام الأسبوع، وننتزع الأقوياء من بين رجال الحيّ البالغين لكي نجمع ثلاثة رجال من كل مبنى ونكوِّن كتيبة يمكن الاعتماد عليها في حالة الطوارئ. وقد جسّدوا كل ما هو فظ وخسيس وكان أهالينا يأملون في أنْ نتركه خلفنا، بالإضافة إلى طفولتهم الفقيرة، في قذارة «الجناح الثالث»، ومع ذلك ها هي شياطيننا ينهضون ليُصبحوا حُرّاسنا، وكل واحد منهم يحمل مُسدساً مشحوناً مربوطاً إلى ربلة ساقه، مسدساً مُستعاراً من مجموعة بوليت أبفيلبوم، الذي كان معروفاً لدى الجميع بأنّه كرّسَ حياته لبثّ الخوف بكل إخلاص في قلوب الناس باسم لونغي، فيهدّدهم، ويضربهم، ويُعذّبهم، ومن ثم - على الرغم من أنَّ بوليت لم يكن يُشاهَد إلّا وهو يرتدي بذلة من ثلاث قِطع مُزيَّنة بمنديل جيب من الحرير مطويّ بأناقة بلون ربطة عنقه ويعتمر قبعة بورسالينو غالية الثمن بزاوية مرحة لا تعلو إلّا بمقدار بضع بوصات فوق ما كان مُعترَفاً بأنّه تحديقٌ حقير لحُكم شديد القسوة للطبيعة الإنسانيّة، مُحاكاةً لرئيسٍ أخفّ وزناً بثلاثين رطلاً على الأقلّ وأطول قامة بمقدار قَدَم - يُنهي حياتهم بالنيابة عنهم، إذا أسعدَ هذا الرئيس.

إنَّ ما جعل موت والتر وينتشل يستحق التغطية الفوريّة على امتداد رقعة البلاد لم يكن فقط لأنَّ حملته الانتخابية غير التقليديّة فجّرتْ أسوأ أعمال شغب مُعادية للسامية شهدتها البلاد خارج ألمانيا النازيّة، بل لأنَّ اغتيال مُرشَّح عاديّ لمعركة الرئاسة كان سابقةً في أميركا. وعلى الرغم من أنَّ الرؤساء لينكولن وغارفيلد قد اغتيلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر واغتيل ماكنلي في بداية القرن العشرين، وعلى الرغم من أنَّ فرانكلين ديلانو روزفلت نجا في عام 1933 من محاولة اغتيال راح ضحيتها بدلاً عنه مؤيّده الديمقراطيّ عمدة شيكاغو غيرماك، فإنَّ حادث الاغتيال الثاني لمُرشّح رئاسي لم يقع إلّا بعد ست سنوات من اغتيال وينتشل - وكان السيناتور الديمقراطي عن ولاية نيويورك روبرت كينيدي، الذي تلقّى رصاصة قاتلة في رأسه بعد أنْ فاز في الانتخابات الأوليّة في ولاية كاليفورنيا لمصلحة حزبه في يوم الثلاثاء من شهر حزيران (يونيو)، عام 1968.

في يوم الإثنين، الخامس من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942، كنتُ في المنزل وحدي بعد عودتي من المدرسة وأستمع إلى راديو غرفة الجلوس إلى الجولات الأخيرة من المباراة الخامسة في لعبة البيسبول للسلسلة العالميّة بين فريقيّ الكاردينالز واليانكيز، وفجأة، في ذروة المباراة التاسعة، وعندما أوشك فريق الكاردينالز أنْ يُحقق ضربة التعادُل 2-2 - ويتقدّم في السلسلة بمعدل ثلاث مباريات مقابل واحدة - قُطِعَ بثّ المباريات المتوالية بصوت فائق الوضوح، وذي لَكْنة إنكليزيّة خفيفة صدر عن مُذيع نشرة أخبار نيوارك في أيام الراديو الأولى: «إننا نقطع بثّ هذا البرنامج لكي ننقل إليكم نبأً هاماً. لقد تلقّى المُرشّح الرئاسي والتر وينتشل رصاصة وقُتِل. نُكرِّر: إنَّ والتر وينتشل قد مات. اغتيلَ في لويسفيل، كينتكي، بينما كان يخطب في تظاهرة سياسيّة في العراء. وهذا كل ما عُرِفَ حتى الآن من لويسفيل عن حادث اغتيال المرشّح الرئاسي الديمقراطي والتر وينتشل. نعود الآن إلى برامجنا المعتادة».

كادت الساعة تبلغ الخامسة مساءً. كان والدي قد غادرَ تواً إلى السوق بشاحنة العم مونتي، وكانت أمي قد خرجت إلى جادة تشانسلر قبل ذلك ببضع دقائق لتشتري شيئاً نأكله على العشاء، وكان أخي صاحب العزم قد انطلقَ بحثاً عن مكان لقاء لكي يستأنف الإلحاح على إحدى فتيات ما بعد الدوام لتسمح له ببلوغ صدرها. وسمعتُ صراخاً آتياً من الشارع، ثم زعيقاً منبعثاً من منزلٍ مُجاور، لكنَّ المباراة استؤنِفَتْ وكانت الإثارة هائلة: ريد رفينغ يرمي للاعب القاعدة الثالث المبتدئ لفريق الكاردينالز ويتني كوروفسكي، ولاعب الكاردينالز المتلقّي وواكر كوبر على القاعدة الأولى بهدفه السادس في خمس مباريات، وفريق الكاردينالز لا يحتاج إلّا إلى هذا الانتصار ليفوز بالسلسلة. وكان روتزوتو قد لعب ضارباً راكضاً لمصلحة فريق اليانكيز، وصاحب اللقب العجيب إينوس السفّاح كان يلعب ضارباً راكضاً لمصلحة فريق الكاردينالز، وكما يُحبّ المُعجبون الصغار المُتكلّفون أنْ يُخبر أحدهم الآخر، كنتُ «أعلم» حتى قبل أنْ يرمي رفينغ ضربته الأولى أنَّ كوروفسكي يوشك أنْ يُسجل هدفه الثاني في الكاردينالز ويمنح فريق الكاردز انتصارهم الرابع الواضح بعد خسارة يوم الافتتاح. لم أقو على الانتظار ريثما أخرج وأهتف «كنتُ أعلم! لقد تنبّأتُ به! كوروفسكي كان مؤهّلاً!». ولكن عندما ضرب كوروفسكي وركض وانتهت المباراة كنتُ خارج الباب وأنطلقُ بأقصى سرعة في الزقاق، قابلتُ عنصرَين من الشرطة اليهوديّة - بيغ غاري وديوك غليك - كانا يركضان من أحد جانبيّ الشارع إلى الآخر لكي يقرعا الأبواب ويصرخا داخل الأروقة «لقد اغتالوا وينتشل! وينتشل مات!».

في تلك الأثناء هرع المزيد من الأولاد خارج منازلهم، مبتهجين بفعل إثارة مباريات السلسلة العالميّة. ولكن ما إن انطلقوا في الشارع يهتفون باسم كوروفسكي حتى بدأ بيغ غاري يزعق في وجوههم، «اذهبوا واحضروا مضاربكم! لقد بدأتِ الحرب!» ولم يقصِد بذلك الحرب على ألمانيا.

بحلول المساء لم تتبقَ عائلة يهوديّة واحدة في شارعنا لم تتحصّن بالمتاريس خلف أبواب بأقفال مُضاعَفة، وأجهزة الراديو مفتوحة على الدوام لتلقّي آخر الأخبار والجميع يتصلون هاتفيّاً ليُخبر أحدهم الآخر أنَّ وينتشل لم يقُل أيّ شيء يُهيِّج بأي قدر جمهور لويسفيل، وأنّه، في الحقيقة، بدأ خطابه بما لا يمكن إلّا أنْ يُعتبَر مناشدة لاحترام الذات المُتحضِّر - «يا سادة وسيدات لويسفيل، في كينتكي، أيّها المواطنون الأُباة في المدينة الأميركيّة الفريدة موطن أعظم سباق للخيل في العالم ومسقط رأس أول قاضٍ يهوديّ في محكمة الولايات المتّحدة العليا -» ومع ذلك وقبل أنْ يتمكّن من نُطق اسم لويس د. برانديس بصوت مرتفع، صرعته ثلاث رصاصات أصابته في خلفيّة رأسه. وفي تقريرٍ آخر، بُثَّ بعد ذلك بلحظات، تعرَّفَ على البقعة التي وقعتْ فيها الجريمة وكانت لا تبعد أكثر من بضع ياردات عن أحد أبنية البلديّة الأشد أناقة التي بُنيَتْ على الطراز اليوناني الجديد في كينتكي كلها، دار قضاء مقاطعة جيفرسون، بتمثال توماس جيفرسون المهيب الذي يواجه الشارع والدّرَج الطويل والعريض الذي يرتقي إلى الرواق المُعمَّد بفخامة. ويبدو أنَّ الطلقات التي قتلتْ وينتشل أُطلِقَتْ من إحدى النوافذ الأماميّة لدار القضاء الكبيرة، والكالحة، والمُقسَّمة بشكلٍ جميل.

بدأتْ أمي تُجري مُكالماتها الهاتفيّة الأولى فور عودتها من التسوُّق. كنتُ قد تمركزتُ عند الباب من الداخل لكي أُخبرها بأمر اغتيال والتر وينتشل حالما تلج المنزل، لكنها حينئذٍ كانت قد علِمَتْ تواً بالمعلومات القليلة المتوفّرة، أولاً لأنَّ زوجة اللحّام كانت قد اتّصلتْ بالمتجر لكي تُكرر ما ورد في نشرة الأخبار على مسمع زوجها في اللحظة التي كان يلفّ طلب أمي، ومن ثم بسبب الحيرة التي سادتْ بين الناس في الشارع، والذين كانوا قد بدأوا يهرعون طلباً لأمان بيوتهم. ولما فشلتُ في الاتصال بوالدي، الذي لم تكن شاحنته قد وصلتْ إلى السوق، بدأ القلق يتسرّبُ إليها على أخي، الذي كان يُنهي عمله من جديد وربما لم

يهرع مرتقياً الدَرَج إلّا بعد مرور بضع ثوان قبل أنْ يصل إلى طاولة المطبخ بعد أنْ غسل يديه من قذارة النهار ونظَّفَ وجهه من آثار أحمر الشِفاه. كان غيابهما أسوأ لحظة يمكن تصوّرها لكليهما وكذلك جهل مكانهما بدقّة، لكنَّ أمي قالت لي، من دون أنْ تنفق وقتاً في إفراغ البقاليّة أو في تقدير حجم خوفها، «أحضر لي الخريطة. أحضر خريطة أميركا التي لديك».

كانت هناك خريطة كبيرة مطويّة لقارة أميركا الشماليّة موضوعة في جيبٍ داخل المجلد الأول من موسوعة باعها لنا بائع جوّال في العام الذي انتسبت إلى المدرسة. هرعتُ إلى الصالون المُشمِس حيث تقع مكتبتنا كلها، مُرتّبة على رفوف تمتد من مساند كتب من النحاس على شكل جورج واشنطن اشتراها أبي من ماونت فيرنون: موسوعة من ستة أجزاء، ونسخة بغلاف من الجلد لدستور الولايات المتحدة كافأته بها شركة الضمان ميتروبوليتان لايف، وقاموس ويبستر غير المُختَصَر الذي كانت الخالة إيفلين قد أهدته لساندي في عيد مولده العاشر. فتحتُ الخريطة ونشرتُها على امتداد مفرش طاولة المطبخ المشمَّع، أخذت أمي تُفتِّش - مُستخدمة عدسة مُكبِّرة كنتُ قد تلقّيتُها هديّة من والديّ في عيد مولدي السابع بالإضافة إلى ألبومي من الطوابع الذي لا يُعوَّض ولا يُنسى - عن نقطة صغيرة تقع في شمال وسط كينتكي هي مدينة دانفيل.

في غضون لحظات فقط عدنا نحن الاثنين إلى طاولة الهاتف في الرواق، الذي عُلِّقَت جائزة أخرى من جوائز والديّ لنشاطه في بيع صكوك التأمين، وهي نسخة طبق الأصل عن إعلان الاستقلال على رقعة محفورة من النحاس. لم تكن خدمة الاتصال الهاتفي المحلّي ضمن حدود مقاطعة إسيكس يتجاوز عمرها عشر سنوات وربما ثُلث سكّان نيوارك لم يحصلوا بعد على خدمة هاتف - ومُعظم الذين حصلوا عليها كانوا، مثلنا، على خط جماعي[47] - وهكذا كانت المكالمة الخارجية ما

47- الخط الجماعي: هو خط هاتفي مفرد يربط عدداً من المشتركين بمركز توزيع الخدمة. - المترجم

تزال ظاهرة عجيبة، ليس فقط لأنّ إجراء تلك المكالمة كان أبعد ما يكون عن تجربة أي منزل عاديّ وعائلة بمواردنا بل لأنه لا يوجد تفسير تقنيّ، مهما كان أساسيّاً، يمكن أنْ يزيلها بالكامل من عالم السِحر.

تكلَّمت أمي مع عامل الهاتف بدقّة متناهية لتتيقّن من عدم وقوع أي خطأ وأنّه لم تُفرَض علينا أيّة زيادة في التكاليف. «أريد أنْ أُجري مكالمة خارجيّة شخصيّة، أيها العامل. إلى مدينة دانفيل، في كينتكي. مكالمة شخصيّة مع السيدة سالما ويشناو. وأرجوك، أيها العامل، لا تنس أنْ تُخبرني عندما تنتهي فترة الدقائق الثلاث».

سادت فترة صمت طويلة في أثناء حصول العامل على الرقم المطلوب من العامل الأساسي. وعندما سمعتْ أمي أخيراً أنَّ المكالمة قد بدأتْ، أشارتْ إليّ كي أضع أُذُني بجوار أُذنها ولكن من دون أنْ أتكلَّم.

أجاب سيلدون بحماسه «ألو!».

العامل: «هذه مكالمة خارجيّة. لديّ مكالمة شخصيّة للسيدة سالما ويستفول».

تمتمَ سيلدون «أ–هاه».

«أأنت السيدة ويستفول؟».

«ألو! أمي ليست في المنزل الآن».

العامل: «لديّ مكالمة للسيدة سالما ويستفول –».

هتفتْ أمي تُصحِّح «ويشناو. ***ويش–ناو***».

قال سيلدون «مَنْ هذا؟ مَنْ المُتّصل؟».

العامل: «أيتّها الفتاة، هل أمّك في المنزل؟».

قال سيلدون، وقد بوغت. «أنا صبي». ها قد تلقّى ضربة أخرى. والضربات تتوالى. لكنّ صوته بدا كأنه لفتاة، صوته أعلى نبرة حتى مما كان وهو يسكن في الطابق السُفليّ. قال سيلدون «أمي لم تعُد من العمل بعد».

العامل: «السيدة ويشناو ليست في المنزل، مدام».

نظرتْ أمي إليّ وقالت «ماذا يمكن أنْ يكون قد حدث؟ إنَّ الفتى وحده. أين يمكن أنْ تكون؟ إنّه وحده. أيّها العامل، سوف أتحدث مع أي شخص».

العامل: «هيا، يا سيدي».

سأل سيلدون «مَن يتكلَّم؟».

«سيلدون، إنها أنا السيدة روث. من نيوارك».

«السيدة روث؟».

«نعم. أنا أتّصل بمكالمة خارجية لأتحدث مع أمك».

«من نيوارك؟».

«أنتَ تعلم مَنْ أكون».

«ولكن يبدو كأنكِ تتكلمين من الشارع».

«في الواقع، هذا صحيح. هذه مكالمة خارجيّة. سيلدون، أين أمّك؟».

«إنني أتناول وجبة خفيفة. وأنا في انتظار عودتها إلى المنزل من العمل. إنني أتناول تين نيوتنز. وأشرب بعضِ الحليب».

«سيلدون -».

«أنا في انتظار عودتها إلى المنزل من العمل - إنها تعمل حتى وقت متأخّر. دائماً تعمل حتى وقتٍ متأخّر. وأنا جالسٌ هنا. أحياناً أتناول وجبة خفيفة -».

«سيلدون، اسكتْ. اهدأ قليلاً».

«ثم تعود إلى المنزل وتُعدّ العشاء. لكنّها تتأخّر في العودة في كل ليلة».

هنا التفتتْ أمي إليّ وهي تمد يدها نحوي بسمّاعة الهاتف. «تكلَّم معه. إنّه لا يُصغي إلى ما أقول».

قلتُ، وأنا ألوح مُبعِداً السماعة عني، «أُكلّمه عن ماذا؟».

سألَ سيلدون «هل فيليب معك؟».

قات أمي «انتظر لحظة، يا سيلدون».

كرّر سيلدون «هل فيليب معك؟».

قالت أمي لي «أمسك السماعة، أرجوك».

سألتُ «ولكن ماذا يُفترَض أنْ أقول؟».

«فقط تكلَّم في الهاتف»، وتضع السمّاعة في إحدى يديّ وترفع فوهة التكلُّم نحوي لكي أحملها بالأخرى.

قلت «ألو، سيلدون».

أجاب، متردّداً قليلاً، غير مُصدِّق، «فيليب؟».

«نعم. مرحبا، سيلدون».

«مرحبا، أتعلم أنّه ليس لديّ أصدقاء في المدرسة».

قلت له «نريد أنْ نتحدث مع أمّك».

«أمي في العمل. إنها تعمل حتى وقت متأخّر في كل ليلة. إنني أتناول وجبة خفيفة. أتناول بعضاً من تين نيوتنز وأشرب كوباً من الحليب. يوم عيد مولدي سيحلّ بعد أسبوع وقالتْ أمي إنّه يمكنني أنْ أُقيم حفلة -».

«سيلدون، انتظر لحظة».

«ولكن ليس لديّ أي أصدقاء».

«سيلدون، يجب أنْ أسأل أمي سؤالاً. انتظر قليلاً». أغلقتُ فوهة التكلُّم وهمستُ لها «ماذا يُفترَض أنْ أقول له؟».

همستْ أمي «اسأله إنْ كان يعلم بما حدث اليوم في لويسفيل».

«سيلدون، أمي تريد أنْ تعرف إنْ كنتَ تعلم ماذا حدث هذا اليوم في لويسفيل».

«أنا أُقيم في دانفيل. أنا أعيش في دانفيل، كينتكي، وأنا في انتظار عودة أمي إلى المنزل. إنني أتناول وجبة خفيفة. هل وقع حادث في لويسفيل؟».

قلت «انتظر لحظة، سيلدون»، وهمستُ لأمي «والآن ماذا أقول؟».

«فقط تحدَّثْ معه، أرجوك. واصل الكلام معه، وإذا قال عامل الهاتف إنَّ الدقائق الثلاث قد انقضتْ، أخبرني».

سأل سيلدون «لماذا تتّصل؟ هل ستقوم بزيارتنا؟».

«كلا».

قال «أتتذكّر عندما أنقذتُ حياتك؟».

«نعم، طبعاً، أتذكَّر».

«هيه، ما هو الوقت عندكم؟ هل أنت في نيوارك؟ هل أنتَ في جادة صنسيتْ؟».

«لقد أخبرناك بأننا كذلك. نعم».

«أمرٌ رائع، أليس كذلك؟ وكأنك في أسفل الحيّ. أتمنى أنْ تأتي إلى هنا وتتناول وجبة خفيفة معي، حينئذٍ يمكنك أنْ تحضر حفلة عيد مولدي في الأسبوع القادم. ليس لدي أصدقاء لأدعوهم إلى حفلة عيد مولدي. ليس لديّ مَنْ ألعب معه الشطرنج. إنني أجلسُ هنا الآن أقوم بخطوتي الافتتاحيّة. أتتذكّر خطوتي الافتتاحيّة؟ إنني أُحرِّكُ البيدق الموجود أمام الملك مباشرة. أتتذكر عندما حاولتُ أنْ أُعلِّمك؟ حرَّكتُ بيدق الملك، أتتذكّر؟ ثم حرّكتُ الفيل، ثم حرّكتُ الحصان، ثم الحصان الثاني – وهل تتذكّر الحركة التي قمتُ بها عندما لم تكن هناك أيّة قطعة بين الملك والقلعة؟ وعندما حرّكتُ ملكي مساحة خانتين لكي أحميه؟».

«سيلدون –».

همستْ أمي «أخبره بأنك تشتاقُ إليه».

قلتُ لها «ماما!».

«أخبره، فيليب».

«اشتقتُ إليك، سيلدون».

«إذن ستأتي إلى هنا لنتناول وجبة خفيفة؟ أعني أنَّ هذا يبدو - أحقاً أنت في الشارع؟».

«كلا، هذه مكالمة خارجيّة».

«كم الساعة عندكم؟».

«إنها، أه – حوالي السادسة إلّا عشر دقائق».

«أوه، إنها السادسة إلّا عشر دقائق هنا. كان ينبغي أنْ تعود أمي إلى المنزل عند حوالي الساعة الخامسة. أو الخامسة والنصف كحدّ أقصى. ذات ليلة عادت إلى المنزل في الساعة *التاسعة*».

قلتُ «سيلدون، أتعلم أنَّ والتر وينتشل قد قُتِل؟».

سألَ «ومَنْ يكون؟».

«دعني أُنهي كلامي. لقد قُتِلَ والتر وينتشل في لويسفيل - كينتكي. في الولاية التي أنتَ فيها. هذا اليوم».

«يؤسفني سماع هذا. مَنْ يكون؟».

عامل الهاتف: «الدقائق الثلاث الخاصة بك انقضتْ، يا سيدي».

سأل سيلدون «أهذا عمّك؟ أهذا عمّك الذي جاء لزيارتكم؟ هل مات؟».

قلت «كلا، كلا»، وفكّرتُ في نفسي، إنّه هناك في كينتكي، ويبدو كأنّه هو الذي تلقّى ضربة على رأسه. يبدو مذهولاً. مُعاقاً. يبدو مكتوماً. ومع ذلك كان التلميذ الأشدّ ذكاءً في صفّنا.

أخذتْ أمي السمّاعة من يدي. «سيلدون، أنا السيدة روث. أريد منكَ أنْ تدوِّن شيئاً».

«حسنٌ، سأُحضِر ورقة. وقلم رصاص».

وانتظار. انتظار. قالت أمي «سيلدون».

المزيد من الانتظار.

قال «حسن».

«سيلدون، اكتب ما يلي. إنَّ هذا يُكلِّفُ الكثير من النقود».

«أنا آسف، سيدة روث. لكنّني لم أجد قلم رصاص في المنزل. كنتُ أجلس على طاولة المطبخ. كنتُ أتناول وجبة خفيفة».

«سيلدون، اكتب أنَّ السيدة روث -».

«حسن».

«- اتّصلتْ من نيوارك».

«من نيوارك. يا إلهي. ليتني كنتُ لا أزال في نيوارك، وأعيشُ في الطابق السُفلي. كما تعلمين، لقد أنقذتُ حياة فيليب».

«اتّصلتِ السيدة روث من نيوارك لكي تطمئن -».

«لحظة من فضلك. أنا أكتب».

«- لكي تطمئن على أنَّ كل شيء بخير».

«هل من المُفتَرَض أنْ يكون هناك خطبٌ ما؟ أعني أنَّ فيليب بخير. هل أنتِ بخير. هل السيد روث بخير؟».

«نعم، شكراً على سؤالك، يا سيلدون. أخبر أمّك أنَّ هذا هو سبب اتّصالي. لا شيء يستدعي القلق هنا».

«هل ينبغي أنْ أقلق بشأن شيءٍ ما؟».

«كلا. فقط أكمل تناول وجبتك الخفيفة -».

«أعتقد أنّني اكتفيتُ من أكل تين نيوتنز الآن، ولكن شكراً على أيّة حال».

«وداعاً، سيلدون».

«لكنني أحبّ تين نيوتنز».

«وداعاً، سيلدون».

«سيدة روث؟».

«نعم؟».

«هل سيأتي فيليب لزيارتي؟ عيد مولدي يحين في الأسبوع القادم وليس لديّ مَنْ أدعوه إلى حفلة عيد مولدي. ليس لدي أيّ صديق في دانفيل. الأولاد هنا يُلقّبونني بـ سالتين. أنا مُضطر إلى لعب الشطرنج مع ولد يبلغ من العمر ست سنوات. جارنا. وهو الوحيد الذي أستطيع أنْ ألعب معه. ولد واحد. لقد علّمته لعب الشطرنج. أحياناً يقوم بالخطوات الخطأ. أو يُحركُ الوزير وأُضطر إلى أنْ أنبّهه إلى الخطأ. وأنا أربح دائماً والأمر ليس ممتعاً. ولكن ليس لديّ شخص آخر ألعب معه».

«سيلدون، الوضع صعبٌ على الجميع. أصبح صعباً على الجميع الآن. وداعاً، سيلدون»، وأعادتِ السماعة إلى موقعها وطفقتْ تجهشُ بالبكاء.

فقط قبل أيامٍ قليلة، في الأول من شهر تشرين الأول (أكتوبر) الشقّتان اللتان كانتا قد شَغرتا في جادة سميت في شهر أيلول (سبتمبر) على يد أصحاب «هومستيد 1942» - تلك التي تقع تحت شقّتنا وأخرى تقع على الطرف المقابل من الشارع، في مكان قريب - شغلتهما عائلات إيطاليّة من حيّ «الجناح الأول». في الأساس مسكنهم الجديد مُنِحَ لهم بإشراف حكومي مُباشَر، ولكن مع تخفيض مُحفِّز في الإيجار بنسبة خمسة عشر بالمئة (أو 6.37$ على الإيجار الشهري 42.50$) وعلى مدى خمس سنوات، ويجب دفع المبلغ مباشرة إلى صاحب المُلك عبر وزارة الداخليّة طوال فترة عقد إيجار لثلاث سنوات وعلى مدى العامين الأوّلين من عقدٍ مدّته ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وهذه الإجراءات استُمِدَّتْ من مقطعٍ لم يُنشَر من قبل من خطة هومستيد تُسمّى مشروع الجار الطيب، أُعدَّتْ من أجل إدخال عدد يزداد باطراد من السكان غير اليهود إلى الأحياء ذات الغالبيّة اليهوديّة وبتلك الطريقة «تُثرى» «الهويّة الأميركيّة» لكل الموجودين. لكنَّ ما يسمعه المرء في المنزل - وأحياناً حتى في

المدرسة من أساتذتنا - هو أنَّ الهدف الضمنيّ من مشروع الجار الطيب، على غرار الهدف من برنامج «أناس عاديون»، كان إضعاف تضامُن البُنية الاجتماعيّة اليهوديَّة بالإضافة إلى تدمير القوة الانتخابيّة التي يمتلكها المجتمع اليهودي في الانتخابات المحليّة وانتخابات مجلس الشيوخ. وإذا سار ترحيل عائلات يهوديّة وفرض عائلات غير يهوديّة وفق جدول الخطة الكبرى التي وضعتها الوكالة، فقد تُهيمن الغالبيّة المسيحيّة على الأقلّ على نصف الأحياء العشرين ذات الكثّافة اليهوديّة العالية في وقت قريب لا يتجاوز بداية فترة ولاية ليندبرغ الثانية واقتراب إيجاد حلّ للمسألة اليهوديّة الأميركيّة، بوسيلة أو بأخرى.

العائلة المفروضة للانتقال إلى الطابق السفلي منا - وتتألّف من أم، وأب، وابن، وجدَّة - كانت عائلة كوكوتزا. ولما كان والدي قد تجوّل مطوّلاً في أرجاء منطقة «الجناح الأول» على مدى سنين، حيث كان الزبائن الذين يجمع منهم أقساط التأمين الضئيلة في كل شهر في معظمهم من الإيطاليين، فهو يعرف أصلاً السكان الجُدُد، وبالتالي، عندما عاد إلى المنزل من العمل في صباح اليوم التالي الذي شحن السيد كوكوتزا، الذي يعمل حارساً ليليّاً، أمتعة العائلة من شقّتهم ذات الماء البارد الكائنة في مبنى سكنيّ في شارعٍ فرعيّ ليس بعيداً عن مقبرة الضريح المقدّس، توقف والدي أولاً أمام باب الطابق السُفليّ ليرى إنْ كانت الجدَّة العجوز، على الرغم من ظهوره هناك من دون معطف أو ربطة عنق وبيدين قذرتين، ستتعرَّفُ عليه بوصفه موظف شركة التأمين الذي باع زوجها بوليصة تأمين زوّدت العائلة بالمال اللازم لدفنه.

كان آل كوكوتزا «الآخرون» (الذين يمتّون بصِلة قُربى إلى «أصحابنا» آل كوكوتزا، الذين انتقلوا من شقّتهم ذات الماء البارد في حيّ «الجناح الأول» إلى منزل قريب) عائلة أكبر حجماً بكثير - تتألّف من ثلاثة أبناء، وابنة، والأبوين، والجدّ - ومن المُحتَمَل أنْ يكونوا جيراناً أكثر صخباً، وتشتّتاً. وارتبطوا بعلاقة صداقة عبر الجَدّ والأب بريتشي «الحذاء»

بويادرو، عضو العصابة الذي كان يُهيمن على المناطق الإيطاليّة من نيوارك وكان المُنافِس الحقيقي الوحيد في المدينة لاحتكار لونغي للعالم السُفليّ. والحقيقة، لم يكن الأب، تومي، أكثر من واحد من سربٍ من التابعين، وكما فعل والده من قبل، كان يحلّ محل نادل في المطعم الشعبي الذي يملكه بويادرو، في قلعة فيتوريو، عندما كان يوزّع المشروبات في الحانات، ومحلات الحلاقة، والمواخير، وأفنية المدارس، ومحلات بيع الحلوى في أحياء «الجناح الثالث» الفقيرة لكي ينتزع من أجلهم المبالغ الزهيدة من الزنوج الذين كانوا يلعبون القمار يوميّاً. وبغضّ النظر عن الدين، لم يكن آل كوكوتزا الآخرون جيراناً من النوع الذي يرغبُ والداي في أنْ يتّصل به ولداهما الغضّان، ولكي يواسينا والدي على مائدة الإفطار في صباح يوم الأحد شرح كم كان حالنا سيكون أسوأ لو أنَّ جيراننا كانوا المُقامِر وأولاده الثلاثة بدل الحارس الليليّ وابنه، جوي، ذي الأحد عشر عاماً، الذي انتسب حديثاً إلى مدرسة القديس بطرس والطفل المُهذَّب، حسب تقرير والدي، ويُعاني من مشكلة في السَمَع ولا تجمعه مع أقاربه الأقوياء أيّة صِفات مشتركة. وفي حين أنَّ أطفال تومي كوكوتزا الأربعة قد التحقوا في «الجناح الأول» بالمدرسة الحكوميّة المحليّة، فإنهم هنا التحقوا مع جوي بمدرسة القديس بطرس وليس بمدرسة حكوميّة كمدرستنا، تمتلئ بيهودٍ صِغار أذكياء.

بعد أنْ غادر والدي مركز عمله بعد اغتيال وينتشل ببضع ساعات، وعاد إلى المنزل، على الرغم من اعتراضات العم مونتي الغاضبة، ليقضي ما تبقّى من تلك الأمسية بأجوائها المتوتّرة بجوار زوجته وولديه، وفي أثناء جلوسنا نحن الأربعة على طاولة المطبخ في انتظار أنْ يمدّنا الراديو بأنباء جديدة إذا بالسيد كوكوتزا وجوي يرتقيان الدَرَج الخلفي في زيارةٍ لنا. قرعا الباب ومن ثم اضطرا إلى الانتظار على العتبة إلى أنْ تيقّن والدي من هويّتهما.

كان السيد كوكوتزا رجلاً أصلع، ضخم الجثّة، بطول ستة أقدام ونصف، ويزيد وزنه على مئتين وخمسين رطلاً، ويرتدي زي الحارس الليليّ الرسمي استعداداً للتوجه إلى العمل، وقميصاً أزرقَ قاتماً، وبنطلوناً أزرقَ قاتماً كُوِيَ حديثاً، ويضع حزاماً أسود عريضاً كان، بالإضافة إلى أنّه يُثبِّت البنطلون، يدعم وزناً كبيراً من أعجب مجموعة من المعدّاتْ كانت في متناول يدي. فهناك حزم كبيرة من المفاتيح كلٌ منها بحجم قنبلة يدويّة تتدلّى من جانبيّ جيبيّ البنطلون، وأصفاد حقيقيّة، وساعة خاصة بالحارس الليليّ داخل علبتها السوداء تتدلّى بشريط جلديّ من إبزيم الحزام المصقول. عند النظرة الأولى، حسبتُ خطأً أنّ الساعة هي قنبلة، ولكن لم يكن هناك أي مجال للخطأ فيما يخص المسدَّس في جرابه عند خصره. ومصباح يد طويل كان يمكن أنْ يكون مقروناً بهراوة مكسوّة بالجلد كان يبرز إلى أعلى من جيبه الخلفيّ، وعلى أعلى أحد كُمّي قميص العمل المُنشّى كانت رقعة بيضاء مُثلّثة الشكل مكتوب عليها بأحرفٍ زرقاء «حارس خاص».

جوي أيضاً كان ضخماً – الفرق هو أنّه كان يكبرني بعامَين ووزنه يبلغ ضعف وزني – وبالنسبة إليّ كانت المُعدّات التي يحملها لا تقلّ سِحراً عن مُعدّات والده، وبدا أنَ كتلة كبيرة من قوالب العلكة تسدّ ثقباً في أُذنه اليُمنى كانت أداة تساعده على السمع مُثبّتة بسلك رفيع بعلبة سوداء مُدوّرة عليها قرص للأرقام يُعلّقها من جيب قميصه: وثمة سلك آخر موصول ببطارية بحجم ولّاعة سجائر كبيرة يحملها معه في جيب بنطلونه. ويحمل بيديه كعكة، هديّة من أمّه إلى أمي.

كانت هدية جوي كعكة، وهدية السيد كوكوتزا كانت مُسدّساً. كان يمتلك اثنين، واحد يحمله لزوم العمل والآخر كان يُخبِّئه في المنزل. وقد جاء لكي يمنح والدي ذلك الفائض.

قال والدي له «هذا لطفٌ منك، لكنني في الحقيقة لا أُحسِن إطلاق النار».

«يكفي أنْ تضغط على الزناد». كان للسيد كوكوتزا صوت ناعم بصورة مُدهِشة بالنسبة إلى شخصٍ ضخم الجثّة، ولكنّه يتّسم بنبرة خشنة، وكأنّه تعرَّضَ طويلاً لتقلّبات الأحوال الجويّة خلال الساعات التي يتمشّى بها على إيقاع الحارس الليليّ. وكانت لكنته ممتعة للسمع إلى درجة أنني وأنا وحدي كنتُ أحياناً أحاكي أسلوبه في الكلام. كم من مرة تسلّيتُ بالقول بصوتٍ مرتفع «اضغط الزناد»؟ وباستثناء والدة جوي ذات الأصل الأميركيّ، كان لأصحابنا آل كوكوتزا نبرات أصوات غريبة، والجدَّة ذات السبلتين كانت الأشدّ غرابة، أشدّ غرابة حتى من صوت جوي، الذي كان صوته أقرب إلى صدى صوت ثابت. وغرابتها لم تكمن فقط في كونها لا تتكلَّم إلّا الإيطاليّة، سواء مع الآخرين (بمَنْ فيهم أنا) أو مع نفسها وهي تكنس الدَرَج الخلفيّ أو وهي تركع على التراب لتزرع الخضروات في فناء بيتنا الصغير الخلفيّ أو فقط وهي واقفة تتمتم عند ممر الباب المُظلِم، كان صوتها هو الأشد غرابة لأنه بدا أشبه بصوت رجل - كانت تبدو أشبه برجل عجوز ضئيل برداء أسود طويل وصوتها أيضاً كان يوحي بذلك، خاصة عندما تجأر مُصدرة أوامرها وقراراتها ووصاياها التي لم يكن جوي يجرؤ على عصيانها. والنصف اللاهي منه، الروح التي لا ترى الراهبات والقساوسة ما يكفي منها لتخليصها، هي كل ما كنتُ أقابله عندما ننفرد معاً. والسبب في عدم شعوري بالكثير من الرثاء على عدم مقدرته على السماع يعود إلى أنَّ جوي كان فتى مرحاً جداً، ومزوحاً، بضحكه الساخر، وثرثرته، وفضوله، فتى ساذجاً إلى أقصى مدى يتحرّك عقله بسرعة إذا لم أقُل بصورة مُفاجئة. كان الإحساس بالشفقة عليه صعباً، ومع ذلك في حضور عائلته كانت طاعة جوي كاملة بصورة مؤلِمة إلى درجة أنني كنتُ أجد أنَّ من المُدهِش التفكير فيها كما التفكير في تمرُّد شوشي مارغوليس الكامل. ولم يكن في الإمكان وجود ابن أفضل منه في الوسط الإيطالي في نيوارك، ولهذا سرعان ما وجدت أمي أنّه لا يُقاوَم - بسبب طاعته الكاملة كابن ورموش عينيه السوداء الطويلة، والطريقة المتوسّلة التي

ينظر بها إلى البالغين، في انتظار تلقّي أوامرهم، سمحتْ لها بالتخلّي عن ترفّعها القلِق الذي كان خط دفاعها الداخليّ ضد غير اليهود. لكنَّ الجدّة التي تنتمي إلى البلد القديم سبّبتْ لها - ولي - التوتُّر العصبيّ.

شرح السيد كوكوتزا لوالدي، مُستعيناً بإحدى أصابعه والسبّابة، قال «تُسدِّد، وتُطلق النار. تُسدِّد وتُطلق النار وهذا كل شيء».

قال والدي «لا أحتاج إليه».

قال السيد كوكوتزا «وإذا جاؤوا، كيف ستحمي نفسك؟».

قال والدي «كوكوتزا، أنا وُلِدتُ في مدينة نيوارك في العام ألف وتسعمئة وواحد، وطوال حياتي وأنا أُسدِّد أجرة المنزل في موعدها، وأدفع ضرائبي في موعدها، وسدّدتُ قيمة فواتيري في موعدها. ولم أغشّ أي مُستخدِم ولا بمقدار قرش واحد. لم أحاول قط أنْ أغشّ حكومة الولايات المتحدة. إنني أؤمن بهذا البلد. وأحبّ هذا البلد».

قال جارنا الجديد الضخم من الطابق السُفلي، الذي ربما كانت تتدلّى من حزامه الأسود العريض رؤوسٌ منكمشة، إذا أخذت بعين الاعتبار السِحر الذي كان يُلقيه عليّ، «أنا أيضاً، أنا أتيتُ إلى هنا وأنا في العاشرة. إنّه أفضل مكان في العالم. هنا لا يوجد موسوليني».

«يسعدني أنْ يكون هذا شعورك، يا كوكوتزا. إنها مأساة إيطاليا، إنّها مأساة إنسانيّة بالنسبة إلى أناس مثلك».

«إنَّ موسوليني، وهتلر - يُثيران اشمئزازي».

قال له والدي «أتعلم ماذا أحبّ، يا كوكوتزا؟ يوم الانتخاب. احبّ أنْ أنتخب. وبما أنني متقدم في السن بقدر كافٍ، لم يفُتني أي انتخاب. في عام 1924 صوّتُ ضد السيد كوليدج ولمصلحة السيد ديفيز، فربح السيد كوليدج. وكلنا نعلم ما أنجزه كوليدج من أجل فقراء هذا البلد. وفي عام 1928 صوّتُ ضد السيد هوفر ولمصلحة السيد سميث، وربح السيد هوفر. وكلنا نعلم ماذا أنجزَ من أجل فقراء هذا البلد. وفي عام

1932 صوّتُّ ضد السيد هوفر للمرة الثانية ولمصلحة السيد روزفلت للمرة الأولى، وشكراً لله فاز السيد روزفلت، وأعاد أميركا إلى الوقوف على قدميها. لقد أخرج هذا البلد من الكساد الاقتصادي ومنح الناس ما وعدهم به - صفقة جيدة. وفي عام 1936 صوّتُ ضد السيد لاندون ولمصلحة السيد روزفلت، ومن جديد فاز السيد روزفلت - ولم يتمكّن لاندون من الفوز في أكثر من ولايتيّ مين وفيرمونت. لم يتمكّن حتى من الفوز في كينساس. واجتاح السيد روزفلت البلد بأوسع تصويت لمنصب الرئاسة حصل حتى الآن، ومن جديد أوفى بكل وعد قطَعه للطبقة العاملة في تلك الحملة. فماذا فعل المُصوّتون في انتخابات عام ألف وتسعمئة وأربعين؟ لقد صوّتوا للفاشيّ بدلاً عنه. وهو ليس أحمق ككوليدج فقط، وليس أبله كهوفر فقط، بل فاشيّ قلباً وقالباً ويحمل أيضاً ميداليّة تُثبتُ ذلك. لقد نصّبوا فاشيّاً وعيَّنوا مُحرِّضاً فاشيّاً، اسمه السيد ويلر، صديقه الحميم، وجعلوا السيد فورد رئيس وزراء، وهو ليس مُعادياً للساميّة مع هتلر فقط، بل ومُراقب رقيق أيضاً حوَّلَ الرجل العامل إلى آلة إنسانيّة. وها أنت هذه الليلة تأتي إليّ في بيتي، يا سيدي، وتُقدِّم إليّ مسدساً. في أميركا عام ألف وتسعمئة واثنين وأربعين، يأتيني جارٌ جديد، لم يُتح لي حتى أنْ أعرفه ويُقدِّم إليّ مسدساً لكي أحمي عائلتي من رعاع السيد ليندبرغ المُعادين للساميّة. حسن، لا تظنّ أنني جاحد، يا كوكوتزا. لن أنسى اهتمامك. لكنني مواطنٌ في الولايات المتحدة الأميركيّة، وكذلك زوجتي، وكذلك ولداي»، قال هذا بصوتٍ آسر، «وكذلك كان السيد والتر وينتشل -».

وفجأة، هناك أخبار عن والتر وينتشل. قال والـدي «هسسس! هسسسس!» وكأنَّ في المطبخ شخصاً آخر غيره يتكلَّم. وأصغينا جميعاً - حتى جوي بدا أنّه يُصغي - كما يُهاجر سربٌ من الطيور ويسبح السمك في مدرسة.

كان جثمان والتر وينتشل، الذي اغتيلَ في ذلك اليوم في أثناء تظاهرة

سياسيّة في لويسفيل، كينتكي، على يد قاتل مُشتبه من الحزب النازي الأميركيّ يعمل بالتعاون مع عصابة كو كلوكس كلان، سيُنقل خلال الليل على متن قطار من لويسفيل إلى محطة بنسلفانيا في مدينة نيويورك. وهناك، بأمرٍ من العمدة فيوريللو لا غوارديا وتحت حماية شرطة مدينة نيويورك، سوف يُسجّى الجثمان باحترام في القاعة الكبرى من محطة القطار طوال فترة الصباح. وتبعاً للتقاليد اليهوديّة، سوف تتمّ الجنازة في ذلك اليوم، عند الساعة الثانية بعد الظهيرة في معبد إمانو-إل، في أكبر كنيس يهودي في نيويورك. وسوف تبثّ شبكة إذاعة الخطابات العامة مراسم الجنازة إلى خارج المعبد إلى تجمُّع من المُعزّين في الجادّة الخامسة يُتوقَّع أنْ يبلغ عددهم عشرات الآلافِ. وإلى جانب العمدة لا غوارديا، سوف يتضمّن الخُطباء السيناتور الديمقراطيّ جيمس ميد، وحاكم نيويورك اليهوديّ، هربرت ليمان، والرئيس السابق للولايات المتحدة، فرانكلين د. روزفلت.

هتف والدي «لقد حصل! لقد عاد! فرانكلين ديلانو روزفلت عاد!».

قال السيد كوكوتزا «نحن في حاجة ماسّة إليه».

سألَ «يا ولديّ، هل تفهمان ما الذي يجري؟»، وهنا أحاطني أنا وساندي بذراعيه، «إنّها بداية نهاية الفاشيّة في أميركا! لن يوجد موسولينيّ هنا، يا كوكوتزا - لن يكون هنا أي موسوليني!».

-8-

تشرين الأول (أكتوبر) 1942

أيامٌ سوداء

في الليلة التالية ظهر ألفن في منزلنا، يقود سيارة بويك جديدة خضراء مع خطيبةٍ اسمها مينا شاب. وكلمة «خطيبة» كانت دائماً تهزّني لدى سماعها وأنا طفل. كانت تجعل المرأة كائناً مَنْ كانت تبدو شخصاً مُميَّزاً - ثم ظهرتْ وكانت مجرد فتاة من النوع الذي عندما تُقابل العائلة تخشى أنْ تقول شيئاً خاطئاً. على أيّة حال، الشخصيّة المُميَّزة هنا لم تكن زوجة المُستقبل بل حمو المُستقبل، عاقد الصفقات البارع المُستعد لإنقاذ ألفن من مجال آلات لعب القمار - حيث كان نسيبي، يُعاونه رجلان قويّان في رفع الحمولة وفي إبعاد الأشرار، يعمل على شحن وتركيب آليّات غير قانونيّة - ويرتدي بذلة من الحرير خيطَتْ يدويّاً في هونغ كونغ وقميصاً أبيض مكتوباً عليه بالأبيض عبارة مطعم أتلانتيك سيتي. وعلى الرغم من أنَّ السيد شاب كان هو نفسه قد بدأ مسيرته في العشرينيات باسم بينْبول بيللي شابيرو، كمحتالٍ تافه مرتبط بأسوأ الأحياء سُمعة بدءاً بسلسلة المنازل المتهدّمة في أشدّ الشوارع عنفاً من مناطق فيلادلفيا الجنوبيّة القاحلة - من بينهم عم شوشي ماغوليس - فمع حلول عام 1942 كان عائد آلات لعب القمار يرتفع حتى خمسة عشر ألف دولار غير مُعلنة في الأسبوع، وعاد بينبول بيللي إلى الظهور باسم وليم ف. شاب الثاني،

كعضو محترم جداً في نادي غرين فالي الريفيّ، وفي المنظّمة الأخويّة اليهوديّة بريث أخيم (كان في ليالي أيام السبت يُرافق زوجته الحيويّة وهي تضع مجوهراتها الضخمة لكي يرقصا على إيقاع موسيقى جاكي جيكوبس وفرقته جولي جازرز)، وفي كنيس هار صهيون (واشترى بوساطة جمعية دفن الموتى فيها قطعة أرض لعائلة في زاوية جميلة قرب مقبرة الكنيس)، بالإضافة إلى ظهوره بشخصيّة مهراجا صاحب القصر المؤلَّف من ثماني عشرة غرفة في ضاحية ميريون وفي الشتاء يشغل حلم فتى فقير في شقة فوق السطح تُحجَز كل عام من أجله في ميامي بيتش إيدن روك.

في سن الواحدة والثلاثين، كانت مينا تكبر ألفن بثماني سنوات، امرأة ذات بشرة ناعمة يبدو أنّه يمكن إخافتها بالأوامر وعندما تتجرّأ على الكلام بصوتها الشبيه بصوت طفلة، فإنها تنطق كل كلمة وكأنها تعلَّمتْ تواً قراءة توقيت الساعة. كان كل شيء فيها يوحي بأنها طفلة لأبوَين مُستبدّين، ولكنْ لأنَّ الأب كان يمتلك، بالإضافة إلى شركة نقل داخل المدينة - وهي الوجه العلنيّ لعمليّة آلات لعب القمار - مساحةَ نصف أكر هي أرض مطعم يُقدِّم ثمار البحر يقع قبالة رصيف ستيل حيث يصطف الناس حول المبنى للدخول في عطل نهاية الأسبوع، ولأنه في أوائل حقبة الثلاثينيات، عندما انتهت فترة تحريم الخمر وانتهى فجأة اهتمام بينبول بيللي الجانبي المُربِح بنقابة واكسي غوردون للتهريب بين الولايات، أسّسَ مطعم «أوريجنال شابس» في فيلادلفيا - وهو معروف بما يُسمّونه في فيلادلفيا رعاع اليهود - وكان بينبول بيللي يعتبر بقوة أنَّ ألفن هو داعم لمينا. قال شاب لألفن عندما سلّمه النقود لكي يشتري بها خاتم خطبة ابنته، «يتضمّن العقد ما يلي. أنْ تعتني مينا بساقك، وأنت تعتني بمينا، وأنا أعتني بكما».

هكذا توصّلَ نسيبي إلى ارتداء بذلة مصنوعة يدوياً وإلى أنْ يتنكّب المسؤوليّة الفخمة بإدخال زبائن مشهورين إلى مطعمهم مثل عمدة نيو جيروي المُخادع، فرانك هاغ؛ وبطل نيو جيرزي في الملاكمة للوزن الخفيف، غس ليسنيفيتش؛ وأساطين المهن أمثال مو داليتز في كليفلاند،

ومحل «الملك سليمان» في بوسطن، وميكي كوهين في لوس أنجلوس، وحتى «العقل» نفسه، وماير لانسكي، عندما يتواجدون في المدينة لعقد اجتماعِ عالمِ الإجرام. وبانتظام، في كل شهر أيلول (سبتمبر)، تأتي ملكة جمال أميركَا المتوّجة حديثاً للاحتفال بانتصارها المُبهرَج مع أقاربها المرتبكين كلهم. وبعد أنْ يُغدق الجميع المديح، وهم يضعون مناديل الطعام السخيفة، يُسعد ألفن أنْ يومئ للنادل، بفرقعة من إصبعيه، مُشيراً إلى أنْ الفاتورة على حساب المطعم.

سرعان ما اكتسب صهر بينبول بيللي المُستقبلي ذو الساق الواحدة لقباً خاصاً به. لقد مُنِحَ لقب «شوي»، كما أخبر ألفن الجميع، خلعَه عليه ألي شتولتز، الذي يُناضل من أجل الحصول على لقب بطل العالم في الملاكمة للوزن الخفيف. وانطلقَ ألفن من فيلادلفيا ليقوم بزيارة شتولتز – وهو من نيويورك، على غرار غس ليسنيفيتش – في اليوم الذي جاء هو ومينا إلى منزلنا ليتناولا طعام العشاء. وكان شتولتز قد خاض وخسر بعد خمس عشرة جولة أمام بطل الوزن الخفيف في ماديسون سكوير غاردن في شهر أيار (مايو) السابق وكان يتمرّن في خريف ذلك العام في صالة مارسيللو الرياضيّة في شارع ماركت استعداداً لمباراة شهر تشرين الثاني (نوفمبر) أمام بو جاك الذي ستُكسِبه نقطة على تيبي لاركين[48] إذا فاز. قال ألفن «بعد أنْ يتجاوز ألي بو جاك، لن يتبقّى غير لاركين بيني وبين نيل اللقب، ولاركين لديه فكٌ من زجاج».

فكٌ من زجاج. هراء زائف. هجوم عنيف. رجل صلب. ما وزنه؟ سوف أقبل التحدّي. بأقدم حيلة في العالم. كان لدى ألفن مفردات جديدة وطريقة جديدة تماماً للتباهي في الكلام كان سماعها يُسبِّب الألم لوالديّ. ولكن عندما كان يقول بحب عن كرم شتولتز «إنَّ ألي سريع في إنفاق النقود» كنتُ أشعر بأنني لا أطيقُ صبراً حتى أتكلَّم أنا نفسي

48- تيبي لاركين (1917-1991): ملاكم في الوزن الخفيف. نال البطولة في عام 1947. - المترجم

كرجل صلب وذلك بتكرار ذلك التعبير المُذهل في المدرسة بالإضافة إلى التشكيلة الواسعة من اللغة السوقيّة التي استخدمَ ألفن منها الآن فقط كلمة «نقود».

في أثناء تناول الوجبة لزمتْ مينا الصمت - على الرغم من بذل أمي أقصى جهدها لكي تُخرِجها من صمتها - وكان الخجل يُسربلني، ولم يكن والدي يفكّر إلّا في حادث نسف الكنيس الذي وقع في سينسيناتي في الليلة السابقة وفي نهب متاجر يمتلكها يهودٌ في مدنٍ أميركيّة وموزّعة على امتداد منطقتين زمنيّتين. وكانت تلك الليلة الثانية على التوالي التي يتخلّى فيها عن العم مونتي بدل أنْ يترك العائلة وحدها في جادة سميت، لكنّه لم يتمكّن من القلق بشأن غضب أخيه في وقتٍ كهذا، وبدل ذلك بقيَ طوال فترة تناول العشاء ينهض وينتقل إلى غرفة الجلوس لكي يُدير مفتاح الراديو ويُصغي إلى الأخبار إبّان جنازة وينتشل. في تلك الأثناء، لم يكن ألفن يتكلّم إلّا عن «ألي» وعن بحثه عن تاج بطولة العالم في الملاكمة وكأنَّ ابن نيوارك المناضِل للفوز بلقب الوزن الخفيف كان يُجسّد تصوُّر ألفن الأعمق للجنس البشريّ. أكان يمكن للتخلّي عن المبادئ الأخلاقيّة الذي كلّفه ساقه أنْ يكون تاماً أكثر من ذلك؟ لقد تخلّصَ ممّا كان ذات يوم يقفُ حائلاً بينه وبين طموحات شوشي مارغوليس - لقد تخلّصَ منّا.

عندما قابلتُها، تساءلتُ إنْ كان ألفن قد أخبرَ حتى مينا أنّه أبتر. لم يتبيَّن لي أنَّ شخصيتها الخانعة هي بالذات التي جعلتْ منها المرأة الأولى والوحيدة التي **يستطيع** ألفن انْ يُخبرها بهذا، ولم أفهم أنَّ مينا هي الدليل على ضعفه مع النساء. في الحقيقة، كانت جدعة ألفن تشكّل أعظم **نجاح** حقّقه مع مينا، خاصة بعد وفاة شاب في عام 1960 وتولّى أخو مينا الفاشل أمور آلات لعب القمار، بينما رضيَ ألفن بحصوله على المطاعم والبدء بمُصاحبة أشدّ المتسكعين وسامة في ولايتين. وكلما نكأ جرح الجدعة وتقيّح وسال الدم وتلوّثَ - وهذا ما كان يحدث نتيجة حماقاته العديدة - كانت مينا تتدخّل ولا تسمح له بارتداء العضو الصناعيّ. ويقول ألفن لها،

«بحق المسيح، لا تقلقي، سأكون بخير»، أما هنا فالهيمنة لمينا وحدها. تقول له «لا يمكنك أنْ تزيد الثقل على تلك الساق إلّا بعد إصلاحه - وتقصد بكلامها العضو الاصطناعي، الذي كان دائماً، حسب تعبير صانع الساق وعلَّمني ألفن إيّاه ولم أكن قد أتممتُ سن التاسعة، «يفقد تطابقه». وعندما كبُرَ ألفن في السن وأصبح جرح الساق ينكأ دائماً جرّاء حمل ثقل الوزن الذي اكتسبه، وعندما كان يُضطر إلى البقاء من دون الجزء الاصطناعي على مدى أسابيع طويلة إلى أنْ يشفى، كانت مينا تنقله بالسيارة إلى الشاطئ العام في أوقات الصيف وتراقبه وهي بكامل ملابسها من تحت شمسيّة كبيرة وهو يلهو طوال ساعات على الأمواج الشافية، يركب الأمواج ويطفو على ظهره ويقذف بنوافير الماء المالح في الهواء ومن ثم لكي يُخيف حشداً من السائحين تجمّعوا على الشاطئ، يخرج من الماء وهو يصرخ «سمكة قرش! سمكة قرش!» وهو يُشير برعب إلى جدعته.

ظهر ألفن ومينا على مائدة العشاء بعد أنْ اتصل في صباح ذلك اليوم ليُخبر أمي بأنّه سوف يكون في شمال جيرزي ويُريد أنْ يُعرِّج ليشكر عمّته وعمّه على ما فعلاه من أجله عندما عاد إلى الوطن من قوات الصاعقة وأزعجَ الجميع. قال إنَّ عليه أنْ يشكرهما على أشياء كثيرة وأرادَ أنْ يتصالح معهما وأنْ يرى الصبيِّين، وأنْ يُعرّفهما على خطيبته. هذا ما قال وهذا ربما ما كان يُفكّر فيه قبل أنْ يواجه والدي وذكرى غرائز والدي الإصلاحيّة - وأيضاً حقيقة كراهيتهما المتبادلة المتأصّلة، كراهيّتهما كأنماط بشريّة التي كانت موجودة منذ البداية - ولهذا أخذتُ أفتّش عميقاً في درجي، حالما وصلتُ إلى المنزل عائداً من المدرسة وسمعتُ النبأ، وعثرتُ على ميداليّته، وللمرة الأولى منذ مغادرته فيلادلفيا، وثبّتُّها من جديد على قميصي التحتيّ.

وطبعاً لم يكن ذلك اليوم مثالياً للقيام بزيارة مُصالحة من المتمرِّد على العائلة. لم يُسجَّل حدوث أعمال عنف مُعادية للساميّة في نيوارك أو في مدن

نيو جيرزي الكبرى الأخرى خلال الليل، لكنَّ القنابل الحارقة التي أُلقيَتْ على الكنيس واحترقَ نتيجة لذلك وسُوّيَ بالأرض على مسافة مئة ميل من لويسفيل، في سينسيناتي في أعلى نهر أوهايو، وتهشيم النوافذ العشوائي ونهب المتاجر التي يمتلكها يهود في ثماني مُدنٍ أخرى (سينت لويس، وبفالو، وبيتسبرغ هي الثلاث الأكبر) لم تُبدِّد الخوف الذي استطاع بكل سهولة، جرّاء مشهد الجنازة اليهوديّة التي أُقيمَتْ على الضفة المُقابلة لنهر هدسن في نيويورك لوالتر وينتشل - والمُظاهرات والمُظاهرات المُضادة التي تزامنت مع كل الطقوس الرصينة - أنْ يُفجِّر أعمال العنف في مكان شديد القُرب من المنزل. وفي المدرسة، كان أول ما أُقيم هو برنامج اجتماع خاص مدّته نصف ساعة استُدعيَ له تلاميذ الصف الرابع وحتى الصف الثامن. وإلى جانب ممثّل من هيئة التدريس، ونائب من مكتب المحافظ مورفي، والرئيس الحالي للجنة الآباء والمُدرّسين، سردَ المدير الإجراءات التي اتُّخِذَتْ لضمان سلامتنا خلال النهار وقدَّمَ عشر قواعد لحمايتنا من التعرُّض للأذى ونحن في طريقنا إلى المدرسة ومنها. في حين لم يأتِ أحد على ذِكر رجال شرطة بوليت أبفلبوم اليهود - الذين كانوا ينتشرون في الشوارع طوال الليل ويبقون هناك حتى الصباح، يشربون القهوة الحارة من أوعية ترمس ويأكلون الفطائر المُسكَّرة التي تبرَّعَ بها فُرن ليرهوف عندما انطلقنا أنا وساندي إلى المدرسة - طمأننا نائب المحافظ بأنَّ تفاصيل أخرى عن شرطة المدينة «وإلى أنْ تُستعاد الأحوال الطبيعيّة» التي سوف تجوب الحي وطُلِبَ منا ألّا نخاف إذا رأينا رجل شرطة بلباس رسميّ يتمركز عند كل باب من أبواب المدرسة ورجل شرطة آخر في الأروقة. ثم وُزِّعَتْ نُسختان من نشرة على كل تلميذ، واحدة تضم قائمة بالقواعد الواجب اتّباعها في الشارع، سوف يُراجعها الأساتذة معنا لدى عودتنا إلى غرفة التفقُّد، والأخرى نأخذها معنا إلى آبائنا تنصحهم باتّباع إجراءات الأمان الجديدة. وإذا كانت هناك أسئلة، فعلى آبائنا أنْ يوجّهوها إلى السيدة سيسلمان، رئيسة لجنة الآباء والمُدرسين التي خلَفَت أمي في المنصِب.

تناولنا الطعام في غرفة الجلوس، كما كنا قد فعلنا آخر مرة عندما اصطحبتْ خالتي معها الحاخام بنغلسدورف لمقابلتنا. وبعد اتّصال ألفن، خرجت أمي (التي كان يمكن لألفن أنْ يعرف أنَّ في استطاعته أنْ يعتمد على عجزها عن ضمر ضغينة شخصيّة في اللحظة التي سمعها تردّ على الهاتف) لكي تشتري طعاماً لوجبة العشاء سوف يُعجبه كثيراً، وهذا على الرغم من القلق الذي ينبعث في نفسها كلما اضطرتْ إلى فتح قفل الباب والعودة من جديد إلى الشارع. لم يبثّ فيها كون شرطة نيوارك المُسلّحة تتمشّى في مواقعها وتجوب الشوارع المحليّة بسيارات الدوريّة إلّا القليل من الطمأنينة بقدر ما فعلتْ شرطة بوليت أبفيلبوم اليهوديّة، وهكذا، كأي متسوِّق في مدينةٍ تحت الحِصار انتهى بها الأمر تقريباً إلى أنْ تقضي وقتها في التردُّد بسرعة جيئة وذهاباً إلى جادة تشانسلر ومنها لكي تشتري كل ما يلزمها. وفي المطبخ تابعتْ خبز كعكة طبقات الشوكولاتة بغطاء من الشوكولاتة والجوز المفروم المُفضّلة عند ألفن وتقشير البطاطا وتقطيع البصل من أجل أقراص البطاطا المقليّة التي في وسع ألفن أنْ يلتهمها دفعة واحدة، وكان المنزل لا يزال يفوح بعبق الخبز والقليّ والطبخ الذي انبعثَ مع عودة ألفن غير المتوقّعة إلى الوطن بسيارته البويك الجديدة ووقوفها في الزقاق. هناك (حيث لعبنا معاً بتبادُل الكرة التي كنتُ قد سرقتها) أوقفَ ألفن سيارته خلف سيارة فورد بيك أب الصغيرة التي كان السيد كوكوتزا يستخدمها لنقل أثاث الناس كعمل ثانٍ والتي تصادفَ أنّها كانت متوقفة في المرأب لأنَّ ذلك اليوم كان يوم عطلة الحارس الليليّ، وفي يوم عطلته ينام على مدار الساعة.

وصلَ ألفن مرتدياً بذلة من جلد سمك القرش رماديّة بلون اللؤلؤ مع حشوة سميكة على الكتفين، وينتعل حذاءً مُدبّباً ومُخرَّماً بلونين مع صفيحة معدنيّة عند موقع أصابع القدمين، وحاملاً هدايا للجميع: كانت هدية الخالة بيس مئزراً أبيض مُزيَّناً بورود حمراء، وهدية ساندي دفتر رسم، وهديتي قلنسوة ماركة فيليس، وهديّة العم هرمان شهادة تؤهّل

عائلةً من أربعةِ أشخاصٍ لتناول وجبة عشاء مجّانيّة من الكركند في مطعم أتلانتيك سيتي. ومنْحُه لنا جميعاً الهدايا طمأنني بأنَّ هربه إلى فيلادلفيا لم يجعله ينسى كل الأشياء الجيدة التي وجدها في منزلنا خلال السنوات التي سبقتْ فقدانه ساقه. ولم يبدُ في ذلك المكان والزمان أننا عائلة مُفكّكة أو أنّه بعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء - وكانت مينا موجودة أصلاً في المطبخ تتلقّى درساً في إعداد أقراص البطاطا المقليّة من أمي - يمكن لمُشاجرة جماعيّة أنْ تنشب بين أبي وألفن. وربما لو لم يظهر ألفن بملابسه المُبهرجة ويأتي بسيارته البرّاقة ويكاد يغلي بالحسّية الفجّة لصالة مارسيللو الرياضيّة ويفيضُ باقتراب امتلاكه ثروة تفوقُ أحلامه... وربما لو لم يُقتَل والتر وينتشل قبل ذلك بأربعٍ وعشرين ساعة وتقتربْ أسوا المخاوف حالما شغلَ ليندبرغ منصبه وحلَّ بنا كما لم يحدث لنا من قبل.... ربما حينئذٍ لما كان الرجلان البالغان الأهمّ بالنسبة إليّ طوال عهد طفولتي قد أوشكا أنْ يقتل أحدهما الآخر.

قبل تلك الليلة، لم تكن لديّ أدنى فكرة عن أنَّ والدي مناسبٌ جداً لإحداث خراب أو مُهيّأ لإجراء ذلك التحوُّل السريع كالبرق من صحّة العقل إلى الجنون الذي لا غِنى عنه لتفعيل الحافز الجامح إلى التدمير. وخِلافاً للعم كونتي فضَّلَ ألّا يتكلَّم عن محنة طفل يهودي يسكن في شارع رنيون قبل نشوب الحرب العالميّة الأولى، عندما كان الأيرلنديون يتدفّقون باستمرار، مُسلحين بالعصي وبالحجارة وبالقضبان الحديديّة، قادمين عبر جسر الممرات السفليّة للقِطاع المُحاط بحاجز من الحديد يسعون إلى الانتقام من قتلة المسيح في الجناح الثالث اليهوديّ، وبقدر ما كان يستمتع باصطحابي أنا وساندي إلى حديقة لوريل في جادّة سبرينغفيلد عندما يتلقّى بطاقات مشاهدة مباراة جيدة، كان مشهد رجال يتقاتلون خارج حلقة الملاكمة يُرعبه. وعرفتُ أنَّ لديه بُنية عضليّة من صورة فوتوغرافيّة أُخِذَتْ له عندما كان في الثامنة عشرة وألصقتها أمي في ألبوم صور العائلة إلى جوار الصورة الفوتوغرافيّة الأخرى الوحيدة الباقية من عهد شبابه،

صورة له في سن السادسة وهو واقف بجوار عمّه مونتي، الذي يكبره بثلاث سنوات وأطول منه قامة بحوالي قدم ونصف القدم - طفلان من زمن الراغتايم يقفان بثبات بملابس العمل القديمة وقميصاهما قذران وقلنسوتاهما مدفوعتان إلى الخلف بمقدار كافٍ للكشف عن قسوة قَصَّة شعرهما. في صورته تلك حين كان في الثامنة عشرة ذات اللون البنّي كان قد ابتعد مسافة شاسعة عن طفولته، كأنَّ قوة الطبيعة الطاغية تقف بتحدٍ بملابس السباحة على شاطئ سبرينغ ليك المُشمِس، نيو جيرزي، المرتكز الثابت عند قاعدة هرمٍ إنسانيّ مؤلَّف من ستة نُدُل فندق فاسقين يستمتعون بفترة عطلة بعدِ الظهيرة. وكما بدا في تلك الصورة من عام 1919، أنّه كان قويّ البُنية عند الصدر منذ البداية، وحافظ نوعاً ما على الكتفين القويتين والذراعين السمراوين حتى خلال سنوات لجوئه إلى شركة ميتروبوليتان لايف، بحيث إنَّه الآن، وهو في الواحدة والأربعين، وبعد أنْ عمل على حمل صناديق ثقيلة ورفع أكياسٍ تزن مئة رطل ستة أيام في الأسبوع طوال شهر أيلول (سبتمبر)، أصبحَ الآنَ ربما يُخزِّنُ من القوة المتفجّرة في ذلك الجسم أكثر مما فعل في أي وقت في حياته.

قبل تلك الليلة، كان مستحيلاً عليّ أنْ أتخيّله يوسِعُ أحداً ضرباً - ناهيك عن ضرب الابن اليتيم لأخيه الأكبر سنّاً الحبيب - كاستحالة تصوّره يعتلي أمي، خاصة أنّه لم يكن هناك تحريمٌ أقوى بين اليهود من أصول أوروبيّة معوزة وطموحاتنا الأميركيّة التي نتمسّك بها بكل عناد من التحريم المُرتَجَل، والمُنحرِف، لحل الخلافات بوساطة العنف. وفي تلك الحقبة الزمنيّة، كان اليهوديّ العاديّ في العموم لا يميل إلى العنف ولا إلى شرب الخمر، وهي فضيلة من عيوبها الفشل في تثقيف العدد الهائل من أبناء جيلي وسط العدوان العنيف الذي كان أول قانون في الثقافات العِرقيّة الأخرى وذا قيمة عمليّة عُظمى من دون أدنى شك عندما يتعذَّر عليك اللجوء إلى النقاش بدل العنف أو أنْ تنجح في الهرب. فمن بين مئات الفتية في مدرستي الابتدائيّة، على سبيل المثال، الذين تتراوح

أعمارهم بين الخامسة والرابعة عشرة ولم يكن مُقدّراً لهم وراثيّاً أنْ يُصبحوا من أبطال الملاكمة في الوزن الخفيف على غرار ألي شتولتز أو من مُبتزّي الأموال الناجحين على غرار لونغي زويلْمان، ظهر متصارعون بالقبضات أقلّ بكثير مما ظهر في أيٍ من مدارس الحي الأخرى في منطقة نيوارك الصناعيّة، حيث تُعرَّف الالتزامات العِرقيّة لطفلٍ ما بطريقة مختلفة وكان رفاق المدرسة يُظهِرون ميلهم إلى العنف بوسيلةٍ لم تكن متوفّرة لنا.

وهكذا، كان ليلاً مُدمِّراً لكل سبب يمكن تخيّله. فلم تكن لديّ المقدرة في عام 1942 على البدء بفكّ رموز كل المضامين الشنيعة، لكنَّ مجرد مرأى دماء أبي أو ألفن كان مُذهلاً بالقدر الكافي. دماء منتشرة على طول سجادتنا الشرقيّة المُقلَّدة وعرضها، دماء تقطر من بقايا شظايا طاولة القهوة عندنا، دماء تلطّخ جبين والدي كأنها إشارة ما، دماء تنبجس من أنف ابن عمي - وكلاهما ليسا متمرّسين في مصارعة المقابض، أو في المُصارعة الحرّة، كما في ضرب كرات البلياردو، مع التحام بضربات رديئة بأيدٍ بارزة العِظام، يتراجعان ثم يشتبكان كأنَّ لديهما قروناً تبرز من جبينيهما، كمخلوقين خياليين، هجينين، قفزا من الأساطير إلى غرفة جلوسنا وأخذ يغرزُ كلٌ منهما قرونه الضخمة الشبيهة بالأسنان الناتئة في لحم الآخر. داخل منزل يُخفِّف المرء من حركاته، ومن سرعته، أما هنا فإنَّ معيار الأشياء معكوس ومُخيف. أعمال الشغب في جنوب بوسطن، وفي ديترويت، وعملية الاغتيال في لويسفيل - والقنابل الحارقة التي أُلقيَتْ في سينسيناتي، بيوريا، وسكرانتون وسيراكوز... والآن هذا: يحدثُ في غرفة جلوس عائليّة عاديّة - هي تقليديّاً مسرح لجهد جماعيّ لرصّ الصفّ في وجه تدخّلات عالمٍ عِدائيّ - كانت مُعاداة الساميّة على وشك أنْ تنتشر بسبب حلّهم الحماسيّ لأسوأ مشاكل أميركا برفع الهراوات وتدمير أنفسنا بتصرّف هستيريّ.

انتهى الرعب مع السيد كوكوتزا، باقتحامه شقّتنا، وهو بقميص النوم والقلنسوة (الملابس التي لم أر أحداً يرتديها، رجلاً كان أم فتى، إلّا في

الأفلام الهزليّة)، شاهراً مُسدّسه. وأطلقتْ جدّة جوي التي تنتمي إلى العالم القديم صرخة، وكانت تعصُب رأسها بشكل لائق كأنّها ملكة الظلال في كالابريا[49] في أسفل منبسط الدَرج - وصدر من داخل شقّتنا ضجيج لا يقلّ إثارة للرعب في اللحظة التي انفتح الباب الخلفيّ المُحطَّم ورأتْ أمي أنَّ الدخيل بقميص نومه مُسلَّح. وبدأتْ مينا تتقيّأ بين يديها كل ما كانت قد تناولته على العشاء، ولم أتمالك نفسي وتبوّلتُ على الفور، بينما صرخ ساندي، الذي كان الوحيد الذي تمكَّنَ من العثور على الكلمات المناسبة وعلى القُدرة الصوتيّة لنُطقها، «لا تُطلق النار! أنا ألفن!». لكنّ السيد كوكوتزا كان حارساً مُحترفاً للملكيّة الخاصّة تدرَّبَ على أنْ يتصرَّف فوراً وأنْ يستخلص الفروق لاحقاً وقام - من دون أنْ يتوقّف ليسأل «مَنْ منكما ألفن؟» - بشلّ حركة مُهاجِم والدي بالقبض عليه من الخلف بذراعه والضغط بيد ذراعه الأخرى على عنقه.

كانت ساق ألفن الاصطناعيّة قد انكسرت إلى نصفَين، وتمزّقتْ جدعته إرباً، وانكسر أحد رِسغيه. وتهشّمت ثلاث من أسنانه الأماميّة، وأُصيبَ ضلعان فيه بشروخ، وفُتِحَ جرحٌ بليغ على طول عظمة وجنته واستدعى الأمر خياطته بعددٍ من القُطَب يبلغ ضعف التي استلزمها رأب الجرح الذي سبّبه لي حصان الميتم، والتوىَ عنقه التواءً شديداً واضطُرَّ إلى وضع ياقة عالية من الفولاذ بعد ذلك على مدى أشهر عديدة. وتبعثرَ شظايا سطح طاولة القهوة الزجاجي ذات الإطار من قصب الماهوغاني القاتم التي كانت أمي قد وفَّرت النقود عبر السنين لكي تشتريها من محلات بام (وحيث سوف تضع، في ختام ساعة من الاستمتاع بالقراءة المسائيّة الرواية الجديدة، مع علامة الكتاب المزوّدة بشريط، بقلم الكاتبة بيرل بَكْ أو فاني هيرست أو إدنا فيربر التي كانت قد استعارتها من المكتبة الصغيرة جداً المُخصّصة لاستعارة الكتب في الصيدليّة المحليّة) تبعثرت شظاياها

49- ملكة الظلال: هو اللقب التقليديّ للوريثة الشرعيّة لمملكة نابولي في إيطاليا عبر العصور. - المترجم

في أنحاء الغرفة كلها، وانغرزت نثرات دقيقة من الزجاج في يديّ والدي. والسجادة، والجدران، وقطع الأثاث تلوّثت برذاذ من سائل الشوكولاتة (من شرائح الكعكة الطبقيّة التي كانوا يأكلونها عندما جلسوا ليتحادثوا في أثناء تناول حلوى بعد الطعام في غرفة الجلوس) بالإضافة إلى دمهما، ومن ثم انتشرتْ رائحته - رائحة مسلخ ساكنة تُثير الرغبة في التقيُّؤ.

عندما يقع العنف في منزل فإنّه يُحطِّم القلوب - كمشاهدة ملابس على شجرة إبّان وقوع انفجار. قد تكون مستعداً لمشاهدة موت ولكن ليس ملابسَ مُعلَّقةً على شجرة.

وذلك كله كان نتيجة فشل والدي في فهم أنَّ طبيعة ألفن في الحقيقة غير قابلة أبداً للإصلاح، على الرغم من تلقين الحب واستخدامه كأداة ضغط - كلّه كان نتيجة استقباله له في بيته لإنقاذه مما كان ببساطة في أصل قَدَره. كل ذلك كان نتيجة تأمّلِه ألفن وتذكُّرِ حياة المرحوم والد ألفن القصيرة بصورة مأساويّة، وكيف كان يهزّ رأسه ويقول، في نوبة يأس، «سيارة بويك، بذلات شاربي، قذارة الأرض من أجل أصدقائك - ولكن هل تعلم، هل تهتم، هل يُقلقك ولو قليلاً، يا ألفن، ما يحدث في هذا البلد في هذه الليلة؟ كان هذا قبل سنين عديدة، اللعنة. أتذكّر بكل وضوح الوقت الذي حدث فيه. أما الآن فلا. الآن هناك السيجار الضخم والسيارات. ولكن ألديك أيّة فكرة عمّا يحدث لليهود حتى ونحن جالسان هنا؟».

وألفن، الذي بلغ قَدَرَه أخيراً مرحلةً هامة، والذي لم تصل مشاريعه من قبل إلى هذه الدرجة من التفاؤل، لم يتحمّل ولم يُطِق أنْ يتلقّى النُصح من قيِّمٍ كانت وصايته ذات يوم تعني له كل شيء - من نسيبٍ استضافه مرّتين، في وقتٍ لم يقبل أحد باستقباله، ليعيش في شقّة يهوديّة أليفة صغيرة وسط عائلة رؤوف وهمومها المعتدلة - ولم يكن لها أيّة فائدة. وبصوتِه الأجشّ بفعل معاناة الطَرَف المتألِّم، وكلامه المتقطِّع ومن دون لحظة توقّف لاستيعاب أي شيء ليس ذا طابع انتقاميّ، بل كلّه افتراء، كلّه تأنيب، كلّه إكراه وخِداع أبله، صرخَ ألفن في والدي، «*اليهود*؟ لقد استنزفتُ *حياتي*

من أجل اليهود! فقدتُ *ساقي* اللعينة من أجل اليهود! فقدتُ ساقي من *أجلكم!* لِمَ أهتم بكلا الحالين بليندبرغ؟ لكنكم أرسلتموني لكي أحاربه، ولأنني فتى أحمق لعين، *ذهبتُ*. وانظر، *انظر*، يا عم الكارثة اللعين - *لم تعُد لدي ساق لعينة!*».

رفع بعنف حفنة من القماش الرمادي بلون اللؤلؤ الذي كان يرتديه بأناقة شديدة لكي يكشف عن المكان الذي لم يعُد فيه العضو السُفليّ المؤلَّف من اللحم والدم والعضلات والعِظام. ومن ثم، بشعور بالمهانة، والعدم، وقد عاد من جديد من الداخل الرجل المُجرَّد من الرجولة (والفتى المتشرِّد)، أضاف لمسته البطوليّة الختاميّة بالبصق في وجه والدي. إنَّ والدي يُحبّ أنْ يقول إنَّ العائلة هي معاً سلامٌ وحرب، ولكن هذه كانت حرباً تجاوزت كل تخيّلاتي. هذا البصق في وجه والدي كما كان قد بصقَ في وجه ذلك الجندي الألمانيّ الميّتْ!

ليتَهم تركوه يعيش حياته من دون إعادة تأهيل، ويتّخذ مساره القذر الخاص، لكنَّ ذلك لم يحدث، وهكذا فرّقنا التهديد الجسيم وولجتْ منزلنا فظاعةُ العنفِ ورأيتُ كيف تعمي الرجلَ المرارةُ والتشوُّه اللذان يولدانه.

ولمَ، لمَ ذهبَ ليُقاتل أصلاً؟ لماذا قاتلَ ولماذا سقط؟ لأنَّ ثمة حرباً دائرة، انتقى ذلك الدرب - لقد وقعت الغريزة المتمرِّدة، الحانقة، في الفخ تاريخيّاً! ليت العصر مختلف، ليته كان أكثر ذكاءً... لكنه يريد أنْ يُقاتل. إنه يُشبه تماماً الآباء أنفسهم الذين يريد التخلُّص منهم. هذا هو استبداد المشكلة. أنَّه يحاول أنْ يكون مُخلِصاً وأنْ يتخلَّص ممّا هو مُخلِصٌ له في وقت واحد. ولهذا السبب في المقام الأول ذهب لكي يُقاتل، حسب أقصى ما أستطيع إدراكه.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، وبعد أنْ وصل اثنان من أصدقاء ألفن بسيارتهما الكاديلاك التي تحمل لوحتها المعدنية اسم بنسلفانيا (أوصل أحدهما ألفن ومينا إلى عيادة طبيب ألي شتولتز في جادّة إليزابيث، وقام

الآخر بقيادة سيارتهما البويك عائداً إلى فيلادلفيا)؛ وإبّان عودة والدي إلى المنزل من غرفة طوارئ مستشفى بيت إسرائيل (حيث انتزعوا قطع الزجاج من يديه وقطبوا وجهه وفحصوا عنقه بالأشعة السينيّة ورمّموا قَفَصَه الصدري بالأشرطة، وعند خروجه، أعطوه أقراصاً لتخفيف الألم)؛ وبعد أنْ أعاد السيد كوكوتزا والدي بسلام، وكان قد نقله على عجل بسيارته البيك أب إلى المستشفى، إلى ساحة القتال القذرة، والمُغطّاة بأشياء متناثرة، وأضحتِ الآن شقّتنا، لعلعَ ضجيجُ طلقاتٍ ناريّة من جادة تشانسلر. إطلاق نار، وصراخ، وهتاف، وصفّارات إنذار - كانت المذبحة قد بدأت، وسرعان ما هرع السيد كوكوتزا مرتقياً الدَرَج الذي كان قد هبط منه تواً وقرَعَ بابنا الخلفي المكسور مرة واحدة واندفع إلى الداخل.

جرّني أخي من سريري، وأنا في أمسّ الحاجة إلى النوم، ولكنْ عندما رفضَتْ ساقاي أنْ تستجيبا وأخذتا تنهاران بسبب الخوف الطاغي، اضطرَّ والدي إلى حملي بين ذراعيه. وقاد السيد كوكوتزا أمي، أمي الموسوسة في شأن النظافة - التي بدل أنْ تأوي إلى السرير وتحاول أنْ تنام كانت قد ارتدتْ مئزرها ووضعت في يديها قفّاز المطّاط وطفقتْ تطهِّر المنزل من قذارته حاملة دلواً ومكنسة وممسحة - وهي تبكي وسط دمار غرفة جلوسها، واحتشدنا نحن الأربعة في أسفل الدَرَج وولجنا شقّة آل ويشناو القديمة لنحتمي هناك.

هذه المرة عندما قدّمَ السيدّ كوكوتزا مُسدساً قبله والدي. كان جسمه الإنسانيّ المسكين مُلطّخاً باللونين الأسود والأزرق ومُضمّداً في كل موقع تقريباً، وكان فمه مملوءاً بالأسنان المكسورة، ومع ذلك جلس معنا على الأرضَ في البهو الخلفيّ الخالي من النوافذ في منزل السيد كوكوتزا، مُنتبهاً إلى السلاح الذي يحمله بيديه بكل تركيز، وكأنّه لم يعُد على الإطلاق مجرّد سلاح بل الشيء الأهم الذي أودِعَ بين يديه منذ أنْ أُعطيّ أول أطفاله ليحمله. وجلستْ أمي باستقامة بين رواقيّة ساندي الخجول وجمودي المشدوه، تقبض على كلٍ منا بذراع وتُقرّبنا منها وتبذل قُصارى

جهدها للمُحافظة على طبقة من الشجاعة لكي لا تكشِف عن شعورها بالرعب أمام طفليها. وفي تلك الأثناء كان أضخم رجلٍ رأيته في حياتي يتحرّك مع مسدس في أرجاء الشقة المُعتِمة، متنقّلاً بتسلُّل من نافذة إلى نافذة ليتيقّن بعينه الثاقبة الشاملة التي يتمتع بها حارس ليليّ مُخضرم إنْ كان ثمة مَنْ يكمن في أي مكان قريب حاملاً فأساً، أو مُسدّساً، أو حبلاً، أو وعاءً من الوقود.

كان السيد كوكوتزا قد طلبَ من جوي، وأمّه، وجدّته أنْ يلزموا أسرّتهم، على الرغم من أنَّ السيدة العجوز لم تستطع مقاومة جاذبيّة كل ذلك الاضطراب وصورتنا نحن الأربعة التي كانت رمزاً لتلك المِحنة الصِرف. كانت تزمجر بدفقات قصيرة من اللغة الإيطاليّة الفجّة لا يمكن أنْ تكون مديحاً بالنسبة إلى ضيوفها، وهي تلقي نظرات من باب المطبخ المظلِم - حيث كانت في المعتاد تنام بملابسها على سريرٍ ضيق مجاور للمدفأة - ثم ترمينا بنظرات ثابتة عبر شكلها الجنونيّ (لأنها كانت حقاً مجنونة) وكأنّها كبير ملائكة مُعاداة الساميّة التي تولَّدَ من صليبها الفضيّ ما يجري كله.

استمرّ إطلاق النار طوال أقلّ من ساعة ولكننا لم نعُد إلى الطابق العُلويّ حتى الفجر، ولم نعلم، إلّا بعد أنْ غامر السيد كوكوتزا بشجاعة وانطلقَ كالمُستطلِع إلى حيث كانت جادة تشانسلر مُطوّقة، أنَّ معركة المسدسات لم تدُر بين شرطة المدينة والمُعادين للساميّة بل بين شرطة المدينة والشرطة اليهوديّة. لم تحدث مذبحة في نيوارك في تلك الليلة، بل فقط تبادُل إطلاق نار، وكان شيئاً غير عاديّ لأنه وقع على مسمع من منزلنا ولكنه فيما عدا ذلك لم يكن يختلف كثيراً عن الاضطراب الذي كان يمكن أنْ ينفجر في أيّة مدينة كبيرة بعد هبوط الليل. وعلى الرغم من أنَّ ثلاثة من اليهود قُتِلوا - هم ديوك غليك، وبيغ غاري، وبوليت ذاته - فذلك ليس بالضرورة لأنهم من اليهود (قال عمي مونتي «مع أنَّ الأمر لم يكن مؤلِماً») بل لأنهم كانوا بالضبط من نوع الأوباش الذين يريد المحافظ أنْ يزيلهم

من الشوارع، في المقام الأول ليبعثَ إشارة إلى لونغي مفادها أنّه لم يعُد عضواً شرفيّاً في لجنة مفوّضي المدينة (وهو منصب، كما أشاع أعداء ماير إيلينشتاين، كان قد احتلّه في عهد سَلَف مورفي اليهوديّ). لم يُزعج أحدٌ نفسه بأخذ كلام مفوّض الشرطة على محمل الجد عندما شرح لصحيفة *نيوارك نيوز* أنَّ «أعضاء اللجنة المتهورين» هم الذين فتحوا النار، من دون استفزاز، قُبيل حلول منتصف الليل على اثنين من مُشاة الدوريّة في أثناء تأدية عملهما، ولم يظهر على أيٍّ من جيراننا في الحيّ أي تعبير ملحوظ عن الحزن بسبب الطريقة التي صُرِعَ بها الثلاثة بهمجيّة - وهم بحد ذاتهم من الخطرين الذين لا يحلم أي إنسان مُحترَم في السعي إلى حمايتهم. طبعاً كان شيئاً فظيعاً أنْ تُلطِّخ دماء رجال عنيفين الرصيف الذي يسلك أطفال الحيّ عليه طريقهم إلى المدرسة في كل يوم، ولكن على الأقلّ لم تكن دماءً أُريقَتْ في صِدام مع عصابة كوكلوكس كلان أو القمصان الفضيّة أو التحالُف الأميركيّ-النازيّ.

لم تقع مذبحة، ومع ذلك عند الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم كان والدي يُجري مكالمة خارجيّة إلى وينيبيغ لكي يعترف لشيبسي تيرشويل بأنَّ اليهود من شدّة الخوف وأنَّ المُعادين للساميّة من شدة الجراءة بحيث لم يعُد ممكناً في نيوارك - حيث استمرّت مسيرة الحاخام برينتز المهنيّة لحسن الحظ في فرض تأثيرها على القِوى السائدة ولم يكن قد فُرِضَ على أيّة عائلة يهوديّة حتى ذلك الحين ما هو أسوأ من الترحيل - لم يعُد ممكناً العيش كأُناسٍ عاديِّين. ولا أحد يعلم إنْ كان الاضطهاد الصريح الذي منعته الحكومة لا مفرّ منه، أم أنَّ الخوف من الاضطهاد شديدٌ إلى درجة أنَّ حتى رجلاً عمليّاً منهمكاً في أداء مهامه اليوميّة، رجلاً يبذل أقصى جهده لاحتواء الشك والقلق والغضب وأنْ يعمل وفقاً لِما يُمليه العقل، لا يستطيع أنْ يأمل في أنْ يُحافِظ على توازنه طويلاً.

اعترفَ والدي، نعم، لقد كان مُخطئاً طوال الوقت وكانت بيس وتيرشويل على صواب - ومن ثم، وبأقصى ما استطاع من جهد، نفضَ

عنه خجله من كل ما أساء التعامُل معه وأساء الحُكم عليه، بما في ذلك العنف غير المُتوقَّع الذي هشَّمَ، بالإضافة إلى طاولة القهوة، حاجز الاستقامة الجامدة الأبديّ الذي وقفَ حائلاً بين تنشئته الخشنة ومُثُله العُليا الناضجة. قال لشيبيسي تيرشويل «لقد سئمتُ، لا أستطيع أنْ أستمر في العيش من دون أنْ أعرف ما الذي سيحدثُ غداً». وانتقل حديثهما الهاتفي إلى موضوع الهجرة والخطوات التي ينبغي اتّخاذها والترتيبات التي يجب أنْ توضَع، بحيث إنّه في الوقت الذي غادرنا أنا وساندي المنزل، لم يعُد هناك سوء تفاهم بشأن كوننا خاضعين لقِوى حُشِدَتْ ضدنا وأننا نوشك أنْ نهرب ونُصبح أجانب. وبكيت طوال الطريق إلى المدرسة. لقد انتهت طفولتنا الأميركيّة الفريدة. وقريباً سوف يُصبح وطني الأم ليس أكثر من مسقط رأسي. حتى سيلدون في كينتكي أصبح أفضل حالاً الآن.

ولكنَّه انتهى. الكابوس انتهى. رحل ليندبرغ وأصبحنا آمنين، وإنْ كنتُ لن أتمكّن أبداً من إحياء ذلك الإحساس الهادئ بالأمان الذي نشأ داخل طفل صغير في جمهوريّة كبيرة، حامية، ومع أبويه المسؤولَين بشراسة.

مُقْتَطَف من
أرشيف صالة الأخبار في نيوارك

الثلاثاء، 6 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

تدفّقَ ثلاثة آلاف مُعزّ إلى القاعة الكبرى من محطة بنسلفانيا لكي يُشاهدوا تابوت والتر وينتشل المُجلَّل بالعَلَم. وتخطّى عدد الحضور حتى توقّعات مُحافِظ نيويورك فيوريللو لا غوارديا، الذي أصدر قراراً بتحويل عمليّة الاغتيال إلى يوم حِداد للمدينة كلّها على روح «الضحايا الأميركيين للعنف النازيّ»، تُوِّجَ بخطابٍ رسميّ في الجنازة تقرَّر أنْ يُلقيه فرانكلين ديلانو روزفلت. وخارج المحطة (كما في مواقع عديدة أخرى

في أرجاء المدينة)، قام رجال ونساء صامتون يرتدون ملابس حِداد بتوزيع أزرار سوداء بحجم نصف دولار مكتوب عليها السؤال التالي «أين هو ليندبرغ؟» قُبيل الظهيرة، وصل المُحافِظ لا غوارديا إلى استوديو محطة إذاعة المدينة، حيثُ خلع قبعته السوداء ذات الحافة العريضة (تذكار لجذور عهد فتوته في منطقة أريزونا بوصفه ابن قائد الفرقة الموسيقيّة للجيش الأميركيّ) لكي يتلو صلاة الرب؛ ثم اعتمر القبعة من جديد وأخذ يتلو بصوت مرتفع، بالعبريّة، الصلاة اليهوديّة على روح الميت. وعند منتصف الظهيرة، وحسب مرسوم صادر عن مجلس المدينة، فُرِضَتْ دقيقة صمت في قِطاعات المدينة الخمسة. وشوهد رجال الشرطة في كل مكان، في المقام الأول من أجل الإشراف على مظاهرات احتجاج نظّمتها منظومة من جماعات جناح اليمين تمركزت في يوركفيل ذات الأغلبيّة الألمانيّة - حي مانهاتن إلى الشمال من الحي الغربي العُلوي وجنوب هارلم حيث المراكز الإدارية الرئيسة للحركة النازيّة الأميركيّة - التي صادقتْ بتعصُّب على الرئيس وسياساته. وعند الساعة الواحدة بعد الظهر انتظم حرس الشرف من راكبي الدراجات الناريّة يتبعه رجال شرطة يضعون شرائط سوداء على أذرعهم مع موكب الجنازة المتشكِّل خارج محطّة بن، ورافقوا الموكب ببطء، بقيادة المُحافِظ في عربة جانبيّة لإحدى الدراجات الناريّة، متّجهين شمالاً على الجادة الثامنة، وشرقاً على طول الشارع السابع والخمسين، وشمالاً من جديد في الجادة الخامسة ومنها إلى الشارع الخامس والستين ومعبد إمانو-إل. وهناك، بين أصحاب المقامات الرفيعة الذين استدعاهم لا غوارديا لكي يشغلوا المعبد حتى آخر مقعدٍ فيه، حضر الأعضاء العشرة من وزارة روزفلت لعام 1940، والأربعة الذين عيّنهم روزفلت في المحكمة العُليا، والرئيس فيليب موري لمجلس المنظمات الصناعيّة، والرئيس وليم غرين لاتحاد العمّال الأميركيّ، والرئيس جون ل. لويس لاتحاد عمال المناجم، وروجر بولدوين من اتحاد الحريات المدنيّة الأميركيّة، بالإضافة إلى الحكّام

الديمقراطيين السابقين والحاليين، والشيوخ، وأعضاء الكونغرس من نيويورك، ونيو جيرزي، وبنسلفانيا، وكونكتيكت، من بينهم الطموحون الديمقراطيون المهزومون في المعركة الرئاسيّة لعام 1928، وحاكم نيويورك الأسبق آل سميث. وركّبَ عمّال البلدية مُكبّرات صوت خلال الليل ووُصِلتْ بأسلاك بأعمدة الهاتف ووضعوا أسلاكاً شائكة وعتبات أبواب في كل أنحاء المدينة وحملوا الخدمات التذكاريّة إلى أهالي نيويورك الذين تجمّعوا في شوارع أحياء مانهاتن كلها (ما عدا يوركفيل) وإلى آلاف القادمين من خارج المدينة الذين تجمّعوا بمُحاذاتهم - كل أولئك السيدات والسادة الأميركيين الذين كانوا يُصغون إلى والتر وينتشل أسبوعيّاً منذ أنْ خرج إلى الهواء في المرّة الأولى وحجّوا إلى مسقط رأسه لكي يُقدموا واجب الاحترام. وفعليّاً، كان كل رجل، وامرأة، وطفل بينهم يضع شارة التضامُن المتحدّية التي أضحتْ حينئذٍ موجودة في كل مكان، الزرّ الأبيض والأسود الذي يحمل عبارة «أين هو ليندبرغ؟».

فيوريللو لا غوارديا - معبود الطبقة العاملة في المدينة والرجل الواقعيّ؛ عضو الكونغرس السابق المتوهِّج الذي مثّل بشراسة منطقة شرق هارلم المُحتقنة التي يسكنها الإيطاليون الفقراء واليهود على مدى خمس سنوات من العُضويّة، والذي وصفَ في وقتٍ مُبكّر يعود حتى عام 1933 هتلر بأنه «مهووس منحرف» ونادى بمقاطعة البضائع الألمانيّة؛ والمتحدث العنيد بلسان النقابات، والمحتاجين، والعاطلين عن العمل الذي قاتل وحده تقريباً أعضاء الكونغرس الجمهوريين الذين لا يُنجزون أي شيء في عهد هوفر خلال العام القاتم الأول من فترة الكساد الاقتصاديّ، ونادى، أمام رُعب حزبه، بـ«إغراق الأثرياء» بالضرائب؛ الجمهوريّ الليبراليّ المُعادي للإصلاح التاماني[50] الذي كان مُحافِظ التكتُّل السياسيّ لثلاث فترات متتالية في المدينة الأشدّ اكتظاظاً

50- التاماني، أو القاعة التامانيّة: مركز الحزب الديمقراطي الأميركي، وكان معروفاً بالفساد السياسيّ. - المترجم

بالسكان في البلاد، المدينة الكبرى التي تقطنها أكبر كثافة من اليهود في نصف الكرة الأرضيّة - إنَّ لا غوارديا هو الوحيد بين أعضاء حزبه في التعبير جهاراً عن احتقاره لليندبرغ وللعقيدة النازيّة في التفوُّق الآريّ الذي عرَّفها (وهو نفسه ابن أمّ يهوديّة غير حريصة على العادات من مدينة تريست النمساويّة وأبٍ إيطاليّ حُرّ التفكير جاء إلى أميركا كموسيقيّ يعزف في السفينة) بأنّها المفهوم الكامن في جوهر مُعتقد ليندبرغ وفي الديانة الأميركيّة السائدة التي تدعو إلى عبادة الرئيس.

يقفُ لا غوارديا بجوار التابوت ويخطبُ في أصحاب المقامات الرفيعة بذلك الصوت نفسه ذي الطبقة الحادّة التي اشتهر باستخدامها في رواية المسلسلات الهزليّة في يوم الأحد عبر أثير محطّة الإذاعة لأطفال المدينة في صباح كل يوم أحد خلال فترة إضراب الصُحُف في نيويورك، كما يفعل أفضل الأعمام بكل صبر، لوحة بعد لوحة، وبالوناً بعد بالون، من قصة ديك تريسي إلى آني اليتيمة الصغيرة ومنها إلى باقي الحكايات الفكاهيّة المُتسلسلة.

قال المُحافِظ «يمكننا الاستغناء عن النفاق منذ البداية. إنَّ الجميع يعلمون أنَّ والتر لم يكن إنساناً محبوباً. والتر لم يكن من النوع القويّ، الصامت، الذي يُخفي كل شيء بل كان باحثاً عن الفضائح يكره كل ما هو مُستتر. ويمكن لأيِ شخص يعودُ إلى عموده الصحفي أنْ يُخبرك بأنَّ والتر لم يكن دائماً دقيقاً كما ربما كان. لم يكن حيّياً، ولا متواضعاً، لم يكن محتشماً، ولا كتوماً، ولا عطوفاً، إلى آخره. أصدقائي، إنْ كان لابد لي أنْ أسرد عليكم كل شيء جميل لم يكن والتر وينتشل يتّصِفُ به، فسوف أستمر حتى حلول العيد الكبير. وأخشى أنَّ المرحوم والتر وينتشل كان مجرد عيّنة غريبة من الرجل الناقص. وعندما أعلنَ ترشّحه لمنصب رئاسة الولايات المتحدة هل كانت دوافعه نقيّة كصابون أيفوري؟ دوافع والتر وينتشل؟ هل كان ترشّحهُ غير المنطقيّ خالياً من الأنانيّة الجامحة؟ يا أصدقائي، وحده تشارلز أ. ليندبرغ لديه دوافع نقيّة

كصابون أيفوري عندما يخوض معركة الرئاسة الأميركيّة. وحده تشارلز أ. ليندبرغ محتشم، وكتوم، إلى آخره - أوه، ودقيق أيضاً، دائماً دقيق دقّة تامّة عندما يستدعي كل بضعة أشهر الروح الجماعيّة لكي يُلقي تفاهاته العشر المُفضّلة على الأمّة. وحده تشارلز أ. ليندبرغ حاكم إيثاريّ وقديس قويّ، وصامت. أمّا والتر فكان كاتبَ عمود الفضائح. والتر كان، من ناحية أخرى، استعراضياً: يُحبّ الجمهور، ويحب الساعات المتأخّرة، ويُحبّ شرمان بيلينغسلي - ذات يوم قال لي أحدهم إنّه كان يحبّ حتى الفتيات. وإلغاء ذلك «الاختبار النبيل»، كما سمّاه السيد هربرت هوفر، إلغاء التعديل الثامن[51] عشر المُنافق، المُكلِف، الأحمق، الذي لا يمكن فرضه بالقوة، لم يجده والتر وينتشل خسيساً كما لم تجده بقيّتنا هنا في نيويورك. باختصار، كان والتر يفتقر إلى كل فضيلة برّاقة يستعرضها ربّان الاختبار[52] غير القابل للفساد المُستكين في البيت الأبيض.

«أوه نعم، هناك عدد آخر من الفروق تستحق الذِكر بين والتر غير المعصوم عن الخطأ وليندي المعصوم عن الخطأ. إنَّ رئيسنا فاشيٌّ مُتعاطِف، وحتماً فاشيٌّ بلا تحفُّظ - ووالتر وينتشل كان عدو الفاشيّ. إنَّ رئيسنا لا يحبّ اليهود وهو حتماً مُعادٍ للساميّة حتى النخاع بينما والتر وينتشل كان يهوديّاً وعدوّاً صاخباً، لا يتزعزع للمُعادين للساميّة. إنَّ رئيسنا مُعجب بأدولف هتلر وهو نفسه نازيّ صميم - وكان والتر وينتشل أول عدو أميركيّ لهتلر وأسوأ عدوّ أميركيٍّ له. هنا كان صاحبنا والتر الناقص غير قابل للفساد - وهذا هو المهمّ. إنَّ والتر صخّاب، والتر فائق السرعة، والتر يُكثِر من الكلام، ومع ذلك، بالمقارنة، تُعتبَر سوقيّة والتر شيئاً عظيماً، واحتشام ليندبرغ شنيعاً. إنَّ والتر وينتشل، يا أصدقائي، كان عدوّ النازيين في كل مكان، من دون استثناء أتباع الصليب المُزدوج

51- التعديل الثامن عشر: من الدستور الأميركي، والذي يقضي بمنع تداول المشروبات المُسكرة والذي تمَّ التصديق عليه في الكونغرس في عام 1919. - المترجم

52- ربّان الاختبار: ربّان طائرة متخصّص في اختبار الطائرات، يقصِد ليندبرغ. - المترجم

وعلامة السيف وبارنيل توماس الذي خدَمَ قائدهم الفوهرر في الكونغرس الأميركيّ، ولا ننسى أتباع هتلر الذين يكتبون لمصلحة صحيفة ***نيويورك جورنال-أميركان*** و***النيويورك دايلي نيوز***، ولا ننسى أيضاً الذين يحتفلون بكل إخلاص بالقتلة النازيين في بيتنا الأبيض الأميركيّ على حساب دافعي الضرائب. ***ولأنَّ*** والتر وينتشل عدو هتلر ***ولأنه*** عدو النازيّين قُتِلَ بالأمس في ظل تمثال توماس جيفرسون في الساحة العامة الجميلة والأبرز تاريخيّاً في لويسفيل العزيزة والجميلة. ولأنَّ والتر وينتشل جهر بما يُفكّر فيه في ولاية كينتكي، اغتاله نازيّو أميركا، والفضل في ذلك يعود لصمت رئيسنا القويّ، الصامت، والإيثاريّ، الذي يكتسح هذه الأرض العظيمة. ألا يمكن لهذا أنْ يحدث هنا؟ يا أصدقائي، بل هو يحدثُ ***فعلاً*** هنا - وأين هو ليندبرغ؟ *أين ليندبرغ؟*».

في الشوارع، أولئك الذين يستمعون مجتمعين حول مُكبّرات الصوت استلموا صراخ المحافظ، وسرعان ما اجتاح هتافهم بصورة غريبة المدينة برُّمتها - «أين هو *ليند*-بيرغ؟ أين ليندبرغ؟» - في حين كان المُحافِظ داخل الكنيس يُردِّد ويُكرِّر مقاطعه الأربعة الغاضبة، وهو يضرب بقوة وحنق على المنبر ليس كما يُشدِّد خطيب بصورة مسرحيّة على نقطة ما بل كمواطن حانق يُطالب بالحقيقة. «أين هو ليندبرغ؟» بهذه الخاتمة المُزمجرة أعدَّ لا غوارديا ذو الوجه الأحمر جمهورَ المُعزّين للظهور الفخم لفرانكلين ديلانو روزفلت، الذي أذهلَ حتى أقرب أقرانه من السياسيين (هوبكينز، ومورغينثاو، وفارلي، وبيرل، وباروخ، وكلهم كانوا جالسين معتمرين قبعاتهم على مسافة لا تزيد على قَدَم من تابوت المُرشَّح الشهيد، الذي لم يكن نمط جنون العَظَمَة لديه يروق للدائرة الداخليّة في البيت الأبيض، حتى وإنْ كان مُتحدثاً مُفيداً لزعيمهم) بتعيين روزفلت خَلَفاً لوينتشل، وهو السياسيّ المحنّك، البارع، المُحتقِر، السريع الغضب، العنيد الأحمق، القصير الممتلئ، الواقف بطول خمسة أقدام وبوصتين ومعروف بحب لدى ناخبيه المُخلصين باسم «الزهرة الصغيرة». ومن

على منبر معبد إيمانو-إل، يتعهّد الرئيس الاسميّ للحزب الديمقراطي بدعم المُحافِظ الجمهوريّ لنيويورك بوصفِهِ مُرشّح «الوحدة الوطنيّة» خِلافاً لسعي ليندبرغ لفترة رئاسية ثانية في عام 1944.

الأربعاء، 7 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

تُغادر طائرة «*روح سينت لويس*» يقودها الرئيس ليندبرغ في الصباح من لونغ أيلند، مُقلِعةً من المُدرَّج الذي كان في وقت من الأوقات مُنطلَق رحلة الطيران الوحيدة عبر المُحيط في العشرين من شهر أيار (مايو)، عام 1927. وتمخرُ الطائرة، من دون مُرافِق للحماية، سماء خريف صافية عبر نيو جيرزي، وبنسلفانيا، وأوهايو، ومنها إلى كينتكي. وقبل ساعة فقط من هبوطها تحت شمس منتصف النهار الساطعة على أرض مطار لويسفيل التجاريّ يُبلّغ الرئيسُ البيتَ الأبيض بوجهتِهِ. وقد أتاح توقيته ما يكفي من الوقت لإبلاغ مُحافِظ لويسفيل ويلسون وايات والمدينة وسكّانها لكي يستعدّوا لوصول الرئيس. وكان هناك عامل ميكانيكي على أُهبة الاستعداد لتفحُّص الطائرة وضبطها وتجهيزها من أجل رحلة العودة.

من بين عدد سكان لويسفيل البالغ 320000 نسمة، يُقدِّر رجال الشرطة أنَّ على الأقلّ ثُلثهم قطع خمسة أميال شاقة من المدينة وتزاحموا في الحقول والطرقات المُجاورة لأرض مطار باومان عندما حطَّ الرئيس وتوقف بطائرته بسلاسة على رصيف وُضِعَ فيه مايكروفون لكي يخطب منه في الحشد الشاسع. وعندما بدأ هدير تهليلهم العظيم يخفت أخيراً وأصبح في الإمكان سماع صوته، لم يأتِ الرئيس على أي ذِكر لوالتر وينتشل، ولم يُلمِّح إلى عمليّة الاغتيال التي تمّت قبل ذلك بيومَين أو إلى الجنازة التي أُجريَتْ في اليوم السابق أو إلى الخطاب الذي ألقاه المحافظ لا غوارديا بمناسبة تعيين فرانكلين روزفلت خليفة لوالتر وينتشل في كنيس نيويورك. لم يُضطر إلى ذلك. فقد كان نائب الرئيس ويلر قد شرحَ بإطناب في خطاب واشنطن المُرتَجل الذي ألقاه أمام مؤتمر الرابطة

الأميركيّة في الليلة السابقة، أنَّ لا غوارديا، على غرار والتر وينتشل من قبله، ليس أكثر من دريئة لفرانك ديلاني روزفلت في سعيه الاستبداديّ إلى قضاء فترة رئاسيّة ثالثة غير مسبوقة، وأنَّ الذين يدعمون «لا غوارديا الشرير الذي يُشهِّر برئيسنا» هم أنفسهم الذين سيُجبرون أميركا للانضمام إلى الحرب في عام 1940.

إنَّ كل ما قاله الرئيس للحشد هو «أن بلدنا في حالة سلم. وشعبنا يعمل. وأطفالنا يترددون على المدرسة. لقد أتيتُ إلى هنا لكي أُذكِّركم بهذا. والآن سوف أعود إلى واشنطن لكي أبقي الأحوال على هذا المنوال». كانت مجرد سلسلة بريئة من الجُمَل، ولكن بالنسبة إلى عشرات الآلاف من أهالي كينتكي أولئك الذين كانوا موضع اهتمامٍ وطنيّ طوال يومَين بدا كأنّه أعلنَ نهاية المشقّة على هذه الأرض. هرجٌ مرةً أخرى، بينما الرئيس يلوِّح بيده مرة واحدة وباقتضاب، وهو يحشر هيكله النحيل والطويل من جديد داخل مقصورة الطائرة ومن مهبط الطائرة يُشير ميكانيكيٌّ مُبتسم بمفتاح الربط إلى أنَّ كل شيء قد تمّ فحصه وأصبح جاهزاً للانطلاق. يدور المُحرِّك، ويُلوِّح «النسر المتوحِّد» مودِّعاً للمرة الأخيرة، وباندفاع ومع هدير ترتفع «*روح سينت لويس*» متحرِّرة من ولاية دانييل بون[53] ذات البريّة الرائعة، شيئاً فشيئاً، رويداً رويداً، حتى يكاد ليندي (كما كان يفعل وهو طفل يندفع في كل مكان، ويهبط بالمظلة في الجو، ويقوم بأعمال جريئة بالوقوف على جناح الطائرة، ويطير بعلوّ منخفض فوق البلدات الزراعيّة في الغرب - وأمام ابتهاج الجمهور المتحمّس) يكاد يقطع بفارق شَعرة أسلاك الهاتف المتدلّية من الأعمدة على طول الطريق 58. وترتفع بثبات داخل الريح الخلفيّة الرقيقة، والدافئة، أشهر طائرة صغيرة في تاريخ الطيران - النظير المُعاصِر لسفينة كريستوف كولومبوس

53- دانييل بون (1734-1820): رائد، ومُكتشف، ودليل أميركيّ، خاصة في ولاية كينتكي. - المترجم

«*سانتا ماريا*» وسفينة الحجّاج[54] «*ماي فلور*» - وتختفي في جهة الشرق، ولا تُرى من جديد.

الخميس، 8 تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942

لم تتوصّل عمليات البحث الميدانيّة لخط الطيران المنتظم بين لويسفيل وواشنطن إلى أي دليل على وجود حُطام على الرغم من الطقس الخريفيّ الممتاز الذي أتاح لفِرَق البحث المحلّيّة التوغُّل عميقاً داخل سلسلة الجبال المُتعرّجة في ويست فيرجينيا والطواف فوق الأراضي الزراعيّة المحروثة في ميريلاند وأتاح للسلطات المحلّيّة أنْ تُرسِل رجال شرطة إلى شواطئ ولاية ميريلاند وديلاور طوال ساعات النهار. وبعد الظهيرة انضم الجيش، وحرس السواحل، والقِوى البحريّة إلى فريق البحث، بالإضافة إلى مئات الرجال والفتية في كل مقاطعة من كل ولاية تقع شرق نهر المسيسيبي تطوّعوا لمساعدة وحدات الحرس الوطنيّ التي استدعاها حُكّام الولايات. ومع ذلك مع حلول موعد العشاء في واشنطن لم يكن قد ورد أي تقرير عن مشاهدة الطائرة أو حطامها، وهكذا عند الساعة الثامنة مساءً، استُدعيَتِ الوزارة إلى عقد اجتماعٍ طارئ في منزل نائب الرئيس. وهناك أعلنَ برتون ك. ويلر أنّه بعد استشارة السيدة الأولى وأغلبيّة قادة البيت الأبيض ومجلس الشيوخ ورئيس المحكمة العليا، يرى أنَّ من مصلحة البلد أنْ يتولّى القيام بواجبات الرئيس العامل وِفقاً للمادة الثانية، من الجزء الأول من الدستور الأميركيّ.

في العديد من الصحف، كان العنوان المسائيّ، الذي ظهر بأحرف كبيرة، سوداء، وشوهد على صفحات الصحف الأميركيّة بصورة لم تعهدها منذ انهيار سوق البورصة في عام 1929 (وكان المقصود إنزال الخزي بفيوريللو لا غوارديا)، يقول بكل رصانة «*أين ليندبرغ؟*».

54- الرحلة المُشار إليها هي رحلة المستكشفين الأوائل في أميركا عام 1620 من بليموث إلى ماساتشوستس. - المترجم

الجمعة، 9 تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942

مع حلول ساعة استيقاظ الأميركيين ليبدأوا نهاراً جديداً، كانت الأحكام العُرفيّة قد فُرِضَتْ على جميع أراضي داخل الولايات المتحدة وفي المناطق وعلى الممتلكات. وعند الظهيرة ينتقل الرئيس المؤقّتْ ويلر تحت حراسة الجيش إلى مبنى الكابيتول، ومن هناك يُعلِن أمام جلسة طارئة ومُغلَقة للكونغرس أنَّ الإف بي آي تلقّى معلومات تؤكّدُ أنَّ الرئيس قد اختُطِفَ وتحتجزه جهاتٌ مجهولة في موقع في مكان ما من أميركا الشماليّة. ويُطمئن الرئيسُ العامل الكونغرسَ بأنَّ الخطوات اللازمة كلّها قد اتّخذتْ لضمان إطلاق سراح الرئيس وإحضار مُرتكبي الجريمة ليمثلوا أمام العدالة. وفي تلك الأثناء أُغلِقَتْ حدود البلاد مع كندا والمكسيك، وأُغلِقَت المطارات والموانئ، وقال الرئيس المؤقّتْ إنَّه سوف يتمّ الحِفاظ على القانون والنظام في منطقة كولومبيا على أيدي القوات المُسلّحة الأميركيّة وفي أماكن أخرى بالحرس القومي بالتنسيق مع الإف بي آي وسلطات الشرطة المحليّة.

من جديد!

هذا ما يقوله العنوان المؤلَّف من كلمتين على كل صحف هيرست في البلد ومطبوعة فوق صور لطفل ليندبرغ الصغير، الذي كانت قد التُقِطَتْ آخر صورة له في عام 1939، قبل أيام من اختطافه وهو في عمر عشرين شهراً.

السبت، 10 تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942

أعلنَت إذاعة الدولة الألمانيّة أنّه اكتُشِفَ أنَّ اختطاف تشارلز أ. ليندبرغ، الرئيس الثالث والثلاثين للولايات المتحدة والموقِّع على معاهدة التفاهم الأميركيّة التاريخيّة في أيسلندا مع الرايخ الثالث، قد ارتُكِبَ بمؤامرة

تضمّ «مصالح يهوديّة». وقد أُعدَّت بيانات في مخابرات قوات الدفاع المُسلّحة النازيّة لتعزيز تقارير أوّليّة صادرة عن وزارة الدولة مفادها أنَّ المؤامرة وضعها المُحرِّض على الحرب روزفلت - بالتواطؤ مع سكرتير وزارة الماليّة اليهوديّ، موغينثاو، رئيس المحكمة العليا في وزارته، من فرانكفورت، وصاحب مصرف الاستثمار اليهوديّ باروخ - ومموّلها المُرابيان اليهوديان العالميان واربرغ وروثشيلد ونُفِّذَتْ تحت إمرة تابع روزفلت الهجين، رجل العصابة نصف اليهوديّ، لا غوارديا، محافظ مدينة نيويورك اليهوديّة، بالإضافة إلى حاكم ولاية نيويورك اليهودي صاحب النفوذ، المصرفيّ ليمان، من أجل إعادة روزفلت إلى البيت الأبيض وشن حرب يهوديّة شاملة على العالم غير اليهوديّ. وبيانات المُخابرات، التي نُقِلَتْ إلى الإف بي آي عبر السفارة الألمانيّة في واشنطن، زعمتْ أنَّ اغتيال والتر وينتشل خُطِّطَ له ونُفِّذَ على أيدي العُصبة اليهوديّة نفسها التابعة لروزفلت - ويُتوقَّع أنْ ينسبوا ارتكاب الجريمة إلى أميركيين من أصل ألمانيّ - وتعزيزاً لحملة «*أين ليندبرغ؟*» الشريرة، التي بدورها دفعَت الرئيس إلى أنْ يستقلّ الطائرة وينتقل إلى مسرح جريمة الاغتيال لكي يُطمئن سكان لويسفيل، في كينتكي، الذين كانوا خائفين بصورة مُبرَّرة من وقوع عملية انتقاميّة يهوديّة مُنظّمة. ولكن هناك - وفقاً لتقارير مخابرات قوات الدفاع النازيّة - بينما الرئيس يخطب في الحشود، قام عامل ميكانيكي في المطار رَشَتْهُ عُصبة المؤامرة اليهوديّة (وقد اختفى هو نفسه وساد اعتقادٌ بأنّه اغتيلَ بأمرٍ من لا غوارديا) بتعطيل جهاز اللاسلكي في الطائرة. وحالما أقلعَ الرئيس قاصداً واشنطن لم يتمكّن من الاتصال بالمحطة الأرضيّة أو مع طائرة أخرى ولم يعُد أمامه من خيار غير الاستسلام عندما حوصِرَتْ طائرة «*روح سينت لويس*» بطائرات بريطانيّة مُقاتِلة تطير على ارتفاع عالٍ، أجبرته على حرف مساره وعلى النزول إلى الأرض، بعد بضع ساعات، على أرض مطارٍ تحتفظ به سراً المصالحُ اليهوديّة العالميّة عبر الحدود الكنديّة من ولاية نيويورك في ظل حكم ليمان.

في أميركا، يحثُّ الإعلان الألمانيّ المحافظ لا غوارديا على إبلاغ مُراسلي مجلس المدينة، «إنَّ أيّ أميركيّ يُصدِّق ذلك الهراء النازيّ الكاذب فقد غاص إلى أسفل السافلين». ومع ذلك، وحسب مصادر مطّلعة، قام عناصر من الإف بي آي باستجواب المُحافِظ والحاكم مُطوّلاً، ووزير الداخليّة فورد يُطالب بأنْ يقوم ماكنزي كينغ، رئيس وزراء كندا، بإجراء بحث مُكثّف على الأراضي الكنديّة عن الرئيس ليندبرغ وخاطفيه. ونُقِلَ أنَّ الرئيس العامل ويلر يتفحّص الوثائق الألمانيّة بمساعدات من البيت الأبيض ولكنّه لن يُدلي بأي تعليق حول الادّعاءات إلّا بعد الانتهاء من عملية البحث عن طائرة الرئيس. والمُدمرات البحرية مع قوارب حرس السواحل السريعة تبحث الآن عن دلائل تحطُّم طائرة حتى شمال كيب ماي، في نيو جيرزي، وجنوباً حتى كيب هاتيراس، في كارولاينا الشماليّة، بينما تستمر وحدات من الجيش، وقوات البحرية، والحرس القومي في عشرين ولاية في البحث عن أدلّة حول مكان الطائرة المفقودة.

لم تُبلِّغ وحدات الحرس الوطني التي تفرض حظر التجوال في أرجاء البلاد كلّها عن أيّة أعمال عُنف أثارها اختفاء الرئيس. وفي ظل الأحكام العُرفيّة، تبقى أميركا هادئة، على الرغم من أنَّ زعيم عصابة الكو كلوكس كلان الكبير وزعيم الحزب النازي الأميركي دعيا معاً الرئيس المؤقّتَ «إلى فرض إجراءات صارمة لحماية أميركا من حدوث انقلابٍ يهوديّ».

في تلك الأثناء تُرسل لجنة من رجال الدين اليهود الأميركيين بقيادة الحاخام ستيفن وايز من نيويورك برقيات إلى السيدة الأولى تُعبِّرُ فيها عن أعمق تعاطفها وسط حاجة عائلتها الماسّة إلى ذلك. وشوهد الحاخام بنغلسدورف يدخل البيت الأبيض في ساعات المساء الأولى، وقيل إنّه كان يُلبّي طلباً من السيدة ليندبرغ لكي يُقدِّم للعائلة هداية روحيّة خلال ما كان حتى ذلك الحين اليوم الثالث من صلوات المساء. وقد فُسِّرتْ دعوة البيت الأبيض للحاخام على نِطاقٍ واسع بأنها تُشير إلى رفض السيدة الأولى قبول فكرة اختفاء زوجها.

الأحد، 11 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

أُقيمت الطقوس في الكنائس في أرجاء البلاد كلّها، وقُدِّمَت الصلوات باسم عائلة ليندبرغ. وكانت شبكة محطات الراديو الثلاث الكبرى تُلغي برامجها المُقرَّرة بانتظام لكي تبثّ نقلاً حيّاً للطقوس الكنسيّة التي تُقام في الكاتدرائيّة الوطنيّة في واشنطن، حيث تحضر السيدة الأولى مع أولادها القدّاس، وما تبقّى من النهار وحتى المساء كانت البرامج تُخصَّص حصراً لبثّ موسيقى مُلهِمة. وعند الساعة الثامنة مساءً، كان الرئيس المؤقّتُ ويلر يخطبُ في الأمّة، ويُطمئن إخوانه الأميركيين بأنّه ليستْ هناك نيّة في التخلّي عن عمليات البحث. وأخبرهم بأنَّه بدعوة من رئيس الوزراء الكنديّ سوف يساعد ممثلون عن وكالات التنفيذ التابعة للقضاء الأميركيّ رجال الشرطة الملكيّة الكنديّة الراكبة في مسح الجزء الشرقيّ من الحدود الأميركيّة الكنديّة ومقاطعات الجنوب الأقصى من المحافظات الكنديّة الشرقيّة.

بما أنَّ الحاخام بنغلسدورف برز كمتحدث رسميّ باسم السيدة الأولى، فهو يُخبر مجموعة كبيرة من المراسلين المنتظرين في الرواق المُعمَّد للبيت الأبيض بأنَّ السيدة ليندبرغ تحثّ الشعب الأميركيّ على تجاهُل التخمين الصادر عن أيّة حكومة أجنبيّة بخصوص ظروف اختفاء زوجها. وتذكّر الناس، كما يقول الحاخام، بأنّه في عام 1926، وبينما كان الرئيس يعمل كربّان للبريد الجوّيّ على خط سينت لويس- شيكاغو، نجا مرتين، ومن دون أنْ يناله أي أذى، من حوادث تحطُّم دمّرت طائرته، وأنَّ السيدة الأولى تعتقد حالياً أنَّه سوف يتمّ العثور على الرئيس مرّة أخرى حيّاً إنْ كان قد وقع حادث تحطُّم ثان. وتبقى السيدة الأولى غير مُقتنعة، كما يقول الحاخام، بالدليل على عمليّة الاختطاف الذي عرضه عليها الرئيس المؤقّتْ. وعندما سُئِلَ الحاخام بنغلسدورف لماذا لا تتحدّث السيدة ليندبرغ بالأصالة عن نفسها ولماذا تُمنَع الصحافة من استجوابها مباشرة، أجاب، «تذكّروا أنَّ هذه ليست المرّة الأولى خلال سنوات عمر السيدة ليندبرغ الست والثلاثين التي يُطلَب منها أنْ تتعامل مع طلبات الصحافة

وهي تعاني من أشدّ أزمات العائلة خطراً. إنني أعتقد أنَّ الأميركيين جميعاً يرغبون في قبول أي ترتيب ترى السيدة الأولى أنّه يُشكّل أفضل حماية لحياتها وحياة أولادها الخاصة طوال مدة استمرار عمليات البحث». وعندما سُئِلَ إنْ كان هناك أي قدر من الحقيقة في الشائعات القائلة إنَّ ليونيل بنغلسدورف هو مَنْ لاحظ سلوك السيدة الأولى في الكاتدرائيّة في صباح هذا اليوم يستطيع أنْ يرى أنها مؤهّلة فكريّاً تماماً، وبكامل قِواها العقليّة، وأنّه على الرغم من فداحة الوضع، فلا عقلها ولا حكمها كانا فاسدين بأي حال».

على الرغم من تطمينات الحاخام، فإنَّ حكايات دارت في وسائل الإعلام حول الشكوك التي أبداها «مسؤول حكوميّ رفيع المستوى» - يُعتقَد أنّه الوزير فورد - مفادها أنَّ السيدة الأولى أضحتْ أسيرة «الحاخام راسبوتين»، المتحدِّث اليهوديّ الذي يُعتبَر مُساوياً في تأثيره على زوجة الرئيس للراهب القرويّ السيبيري المجنون الذي تحكَّم بمكر بعقول قيصر وقيصرة روسيا وتحكَّم بالقصر الملكيّ كلّه في الأيام التي أدّت إلى الثورة الروسيّة، والذي لم ينته حكمه المجنون إلّا باغتياله على يد متآمر من الطبقة الأرستقراطيّة الوطنيّة الروسيّة.

الإثنين، 12 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

نقلت الصحف البريطانيّة الصباحيّة أنَّ المخابرات البريطانيّة سلَّمتِ الإف بي آي الألمانيّة الاتّصالات المُشفّرة التي تُثبت من دون أدنى شك أنَّ الرئيس ليندبرغ حيٌّ وموجود في برلين. وأكّدت المخابرات البريطانيّة أنّه في السابع من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وانسجاماً مع الخطة الطويلة الأمد التي وضعها قائد القوى الجويّة هرمان غورينغ، نجحَ رئيس الولايات المتحدة في الهبوط بطائرته «*روح سينت لويس*» اضطراريّاً عند إحداثيات مُحدَّدة مُسبقاً في المحيط الأطلسي على مسافة حوالي ثلاثمئة ميل إلى الشرق من واشنطن. وهناك اكتشفته غوّاصة ألمانيّة كانت تنتظره ونقلته

طاقمها إلى طائرة بحريّة ألمانيّة تنتظر قبالة شواطئ البورتغال ونقلته إلى كوتور في مونت نيغرو التي تحتلها إيطاليا في البحر الأدرياتيكي. وصودر حُطام طائرة الرئيس وحُمِلَ على متن سفينة شحن عسكريّة ألمانيّة، وفُكِّكَ، ووُضِعَ في أقفاص، ونُقِلَ إلى أحد مخازن الغيستابو في بريمن. أما الرئيس نفسه فطار من مطار في كوتور إلى ألمانيا على متن طائرة لوفتفاف مموَّهة، بمُصاحبة قائد الطيران غورينغ، وإبّان وصوله إلى قاعدة لوفتفاف الجويّة أُخِذَ إلى مخبأ هتلر في برخيسغادن ليجتمع بالفوهرر.

صادقَتْ مجموعاتُ المقاومةِ الصربيّةِ في يوغوسلافيا على تقارير المخابرات البريطانيّة على أساس معلومات زوّدتها مصادر داخل حكومة بلغراد التي عيّنتها ألمانيا برئاسة الجنرال ميلان نيديتش، الذي أدار وزير داخليته العمليّة البحريّة في ميناء كوتور.

في نيويورك، يُخبر لا غوارديا المراسلين، «إذا صحَّ أنْ رئيسنا قد طار طوعاً إلى ألمانيا النازيّة، وإذا صحَّ أنّه، منذ أنْ أدلى بقَسَم استلام المنصِب، كان يعمل من البيت الأبيض كعميلٍ نازيّ، وإذا صحَّ أنَّ سياساتنا الداخليّة والخارجيّة كان يُلقّنها النظام النازيُّ لرئيسنا الذي يستبدّ بالقارة الأوروبيّة بأكملها، فإنَّني أعجز عن استحضار الكلمات التي تصِفُ خيانةً لا نظير لخبثِها في التاريخ الإنساني كله».

على الرغم من فرض الأحكام العرفيّة وحظر التجوال في طول البلاد وعرضها، وعلى الرغم من وجود قوات حرس وطني مُدجّجة بالأسلحة تجوب شوارع كل مدينة كبيرة في أميركا، فإنّ أعمال الشغب المُعادية للساميّة كانت تبدأ مع غروب الشمس في ألاباما، وإلينويز، وإنديانا، وإيوا، وكينتكي، وميسوري، وأوهايو، وكارولاينا الجنوبيّة، وتنيسي، وكارولاينا الشماليّة، وفيرجينيا، وتستمر طوال الليل وحتى الصباح الباكر. ولا تتمكّن القوات الفيدراليّة - التي نشرها الرئيس المؤقّت ويلر من أجل دعم وحدات الحرس الوطنيّ - من قمع تلك الاضطرابات والتحكُّم بأسوأ الحرائق التي أضرمها مُثيرو الشغب، حتى قُرابة الساعة

الثامنة صباحاً. وحتى ذلك الحين كان 122 مواطناً أميركيّاً قد فقدوا حياتهم.

الثلاثاء، 13 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

في خطابٍ بُثَّ عبر المذياع عند الظهيرة، يضعُ الرئيس المؤقَّتُ ويلر مسؤوليّة أعمال الشغب على كاهل «الحكومة البريطانيّة وداعميها الأميركيين المُحرضين على الحرب».

«بعد أنْ نشروا كذباً أشدّ التُهَم خُبثاً قاطبة ضد شخصٍ وطنيّ بقامة تشارلز أ. ليندبرغ، ماذا يتوقَّع أولئك القوم من أمّةٍ تتألّم أصلاً لاختفاء قائد محبوب؟»، ويقول الرئيس المؤقَّت «لكي يدعم أولئك القوم مصلحتهم الاقتصاديّة والعرقيّة قرّروا أنْ يُجرّبوا ذلك إلى أقصى مدى على ضمير أمّة كسيرة القلب، وماذا يتوقعون عندئذٍ أنْ يحدث؟ أستطيع أنْ أُبلّغكم بأنَّ النظام قد استُرِدَّ إلى مُدننا المُخرَّبة في كل أرجاء الجنوب والغرب الأوسط، ولكن كم دفعنا ثمناً من هدوء بال أمّتنا؟».

ثم صدر بعد ذلك تصريح عن زوجة الرئيس عبر الحاخام بنغلسدورف. ومرة أخرى تنصح السيدة الأولى أبناء بلدها بتجاهُل كل الافتراضات غير المؤكَّدة عن حادث اختفاء زوجها صادرة عن عواصِم أجنبيّة، وتطلب من حكومة الولايات المتحدة الإنهاء الفوريّ للبحث الذي دام أسبوعاً عن طائرة زوجها. وتُبدي السيدة الأولى رغبتها في أنْ يتذكّر بلدها المصيبة المأساوية لإميليا إيرهارت أعظم ربّانة طائرة في العالم التي قامت، بعد محاولة الرئيس ليندبرغ الرائدة، بالطيران الشهير وحدها عبر المحيط الأطلسي في عام 1932، لكنّها اختفتْ من دون أنْ تترك أيّ أثر في عام 1937 بينما كانت تقوم بالطيران وحدها عبر المحيط الهادئ. ويُخبر الحاخام بنغلسدورف الصحافة قائلاً «إنّها ربّانة متمرّسة بحدّ ذاتها. وقد استنتجت السيدة الأولى أنَّ شيئاً مُشابهاً جداً لِما حدث لإميليا إيرهارت يبدو أنّه وقع للرئيس. إنَّ الحياة لا تخلو من المخاطرة،

وعالم الطيران، طبعاً، لا يخلو من مخاطرة، خاصة بالنسبة إلى أمثال إميليا إيرهارت وتشارلز أ. ليندبرغ، اللذين أطلقت جرأتهما وشجاعتهما كطيّارَين مفردين وحدهما عصر الطيران الذي نعيشه الآن».

مرة أُخرى رُفِضَتْ طلبات من المُراسلين الصحفيين للقاء السيدة الأولى عبر المُتحدث الرسمي باسمها، مُطالبين الوزير فورد بإلقاء القبض على الحاخام راسبوتين.

الأربعاء، 14 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

في أول المساء يدعو المحافظ لا غوارديا إلى عقد مؤتمر صحفيّ من أجل لفت الانتباه خاصة إلى ثلاث ظواهر للـ «فوضى العارمة التي تُهدِّد سلامة عقل الأمّة».

أولاً، مقالة افتتاحيّة في صحيفة «*شيكاغو تريبيون*»، صدرتْ في برلين، تقول إنَّ ابن الرئيس والسيدة ليندبرغ البالغ اثني عشر عاماً من العمر - الطفل الذي اعتُقِدَ أنّه اختُطِفَ وقُتِلَ في نيو جيرزي في عام 1932 - انضمَّ إلى والده في بيرختسغادن بعد أنْ أنقذه النازيّون من زنزانة في كراكاو، في بولندا، حيثُ سُجِنَ في حيّ المدينة اليهوديّ منذ اختفائه وحيث كان يُسحَب من الصبي الأسير، في كل عام، دمٌ من أجل استخدامه في طقوس إعداد خبز الفطير في عيد الفصح اليهوديّ.

ثانياً، يُقدِّم الجمهوريون الوطنيون مُذكّرة يدعون فيها إلى إعلان الحرب على دولة كندا المُستقلّة إذا فشلَ رئيس الوزراء كينغ في الكشف عن مكان رئيس أميركا المفقود خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.

ثالثاً، تقول وكالات فرض القانون في الجنوب وفي وسط الغرب إنَّ «ما يُسمى أعمال الشغب المُعادية للساميّة» التي وقعتْ في الثاني عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) حرَّضَت عليها «عناصر يهوديّة محلّية» تعمل كجزءٍ من «مؤامرة يهوديّة بعيدة المدى تنوي تحطيم معنويات البلد». ومن بين الـ 122 قتيلاً في أعمال الشغب، تمَّ التعرُّف حتى الآن إلى 97

منهم بأنهم «مُحرّضون يهود» يسعون إلى حرف الشك عن الجماعة نفسها المسؤولة عن إثارة الفوضى ويُخطّطون للهيمنة على الحكومة الفيدراليّة.

يقول المحافظ لا غوارديا، «هناك حقاً مؤامرة تُحاك، ويُسعدني أنْ أذكر أسماء القِوى المُحرّضة عليها - إنها الهستريا، والجهل، والخبث، والحمق، والكراهيّة، والخوف. أي مشهد بغيض تحوَّلَ إليه بلدنا! الزيف، الوحشيّة، والجنون في كل مكان، والقوّة الهمجيّة تستعد في انتظار القضاء علينا كلنا. وها نحن نقرأ في «*شيكاغو تريبيون*» أنّه طوال تلك السنين كلها كان الخبّازون اليهود البارعون يستخدمون دماء طفل ليندبرغ المخطوف من أجل إعداد خبز عيد الفصح اليهودي في بولندا - وهي قصّة تبدو جنونيّة اليوم كما بدت عندما لفّقها المهووسون المُعادون للساميّة في المرة الأولى قبل خمسمئة عام. كم سيفرح الفوهرر أنْ يتسمَّم بلدنا بهذا الهراء الشرير. المصالح اليهوديّة. العناصر اليهوديّة. المُرابون اليهود. الردّ اليهودي الانتقاميّ، المؤامرات اليهوديّة. حربٌ يهوديّة على العالم. استعباد أميركا بهذه الخزعبلات! أسر تفكير أعظم أمّة في العالم من دون نطق كلمة حق واحدة! آه، ما أعظم السرور الذي نُقدّمه لأشد الرجال حقداً على وجه الأرض!

الخميس، 15 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

قُبيل الفجر مباشرة ألقتِ الإف بي آي القبض على الحاخام ليونيل بنغلسدورف للاشتباه في أنّه «من بين زعماء التآمُر اليهوديّ على أميركا». وفي الوقت نفسه نقلتْ سيارة إسعاف من البيت الأبيض السيدة الأولى، التي قيل إنها تعاني من «إرهاق عصبيّ شديد»، إلى مستشفى والتر ريد العسكري. وأُلقيَ القبض على آخرين عند اجتماعهم في الصباح الباكر بمَنْ فيهم الحاكم ليمان، وبرنارد باروخ، والقاضي فرانكفورتر، ووصيّ فرانكفورتر ومدير أعمال روزفلت ديفيد ليلينثال، ومُستشارا برنامج نيو ديل أدولف بيرل وسام روزنمان، وزعيما العمال ديفيد دابنسكي وسيدني

هيلمان، والاقتصاديّ إيزادور لوبين، والصحفيان اليساريان إ. ف. ستون وجيمس ويشسلر، والاشتراكيّ لويس والدمان. وقيل إنَّ المزيد من عمليات الاعتقال سوف تتم قريباً، لكنَّ الإف بي آي لم تكشف النقاب عما إذا كانت تُهمة التآمُر لاختطاف الرئيس سوف تُوجَّه إلى أيّ من المُشتبهين أو كلهم.

دخلتْ دبابات ووحدات من المُشاة من الجيش الأميركيّ نيويورك لكي تُساعد الحرس الوطني في عملية إخماد أعمال عنف متقطّعة ضد الحكومة. وفي شيكاغو، وفيلادلفيا وبوسطن نتجتْ عن محاولات إعداد مظاهرات احتجاج ضد الإف بي آي - مظاهرات تخرق الأحكام العُرفيّة - جراح سطحيّة فقط، على الرغم من أنَّ عمليات الاعتقال وصل عددها إلى المئات حسب تقارير الشرطة.

في الكونغرس، مدح زعماء الجمهوريين الإف بي آي لإحباطها مؤامرة المتآمرين. وفي نيويورك، انضمّ إلى المحافظ لا غوارديا في المؤتمر الصحفيّ إلينور روزفلت وروجر بولدوين من نقابة الحريات المدنيّة الأميركيّة. طالبوا بإطلاق سراحَ فوريّ للحاكم ليمان بالإضافة إلى شركائه في المؤامرة المزعومين. وبعد ذلك أُلقيَ القبض على لا غوارديا في قصر المحافِظ.

لكي يخطب الرئيس السابق روزفلت في تظاهرة احتجاج طارئة دعت إليها لجنة مواطنين في نيويورك، سافر من منزله في هايد بارك إلى نيويورك؛ «ولضمان حمايته» قامت الشرطة باحتجازه. وأغلقَ الجيش الأميركيّ مكاتب الصُحُف كلها ومحطات الإذاعة في نيويورك، حيث سيُفرَض حظر التجوّل حسب الأحكامَ العُرفيّة بعد هبوط الليل وعلى مدار الساعة حتى إشعارٍ آخر. وسدّت الدبابات الجسور كلها والأنفاق المؤدية إلى المدينة.

في بوفالو يُعلنُ المُحافظ عن نيّته بتوزيع أقنعة الغاز على سكان المدينة، ويبدأ مُحافظ روتشستر المُجاورة برنامج الاحتماء من القنابل

«من أجل حماية سكاننا في حال وقوع هجوم كنديّ مُفاجئ». وأعلنتْ شركة البث الكنديّة عن تبادل إطلاق نار بالأسلحة الخفيفة على الحدود بين ولاية مين ومقاطعة نيو برونسويك، التي لا تبعد كثيراً عن منزل روزفلت الصيفيّ في جزيرة كامبوبيللو في مرفأ فندي. ومن لندن، يُحذِّر رئيس الوزراء تشرشل من حدوث غزو ألمانيّ وشيك للمكسيك بذريعةِ حمايةِ جناحِ أميركا الجنوبيّ بينما تباشر الولايات المتحدة انتزاع السيطرة على كندا من البريطانيين. يقول تشرشل «إنَّ الأمر لم يعُد يتعلَّق بقيام الديمقراطية الأميركيّة العُظمى بعمل عسكريّ لإنقاذنا. لقد حان الوقت لكي يقوم المواطنون الأميركيون بعملٍ مَدَنيّ لإنقاذ أنفسهم. ليس هناك حدثان تاريخيان ضخمان منفصلان، أميركيّ وبريطانيّ، ولم يحدث ذلك أبداً. هناك فقط محنة واحدة، والآن كما في الماضي نحن نواجهها معاً».

الجمعة، 16 تشرين الأول (أكتوبر)، 1942

منذ الساعة التاسعة صباحاً، بثَّ جهاز إرسال إذاعي سرّي في مكان ما وسط إذاعات البث الكبرى في الأمة صوت السيدة الأولى، التي نجحتْ، بمساعدة الموالين لليندبرغ داخل جهاز المخابرات، في الهرب من مستشفى والتر ريد، حيث ألبسوها - بعد ادّعاء السلطات أنّها مريضة عقلياً وتخضع لرعاية أطبّاء نفسيين في الجيش - قميص المجانين وسُجِنَتْ لحوالي أربع وعشرين ساعة. كانت نبرة صوتها رقيقة مُستغيثة، والكلمات نطقتْها وتخلو من أي أثر للخشونة أو للاحتقار المُستحقّ - تعبّر عن الصوت المتوازن لشخصٍ مُحترَم كل الاحترام وتربّى على مواجهة الحزن والإحباط بجسارة من دون حتى فقدان رباطة الجأش. إنها ليست غاضبة، ومع ذلك فسيطرتها على نفسها خارقة ولم تُبدِ أيّ خوف.

«أبنائي الأميركيين، لا يمكن السماح بالتعدّي على القانون من قِبَل وكالات فرض القانون في أميركا ولن يُسمَح بحدوث ذلك. وباسم زوجي أطلبُ من وحدات الحرس الوطني أنْ تنزع أسلحتها وتنحل

وأطلب من رجال حرسنا أنْ يعودوا إلى حياتهم المدنيّة. وأطلب من أفراد القوات المُسلّحة الأميركيّة كلهم أنْ يُغادروا مُدُننا ويتجمّعوا في قواعدهم الأساسيّة تحت إمرة رؤسائهم الضباط المُجازين. وأطلب من الإف بي آي أنْ تُطلِق سراح كل الذين أُلقيَ القبض عليهم بتُهَم التآمُر لإيذاء زوجي وتُعاد إليهم على الفور حقوقهم المدنيّة كلها. وأطلبُ من السلطات التي تفرض القانون في كل أرجاء الأمّة أنْ تفعل الشيء نفسه مع المُحتَجَزين في السجون المحليّة وسجون الولاية. ليس هناك أدنى دليل على أنَّ أي مُحتَجَز مسؤول عن أيّ مكروهٍ يمكن أنْ يكون قد وقع لزوجي ولطائرته في يوم الأربعاء أو ما بعدها، في السابع من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942. وأطلبُ من شرطة مدينة نيويورك إخلاء الساحات المُحتلّة من الصُحُف التي صادرتها الحكومة، والمجلات، ومحطات الإذاعة وأنْ تستعيد تلك المُنشآت نشاطاتها المعتادة كما يضْمَنه التعديل الثامن من الدستور. وأطلبُ من مجلس الشيوخ الأميركي أنْ يُباشر إجراءات عزل الرئيس المؤقّت للولايات المتحدة الحالي من منصبه وتعيين رئيس جديد وِفقاً للفصل المتعلِّق بالخلافة الرئاسيّة لعام 1886، والذي يُسمّي وزير الخارجيّة التالي على اللائحة لشغل منصِب الرئاسة إذا ما شغر منصب نائب الرئيس. وفصلُ الخلافة لعام 1886 يقرُّ أيضاً أنّ مجلس الشيوخ، في ظل الظروف المذكورة آنفاً، سوف يُقرّر إنْ كان سيدعو إلى إجراء انتخابات رئاسيّة خاصة، وعليه أطلبُ من مجلس الشيوخ أنْ يفعل هذا وأنْ يقرّ إجراء انتحابات رئاسيّة سوف تتزامن مع انتخابات مجلس الشيوخ المُقرَّرة في أول يوم ثلاثاء بعد أول يوم إثنين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)».

أُعيدَ بثّ رسالة السيدة الأولى الصباحيّة بعد ذلك كل نصف ساعة إلى أنْ أعلنتْ، عند الظهيرة، تحدّياً للرئيس المؤقّت - الذي تتّهمه بالاسم بأنّه أمرَ بشكل غير قانونيّ باختطافها وحبسها - أنّها عائدة لتُقيم مع أولادها في البيت الأبيض. وختمَتْ، متعمّدة أنْ تُضفي على خاتمتها أصداءً من النص

الأشدّ توقيراً في الديمقراطيّة الأميركيّة، «لن أستسلم أو أخاف الممثلين غير الشرعيين للإدارة المُحرِّضة، ولا أطلب من الشعب الأميركي أكثر من أنْ يقتدي بي ويرفض قبول أو دعم سلوك الحكومة غير المُبرَّر. إنَّ تاريخ الإدارة الحاليّة هو تاريخ مُكرَّر من الأعمال المؤذية واغتصاب المناصِب، وكلها تهدف إلى تأسيس حكمٍ استبداديّ مُطلق على هذه الولايات. إنَّ هذه الحكومة سدَّتْ آذانها عن سماع صوت الحق وطبّقتْ علينا أحكاماً قضائيّة غير مُبرَّرة. ونتيجة لذلك، ودِفاعاً عن تلك الحقوق نفسها التي لا يمكن منحها إلى جهة أخرى والتي أعلنها في شهر تموز (يوليو) من عام 1776 كلٌ من جيفرسون من فيرجينيا وفرانكلين من بنسلفانيا وآدمز من ماساتشوستس بيه، واستناداً إلى سُلطة شعب الولايات المتحدة الطيب نفسه، ومناشدة للمحكمة الأعلى في العالم نفسها من أجل صحّة نوايانا، أعلنُ أنا، آنْ مورو ليندبرغ، المولودة في ولاية نيو جيرزي، والمُقيمة في منطقة كولومبيا، وزوجة رئيس الولايات المتحدة الثالث والثلاثين، أنّه ينبغي لتاريخ اغتصاب الحُكم المُهين أنْ ينتهي. لقد أُحبِطَت المؤامرة التي خطَّطَ لها أعداؤنا، واستُعيدت الحرية والعدالة، والذين خرقوا دستور الولايات المتحدة سوف يمثلون الآن أمام الفرع القضائي من الحكومة، في انسجامٍ صارمٍ مع قانون البلاد».

وتعود «سيدتنا سيدة البيت الأبيض» - حسب وصف هارولد إيكس المسيحيّ بنبرة حاقدة للسيدة ليندبرغ - إلى مسكنها الرئاسيّ في وقتٍ مبكّرٍ من مساء ذلك اليوم، ومن هناك، وباستخدام سُلطة سِحرها الغامض بوصفها أمّاً ثكلى لطفلٍ شهيد وأرملةً ذات عزيمة لإلهٍ اختفى، تقوم بسرعة بهندسةِ حلّ مجلس الشيوخ والمحاكم غير الدستوريّة التي نظَّمها ويلر، الذي فاقت ممارساته الإجراميّة، في غضون ثمانية أيّام من استلامه السُلطة، ممارسات الإدارة الجمهوريّة لوارن هاردينغ قبل ذلك بعشرين عاماً.

بلغت عمليّة استعادة الإجراءات الديمقراطيّة النظاميّة التي بدأتها السيدة ليندبرغ ذروتها بعد ذلك بأسبوعَين ونصف الأسبوع، في يوم

الثلاثاء، الثالث من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، عام 1942، باكتساحٍ للديمقراطيين للمجلس التشريعيّ ومجلس الشيوخ والانتصار الساحق لفرانكلين ديلانو روزفلت لتولّي فترة رئاسيّة ثالثة.

في الشهر التالي - إثر هجومٍ مُفاجئ مُدمِّر على بيرل هاربر شنّه اليابانيون، وبعد ذلك بأربعة أيام، إعلان ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتّحدة - تدخل أميركا الصراع العالميّ الذي كان قد بدأ في أوروبا قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات مع اجتياح ألمانيا لبولندا ومنذ ذلك الحين امتدّتْ لكي تُطوِّق ثُلثيّ سُكّان العالم. وتعهّدتِ القِلّة الباقية من الجمهوريين في مجلس الشيوخ، بعد خزيها جرّاء تواطُئها مع الرئيس المؤقّتِ وضعف موقفها بعد هزيمتها المُنكرة في الانتخابات، تعهّدتْ بدعم الرئيس الديمقراطيّ وقتاله للقضاء على قِوى المحور. ورحّبَ المجلس التشريعيّ ومجلس الشيوخ بانضمام أميركا إلى الحرب من دون تصويت مُعارِض في كِلا المجلسَين، وفي اليوم الذي تلا حفل تنصيبه، أصدر الرئيس روزفلت المرسوم رقم 2568، «بمنح العفو عن برتون ويلر». وجاء في بعضه:

«نتيجة سلوك معيَّن صدر عنه قبل إقالته من منصبه كرئيس مؤقَّت، أصبحَ برتون ك. ويلر عُرضة لاحتمال اتّهامه ومُحاكمته على جرائم ارتكبها في حق الولايات المتّحدة. وتفادياً لتعريض البلاد لمحنة هذه الدعوى الإجراميّة ضد رئيس مؤقّتٍ سابق للولايات المتحدة ووقاية من اللهو المُمزِّق الذي يتَّسِمُ به هذا المشهد خلال زمن الحرب، أُعلنُ أنا، فرانكلين ديلانو روزفلت، رئيس الولايات المتحدة، وفقاً لسلطة العفو التي تُخوّلها لي المادة الثانية، من المقطع الثاني من الدستور، أنني منحتُ وأمنحُ باسم الحضور عفواً كاملاً، وحرّاً ومُطلَقاً لبيرتون ويلر من كل الجرائم التي ارتكبها أو يمكن أنْ يكون قد ارتكبها أو اشترك جزئياً فيها المدعو بيرتون ويلر في حق الولايات المتحدة خلال الفترة الممتدة من الثامن من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وحتى السادس عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942».

وكما يعلم الجميع، لم يُعثَر على الرئيس ليندبرغ أو يُسمَع أي شيء عنه، على الرغم من أنَّ قصصاً دارت طوال فترة الحرب وبعدها بعقدٍ من الزمان، بالإضافة إلى إشاعات عن أشخاص آخرين بارزين مفقودين في تلك الحقبة المُضطربة، مثل مارتن بورمن، السكرتير الخاص لهتلر، الذي اعتُقِدَ أنّه تملَّصَ من قوات الحلفاء وهرب إلى الأرجنتين في ظل حُكم خوان بيرون - لكنَّ الأرجح أنّه اختفى خلال الأيام الأخيرة من برلين النازيّة - وراؤول ولنبرغ، الدبلوماسي السويديّ الذي أنقذَ بتوزيعهِ جوازات سفرٍ سويديّة ما يُقارب العشرين ألف يهودي هنغاري من الإعدام على أيدي النازيين، على الرغم من أنّه هو نفسه اختفى، ربما أودِعَ السجون السوفييتيّة، عندما احتلَّ الروس بودابست في عام 1945. ومن بين العدد المتضائل لمُدبّري مؤامرة ليندبرغ، استمرت تقارير في الورود عن وجود أدلّة ومشاهد في رسائل نُشِرَتْ على فترات مُخصّصة لمناقشة المصير المُبهَم لرئيس أميركا الثالث والثلاثين.

القصّة الأدقّ، القصة التي لا تُصدَّق - على الرغم من أنّها ليست بالضرورة الأقلّ إقناعاً - سمعتْ بها عائلتنا للمرة الأولى عبر الخالة إيفلين بعد إلقاء القبض على الحاخام بنغلسدورف، التي كان مصدرها لا أقلّ من آن مورو ليندبرغ، التي زعمتْ أنّها أفضَتْ بتفاصيل للحاخام قبل أيام قليلة من إخراجها رُغماً عنها من البيت الأبيض وسجنها في جناح الأمراض النفسيّة من مستشفى والتر ريد.

نُقِلَ عن الحاخام بنغلسدورف أنَّ السيدة ليندبرغ تقصّت حول كل شيء يتعلَّق باختطاف ابنها الرضيع تشارلز، وأكّدتْ أنَّ الأمر خَطَّطَ له سراً ومُوّلَه الحزب النازيّ قُبيل استلام هتلر السُلطة. ووفقاً لسرد الحاخام لقصّة السيدة الأولى، نقل برونو هاوبتمان الطفل الصغير إلى صديق يقيم بجواره في حي برونكس لكي يحميه - وهو مُهاجر مثله كان في الحقيقة عميلاً في سلك الجاسوسيّة الألمانيّة - وبعد ساعات قليلة من أخذ هاوبتمان الصغير تشارلز من منزل في هوبْويل، نيو جيرزي، وهبوطه

به عبر سلَّم مؤقّتْ محمولاً بين ذراعيه، كان الصغير قد هُرِّبَ إلى خارج البلاد وأصبحَ في طريقه إلى ألمانيا. والطفل الذي عُثِرَ على جثّته وتمَّ التعرُّفَ عليه على أنّه ابن ليندبرغ بعد ذلك بعشرة أسابيع كان طفلاً آخر، وقرّر النازيّون اعتباره قُتِلَ بسبب أوجه الشبه بينه وبين طفل ليندبرغ ومن ثم، عندما بدأت الجثّة تتحلَّل، دُفِنَتْ في الغابة بالقرب من منزل ليندبرغ لكي يضمنوا إدانة هاوبتمان وإعدامه وإخفاء الظروف الحقيقيّة لعمليّة الاختطاف عن أي شخص غير آل ليندبرغ أنفسهم. وعلى الرغم من تعيين جاسوس نازيّ كمُراسِل صحفي أجنبي في نيويورك، فإنَّ الزوجين علِما في وقتٍ مُبكِّر بوصول تشارلز، سالماً ومُعافى، إلى الأراضي الألمانيّة واطمئنا إلى أنّه سوف يتلقّى أفضل رعاية على أيدي فريق تمَّ انتقاؤه بعناية من الأطباء النازيين، والممرضات، والمُدرّسين والشخصيات السياسيّة البارزة - رعاية استحقّها بسبب وضعه كأول مولود لأعظم طيّار في العالم - شريطة أنْ يتعاون الثنائي ليندبرغ تعاوناً تاماً مع برلين.

ونتيجة لذلك التهديد، حدَّد أدولف هتلر مصير آل ليندبرغ وطفلهما المختطف على مدى السنوات العشر التالية - وتدريجيّاً، مصير الولايات المتّحدة الأميركيّة. وباشر النازيّون، من خلال براعة عملاء هتلر ومقدرتهم في نيويورك وواشنطن - وفي لندن وباريس بعد أنْ «فرَّ» الثنائي المشهور إذعاناً للأوامر، لكي يعيشا كمنفيين في أوروبا، وهناك بدأ ليندبرغ يقوم بزيارات مُنتظَمَة إلى ألمانيا النازيّة وبتمجيد إنجازات آلتها الحربيّة - وطفقَ النازيّون يستغلون شُهرة ليندبرغ لمصلحة الرايخ الثالث وعلى حِساب أميركا، بتقرير مكان سكنى الثنائيّ، ومَنْ ينبغي أنْ يُصاحبا وأيضاً، قبل أي شيء، ما هي الآراء التي ينبغي الإفصاح عنها في تصريحاتهما العلنيّة وفي كتابتهما المنشورة. وفي عام 1938، ومكافأة لتكرُّم الثنائي ليندبرغ بقبول ميداليّة هامّة من هرمان غورينغ في حفل عشاء ببرلين أُقيمَ على شرف الطيّار، وبعد العديد من رسائل المُناشدة أرسلتها سرّاً آن مورو ليندبرغ إلى الفوهرر نفسه، سُمِحَ للثنائي ليندبرغ أخيراً بزيارة طفلهما،

وكان حينئذٍ قد أضحى فتى وسيماً أشقر الشَعر في حوالي الثامنة من العمر رُبّيَ، منذ وصوله إلى ألمانيا، لكي يكون نموذجاً يُحتذى لشبيبة هتلر. ولم يفهم الصبي المبتدئ الذي يتكلّم الألمانيّة، ولا قيل له إنَّ الأميركيين الشهيرَين اللذين قُدِّما له ولتلاميذ صفّه بعد الانتهاء من القيام بتمارين العَرض العسكري في أكاديميتهم العسكريّة المُخصّصة للنُخبة هما أمّه وأبوه، ولم يُسمَح للثنائي ليندبرغ بالتحدّث معه أو أخذ صور معه. وقد حدثت الزيارة في اللحظة التي استنتجتْ عندها أنَّ قصة النازيين عن عمليّة الاختطاف هي قصّة مُلفّقة تنطوي على قسوة لا توصَف وأنَّ الوقتَ قد فات منذ زمن بعيد على آل ليندبرغ ليتحرّرا من عبوديّة أدولف هتلر. وبدل ذلك، وبعد أنْ شاهدا تشارلز حيّاً للمرة الأولى منذ اختفائه في عام 1932، غادر الثنائي ليندبرغ ألمانيا من دون عودة مُستعبَدَين لأسوأ عدو لبلدهما.

طُلِبَ منهما أنْ يُنهيا نفيهما ويعودا إلى أميركا، حيث كان على الكولونيل ليندبرغ أنْ يضع قضيّة أميركا في المقام الأول. واستلَمَ خطابات، مكتوبة بالإنكليزيّة، تُدين البريطانيين، وروزفلت، واليهود وتدعم موقف أميركا الحياديّ من الحرب الأوروبيّة؛ وحُدَّدتْ تعليمات مُفصّلة عن مكان وزمان وجوب إلقاء تلك الخطابات، وحُدِّدَ حتى نوع الملابس التي ينبغي ارتداؤها مع كل ظهور له على الملأ. كان ليندبرغ يتفاعل مع كل استراتيجيّة سياسيّة تنشأ في برلين بالأسلوب المثالي الصارم نفسه الذي ميَّزت مساعيه في مجال الطيران، وحتى الليلة التي وصل بها مرتدياً زيّ الطيّار إلى المؤتمر الجمهوريّ وقبوله ترشيحه لمنصب رئاسة الجمهوريّة مع كلمات كُتِبَتْ للمناسبة بيد وزير الدعاية السياسيّة النازيّة جوزيف غوبلز. لقد خطَّط النازيّون لكل مناورة في حملة الانتخابات التي تلتْ، فحالما يهزم ليندبرغ فرانكلين ديلانو روزفلت، كان هتلر هو الذي سيستلم الحُكم، ويستمر في الإعداد لسياسةٍ خارجيّة خاصة بالولايات المتّحدة تقدِّم أفضل خدمة لأهداف ألمانيا في وقت

الحرب ولمُخططه الاستبدادي الضخم - من خلال اجتماعات أسبوعيّة مع غورينغ، خليفته المُختار ومدير الاقتصاد الألمانيّ، وهاينريش هيملر، السيد المُطلَق للشؤون الألمانيّة الداخليّة ورئيس جهاز الغيستابو، ووكالة جهاز الشرطة المُتّهم باحتجاز تشارلز ليندبرغ الابن.

وسرعان ما بدأ هيملر يتدخّل مباشرة في الشؤون الأميركيّة الداخليّة بممارسة ضغط على الرئيس ليندبرغ - الذي كان يُحتَقَر بسُخرية بعبارات رئيس الغيستابو على غرار «حاكم ولايتنا الأميركيّة» - لكي يؤسّس تدابير قمعيّة ضد الأربعة ملايين ونصف المليون من اليهود الأميركيين، وهنا، وفقاً للسيدة ليندبرغ، تعهّدَ الرئيس، وإنْ كان بسلبيّة في أول الأمر، بالتشديد على معارضته. فأمرَ أولاً بإنشاء مكتب الاستيعاب الأميركيّ، ففي رأيه أنَّ وكالة لا تكون هامة بالقدر الكافي إذا تركت اليهود غير آمنين تماماً في حين أنّها كما يبدو تناسبُ - إلى جانب برامج رمزيّة مثل «أناس عاديون» و«هومستيد 42» - اتّجاه هيملر «لتدشين عمليّة مُنظّمة في أميركا من التهميش تؤدي في المُستقبل المنظور إلى مُصادرة كل الثروات اليهوديّة وإلى الاختفاء التامّ للسكّان اليهود، ولامتيازاتهم وممتلكاتهم».

لم يكن هاينريش هيملر من النوع الذي يمكن أنْ يُضلَّل بهذا الخِداع الشفّاف أو يُزعج نفسه بإخفاء خيبة أمله عندما تجرّأ ليندبرغ بتبرير نفسه - عبر فون ريبنتروب، الذي أرسله هيملر إلى واشنطن، بدعوى القيام بزيارة رسميّة، لمُساعدة الرئيس في وضع تدبيرات أشدّ صرامة ضد اليهود - بأنْ شرح للقائد الأعلى لمخيمات اعتقال هتلر أنَّ ثمة ضمانات يتضمّنها دستور الولايات المتّحدة، مقرونة بتقاليد ديمقراطيّة أميركيّة عريقة، تمنع وجود حلّ نهائي للمشكلة اليهوديّة يُطبَّق في أميركا بسرعة كبيرة أو بفعاليّة كما يُطبَّق على قارّة حيثُ يتجذّر عميقاً ألفُ عام من تاريخ مُعاداة الساميّة في عامة الناس وحيث حُكم النازيين مُطلَق. وخلال حفل العشاء الرسميّ الذي أُقيمَ على شرف فون ريبنتروب، تنحّى الضيف المحترم بالرئيس جانباً وسلّمه برقيّة، كانت قد حُلَّت شفرتها قبل ذلك بلحظات في السفارة

الألمانيّة، وتتألّف بأكملها من جواب هيملر. جاء في البرقيّة «فكِّر في الطفل قبل أنْ تُجيب من جديد بكلام فارغ. فكِّر في الفتى الشجاع تشارلز، الطالب العسكري الألمانيّ المتميِّز الذي بلغ الثانية عشرة من العمر ويعلم أكثر من والده الشهير القيمة التي خلعها الفوهرر على الضمانات الدستوريّة والتقاليد الديمقراطيّة، خاصة فيما يتعلَّق بحقوق الطفيليين».

شكّل التوبيخ الذي وجّهه هيملر لـ«النسر المتوحِّد الذي يحمل قلب دجاجة» (كما ورد وصْفُ ليندبرغ في مفكّرة هيملر الخاصّة) بداية إنكار ليندبرغ كتابعٍ مفيد للرايخ الثالث. لقد زوّد بهزيمته لروزفلت وللمناهضين للتدخُّل النازيّ داخل حزب روزفلت الجيشَ الألمانيّ بوقتٍ أضافيّ لقمع المقاومة المتواصلة وغير المتوقّعة التي يُبديها الاتحاد السوفييتي من مُخاطَرَة ألمانيا باضطرارها في وقتٍ واحد إلى مواجهة القُدرة الصناعيّة والعسكريّة للولايات المتّحدة. والأهمّ من ذلك، أنَّ منصب رئاسة ليندبرغ منحَ الصناعة الألمانيّة والمؤسسة العلميّة الألمانيّة - التي كانت تقوم سرّاً في الأصل بتطوير قنبلة ذات طاقة مُدمِّرة لا مثيل لها مُدعّمة بانشطار نوويّ، بالإضافة إلى محرِّك صاروخيّ قادر على نقل هذا السلاح عبر الأطلسي - أقول منحهما مُهلة زمنيّة مدّتها عامان من أجل استكمال الاستعداد للصراع الشامل مع الولايات المتّحدة الذي سيُحدِّد، حسب رؤية هتلر، مسار الحضارة الغربيّة وتقدُّم الجنس البشريّ إلى الألفيّة التالية. ولو أنَّ هيملر وجدَ في ليندبرغ كاره اليهود المثاليّ الذي توقّعتْه القيادة الألمانيّة العُليا استناداً إلى تقارير المُخابرات، وليس ذاك الذي لقّبه هيملر باحتقار بـ«مُعادي الساميّة في حفل العشاء»، فربما كان سُمِحَ للرئيس بأنْ يُكمل فترته الرئاسيّة وبأنْ يبقى في منصبه أربع سنوات أُخَر قبل أنْ يتقاعد ويتخلّى عن الحكومة من أجل هنري فورد، الذي كان هتلر قد استقر رأيه أصلاً على أنْ يكون خليفة ليندبرغ، على الرغم من تقدُّم فورد في السن. ولو كان في استطاعة هيملر أنْ يعتمد على رئيسٍ أميركيّ صاحب أوراق اعتماداً لا يرقى إليها الشك لكي يستخدمه

في وضع الحل الختامي للمشكلة اليهوديّة الأميركيّة، لكان ذلك، طبعاً، أفضل من أنْ يقوم في وقت لاحق باستخدام مصادر وشخصيات بارزة ألمانيّة لإنجاز تلك المهمّة في أميركا الشماليّة، ولَمّا كان ضروريّاً أنْ تختفي طائرة ليندبرغ عن صفحة السماء، بقدر ما بدا ضروريّاً بالنسبة إلى برلين، في يوم الأربعاء، السابع من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، عام 1942 – ولَمّا استلمَ الرئيس المؤقّتُ ويلر السلطة في الأمسية التالية وأثبتَ، أمام البهجة المندهشة لأولئك الذين لم يعتبروه حتى ذلك الحين أكثر من مُهرِّج، أنّه قائد فذّ في غضون أيّام بأنْ وضعَ، بطريقة عفويّة، التدابير نفسها التي كان فون ريبنتروب قد اقترحها على ليندبرغ والتي، حسب اعتقاد هيملر، فشلَ البطل الأميركيّ في تطبيقها بسبب اعتراضات زوجته الأخلاقيّة الصبيانيّة.

بعد اختفاء ليندبرغ بساعة، أبلَغَتِ السفارة الألمانيّة السيدة ليندبرغ بأنَّ مسؤوليّة مصلحة ولدها أصبحت الآن تقع على عاتقها هي وحدها وأنَّ تشارلز الابن، إذا اتّخذتْ أيّة خطوة أخرى خِلاف إخلاء البيت الأبيض والانسحاب بصمت من الحياة العامة، سوف يُنقَل من أكاديمته العسكريّة إلى الجبهة الروسيّة لخوض هجوم شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في ستالينغراد ويبقى في الخدمة هناك كجندي مُشاة مُقاتل شاب في الرايخ الثالث إلى أنْ يلفظ أنفاسه الأخيرة ببسالة في ساحة الوغى في سبيل مجد الشعب الألماني الأعظم.

هذه هي القصّة التي نقلتْ فحواها إلى أمي الخالةُ إيفلين عندما جاءت إلى منزلنا بعد أن أخذ عناصرُ من الإف بي آي الحاخام بنغلسدورف مغلولاً من فندق واشنطن حيث كانا ينزلان. أما القصّة الكاملة والمُفصّلة فهي التي وردَتْ في الاعتذار المعنون «*حياتي في ظل حُكم ليندبرغ*» ويقعُ في 550 صفحة ونُشِرَ كمُفكَّرة شخص مُطّلِع صدرتْ بُعيد انتهاء الحرب بقلم الحاخام بنغلسدورف ورُفِضَتْ بتصريحٍ صحفيّ ورد على

لسان متحدّث رسميّ باسم عائلة ليندبرغ بوصفها «افتراءً يستحق الشجب لا أساس له من الصحّة، دافعه الانتقام والجشع، مدعوماً بوهم أنانيّ مهووس، لُفِّقَ بغرض الاستغلال التجاريّ المحض، ولن توليه السيدة ليندبرغ أي جواب». وعندما سمعتْ أمي القصة بدتْ لها للوهلة الأولى أنها دليل قاطع على أنَّ الصدمة التي سبّبتها مؤقّتاً مشاهدة أختها لعمليّة اعتقال الحاخام بنغلسدورف أفقدَتْها صوابها.

اليوم الذي تلا زيارة الخالة إيفلين المُفاجِئة كان يوم الجمعة الموافق السادس عشر من شهر تشرين الأول، عام 1942، عندما بثّت السيدة ليندبرغ عبر أثير الإذاعة، قبل عودتها إلى البيت الأبيض، من موقعٍ سرّي في واشنطن ومُعتمدة في ذلك على سُلطتها وحدها بوصفها «زوجة الرئيس الثالث والثلاثين للولايات المتحدة»، أعلنتْ أنَّ «تاريخاً مُهيناً من اغتصاب الحُكم» الذي مارسته إدارة الرئيس المؤقّتِ «قد انتهى». أمّا إنْ كان قد نزل بابن السيدة الأولى المخطوف أيّ أذى نتيجة بسالتها، أو إنْ كان تشارلز الابن قد نجا بطفولته لكي يُعاني القَدَر الرهيب الذي وعد به هيملر، ناهيك عن تحمُّل طفولة سجينٍ مميَّز ورهينة ثمينة للدولة الألمانيّة، وإن كان لدى هيملر، وغورينغ، وهتلر أي شيء ذي أهمّية يتعلّق بتعزيز صعود ليندبرغ إلى الصدارة السياسيّة بوصفه من أنصار «أميركا أولاً» أو بتشكيل السياسة الأميركيّة خلال الأشهر الاثنين والعشرين من تولّيه منصِب الرئاسة أو بتدبير عمليّة اختفاء ليندبرغ الغامض - فتلك مسائلُ بقيَتْ مثار جدال على امتداد أكثر من نصف قرن، على الرغم من أنَّ الجَدَل قد أصبح الآن أقلّ احتداماً وانتشاراً بكثير مما كان عندما تبوّأ كتاب «*حياتي في ظل حُكم ليندبرغ*» قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في أميركا، على امتداد أكثر من ثلاثين أسبوعاً في عام 1946 (وعلى الرغم من تكرار الاستشهاد بوصفه من قِبَل ويستْبروك بيغلر، عميد صحفيّي اليمين من كارهي روزفلت في أميركا، بأنّه «مفكّرة غريبة الأطوار تتسم بهوس بالمبالغة قابل للتصديق»)، بالإضافة إلى سيرتين شخصيّتين لفرانكلين

ديلانو روزفلت، الذي كان قد مات وهو يؤدي مهام منصبه في العام السابق، قبل أسابيع قليلة فقط من اعتبار أنّ الاستسلام غير المشروط لألمانيا النازيّة للحلفاء يُعلِن انتهاء الحرب العالمية الثانية في أوروبا.



-9-

تشرين الأول (أكتوبر) 1942

خوفٌ دائم

جاء الاتّصال الهاتفي من سيلدون عندما كنتُ أنا وأمي وساندي قد لجأنا تواً إلى النوم. حدثَ ذلك في يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، وكنا في موعد العشاء نستمع إلى التقارير الواردة عبر المذياع عن أعمال الشغب التي اندلعت في الغرب الأوسط وفي الجنوب إثر إعلان المخابرات البريطانيّة أنَّ الرئيس ليندبرغ قام عن عمد بالهبوط بطائرته فوق المياه اضطرارياً على مسافة ثلاثمئة ميل داخل البحر ومن هناك نَقَلَته بسرعة القوات البحريّة والجويّة لألمانيا النازيّة إلى لقاءٍ سرّي مع هتلر. ولم تتمكّن صحف الصباح من إيراد تفاصيل أعمال الشغب التي اندلعت بسبب هذه البرقيّة إلّا بحلول اليوم التالي، على الرغم من أنّه بعد سماعنا النبأ بلحظات ونحن على مائدة المطبخ، خمَّنتْ أمي وكانت على صواب المقصودين بأعمال الشغب وسببها. كان قد مرَّ حينئذٍ ثلاثة أيام على إغلاق الحدود مع كندا، وحتى بالنسبة إليّ، أنا الذي وجدتُ أنَّ مغادرة أميركا احتمال لا يُطاق، كان جلياً أنَّ رفض والدي الإصغاء إلى أمي وإخراجنا من البلد قبل أشهر عديدة كان أفدح خطأ ارتكبه في حياته. كان حينئذٍ قد عاد إلى العمل ليلاً في السوق، وعادت أمي إلى الخروج في كل يوم من أجل شراء البقالية - والغريب أنها حضرت اجتماعاً في

المدرسة بعد ظهيرة أحد الأيام من أجل مُراقبي الاقتراع المُحتَمَلين خلال انتخابات شهر تشرين الثاني (نوفمبر) - وتوجهنا أنا وساندي إلى المدرسة في صباح كل يوم مع أصدقائنا، ولكن مع ذلك، ومع بداية الأسبوع الثاني من إدارة ويلر كرئيس مؤقّتٍ، كان الخوف قد استشرى في كل مكان، على الرغم من نصيحة السيدة ليندبرغ للأميركيين بأنْ يرفضوا التقارير التي تَرِدُ من بلدانٍ أجنبيّة حول أماكن وجود الرئيس، وعلى الرغم من صعود نجم الحاخام بنغلسدورف بوصفه شخصيّة تستحق معرفة أخبارها، وكان قد أضحى حينئذٍ فرداً من عائلتنا، وعمّاً عبر الزواج ولم يكن قد تناول وجبة عشاء واحدة في منزلنا ولكن لم يتمكّن من فعل أي شيء لمساعدتنا ولَم يكن ليساعدنا لو كان في استطاعته ذلك بسبب الاحتقار الذي كنّه هو وأبي أحدهما للآخر. واستشرى الخوف في كل مكان، كانت *نظرة الخوف* في كل مكان، خاصة في عيون الذين يحموننا، النظرة التي تظهر حالما توصد الباب وتُدرك أنَّ المفتاح ليس في حوزتك. لم نكن قد لاحظنا قبل ذلك أنَّ لدى البالغين الأفكار العاجزة نفسها. والأقوى بينهم كانوا يبذلون أقصى جهدهم للمحافظة على هدوئهم وشجاعتهم وأنْ يبدوا من أصواتهم أنهم واقعيون عندما يُخبروننا أنَّ أسباب قلقنا سوف تزول سريعاً وتُستعاد دورة الحياة الطبيعيّة، ولكن عندما يستمعون إلى نشرة الأخبار كانت تصعقهم السرعة التي تحدث بها الأمور المُريعة.

ثم، في ليلة اليوم الثاني عشر - بينما كلٌ منا مُتمدّد على السرير يُجافينا النوم - رنَّ جرس الهاتف: إنّه سيلدون يتّصل على حسابنا من كينتكي. كانت الساعة العاشرة ليلاً ولم تكن أمّه قد عادتْ إلى المنزل، وبما أنّه يحفظ رقم هاتفنا صمّاً (ولا يعرف شخصاً آخر يتّصل به) أدار مقبض الهاتف، وطلب عاملة الاتّصال، وفي عَجَلَةٍ من أمره حاول أنْ ينطق بوضوح كل الكلمات الضروريّة قبل أنْ تخذله القدرة على الكلام، قال لها «على حساب المُتلقّي. أرجوكِ. نيوارك، نيو جيرزي. 81 جادّة سَميتْ. ويفرلي 3-4827. اسمي شالدون ويشْناو. أريد أنْ أتحدث شخصيّاً مع

السيد أو السيدة روث. أو مع فيليب. أو مع ساندي. أي واحد منهم، أيتُها العاملة. أمي ليستْ في المنزل. أنا في العاشرة. ولم آكل أي شيء وهي غائبة. أيتها العاملة، أرجوكِ - ويفرلي 3-4827! سوف أتحدّث مع أي شخص!».

في صباح ذلك اليوم كانت السيدة ويشْناو قد خرجت بالسيارة إلى لويسفيل، إلى مكتب شركة ميتروبوليتان الرئيسيّ، لكي تُقدِّم تقريراً بناءً على طلب الشركة إلى مُشرِف المنطقة. كانت لويسفيل تبعد أكثر من مئة ميل عن دانفيل، وكانت الدروب شديدة الرداءة في مُعظم المسافة بحيث كان قطعها سيستغرق عمليّاً النهار بأكمله ذهاباً وإيّاباً. لماذا لم يكن في وسع مُشرِف المنطقة أنْ يكتب رسالة لها أو أنْ يتّصل بها هاتفياً ليُخبرها بما لديه لا أحد يفهم، ولا طُلِبَ من الرجل نفسه أبداً تفسير السبب. كان تخمين والدي هو أنَّ الشركة كانت تنوي طردها في ذلك اليوم - لدفعها إلى تقديم دفتر حساباتها الذي يحتوي سجلاً بخط يدها بالمبالغ ومن ثم طردها، لتُصبح بلا عمل بعد ستة أسابيع فقط من استلام عملها وبعيدة عن بيتها مسافة سبعمئة ميل. لم تكن قد قامت بعملٍ يُذكَر خلال تلك الأسابيع الأولى في تلك المراكز الريفيّة من مقاطعة بويل، ولكن ليس بسبب افتقارها إلى المُثابرة في العمل - في المقام الأول كان السبب هو عدم توفّر عمل لأدائه. وفي الحقيقة، كل عمليةِ نقلٍ قامتْ بها الشركة تحت رعاية برنامج هومستيد 42 كانت تتحوّل إلى كارثة على العملاء الذين هم في الأصل من منطقة نيوارك. وفي تلك الزوايا شبه المُقفِرة من تلك الولايات النائية حيثُ كانوا يوضعون مع عائلاتهم، لن يتمكن أيٌّ منهم من كسب ربع العمولات التي كانوا في المعتاد يُحصّلونها في فرع الشركة في شمال جيرزي - وهكذا كان والدي ذا بصيرة رائعة، ولو من أجل هذا السبب فقط، عندما ترك عمله وذهب ليعمل بدل ذلك لمصلحة العمّ مونتي. ولم يتمتع بمثل تلك البصيرة تماماً بشأن نقلنا عبر الحدود الكنديّة قبل أنْ تُغلَق وتُعلَن الأحكام العُرفيّة.

قال سيلدون لأمّي، بعد أنْ قبِلَتْ دفع كلفة الاتّصال وتلقّي مكالمته، «إنْ كانت على قيد الحياة... إنْ كانت على قيد الحياة....». في البداية هذا كل ما استطاع أنْ يقول، لأنّه كان يبكي، وحتى تلك الكلمات الخمس بالكاد كانت مفهومة.

«سيلدون، يكفي هذا. أنتَ تؤذي نفسك. إنكَ تُصاب بالهستيريا. طبعاً أمك على قيد الحياة. هي فقط تعود متأخّرة إلى المنزل - هذا كل ما يحدث».

«ولكن لو كانت على قيد الحياة ***لاتّصلت!***».

«سيلدون، ماذا لو انّها علِقَتْ في زحام المرور؟ ماذا لو أنَّ عطلاً وقع للسيارة واضطُرّتْ إلى التوقّف لإصلاحه؟ ألم يسبق لمثل هذا أنْ حدث، عندما كنتما هنا في نيوارك؟ أتتذكّر تلك الليلة عندما كانت تُمطِر وفرغ دولابها من الهواء واضطررتَ إلى الصعود للمكوث عندنا؟ لعلَّ الأمر ليس أكثر من دولاب مفرغ من الهواء، ولذلك، أرجوك يا عزيزي، اهدأ. يجب أنْ تكفّ عن البكاء. إنَّ أمّك بخير. كل ما في الأمر أنك مُضطرب بسبب ما تقول، وهو غير صحيح، فأرجوك، أرجوك، ابذل مجهوداً في الحال وحاول أنْ تهدأ».

«لكنّها ماتت، يا سيدة روث! كما حدث لأبي! والآن أصبح الاثنان ميّتين!» وطبعاً، كان على صواب. لم يكن سيلدون يعلم أيّ شيء عن أعمال الشغب التي تجري بعيداً في لويسفيل ويعلم القليل عمّا يحدث في باقي الأراضي الأميركيّة. ولما لم يتبقَّ حيِّز في حياة السيدة ويشناو لأي شيء آخر غير الابن والعمل، لم يكن منزلهما في دانفيل يحتوي أيّة صحيفة للقراءة، وعندما كان الاثنان يجلسان على مائدة العشاء في دانفيل لا يحصلان على الأخبار كما كنا نحصل عليها في نيوارك. والأغلب كانت من فرط الإرهاق في دانفيل بحيث لا تطيق الاستماع إليها، لأنها تُصبح حينئذٍ من شدّة النعاس بحيث لا تعي أيّ بؤس خلاف بؤسها الخاصّ.

لكنَّ سيلدون كان على صواب تامّ: لقد ماتت السيدة ويشناو، على

الرغم من أنَّ لا أحد علِمَ بالأمر حتى حلول اليوم التالي، عندما عُثِرَ على السيّارة المُحترقة وبقايا أمّه تحترق في مجرور للمياه بجانب حقل لزرع البطاطا في منطقة ريفيّة مفتوحة تقع إلى الجنوب من لويسفيل. ويبدو أنّها ضُرِبَتْ وسُرِقَتْ وأُضرِمَتِ النار في السيارة في خلال الدقائق الخمس الأولى من اندلاع أحداث العنف في المساء، التي لم تقتصِر على شوارع بلدة لويسفيل حيث تقع محال تجاريّة يمتلكها يهودٌ أو على شوارع المناطق السكنيّة حيث تُقيمُ حفنة من المواطنين اليهود. كان أفراد عصابة كلان يعلمون أنّه حالما تُضاء المشاعِل وتحترق الصلبان، سوف يحاول الهوام أنْ يخرجوا، ولذلك كانوا مستعدين لهم، ليس في الشارع العامّ المؤدّي شمالاً إلى أوهايو فقط، بل وعلى طول الدروب الريفيّة الضيّقة المؤدّية جنوباً، حيث دفعت السيدة ويشناو حياتها ثمناً لتشويهها سُمعة ليندبرغ الجيدة، أولاً عبر المرحوم واتر وينتشل والآن عبر آلة الدعاية السياسيّة التي يُهيمن عليها اليهود لرئيس الوزراء تشرشل والملك جورج السادس.

قالت أمي «سيلدون، يجب أنْ تأكل شيئاً. سوف يُساعدك ذلك على تمالك نفسك. اذهب إلى البرّاد وأحضر شيئاً تأكله».

«لقد أكلتُ تين نيوتنز. ولم يتبقَّ أي شيء منه».

«سيلدون، أنا أعني أنْ تأكل وجبة كاملة. سوف تعود أمّك قريباً، وحتى ذلك الحين لا يمكنك أنْ تجلس هناك في انتظار أنْ تأتي وتُطعمك - يجب أنْ تأكل بنفسك، ولا أقصد بذلك فقط بعض الكعك. اترك الهاتف واذهب وانظر ماذا يوجد في البرّاد ومن ثم عُدْ وأخبرني ماذا وجدتَ هناك صالحاً للأكل».

«لكنّها مسافة طويلة».

قالت أمي لي ولساندي ونحن مجتمعان حولها عن قُرب في الرواق الخلفيّ، «لقد تأخّرتْ كثيراً، وهو لم يتناول الطعام، وهو وحده، ولم تتّصل هاتفياً، والطفل المسكين في حالة هستيريّة ويتضوّر جوعاً».

«سيدة روث؟».
«نعم، سيلدون».
«هناك جبن الجرَّة. وهو عتيق جداً. ولا يبدو صالحاً كثيراً للأكل».
«وماذا يوجد أيضاً؟».
«هناك شمندر. داخل طاس. بقايا منه. وهو بارد».
«أيّ شيء آخر؟».
«سوف أنظرُ من جديد - انتظري دقيقة».
هذه المرة عندما ترك سيلدون سماعة الهاتف، قالت أمي للساندي، «كم تبعد دانفيل عن مزرعة آل ماويني؟».
«بالسيارة الشاحنة تستغرق عشرين دقيقة».
قالتْ أمي لأخي «في طاولة زينتي، في الدرج العُلويّ، داخل كيس النقود - رقم هاتفهم. مكتوب على قُصاصة من الورق في كيس نقودي البُنّي الصغير. أحضره إليّ، من فضلك».
قال سيلدون «سيدة روث؟».
«نعم، أنا هنا».
«يوجد زبدة».
«أهذا كل شيء؟ ألا يوجد حليب؟ ألا يوجد عصير؟».
«ولكن هذه وجبة الإفطار. وليس العشاء».
«ألا يوجد أرز، يا سيلدون؟ أو رقائق الذُرة؟».
«طبعاً».
«إذن انتقِ نوع الحبوب الذي تُفضّل».
«أُفضّل الأرز».
«أحضر الأرز، وأخرج الحليب والعصير، وأُريدُ منك أنْ تُعدَّ لنفسك وجبة إفطار».
«الآن؟».

قالتْ له «افعلْ كما أقول، من فضلك. أريدُ منك أنْ تأكل وجبة الإفطار».

«هل فيليب موجود؟».

«إنّه هنا، ولكن لا تستطيع التحدث معه. يجب أنْ تأكل أولاً. سوف أُعيدُ الاتّصال بكَ في غضون نصف ساعة، بعد الانتهاء من الأكل. الساعة الآن العاشرة وعشر دقائق، يا سيلدون».

«في نيوارك الساعة العاشرة وعشر دقائق؟».

قالت له أمي «في نيوارك وفي دانفيل أيضاً. التوقيت هو نفسه في كلا المكانَين. سوف أتصل بك من جديد في الحادية عشرة إلّا ربعاً».

«هل أستطيع أنْ أتكلّم مع فيليب حينئذٍ؟».

«نعم، ولكنْ أريدُ منكَ أولاً أنْ تجلس مع كل ما ترغب في تناوله على طاولة المطبخ. أريدُ منكَ أنْ تستخدم الملعقة والشوكة والفوطة والسكين. استخدم أطباقاً. استخدم طاساً. هل يوجد خبز؟».

«إنّه بائت. مجرد شريحتين منه».

«هل لديكم مِحمصة خبز؟».

«طبعاً. أحضرناها إلى هنا بالسيارة. أتتذكّرين صباح اليوم الذي شحنّا الأمتعة بالسيارة؟».

«أصغِ إليّ، سيلدون. ركّز. أعْدِد لنفسك بعض الخبز المُحمَّص، مع الحبوب. واستخدم الزبدة. امسحه بالزبدة. وصبّ لنفسك كوباً كبيراً من الحليب. أريدُ منكَ أنْ تأكل إفطاراً مُغذّياً، وعندما تعود أمّك، أريدُ منكَ أنْ تطلبَ منها أنْ تتّصل بنا في الحال. يمكنها أنْ تتصل إلى هنا على حِسابنا. قُلْ لها ألّا تقلق بشأن الكلفة. يهمُّنا كثيراً أنْ نعلم بعودتها إلى المنزل. ولكن في كِلتا الحالتين، سوف أُعيد الاتّصال بك بعد نصف ساعة، فلا تبرح المكان».

«الدنيا ظلام في الخارج. إلى أين سأذهب؟».

«سيلدون، تناول إفطارك».

«حسن».

قالت «وداعاً، وداعاً، في الوقت الحاضر. سوف أُعيدُ الاتّصال بك عند الحادية عشرة إلّا ربعاً. ابقَ حيثُ أنت».

بعد ذلك اتّصلتْ بآل ماويني. ناولها أخي قُصاصة من الورق مُدوّناً عليها رقم الهاتف وطلبتْ من عاملة الهاتف أنْ توصِلها بهم وعندما أجابها أحدهم من الطرف الثاني، قالتْ «أأنتِ السيدة ماويني؟ أنا السيدة روث. أنا والدة ساندي روث. إنني أتّصل من نيوارك، في نيو جيرزي، يا سيدة ماويني. أنا آسفة لإيقاظي إياكم، ولكنني في حاجة إلى مُساعدتك بشأن صبيّ صغير يبقى وحده في دانفيل. ماذا؟ نعم، طبعاً، نعم».

قالتْ لنا «إنها تنادي زوجها».

اشتكى أخي قائلاً «أوه، كلا».

«سانفورد، ليس هذا الوقت المناسب للشكوى. ولا أحبُّ ما أفعل. أنا أعلم أنني لا أعرف أولئك القوم. أعلمُ أنهم لا يُشبهوننا. وأعلمُ أنَّ المزارعين يأوون إلى النوم باكراً ويستيقظون باكراً وأنّهم يكدّون في العمل. ولكن أخبرني ماذا في وسعي أنْ أفعل غير هذا. إنَّ ذلك الصبي الصغير سوف يُجنّ إذا تُرِكَ وحيداً أكثر من هذا. إنّه لا يعرف أين هي أمّه. يجب أنْ يكون معه شخص ما. لقد ناله من الصدمات ما يفوق طاقة صبي مثله. لقد فقدَ والده. والآن ها هي أمّه مفقودة. ألا تفهم معنى هذا؟».

قلتُ لأمي بسُخط «طبعاً أستطيع. طبعاً أفهم».

«عظيم. إذن فأنتَ تفهم أنَّ على أحدهم أنْ ينضمَّ إليه -شخص-» ولكن هنا ردّ السيد ماويني على الهاتف، وشرحتْ أمي له سبب اتصالها، ووافق على الفور على أنْ يفعلَ كل ما تطلب منه. وعندما أعادت السمّاعة إلى مكانها قالت، «على الأقلّ لقد تبّقى قدرٌ من الكياسة في هذا البلد. على الأقل تبقّى قدرٌ من الكياسة في *مكان ما*».

همسَ أخي «لقد أخبرتك».

لم يكن من الممكن أنْ تبدو لي أشدّ بهاءً مما كانت في تلك الليلة، ليس من أجل الحيوية الفائضة التي قبِلَتْ بها المكالمات الهاتفيّة من كينتكي وإليها فقط. بل من أجل ما هو أكثر، بل أكثر بكثير. أولاً، كان هناك اعتداء ألفن على والدي قبل ذلك بأسبوع. ثم ردّ والدي العنيف. كان هناك دمار غرفة جلوسنا. وأسنان والدي المكسورة وأضلاعه المكسورة، والقُطَب على وجهه والرباط حول عنقه. كان هناك إطلاق النار في جادة تشانسلر، واليقين بأنَّ الأمر كان مذبحة كبيرة. ولعلعت صفّارات الإنذار طوال الليل. وكان هناك اختباؤنا في رواق منزل آل كوكوتزا، والمسدس المحشو في حجر والدي، والمسدس المحشو في قبضة السيد كوكوتزا - ذلك كلّه حدث قبل ذلك بأسبوع. وكان هناك في الشهر السابق، وفي العام السابق، والعام الذي سبقه - كل تلك الضربات، والمهانات، والمُفاجآت التي قُصِدَ منها إضعاف اليهود وإخافتهم والتي مع ذلك لم تنجح في تبديد شجاعة أمي. وقبل أنْ أسمعها تطلب من سيلدون، من مسافةٍ تزيد على السبعمئة ميل، أنْ يصنع لنفسه وجبة ليأكلها ويجلس ليأكلها، وقبل أنْ أسمعها تتصل بآل ماويني - غير اليهود الذين يتردَّدون على الكنيسة ولم تشاهدهم أبداً - وتُجنّدهم لإنقاذ سيلدون من الإصابة بالجنون، وقبل أنْ أسمعها تطلبُ التحدُّث مع السيد ماويني ومن ثم تُخبره بأنّه إذا وقع مكروه خطيرٍ للسيدة ويشناو فلا داعي لأنَّ يقلق آل ماويني من التورُّط مع سيلدون، وأنَّ والدي على استعداد أنْ يستقلّ السيارة ويذهب إلى كينتكي لكي يُعيد سيلدون إلى نيوارك (وتعِدُ السيد ماويني بذلك على الرغم أنَّ لا أحد كان يعلم المدى الذي نوى أنصار ويلر وأنصار فورد أنْ يسمحوا للعامة الأميركيين بالتمادي إليه)، لم أكن قد فهمت أيّ شيءٍ من القصّة التي هي قصّة حياتها خلال تلك السنوات. وقبل اتّصال سيلدون الهستيريّ من كينتكي، لم أكنْ قد أخبرتُ أبي وأمّي بتكالبف تبوّء ليندبرغ سدّة الرئاسة حتى تلك اللحظة، لم أكن قادراً عى إحصاء كل ذلك الرقم الكبير.

عندما اتّصلتْ أمي بسيلدون عند الساعة الحادية عشرة إلّا ربعاً شرَحَت الخطّة التي نجحَتْ مع آل ماويني. وتقضي بأنْ يضع فرشاة أسنانه، وبيجامته، وملابسه الداخليّة، وزوجاً من الجوارب النظيفة داخل كيس من الورق، ويرتدي سترة من الصوف السميك ومعطفه الدافئ ويعتمر قبّعته الصوفيّة، ثم ينتظر في المنزل مجيء السيد ماويني ليقلّه بشاحنته. وكان السيد ماويني رجلاً شديد الكياسة، كما قالتْ أمي لسيلدون، رجلاً ودوداً، وكريماً لديه زوجة جميلة وأربعة أطفال كان ساندي قد تعرَّفَ عليهم خلال فصل الصيف الذي أمضاه في مزرعة آل ماويني.

صرخ سيلدون «إذن أمي ماتت **فعلاً!**».

لا، لا، لا، حتماً لا - سوف تأتي أمّه لكي تأخذه من منزل آل ماويني في صباح اليوم التالي وتقلّه بالسيارة من هناك إلى المدرسة. وسوف يُعدّ السيد والسيدة ماويني هذا كلّه من أجله وليس عليه أنْ يقلق بشأنْ أيّ شيء. ولكن حتى ذلك الحين لديه عملٌ ينبغي القيام به: عليه أنْ يكتب بأفضل خطّ ممكن رسالةً قصيرة لأمّه يتركها على طاولة المطبخ، يُخبرها فيها بأنه سيُمضي الليلة عند آل ماويني ويُدوِّن رقم هاتف آل ماويني لأجلها. وكان عليه أيضاً أنْ يطلبَ منها في الرسالة أنْ تتّصل بالسيدة روث على نَفَقَتها في نيوارك حالما تصل، ثم عليه أنْ يلزم غرفة الجلوس وينتظر هناك إلى أنْ يسمع نفير سيّارة آل ماويني في الخارج، ثم يُطفئ أنوار المنزل كلها...

رافَقَتْه مع كل خطوة من مراحل مغادرته ومن ثم، وبكُلفةٍ لم أستطع تقديرها، بقيَتْ على اتّصالٍ به إلى أنْ تمّ تنفيذ كل مل طلبتْ منه أنْ يفعل ثم يعود إلى الهاتف ويُبلِغها بأنّه نفَّذَ كل ما طَلَبَتْ منه، وحتى بعد ذلك لم تُنه المكالمة أو تتوقّف عن طمأنته حول كل شيء إلى أنْ هتفَ سيلدون أخيراً «لقد جاء! سيدة روث! إنّه يُطلِق النفير!»، فقالتْ أمّي «حسن، عظيم، وبكل هدوء الآن، يا سيلدون، بهدوء - احملْ كيسك، وأطفئ الأنوار، ولا تنسَ أنْ توصِد الباب بالمفتاح بعد أنْ تخرج، وفي صباح الغد، سوف ترى أمّك، مستيقظة باكراً ونشطة. والآن حظّاً موفّقاً، ولا

تركض و- سيلدون؟ سيلدون أعِدْ سمّاعة الهاتف إلى مكانها!»، لكنّه أهملَ فعل ذلك، في فورةِ سرعته لكي يفرّ بأسرع ما في وسعه، وغادر ذلك المنزل المُخيف، الموحِش، الخالي من الأبوَين، وترك السمّاعة متدلّية في الهواء، على كل حال لم يكن ذلك بالأمر الهامّ. كان يمكن للمنزل أنْ يحترق حتى يغدو رماداً من دون أنْ يكون هذا أمراً هامّاً لأنَّ سيلدون لن يطأ ذلك المنزل بعد الآن.

في يوم السبت، التاسع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر)، عاد من جديد إلى جادّة سميت. وخرج والدي بالسيارة، مع ساندي، إلى كينتكي من أجل إحضاره. كان التابوت الذي يضمّ بقايا ويشناو يتبعهما على متن قطار؟ كنتُ أعلم أنها احترقَتْ حتى لم يعُد في الإمكان التعرُّف عليها، لكنّني بقيتُ أتخيّلها داخل التابوت ولا تزال قبضتا يديها مشدودتين معاً. وبالتناوُب كنتُ أتخيَّل نفسي محبوساً داخل حمّامهم الموصَد والسيدة ويشناو في الخارج تُخبرني كيف أفتح الباب. كم كانت صبوراً! كم كانت تشبه أمي! وها هي الآن داخل تابوت، وأنا الذي وَضَعها في الداخل.

هذا كل ما استطعتُ التفكير فيه في الليلة التي قادتْ أمي سيلدون، كما يفعل قائد معركة، لكي تُعدّ له وجبة عشاء وتُعدّ له رحيله وتودِعه بأمان بين يديّ آل ماويني. أنا فعلتُ ذلك. هذا كل ما استطعتُ التفكير فيه حينئذٍ وكل ما أستطيع التفكير فيه الآن. فعلتُ ذلك بسيلدون وفعلته بها. كان الحاخام بنغلسدورف قد فعل ما فعل، والخالة إيفلين فعلتْ ما فعلتْ، ولكنْ كنتُ أنا الذي بدأ ذلك كلّه - ذلك الدمار كان مِنْ فعلي.

في يوم الخميس، الخامس عشر من تشرين الأول - اليوم الذي بلغَت فيه فتنة ويلر ذروة لا شرعيّتها - رنَّ جرس هاتفنا عند الساعة السادسة إلّا ربعاً صباحاً. اعتقدتْ أمي أنّه والدي وساندي يتّصلان لينقلا إليها نبأً مشؤوماً من كينتكي، أو الأسوأ من ذلك، أنَّ شخصاً ما يتّصل حاملاً نبأً عنهما معاً، ولكن عندئذٍ كان النبأ المشؤوم من خالتي. فقبل بضع لحظات قرع عملاء الإف بي آي باب غرفة فندق واشنطن الذي ينزل فيه الحاخام

بنغلسدورف. كانت الخالة إيفلين قد سافرتْ من نيوارك في اليوم السابق وتصادفَ أنْ قَضَت الليلة هناك - وإلّا لَمَا علِمَتْ بملابسات اختفائه. لم يُزعِج العملاء أنفسهم بانتظار مَنْ يفتح لهم الباب من الداخل؛ وأُجبِرَ مدير الفندق على فتح الباب بالمفتاح العموميّ لهم، وبعد أنْ أبرزوا أمراً بالقبض على الحاخام بنغلسدورف انتظروا في صمت ريثما يرتدي ملابسه، ثم قادوه مغلول اليدين من الغرفة من دون أنْ يُقدّموا للخالة إيفلين أيّ تبرير، وبعد أنْ راقبتهم يبتعدون معه بسيارة مجهولة الرقم اتّصلتْ هاتفيّاً بأمي طالبة المساعدة. لكنَّ الوقتَ لم يكن مُناسِباً البتّة لتتركني أمي في عُهدة شخص آخر لكي تُسافر بالقطار على مدى أربع ساعات وتُقدِّم يد العون لأختٍ كانت تُعاديها منذ أشهر. وقبل ثلاثة أيام كان اثنان وعشرون يهودياً قد اغتيلوا - من بينهم، كما كنا قد علِمنا تواً، كانت السيدة ويشناو - كان والدي وساندي لا يزالان في طريق رحلتهما الخطرة لإنقاذ سيلدون، ولا أحد يعلَم ما الذي يُخبئه القَدَر لنا نحن القاطنين في جادّة سَميتْ. وكان تبادُل إطلاق النار مع رجال الشرطة الذي نتجَ عنه موت ثلاثة من رجال العصابات المحلّيين هو أسوأ ما شهدته نيوارك حتى ذلك الحين؛ ومع ذلك، لكونه حَدَثَ في الجوار عند مُنعَطَف جادّة تشانسلر جعل كل شخص في الحي يشعر كأنَّ جداراً قد انهار وكان في السابق يحمي عائلاتهم - ليس جدار حي اليهود (الذي لا يحمي أحداً، خاصّة ليس من الخوف ومن أعراض الإقصاء) ولا جداراً الهدفُ منه الحؤول بينهم وبين الآخرين أو سجنهم، بل جدارٌ من التطمينات المشروعة يقفُ بينهم وبين فوضى الحيّ.

في الساعة الخامسة من بعد ظهيرة ذلك اليوم ظهرت الخالة إيفلين على باب بيتنا، وهي أشدّ جنوناً مما بدتْ عبر الهاتف إثر إلقاء القبض على الحاخام بنغلسدورف. لم يكن هناك في واشنطن كلها أحدٌ ما يرغب أو يقدر على إخبارها عن مكان احتجاز زوجها، أو حتّى عمّا إذا كان لا يزال حيّاً، ثم عندما سمعتْ عن عمليات إلقاء القبض على شخصيات تبدو حصينة مثل المُحافِظ لا غوارديا، والحاكم ليمان والقاضي فرانكفورتر،

استسلمتْ لخوفها واستقلَّت القطار المُنطلِق من واشنطن. ولما كانت خائفة من العودة وحدها إلى قصر الحاخام الكائن في جادّة إليزابيث - وخائفة أيضاً من أنْ تتّصل بنا أولاً فتطردها أمي - استقلّتْ سيارة أُجرة من محطة بن مباشرة إلى جادّة سميثْ لكي ترجونا أنْ نستقبلها. وقبل ساعتين من ذلك فقط سمعنا أخباراً صادمة عبر الإذاعة - حالما وصل الرئيس روزفلت إلى نيويورك لحضور تظاهرة احتجاج في تلك الليلة في ماديسون سكوير غاردن، قامت الشرطة «باحتجازه» - وهذا ما حفّزَ أمي على أنْ تغادر المنزل، وتقلّني للمرّة الأولى من المدرسة إلى المنزل في آخر النهار منذ أنْ بدأتُ أتردّدُ على روضة الأطفال في عام 1938. وحتى ذلك الحين كانت راغبة كأيّ شخص آخر يُقيم في الشارع في أنْ تتقيَّد بتوجيهات الحاخام بريتز ليبقى المجتمع على حاله ويترك الشؤون الأمنيّة للجنته، ولكنْ بعد ظهيرة ذلك اليوم قرّرت أنّ الأحداث أصبحت الآن تطغى على حِكمة الحاخام، ومع مئة أمٍّ أخرى توصّلنَ إلى نتيجةٍ مماثلة، انتهى بها الأمر إلى العمل على استرداد ابنها عندما يقرع جرس الانصراف ويبدأ الأولاد بالتدفّق من بوابات الخروج إلى المنزل.

«إنّهم يُلاحقونني يا بيس! يجب أنْ أختبئ - يجب أن تُخبئيني!».

وكأنَّ عالمنا لم ينقلب رأساً على عقب بما يكفي خلال أكثر قليلاً من أسبوع، وها هي خالتي التي تنبضُ بالحيويّة، والمتغطرسة، زوجة (أو ربّما أضحت الآن أرملة) أهمّ شخصيّة بارزة شاهدها أيٌّ منا بأمّ عينيه - ها هي الخالة إيفلين الضئيلة، مُجرّدة من تبرُّجها، مشوّشة الشَعر، أصبحتْ فجأة أشبه بالغولة، وجَعلَتها الكارثة لا تقلّ قُبحاً وضعفاً عن سلوكها الاستعراضيّ. وها هي أمي تسدُّ ممرّ باب بيتنا وتبدو أشدّ غضباً مما يمكن أنْ أتخيَّل. لم أكنْ قد رأيتها قط بمثل ذلك الحنق، ولا سمعتها تنطق شتيمة واحدة. بل لم أكنْ أعلم أنّها تعرف كيف تفعل ذلك.

قالتْ أمي «لِمَ لا تذهبين إلى مخبأ فون ريبنتروب؟ لِمَ لا تلجئين

إلى صديقك الهر فون ريبنتروب ليحميك؟ يا لك من حمقاء! وماذا عن عائلتي أنا؟ ألا تعتقدين أنّها خائفة أيضاً؟ ألا تعتقدين أننا مُعرّضون للخطر أيضاً؟ يا لك من عاهرة أنانيّة - كلّنا خائفون!».

«ولكن سوف يلقون القبض عليّ! سوف يُعذّبونني، يا بيسي، لأنني أعرف الحقيقة!».

قالتْ أمي «لا يمكنك أنْ تمكثي هنا! ولا جدال في الأمر! إنَّ لديكِ منزلاً، ومالاً، وخدماً- لديك كل ما يمكن أنْ يحميك. ونحن ليس لدينا أي شيء من هذا، لا شيء على الإطلاق منه. ارحلي، إيفلين! اذهبي! اخرجي من هذا المنزل!».

التفتتْ خالتي إيفلين مندهشة إليّ استجداءً للملاذ. «ولدي العزيز، حبيبي -».

صرختْ أمي «كيف تجرئين!»، وصفقَت الباب في وجهها، وبالكاد أخطأتْ دهس اليد التي كانت الخالة إيفلين قد مدّتها بعجزٍ نحو يدي».

في اللحظة التالية طوّقتني بشدّة بذراعيها حتى أنّني شعرتُ بجبيني بنبض قلبها.

سألتُها «كيف ستذهب إلى منزلها؟».

«بالحافلة، هذا ليس من شأننا. سوف تستقلّ الحافلة كما يفعل الناس جميعاً».

«ولكنْ ماذا تعني بالحقيقة، يا أمي؟».

«لا شيء. دعكَ ممّا تعني. لم تعُد خالتك تهمّنا في شيء».

في المطبخ دَفَنَتْ وجهها بين يديها وعلى الفور انخرطتْ في نوبة هستيريّة من البكاء. وزالت الوساوس الأبويّة المسؤولة، وزالتْ معها القوة التي استخدمتْها بدقّة لتُخفي ضعفها وتُحافِظ على تماسُك الأشياء.

سألتني «كيف يمكن لسالما ويشناو أنْ تموت؟ كيف يُلقون القبض على الرئيس روزفلت؟ كيف يمكن لأيّ من هذه الأمور أنْ يحدث؟ روزفلت».

سألتُها «ألأنَّ ليندبرغ اختفى؟».

أجابتْ «بل لأنه *ظهر*. لأنه ظهر أصلاً، كأبله مسيحي يقود طائرة بلهاء! آه، ما كان ينبغي أنْ أدعهما يذهبان لإحضار سيلدون! أين أخوك؟ أين أبوك؟»، وكأنَّها تسأل أيضاً، وأين أيضاً تلك الحياة المُنظّمة التي كانت ذات يوم مملوءة بالأهداف، أين المشروع العظيم، العظيم الخاصّ بنا نحن الأربعة؟». قالتْ «بل لا نعرف أين هما». ولكنْ بدا من صوتها كأنّها هي التائهة؟ «بمَ كنتُ أفكّر... عندما أرسلتهما هكذا؟ لقد تركتهما يذهبان بينما البلد بأكمله... بينما...».

هنا سكتتْ، لكنَّ مسار تفكيرها كان جليّاً جداً: كانت تريد أنْ تقول: بينما غير اليهود يقتلون اليهود في الشارع.

لم يكن في استطاعتي أنْ أفعل أيّ شيء أكثر من مُراقبتها إلى أنْ جفّتْ دموعها، في حين كان يطرأ على كامل فكرتي عنها تغيُّر مُذهل: إنَّ أمي تُشبهني. لقد صعقني الاكتشاف، وكنتُ أصغر سناً من أنْ أفهم أنَّ هذه أقوى الصِلات قاطبة.

قالت «كيف استطعتُ أنْ أصدّها؟ آه، ماذا ستقول الجدّة الآن؟» كان الندم، التوقُّع، هو الشكل الذي اتّخذه حزنها، القصاص القاسي الذي هو إدانة الذات، كأنّما في أوقاتٍ غريبةِ الأطوارِ كتلك كان هناك أسلوبٌ صائب وأسلوب خاطئ واضحَين لشخص آخر، وكأنّما في مواجهة مثل هذه الأزمات تكون يد الحماقة هي الأبعد عن قيادة أحد. ومع ذلك أنّبَتْ نفسها على أخطاء ارتكبَتْها في الحكم لم تكن فقط طبيعيّة في غياب أيّ تفسير منطقيّ لأي شيء بل ونابعة من انفعالاتٍ ليس لديها أيّ سبب للشك فيها. وأسوأ ما في الأمر كان مدى اقتناعها بالخطأ الفادح الكارثيّ، على الرغم من أنّها لو عارضَتْ غرائزها لما كان لديها أيّ سبب لتندم على ما فعلت. وما اكتشَفَه الطفل الذي كان يُراقبها بينما يتلاطمها الاضطراب الموجِع (وكان هو نفسه يرتعد من شدّة الخوف) هو أنّه ليس في وسع المرء أنْ يفعل أي شيء صائب من دون أنْ يفعل أيضاً شيئاً خاطئاً، بل

خاطئاً بحيث إنّه خاصّة حيثُ تسود الفوضى وكل شيء مُعرَّض للخطر، من الأفضل الانتظار وعدم فعل أيّ شيء - لولا أنَّ عدم فعل أيّ شيء هو أيضاً إنجاز لعملٍ ما... وفي مثل تلك الظروف يعني عدم فعل أيّ شيء إنجاز الكثير - وأنّه بالنسبة حتى إلى الأمّ التي مارستْ في كل يوم مُعارضةً مُنظّمة لدفق الحياة الجامح، لم يكن هناك نظام لإحداث فوضى بهذا القدر من الشرّ.

على ضوء تطورات النهار العنيفة (التي لم يُضاهها تمرير قانون «الغرباء والتحريض على الفتنة لعام 1797»، ولا حتى ما وصفه جيفرسون بأنّه «حُكم الساحرات» الفيدراليّ يُعادل ولو من بعيد التعصُّب الاستبداديّ أو الخيانة) عُقِدَت اجتماعات طارئة تقرَّرَ أنْ تتمّ في ذلك المساء في المدارس المحلّية الأربع التي تضمّ معاً تقريباً كل التلاميذ اليهود في نظام التعليم الابتدائي. وكل اجتماع سيرأسه عضو من جمعيّة المواطنين اليهود المهتمّين. وجاءتْ سيارة إذاعة مُتنقّلة في وقت متأخّر من بعد الظهر وطلبتْ من الجميع أنْ ينشروا نبأ الاجتماع بين الجيران. ودُعيَ الناس إلى اصطحاب أولادهم إذا لم يرغبوا في تركهم وحدهم في المنزل، وأكّدوا لهم أنَّ ثمة تعبئة كاملة لرجال الشرطة في كل أرجاء حي «الجناح الغربيّ» - حماية الشرطة تمتد شرقاً حتى جادّة فريلينغهويسن وشمالاً حتى جادّة سبرينغفيلد - كما وعد المُحافِظ ميرفي الحاخام بريتز. وسوف تُستدعى كامل فرقة الشرطة الراكبة في الإدارة - فصيلتان من اثني عشر شرطيّاً مُقسّمة ومتمركزة في أربع دوائر انتخابيّة - لكي تقوم بدوريات خاصة في الشوارع إلى الغرب من القِطاع اليهودي المُحاذي لإرفنفتون (حيثُ أُحرِقَ متجر لبيع المشروبات الكحوليّة يملكه يهوديّ في الليلة السابقة يقعُ في شارع التبضُّع الرئيس وسُوّيَ بالأرض بعد أنْ اقتُحِمَ ونُهِب) والشوارع المُحاذية من الجنوب لمقاطعة يونيون وبلدات هيلسايد (المشهورة في نظري بمصنع بريستول-ماير الضخم على طول الطريق 22 ويُنتج مسحوق إيبانا لتنظيف الأسنان الذي كنا نستخدمه، حيث هُشِّمَ زجاج نوافذ كنيس

في اليوم السابق) ومدينة إليزابيث (حيث استقرَّ والدا أمي المُهاجران في بداية القرن العشرين - وحيث قيلَ، وهذا شيء شديد الفتنة بالنسبة إلى صبيّ في التاسعة، إنَّ مصنع البسكويت في نيو جيرزي في شارع ليفينغستون يستخدم أشخاصاً صَمّاً وبُكماً من الولاية لكي يقوموا بعمل البسكويت - وحيث دُنِّسَت القبور في معبد مقبرة بنتي جيشورون التي لا تبعُد كثيراً عن مضمار لعبة الغولف في المُتنزّه اليهودي)

قُبيل الساعة السادسة والنصف، أسرعتْ أمي بالتوجّه إلى الاجتماع الطارئ في مدرسة جادّة تشانسلر. ومكثتُ في المنزل وفوّضتني بالردّ على الهاتف بقبول التوجيهات إذا ما اتّصل والدي من الطريق. وكان آل كوكوتزا قد وعدوها بأنْ يعتنوا بي إلى أنْ تعود إلى المنزل، وقد فعلوا حقاً، فما إنْ بدأتْ بهبوط الدَرَج حتى ارتقاه جوي، كل ثلاث درجات دفعة واحدة، وكانت السيدة كوكوتزا قد أرسلته لكي يُلازمني في أثناء انتظاري - من دون طائل، كما اتّضحَ - المكالمة الخارجيّة التي تُبلّغنا بأنَّ والدي وأخي بخير وأنّهما سوف يعودان قريباً إلى المنزل مع سيلدون، لأنّه في ظل الأحكام العُرفيّة كان الجيش قد سخّرَ كل تسهيلات شركة بيل تليفون للاستخدام العسكريّ، وخدمات المكالمات الخارجيّة التي كانت لا تزال مُتاحة للمدنيّين مُنِعَتْ، وكانت قد مرّتْ أربعٌ وعشرون ساعة على آخر مرّة سمعنا أيّ شيء عن والدي.

لمّا كان خط نيوارك-هيلسايد لا يمتد لأكثر من مئتيّ ياردة إلى الجنوب من منزلنا، كان ممكناً في تلك الليلة، والنوافذ مُغلقة، أنْ نجد بعض الطمأنينة في قرقعة حوافر جياد رجال الشرطة العالية وهي تتمشّى جيئة وذهاباً على تل جادّة كير القريب. وعندما فتحتُ نافذة غرفة نومي واسعاً وملتُ منها على الزقاق المُظلِم لكي أُصغي، سمعتها، وإنْ بضجيج واهن، وهي تتمايل إلى حيثُ تتلاشى جادّة سَميت وتتحوّل إلى جادّة هيلسايد ليبرتي. وهذه الجادّة تمتد خلال هيلسايد إلى الطريق 22، وتتقدّم غرباً إلى يونيون ومن هناك تمتد جنوباً داخل منطقة كريستيان الشاسعة

المجهولة بين تلك البلدات ذات الطابع الأنغلو-سكسونيّ من كينيلواي، وميدلسكس، والسهول الإسكتلنديّة.

لم تكن تلك ضواحي لويسفيل، بل تقع أبعد غرباً حيث لم ترها عيناي، وعلى الرغم من أنّه ينبغي اجتياز ثلاث مقاطعات في نيو جيرزي من أجل بلوغ الحدود الشرقيّة مع بنسلفانيا، تمكّنتُ في ليلة الخامس عشر من شهر تشرين الأول من التسبّب بالرعب لنفسي بالمشهد الكابوسيّ لأعمال العنف المُعادية للساميّة في أميركا التي اجتاحت الحيّ الشرقيّ وخلال خط الأنابيب لطريق 22 وتندفع من طريق 22 إلى جادّة ليبرتي وتتدفّق من جادّة ليبرتي مباشرة إلى زقاقنا في جادة سَميت ومنه إلى الدَرَج الخلفيّ كمياه فيضان لولا الحاجز المتين المتمثّل بأكفال الأحصنة اللامعة لِقِوى الشرطة في نيوارك، التي أبرز حاخام نيوارك الشهير، النبيل الذي اسمه برينتز، قوّتها وسرعتها وجمالها في آخر شارعنا.

وكما كان متوقَّعاً، لم يسمع جوي أيّ شيء حول ما يحدث في الشوارع، وكان من عادته أنْ يهرع منتقلاً من غرفة إلى أخرى، يطلّ من النوافذ من كلا جانبيّ المنزل محاولاً أنْ يلمح تفاصيل جسم أحد الأحصنة على الأقل - أحصنة من سلالة طويلة الأطراف، وعضلات جذع أرقّ بكثير، وجماجم رؤوس متطاولة وأشدّ رهافة بكثير من رؤوس أحصنة الحراثة الأنيقة في الميتم التي رفستني في رأسي - وأيضاً لكي يلمح رجال الشرطة بأزيائهم الرسميّة، وكُل منهم يضع صفَّين من الأزرار النحاسيّة تلمعُ على طول السترة المزدوجة الصدر والبذلة المُحكَمة بالضبط والمسدس في قُرابه على أحد جنبيه.

قبل ذلك بعدّة سنوات كان والدي قد أخذنا أنا وأخي إلى المتنزّه اليهودي في صباح ذات يوم أحد لكي نرمي حدوات الأحصنة إلى الهدف وأخذَ رجال شرطة راكبون منطلقون عبر أرض المتنزّه يُلاحقون شخصاً سرقَ كيس نقود امرأة - تلك اللحظة في نيوارك كأنّها مأخوذة من بلاط الملك آرثر. ولم تتلاشَ الإثارة إلّا بعد ذلك بأيام ولم تعُد فروسيتهم تُثيرني. لقد جنّدوا أشدّ

الرجال ليونة ونشاطاً لكي يتدّربوا ليُصبحوا رجال شرطة راكبين، ويمكن لطفلٍ أنْ يتسمَّر في مكانه وهو يُراقب شخصاً يتنقّل متمهّلاً وبفخامة على الطريق ويتوقّف لكي يُدوِّن بطاقةَ مُخالَفَة ومن ثم يميل بزاوية حادّة وهو على صهوة الجواد لكي يضع البطاقة تحت ممسحة حاجب الريح، وهي إيماءة جسديّة تدلُّ على تنازُل كيِّس ورائع لعصر الآلة، إنْ كان لهذا وجود. وفي منطقة الفور كورنرز الشهيرة في المدينة كانت هناك مواقع للدوريات الراكبة يواجهُ كلٌ منها نقطةً مُختلفة من الدائرة، وفي أيام السبت كان الكثير من الأطفال يُؤخَذون إلى المدينة لمشاهدة الأحصنة وهي تؤدي واجبها هناك ويُداعبون أنوفها غير الموجودة ويُطعمونها مُكعّبات السُكّر ويعلمون أنَّ كل شرطيّ يركبُ حصاناً يُعادل أربعة رجال من المُشاة، وطبعاً يطرحون الأسئلة المعتادة عن رجال الشرطة الراكبين، على غِرار «ما اسمه؟» و«هل الحصان حقيقيّ؟» و«ممَّ تُصنَع قوائمه؟»، وأحياناً كنتَ ترى حصان شرطيّ مربوطاً جانباً في شارع مزدحم في المدينة، لا يُزعجه أحد وهادئ من تحت السرج الأزرق والأبيض المختوم بعلامة NP، حصاناً مخصيّاً ارتفاعه أكثر من ستة أقدام ووزنه ألف رطل، مع عصا شرطي طويلة بشكل مُخيف مربوطة بحزامٍ إلى جنبه ويبدو لا مبالياً كأي نجم سينما ساطع بينما رجل الشرطة الذي ترجَّلَ وقفَ جانباً ببنطلون الركوب ذي اللون الأزرق الغامق والحذاء الأسود ذي الرقبة العالية، وقُراب مُسدّسه الجلديّ ذي السِمة الفاحشة الذي يتطابق في شكله بالضبط مع القالب المُحتقن للعضو الذَكَريّ، غير مُبالٍ بالأذى وسط هرج السيارات الصاخبة والشاحنات والحافلات ويقوم بإشارات أنيقة بذراعيه لكي يُعيد التدفّق السلس لحركة المرور إلى المدينة. أولئك هم رجال الشرطة الذين يتمتّعون بالموهبة في كل مكان - حتى بالخبب داخل حشود المتظاهرين والإطاحة بحرّاس المتظاهرين - وكونهم شديديّ القُرب بمظهرهم البطوليّ المتألِّق ساعدَ في دعم أعصابي لمواجهة الكارثة الوشيكة.

في غرفة الجلوس نزع جوي سمّاعته وقدَّمها إليّ، أعطانيها، دفعها نحوي بطريقة غامضة - سمّاعة الأُذُن مع علبة السمّاعة السوداء،

والبطاريّة، وكل الأسلاك. لم أفهم لِمَ اعتقدَ أنني أُريدها، خاصّة في ليلةٍ كتلك، لكنَّ السمّاعة كلها بدتْ، وهي تستكين بين راحتيّ كفيّ، أشدّ قُبحاً، إذا صحَّ ذلك، مما بدتْ وهو يضعها في أُذنه. لم أعلم إنْ كان يتوقَّع مني عندئذٍ أنْ أستجوبه حول الأداة أمْ أنْ أُبدي إعجابي بها أم أنْ أحاول أنْ أُفكّكها وأُصلحها. واتّضحَ أنّه أراد مني أنْ أضعها في أُذني.

هتفتُ «لِمَ؟ إنها لا تناسبني».

قال «إنها لا تناسب أحداً. ضعْها».

تذمّرتُ بأعلى صوتي «لا أعرفُ كيف أفعل»، فقام جوي بتثبيت العلبة إلى قميصي وأسقطَ البطاريّة داخل جيب بنطلوني، وبعد أنْ تفحّصَ تمديدات الأسلاك تَرَكَ أمر إقحام السمّاعة إليّ. وفعلتُ ذلك بإغماض عينيّ والتظاهُر بأنّها صَدَفَة وبأننا على الشاطئ وهو يريد مني أنْ أُصغي إلى هدير المحيط... ولكن كان عليّ أنْ أكبتَ الشهقة عندما نجحتُ في وضعها في موقعها، وهي ما تزال دبِقة الملمس ودافئة من تأثير داخل أُذُنه.

«حسن، والآن ماذا؟».

على الأثر مدَّ يده وأدار بمرح القرص الموجود في منتصف علبة السمّاعة، وكأنّه مفتاح كرسي كهربائيّ يُجرّبه وأنا عدوّ الشعب رقمْ واحد.

قلتُ له «لا أسمعُ أيّ شيء».

«انتظر وسوفَ أرفع الصوت».

«هل هذا الشيء سوف يجعلني أطرش؟»، وتخيّلتُ أنني أصبحتُ أطرش *وأيضاً* أبكم، ومحجوزاً داخل مدينة إليزابيث حتى آخر حياتي أصنعُ البسكويت في مصنع نيو جيرزي. ضحك من أعماقه لدى قولي هذا، مع أنني لم أقصد أنْ تكون نكتة.

قلتُ «اسمع، لا أريد هذا. ليس الآن. في الخارج أمورٌ كثيرة تحدثُ ليست جيدة، كما تعلم».

لكنّه كان قد نسيَ ذلك الشيء الذي ليس جيداً، إمّا لأنه كان كاثوليكيّاً وليس لديه ما يقلق بشأنه أو لأنه ببساطة كان لا يشعر بالمسؤوليّة.

قال لي جوي «أتعلم ماذا قال المُحتال الذي باعها؟ إنّه ليس حتى طبيباً، لكنّه مع ذلك أجرى لي فحصاً. أخرجَ ساعة جيبه ووضعها على أُذني وقال لي «هل تسمع تكّة الساعة يا جوي؟»، ولم أسمع إلّا القليل، فبدأ يخطو متراجعاً، ثم قال «هل تسمع الآن يا جوي؟» ولم أسمع، لم أسمع أيَّ شيء، فكتبَ بعض الأرقام على قطعة من الورق. ثم تناول قطعتين نقديّتين من فئة نصف الدولار من جيبه ولم يتغيَّر أيّ شيء. وأخذ يضربهما معاً بالقُرب من أُذنيّ، وقال «ألا تسمع رنين القطعتين، يا جوي؟» ومن ثم بدأ يمشي مبتعداً من جديد، وأنا أراه يضربهما معاً، لكنّني لم أعُد أسمع أي شيء. فقلت له «الوضع على حاله» - فدوّنَ كلامي، ثم نظر إلى ما كتب؛ نظر بإمعان شديد، ثم تناول قطعة صغيرة من الورق من الدُرج، ووضعها عليّ، القِطع كلها، وقال لوالدي «إنَّ ابنك سوف يسمع العشب وهو ينمو، إلى هذه الدَرَجة هذه الأداة جيّدة». هنا بدأ جوي يُدير القرص من جديد إلى أنْ سمعتُ ضجيج جريان ماء في حوض استحمام - وكنتُ أنا هو حوض الاستحمام. ثم أخذ يُديره بحيويّة - وصدرَ هديرٌ كالرعد.

صرختُ «كفى! كفى!» لكنَّ جوي كان يطفر بمرح في المكان؛ فمددتُ يدي ونزعتُ السمّاعة من أُذني ثم أخذتُ أفكّر برهة في أنّه، زيادة على إلقاء القبض على المُحافِظ لا غوارديا وعلى الرئيس روزفلت وحتى على الحاخام بنغلسدورف، فإنَّ فتى الطابق السُفليّ الجديد لنْ يكون أفضل من الفتى الذي كان قبله، وهذا كلّه وقعَ عندما قرّرتُ أنْ أهرب من جديد. كنتُ لا أزال أتعاملُ مع الناس كغرّ ولم أفهم، على المدى الطويل، أنه لا أحد طيب ولا حتى أنا. أولاً لم أُطِق سيلدون من الطابق السُفلي ولم أُطِق جوي من الطابق السُفليّ، وعزمتُ في التوّ واللحظة على أنْ أهرب من كليهما. سوف أهرب قبل أنْ يصلَ المُعادون للساميّة إلى هنا، سوف أهرب قبل أنْ يصل جثمان السيدة ويشناو إلى هنا وتُقام لها جنازة أضطرُّ إلى حضورها. سوف أهرب في تلك الليلة، تحت حماية الشرطة الراكبة، من كل ما يُلاحقني وكل ما يكرهني وأراد أنْ يقتلني. سوف أهرب من

كل ما فعلتُ ومن كل ما لم أفعل، وأبدأ من جديد كفتى لا يعرفه أحد. وأدركتُ، دفعة واحدة، إلى أين سأذهب - إلى مدينة إليزابيث إلى مصنع البسكويت، سوف أُخبرهم كتابةً أنني كنتُ أصمّ-وأبكم. وسوف يمنحونني عملاً في صناعة البسكويت، ولن أتكلّم أبداً وسوف أتظاهرُ بالصمم، ولن يتعرَّفَ أحدٌ على هويتي.

قال جوي «أسمعتَ عن الولد الذي شربَ دم حصان؟».

«أي دم حصان؟».

«حصان القديس بطرس. هذا الولد دخلَ ليلاً المزرعة وشرب دم الحصان. وهم يفتشون عنه».

«مَنْ هم؟».

«الشباب. نيك. الشباب. الشباب البالغون».

«ومَنْ هو نيك؟».

«إنّه أحد الأيتام. في الثامنة عشرة، والولد الذي فعل ذلك يهوديّ مثلك. هم متيقّنون من أنّه يهوديّ وسوف يعثرون عليه».

«كيف حدثَ وشربَ دم الحصان؟».

«إنَّ اليهود يشربون الدم».

«أنت لا تعي ما تقول. أنا لا أشرب الدم وساندي لا يشرب الدم. ووالداي لا يشربان الدم. لا أحد أعرفه يشرب الدم».

«هذا الولد شربه».

«أحقّاً؟ وما اسمه؟».

«نيك لا يعرف هذا بعد. لكنهم يبحثون عنه. لا تقلق، سوف يقبضون عليه».

«وماذا سيفعلون حينئذٍ، يا جوي؟ يشربون دمه هو؟ إنَّ اليهود لا يشربون الدم. وقولك هذا جنون»، وأعدتُ إليه السمّاعة - مُعتقداً أنّ في وسعي الآن أنْ أُضيف نيك إلى كل شيء آخر أسعى إلى الهرب منه -

وسرعان ما بدأ جوي يهرع متنقّلاً من نافذة إلى أخرى، مُحاولاً أنْ يُلقي نظرة على الأحصنة، إلى أنْ انتفَض، عندما لم يعُد يستطيع أنْ يتحمّل البقاء خارج مجال رؤية المشهد الذي يُعادِلُ في تصوّره عرض الغرب الجامح لبوفالو بيل القادم إلى بلدتنا لينصب الخيمة الكبرى أمام منزلنا، وانطلقَ خارجاً من الباب. وكانت تلك آخر مرّة أراه فيها في تلك الليلة. وانتشرتْ إشاعة تقول إنَّ أحد أحصنة الشرطة في نيوارك كان يمضغ التبغ، على غرار الشرطي الذي يمتطيه، وكان قادراً على جمع الأرقام بضرب حافره الأماميّ الأيمن، كان حصاناً من الدائرة الثامنة اسمه نِدْ وكان يسمح للأولاد بالتأرجُح من ذيله من دون أنْ يرفسهم بقائمتيه الخلفيّتين. وربما قابلَ فعلاً نِد المُنهك وربما جعل الأمر يستحق العناء. ومع ذلك، بسبب تركه لي في تلك الليلة، وعدم عودته، ورضوخه لحبّه للإثارة بدل إطاعته أوامر أمّه، تلقّى عقاباً قاسياً من والده عندما عاد إلى المنزل من العمل في صباح اليوم التالي، بضربه ضرباً مُبرحاً على كفليه الشبيهَين بكفليّ حصان وبلا رحمة بالحزام الجلديّ الخاصّ بساعة توقيت الحارس الليليّ.

حالما اختفى جوي، أدرتُ قفل الباب مرّتين خلفه وكان يمكن أنْ أُدير مفتاح الراديو عالياً لكي أُبعِد انتباهي عن مخاوفي لو لم أخش أنْ تقطع نشرةُ أخبارٍ أخرى البرامج المُقرَّرة وتنقل إليّ، وأنا وحدي، نبأً أشدّ فظاعة من الأنباء التي كانت ترِدُ إلينا طوال النهار. وسرعان ما عدتُ إلى التفكير في الهرب إلى مصنع البسكويت. وتذكّرتُ مقالةً حول المصنع كانت قد ظهرت في صحيفة صنداي كول قبل نحو عام واقتطعتُها لكي أُحضِرها إلى المدرسة لأستعين بها في وضع تقرير كان مُقرّراً علينا حول الصناعة في نيو جيرزي. وفي تلك المقالة يوصَف المالك، واسمه السيد كيونز، بأنّه فضحَ الفكرة، التي يبدو أنّها كانت سائدة في العالم أجمع، القائلة إنَّ تعليم شخص لكي يُصبح صانع بسكويت يستغرقُ سنين. قال «أمّا أنا فأستطيع تعليمهم ذلك بين ليلة وضُحاها إنْ كانوا مستعدّين للتعلُّم»، ومُعظم المقالة كان عن الجَدل الدائر حول الحاجة إلى إضافة الملح

إلى البسكويت. وادّعى السيد كيونز أنَّ الملح على السطح الخارجي لا ضرورة له وأنّه يضعه فقط «إرضاءً للسوق». وقال إنَّ الشيء الهامّ هو إضافة الملح إلى العجين، وهو وحده يفعل ذلك، من بين صانعي البسكويت في الولاية كلّها. وتقول المقالة إنَّ لدى السيد كيونز مئة مُستخدم، بينهم عدد وافر من الصُمّ والبُكم ولكنْ أيضاً من «فتية وفتيات يعملون بعد انتهاء دوامهم المدرسيّ».

وتعرَّفتُ على الحافلة التي تمرّ من أمام مصنع البسكويت - كانت الحافلة نفسها التي استقللناها أنا وإيرل بعد ظهيرة اليوم عندما لاحقنا فيه المسيحيّ الذي كان إيرل قد لاحظ أنّه شاذ في اللحظة الأخيرة حتى منزله في بلدة إليزابيث. كان ينبغي أنْ أدعو الله ألّا يكون الشاذ على متن الحافلة - فإذا تصادفَ أنْ كان هناك، فسوف أترجّل وأستقلّ الحافلة التالية. سوف أحمل معي رسالة توصية، هذه المرّة ليست من الأخت ماري كاثرين بل من شخص أصمّ وأبكم. تقول «عزيزي السيد كيونز، لقد قرأتُ عنكَ في صحيفة صنداي كول. أريد أنْ أتعلَّم صنع البسكويت. أنا يتيم. فهل لكَ أنْ تمنحني عملاً؟» ووقّعتُ باسم «سيلدون ويشناو» ولم يخطر في بالي أيّ اسم آخر.

كنتُ في حاجة إلى رسالة توصية، وإلى ملابس. كان ينبغي أنْ أبدو أمام السيد كيونز كطفلٍ جدير بالثقة، ولم يكن في استطاعتي أنْ أظهر من دون ملابس. وفي هذه المرّة كنتُ في حاجة إلى خطّة، أو ما سمّاه أبي «خطّة للمدى الطويل». راودتني في الحال: وخطّتي للمدى الطويل كانت أنْ أدّخر ما يكفي من النقود التي أكسبها من مصنع البسكويت لكي أبتاع تذكرة سفر بالقطار ذهاباً وإياباً فقط إلى أوماها، نبراسكا حيث يُدير الأب فلاناغان - كما يعلَمُ كلّ فتى في أميركا - من الفيلم الذي يمثّل فيه تريسي سبنسر[55]، وفاز بجائزة الأوسكار لقيامه بدور الكاهن الشهير ومن ثم تنازل عن جائزته «لأطفال البلدة» الحقيقيين. كنتُ في الخامسة عندما

55- فيلم Boy's Town عام 1938. - المترجم

شاهدته في سينما روزفلت مع ساندي بعد ظهيرة يوم سبت. لقد جمع الأب فلاناغان الصِبية من الشارع، وكان بعضهم قد أصبحوا لصوصاً وصِبية عصابات، وجَلَبَهم إلى مزرعته، حيث أطعمهم وكساهم وتلقّوا تعليمهم ولعبوا البيسبول وأنشدوا مع الجوقة وتعلّموا كيف يُصبحون مواطنين صالحين. كان الأب فلاناغان أباً لهم جميعاً، بغضّ النظر عن عرقهم ومعتقداتهم. كان مُعظم الصِبية من الكاثوليك، وبعضهم من البروتستانت، لكنَّ بضعةً من اليهود المُعوزين أيضاً أقاموا في المزرعة - علِمتُ هذا من والديّ اللذَين، كالآلاف من العائلات الأميركيّة الأخرى التي شاهدت الفيلم وبكت، خصيّصا إسهاماً مسكونيّاً سنويّاً لبلدة الصِبية. وهذا لا يعني أنني شعرتُ بأنني يهوديّ حالما وصلتُ أوماها. قلتْ - متكلّماً بصوت مرتفع بعد طول انتظار - لم أكنْ أعلم ما أنا أو مَنْ أكون. أنني تافه ونكرة - مجرد فتى لا أكثر ولا أقلّ، ولستُ الشخص المسؤول عن موت السيدة ويشناو وتيتُّم ابنها. فلتربّي عائلتي ابن السيدة ويشناو كأنّه ابنها من الآن فصاعداً. يمكنه الحصول على مستقبلي. سوف أعيش حياتي مع الأب فلاناغان في نبراسكا الأبعد عن نيوارك من بُعدها عن كينتكي.

فجأة فكّرتُ في اسمٍ آخر وأعدتُ كتابة الرسالة، ووقّعتُ عليها باسم «فيليب فلاناغان». ثم انطلقتُ إلى القبو لأُحضِر حقيبة الكرتون التي كنتُ قد خبّأتُ داخلها ملابس سيلدون المسروقة قبل أنْ أهرب في المرة الأولى. هذه المرّة سوف أملأها بملابسي أنا وسوف أحمل في جيبي النموذج الصغير للمسدس القصديريّ الذي كنتُ قد اشتريته من ماونت فرنون واستخدمته في فتح المُغلّفات الواردة من شركة الطوابع عندما كنتُ لا أزال أمتلك تشكيلة هامة وكنتُ أتلقّى رسائل. لم يكن طول طَرَفه الحادّ يتجاوز البوصة، ولكنْ لمغادرة المنزل إلى الأبد كنتُ أحتاج إلى شيءٍ يحميني، وكانت فتّاحة الرسائل هي كل ما أملك.

بعد ذلك بدقائق تمكّنتُ، وأنا أهبط الدَرَج حاملاً مصباحاً وامضاً، من

التزوُّد بالقوة لمنع ساقيَّ من الانهيار بإدراكي أنَّ تلك هي الفرصة الأخيرة للهبوط إلى القبوّ ومواجهة العصّارة أو قطط الزقاق أو مياه الصرف أو الموتى. أو ذلك الجدار الرطب، والقَذِر المواجه للشارع الذي كان ألفن ذو الساق الواحدة قد نثر عليه ذات مرَّة أحزانه.

لم يكن الجوّ حينئذٍ قد أصبح بارداً بما يكفي بالنسبة إلينا لكي نُشعِل الفحم، وعندما وجّهتُ ضوء المصباح في أسفل دَرَج القبو نحو الكتلة الرماديّة للأفران الخامدة التي بدتْ لي أشبه بسراديب الدفن الفخمة تلك التي يُدفَنُ فيها الأغنياء والعظماء، بكل ما تُضفيه عليهم من جلال. وقفتُ هناك آملاً أنْ يكون شبح والد سيلدون قد رحل إلى كينتكي (داخل صندوق سيارة والدي من دون أنْ يراه أحد) لكي يجلب زوجته الميّتة لكنّني كنتُ أعلمُ جيداً أنّه لم يفعل، وأنَّ عمله كشبح هو هنا معي - وأنَّ شبح قلبه يغلي باللعنات وكلّها موجّهة إليّ. همستُ «لم أقصد أنْ أثيرها. كانت غلطة. لستُ أنا المسؤول. لم أقصد أنْ أجعل من سيلدون هدفاً».

طبعاً كنتُ مستعداً لمواجهة الصمت الحتميّ الذي يكتنفُ كلماتي الموجّهة للموتى الذين لا يرحمون، وبدل ذلك سمعتُ اسمي يُنطَق كجواب - وبصوت امرأة! من خلف الأفران، نطقَ صوتُ امرأة اسمي كأنين! لم يمضِ على موتها أكثر من ساعات وها هي تعود لكي تتلبّسني حتى آخر حياتي!

قالتْ «أنا أعرف الحقيقة» وإذا بخالتي تظهر كالكاهنة العرّافة عن مهبط الوعي داخل وعاء التخزين، «إنّهم يُلاحقونني، يا فيليب. أنا أعرفُ الحقيقة، وسوف يقتلونني!».

***

لأنَّ عليها أنْ تستخدم المرحاض وأنْ تأكل شيئاً - ولأنني لم أكن أعلم أنَّ في وسعي أنْ أقوم بأكثر من إعطاء خالتي ما تحتاج - لم يكن لديّ من خَيار غير أنْ أُعيدها إلى الطابق العُلويّ معي. قطعتُ شريحة من الخبز من نصف الرغيف الذي تبقّى من وجبة العشاء، ومسحتُها بالزبد، وملأتُ لها

الكأس بالحليب، وبعد أنْ لجأتْ إلى الحمّام - وأسدلتْ ستائر المطبخ لكي لا يراها أحد من الجانب المقابل للشارع - انتقلتْ إلى المطبخ وراحتْ تلتهم كل شيء بنَهَم. كان معطفها وكيس نقودها على حِجرها وكانت لا تزال تعتمر قبّعتها. وتمنّيتُ بعد أنْ تتناول حاجتها من الطعام أنْ تنهض وتذهب إلى منزلها لكي أتمكَّن من الهبوط وإحضار الحقيبة، لأحزمها، وأهرب قبل أنْ تعود أمي من الاجتماع. ولكنْ حالما انتهتْ من تناول الطعام بدأتْ تثرثر، وتُعيد مراراً وتكراراً أنّها تعرف الحقيقة وأنّهم لهذا السبب يُلاحقونها وسوف يقتلونها. سوف يستدعون فِرَق الشرطة الراكبة، كما أبْلَغَتني، ليبحثوا عنها عن مكان اختبائها.

وسط الصمت الذي تلا تلك الملاحظة المُذهلة - التي كنتُ طفلاً ولم أُصدّقها، في ظل الظروف السائدة، وحين لم يعد هناك فجأة أيّة أحداث متوقَّعة - تابعنا التقدُّم المسموع لحصان واحد يثبُ في الحي نحو جادّة تشانسلر. قالت «إنّهم يعلمون بوجودي هنا».

قلتُ «إنّهم لا يعلمون، يا خالتي إيفلين». لكنَّ الكلمات لم تكن تُقنعني وأنا أنطقها، «أنا نفسي لم أكن أعلم بوجودك هنا».

«إذن لِمَ أتيتَ بحثاً عني؟».

«لم أفعل. كنتُ أبحثُ عن شيءٍ آخر»، ثم أضفتُ «إنَّ الشرطة في الخارج»، مُقتنعاً بأنني أكذب عن عمد حتى وأنا أتكلَّم بجدّيّة صارمة، «الشرطة في الخارج لمكافحة مُعاداة الساميّة. إنها تجوب الشوارع لحمايتنا».

ابتسمَت ابتسامة مُخصّصة للأرواح الجديرة بالثِقة «أعطني سبباً آخر، يا فيليب».

لا شيء أعرفه تزامنَ مع أي شيء كان يقوله أيٌّ منا. كان شبح جنونها قد زحفَ عليّ من دون أنْ أفهم حتى ذلك الحين أنّها في أثناء اختبائها داخل صندوق التخزين - أو ربما قبل ذلك، تُراقبُ الإف بي آي وهي تعتقل الحاخام مغلولاً - فقدتْ عقلها حقاً. إلّا إذا، طبعاً، كانت قد بدأتْ

تواً تنحدر نحو الجنون في الليلة التي وقفتْ في البيت الأبيض مع فون ريبنتروب. تلك كانت نظريّة والدي - أنّها، قبل اعتقال الحاخام، عندما كان بنغلسدورف يُدهِش يهود نيوارك بمدى الاحترام العالي المُستبعَد الذي كنّه الرئيس له، استسلمَتْ للسذاجةِ نفسها التي حوّلت البلد برمّته إلى مثوى للمجانين: إلى دارٍ لعبادةِ ليندبرغ ومفهومه عن العالم.

سألتُ «أترغبين في التمدُّد؟» وخشيتُ أنْ توافق، «هل تحتاجين إلى التمدُّد؟ هل أستدعي الطبيب؟».

هنا أمسكتْ بيدي بقوة حتى انغرزتْ أظافر أصابعها في لحمي «فيليب يا عزيزي، أنا أعرفُ كلَّ شيء».

«تعرفين ماذا حدث للرئيس ليندبرغ؟ أهذا ما تقصدين؟».

«أين أمك؟».

«في المدرسة. تحضر اجتماعاً».

«سوف تُحضِر لي طعاماً وماءً، يا عزيزي».

«أحقّاً؟ حتماً. إلى أين؟».

«إلى القبو. أستطيع أنْ أشرب من حوض الغسيل. سوف يعثرُ أحدهم عليّ».

قلتُ، وفكّرتُ على الفور في جَدَّة جوي وفي أنفاس الجنون الحارَّة التي تنبعثُ منها. «سوف أُحضِرُ كلَّ شيء». ولكن بعد أنْ وعدتُها بذلك، لم يعُد في إمكاني أنْ أهرب.

سألتني الخالة إيفلين «هل لديكم تفاح؟».

فتحتُ البرّاد. «كلا، لا يوجد. لقد نفدَ التفاح من عندنا. ولم تتمكّن أمي من التبضُّع. ولكنْ عندنا إجاص، يا خالتي إيفلين، أترغبين في واحدة؟».

«نعم. وفي شريحة أخرى من الخبز. أحضِر شريحة أخرى من الخبز».

ظلَّ صوتها يتغيَّر. هنا بدا كأننا نقوم بالاستعداد للقيام بنزهة خلويّة،

ونجمع أفضل ما لدينا لنأخذه معنا إلى المتنزّه اليهوديّ ونتناول الطعام على ضفّة البحيرة تحت الشجرة، وكأنَّ أحداث النهار غير ذات أهميّة بالنسبة إلينا كما ربما هي بالنسبة إلى كل شخص آخر في أميركا: كان شعوراً بقليل من الانزعاج من المسيحيين. بما أنّه كان هناك أكثر من ثلاثين مليون عائلة مسيحيّة في أميركا وفقط حوالي مليون عائلة يهوديّة، فلماذا ينزعجون؟

قطعتُ شريحة أخرى من الرغيف لأجلها لتأخذها معها إلى القبو ودهنتُها بطبقة كثيفة من الزبد. فإذا سُئلتُ لاحقاً عن القطعة المفقودة من الخبز، فسوف أقول إنَّ جوي أكلها، مع ثمرة الإجاص، قبل أنْ يهرع ليُشاهد الأحصنة.

عندما عادتْ أمي إلى المنزل وعلِمَتْ أنَّ والدي لم يتّصل، لم تتمكّن من كبت ردّة فعلها. نظرتْ إلى ساعة جدار المطبخ بيأس، مُتذكّرة ربما ما كان ينبغي أنْ يحدث في مثل تلك الساعة: إنّه وقت النوم، عندما كان كل ما يُطلَب من الأولاد هو أنْ يغسلوا وجوههم ويُنظّفوا أسنانهم بالفرشاة لأنَّ النهار كان زاخراً بالواجبات التي ينبغي أداؤها إرضاءً للجميع. هذا الوقت هو الساعة التاسعة - أو هذا ما قادنا ذلك الشبه الثابت، المُقنِع تماماً، الذي اتّضحَ الآن أنّه زيف، إلى تصديقه.

ثم عاد توالي أيام المدرسة الرتيب - أكان ذلكَ أيضاً زيفاً، خِداعاً ماكراً يُرتكَب لكي يُضعِفنا بآمال عقلانيّة ويُعزّز مشاعر الثقة التافهة. سألتُها عندما أخبرتني بأننا في اليوم التالي سيكون يوم عطلته، «ما سبب العطلة؟»، أجابتْ أمي، مُستعينةً بالصيغة الشاحبة التي توحي للآباء أنْ يكونوا صادقين من دون أنْ يُغالوا في إخافة أولادهم، «لأنَّ وضْعَنا ازداد تدهوراً». سألتُ «أيّ وضع؟». «وضعنا»، «لماذا؟ ماذا حدث الآن؟»، «لم يحدث أيّ شيء. ولكنْ يجدر بكم أنتم الأطفال أنْ تلزموا المنزل غداً. أين جوي؟ أين صديقك؟»، «لقد أكل بعض الخبز وثمرة إجاص،

ثم غادر. أخذ ثمرة الإجاص من البرّاد وهرعَ إلى الخارج. ذهب ليُشاهد الأحصنة». سألتْ «أواثقٌ أنتَ من أنَّ لا أحد اتّصل هاتفيّاً؟». بدتْ من شِدّة الإرهاق بحيث لم تتمكّن من إظهار غَضَبها على جوي لأنه خَذَلَها في لحظةٍ كتلك. «أريد أنْ أعرف سبب عطلة المدرسة، يا أمي»، «أيجبُ أنْ تعرف هذه الليلة؟»، «نعم، لِمَ لا أستطيع أنْ أذهب إلى المدرسة؟»، «حسنٌ... لأنّه ربما تنشبُ حربٌ مع كندا»، «مع كندا؟»، «لا أحد يعلم. ولكن من الأفضل أنْ تلزم المنزل إلى أنْ نرى هذه الليلة. لقد أخبرتُكَ بكل ما أعلم. أنتَ ألححتَ وأنا أخبرتُكَ. والآن لم يعُد أمامنا إلّا الانتظار. علينا أنْ ننتظر ونرى كما يفعل الجميع»، ومن ثم، كأنَّ مكان والدي وأخي المجهول لم يستولِ على أسوأ تخيّلاتها - وهو حالنا معاً عندئذٍ، كآل ويشناو، مُجرّدَ أرملة وابنها - قالتْ (مُحاوِلةً بعناد أنْ تتبع نظام الساعة التاسعة)، «أريدُ منكَ أنْ تغتسل ومن ثم أنْ تأوي إلى السرير».

السرير - وكأنَّ السرير بوصفِهِ مكاناً هادئاً ومُريحاً، وليس حاضنة الموتى، لا يزال موجوداً.

كانت الحرب مع كندا أقلّ إبهاماً بالنسبة إليّ مما قد تفعله الخالة إيفلين فيما لو احتاجتْ إلى اللجوء إلى المرحاض ليلاً. وحسب أقصى ما أعلم، كانت الولايات المتحدة ستنضمّ إلى الحرب العالميّة، ليس إلى جانب إنكلترا والكومونويلث البريطاني، اللذين توقّع الجميع أنّنا سوف ندعمهما ما دام روزفلت رئيساً للبلاد، بل إلى جانب هتلر وحليفيّ هابر، إيطاليا واليابان. وزيادة على ذلك، كان قد مرَّ يومان كاملان من دون أنْ نسمع أيّ خبر عن والدي وساندي، وحسب عِلمنا كانا قد قُتِلا بوحشيّة كما قُتِلَتْ والدة سيلدون على أيدي المُعادين للساميّة المُشاغبين؛ بالإضافة إلى أنَّ دوام المدرسة سوف يبدأ في الغد، مما أوحى إليّ بأنّه قد لا تفتح المدرسة أبوابها بعد الآن إذا ما ابتلانا الرئيس ويلر الآن بقوانين نعلمُ أنْ النازيّين هم الذين فرضوها على أطفال ألمانيا من اليهود. كانت كارثة سياسيّة لا يمكن تخيُّل حجمها تُحوِّل مُجتمعاً حرّاً إلى دولةٍ بوليسيّة، لكنَّ الطفل

يبقى طفلاً، وكل ما استطعتُ التفكير فيه وأنا في سريري كان أنّه عندما يحين وقت إفراغ خالتي إيفلين ما في أمعائها، سوف تُضطر إلى فعل ذلك في قعر صندوق التخزين. إنّه الحَدَث الذي لا يمكن التحكُّم فيه ورزح على كاهلي دون أيّ شيءٍ آخر، وخيَّمَ عليّ كتجسيدٍ لأي شيء آخر، ومحا كل شيءٍ آخر. إنّه الخطر الأشدّ تفاهةً، وجاء لكي يتّخذ المظهر الأهمّ بحيث إنني عند حوالي منتصف الليل تسلّلتُ على أطراف أصابع قدميّ إلى الحمّام وفي خلفيّة الرف السُفليّ من خزانة المناشِف عثرتُ على نونيّة صغيرة كنا قد اشتريناها ليستخدمها ألفن في حالة الطوارئ في أول عهده بالعودة إلى المنزل من كندا. وكنتُ قد وصلتُ إلى الباب الخلفي وأستعدُّ لحمل النونيّة إلى أسفل من أجل الخالة إيفلين عندما واجهتني أمي وهي بقميص نومها، مذعورة من صورة الولد الصغير التي ظهرتُ بها وقد فوجئ إلى درجة أنّه كاد يفقد عقله.

بعد بضع دقائق قادتْ أمي الخالة إيفلين إلى أعلى الدَرَج ثم إلى داخل الشقّة. ولا داعي لوصف الإزعاج الذي سبّبه هذا الأمر في منزل كوكوتزا أو ردّة الفعل العِدائيّة التي أبدتها شخصيّة جدَّة جوي المُرعِبة نحو شخصيّة خالتي المُرعِبة – إنَّ الجانب الهزليّ من المُعاناة يعرفه الجميع. وأُرسِلتُ إلى النوم في غرفة نوم أبويّ واحتلّتْ أمي والخالة إيفلين سريري، حيثُ كانت مهمّة أمي الكُبرى هي منع أختها من النهوض من سرير ساندي والتسلُّل إلى المطبخ لكي تفتح أنابيب الغاز وتقتلنا كلّنا.

كانت الرحلة برمّتها البالغة ألفاً وخمسمئة ميل بمنزلة مغامرة ساندي العُظمى. وبالنسبة إلى والدي كانت مشؤومة. كانت، في اعتقادي، جزيرته الأخيرة ومعركته الفاصلة. ففي عمر الواحد والأربعين كان عجوزاً جداً على الانضمام إلى الجيش في شهر كانون الأول من ذلك العام، بعد رفض سياسات ليندبرغ وتشويه سمعة ويلر وعودة روزفلت إلى البيت الأبيض، وانضمّتْ أميركا أخيراً إلى الحرب ضد قِوى المحور. وهكذا

كان ذلك أقرب موقع وَصَلَه من الخوف، والتعب، والمُعاناة الجسديّة التي تنال من جنديّ الخطوط الأماميّة. على الرغم من أنّه يضع مُقوِّماً للعنق عالياً من الفولاذ ويُعالج اثنين من أضلاعه المكسورة مع جرح مخيط في وجهه وفمٍ مملوء بالأسنان المكسورة - ويحملُ مسدسَ السيد كوكوتزا الإضافي في القراب لحمايته من الذين اغتالوا حتى ذلك الحين 122 يهوديّاً في تلك المناطق من البلاد نفسها التي كان متوجّهاً إليها - قاد السيارة مسافة السبعمئة ميل حتى كينتكي ولم يتوقّف إلّا ليتزوّد بالوقود ويلجأ إلى المرحاض. وبعد أنْ نام في مزرعة آل ماويني خمس ساعات وتناول بعض الطعام، استدار وعاد أدراجه، على الرغم من الألم الذي ينبض على طول جرحه المخيط وسيلدون الذي يُعاني من ألم في بطنه ومن الحمّى في المقعد الخلفيّ وهو يُهلوس عن أمّه ولا يقوم بأيّة أعمالٍ سِحريّة باذلاً في ذلك أقصى ما في وسعه لاستعادتها.

كانت رحلة الذهاب قد استغرقتْ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة بقليل، أمّا رحلة الإياب فاستغرقَتْ ثلاثة أضعاف ذلك الزمن بسبب المرات العديدة التي اضطروا فيها إلى التوقّف من أجل سيلدون ليتقيّأ على جانب الطريق أو لكي يُنزِل بنطلونه ويتبرَّز في الخندق، ولأنَّ السيارة تعطّلتْ في ست مرّات متفرّقة خلال أكثر من يوم بقليل، ضمن مُحيط منطقة تشارلستون، في ويست فيرجينيا، البالغة مساحته عشرين ميلاً (حيثُ أخذوا يدورون ضمن دائرة، وتاهوا تماماً، بدل أنْ يتقدّموا شرقاً وشمالاً نحو ميريلاند): في إحدى المرّات وسط خط القطار، وخطوط التيار الكهربائيّ، والقوافل الضخمة في ألوي، وهي بلدة صغيرة تعداد سكّانها مئتا نسمة حيث تكتنفُ تلالٌ من المعدن الخام والسيليكل مباني مصنع الشركة الكهربائيّة المعدنيّة؛ وفي مرة أخرى في بلدةٍ صغيرة مُجاورة اسمها بومر، حيث يتصاعد لهب أفران فحم الكوك عالياً جداً حتى كان في استطاعة والدي، الواقف بعد الغروب وسط شارع غير مُضاء، أنْ يقرأ (أو يُسيء قراءة) خريطة الطريق على ضياء الوهج؛ وحالما وصل

إلى بلدة بيل، وهي بلدة أخرى من تلك البلدات الصغيرة، الصناعيّة كأنّها الجحيم، حيث كاد دخان مصنع النشادر دوبون يخنقهم عندما خرجوا من السيارة لكي يرفعوا الغطاء ويحاولوا أنْ يكتشفوا العطل؛ وأيضاً توقفوا في جنوب تشارلستون، المدينة التي بدتْ في عين سيلدون أشبه بـ «وحش» لأنَّ البخار والدخان المُتصاعدَين من أفنية البضائع والمخازن والأسطح الطويلة القاتمة للمصانع المسْودّة بفعل السخام؛ وتوقّفوا مرّتين في ضواحي عاصمة الولاية، تشارلستون نفسها. هناك، عند حوالي منتصف الليل، اضطرَّ والدي، بغية الاتّصال لطلب شاحنة قَطر، إلى اجتياز جسر خطّ حديد على قدميه ومن ثم هبوط تلٍ من القمامة إلى جسرٍ يمتد فوق نهر خط سُفُن نقل الفحم وسُفن إزالة الوحل وزوارق السحي بحثاً عن موقعِ غطس على واجهة النهر حيث يوجد هاتفٌ بالأجرة، وترك في تلك الأثناء الصبيَّين وحدهما في السيارة على الطرف المقابل من طريق النهر بعيداً عن خليطٍ لا متناهٍ من أبنية مصنع - سقيفات وأكواخ، وأبنية من صفائح الحديد، وسيارات فحم مفتوحة، ورافعات مختلفة للتحميل وأبراج ذات أُطُر من الفولاذ، وأفران كهربائيّة وطَرْق حديدٍ مدوٍ، وحاويات تخزين مُربّعة ومنخفضة وسياجات عالية ضخمة - وكان المصنع، إذا صدَّقنا اللافتة التي بحجم لوحة إعلانات، «أكبر مصنع لصناعة الفؤوس، والبلطات، والمناجِل، في العالم».

ذلك المصنع الممتلئ بشفرات حادّة أطاح نهائياً بالقليل مما تبقّى من توازن سيلدون - ومع حلول الصباح كان يصرخ قائلاً إنَّ الهنود سوف يسلخون فروة رأسه. والغريب أنّه كان يقصد شيئاً ما: يمكن أنْ يكون هناك تشبيه، حتى وإنْ لم يكن المرء يهذي، بالمستوطنين البيض غير المرغوبين الذين تدفّقوا منذ البداية عبر حاجز جبال الأبالاشي إلى أفضل أراضي الصيد لقبائل ديلاور والغونكوينْ، لولا أنّه بدل البيض الغرباء، بمظهرهم الغريب الذين يواجهون السكّان المحليِّين بجشعهم، كان هؤلاء يهوداً غرباء، غريبي الشكل ومُستفزّين بمجرّد حضورهم. ولكن

هذه المرّة كان هؤلاء المُدافعون بعنف عن أراضيهم ضد الاغتصاب وعن أسلوب حياتهم ضد الزوال ليسوا هنوداً يقودهم زعيم القبيلة بل مسيحيين أميركيين مستقيمين مدفوعين برئيس مؤقت للولايات المتّحدة.

حينئذٍ كان ذلك اليومِ هو الخامس عشر من شهر تشرين الأول – يوم الخميس نفسه الذي اعتُقِلَ فيه المُحافِظ لاغوارديا في نيويورك، واحتُجِزَتْ فيه السيدة الأولى في والتر ريد، وسُجِنَ فيه روزفلت مع «يهود روزفلت» بتُهمة تدبير عمليّة اختطاف ليندبرغ الأب، واعتُقِلَ الحاخام بنغلسدورف في واشنطن، وفيه انهارتِ الخالة إيفلين داخل صندوق التخزين عندنا. وفي ذلك اليوم نفسه كان والدي وساندي يُفتّشان في جبال ويست فيرجينيا عن طبيب المقاطعة الوحيد المُجاز (كنقيض للحلّاق المُجاز، الذي كان قد عَرَضَ خدماته)، لكي يُحاولا دفعه إلى إعطاء سيلدون شيئاً يُخفِّفُ من آلامه. والرجل الذي عثر عليه على طريقٍ ريفيّ قذر كان يتجاوز السبعين وتفوح منه رائحة الويسكي، وكان طبيباً عجوزاً كئيباً، ودوداً، نشِطاً، يُديرُ عيادة ريفيّة عبارة عن منزلٍ صغير يقفُ المرضى أمامه طابوراً في الشرفة الخارجيّة في انتظار أدوارهم، كما وصفهم ساندي لي لاحقاً، ولم يكن قد شاهد حفنة من الأشخاص من البيض الذين يبدو عليهم البؤس قبل ذلك. وشخَّصَ الطبيبُ هذيان سيلدون بأنّه ناتج في الأساس عن الجفاف ونصحَ سيلدون بقضاء ساعة من الزمن في شرب الماء باستمرار من البئر القريبة من حوض الجدول خلف المنزل. وقام أيضاً بإخراج الصديد من وجه والدي الملوّث لمنع تسمُّم الدم، الذي كان يمكن في تلك الأيام، عندما كانت المضادات الحيويّة قد اكتشفتْ حديثاً وليست شائعة الاستخدام، يمكن أنْ ينتشر في أرجاء الجسم ويتقبّله قبل أنْ يصلَ المنزل. وأبدى العجوز من الموهبة في إعادة قطب الجرح تقلّ عن موهبته في تشخيص تعفُّن الدم الأوّليّ، والنتيجة هي أنَّ والدي ظلَّ حتى آخر حياته يبدو كأنَّ الندب الذي يحمله كان نتيجة مبارزة خاضها وهو طالب في هايدبرغ. وبعد ذلك أصبح يبدو ليس مجرّد دلالة على

حالات الطوارئ التي وقَعَتْ في تلك الرحلة بل بدتْ، بالنسبة إليّ، كبصمةٍ تسِمُ رواقيَّته المجنونة. وعندما وصل أخيراً إلى نيوارك كانت نوبات الحمّى والبرد قد استنزفت قِواه - يُرافقها سُعال مُهلِك لا يقلّ إثارة للفزع من سُعال السيد ويشناو - حتى أنَّ السيد كوكوتزا نَقَلَه مباشرة من مطبخنا، حيث فَقَدَ الوعي على مائدة العشاء، إلى مستشفى بيت إسرائيل من جديد، حيث كاد يموت من التهاب الرئة. ولكنْ لم تكن هناك وسيلة لمنعِهِ إلّا بعد إنقاذ سيلدون. لقد كان والدي مُنقِذاً وكان الأيتام هم اختصاصه. كان حرمان المرء من أبويه ليُصبح يتيماً هو عمليّة انتقال أكبر من الاضطرار إلى الانتقال إلى يونيون أو إلى كينتكي. سوف يقول، انظر ماذا حدث لألفن، انظر ماذا حدث لبنت حميه بعد وفاة الجدَّة. لا ينبغي أنْ يبقى أحد بلا أم وبلا أب. عندما تكون بلا أم وبلا أب تُصبح عُرضة للتلاعُب، والمؤثّرات. تصبح بلا جذور وعُرضة لكل تيّار.

في تلك الأثناء جثَمَ ساندي على درابزين الشرفة الخارجيّة للعيادة وأخذ يضعُ رسوماً تخطيطيّة للمرضى، أحدهم كان فتاة في الثالثة عشرة اسمها سيسيل. وخلال تلك السنين كان أخي الناضج قبل الأوان بمنزلة ثلاثة فِتية مختلفين على امتداد أربعة وعشرين شهراً، السنين التي استطاع أنْ يبدو فيها، على الرغم من عدم تأثّره، كأنه لا يفعل أي شيءٍ مُرضٍ حتى عندما يتفوَّق: لم يُعجِب والديّ عملُهُ لمصلحة ليندبرغ ولا كونه أصبح الفتى المُعجِزة المُتحدِّث بلسان الخالة إيفلين والمُسيطر الرئيس في نيو جيرزي على زراعة التبغ، ولم يُعجبهما عندما ترك ليندبرغ من أجل الفتيات وأصبحَ بين ليلةٍ وضُحاها أصغر دون جوان في الحيّ، والآن، وقد تطوّعَ لإرشاد والدي مقدار ربع المسافة عبر القارّة إلى مزرعة ماويني - آملاً بتقديم استعراضٍ من الشجاعة الحقيقيّة في استعادة مكانته كابنٍ أكبر والعودة للانضمام إلى العائلة التي كان قد فُصِلَ عنها - فإنّه في الحقيقة دمَّرَ قضيّته بعملٍ مُسلٍ لابد أنّه بدا له بريئاً تماماً لأنّه «فنّي»: لقد رسم سيسيل القابلة للزّواج. وعندما خرجَ والدي من عيادة الطبيب - مع ضمادٍ

جديد يُغطّي وجنته - ورأي ما كان ساندي يفعله، أمسك به من حزام بنطلونه وجرَّه، مع دفتر الرسم وكل شيء، بعيداً عن الشُرفة الأماميّة وإلى الطريق ومن ثم إلى السيارة. همسَ له والدي، وهو يرمقه بحنقٍ من مُقوِّم العنق، «أجُننتَ، أفقَدتَ عقلك، أترسمها؟». حاول ساندي أنْ يشرح، ضامّاً دفتر الرسم بقوة إلى صدره - ويكذب، «إنني أرسمُ فقط وجهها»، «لا يهمّني ماذا ترسم! ألمْ تسمع أبداً بليو فرانك؟ ألمْ تسمع أبداً باليهوديّ الذي شنقوه من دون مُحاكمة في جورجيا بسبب فتاة المصنع الصغيرة تلك؟ توقّف عن رسمها، اللعنة! توقف عن رسم أيّ منهم! هؤلاء القوم لا يُحبّون أنْ يُرسَموا - ألا تفهم هذا؟ لقد أتينا إلى كينتكي لنُحضِر هذا الصبي لأنهم أحرقوا أمّه حتى الموت في سيارتها! إكراماً للمسيح، اخفِ أدوات الرسم هذه، ولا ترسم أيّة فتاة أخرى!».

أخيراً عادوا إلى الطريق من جديد، ولا فكرة لديهم أنَّ فيلادلفيا (التي كان والدي يأمل في أنْ يصل إليها بحلول فجر يوم السابع عشر) تحتلّها الدبابات وقوّات الجيش الأميركيّ، ولا كان أبي يعلم أنَّ العمّ مونتي، اللامبالي بمناشدة والدتي، والمنيع ضد أيّة قسوة لا تَصدُر عنه، طَرَده من عمله لأنه لم يأتِ إلى العمل للأسبوع الثاني على التوالي. واختار والدي المقاومة، واختار الحاخام بنغلسدورف التعاون، واختار العمّ مونتي نفسه.

لكي يصلوا إلى مُقاطعة بويل ومزرعة آل ماويني سافروا بخطٍ منحرف جنوباً عبر نيو جيرزي إلى كادمن، وغرباً وجنوباً على طول ويست فيرجينيا، ومن ثم ولَجَوا كينتكي إلى أنْ وصلوا ليكسنغتون، بعد قطع مسافة مئة ميل أو نحوه، وانعطفوا جنوباً من جديد، بالقُرب من مكان يُدعى فيرساي، قاصدين تلال مقاطعة بويل الممتدّة. وتتبّعتْ أمي خط سير رحلتهم على خريطة موسوعتي المطويّة على امتداد رقعة الثماني وأربعين ولاية والمحافظات الكنديّة العشر، التي نشرتها عبر طاولة غرفة الجلوس لكي تنظر إليها كلما استبدَّ بها القلقَ، بينما على الطريق تتبَّع ساندي، مُسلَّحاً بمصباحٍ لاستخدامه في الظلام، مسارَهم على خارطة طريق شركة إسّو

واستمرّ يُراقبُ الشخصيات المُريبة، خاصّة لدى مرورهم ببلدة كئيبة ذات شارع واحد لا يمكن العثور حتى على اسمها على الخريطة. وباستثناء المرّات الستّ التي تعطّلتْ فيها السيارة في طريق العودة، أحصى ساندي على الأقلّ ست مرات أُخَر في ويست فيرجينيا عندما طلبَ والدي - الذي لم يُعجبه شكل الشاحنة البالية التي كانت تسير خلفهم أو سيارات البيك أب المتوقّفة بشكل عشوائيّ بجوار حانة على الطريق أو الصبي بزيّ العمل في محطة الوقود الذي ضخّ لهم الوقود وتفحَّصَ مُقدّمة السيارة ومن ثم بَصَقَ على الأرض بعد أنْ أخذَ نقودهم - طلبَ والدي من ساندي أنْ يفتح صندوق القفّاز ويُعطيه مسدس السيد كوكوتزا الإضافيّ لكي يضعه في حجره وهو يقود السيارة، وفي كل مرّة كان يبدو وكأنّه، هو الذي لم يُطلِق النار قط في حياته، لن يتردَّد، إذا اضطرَّ، في الضغط على الزناد.

اعترفَ ساندي - الذي حالما وصل إلى المنزل رسمَ من الذاكرة تحفته في عهد الطفولة - التاريخ المُصوَّر لهبوطهم العظيم إلى عالم أميركا الشاقّ - بأنه كان خائفاً طوال الوقت: خاف عندما اجتازوا مُدُناً يكمنُ فيها رجال عصابة الكو كلوكس كلان في انتظار أيّ يهوديّ متهوِّر إلى درجة المرور بسيارته، ولم يقلَّ خوفه بعد أنْ ابتعدوا عن المُدُن المشؤومة، وعن ألواح الإعلانات الباهتة ومحطات الوقود الصغيرة وآخر الأكواخ التي يسكنها أشدّ الناس فقراً بملابسهم الرثّة - ألواح خشبيّة متهالكة رسمها ساندي بدقّة متناهية مُدعّمة عند زواياها الأربع بأكوامٍ متزعزعة من الحجارة، وفيها نوافذ على شكل فُتحات ومداخن متداعيةٍ في أحد أطرافها بُنيَتْ كيفما اتّفق، وعلى الأسقف البالية، وُزِّعَتْ بعض الحجارة لكي تُثبِّت المفاصِل الرخوة - ومنها إلى ما سمّاه والدي «الأدغال». قال ساندي، إنّه كان خائفاً وهم ينطلقون مارّين بالأبقار والأحصنة والحظائر ومخازن العَلَف ولم تظهر أيّة سيارة في الأفق، وكان خائفاً عند المنعطفات الحادّة التي توقِف شعر الرأس بين الجبال حيثُ لا ترى حافّة منبسطة أو سياج واقٍ على جانب الطريق، وكان خائفاً عندما تحوّلَ الطريق المُعبَّد إلى

حصى واكتنفتهم الغابة من كل جانب وكأنّهم لويس وكلارك [56]. وخافَ خاصّة لأنَّ سيارتنا كانت خالية من الراديو، ولم يعرفوا إنْ كان قتلُ اليهود قد توقّفَ أمْ أنّهم قد ولجوا قلب الغضب الإجرامي ضد أمثالنا في البلاد.

يبدو أنَّ الحَدَث الدخيل الوحيد الذي لم يبثّ في أخي الخوف هو ما أخافَ والدي إلى أقصى درجة ونحن أمام عيادة الطبيب: أي رسمُ ساندي لصورة فتاة ويست فيرجينيا الجبليّة التي أثار شكلها أقصى غضبه. وكما اتّضَحَ، كانت بنفس عُمر «فتاة المصنع الصغيرة» (كما عرفها أبناء البلد كله) التي اغتيلتْ في أطلنطا قبل ذلك بثلاثين عاماً بيد المُشرِف عليها اليهوديّ، رجل الأعمال المتزوّج البالغ التاسعة والعشرين من العمر واسمه ليو فرانك. كانت قضيّة المسكينة ميري فاغان المشهورة لعام 1913 - التي وُجِدَتْ ميّتة وحول عنقها أنشوطة مُمدَّدة على أرض الطابق التحتيّ من مصنع أقلام الرصاص بعد أنْ ذهبتْ إلى مكتب ليو فرانك في يوم الاغتيال لتستلم مُرتّبها - وتصدَّرَ الخبر الصفحات الأولى للصُحُف كلها، شمالاً وجنوباً، في الوقت الذي كان والدي، الصبيّ الغضّ في الثانية عشرة من العمر، قد غادرَ المدرسة حديثاً ليُساعد في إعالة العائلة، بالعمل في مصنع في إيست أورانج لصناعة القبّعات، ويتلقّى هناك ثقافة عالية في التشهير المُبتذل رَبَطَت اسمه إلى الأبد بصالبي المسيح. وبعد إدانة فرانك (على أساس دليل ظرفيّ لا يُعوَّل عليه كثيراً)، قام نزيلٌ آخر معه في السجن أصبحَ بطلاً وطنيّاً بذبحِهِ وكاد يقتله. وبعد ذلك بشهر، قام جمعٌ من المواطنين المُحترَمين بإتمام تلك المُحاولة واختطفوا فرانك من زنزانته في السجن - وشنقوا «اللوطيّ» من دون مُحاكمة من شجرةٍ في ماريِيتّا، جورجيا (مسقط رأس ميري فاغان) كتحذيرٍ عامّ لـ«الفاسقين اليهود» الآخرين لكي يرحلوا عن الجنوب ويبتعدوا عن نسائهم.

56- لويس وكلارك، قائد عسكري وملازم تابع له قاما بين عاميّ 1804 إلى 1806 برحلة تحت اسم فيلق حملة الاستكشاف، لاستكشاف الغرب الأميركيّ. - المترجم

والحقيقة هي أنَّ قضيّة فرانك كانت مجرّد جزء من التاريخ الذي غذّى إحساسَ والدي بالخطر في ريف ويست فيرجينيا بعد ظهيرة يوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول، عام 1942. وهذا كلّه يعود عهده إلى ما قبل ذلك بكثير.

وهكذا جاء سيلدون ليسكن معنا. وبعد عودتهم إلى نيوارك من كينتكي، انتقلَ ساندي إلى الصالون المُشمِس وحلَّ سيلدون محل ألفن والخالة إيفلين - بعد أنْ تحطَّمَ الشخص الذي نام على السرير الثاني المُجاوِر لسريري نتيجة الممارسات المُهينة والخبيثة في أميركا في عهد ليندبرغ. هذه المرّة لم تكن هناك جدعة أعتني بها. فالفتى نفسه كان جدعةً، وإلى أنْ أُخِذَ لكي يعيش مع خالته المتزوّجة في بروكلين بعد ذلك بعشرة أشهر، كنتُ أنا بمنزلة الساق الاصطناعيّة.

انتهى



مُلحَق
للقارئ

السرد التاريخي الحقيقيّ للشخصيّات الرئيسة والشخصيات التاريخيّة الأخرى في العمل، وبعض التوثيق



تنويه إلى القارئ

إنَّ «*التآمر على أميركا*» عملٌ أدبيّ من الخيال، والقصد من هذا المُلحَق أنْ يكون مرجِعاً للقرّاء لتقصّي أين تنتهي الحقيقة التاريخيّة ويبدأ الخيال التاريخيّ[57].

سردٌ تاريخيٌ حقيقيّ للشخصيات الرئيسة

فرانكلين ديلانو روزفلت

1945-1882

تشرين الثاني 1920: بعد أنْ خَدَمَ كسكرتير مساعد في سلاح البحرية تحت قيادة ويلسون، خاضَ روزفلت انتخابات الحزب الديمقراطيّ لشغل منصب نائب الرئيس مُنافِساً الحاكم جيمس م. كوكس من أوهايو؛ وهُزِمَ الديمقراطيّون مع إحراز الرئيس هاردينغ نصراً ساحقاً.

آب 1921: أُصيبَ بشلل الأطفال ممّا أقعده طوال حياته.

تشرين الثاني 1928: انتُخِبَ في المرّة الأولى من مرّتين لمُدّة سنتين حاكماً ديمقراطيّاً لنيويورك، بينما خسِر الانتخابات الوطنيّة، التي ترأسها الحاكم السابق ألفريد إ. سميث، لمصلحة هربرت هوفر. وفي منصبه

57- بعد هذه الجملة أوردَ الكاتب عدداً كبيراً من الكتب والمراجع رأى المترجم أنّها لا تفيد القارئ العربي، ومَنْ لديه اهتمام خاص بها عليه العودة إلى النسخة الأجنبيّة لهذا الكتاب. - المترجم

كحاكم رسَّخَ روزفلت مكانته بقوة كليبرالي تقدُّمي، بدعمه إعانة الحكومة لضحايا الكساد الاقتصاديّ، بما فيها ضمان العاطلين عن العمل، وكخصم لمنع الخمر. وبعد انتصاره الساحق كحاكم في عام 1930، أصبحَ مُرشّحاً رئيساً في انتخابات الرئاسة الديمقراطيّة.

تموز-تشرين الثاني 1932: اختيرَ مُرشّح الديمقراطيين لخوض انتخابات الرئاسة في مؤتمر شهر تمّوز؛ وفي **تشرين الثاني**، هزَم الرئيس هوفر بنسبة 57،5% من عدد الأصوات، واجتاح الديمقراطيون مقاعد الكونغرس.

آذار 1933: نُصِّبَ رئيساً في الرابع من آذار، وكانت الأمّة مشلولة بفعل الكساد الاقتصاديّ، وأعلنَ في خطاب التنصيب أنَّ «الشيء الوحيد الذي علينا أنْ نخشاه هو الخوف نفسه». وعَرَضَ على الفور مشروع استعادة العافية بعنوان «الاتّفاق الجديد» في مجال الزراعة، والصناعة، واليد العاملة، وقِطاع الأعمال، وبرامج إعانة لحاملي صكوك الرهن والعاطلين عن العمل. وضمَّت الوزارة هارولد ل. إيكس، وزير الداخليّة، وهنري أ. والاس، وزير الزراعة، وفرانسيس بيركنز – أوّل امرأة تُعيَّن في الوزارة – وزيرة العمل، هنري مورغينْثاو لربن – ثاني وزير يهوديّ في الحكومة – وزير الماليّة (ليحلّ محل الوزير المريض، وليم وودن في السابع عشر من شهر تشرين الثاني عام 1933). يُطلِق من البيت الأبيض فترات قصيرة من البثّ الإذاعي، تحت عنوان أحاديث بجوار المدفأة، وتضم مُراسلين في مؤتمرات صحفيّة إعلاميّة.

تشرين الثاني 1933-كانون الأول 1934: يعترفُ بالاتحاد السوفييتي وسرعان ما يُباشر بناء الأسطول الأميركيّ، جزئيّاً بسبب التحرّكات اليابانيّة في الشرق الأقصى. وبحلول عام 1934 نقلَ المصوّتون السود الولاء السياسيّ من حزب لينكولن الجمهوريّ إلى حزب روزفلت الديمقراطيّ ردّاً على برامج الرئيس من أجل المُعدَمين.

1935: ينتجُ عن إطلاق بدايات الإصلاح، التي أُشيرَ إليها باسم

«الاتّفاق الجديد الثاني»، قانون الأمن الاجتماعيّ وقانون علاقات العمل الوطنيّ، بالإضافة إلى WPA (إدارة تقدُّم سير الأعمال)، التي تستخدم مليونيّ عامل في الشهر. والتوقيع على أول عدد من إجراءات الحياديّة ردّاً على الوضع الأوروبيّ المُتقلقل.

تشرين الثاني 1936: يهزم حاكم كنساس الجمهوريّ ألفريد م. لاندون، ويفوز في كل ولاية ما عدا ولايتيّ «مين» وفيرمونت؛ ويوسِّع الديمقراطيون القدرة القياديّة للكونغرس. وفي خطاب التنصيب يؤكِّد أنّ «ها هنا تحدياً لديمقراطيّتنا... إنني أرى ثُلث شعبنا فقيراً في السكن، وفي الملبَس، وفي الغذاء». وبحلول عام 1937، سوف تبدأ استعادة عافية الاقتصاد، ولكنْ تبعَ ذلك أزمة اقتصاديّة، إلى جانب الاضطراب في العمل، أدّيا إلى إحراز الجمهوريين الانتصارات في الكونغرس في عام 1938.

أيلول-تشرين الثاني 1938: بسبب القلق من نوايا هتلر في أوروبا، يُناشِد الزعيم النازيّ أمْ يقبل بتسويةٍ تفاوضيّة بشأن الخلاف مع تشيكوسلوفاكيا. وفي مؤتمر ميونيخ الثلاثين في شهر أيلول، ترضخ بريطانيا وفرنسا لمطالبة ألمانيا بأرض سوديتن التشيكيّة وبتفكيك تشيكوسلوفاكيا. وتدخل القوات الألمانيّة بقيادة هتلر، في شهر تشرين الأول (وبعد خمسة أشهر تحتل البلد كلّه، مانحةً تشيكوسلوفاكيا الاستقلال بوصفها جمهوريّة فاشيّة داعمة لألمانيا). وفي شهر تشرين الثاني يأمرُ روزفلت بزيادة هائلة في إنتاج الطائرات المُقاتلة.

نيسان 1939: يطلبُ من هتلر وموسوليني أنْ يوافقا على وقف مُهاجمة الدول الأوروبيّة الأضعف مدّة عشر سنين؛ فيُجيب هتلر في خطاب الرايخشتاغ بتأنيب روزفلت والتباهي بقوة ألمانيا العسكريّة.

آب-أيلول 1939: يُرسلُ برقيّة إلى هتلر يطلب منه فيها التوصُّل إلى تسوية بالتفاوض مع بولندا حول خِلاف على المناطق؛ يُجيب هتلر بغزو بولندا في شهر أيلول وتُعلِن فرنسا الحربَ على هتلر، وتبدأ الحرب العالمية الثانية.

أيلول 1939: تحثُّ الحرب الأوروبيّة روزفلت على إجراء تغييرات على قانون الحياد لكي يسمح لبريطانيا وفرنسا بالحصول على الأسلحة من الولايات المتّحدة. وعندما يجتاح هتلر الدنمارك، والنرويج، وبلجيكا، وهولندا، ولوكسمبورغ، وفرنسا في الصفّ الأول في عام 1940، يزيدُ روزفلت بكميات كبيرة إنتاجَ الأسلحة الأميركيّة.

أيار 1940: يؤسّس مجلس الدفاع الوطنيّ، ولاحقاً، مكتب إدارة الإنتاج، ليُعدّ الصناعة والقوات المُسلّحة لاحتمال نشوب الحرب.

أيلول 1940: توقِّع اليابان، التي تخوضُ حرباً مع الصين وكانت قد غَزَت الهند الصينيّة (ضمّتْ كوريا في عام 1910 واحتلَّتْ منشوريا في عام 1931)، على تحالفٍ ثلاثيّ مع إيطاليا وألمانيا في برلين، بإلحاح من روزفلت، يقرّ الكونغرس أول مشروع قانون للخدمة العسكريّة الإلزاميّة في زمن السِلم في تاريخ الولايات المتحدة، الذي يطلب من كل الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الواحد والعشرين والخامسة والثلاثين أنْ يُسجّلوا للسحب والاستعداد للتجنيد في الخدمة العسكريّة بعددٍ يصل إلى 800000 مُجنّد.

تشرين الثاني 1940: بما أنَّ جمهوريّ اليمين يتّهمون روزفلت بأنّه «مُحرِّض على الحرب»، ويشنّ حملةً بوصفِهِ عدوّاً صريحاً لهتلر والفاشيّة يتعهَّد ببذل أقصى جهده لإبقاء أميركا خارج الحرب الأوروبيّة، ويفوز بفترة رئاسيّة ثالثة غير مسبوقة، بنسبة 449 إلى 82 صوتاً انتخابيّاً، ودحرَ الجمهوريّ ويندل ل. ويلكي في انتخاباتٍ كانت قضايا الدفاع الوطنيّ وعلاقات الولايات المتحدة بالحرب هي القضايا الرئيسة؛ ولم يفُز ويلكي إلّا بولاية «مين» وفيرمونت وبالغرب الأوسط الانعزاليّ.

كانون الثاني- آذار 1941: يُنصَّب في العشرين من شهر كانون الثاني. وفي شهر آذار يقرُّ الكونغرس قانون الإعارة والتأجير، مُجيزاً للرئيس «بيع، ونقل، وإعارة وتأجير» الأسلحة، والطعام، والخدمات لبلدان يعتبرُ أنَّ حمايتها أمرٌ حيويّ لحماية الولايات المتّحدة.

نيسان-حزيران 1941: بعد اجتياح الجيش الألمانيّ ليوغوسلافيا ومن ثم اليونان، يخرقُ هتلر ميثاق عدم الاعتداء ويغزو روسيا. وفي شهر نيسان تُصبح غرينلاند تحت الحماية الأميركيّة؛ وفي شهر حزيران يسمح روزفلت للقوات الأميركيّة بالنزول إلى أيسلندا ويمدّ المساعدات إلى روسيا.

آب 1941: يجتمع روزفلت مع تشرشل في البحر ويصوغان دستور الأطلسيّ «للمبادئ العامّة»، ويتضمّن إعلان أهداف السلام المؤلَّف من ثماني نِقاط.

أيلول 1941: يُعلِنُ أنَّ الأوامر صدرَتْ للبحريّة بتدمير أيّة غواصة ألمانيّة أو إيطاليّة تدخل المياه الأميركيّة وتُهدِّد الأمن الأميركيّ، ويطلب من اليابان البدء بسحب جيوشها من الصين والهند الصينيّة، لكنَّ وزير الحرب، الجنرال توجو، يرفض الطلب.

تشرين الأول 1941: يطلبُ من الكونغرس أنْ يُعدِّل قانون الحياد من أجل السماح بتسليح السفن التجاريّة الأميركيّة والسماح لها بدخول مناطق القِتال.

تشرين الثاني 1941: تجتمع قوّةٌ ضاربة يابانيّة هائلة سرّاً في المحيط الهادئ، بينما المفاوضات مع الولايات المتّحدة حول القضايا العسكريّة والاقتصاديّة مُستمرّة مع وصول المبعوث الياباني إلى الولايات المتحدة من أجل «محادثات السلام».

كانون الأول 1941: تشنّ اليابان هجوماً مُباغِتاً على ممتلكات أميركيّة في المحيط الهادئ وعلى ممتلكات بريطانيّة في الشرق الأقصى؛ وبعد إلقاء الرئيس خطاب حالة الطوارئ، يُعلِن الكونغرس بالإجماع الحربَ على اليابان في اليوم التالي. وفي الحادي عشر من كانون الأول تُعلنُ ألمانيا وإيطاليا الحربَ على الولايات المتّحدة؛ وردّاً على ذلك يُعلنُ الكونغرس الحربَ على ألمانيا وإيطاليا، (عددُ القتلى الأميركيين جرّاء الهجوم الياباني على بيرل هاربر: 2403 بين بحّارين، وجنود عاديين، وجنود بحريّين، ومدنيّين؛ و1178 جريحاً)

1942: ينهمك الرئيس في توجيه جهود الحرب انهماكاً كليّاً تقريباً. وفي رسالته السنويّة للكونغرس يُشدِّد على الزيادة في الإنتاج الحربيّ، ويعلن «إنَّ أهدافنا واضحة - إنّها سحق الروح العسكريّة التي فرضها سادة الحرب على شعوبهم المُستعبَدَة». وأعلنَ مع تشرشل إيجاد قيادة عسكريّة موحّدة في جنوب شرق آسيا، ونتجَ عن المؤتمر الاستراتيجي مع تشرشل في شهر حزيران الاجتياح الذي تمَّ في شهر تشرين الثاني لشمال إفريقيا الفرنسيّ من قِبَل قوات التحالُف بقيادة الجنرال دوايت د. أيزنهاور (بعد ذلك بسبعة أشهر أخرَجَ الجيش الألمانيّ من إفريقيا)؛ وطمأنَ فرنسا، والبرتغال، وإسبانيا بأنّه ليس لدى الحلفاء مُخطّطات بشأنْ مناطقهم. وفي حزيران يطلبُ من الكونغرس الاعترافَ بوجود حالة حرب مع الأنظمة الفاشيّة في رومانيا، وبلغاريا، وهنغاريا والمتواطئة مع قِوى دول المحور. وفي شهر حزيران يُعيِّن لجنةً لمُحاكمة ثمانية من المُخرّبين النازيين ألقَتْ عناصِرُ فيدراليّة القبضَ عليهم بسبب نزولهم إلى الشواطئ الأميركيّة من غوّاصة عدوَّة؛ وبعد إجراء مُحاكمة سريّة، سُجِنَ اثنان وأُعدِمَ ستّة في واشنطن. وفي شهر أيلول، استقبلَ ستالين مبعوث الرئيس ويندل ويلكي في موسكو، حيثُ ألحَّ على وجود جبهة عسكريّة ثانية في أوروبا الغربيّة. وفي شهر تشرين الأول يقوم الرئيس بجولة سرّية مُدَّتها أسبوعان على مُنشآت الإنتاج الحربيّ ويُعلن أنَّ الأهداف قد تحقّقت. ويطلب من الكونغرس بمدّ السحب إلى الخدمة العسكريّة إلى سن الثامنة عشرة - والتاسعة عشرة.

كانون الثاني 1943- آب 1945: تستمر الحرب الأوروبيّة (وتستمرّ مذبحة هتلر المتزامنة ليهود أوروبا ومُصادرة ممتلكاتهم) حتى عام 1945. وفي شهر نيسان يُعدَم موسوليني على أيدي موالين إيطاليين، وتستسلم إيطاليا. وتستسلم ألمانيا من دون شروط في السابع من أيار، بعد أسبوعٍ من انتحار أدولف هتلر في غرفةٍ مُحصّنة تحتَ الأرض وبعد أقلّ من شهر من الموت المُفاجئ للرئيس روزفلت، متأثّراً بنزيف في الدماغ - كان

حينئذٍ يخدمُ في العام الأول من فترة رئاسته الرابعة - وبعد أنْ حَلَفَ خليفته، نائب الرئيس هاري س. ترومان، يمين القَسَم. وانتهت الحرب في الشرق الأقصى عندما استسلَمَت اليابان من دون شروط في الرابع عشر من آب، وانتهت الحرب العالميّة الثانية.

تشارلز ليندبرغ

1974-1902

أيار 1927: يقوم تشارلز أ. ليندبرغ ذو الخمسة والعشرين عاماً، الطيّار البارع وساعي البريد الجوّي المولود في مينيسوتا، بالعبور بالطائرة التي لا تتَّسِع إلّا لشخصٍ واحد «*روح سينت لويس*»، من نيويورك إلى باريس بثلاث وثلاثين ساعة وثلاثين دقيقة؛ ويجعل إنجازه عبور المحيط الأطلسي بالطيران من دون توقّف منه شخصيّة مشهورة في كل أنحاء العالم. ويمنح الرئيس كوليدج ليندبرغ وسامَ صليب الطيران المُميَّز ويُقلِّده رتبة كولونيل في سلاح الطيران الاحتياطيّ الأميركيّ.

أيار 1929: يتزوج ليندبرغ من آنْ مورو، ابنة سفير أميركا في المكسيك البالغة ثلاثة وعشرين عاماً.

حزيران 1930: يولدُ تشارلز أ. ليندبرغ الابن لتشارلز وآن مورو ليندبرغ في نيو جيرزي.

آذار- أيار 1932: يُختطَف تشارلز الابن من منزل ذويه الجديد المنعزل الممتدّ على أرض مساحتها 435 إكراً في منطقة هوبويل الريفيّة، نيو جيرزي؛ وبعد ذلك بعشرة أسابيع تُكتَشَفُ مُصادفة جثّة طفل وليد مُتحلِّلة في الغابة المُجاورة.

أيلول 1934- آذار 1935: يُلقى القبض على نجّار ألمانيّ من المُهاجرين ومحكوم سابق مسكين، اسمه برونو ر. هاوبتمان، في حيّ برونكس، نيويورك، بتهمة خطف واغتيال الطفل ليندبرغ. وبعد مُحاكمةٍ دامتْ ستة أسابيع في فليمنغتون، نيويورك، أشارت الصحافة إليها بأنها

«*مُحاكمة القرن*» وُجِدَ هاوبتمان مُذنباً وأُعدِمَ بالكرسي الكهربائيّ في نيسان عام 1936.

نيسان 1935: تنشر آن مورو ليندبرغ كتابها الأول «*شمال الشرق*» وهو سردٌ لمغامراتها الجويّة في عام 1933 مع ليندبرغ، ويتبوّأ قائمة الكتب الأكثر رواجاً ويتلقّى جائزة بائعي الكتب الوطنيّة بوصفِهِ أبرز الكتب غير الروائيّة لذلك العام.

كانون الأول 1935- كانون الأول 1936: في سعيهما إلى العزلة، يُغادر الثنائي ليندبرغ أميركا مع ولديهما الصغيرَين ويُقيمون، حتى عودتهم في ربيع عام 1939، في مُعظَم الوقت، في قريةٍ صغيرة في كِنتْ، إنكلترا. وبدعوةٍ من الجيش الأميركيّ، يُسافر ليندبرغ إلى ألمانيا ليُقدِّم تقريراً عن تقدُّم الطيران النازيّ؛ ولهذا الغرض يقوم بزيارات متكرّرة على امتداد السنوات الثلاث التالية. ويشهد الألعاب الأولمبيّة في برلين عام 1936، بحضور هتلر، ولاحقاً يكتب لأحد أصدقائه عن هتلر قائلاً «إنّه رجلٌ عظيم بلا جِدال، وأعتقد أنّه أنجزَ الكثير للشعب الألمانيّ»... ورافقتْ آن مورو ليندبرغ زوجها إلى ألمانيا ولاحقاً تكتبُ مُنتقِدة «وجهة النظر المتزمّتة الصارمة السائدة في الوطن حول كون الأنظمة الدكتاتوريّة بالضرورة خاطئة، وشريرة، وغير مُستقرّة ولا يُرجى منها أيّ خير - بالإضافة إلى وِجهة نظر صحافتنا الساخرة من هتلر ورسمه كمُهرِّج - وبالإضافة إلى الدعاية السياسيّة اليهوديّة القويّة جداً (وهذا طبيعيّ) في الصحافة التي يمتلكها يهود».

تشرين الأول 1938: ينال ليندبرغ «بأمرٍ من الفوهرر» صليب الخدمة الذي يحمل رسم النسر الألمانيّ - وهو ميداليّة ذهبيّة مع أربعة صلبان معقوفة صغيرة تُمنَح للأجانب مقابل خدمتهم للرايخ، عبر المارشال الجوي هرمان غورينغ في حفل عشاء أُقيمَ في السفارة الأميركيّة في برلين. وتنشر آن مورو ليندبرغ سردها الثاني لمغامراتها في الطيران تحت عنوان «*أصغِ! إنها الريح*»، وهو كتاب رائج غير روائي على الرغم من

انعدام شعبيّة زوجها باطراد بين صفوف المُعادين للفاشيّة الأميركيين ويرفض بعض باعة الكتب اليهود أنْ يأخذوا الكتاب.

نيسان 1939: بعد أنْ اجتاح هتلر يوغوسلافيا، كتبَ ليندبرغ في يومياته، «على الرغم من استهجاني لأشياء كثيرة قامت بها ألمانيا، أعتقد أنّها اتَّبَعَت السياسة الثابتة في أوروبا خلال السنوات الأخيرة»: واستجابةً لطلب من رئيس القوات الجويّة، الجنرال «هاب» أرنولد، وبموافقة الرئيس روزفلت - الذي يكرهه ولا يثقُ به - يذهب ليؤدي واجبه الفعليّ ككولونيل في سلاح الجوّ الأميركي.

أيلول 1939: بعد غزو ألمانيا لبولندا في الأول من أيلول، يكتب ليندبرغ في يومياته عن الحاجة إلى أنْ «نحمي أنفسنا من هجوم جيوش أجنبيّة والذوبان في أعراقٍ أجنبيّة... وتسرُّب دماء خسيسة»، وكتبَ يقول إنَّ الملاحة الجويّة «هي أحد الممتلكات التي لا تُقدَّر بثمن والتي تسمح للعِرق الأبيض أنْ يوجَد وسط بحرٍ هائل من الأعراق الصفراء، والسوداء، والسمراء». وفي وقتٍ مُبكِّر من العام كتبَ عن حديثٍ سرّيّ دار مع عضوٍ ذي مكانه رفيعة في اللجنة الوطنيّة الجمهوريّة والصحافيّ المُحافِظ فولتون لويس الابن، قال «إننا منزعجون من فعاليّة التأثير اليهوديّ على صحافتنا، وإذاعتنا، وأفلامنا السينمائيّة... وهذا أمرٌ يؤسَفُ له أشدّ الأسف لأنني أعتقد أنَّ حفنة من اليهود من النوع الصحيح مُفيد لأي بلد». وفي مادّة في اليوميات كُتِبت في نيسان عام 1939 (وحُذِفَتْ في عام 1970 من يومياته «*يوميات زمن الحرب*») قال، «هناك أكثر مما ينبغي من اليهود أصلاً في نيويورك. إنَّ بعض اليهود يُضيفون قوةً وتميُّزاً إلى البلد، لكنَّ الكثير منهم يُسبِّبون الفوضى. وقد أصبحَ لدينا فائضٌ منهم». وفي نيسان عام 1940، قال، في بثٍ عبر الإذاعة الكولومبيّة، «إنَّ السبب الوحيد لتعرُّضنا لخطر التوسُّط في الحرب هو وجود عناصِر قويّة في أميركا تريدُ منا أنْ نشارك. إنها تمثِّل أقليّة صغيرة من الشعب الأميركيّ، لكنهم يتحكّمون في الكثير من آليّة التأثير والدعاية السياسيّة. إنهم ينتهزون كل فرصة مُتاحة ليدفعوا

بنا إلى حافّة الهاوية». وعندما شجَّعَ السيناتور الجمهوريّ من أيداهو، وليم إ. بوراه، ليندبرغ على خوض انتخابات الرئاسة، قال ليندبرغ إنّه يُفضِّل أنْ يقبل مناصِب سياسيّة كمواطن منعزل.

تشرين الأول 1940: في الربيع تأسّستْ ***لجنة أميركا أولاً*** في مدرسة القانون التابعة لجامعة ييل، كمُعارضة لسياسات تدخّل فرانكلين روزفلت وتأييداً لانعزاليّة أميركا؛ وفي تشرين الأول يخطب ليندبرغ في جمعٍ من ثلاثة آلاف شخص في ييل، تأييداً لاعتراف أميركا «بالقِوى الجديدة في أوروبا». وتنشر آن مورو كتابها الثالث بعنوان «***موجة المستقبل***» وهو كرّاس وجيز مُعادٍ للتدخُّل له عنوان فرعيّ «اعتراف إيمان» أثار جَدَلاً هائلاً وتبوّأ في الحال لائحة أفضل مبيعات الكتب غير الروائيّة على الرغم من شجب وزير الداخليّة هارولد إيكس له ووصفه بأنّه «الكتاب المُقدَّس لكل نازي أميركيّ».

نيسان- آب 1941: يخطبُ في عشرة آلاف شخص في تظاهرة ***لجنة أميركا أولاً*** في شيكاغو، وفي عشرة آلاف شخص آخرين في تظاهرة نيويورك، مما حثَّ عدوّه المتعصِّب الوزير إيكس إلى وصفه بـ«رفيق السفر النازيّ الأول في الولايات المتّحدة». وعندما كتبَ ليندبرغ للرئيس روزفلت مُتذمّراً من هجوم إيكس عليه، خاصّة لأنه قَبِلَ الميداليّة الألمانيّة، كتبَ إيكس قائلاً «إذا كان السيد ليندبرغ يرغب في التملُّق عندما يُشار إليه بوصفِهِ فارس النسر الألمانيّ، لِمَ لا يُعيد الميداليّة المُخزية ويتخلَّص منها؟» (وكان ليندبرغ قبل ذلك قد رفضَ إعادة الميداليّة على أساس أنَّ ذلك سوف يُعتبَر «إهانة لا لزوم لها» موجَّهة إلى القيادة النازيّة) وعبَّرَ الرئيس صراحةً عن شكّه في ولاء ليندبرغ، حاثّاً ليندبرغ على تقديم (استقالته رسمياً ككولونيل في الجيش لوزير حرب روزفلت. ولاحظ إيكس أنّه في حين أنَّ ليندبرغ أسرعَ في رفض مهمّة الجيش، فإنه بقيَ على عِناده في رفض إعادة الميداليّة التي تلقّاها من ألمانيا النازيّة. وفي شهر أيار، قام ليندبرغ، مع السيناتور بيرتون ك. ويلر عن ولاية مونتانا،

الذي جلسَ على المنصّة بجوار آن مورو ليندبرغ، بإلقاء خطاب في خمسة وعشرين ألفاً من *لجنة أميركا أولاً* في ماديسون سكوير غاردن؛ وحيّا الجمهورُ ظهورَه بالهتاف «رئيسنا القادم!» وتبعَ خطابه أربع دقائق من التهليل. وعبّرَ عن مُناهضته لتدخُّل أميركا في الحرب الأوروبيّة أمام جمهورٍ حاشد عبر البلاد طوال فصليّ الربيع والصيف.

أيلول – كانون الأول 1941: يُبثّ خطابه الإذاعيّ «مَنْ هم المُحرّضون على الحرب؟» أمام تظاهرة للجنة أميركا أولاً في ديه موان في الحادي عشر من أيلول: هتفَ جمهور يتألّف من ثمانية آلاف عندما اعتبر «العرق اليهودي» من بين أقوى الأعـراق وأشدّها فعاليّة في دفع الولايات المتّحدة - «لأسباب ليست أميركيّة» - نحو التورُّط في الحرب. أضِفْ إلى ذلك «أننا لا نستطيع أنْ نضع اللوم عليهم لأنهم يهتمون بما يعتقدون أنّها مصلحتهم، ولكنْ علينا نحنُ أيضاً أنْ نهتمَّ بمصالحنا. لا يمكننا أنْ نسمح لانفعالات التحامُل الفطريّة للآخرين أنْ تقود بلدنا إلى الدمار». وتعرَّضَ خِطاب ديه موان إلى الهجوم في اليوم التالي من قِبَل الديمقراطيين والجمهوريين على السواء، لكنَّ السيناتور جيرالد ب. ناي، وهو جمهوريّ من داكوتا الشماليّة وعضو مُخلِص في «*لجنة أميركا أولاً*»، دافعَ عن ليندبرغ في وجه المُنتقدين وكرَّر اتّهامه لليهود، كما فعل داعمون آخرون. وخطاب العاشر من شهر كانون الأول، الذي تقرَّر إلقاؤه في تظاهرة بوسطن لأنصار «*أميركا أولاً*»، ألغاه ليندبرغ بعد هجوم اليابان على بيرل هاربر وإعلان أميركا الحربَ على اليابان، وألمانيا، وإيطاليا. وأنهَتِ القيادة نشاطات *لجنة أميركا أولاً*، وانحلَّتِ المُنظّمة.

كانون الثاني – كانون الأول 1942: بعد مهمّة فلوريدا في اختبار تشكيلة من الطائرات الحربيّة، بما فيها طائرة بوينغ B–29 المُقاتلة الجديدة، تسمح له الحكومة بالذهاب إلى جنوب المحيط الهادئ من أجل دراسة طائرات القرصان عمليّاً؛ وحالما وصلَ إلى هناك بدأ يقوم بطلعات قتاليّة وقذف قنابل على أهداف يابانيّة انطلاقاً من قاعدة غينيا الجديدة. في أول الأمر

كمُراقب ولكنْ سرعان ما أصبحَ مُشاركاً متحمّساً، وبنجاحٍ فائق، وعلّمَ الطيّارين كيف يزيدون مجال القتال بالمُحافظة على الوقود في أثناء الطيران. وبعد القيام بخمسين مهمّة - أسقطَ خلالها مُقاتلة يابانيّة - عادَ إلى أميركا في شهر أيلول لكي يستأنف عمله في برنامج طائرة شركة يونايتد إيركرانت المُقاتلة، وتنتقل العائلة من ميتشيغان إلى ويستبورت، في كونكتيكت.

فلوريللو هـ. لا غوارديا

1947–1882

تشرين الثاني 1922: بعد أنْ خدمَ لا غوارديا فترات في الكونغرس ممثّلاً الحيّ الشرقي الأدنى من مانهاتن قُبيل الحرب العالميّة الأولى وبعدها، عاد إلى الكونغرِس وخدمَ خمس فترات متتالية كمُمثّل جمهوريّ للدائرة الانتخابيّة اليهوديّة والإيطاليّة في شرق هارلِم وقاد حملة المجلس ضد ضريبة المبيعات التي أقرّها الرئيس هاردينغ واستنكر فشله في مُعالجة المُعاناة التي نَتَجَتْ عن الكساد الاقتصادي؛ وعارضَ أيضاً تحريم الخمر.

تشرين الثاني 1924: خلال الانتخابات الرئاسيّة دعمَ بصراحة مُرشّح الحزب التقدُّمي روبرت م. لافوليت ضد الجمهوريّ، الرئيس كوليدج.

كانون الثاني 1931: دعا حاكم نيويورك فرانكلين د. روزفلت إلى مؤتمر للحكّام لمُعالجة مشاكل اليد العاطلة نتيجة الكساد الاقتصاديّ؛ ومَدَحَه لا غوارديا لتشجيعه إجراء تحقيقٍ يؤدي إلى سن قانون بشأن اليد العاملة والبطالة كان هو نفسه قد فشِلَ في حثّ الرئيس على سَنّه.

1932: اختاره الرئيس المُنتَخَب كجمهوريّ خارج عن حزبه، وعضوَ كونغرس ضعيف مهزوم - ليعرض قانون الاتّفاق الجديد على مجلس الكونغرس الثاني والسبعين الضعيف بعد النجاح الساحق الذي أحرزه الديمقراطيون في عام 1932.

تشرين الثاني 1933: يخوض الانتخابات كمُرشّح مُناهِض للفساد، وانتخبه التكتُّل السياسيّ الجمهوريّ (ولاحقاً حزب العمّال الأميركيّ

أيضاً) مُحافِظاً لنيويورك لفترة أولى من ثلاث فترات متتالية؛ ويباشر كمُحافِظ نشِط في جلب العافية إلى نيويورك المُبتلية بالكساد الاقتصاديّ لدعم مشاريع العمل العام ويؤسِّس لمزيد من الخدمات العامّة. يشجب الفاشيّة والنازيّة الأميركيّة؛ ردّاً على تصنيف النازيين له بأنّه «مُحافِظ نيويورك اليهوديّ»، يقول ساخراً «لم يخطر في بالي يوماً إنَّه يجري في عروقي ما يكفي من الدماء اليهوديّة يُبرِّرُ تفاخري به».

أيلول 1938: بعد أنْ يُفكِّك هتلر تشيكوسلوفاكيا، يُهاجِم لا غوارديا الانعزاليين الجمهوريين ويقفُ إلى جانب فرانكلين د. روزفلت في تصعيد الجدل حول سياسة التدخُّل.

أيلول 1940: على الرغم مما قيل بأنَّ ويندل ويلكي يفكِّر في أنْ يجعله نائبه، يتخلّى لا غوارديا من جديد عن الجمهوريين، كما كان قد فعلَ في عام 1924؛ ويشكِّلُ مع السيناتور جورج نوريس ثنائيّاً مُستقلاً يدعم روزفلت ويقومان بحملات صريحة لدعم فترة ولاية ثالثة لروزفلت.

آب- تشرين الثاني 1940: مع اقتراب شبح الحرب، يُفضِّل روزفلت لا غوارديا ليكون وزير الحرب لكنّه يختار بدلاً عنه الجمهوريّ هنري ستيمسن، ويُعيِّن لا غوارديا رئيساً لهيئة الدفاع الأميركيّة-الكنديّة.

نيسان 1941: يقبل منصباً من دون أجر كمدير روزفلت للدفاع المدني وفي الوقت نفسه يواصِلُ شغل منصبه كمُحافِظ لمدينة نيويورك.

شباط- نيسان 1943: يلحُّ على روزفلت لكي يُعيده إلى ممارسة واجبه الفاعل في الجيش برتبة قائد لواء، لكنَّ روزفلت، الذي فشل في منحه موقعاً في الوزارة أو في جعله نائبه، يرفض، تلبية لنصيحة من أصدقاء مُقرّبين يعتبرون لا غوارديا مُستفزّاً أكثر مما ينبغي؛ ويعود المُحافِظ الخائب إلى لبس «رداء كنّاس الشوارع».

آب 1943: ينفجر الصراع العِرقي في زمن الحرب الذي كان قد اندلع في فيرمونت، وموبايل، ولوس أنجلوس، وديترويت - حيث مات أربعٌ وثلاثون شخصاً في أحداث شغب الحادي والعشرين من شهر حزيران -

ينفجر في حي هارلم في نيويورك. وبعد مرور حوالي ثلاثة أيام من أعمال التخريب، والنهب، وسفك الدماء، يمدح القادة السود لا غوارديا على قيادته القويّة، والمتحمّسة خلال أعمال الشغب التي خلَّفَتْ ستة قتلى، و185 جريحاً، ودماراً في الممتلكات تُقدَّر قيمته بخمسة ملايين دولار.

أيار 1945: بعد وفاة فرانكلين د. روزفلت بشهر، يُعلنُ أنَّه لن يخوض انتخابات الفترة الرئاسيّة الرابعة؛ والشهير عنه أنّه قبل تقاعده كان يقرأ قصصاً هزليّة عبر موجات الإذاعة لأطفال نيويورك خلال إضراب قامت به الصحف. وبعد تركه وظيفته، يقبل إدارة الـ UNRRA (أو إدارة الإعانة وإعادة التأهيل في الأمم المتّحدة)

والتر وينتشل

1972-1897

1924: تستخدم صحيفة *النيويورك إيفننغ غرافيك* الممثّل الهزلي السابق والتر وينتشل وسرعان ما يكتسب شعبيّة كمُراسل وكاتب عمود صحفي عن عروض برودواي.

حزيران **1929**: يعمل كاتب عمود صحفي لمصلحة صحيفة وليم راندولف هيرست *نيويورك دايلي ميرور*، وسوف يستمر في هذا العمل على مدى أكثر من ثلاثين عاماً، وتنشر مؤسسة هيرست للتوزيع عمود وينتشل في جميع أنحاء العالم؛ وأخيراً يظهر في أكثر من ألفيّ صحيفة. وطبعاً يُصبح مُبتكر عمود الإشاعات الحديث شخصية مشهورة تتردَّد على نادي ستورك الليلي للمشاهير في نيويورك

أيار **1939**: يبدأ بثّ أخبار النجوم في الإذاعة؛ وتتّسِع شهرته مع برنامج «*ساعة لاكي سترايك للرقص*»، وفي شهر كانون الأول عام 1932، في الساعة التاسعة من يوم السبت، مع برنامج خاص بمنتوجات يرغين لوشن في محطة إنْ بي سي الشبكة الزرقاء. وسرعان ما يجلب ربع الساعة الأسبوعيّ الذي يبثّه والتر وينتشل في الإذاعة حول الإشاعات في الشأن

الداخلي والأخبار العامة أكبر عدد من المُستمعين، وتُصبحُ افتتاحيته المعتادة - «أُسعدتم مساءً يا سادة وسيدات أميركا ويا كل السفن في البحر، هيا بنا إلى الصحافة!» - جزءاً من أسلوب الحديث الأميركيّ.

آذار 1932: يبدأ بتغطية قضية اختطاف ليندبرغ، مُستعيناً في ذلك بمعلومات سرّية من رئيس الإف بي آي ج. إدغار هوفر؛ ويُتابع تغطية القضية من خلال إلقاء القبض على برونو هاوبتمان في عام 1934 والمحاكمة التي جرتْ في عام 1935.

شباط 1933: يكاد يُصبح بين المعلّقين العامّين وبين اليهود المعروفين الوحيد الذي يبدأ بشن هجوم علنيّ على هتلر والنازيّين الأميركيين، بمن فيهم قائد الرابطة الأميركيّة النازيّة فريتز كون؛ ويُتابع هجومه في الإذاعة وفي الصحافة حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية؛ يصيغ تعبيرات جديدة للسُخرية من الحركة النازيّة.

كانون الثاني- آذار 1935: يمتدح ج. إدغار هوفر نشاطه في تغطية مُحاكمة هاوبتمان. بعد ذلك يتبادل هوفر ووينتشل المعلومات حول النازيين الأميركيين تظهر أخيراً في عمود وينتشل الصحفيّ.

1937: يؤدي دعمه في عموده الصحفيّ لروزفلت والـ«الاتفاق الجديد» إلى دعوته إلى احتفال عيد العمال في البيت الأبيض ويستمر التواصل بين الرئيس ووينتشل. تنمو عداوة بين هيرست ووينتشل حول دعم وينتشل العلني لروزفلت. وتتطوّر الصداقة بين وينتشل وجاره في نيويورك وعضو العصابة الإجراميّة فرانك كوستيللو.

1940: قُدِّرَ عدد جمهور وينتشل الإجماليّ الذي يقرأ عموده الصحفيّ ويستمع إلى نشرته الإخباريّة بخمسين مليوناً، أي أكثر من ثُلث سكّان أميركا؛ وصنّفه راتبه السنويّ الذي بلغ الثمانمئة ألف دولار بين الأميركيين الأعلى دخلاً. يُصعِّدُ وينتشل من هجومه على النشاطات الداعمة للنازيّة بإضافة رسوم كاريكاتيريّة تمثّل «عمود وينتشل في مقابل الطابور الخامس». ويدعم روزفلت بقوة من أجل فترة رئاسيّة ثالثة غير مسبوقة؛

يكتب أعمدة صحفيّة تحت اسم مُستعار لمصلحة مجلّة *PM* يُهاجم فيها المُرشَّح الجمهوريّ ويلكي بعد أنْ يُخضِع هيرست انتقادَ وينتشل لويلكي للرقابةِ في صحيفة *دايلي ميرور*.

نيسان- أيار 1941: يُهاجِم ليندبرغ لتصريحاته الانعزاليّة والموالية لألمانيا؛ ويُحذِّر وزير الخارجيّة النازيّ فون ريبنتروب بأنَّ أميركا لديها الرغبة في القتال، فيتلقّى هجوماً من السيناتور برتون ك. ويلر على «تحريضه الشعب الأميركيّ بشدّة على دخول هذه الحرب».

أيلول 1941: بعد خطاب ليندبرغ الذي ألقاه في ديه موان ويتَّهِم فيه اليهود بدفع أميركا نحو الانخراط في الحرب، يكتب قائلاً إنَّ «الهالة التي تُجلِّل ليندبرغ أصبحتْ مشنقة تُحيط بعنقه» ويستمر في الهجوم على ليندبرغ وأيضاً على أعضاء الكونغرس ويلر، وناي، ورانكن وآخرين وصفهم بالموالين للنازيّين.

كانون الثاني 1941- شباط 1972: بعد دخول أميركا الحرب العالمية الثانية، أصبحت تهيمن على نشرات أخبار وينتشل وأعمدته الصحفيّة أخبار الحرب؛ وبوصفه رائداً في قوات الاحتياط البحريّة، يلحّ على روزفلت بقبول المهمّة ويُستدعى لأداء الخدمة الفعّالة في شهر تشرين الثاني عام 1942. ومع انتهاء الحرب، ينتقل إلى اليمين المُتطرّف؛ ويُصبح خصماً شرساً للاتحاد السوفيتي وداعماً مُناهِضاً للشيوعيّة للسيناتور جوزيف مكارثي. وفي منتصف الخمسينيات يكاد ينطفئ ذِكره؛ وعندما توفيَ في عام 1972 لم تواكِب جنازته إلّا ابنته.

برتون ك. ويلر

1975-1882

تشرين الثاني 1920 - تشرين الثاني 1922: بعد تحدّيه عملاق ولاية مونتانا القويّ، شركة أناكوندا كوبر للتعدين، بوصفِهِ مُشرِّعاً في ولاية مونتانا ومُناهضاً لانتهاكات حقوق الإنسان التي مورِسَتْ خلال موجة

«الخوف الأحمر» بعد الحرب[58]، يُمنى ويلر بهزيمة نكراء في عام 1920 في سعيه لنيل منصب الحاكم، ولكنْ في عام 1922 يُنتَخَب كديمقراطيّ في مجلس الشيوخ للفترة الأولى من أربع فترات مع دعم قويّ من المُزارعين والعمّال. وعلى امتداد السنين، يُحوِّل حكومة ولاية مونتانا إلى آلة ويلر المدعومة من حزبَين.

شباط- تشرين الثاني 1924: يُختَار ليرأس لجنة تحقيق مجلس الشيوخ بشأن فضيحة الابتزاز تيبوت دوم، التي تؤدي إلى استقالة النائب العام للرئيس كوليدج، هاري م. دوغرتي، وإلى مهانة إدارة العدل. يترك الديمقراطيين - ولائحة الديمقراطيين برئاسة جون و. ديفيز - لكي يخوض انتخاب منصب نائب الرئيس على لائحة الحزب التقدّمي مع سيناتور ولاية ويسكونسن روبرت م. لا فوليت. ويهزم كوليدج بشكل ساحق الحزبَين الديمقراطيّ والتقدّميّ، على الرغم من أنَّ هذا الأخير يجمع ستة ملايين صوت على امتداد البلاد أي قُرابة 40% من أصوات ولاية مونتانا.

1932-1937: قبل انعقاد المؤتمر الديمقراطيّ في عام 1932، يقوم بزيارة 16 ولاية دعماً لترشيح روزفلت. وعلى الرغم من كونه أول شخصية وطنيّة تدعم مُرشّحاً ديمقراطيّاً ومتعاطفاً في العموم مع الإصلاح الاجتماعي لـ «الاتفاق الجديد»، يُعارِض ويلر في عام 1937 بمرارة الرئيس بسبب عرضه التشريعيّ لتوسيع المحكمة العليا و«ملئها» بداعمي «الاتفاق الجديد»؛ وتؤدي قيادة ويلر إلى هزيمة المشروع المُثير للجدل، وتُفاقِم العِداء الشخصيّ بينه وبين الرئيس.

1938: تعمل آلة ويلر في ولاية مونتانا على تدمير منافسه الديمقراطيّ، عضو الكونغرس جيري أوكونل، بالمساعدة على بلوغ جيكوب ثوركلسون مجلس النوّاب، وهو جمهوريّ يمينيّ صنّفه والتر وينتشل

58- «الخوف الأحمر»: حملة انتشرت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في أميركا لإثارة الخوف من انتشار الشيوعيّة أو الفوضى. - المترجم

«المتحدث باسم الحركة النازيّة في الكونغرس». ويُسمّي ثوركلسون وينتشل «يهوديّ مُشوِّه للسُمعة» ويُقيم دعاوى قضائيّة ضدّه بعد أنْ أضاف وينتشل اسم ثوركلسون في سلسلة من المقالات في مجلّة ليبرتي تحت عنوان «أميركيون نستطيع الاستغناء عنهم». وفي معرِض تعليق عضو الكونغرس أوكونل على النشاطات الانتخابيّة لديمقراطيّي ويلر، يصِفُ ويِلر بأنّه «بينيدكت أرنولد[59] بالنسبة إلى حزبه وخائن بالنسبة إلى رئيسه».

1940-1941: يسعى ويلر إلى تشكيل نادٍ لمناصرة الرئيس في مونتانا على أيدي المتنفّذين الديمقراطيين؛ واعتُبِرَ في ولايته وفي أماكن أخرى مُناصِراً شرساً لترشيح رئيس ديمقراطيّ إلى أنْ أعلنَ روزفلت ترشّحه لتولّي فترة رئاسيّة ثالثة. وفي مجلس الشيوخ، يبدأ ويلر بالانحياز باطراد إلى صفوف الجمهوريين والديمقراطيين الجنوبيين في مواجهة جناح روزفلت من الحزب الديمقراطيّ. ويُعارِض بصَخَب التدخّل الأميركيّ في الحرب الأوروبيّة. وفي شهر حزيران من عام 1940 يُهدِّد بالتخلّي عن الحزب الديمقراطي «إذا أصبحَ حزباً منادياً بالحرب». وفي ذلك الشهر يجتمع مع تشارلز أ. ليندبرغ ومجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ الانعزاليين من أجل وضع خُطط «لمُناهضة التحريض على دخول الحرب والدعاية لها؛ وفي مجلس الشيوخ يُدافع عن ليندبرغ في وجه الاتّهامات بأنّه مؤيّد للنازيين، وبعد ذلك ببضعة أشهر، بعد أنْ يُقارن روزفلت عَلَناً ليندبرغ بـ «رأس أفعى»[60] الحرب الأهليّة (أي أنّه شماليّ يتعاطف مع الجنوب)، ويصِفُ العبارة بأنها «صادمة ومُرعِبة لكل أميركيّ ذي فكر قويم». وفي حديثٍ له عبر شبكة إذاعة NBC، يقترح عرض سلام من ثماني نِقاط للتفاوض مع هتلر ويتلقّى برقيّة تهنئة من ليندبرغ. يُقابل طلاب

59- بينيدكت أرنولد (1741-1801): ضابط في الجيش الأميركي في أثناء حرب الثورة الأميركيّة؛ وضع فيه الرئيس جورج واشنطن كل ثقته، لكنَّ بينيدكت تخلى عن الأميركيين وانضمَّ إلى البريطانيين وخان وطنه. - المترجم

60- رأس أفعى: وصف كان يوصَف به أحد أبناء الشمال المناصِر للولايات الجنوبيّة في أثناء الحرب الأهليّة الأميركيّة. - المترجم

جامعة ييل الذين يُخططون لتنظيم «*لجنة أميركا أولاً*» ويقوم بدور الناصِح غير الرسميّ؛ ويُصبح، مع ليندبرغ، المتكلِّم الأوسع شعبيّة في تظاهرات الـ AFC. يُعارِض علَناً السحب إلى الخدمة العسكريّة، ويقول عن عرض روزفلت للتجنيد الإلزاميّ في وقت السِلم إنّه «خطوة نحو الدكتاتوريّة». وفي مجلس الشيوخ، يُعارِض لائحة الإعارة–والإيجار، قائلاً «إذا أراد الأميركيّون الدكتاتوريّة - إذا أرادوا شكلاً استبداديّاً من الحكومة وإذا أرادوا الحرب - يجب أنْ يُمرّروا هذه اللائحة عبر الكونغرس، وكذلك كانت رغبة الرئيس روزفلت». ويُعلِنُ أنّهُ إذا مرت لائحة الإعارة–والإيجار فسوف «تقضي على رُبع الفتية الأميركيين»، ويحثّ روزفلت على وصف تعبير ويلر بأنه «أبعد ما قيل في الحياة العامة في جيلي عن الصدق... والأشد خسَّة، والأبعد عن الوطنيّة». ويكشِف علناً - وقبل الأوان - عن أنَّ الولايات المتّحدة تُرسِل قوات إلى أيسلندا؛ ويتّهمُ البيت الأبيض، مع رئيس الوزراء تشرشل، ويلر بتعريض حيوات الأميركيين والبريطانيين للخطر. ومن جديد يُتَّهَم بتعريض السريّة العسكرية للخطر عندما يُسرِّب إلى صحيفة *شيكاغو تريبيون* الانعزاليّة، في شهر تشرين الثاني عام 1941، وثيقة سرّيّة من إدارة الحرب تكشِف استراتيجيّة أميركا في حال نشبَت الحرب.

كانون الأول 1941 - كانون الأول 1946: إثر الاعتداء على بيرل هاربر، يدعم المجهود الحربيّ، ولكن يحاول أنْ يبرهن على أنَّ تحالُف أميركا مع الاتّحاد السوفييتي يُساعد على إنعاش الحكومة الشيوعيّة. في عام 1944، يقفُ بإعلانه أنَّ «الشيوعيّين مُتخلّفون عن الـ MVA» ضد الليبراليين ويُساند شركة الطاقة في مونتانا وشركة نحاس أناكوندا في المُساعدة على هزيمة شركة ميزوري فالي في مقابل شركة تنيسي فالي أوثورايتي (TVA). ونتيجة لذلك يخسر آخر دعم ديمقراطي في مونتانا ويُهزَم في حملة مجلس الشيوخ الكبرى في عام 1946 على يد الشاب الليبرالي من مونتانا لايف إريكسون.

حقبة الخمسينيات: يُمارس المُحاماة في واشنطن دي سي. ويتحالف أيديولوجيّاً وسياسيّاً مع السيناتور جوزيف مكارثي.

هنري فورد

1947-1863

1903-1905: يُصمِّم هنري فورد أول سيارة فورد، بأسطوانتين، وقوة ثمانية أحصنة موديل أ. وتُصنّعها شركته الجديدة، شركة فورد موتور، وتظهر في عام 1903، وتُباع بسعر 850$. وخلال السنوات القليلة التالية تظهر موديلات بأسعار أعلى.

1908: يُنتَج موديل فورد T، المُخصَّص لأميركا الريفيّة، ويبقى حتى عام 1927 الموديل الوحيد الذي تُنتجه الشركة. ويجعل من شركة فورد الأولى في البلاد في إنتاج السيارات، مُنفِّذاً خطّته «لتصميم سيارة للجماهير الواسعة».

1910-1916: يؤسِّس مع زملائه في مجال إنتاج السيارات عمليّة تصنيع من الإنتاج المتسلسل وتقسيم للعمالة تتطوّر لتُصبح سلسلة متواصلة من عمليات التجميع - اعتُبِرَتْ أعظم تقدُّم صناعيّ منذ بدء الثورة الصناعيّة - مما أدّى إلى إنتاج بالجملة لموديل T. في عام 1914 يُعلِن فورد أنَّ الأجر الأساسي ليوم عمل من ثماني ساعات هو خمسة دولارات؛ والعرض في الواقع يطال فقط جزءاً من قِوى فورد العاملة. ومع ذلك فإنَّ دعمه لعرض «خمسة دولارات في اليوم» يجلب لفورد الكثير من المديح والشهرة بوصفِهِ رجل أعمال مُستنيراً، ولكن ليس كمُفكِّر مُستنير. يشرح قائلاً «أنا لا أحب قراءة الكتب، لأنها تُربِكُ عقلي»، ويُعلن «إنَّ التاريخ هراء بصورة ما».

1916-1919: يُضاف اسمه إلى قائمة الترشيح لمنصب الرئاسة في المؤتمر الجمهوريّ الوطنيّ وحصل على اثنين وثلاثين صوتاً في الاقتراع الأول. وينتقل بنجاح ليُحقِّق السلطة المُطلقة على مشاريع فورد كلها.

وبحلول عام 1916 أصبحت الشركة تُنتِج ألفيّ سيارة في اليوم، مع إنتاج إجماليّ حتى ذلك الحين بلغَ مليوناً من موديل T. ومع اندلاع أتون الحرب العالمية الأولى يُصبح ناشطاً كمُعارِض مُسالِم للحرب ويُهاجم التكسُّب من الحرب. يُعلن عن اجتماع لموظفي فورد، «أنا أعلم مَنْ تسبَّبَ في نشوب الحرب. إنهم أصحاب المصارف الألمان-اليهود. وفي حوزتي هنا الدليل على ذلك. الحقائق. إنَّ الألمان-اليهود هم الذين تسبّبوا في نشوب الحرب». ومع دخول أميركا الحرب، يتعهَّد «بأنْ يعمل من دون الحصول على أدنى ربح» في تنفيذ عقود الحكومة، لكنّه لا يفعل ذلك. وبإلحاحٍ من الرئيس ويلسون، يخوض انتخابات مجلس الشيوخ كديمقراطيّ - على الرغم من أنّه قبل ذلك كان معروفاً أنّه جمهوريّ - ويُهزَم في الانتخابات بفارق ضئيل، ويعزو هزيمته إلى «مصالح» وول ستريت وإلى «اليهود».

1920: في شهر أيار، تنشر صحيفة أسبوعيّة اسمها ***ديربورن إندبندنت*** - وهي صحيفة محليّة كان فورد يشتريها في عام 1918 - المقالة الأولى لإحدى وتسعين مقالة مُفصّلة مُخصّصة لفضح «اليهود العالميين: المشكلة العالميّة»؛ وفي أعداد تالية منها، تنشر بشكل مُتسلسل «***بروتوكولات عجائز صهيون المُثقفين***» الزائفة، لكنّه يدّعي أنَّ الوثيقة - وكَشْفها عن خطّة يهوديّة للسيطرة على العالم - أصيلة. ويزداد التوزيع حتى يُقارب 300000 بحلول العام الثاني من صدورها؛ وتُفرَض الاشتراكات في الصحيفة على المتعاملين مع فورد كمُنتَج للشركة، وتُجمَع المقالات ذات النكهة المُعادية للساميّة القويّة في طبعة من أربعة أجزاء، بعنوان «*اليهود العالميون: المشكلة العالميّة الأولى*».

حقبة العشرينيات: في عام 1921 تُنتَج خمسة ملايين سيارة فورد؛ وأكثر من نصف مليون سيارة من السيارت التي بيعَتْ في أميركا كانت من الموديل T. ويُنشئ مصنع ريفر روج الضخم ومدينة صناعيّة في ديربورن. ويمتلك غابات، ومناجم حديد، وفحم من أجل تزويد شركة السيارات بالمواد الخامّ. ويُنوِّع في خط إنتاج سيارات فورد. وسيرته الذاتية الصادرة

في عام 1922 «*حياتي وأعمالي*» هي عمل غير روائي رائج، ويُصبح اسم فورد وأسطورته معروفين في أرجاء العالم كلّه. وتبيِّن استطلاعات الرأي أنّه يتقدَّم الرئيس هادينغ في الشعبية، ويُقال عنه إنّه مُرشّح الرئاسة الجمهوريّ التالي؛ وفي خريف عام 1922 يفكِّر في خوض انتخابات الرئاسة. ويقول أدولف هتلر في حديث جرى في عام 1923، «إننا نصبو إلى أنْ يُصبح هاينريش فورد قائد الحركة الفاشيّة المتنامية في أميركا». وفي أواسط حقبة العشرينيات، تُقام ضده دعوي تشويه سُمعة من قِبَل مُحامٍ يهوديّ من شيكاغو وتُسوّى القضيّة من دون اللجوء إلى القضاء، وفي عام 1927، يتراجع عن شن الهجوم على اليهود، ويوافق على إيقاف نشر مقالاته المُعادية للساميّة، ويُغلِق صحيفة *ديربورن إندبّندنت*، التي أصبحت مشروعاً خاسراً كلّفه عجزاً قاربَ خمسة ملايين دولار. وعندما يطير ليندبرغ بـ «*روح سينت لويس*» إلى ديترويت في آب عام 1927، يُقابل فورد في مطار فورد ويقلّه بالطائرة الشهيرة في أول رحلة طيران لها. ويُثير ليندبرغ اهتمام فورد بإنتاج الطائرات. وبعد ذلك يلتقي الاثنان مرات عديدة، وفي مقابلة صحفية في ديترويت عام 1940 يشرح فورد قائلاً «عندما يأتي تشارلز إلى هنا، لا نتحدّث إلّا عن اليهود».

1931-1937: تتسبَّب منافسة شيفروليه وبلايموث بالإضافة إلى الكساد الاقتصاديّ بخسائر فادحة للشركة على الرغم من ابتكار مُحرِّك فورد V-8. وسوء العلاقات مع القِوى العاملة في مصنع ريفر روج التي تتسبَّب بها السرعة في الإنتاج، وانعدام الأمان في العمل، والتجسُّس بين العمّال. تواجَه الجهود التي يبذلها اتّحاد عمال مصانع السيارات من أجل تنظيم شركة فورد مع جنرال موتورز وكرايزلر، بالعنف والتهديد من قِبَل فورد؛ تقوم جماعة من الأمن الأهلي في ديترويت بضرب مُنظّمي العمّال في ريفر روج. تُدين هيئة العلاقات العمّاليّة الوطنيّة سياسات شركة فورد العمّاليّة وتتوقّع الأسوأ لصناعة السيارات.

1938: في شهر تموز، وبمناسبة عيد مولده الخامس والسبعين، يقبل

وسام صليب خدمة النسر الألمانيّ من حكومة هتلر النازيّة في حفل عشاء بمناسبة عيد ميلاده في ديترويت حضره ألفٌ وخمسمئة شخص من أبرز المواطنين. (وهو الوسام نفسه الذي مُنِحَ لليندبرغ في شهر تشرين الأول في المراسم التي أُقيمَتْ في ألمانيا، مما دفع بوزير الداخليّة إيكس إلى أنْ يقول في اجتماع شهر كانون الأول للجمعيّة الصهيونيّة في كليفلاند، «إنَّ هنري فورد وتشارلز أ. ليندبرغ هما المواطنان الحرّان الوحيدان في بلد حرّ اللذان قبِلا بصورة غامضة تذكارَين يتّصِفان بالحقارة في وقتٍ يعتبرُ مانحهما أنَّ اليومَ الذي لا يرتكبُ فيه جرائمَ ضد الإنسانيّة يومٌ ضائع»). ويُعاني أول نوبة من نوبتين في السكتة الدماغيّة.

1939–1940: مع اندلاع الحرب العالميّة الثانية ينضم مع صديقه ليندبرغ في دعم الانعزاليّة ولجنة أميركا أولاً. وبُعيد تعيين فورد في اللجنة التنفيذيّة لأميركا أولاً يستقيل ليسينغ ج. روزنوالد، وهو مدير شركة سير وروبك، بسبب سُمعة فورد كمُعادٍ للساميّة. ويجتمع بانتظام لفترة من الوقت مع كاهنٍ إذاعي مُعادٍ للساميّة هو الأب كوفلين، الذي يعتقد روزفلت وإيكس أنَّ نشاطاته يموّلها فورد. ويُقدِّم دعماً ماليّاً للمُحرِّض على مُعاداة الساميّة جيرالد أ. ك. سميث من أجل برنامجه الإذاعيّ الأسبوعيّ ولتكاليف معيشته. (بعد ذلك ببضع سنوات يُعيد سميث نشر مقالة فورد «*اليهود العالميون*» في طبعة جديدة وبقيَ يؤكّد حتى حقبة الستينيات أنَّ فورد «لم يُغيِّر رأيه في اليهود»)

1941–1947: يُعاني من السكتة الدماغيّة الثانية. وتتحوّل الشركة إلى الإنتاج الدفاعي مع اقتراب الحرب؛ وفي أثناء الحرب تُنتِج قاذفة القنابل B–24 في مصنع ويلو رن الضخم، حيث يعمل ليندبرغ كمستشار. وبسبب المرض، لا يعود فورد قادراً على إدارة الشركة ويستقيل في عام 1945. ويُتوفّى في شهر نيسان عام 1947، ويُشاهد الجثمان مئة ألف مُعزٍ. وتنتقل الثروة الهائلة التي تُقدّرها أسهم الشركة بشكل رئيس إلى مؤسسة فورد، التي سرعان ما تُصبح أغنى مؤسسة خاصة في العالم.

شخصيات تاريخيّة أخرى في هذا العمل

برنارد بروخ (**1870-1965**): مصرفيّ ومُستشار حكوميّ. وبوصفه مدير هيئة صناعات الحرب في ظل رئاسة وودرو ويلسون، يحشد مصادر الأمّة الصناعيّة من أجل الحرب العالميّة الأولى. وهو عضو دائرة البيت الأبيض خلال فترات إدارة روزفلت. يُعيّنه ترومان ممثلاً للولايات المتحدة في مفوّضيّة الأمم المتحدة للطاقة النوويّة في عام 1964.

روجيرو «ريتشي الحذاء» بوياردو (**1890-1984**): شخصيّة إجراميّة في نيوارك ومُنافس محلّي للمُبتزّ لونغي زُويلْمان؛ وتأثير نفوذه أقوى في حيّ «*الجناح الأول*» الإيطاليّ في المدينة، حيث يمتلك مطعماً شعبيّاً.

لويس د. برانديس (**1856-1941**): وُلِدَ في لويسفيل، كينتكي، لعائلة يهوديّة مُهاجِرة ومُثقّفة من براغ. مُهتمّ بالشأن العام ومُحامٍ مُفوَّض في بوسطن. من أوائل مُنظِّمي الحركة الصهيونيّة في أميركا. عيّنه الرئيس ويلسون قاضياً مُساعداً في المحكمة العليا، لكنَّ ذلك لم يحدث إلّا بعد أربعة أشهر من الجَدَل في لجنة مجلس الشيوخ القضائيّة وفي كل أرجاء البلاد، عزاه برانديس لكونه أول يهوديّ يُرشَّح لتولي منصب في المحكمة. وخدم هناك ثلاثة وعشرين عاماً، حتى عام 1939.

تشارلز إ. كوفلين (**1891-1979**): كاهن كاثوليكي وراعي ضريح «الزهرة الصغيرة» في رويال أوك، ميتشيغان. اعتبرَ روزفلت شيوعيّاً وكان مُعجباً متحمّساً بليندبرغ. وفي حقبة الثلاثينيات، عمل على نشر أفكار قويّة مُعاديّة للساميّة في برنامجه الإذاعي الأسبوعيّ عبر البلاد كلها وفي مجلّته الفصليّة «*العدالة الاجتماعيّة*»، التي مُنِعَتْ من التوزيع في الولايات المتّحدة خلال الحرب لأنها تخرق عمل التجسُّس وتوقّف طبعها في عام 1942.

أميليا إرهارت (1897–1937): في عام 1932، سجّلتْ رقماً قياسيّاً مقداره أربع عشرة ساعة وست وخمسون دقيقة طيران من نيوفاوندلاند إلى أيرلندا؛ وأول امرأة تقوم وحدها برحلات طيران عبر المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ من هونولولو إلى كاليفورنيا. وقد ضاعتْ طائرتها في موقعٍ ما من المحيط الهادئ في أثناء محاولتها في عام 1937 الطيران حول العالم مع المُستكشِف فريدريك ج. نونان.

ماير إلينغشتاين (1885–1963): بعد سلسلة من الأعمال كطبيب أسنان ومحام، اختاره زميل له من مفوّضي مدينة نيوارك في عام 1933 ليكون مُحافِظ نيوارك. وكان أول مُحافظ يهوديّ والوحيد، وخدم فترتين في منصبه، من 1933 وحتى 1941.

إدوارد فلاناغان (1886–1948): في عام 1904، يُهاجر من أيرلندا إلى الولايات المتّحدة، حيث يباشر دراساته ليُصبح كاهناً؛ في عام 1912 يُرسَم كاهناً. وفي عام 1917، يُنشئ مؤسّسة مأوى الأب فلاناغان للفتية في أوماها، لكي يُعيل الفتية المُشرّدين من كل جنس ودين. ويُصبح شخصيّة وطنيّة بارزة في عام 1938 بسبب فيلم سينمائيّ شائع يحكي عن مدينة للفتية، من بطولة سبنسر تريسي في دور الأب فلاناغان.

ليو فرانك (1884–1915): مدير مصنع أتلانتا لإنتاج أقلام الرصاص، وُجِدَ مُذنباً في حادث اغتيال ميري فاغان، وهي مُستخدَمة في الثالثة عشرة من العمر، في السادس والعشرين من شهر نيسان، 1913؛ أثناء قضاء فترة حكم بالسجن انقضّ عليه أحدهم بالسكين ولاحقاً نقلَه المواطنون المحلّيون عُنوة من الزنزانة وشنقوه من دون مُحاكمة، في آب 1915. وساد اعتقادٌ بأنَّ المُعادين للساميّة لعبوا دوراً هاماً في التجريم المُريب.

فيليكس فرانكفورتر (1882–1965): مُساعد القاضي الذي عيَّنه روزفلت في المحكمة العليا الأميركيّة، من عام 1939 إلى 1962.

جوزيف غوبلز (1897–1945): من أوائل أعضاء الحزب النازيّ، أصبح في عام 1933 وزير دعاية هتلر وقيصر الثقافة، ومسؤولاً عن الرقابة على الصحافة، والإذاعة، والأفلام السينمائيّة، والمسرح، والعروض العامة المتزايدة على غرار المسيرات والمظاهرات الضخمة. وهو من بين الأشدّ تفانياً ووحشيّة من مُساعدي هتلر. وفي نيسان من عام 1945، بعد دمار ألمانيا ودخول الروس برلين، قام هو وزوجته بقتل أولادهما الصِغار الستّة ثم انتحرا.

هرمان غورينغ (1893–1945): مؤسِّس الغستابو، أو البوليس السرّي، وأول رئيس له، والمسؤول عن تكوين قِوى الجو الألمانيّة. في عام 1940 أعلنه هتلر خليفته، لكنّه طرده مع اقتراب نهاية الحرب. وفي محاكمات نورمبرغ اتّهِمَ بارتكاب جرائم حرب وحُكِمَ عليه بالموت، وقبل تنفيذ الحُكم فيه انتحر.

هنري (هانك) غرينْبرغ (1911–1986): لاعب البيسبول الأول في فريق التايجر في ديترويت وصاحب الضربة القويّة في الثلاثينيات والأربعينيات؛ في عام 1938 كاد يتفوَّق على بيب روث. وكان بطلاً بين هواة لعبة البيسبول من اليهود، وكان أول اثنين من اللاعبين اليهود الذين انتُقوا لضمّهم إلى مشاهير لاعبي البيسبول.

وليم راندولف هيرست (1863–1951): ناشر أميركيّ، اعتُبِرَ أبرز مُناصري «الصحافة الصفراء» المُثيرة، والشوفينيّة التي تُخاطِب الجماهير

الواسعة؛ إمبراطوريته الصحفيّة ازدهرتْ في الثلاثينيات. في الأساس صُنِّفَ من بين الشعبيّن الديمقراطيين، وازداد انحيازاً إلى الجناح اليمينيّ وعداوة مريرة لحزب روزفلت.

هاينريش هيملر (1900–1945): قائد نازي، وآمر قوات الـ SS، التي تحكّمت بمخيمات الاعتقال، ورئيس الغيستابو، والمسؤول عن برامج «التطهير» العنصريّة، ويحتلّ المرتبة الثانية في السلطة بعد هتلر. سمَّم نفسه ومات بعد أنْ أسرته القوات البريطانيّة في أيار عام 1945.

ج (جون) إدغار هوفر (1895–1972): شغل منصب مدير مكتب التحقيقات الفيدراليّ (كان مكتب التحقيقات في الأصل فرعاً من شعبة القضاء) من 1924 إلى 1972.

هارولد ل. إيكس (1874–1952): كان جمهوريّاً تقدّميّاً تحول إلى ديمقراطيّ، خدمَ ما يُقارِب الثلاثة عشر عاماً وزيراً للداخليّة لروزفلت وكان صاحب ثاني أطول مدة شغلها أي من وزراء حكومة روزفلت. كان مُنادياً مُخلصاً بضرورة صيانة موارد الطبيعة وخصماً فعّالاً للفاشيّة.

فريتز كون (1886–1951): مُحارب قديم في الحرب العالميّة الأولى من أصلٍ ألمانيّ، هاجرَ إلى أميركا في عام 1927، ولكونه من أتباع الارتباطً الأميركي–الألمانيّ النازيّ اعتبرَ نفسه النسخة الأميركيّة من الفوهرر، وأسّسَ الرابطة الأميركيّة– الألمانيّة بوصفها أقوى التجمّعات النازيّة وأشدها فعاليّة وثراءً في الولايات المتّحدة وتضمّ أعضاء بلغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً. في عام 1939 اتّهم بالسرقة، وجُرِّدَ من الجنسيّة في عام 1943، ورُحِّلَ إلى ألمانيا في عام 1945. في عام 1948 اتّهمته محكمة التجريد من الهويّة النازيّة الألمانيّة بمُحاولة نقل الفكر

النازيّ إلى الولايات المتّحدة، وبأنه كان شديد القُرب من هتلر؛ وحُكِمَ عليه بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة.

هربرت هـ. ليمان (1878-1963): شريك في مؤسسة الإخوة ليمان، وهي مؤسّسة مصرفيّة أسّستها عائلته. أصبح نائباً لحاكم نيويورك عندما كان روزفلت حاكماً؛ وخلف روزفلت في منصب الحاكم من عام 1932 إلى 1942. وكان داعماً لبرنامج «الصفقة الجديدة» ومُناصِراً قوياً لسياسة التدخّل. وبوصفِهِ سيناتوراً ديمقراطيّاً من نيويورك (1949-1957)، كان خصماً للسيناتور جوزيف مكارثي.

جون ل. لويس (1880-1969): زعيم عمّالي أميركيّ. في عام 1935، انفصل عن الفيدراليّة الأميركيّة العمّاليّة (AFL) بوصفِهِ رئيس اتّحاد عمال المناجِم لكي يُشكِّل اللجنة الجديدة للتنظيم الصناعيّ، التي أصبحتْ كونغرس التنظيمات الصناعيّة في عام 1938. كان قبل كل شيء داعماً لفكر روزفلت، وساندَ الجمهوريّ ويلكي في انتخابات عام 1940 واستقال من رئاسة لجنة التنظيم الصناعي (CIO) بعد هزيمة ويلكي. وأدتْ إضرابات اتحاد عمال المناجِم (UMW) خلال الحرب إلى تفاقُم العداء بين لويس والإدارة.

آنْ سبنسر مورو ليندبرغ (1906-2001): كاتبة وملّاحة جويّة أميركيّة. ولدتْ في جو من الثراء والامتيازات في إنغلْوودْ، نيو جيرزي؛ وكان والدها، دوايت مورو، شريكاً في شركة استثمار ج.. بي. مورغان وشركائه، وسفير الولايات المتحدة في المكسيك خلال إدارة هوفر، وسيناتوراً جمهوريّاً من نيو جيرزي؛ وكانت أمّها، إليزابيث كتر مورو، كاتبة، ومُربّية، وشغلتْ لفترة وجيزة منصب رئيساً بديلاً في كليّة سميث، حيث نالت مورو شهادة في الآداب في عام 1928. وكانت قد تعرَّفَتْ إلى تشارلز ليندبرغ في العام السابق، في أثناء زيارة لعائلتها في منزل السفير

في مكسيكو سيتي. من أجل الحصول على تفاصيل عن حياة مورو بعد ذلك اللقاء، انظر سلسلة التاريخ الحقيقيّ عن تشارلز أ. ليندبرغ.

هنري مورغنثاو الابن (**1891–1967**): وزير الماليّة عيّنه الرئيس روزفلت بين عاميّ 1934 و1945.

فنسنت مورفي (**1888–1976**): هو خليفة ماير إلينشتاين كمُحافِظ لنيوارك، بين 1941 و1949. ومُرشَّح ديمقراطيّ لمنصِب حاكم نيو جيرزي في عام 1943 وشخصيّة مهيمنة في الأوساط العمّاليّة في نيو جيرزي على مدى خمسة وثلاثين عاماً بعد انتخابه عام 1933 سكرتير خزانة في اتحاد عمال الولاية.

جيرالد بي. ناي (**1892–1971**): سيناتور جمهوريّ انعزاليّ متحمّس من داكوتا الشماليّة، بين 1925 و1945.

ويستربروك بغلر (**1894–1969**): صحافيّ يمينيّ كان عموده الصحفيّ «وجهة نظر بغلر» في صُحُف هيرست من عام 1944 إلى 1962. في عام 1941 حاز على جائزة بوليتزر لكشفه عمليّة ابتزاز عمّاليّة. كان منتقداً شرساً لآل روزفلت ولـ«الصفقة الجديدة»، التي وصفها بأنها استلهام شيوعيّ، وأبدى عداءً صريحاً لليهود. وكان داعماً وصديقاً مُقرَّباً للسيناتور جوزيف مكارثي، ومستشار لجنة مكارثي للتحقيقات.

يواكيم برينتز (**1902–1988**): حاخام، ومؤلِّف، وناشط في مجال حقوق الإنسان، عمل حاخاماً في معبد بيناي أبراهام، في نيوارك، بين 1939 و1977.

يواكيم فون ريبنتروب (1893-1946): مُستشار هتلر الأول في السياسة الخارجيّة في عام 1933 ووزير الشؤون الخارجيّة، من 1938 وحتى 1945. وقَّعَ مع وزير الخارجيّة السوفييتي مولوتوف في عام 1939 معاهدة عدم اعتداء تضمّنت اتّفاقاً سرّيّاً على تقسيم بولندا. وقد مهّدت المعاهدة الطريق لنشوب الحرب العالمية الثانية. وُجِدَ في محاكمات نورمبرغ أنّه مُذنب بارتكاب جرائم حرب، وفي السادس عشر من شهر تشرين الأول، عام 1946، أصبحَ أول المُدانين النازيين الذين شُنِقوا.

إليانور روزفلت (1884-1962): ابنة أخت ثيودور روزفلت، وزوجة فرانكلين روزفلت الذي ربطته بها صِلة قُربى بعيدة، ووالدة بنت وثلاثة صِبية. وبوصفها السيدة الأولى، ألقتْ خُطباً من أجل القضيّة الاجتماعيّة الليبراليّة، وألقتْ مُحاضرات حول وضع الأقليّات، والمحرومين، والنساء، وأدانت الفاشيّة، وكتبتْ عموداً صحفيّاً يوزَّع على ستين صحيفة، وخلال الحرب العالميّة الثانية كانت عضواً مُشارِكاً في مكتب الدفاع المدنيّ. وبوصفها مفوّضة الأمم المتحدة بتعيين من الرئيس ترومان، دعمتْ تأسيس دولة يهوديّة، وفي عام 1952 وعام 1956 أطلقتْ حملة ليكون أدليه ستيفنسن رئيساً. وعُيِّنَت من جديد مفوّضة الأمم المتحدة من قِبَل الرئيس كينيدي، الذي عارضَتْ عمليته لغزو خليج الخنازير.

ليفيريت سالتونشتال (1892-1979): سليل السير ريتشارد سالتونشتال، العضو الأصيل في شركة ماساتشوستس باي الذي وصلَ إلى أميركا في عام 1630. وحاكم ماساتشوستس الجمهوريّ من عام 1939 إلى 1944؛ وسيناتور جمهوريّ من 1944 إلى 1967.

جيرالد ل.ك. سميث (1898-1976): كاهن وخطيب مُفوّه، تحالف أولاً مع هيوي لونغ ولاحقاً مع الأب كوفلين ومع هنري فورد، وكلاهما

دعماه في كراهيته التي لا تلين لليهود. مجلته المُعادية للساميّة «*الصليب والعلم*»، وضعَتِ اللوم على اليهود لحدوث الكساد الاقتصادي ولنشوب الحرب العالمية الثانية. في عام 1942، حصل على مئة ألف صوت في ميتشيغان كمُرشَّح جمهوريّ لدخول مجلس الشيوخ. أكّدَ أنَّ روزفلت يهوديّ، وأنَّ مقالة «*بروتوكولات عجائز صهيون المُثقفين*» هي وثيقة أصيلة، وقال، بعد انتهاء الحرب، إنَّ مِحرقة اليهود لم تقع أبداً.

ألي شتولتس (**1918–2000**): ملاكم من الوزن الخفيف من نيوارك اليهوديّة. ربح 75 مباراة من أصل 85، وخسِرَ مبارتين لنيل اللقب في حقبة الأربعينيات؛ الأولى، بسبب قرار مُثير للجدل بعد خمس عشرة جولة، لمصلحة البطل سامي أنْغوت؛ والثانية - التي أدّتْ إلى تقاعده في عام 1946 - بالضربة القاضية في الجولة الثالثة عشرة، لمصلحة البطل بوب مونتغومري.

دوروثي طومبسون (**1893–1961**): صحافيّة، وناشطة سياسيّة، وصاحبة عمود صحفي يُنشَر في 170 صحيفة خلال حقبة الثلاثينيات؛ ومن أوائل خصوم النازيّة وهتلر وناقدة عنيفة لسياسات ليندبرغ. تزوَّجت من الروائي سينكلير لويس في عام 1928 وتطلّقتْ في عام 1942. ناهضَت الصهيونيّة ودعمت العرب الفلسطينيين في الأربعينيات والخمسينيات.

ديفيد ت. ويلينتز (**1894–1988**): نائب عام نيو جيرزي (1934–1944)، أدّتْ مُرافعته القضائيّة في قضيّة اختطاف طفل ليندبرغ إلى إدانه وإعدام برونو هاوبتمان. ولاحقاً، أصبح ذا نفوذ في تنظيم نيو جيرزي الديمقراطي ومُستشاراً لثلاثة من حُكّام الولاية الديمقراطيين.

أبنر «لونغي» زويلْمان (**1904–1959**): مُهرِّب خلال فترة الكساد

الاقتصادي ولد في نيوارك، وكان يقود مُجرمي نيوارك من العشرينيات وحتى الأربعينيات. وكان عضواً في عصابة «الستّة الكبار» المُبتزّة على الشاطئ الشرقيّ، التي من بينهم كان لَكي لوتشيانو، وماير لانسكي وفرانك كوستيللو. وكشَفَتْ لجنة الجريمة في مجلس الشيوخ النشاطات الإجراميّة الواسعة في جلسات استماع بُثَّتْ على التلفزيون في عام 1951. وبعد ذلك بثماني سنوات انتحر.

بعض التوثيق

خطاب ألقاه تشارلز ليندبرغ بعنوان «مَنْ هم المُحرّضون على الحرب؟» في تظاهرة لجنة «أميركا أولاً» في ديه موان في الحادي عشر من أيلول عام 1941. والنص التالي ظهرَ على موقع:

www.pbs.org/wgbh/amex/lindbergh/filmmor/reference/primary/demoinesspeech.html.

مرَّ عامان على بداية الحرب الأوروبيّة الأخيرة. ومنذ ذلك اليوم في شهر أيلول عام 1939، وحتى هذه اللحظة، تُبذَل الجهود لإجبار الولايات المتحدة على الدخول في الصراع.

ذلك الجهد بذلته المصالح الأجنبيّة، وأقلّيّة صغيرة من شعبنا؛ لكنّه كان ناجحاً إلى درجة أنَّ بلدنا، اليوم، يقفُ على حافة الحرب.

في هذا الوقت، مع بداية دخول الحرب شتاءها الثالث، يبدو من الملائم مراجعة الظروف التي أدّتْ بنا إلى وضعنا الراهن. لماذا وصلنا إلى حافة الحرب؟ هل كان ضرورياً لنا أنْ نتورّط عميقاً؟ مَن المسؤول عن تغيير سياستنا الوطنيّة من سياسة الحياد والاستقلال إلى التورُّط في الشؤون الأوروبيّة؟

شخصيّاً، أعتقد أنّه لا توجد حجّة ضد تدخّلنا أفضل من دراسة أسباب وتطورات الحرب الحاليّة. ولطالما قلتُ إنّه إذا طُرِحَت الحقائق الصحيحة والعواقب أمام الشعب الأميركيّ، فلن نتعرَّض لخطر تورّطنا.

هنا، أودّ أنْ أُبرِزَ لكم الفرق الأساسيّ بين الجماعات التي تدعم الحرب الأجنبيّة، وتلك التي تؤمن بقَدَرٍ مُستقلّ لأميركا.

إذا راجعتم السجلات، فسوف تجدون أنَّ الذين يُعارضون سياسة التدخُّل بيننا قاموا بمحاولات حثيثة لتوضيح الحقائق والعواقب؛ بينما حاول مُحبّذو التدخّل أنْ يُخفوا الحقائق ويشوِّشوا العواقب.

إننا نطلب منكم أنْ تُدقّقوا فيما قُلناه في الشهر السابق، والعام السابق، وحتى قبل أنْ تبدأ الحرب. إنَّ سجلاتنا مُتاحة وواضحة، ونحن فخورون بها.

نحن لم نقدكم باستخدام الحيلة والدعاية السياسيّة. لم نتّخذ خطوات متخلِّفة عن أي شيء، لكي نقود الشعب الأميركيّ إلى حيث لا يُريد أنْ يذهب.

إنَّ ما قلناه قبل الانتخابات، نعيد قوله مراراً وتكراراً، وها نحن نقوله اليوم. ولن نقول لكم غداً إنّها كانت مجرد حملة خِطابيّة. هل سبقَ لكم أنْ سمعتم أحد أنصار التدخُّل، أو عميلاً بريطانيّاً، أو أحد أعضاء الإدارة في واشنطن يطلب منكم أنْ تعودوا إلى سجل ما قلناه منذ بداية الحرب وتدقّقوا فيه؟ هل المُدافعون عن الديمقراطيّة المُزيّفون راغبون في طرح قضيّة الحرب لتصويت شعبنا؟ هل تجدون هؤلاء المُدافعين عن حريّة التعبير الأجنبيّة، أو إلغاء الرقابة هنا في بلدنا؟

إنَّ الحيلة والدعاية السياسيّة في بلدنا تتجلّيان في كل جانب. وهذه الليلة، سوف أحاول أنْ أنفذ في جزءٍ منها، حتى أصل إلى الحقائق العارية الكامنة تحتها.

عندما بدأت الحرب في أوروبا، كان واضحاً أنَّ الشعب الأميركيّ يُعارِض بحزم الدخول فيها. لِمَ لا ينبغي أنْ ندخلها؟ إنَّ لدينا أفضل وضع دِفاعي في العالم؛ لدينا تراثٌ من الاستقلال عن أوروبا؛ والمرة الوحيدة التي اشتركنا فيها في حربٍ أوروبيّة تركنا المشاكل الأوروبيّة من دون حلّ، وديون أميركا لم تُسدَّد.

لقد بيَّنت الاستفتاءات الوطنيّة أنّه عندما أعلنت إنكلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا، في عام 1939، لم تُصوِّتْ إلّا نسبة 10% من شعبنا لمصلحة مثل هذا المسار لأميركا.

ولكن كانت هناك عدة مجموعات من الناس، هنا وفي الخارج، استلزمت مصلحتها ومُعتقداتها تورّط الولايات المتحدة في الحرب. وسوف أُشير إلى بعضٍ منها هذه الليلة، وأُحدِّد أنماط نهجها. وينبغي أنْ أتكلَّم عن هذا بمنتهى الصراحة، إذ لكي نُحبط جهودها، علينا أنْ نعرف بالضبط مَنْ هي.

إنَّ أهمّ ثلاث مجموعات كانت تعمل على إقحام هذا البلد في الحرب هي البريطانيون، واليهود وإدارة روزفلت.

وخلف هذه المجموعات، ولكن أقلّ أهميّة، عدد من الرأسماليين، والمُحبّين للإنكليز، والمُثقفين الذين يعتقدون أنَّ مستقبل الجنس البشري يرتكز على هيمنة الإمبراطوريّة البريطانيّة. أضِفْ إلى هذا المجموعات الشيوعيّة التي ناهَضت حتى قبل بضعة أسابيع سياسة التدخُّل، وأعتقد أنني بهذا سمَّيتُ أكبر المُحرِّضين على الحرب في هذا البلد.

أنا لا أتكلَّم هنا إلّا عن أقليّة صغيرة من شعبنا؛ لكنّها تمارس نفوذاً هائلاً. وقد حشدتْ قِوى دعايتها السياسيّة، وقُدرتها الماليّة، وأنصارها، ضد تصميم الشعب الأميركيّ على البقاء بمنأى عن الحرب.

دعونا نتفحّص هذه المجموعات، كلاً على حِدة.

أولاً، البريطانيون: من الواضح والمفهوم تماماً أنَّ بريطانيا العُظمى تريد أنْ تتورط الولايات المتحدة في الحرب إلى جانبها. وإنكلترا هي الآن في وضع يائس. فعدد سكّانها ليس كبيراً بالقدر الكافي وجيوشها ليست قويّة بحيث تغزو قارة أوروبا وتربح الحرب التي أعلَنَتها على ألمانيا.

إنَّ موقعها الجغرافي يجعل من المستحيل عليها أنْ تربح الحرب

باللجوء إلى الغزو وحده، بغضّ النظر عن عدد الطائرات التي نُرسِلها إليها. وحتى إذا دخلتْ أميركا الحرب، فمن المُستبعَد أنْ تتمكّن جيوش التحالف من غزو أوروبا وتتغلَّب على قِوى المحور. ولكن ثمة شيئاً واحداً مؤكَّداً. إذا كان في استطاعة إنكلترا أنْ تجرّ هذا البلد إلى الحرب، ففي استطاعتها أنْ تضع على كاهلنا جزءاً كبيراً من مسؤوليّة شنّها ومنْ تسديد تكاليفها.

وكما تعلمون جميعكم، لقد تركونا مُثقلين بالديون بعد انتهاء الحرب الأخيرة؛ وإذا لم نأخذ حَذَرَنا في المُستقبل كما فعلنا في الماضي، فسوف يتركوننا مُثقلين بالديون في القضيّة الراهنة. ولولا أملها في أنْ تجعلنا مسؤولين عن الحرب من الناحية الماليّة، بالإضافة إلى الناحية العسكريّة، أعتقد لتفاوضَتْ إنكلترا على السلام في إنكلترا قبل أشهر عديدة، وتخرج بحالٍ أفضل جرّاء ذلك.

لقد كرّسَتْ إنكلترا، وسوف تستمرّ في تكريس كل جهد لتدفعنا إلى الحرب. نحن نعلم أنها أنفقتْ مبالغ ضخمة من المال في هذا البلد خلال الحرب الأخيرة لكي تورّطنا في الحرب. وقد ألَّفَ الإنكليز كُتُباً عن براعة فائدة هذه الطريقة.

نحنُ نعلم أنَّ إنكلترا تُنفقُ مبالغ ضخمة من المال من أجل الدعاية السياسيّة في أميركا خلال الحرب الحاليّة. ولو أننا كنا إنكليزاً، لفعلنا الأمر نفسه. لكنَّ مصلحتنا تكمن أولاً في أميركا؛ وبوصفنا أميركيين، من الضروري لنا أنْ نُدرِكَ الجهود التي يبذلها البريطانيون لجرّنا إلى الحرب.

المجموعة الكبرى الثانية التي ذكرتها هي اليهود.

من الصعب فهم السبب في رغبة اليهود في قلب النظام النازي في ألمانيا. إنَّ الاضطهاد الذي عانوا منه في ألمانيا كافٍ لجعل أي عِرق عدواً لها.

لا يمكن لأي شخص لديه حس بالكرامة البشريّة أنْ يتغاضى عن اضطهاد العِرق اليهوديّ في ألمانيا. لا أحد لديه إحساس بالشرف وبُعد

النظر يمكن أنْ ينظر إلى سياستهم المؤيِّدة للحرب هنا اليوم من دون أنْ يُدركَ الأخطار التي تنطوي عليها مثل تلك السياسة، علينا وعليهم. وبدل أنْ تُحرِّض الجماعات اليهوديّة في هذا البلد على الحرب عليها أنْ تناهضها بكل السُبُل الممكنة لأنها سوف تكون أول مَنْ يُعاني من نتائجها.

إنَّ التسامُح فضيلة تعتمد على السلام والقوة. ويُبيِّن التاريخ أنَّ التسامُح لا يستطيع أنْ ينجو من الحرب ومن الدمار. وبعض اليهود البعيدي النظر يُدركون هذا ويُعارضون سياسة التدخُّل. لكنَّ الغالبيّة العُظمى ما زالت لا تعارِضها.

إنَّ هذا الخطر الأكبر في هذا البلد يكمن في ضخامة أملاكهم ونفوذهم على أفلامنا السينمائيّة، وصحافتنا، وإذاعتنا وعلى حكومتنا.

أنا لا أُهاجم اليهود أو الشعب البريطانيّ. إنني مُعجَبٌ بكليهما. لكنني أقول إنَّ زعماء البريطانيين واليهود معاً يرغبون، لأسبابٍ مفهومة من وِجهة نظرنا ونراها غير مُستحبّة، لأسبابٍ ليستْ ذات طبيعةٍ أميركيّة، يرغبون في توريطنا في الحرب.

لا يمكننا أنْ نلومهم على مُراعاة ما يعتقدون أنّها مصلحتهم، ولكنْ علينا نحن أيضاً أنْ نرعى مصالحنا. لا يمكننا أنْ نسمح لعواطف الآخرين الطبيعيّة وتحاملاتهم أنْ تقود بلدنا إلى الدمار.

إنَّ إدارة روزفلت هي المجموعة القوية الثالثة التي كانت تدفع بلدنا نحو الحرب. وقد استغلَّ أعضاؤها ظروف الحرب الطارئة للحصول على فترة رئاسيّة ثالثة للمرة الأولى في التاريخ الأميركيّ. لقد استغلّوا الحرب لإضافة مليارات الدولارات إلى دَين هو في الأصل أعلى ما عرفنا. وقد استغلّوا الحرب أصلاً لتبرير تقييد سلطة الكونغرس، وافتراض أنَّ الرئيس وأعوانه يمارسون تدابير استبداديّة.

إنَّ سلطة إدارة روزفلت تقوم على الحِفاظ على حالة طوارئ الحرب. وهيبة إدارة روزفلت تعتمد على نجاح بريطانيا العُظمى التي ربط الرئيس

مستقبله السياسي بها في وقتٍ ظنَّ فيه معظم الناس أنَّ إنكلترا وفرنسا سوف تربحان الحرب بكل سهولة. وخطر إدارة روزفلت يكمنُ في خِداعها. فبينما وعدَنا أعضاؤها بالسلام، فإنهم قادونا إلى حربٍ غافلةٍ عن البرنامج الذي انتُخِبوا على أساسه.

إنني بانتقائي هذه المجموعات الثلاث الأساسيّة المُحرِّضة على الحرب، لم أُضمِّن إلّا التي كان دعمها أساسيّاً لحزب الحرب. ولو أنَّ أياً منها - البريطانيّة أم اليهوديّة أم الإدارة - يتوقف عن التحريض على الحرب، أعتقد لن يتبقّى أي خطر من تورّطنا فيها.

لا أعتقد أنَّ أي اثنتين منها قويتان بما يكفي لتقودا هذا البلد إلى الحرب من دون عون الثالثة. وبالنسبة إلى هذه الثلاث، كما سبقَ أنْ قلت، ليست للمجموعات الأخرى إلّا أهميّة ثانوية.

عندما بدأت العداوات في أوروبا، في عام 1939، أدركتْ هذه المجموعات أنّه يمكن لهذا البلد أنْ يدخل الحرب كما كان قد دخلها في الحرب الأخيرة.

وخطّطوا: أولاً، إعداد الولايات المتحدة من أجل الاشتراك في حربٍ أجنبيّة تحت قِناع الدفاع عن أميركا؛ وثانياً، توريطنا في الحرب، خطوة فخطوة، من دون عِلمنا؛ وثالثاً، خلق سلسلة من الحوادث تُجبرنا على ولوج الصراع. وهذه الخُطط، طبعاً، سوف تُغطّيها وتساعدها كامل طاقة دعاياتها السياسيّة.

سرعان ما أضحت مسارحنا ممتلئة بمسرحيات تمجِّد الحرب ونشرات الأخبار فقدتْ كل أثر للموضوعيّة. والصُحُف والمجلات بدأتْ تخسر الإعلانات التجاريّة إذا ما نشرتْ مقالات مُناوئة للحرب. وبدأ التلميح إلى إطلاق حملة لتشويه سمعة أفراد يُعارضون سياسة التدخُّل. وأخذت ألقاب مثل «طابور خامس»، «خائن»، «نازيّ»، «مُعادٍ للساميّة» تُطلَق جُزافاً على أي شخص يتجرّأ على التلميح إلى أنَّ التورط في الحرب ليس في مصلحة الولايات المتّحدة. وبدأ الرجال يفقدون

وظائفهم إذا كانوا صريحين في معارضتهم الحرب. وعديدون آخرون لم يعودوا يجرؤون على الكلام.

وسرعان ما أُغلِقَتْ أبواب قاعات المُحاضرات المفتوحة للداعمين للحرب في وجه المُعارضين لها. وشُنَّتْ حملة من التخويف. وقيلَ لنا إنَّ الطيران الحربيّ، الذي كان قد أبعدَ الأسطول البريطاني عن القارّة الأوروبيّة، جعل أميركا أشدّ عُرضة من ذي قبل للغزو. وبلغَت الدعاية السياسيّة في ذروتها.

ليست هناك أيّة صعوبة في الحصول على مليارات الدولارات لشراء الأسلحة تحت قناع الدفاع عن أميركا. إنَّ شعبنا مُتّحد فيما يخصّ برنامج الدفاع. والكونغرس يمرِّر مُخصّصات مالية واحداً إثر آخر لشراء الأسلحة والطائرات والبوارج الحربيّة، وبموافقة الغالبية الساحقة من مواطنينا، والجزء الأكبر من تلك المُخصّصات كانت من أجل تسليح أوروبا، وهذا ما لم نعلمه إلّا لاحقاً. تلك كانت خطوة أخرى.

سوف أُعطي مِثالاً متعيّناً: في عام 1939، قيل لنا إنَّ علينا أنْ نزيد سلاحنا الجويّ إلى عدد إجمالي يبلغ خمسة آلاف طائرة. وأصدر الكونغرس التشريع اللازم لذلك. وبعد بضعة أشهر، أخبرتنا الإدارة أنَّ على الولايات المتحدة أنْ تحصل على الأقلّ على خمسين ألف طائرة من أجل ضمان أمننا الوطني. وبالسرعة نفسها التي كانت الطائرات الحربيّة تخرج من مصانعنا، كانت تُرسَل إلى الخارج، على الرغم من أنَّ سلاحنا الجويّ كان في أمسّ الحاجة إلى إنتاج جديد؛ وهكذا في ذلك اليوم، بعد بداية الحرب بعامَين، حصل الجيش الأميركيّ على بضع مئات من الطائرات القاذفة والمُقاتلة والحديثة جداً - وهذا في الحقيقة أقلّ مما في مقدرة ألمانيا على إنتاجه في شهرٍ واحد.

منذ أنْ بدأ تنفيذ برنامج أسلحتنا كان بهدف تصعيد الحرب في أوروبا، وليس بهدف بناء دفاع كافٍ لحماية أميركا.

والآن في الوقت نفسه الذي يُعدّوننا لخوض حربٍ أجنبيّة، بات

ضروريّاً، كما قلت، توريطنا في الحرب. وقد أُنجِزَ هذا تحت شِعار تلك العبارة الشهيرة «أصبحنا على بُعد خطوات قليلة من الحرب».

سوف تربح إنكلترا وفرنسا الحرب إذا سحبت الولايات المتحدة شحنة أسلحتها وباعت الذخائر نقداً، كما قيل لنا. ثم بدأ التراجُع، تراجُع ميَّزَ كل خطوة خطوناها في اتجاه الحرب على مدى أشهر عِدّة – وقيل لنا، «إنَّ أفضل طريقة للدفاع عن أميركا والنأي بأنفسنا عن الحرب هي بمُساعدة الحلفاء».

أولاً، وافقنا على بيع الأسلحة لأوروبا؛ ثم، وافقنا على إقراض الأسلحة لأوروبا؛ ثم وافقنا على إرسال دوريات إلى المحيط من أجل أوروبا؛ ثم احتللنا جزيرة أوروبيّة تقع في منطقة الحرب، ووصلنا إلى حافّة الاشتراك في الحرب.

لقد نجحتْ أطراف الحرب في الخطوتين الأوليين من خطواتها الثلاث الكبرى نحو الحرب. وبدأ أضخم برنامج تسليح في التاريخ.

وأصبحنا متورطين في الحرب عمليّا من كل وجهة نظر ما عدا إطلاق النار الفعليّ. ولم يتبقَّ غير افتعال «حوادث» كافية؛ وكما ترون وقع أوّلها فعلاً، وفقاً للخطّة – خطّة لم تُطرَح أمام الشعب الأميركي لنيل موافقته.

يا رجال ونساء إيوا: هناك شيء واحد فقط يمنع البلد من دخول الحرب اليوم، وهو ازدياد مُعارضة الشعب الأميركيّ. إنَّ نظامنا الديمقراطيّ وحكومتنا النيابيّة يتعرَّضان للاختبار اليوم كما لم يتعرَّضا من قبل. إننا على شفا حرب سيكون المُنتصِر الوحيد فيها هو الفوضى والانهيار.

إننا على حافة حرب لم نستعدّ لها بعد، ولم يتقدَّم أحدٌ بخُطّة معقولة للانتصار – حرب لا يمكن ربحها من دون أنْ نُرسِل جنودنا عبر المُحيط للإنزال عُنوة على شاطئ مُعادٍ لمواجهة جيوشٍ أقوى من جيوشنا.

إننا على حافة حرب، ولكنْ لم يفُت الأوان بعد للتراجُع عنها. لم يفُت الأوان لنبيِّن أنّه لا يمكن لأي كمية من المال، أو الدعاية السياسيّة، أو

المُناصَرَة أنْ تُجبِر شعباً حرّاً ومُستقلّاً على دخول حرب رُغماً عنه. لم يفُت الأوان بعد لاستعادة المصير الأميركيّ المُستقلّ الذي أسّسه آباؤنا في هذا العالم الجديد.

إنَّ المُستقبل كله يقوم على أكتافنا، يقوم على فعلنا، على شجاعتنا، وعلى ذكائنا. إذا كنتم تعارضون دخولنا الحرب، فالآن هو الوقت المناسِب لرفع أصواتكم.

ساعدونا على تنظيم هذه اللقاءات؛ واكتبوا إلى ممثليكم في واشنطن. إنني أخبركم أنَّ آخر معاقل الديمقراطيّة والحكومة النيابيّة في هذا البلد هو في مجلسنا النيابيّ وفي مجلس شيوخنا.

هناك، ما زال في استطاعتنا أنْ نبيِّن إرادتنا. وإذا فعلنا نحن الشعب الأميركيّ ذلك، فسوف يبقى الاستقلال والحريّة سائدين بيننا، ولن تقع الحرب.

من كتاب «ليندبرغ» بقلم أ. سكوت بيرغ، 1998:

لقد شعر ليندبرغ بأنّ السلام يمكن أنْ يسود فقط ما دمنا «مُتّحدين للحِفاظ على تلك الملكيّة النفيسة، إرثنا من الدم الأوروبيّ، وما دمنا نقي أنفسنا من هجمات جيوشٍ أجنبيّة ومن الذوبان داخل أعراقٍ أجنبيّة». كان يعتبر الملاحة الجويّة «منحة من الله إلى تلك الأمم الغربيّة التي هي أصلاً قادة هذا العصر... وأداة صيغَتْ خصيصاً لتناسِب الأيدي الغربيّة، وفن عِلميّ لا يبرع الآخرون إلّا في نسخه بطريقة مُبتذلة، وحاجز آخر بين الملايين الحاشدة من الآسيويين وبين إرث أوروبا الإغريقيّ – وهي أحد تلك الممتلكات النفيسة التي تسمح للعرق الأبيض بالعيش وسط بحرٍ شاسع من العرق الأصفر، والأسود، والأسمر».

لقد اعتقدَ ليندبرغ أنَّ الاتحاد السوفييتي أصبح الإمبراطوريّة الأشدّ

شراً على وجه الأرض وأنَّ الحضارة الغربيّة تعتمد على صدّها وصدّ القِوى الآسيويّة التي تقع خلفَ حدودها - أي «المنغول والفُرس والبربر». وكتب يقول إنها تقوم أيضاً على «قوة متّحدة بيننا؛ على قوّة من الضخامة بحيث تعجز الجيوش الأجنبيّة على تحدّيها؛ على جدار من العِرق والسلاح الغربيّ يستطيع أنْ يصدّ أي جنكيز خان أو تسرُّب دماء وضيعة...» (صفحة 394)



المحتويات



إنَّ الخوف يُهيمن على هذه الذكريات، خوف دائم. طبعاً لا تخلو طفولةٌ من فترات رعب، لكنني أتساءل إنْ كنتُ سأصبح أقلّ خوفاً لو أنَّ ليندبرغ لم يكن رئيساً أو لم أكن أنا يهودياً.

عندما وقعَت الصدمة الأولى في حزيران من عام ١٩٤٠ - ترشيح تشارلز أ. ليندبرغ، بطل الطيران الأميركي، من قِبَل المؤتمر الجمهوري الذي عُقِدَ في فيلادلفيا، لرئاسة الجمهورية - كان والدي في التاسعة والثلاثين، يعمل ممثّلاً لشركة تأمين وحاصلاً على الشهادة الابتدائية، ويكسب أقلّ من خمسين دولاراً بقليل في الأسبوع، وهو مبلغ كافٍ لتسديد الفواتير الأساسية في موعدها ويزيد قليلاً. وأمي - التي كانت تود أنْ تلتحق بمعهد المعلمين ولكنها لم تتمكن من ذلك بسبب التكاليف، ولزمت المنزل وعملتْ سكرتيرة مكتب بعد إنهاء المرحلة الثانوية، وأبعَدَت عنا الشعور بأنّنا فقراء خلال أشد مراحل فترة الكساد الاقتصادي سوءاً بوضع ميزانية لِما كان والدي يكسبه ويُحضره إليها في كل يوم جمعة بكفاءة عالية لا تقل عن كفاءتها كمدبّرة منزل - كانت في السادسة والثلاثين. أخي، ساندي، في الصف السابع وصاحب موهبة خارقة في الرسم، كان في الثانية عشرة، وأنا، في الصف الثالث ومتقدم بمقدار فصل - وجامع طوابع مُبتدئ أَلهَمَه كما كان حال ملايين الأطفال رائدُ جمع الطوابع في البلد كله الرئيس روزفلت - كنتُ في السابعة.

كنا نعيش في شقّة في الطابق الثاني من مبنى عائلي صغير مؤلّف من طابقَين ونصف الطابق في شارع تصطفُّ على طوله الأشجار ومؤلّف من منازل خشبيّة الواجهات وأسطح مائلة من القرميد، وتعلو سطح كلٍ منها قُبّة وأمامه فناء صغير جداً مُحاط بسياج من الشجيرات المنخفضة. كان القِطاع اليهودي قد بُنِيَ على أرضِ مزرعة عند الطرف الجنوبي الغربي غير المتطور من نيوارك بُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، سُميَ عددٌ من الشوارع، بفخامة، بأسماء قادة ظافرين في سلاح البحرية في الحرب الأسبانية-الأميركية وسُميَتْ دار السينما المحلية، على اسم نسيب بعيد لفرانكلين ديلانو روزفلت - ورئيس البلاد السادس والعشرين - سينما روزفلت. وشارعنا، جادّة سميتْ، الذي يتبوّأ قمة تل مُجاور، مُرتَفَع لا يختلف في علوّه عن أي تل في مدينة مرفأ نادراً ما يزيد ارتفاعه على مئة قدم عن سطح المستنقع المالح الناتج عن حركة المدّ والجزر في الجانب الشمالي الشرقي من المدينة والخليج العميق الذي يقع إلى الشرق من المطارِ الذي ينعطف حول حاويات النفط في شبه جزيرة بايون ويمتزج هناك مع خليج نيويورك ليتدفّق ماراً بتمثال الحرية، ثم يغوص في الأطلسي.

